

المدارسُ الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ

دراسةٌ منهجيّة في المصادرِ والاتّجاهات

مجموعة مؤلّفين

تعريب: عبد الحسن بهبهاني بور


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع يمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
mcamenquraish.blogspot.com

المؤلفون:
محمد تقي إسلامي
محمد عالم زادة نوري
مهدي أحمد بور
مهدي علي زادة

تعريب:
عبد الحسن بهبهاني بور
مراجعة:
فاضل السعدي

تحرير:
شكري أبو غزالة
وفريق مركز الحضارة

المدارس الأخلاقيّة

في الفكر الإسلاميّ

المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ

دراسة منهجيّة حديثة في المصادر والاتجاهات

مجموعة مؤلفين

تعريب

عبد الحسن بهبهاني بور (النجفي)



المؤلف: مجموعة مؤلفين
الكتـاب: المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ
تعـريب: عبد الحسن بهبهاني بور (النجفي)
المراجعة والتقويم: فريق مركز الحضارة ـ فاضل السعدي ـ شكري أبو عزالة
تصميم الغـــلاف: حسين موسى
الإخراج والصفّ: هوساك كومبيوتر برس

الطبعة الأولى: بيروت، 2012
ISBN: 978-614-427-015-8

Bibliography Of Islamic Ethics:
An Analytical Account The Heritage Of Islamic Ethical schools

«الآراء الواردة، في هذا الكتاب، لا تعبّر بالضرورة
عن آراء مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي واتّجاهاته»



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

Center of civilization
for the development of Islamic thought

بيروت ـ بئر حسن ـ بولفار الأسد ـ خلف فانتزي وُرد ـ بناية ماميا ـ ط5
تلفاكس: 826233 (9611) ـ 820378 (9611) ـ ص.ب: 55/ 25
info@hadaraweb.com
www. hadaraweb.com

المحتويات

الفصل الثاني : مدرسة الأخلاق الفلسفيّة

الفصل الثالث : مدرسة الأخلاق العرفانية

الفصل الخامس: مدرسة الأخلاق التوفيقيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر:

لا يخفى على من له أدنى إلمام بالإسلام والفكر الإسلاميّ، أهمية السؤال الأخلاقيّ في الإسلام. وقد اشتهر على ألسنة العامّة والخاصّة بين المسلمين حديث الرسول (ص) عن بعثه لتتميم مكارم الأخلاق. وقد قدّم القرآن الكريم النبيّ (ص) نموذجاً وقدوة صالحة للتأسّي في مجال الأخلاق؛ إذ وصِف النبيّ الخاتم (ص) بعظمة أخلاقه في محلٍّ، وبكونه أسوةً حسنة في محلٍّ آخر. وفد تركت هذه الرؤية وهاتيك الأوصاف أثرها على الفكر الإسلامي وطرِح السؤال الأخلاقيّ مبكّرا في التراث الإسلامي وافتتح المسلمون حقلا بحثيًّا علميًّا أسمَوه علم الأخلاق، ووصِف هذا العلم بأنّه أشرف العلوم وأجلّها بين أسرة العلوم التي عرفها التاريخ الفكري والثقافي الإسلامي.

وعلى هذا الأساس، وإيماناً منّا بأنّ السؤال الأخلاقيّ وعلى الرغم من عدم توقّفه في حلقات الحبث العلميّ ودوائره، إلا أنّ ظهور أسئلة

جديدة في هذا العلم يدعو إلى استئناف البحث والإطلالة على هذا العلم من زوايا عدّة، ربّما لم تتمّ الإطلالة منها من قبل. ودواعي هذا الاستئناف كثيرة في هذا العصر. ولكنّ استئناف السؤال وإعادة طرحه لا تتمّان إلا بالبناء على الثوابت والانطلاق منها إلى الأمام. ومن أهمّ الأسس وأفضلها تراثنا الأخلاقيّ سواء في مصادره النصوصيّة كالقرآن والسنّة، أم في الكتب التي ظهرت على ضفافها. وما يسعى هذا الكتاب إليه هو التعريف بالتراث الأخلاقيّ الإسلاميّ، من خلال تصنيف مدارسه، والتعريف بإنجازات كلّ واحدةٍ من هذه المدارس، ونقدها، وتقويمها، لاكتشاف ما لها وما عليها.

وممّا يمتاز به هذا العمل أنّ الباحثين الذين أنجزوه حاولوا التزام جانب الحياد والاكتفاء بالوصف دون الانتصار لمدرسةٍ بعينها أو إنجاز من إنجازاتها. ولأجل هذا الميزة وغيرها من الدواعي المشار إليها أعلاه رأينا نشر هذا الكتاب بالتعاون مع المؤسسة التي أنجزته. ونأمل أن يكون في ما نقدِم عليه ونقدّمه إلى القرّاء الأعزّاء فائدة وجديداً يضاف إلى المكتبة العربيّة الإسلاميّة.

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
أكاديمية العلوم والثقافة الإسلامية
بيروت، 2012

تمهيد

لا تتحرّك العلوم الإسلاميّة في مسيرة التطوّر والرقيّ إلّا باعتمادها على الموروث العلميّ، واستنادها إلى القواعد العلميّة الرصينة، وتطلُّعها إلى الآفاق التي لم تُسبر بعدُ. ولا شكّ في أنّ فصل أيّ علمٍ من العلوم في دائرة العلوم الإنسانيّة والدينيّة، عمداً كان أو سهواً، عن خلفيّته التاريخيّة ومساراته الثقافيّة، بدواعي التجديد والتقدّم إلى الأمام، يعني الحرمان من القابليّات والمؤهّلات الكبيرة لتلك المرتكزات والقدرات العلميّة.

وللأسف، فإن المتابع للمشهد الثقافي والفكريّ، لا سيما الديني الراهف، يجد نفسه بين اتجاهين لا يقلّ أحدهما خطورة عن الآخر: اتجاه يتمسّك بتراث السلف الصالح بحذافيره، وآخر قد ارتمى بكامله في أحضان الحداثة، وراح يدور في مسارب العصر من دون أن يكلّف نفسه عناء النظر إلى التراث.

الاتجاه الأول يرى أنّ العلم كلّ العلم لدى السلف، متوهّماً أنّ شرط العلم والمعرفة هو الوقوف بأكبر قدرٍ ممكنٍ على الدقائق والطرائق العلميّة لكلمات القدماء، ذاهباً إلى أنّ التجديد من البدع العلمية. في

المقابل، يرى أصحاب الاتجاه الآخر أنّ الاهتمام بالماضي العلميّ وآراء الأوائل والمؤسّسين للعلوم هو من الرجعية، ظانّين أنّ الحقيقة تكمن في التجديد وطرح الآراء الحديثة المبتكرة.

ومن الجليّ أنّ كلتا الرؤيتين الآنفتين تدخلان في سياق الإفراط والتفريط. وفي الحقيقة، فإنّ كلاًّ من هذين التوجّهين البعيدين عن المنطق مَرَدُّه إلى أخلاقٍ علميةٍ سقيمةٍ: فمن يأخذ بالتراث ويتوقّف عنده غير آبه بكلّ جديد، أحسبه مُبتلى بالقصور الفكريّ وعقدة الحقارة، ومن يحاول إلغاء التراث، تجده يعاني من الخيلاء والغرور العلميّ.

ويجدر القول هنا، إنّ العقلانية والبرمجة الصحيحة للعلوم، تكمنان في عدم حرمان مسيرة البحث العلميّ من أيّ عاملٍ من شأنه تعزيز ونشر تلك العلوم. لذا، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ثلاث مراحل أساس في الإضبارة العلميّة لكلّ مسألةٍ من المسائل، بل على المستوى العام للعلم أيضاً، وهي: إعادة التعريف، إعادة النظر، إعادة البناء.

في المرحلة الأولى، يتمّ تناول التراث العلميّ المأثور عن العلماء السابقين بهدف الوقوف على مراميه والتعرف عليه؛ وفي المرحلة الثانية، ينصبّ الاهتمام على دراسة وتحليل مناهج البحث والمعطيات العلميّة لهؤلاء العلماء، وإبراز نقاط القوة والضعف فيها؛ وفي المرحلة الثالثة، ومن خلال اعتماد النتائج المتوصَّل إليها والتركيز على نقاط القوة والآثار والآراء السالفة، تُمارَس محاولة رفع الإشكاليّات، وتقوية نقاط الضعف، وملء الفراغ العلميّ الحاصل.

ولا شكّ في أنّه مضى زمنٌ طويلٌ على عدم الاكتراث بعلم الأخلاق وقلّة الاهتمام به، ما أدّى إلى تخلّفٍ علميٍّ في هذا الحقل المعرفي، لذا، بات من الضروري جدّاً الاهتمام الجادّ وإبداء اهتمام خاصٍّ

بالمباحث الأخلاقيّة، وهذا ما لم يعد خافياً على المتصدِّين للثقافة والقائمين على أمر الدراسات العلميّة.

وعليه، فالخطوة الأولى التي تقف في قمة سلّم الأولويّات تتمثّل بلزوم تقديم خدماتٍ علميةٍ أوليّة إلى الباحثين في المجال الأخلاقيّ؛ كي تسهل عمليّة التواصل في الرفد العلميّ وحركة الإبداع والتأصيل لميادين معرفيّة جديدة، وتتسارع وتيرتها وتتّسم بالدقّة والانضباط.

ومن الخدمات العلميّة اللاّزمة، التعريف بالكتب والمصادر العلميّة، الأمر الذي يُعين الباحثين على سرعة الوصول إلى المصادر المنشودة، ويطلعهم على تاريخ وسعة دائرة النتاجات العلميّة وآراء العلماء في ذلك الحقل المعرفي؛ ولا يخفى أنّه كُلما كانت تلك الكتب الحاوية على قوائم بأسماء المصادر أكثر بسطاً ومراعاةً للأمور الفنيّة، كانت أكثر نفعاً للباحثين.

واليوم، ونحن نجد أنفسنا على أعتاب نهضةٍ علميّةٍ على الصعيد الأخلاقي، حريٌّ بنا التواصل مع علم الأخلاق في تراثنا الإسلامي وفقاً للنظام المنطقيّ للمراحل الثلاث المذكورة؛ فنعمد في الخطوة الأولى إلى معرفة التراث الأخلاقيّ الإسلاميّ، ثم إعادة النظر فيه، ومن ثم محاولة إعادة بنائه.

ولتحقيق هذا الهدف يأتي كتاب «المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلامي» الذي يعدّ كتاباً توصيفيّاً ـ تحليليّاً، بل وانتقاديّاً إلى حدٍّ ما. وقد حاز جائزة «أفضل الكتب» في مهرجان «الدين والعقل»، وكان محطّ اهتمامٍ من قبل معظم العلماء والباحثين في المراكز العلميّة المختلفة، وهو حصيلة جهود ثلّةٍ من أعضاء لجنة الأخلاق والتربية في أكاديميّة العلوم والثقافة الإسلاميّة. وهذه اللجنة تضمّ أكثر من فريقٍ ناشطٍ في

مجالاتٍ عدّة، منها: الأخلاق المعيارية، والأخلاق العملية والمهنية، والتربية الأخلاقيّة، وسكيولوجيا الأخلاق، مضافاً إلى فرعٍ لإعداد الباحثين؛ مع تأكيدها على منحى الأخلاق الاستدلاليّة والاجتهادية. وقد تشكّلت هذه اللجنة عام 2003م تحت عنوان «النواة العلميّة للأخلاق الإسلاميّة» بهدف النهوض بالمستوى النوعيّ للدراسات الأخلاقيّة عن طريق إعطاء الأولويّة للبحوث الجماعية، على أساس تدوين استراتيجيّةٍ للبحث والتحقيق، وإعداد خطّةٍ شاملةٍ للدراسات الإسلاميّة، والأخلاقيّة، والتربويّة.

ولا يفوتني التنويه بأنّ نشوء وتطوّر هذه اللجنة، قد تمّا بمساعدة الإرشادات والجهود الحانية لرئيس أكاديميّة العلوم والثقافة الإسلامية السابق، سماحة الدكتور الشيخ محمد تقي السبحاني؛ ما يستدعي تقديم وافر الشكر لسماحته بالنيابة عن جميع أعضاء اللّجنة المذكورة. كما يعرب المؤلّفون عن شكرهم وتثمينهم لسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ أحمد المبلغي الرئيس الحالي للأكاديميّة، ولجهود جميع العلماء الذين طالعوا الكتاب وأتحفونا بتوجيهاتهم القيّمة لإثراء محتواه وإتقانه، ولكلّ الزملاء المحترمين في أكاديميّة العلوم والثقافة الإسلاميّة الذين بذلوا قصارى جهدهم في مختلف مراحل إعداده وطبعه، وأخصُّ بالذكر الشيخ محمد تقي محمديان مدير قسم الترجمة في المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة، متمنّين للجميع مزيداً من التوفيق والنجاح.

مهدي علي زادة

مدير مركز الأخلاق والتربية

المقدِّمـة

ضرورة الاهتمام بالفكر الأخلاقيّ الإسلاميّ

تشغل التعاليم الأخلاقيّة حيّزاً كبيراً من النصوص الدينيّة والكتب السماويّة، وقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من الخطابات التي تحثُّ البشريّة جمعاء على الالتزام بالأخلاق الحميدة، وتهذيب النفس، والأخذ بالقِيَم الإنسانيّة السامية، بما يكشف عن الأهمّية البالغة والمكانة العظيمة للأخلاق في المنظور الإسلامي، باعتبارها أحد أهمّ مقاصده وأهدافه.

ففي سورة الشمس، عندما يتعرّض القرآن الكريم لبيان أهميّة التربية والإعداد الأخلاقي، يبتدئ بالقَسَم إحدى عشرة مرّة، وهو ما لم نجد له نظيراً في أيّ سورة أخرى. أضف إلى ذلك أنّه، في مقام بيانه للهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب، قدّم التزكية على تعليم الكتاب في أكثر من آية.

كما إنّ الحديث النبويّ المشهور: «إنّما بُعثتُ لأتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاق» يكشف عن الاهتمام الأخلاقي العميق للدين الإسلامي الخاتم.

إلى ذلك، نلاحظ أنّ التجارب التاريخيّة التي خاضتها البشريّة، على مرّ التاريخ، توكّد بدورها على أنّ كلّ مجتمع إنساني نأى عن الأخلاق وفرّط في الذَبّ والدفاع عن البُنية الأخلاقية، سواء على الصعيد النظريّ أم على الصعيد العمليّ، فسيتكبّد خسائر فادحة، وسيشهد إنسانيّة عظيمة، وسرعان ما سيؤول أمره إلى الانحطاط والسقوط.

وممّا لا شكّ فيه، أنّ البحث والتنقيب في أُسس علم الأخلاق، وموجباته، ومصادره، ومنظومته المفاهيميّة، وقضاياه، ومناهجه، ومقاصده، ومَدَياته أو قُل مجالاته وتبويباته، يُعدّ الخطوة الأساس الأولى من أجل تأسيس نظام أخلاقيّ منسجم، وجامع ومنقّح، وغير مبهم، وبالتالي فاعل.

وفي عصر المتغيّرات السريعة التي تطاول المجتمعات، وفي عصر التعقيدات المطَّردة في شبكة العلاقات الاجتماعيّة، من الصعوبة بمكان تحديد السلوكيّات متعدّدةِ الأبعاد وتصنيفها ضمن السلوكيّات القويمة أو غير القويمة، من دون الاحتكام إلى مثل هذا النظام.

ومن جهة أخرى، فإنّ الإنسان كائن يعتمد في كثير من مواقفه، على أساس رؤية تقييميّة للأمور. وطبيعيّ أن يتمّ تعريفها وتحديدها ضمن نظام فكريّ وبموازين ومعايير أخلاقيّة. وواضح أنّ الدور الفاعل والمصيريّ للموازين الأخلاقيّة في تحديد الاتّجاهات العامّة للسلوكيّات الإنسانيّة، قد حمل الإنسان على القيام بعمليّات التهذيب، والحفر، والتنقيب، وقراءة المفاهيم الأخلاقيّة، وكذلك إعادة النظر في الموازين الأخلاقيّة وفي التصوّرات المعرفيّة العامّة حول الإنسان.

وفي مجال العلاقة بين الدين والأخلاق، فإنّنا نواجه هذه الحقيقة

شئنا أم أبينا. وهي أنّ الإتقان في النظام الأخلاقي، لأيّ دين من الأديان، يشكّل أحد معايير الصدقيّة والأفضليّة في الدراسات المقارنة بين الأديان. كما إنّ الطرح المدعوم بالدليل والبرهان للنظام الأخلاقي، لأيٍّ من الأديان، يساهم إلى حدٍّ كبير في إنجاح الجهود التي يبذلها المعنيّون بأمر الدين، في مجال التربية الدينيّة ورسم مسار المتديّنين في المجتمع الديني.

والحقيقة هي أنّ نصيب موروثنا من البحوث النظريّة، في مجال الأخلاق الإسلاميّة، أقلّ بكثير ممّا ورثناه في مجال الفقه، والتفسير، والحديث، والكلام، وحتى الفلسفة. ونقولها ببالغ الأسف؛ إنّ الوضع الحاضر أشدّ بكثير من أيّ وقتٍ مضى علماً أنّ العالم المعاصر يتعطّش إلى الخطاب المعنوي للإسلام.

وبناءً على ما سبق، ثمة ضرورة ماسّة للبدء بحركة جادّة محسوبة ومخطط لها بدقة، يردفها عزم عامّ في تعميق الدراسات المتخصّصة بالأخلاق والتربية الإسلاميّة وتطويرها. ولا شكّ في أنّ مثل هذه الحركة بحاجة إلى وضع خطّة عملٍ مقبولة وبرمجة بحثيّة مناسبة. وواضح أنّ القيام بمثل هذه الحركة الخطيرة والخطوة الكبيرة، يتطلّب أولاً وقبل كلّ شيء، التعرّف على تراث المفكّرين المسلمين في مجال الأخلاق، والإحاطة الكافية بنتاجاتهم الفكريّة وبمناهج البحث ومصادره.

والكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ هو خطوة متواضعة في التعريف بالمدارس الأخلاقيّة الأربع ودراسة أهمّ مصادرها. وسنوافيك بالتعريف بهذه المدارس ومعالمها بالتفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب.

عشر ملاحظات حول الكتاب

قبل الشروع في قراءة هذا الكتاب تجدر الإشارة إلى النقاط الآتية:

1 ـ يقع الكتاب في خمسة فصول:

الفصل الأول: يُعنى بالتعريف بالمدارس الفلسفيّة والعرفانيّة والأثريّة والتوفيقيّة (التركيبيّة) في مجال الأخلاق، والمقارنة بينها، وبيان خصائص ومميّزات كلّ واحدة منها.

الفصل الثاني: يختصّ بالتعريف بأبرز ما صنّفه الاتّجاه الفلسفي في دراسة الأخلاق بشكل تفصيليّ وضمن ثمانية محاور عنوانيّة. وفي الخاتمة أوردنا قائمة بعدد من المؤلّفات التي أنتجتها هذه المدرسة.

الفصل الثالث: يتضمّن تعريفاً بأهمّ ما دوّنته مدرسة الأخلاق العرفانيّة، ضمن أحد عشر محوراً عنوانيّاً. وفي خاتمة الفصل أوردنا قائمة أخرى بالمؤلّفات التي تُعنى بالأخلاق العرفانيّة. إلى جانب ذلك يتضّمن الفصل بحثاً خاصاً بعنوان «أخلاق الفتوّة»، يحتوي على دراسة للخلفيّة التاريخيّة والاجتماعيّة، الأُسس والمرتكزات، التعاليم، الآداب، وأخيراً الآثار والبصمات التي خلّفها هذا الاتجاه.

كما أوردنا تعريفاً مفصّلاً بواحدٍ من المولّفات المدْرَجَة ضمن هذا الاتّجاه.

الفصل الرابع: يسعى هذا الفصل إلى التعريف بتراث مدرسة الأخلاق الأثريّة ومصادرها، إذ قمنا بقراءة فصول لمؤلَّفين من مصادر مدرسة أهل البيت، وفصولٍ لكتابين من مصادر مدرسة أهل السنّة والخلافة. ومن ثمّ أوردنا استعراضاً سريعاً لأحد عشر كتاباً من كتب

مدرسة أهل البيت، وأحد عشر كتاباً من مدرسة أهل السنّة والخلافة. وقد ألحقنا بهذا الفصل بحثاً خاصّاً حول «اتّجاه الدعاء والمناجاة». وفي خاتمة الفصل أوردنا قائمة بكتب الآداب الإسلامية، وقائمة بالشروح، وقائمة بمصادر الأخلاق الأثريّة.

والمقصود بالشروح؛ الكتب التي تُعنى بشرح وتفسير الأحاديث الأخلاقيّة وبيان مضمون النصوص الروائيّة، وتحليل البحوث الأخلاقيّة المتعلّقة بها. وأمّا كتب الآداب الإسلاميّة؛ فالمقصود بها الكتب التي تطرح نماذج وأنماطاً وقوالب سلوكيّة خاصّة وردت في السنّة الإسلامية. وتوضح ما هي الآداب التي ينبغي مراعاتها عند الأكل والنوم، وفي السفر، وحين البيع والشراء، وغير ذلك من الأمور التي تساهم في نشر وتقوية الفضائل الأخلاقيّة وتعين الإنسان المؤمن على الوصول إلى الحياة الطيّبة.

الفصل الخامس: يُعنى بالتعريف بأهمّ كتب ومؤلّفات المدرسة التوفيقيّة في الأخلاق الإسلاميّة، وفي هذا المجال تمّ استعراض سبعة كتب بشكل تفصيليّ وكتابين بشكل إجمالي. وأوردت قائمة بعدد من الكتب المختصّة بهذه المدرسة في آخر الفصل.

وفي خاتمة الكتاب، أوردنا قائمة تتضمّن كتباً أخلاقيّة تُعنى بقسمين من أقسام الأخلاق العمليّة حظيا باهتمام خاصّ من قبل المؤلِّفين الذين ألّفوا في موضوعات أخلاقيّة خاصّة. وهما: أخلاق العلم والتعلّم، وأخلاق السلاطين والحكّام.

2 ـ مضافاً إلى الكتب التي قمنا باستعراضها بنحو تفصيلي أو إجماليّ، وقوائم الكتب التي أوردناها بعد الحديث عن كلّ مدرسة، ثمّة

عناوين لكتب أخلاقيّة أخرى يمكن العثور عليها في موضعين من هذا الكتاب:

الموضع الأول: تحت عنوان «نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته»، أشرنا فيه إلى سائر الكتب الأخلاقيّة للمؤلّف المشار إليه، مضافاً إلى الكتاب الذي يتمّ استعراضه بشكل تفصيليّ.

الموضع الثاني: تحت عنوان «أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب»، أوردنا فيه عناوين جميع الكتب التي لها علاقة بالكتاب الذي جرى التعريف به واستعراضه.

3 ـ مجال التعريف الذي يتّسع له هذا المعجم، يشمل الكتب التي أُلِّفت في علم الأخلاق، والتي تُعنى بدراسة السلوكيّات السّيئة والحميدة والفضائل والرذائل الروحيّة، والأساليب التي يمكن من خلالها التحلّي بالفضائل، وكذلك الأساليب التي تعين المرء على دفع الرذائل والتورّع عنها. وعليه لم يتّسع عملنا ليشمل الكتب المتعلّقة بالفروع الجديدة لعلم الأخلاق، من قبيل فلسفة الأخلاق، والأخلاق العمليّة، والأخلاق المهنيّة، أو الحرفيّة. وهنا لا بدّ من التنويه بأنّه في الماضي لم يكن يوجد تفكيك واضح بين دوائر هذه الفروع البحثية. وعليه، فإنّ الكتب التي تعرّضنا لها، سواء على مستوى التعريف والاستعراض أم على مستوى الإشارة، لا تخلو عن بعض هذه البحوث.

تتوافر المصنّفات الأخلاقيّة، التي قمنا بتعريفها بنحو تفصيلي، على بنية علميّة وطرح موضوعي جيّد. وعليه، فالكتب التي لم تشتمل على طرح علمي وانسجام منطقي، لم نتعرض لها بالتفصيل، وإنما اكتفينا بذكر قائمة بعناوينها؛ وذلك من قبيل كتب الآداب، والمواعظ،

والكلمات الحكميّة، والوصايا التربويّة والعرفانية، أو الرسائل العمليّة السلوكيّة والأخلاقيّة والتي يغلب عليها المنهج الخطابي. وعادة ما يقصد من خلالها بعث القارىء وتحفيزه باتّجاه الالتزام العملي بتلك الآداب، والانصياع لتلك المواعظ. وقد أوردنا قائمة بهذه المصنّفات مع أسماء مؤلّفيها في خاتمة الكتاب.

وإلى جانب المعيارين المتقدّمين، في اختيارنا للكتب في هذه الدراسة، ثمّة معيار آخر وهو «أهمّية الكتاب»، ويأتي في المرتبة اللاحقة، باعتباره المعيار الثالث في هذا المضمار.

والأهميّة المنظورة هنا، يمكن استكشافها وتحديدها من خلال جملة من العناصر، نظير الإتقان العلمي، وكثرة الاستشهاد بالكتاب، وكثرة الرجوع إليه والنقل منه، ومدى توفّره على آراء جديدة واتّجاه مبتكر، ومدى التأثير الذي تركه على مسار علم الأخلاق، والشموليّة، والاستيعاب، والسهولة في الطرح، مضافاً إلى شهرة المؤلّف، وغيرها من العناصر. وربما تنشأ الأهميّة في بعض الأحيان من معدّل مجموع هذه العناصر.

وكما ورد في العنوان الذي حمله الكتاب، فإنّ المصنّفات الأخلاقيّة التي حظيت باهتمامنا، اقتصرت على المصنّفات التي دوّنها المفكّرون المسلمون. وعلى هذا الاساس، فإنّ الكتب والتصانيف الأخلاقيّة المتعلّقة بسائر الأديان والمذاهب خرجت من دائرة التغطية.

تجدر الإشارة إلى أنّ المصنّفات التي قمنا بالتعريف بها في هذا المعجم، لا ندّعي صحّة انتسابها إلى الإسلام بصورة قطعيّة، إذ إنّ مهمّة الكتاب تنأى عن التقييم وإعطاء الحُكْم الفصل في هذا المجال. ولذا،

فإنّ المعيار الذي أخذنا به في التعريف بالكتاب هو كون المؤلّف مُسلِماً لا أكثر.

4 ـ الإيجاز أو التفصيل في التعريف بالكتاب، إنّما يتبع أهمية وخطورة الموضوعات التي يبحثها، وحجم المادّة التي تستحقّ الوقوف عندها وتبيينها. ولذا، قد لا يتناسب حجم الاستعراض أو التعريف مع الحجم الظاهريّ للكتاب.

فمثلاً كتاب **الطبّ الروحاني** وكتاب **منازل السائرين**، وعلى الرغم من صغر حجميهما ومحدودية صفحاتهما، إلّا أنّهما استأثرا من الاهتمام والشرح والعرض أكثر بكثير من الصحاح الستّة التي تمّ ترتيبها وتدوينها على أساس الكتب الفقهيّة، فالأبواب الأخلاقيّة فيها قليلة جدّاً، ولا تتضمّن معلومات هامة يمكن أن نتحف بها الباحث في علم الأخلاق.

5 ـ يُعنى الكتاب بمهمّة التعريف بالكتب التي استقلّت ببحث ما يتعلّق بالأخلاق. ولكن عدل عن ذلك في ثلاثة مواضع؛ إذ اكتفى بالحديث عن بعض أبواب الكتاب والتي اختصّت بالجانب الأخلاقي. وهي: الفصل الخامس من مقدّمة كتاب **مصباح الأنس**، والنمط التاسع من **الإشارات**، والرسالة التاسعة من **رسائل إخوان الصفا**. والكتاب الأول هو كتاب في مجال العرفان النظري، والكتابان الثاني والثالث هما نصوص مشهورة من تراث فلسفة الشرق الإسلامي. وقد دخل كلّ من هذه الكتب الثلاثة ميدان الفكر الأخلاقي بحجم مقال واحد لا أكثر.

ولهذه المقالات الثلاثة أهمّية بالغة في تاريخ تطوّر الفكر الأخلاقي الإسلامي، ولذا لم يسعنا أن نغضّ الطرف عن استعراض أيٍّ منها والتعريف بها، فبالنسبة إلى كتاب **مصباح الأنس** تنشأ الأهمّية من أنّ هذا

الكتاب يمثّل المرحلة الخامسة من مراحل التطوّر الذي وصل إليه الفكر الأخلاقيّ والعرفانيّ. وأمّا في ما يتعلّق بكتاب **الإشارات**، فجانب الأهمّية يكمن في الإتقان العلمي الذي يمتاز به الكتاب، إلى جانب الجودة والابتكار في ما قرّره عن مقامات العارفين. وأمّا بالنسبة إلى **رسائل إخوان الصفا**، فإنّ جانب الأهميّة يكمن في أنّ هذه الرسائل تمثّل ـ على سبيل الحصر ـ المشرب الفيثاغوري الهرمسي في إطار مدرسة الأخلاق الفلسفيّة.

6 ـ لمّا كان همّنا الأول والأساس هو تزويد الباحثين بأعلى حدّ من المعلومات، لم نغفل عن بيان بعض المميّزات الجزئيّة للمصادر والكتب التي تحدّثنا عنها، من قبيل: عدد صفحات الكتاب، وعدد فصوله، وعدد الآيات والروايات الواردة فيه. وكذلك أشرنا إلى بيان حجم المنقولات، والتشبيهات، والحكايات، ومختصّات قلم المولّف في ما كتبه، وغير ذلك من أمور.

7 ـ العرض التفصيلي للكتب تمّ من خلال ثمانية محاور، نذكرها باختصار. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ ثمّة تغييراً طرأ على المحورين السادس والسابع، عند استعراض الكتب ذات الصلة بالمدرسة الأثريّة، وسنشير إلى ذلك تباعاً:

المحور الأول: تحت عنوان «نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته»؛ ذكرنا في هذا المحور نبذة عن حياة المؤلّف العلميّة والاجتماعيّة، ثمّ أوردنا قائمة بجميع مؤلّفاته في مجال الأخلاق (إن وجدت)، أمّا عن مؤلّفاته في سائر حقول المعرفة، فقد اكتفينا بذكر أهمّ الكتب.

المحور الثاني: «النسخ والطبعات»، إذ أشرنا إلى أهمّ المخطوطات وأهمّ الطبعات، خصوصاً الطبعات المحقّقة.

المحور الثالث: «أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب»، ويقصد بهذا العنوان رصد جميع الكتب، والرسائل، والدراسات، التي تدور حول الكتاب الأصلي، ترجمةً ونقداً وتلخيصاً وشرحاً وتعليقاً[1].

وبالطبع فإنّ وفرة ما أُلّف حول كتابٍ ما تكشف الإقبال التاريخي الذي حظي به من قبل المفكّرين والعلماء، والدور الذي اضطلع به، والتأثير الذي تركه، وما أوجده من حراك علمي. ومن هنا بالذات، قد نجد من الضروريّ أن نبحث تحت هذا العنوان، المكانة التاريخيّة للكتاب، وحجم التأثير المتبادل بينه وبين الكتب الأخلاقيّة الأخرى، وكذلك ما قام به من دور في مساره التاريخيّ العلميّ.

المحور الرابع: «دائرة الموضوعات المبحوثة»، في هذا المحور بيّنّا مدى شموليّة المواضيع الأخلاقيّة التي يبحثها الكتاب، وهل شملت جميع مساحات علم الأخلاق أم لا؟ إذ من المعلوم أنّ دائرة علم الأخلاق تشمل أخلاق العبوديّة، والأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة، والأخلاق الأسريّة[2].

---

(1) عناوين الكتب التي قمنا بالتعريف بها تحت هذا العنوان، لم نوردها ضمن قوائم الكتب المثبتة في نهاية كلّ فصل.

(2) الأسرة هي موضع التقاء الفرد بالمجتمع والمجال الأهمّ لتنمية وترشيد الأخلاق الكريمة للإنسان.

كما تعدّ الأسرة المحلَّ الطبيعيَّ لظهور أنماط من العلاقة الفريدة من نوعها، نظير علاقة الزوجيّة، وعلاقة الأبوة، وعلاقة الأمومة. وبالطبع، فإنّ كلَّ علاقة من هذه العلاقات تستتبع وتتطلّب أخلاقاً خاصة بها. ولا ريب في أن الأسرة تلعب دوراً خاصاً في تأسيس الهوية الأخلاقيّة للفرد. وما نقصده بالطبيعة الأخلاقيّة غير شؤون الفرد الخاصة به وعلاقاته بالعناصر الاجتماعيّة الأخرى. وبناءً على ذلك، وتبعاً لما عليه حكماء السلف من فصل البحوث المتعلقة بـ«تدبير المنزل» عن مجال «الأخلاق الفرديّة» و«سياسة المدن»، قمنا بتفكيك «الأخلاق الأسريّة» عن الأخلاق الفرديّة والأخلاق الاجتماعيّة، وبحثناها بشكل مستقلّ.

ما يقصد بأخلاق العبوديّة، هو مجموعة الفضائل والرذائل، من قبيل الإيمان، التعبّد، الخوف، التوكّل. وهي فضائل تنتظم ضمن علاقة الإنسان بالله. وأمّا الأخلاق الفرديّة، فالمقصود بها مجموعة الفضائل والرذائل التي ترتبط بالحياة الفرديّة للناس، نظير: فضائل الصبر، والحكمة، والحزم، ورذائل النهم، والعجلة، والسفاهة. إذ يُنظر من خلال كلّ واحدة ـ من هذه الفضائل والرذائل ـ إلى الإنسان، بغضّ النظر عن طبيعة علاقته بالغير.

وأمّا الأخلاق الاجتماعيّة، فتنطوي تحتها مجموعة الفضائل والرذائل التي تؤخذ بنظر الاعتبار في علاقة الفرد بسائر الناس، من قبيل العدل والإحسان والحسد والتفاخر. ويُقصد بالأخلاق الأسريّة، منظومة القِيَم والأحكام الأخلاقيّة ـ ليست ناظرة بالضرورة إلى خصوص الفضائل الأخلاقيّة ـ الخاصّة بالعلاقات داخل الأسرة.

وممّا لا شكّ فيه، أنّ تحديد دائرة أو مجال الموضوعات التي يبحثها الكتاب ـ أيّ كتاب كان ـ، يعين الباحث على استحصال تصّور أوضح عن محتويات الكتاب، كما يساهم في رفع مستوى الاستفادة التي يحصل عليها من مراجعته لفصوله.

المحور الخامس: محور «هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه». ويُعنى ببيان موجز عن مضمون الكتاب، كما يصار في هذا المحور إلى عرض توصيفي واضح لطبيعة المنطق الذي يتحكّم بترتيب الأبحاث والانسجام والتناسب بين فصوله، ثم نقوم بعمليّة تقييم وتحليل لكيفيّة الترابط والانسجام الموجود. كما يشار في هذا المحور إلى الحجم المخصّص لكلّ فصل من فصول الكتاب (نسبة التراكم والانتشار

في البحوث) قياساً بالحجم الكلّي للكتاب. وبالطبع فإنّ هذه المقارنة تكشف عن مدى اهتمام المؤلّف بالفصول المختلفة لعلم الأخلاق، وحساسيّة النظام الفكريّ لديه إزاء مختلف المواضيع المطروحة.

المحور السادس: ويختصّ بالبحث عن «منهجيّة الكتاب». على الرغم من أنّ تصنيف كلّ كتاب ضمن هذه المدرسة الأخلاقيّة أو تلك، يكشف ـ ولو بصورة غير مباشرة ـ عن المنهجيّة العامّة للمولّف، ويحدّد ما إذا كان منهجه فلسفيّاً، أو عرفانيّاً، أو أثريّاً، أو توفيقيّاً .إلاّ أنّه لا يكشف عن الخصائص المنهجيّة والسمات الفريدة للكتاب، والأهداف، والقوانين المحورية، والفنون التربوية، التي يمتاز بها كلّ مولّف.

ومن هنا، حاولنا من خلال هذا العنوان، استنطاق النصّ ما أمكن، لاستكشاف العناصر المنهجيّة التي تتحكّم بنمط وطريقة المؤلّف في التفكير.

المحور السابع: محور «أدبيّات الكتاب»، ويهتمّ ببيان خصائص قلم المؤلّف، من حيث المتانة، والإتقان العلمي، والسلاسة، والتعقيد، والإيجاز، والإطناب، ومقدار اشتماله على الصناعات الأدبيّة والمصطلحات، وطبيعة النظام اللّغويّ الذي يفيد منه، ومقدار ما يشغله الكتاب من الشعر والحكاية والتمثيل. كما يُشار في هذا المحور إلى حجم الآيات والروايات الواردة، ليتبيّن مدى تأثّر قلم وبيان المؤلّف بالأدب السماويّ وكذلك بالنظام اللّغويّ الروائيّ.

المحور الثامن: يحمل عنوان «التقييم النهائي». وفيه يُصار إلى عرض حصيلة البحوث المختلفة ـ التي بُحثت ضمن المحاور السبعة

الماضية ـ بشكل موجز ومختصر، ثمّ يخضع إلى التقييم. إذن، تحت هذا العنوان يتمّ ذكر أهمّ نقاط القوّة ونقاط الضعف الموجودة في الكتاب.

وبذلك يتسنّى للمخاطب ـ الباحث الأخلاقي ـ من خلال التأمّل في التقييمات المطروحة في المحور الثامن، أن يقوم بعمليّة تصنيف للكتب من حيث الأهمّية والفائدة وتحديد الأولويّات في القراءة، في إطار ما يوفّره هذا الكتاب من عملية رصد لتراث كلّ واحد من المدارس الأخلاقيّة الموجودة.

8 ـ ما ذكرناه من محاور تتعلّق بتراث ومصادر كلٍّ من المدارس الأخلاقيّة التالية: مدرسة الأخلاق الفلسفيّة، مدرسة الأخلاق العرفانيّة، والمدرسة التوفيقيّة. وأما في خصوص مدرسة الأخلاق الأثريّة، فإن المحور السادس والسابع قد طرأ عليهما شيء من التحوير، إذ حذف كلٌّ من عنوان «منهجيّة الكتاب» و«أدبيّات الكتاب» وأضيف بدلهما عنوانان آخران هما «وثاقة الكتاب» و«التطابق بين العناوين ومضمون الأحاديث»، وذلك لأنّ طبيعة الكتب والمصادر التي تنتسب إلى «المدرسة الأثريّة في الأخلاق»، تكتفي بنقل الروايات، ولا تدلي بأيّ تفسير أو توضيح في خصوص ما تنقله من المأثورات الروائيّة. فما يقوم به المؤلّف يقتصر على ترتيب وتنظيم الروايات، ووضع العناوين للأبواب والفصول. من هنا، فإنّ أدبيّات الكتاب ليست من نتاج قلم المصنّف وإنّما هي تعبير وصيغة المعصومين (ع). والحديث عن أدبيّات الكتاب يكون لغواً، إذ مجرّد نقل الروايات لا يتضمّن نقطة منهجيّة تستدعي البحث عن منهج الكاتب. هذا من جانب، ومن جانب آخر لا بدّ من معرفة مدى دقّة العناوين التي اختارها المؤلّف لأبواب الكتاب وصنّف تحتها الأحاديث.

ومثل هذه المهمّة حاولنا استيفاءها من خلال إيجاد محور جديد يحمل عنوان «التطابق بين العناوين ومضمون الأحاديث».

في ما يتعلّق بمحور «وثاقة الكتاب»، لا بدّ من التذكير بأنّه يصار إلى بيان مدى اعتبار ووثاقة الكتاب نفسه ـ وليس الروايات التي يتضمّنها ـ، وكذلك بيان قيمته ومكانته قياساً إلى سائر المصادر الموجودة في التراث الأثريّ.

9 ـ تنقسم الكتب المشتملة على روايات أخلاقيّة إلى قسمين: [القسم الأول ويشمل مصادر من قبيل: **مصادقة الإخوان** للشيخ الصدوق، و**مشكاة الأنوار** للطبرسي في التراث الروائي الشيعي، و**شجرة المعارف والأحوال** لعزّ بن عبد السلام، و**رسائل** ابن أبي الدنيا في التراث الروائي لمدرسة أهل السنّة، إذ يُعنى هذا القسم من الكتب بتجميع الروايات الأخلاقيّة فقط. وربما تُضاف إليها بعض الآيات.

وأمّا القسم الآخر فيشمل كتباً من قبيل: **الكافي** و**بحار الأنوار**، عند الشيعة؛ و**الصحاح** الستّة و**كنز العمال** عند أهل السنّة، إذ يُصار في هذه الكتب إلى تجميع الروايات في موضوعات مختلفة بما فيها الروايات الأخلاقيّة. والسرّ في أنّنا تطرّقنا إلى كتب روائية عامّة ـ مثل **الكافي** و**بحار الأنوار** ـ في هذا المعجم الأخلاقيّ التخصّصيّ، يكمن في أنّ مصطلح «المدرسة» ـ كما سيأتي توضيحه في بحث المقارنة بين المدارس الأخلاقيّة ـ، لايقبل الانطباق على «المصادر الروائيّة» إلّا إذا توخّينا منه معنىً خاصّاً، وذلك لأنّ الجهد الذي بذله علماء علم الحديث، إنّما يقتصر على تجميع وتبويب وعَنْوَنة الأحاديث الأخلاقيّة، فإذا توسّعنا في إطلاق عنوان «المدرسة»، وقلنا إنّ هذه المصادر تمثّل «المدرسة الأثريّة

في الأخلاق الإسلاميّة»، حينذاك يتبيّن أنّ هذا القدر من الاختلاف بين المجموعة الأولى والمجموعة الثانية، لا يُخلّ في أصل انتساب هذه الكتب إلى الاتّجاه الأثريّ في الأخلاق.

إذن، يمكن القول إنّ الأبواب الأخلاقيّة في كتاب **الكافي**، هي موفّقة في بيان الأخلاق الأثريّة (على مستوى تجميع الروايات وتبويبها وعَنْوَنتها) بالدرجة نفسها التي وُفِّق إليها كتاب **مشكاة الأنوار**، بل لعلّ درجة النجاح والتوفيق بالنسبة إلى **الكافي** أكبر بكثير وإن لم يكن نصّاً مستقّلاً في الأخلاق الروائيّة.

ومن بين المصادر الشيعيّة الموجودة، وقع اختيارنا على كتابَيْ **الكافي** و**بحار الأنوار**، فقمنا بتعريف بعض أبواب كتابَيْ **الكافي** و**بحار الأنوار**، والتي تتضمّن عناوين أخلاقيّة. ويُعدّ كتاب **الكافي** من حيث الاعتبار، والوثاقة، والإتقان في النصّ، من أهمّ المصادر الروائيّة الشيعيّة. وأمّا كتاب **بحار الأنوار** فُيعدّ أوسع مجموعة روائيّة لدى الإماميّة.

وفي ما يخصّ استعراضنا للمصادر الروائية لأهل السنّة، فإنّ الكتب العامّة نظير **الصحاح الستّة** و**كنز العمال** هي الأخرى تشتمل على هذه الخصوصيّة نفسها.

10 ـ في هذا الكتاب اكتفينا بالتراث الذي وصلنا من الأعصار السابقة، وأهملنا مؤلّفات العلماء المعاصرين في مجال علم الأخلاق.

وفي الختام نتقدّم بالشكر الجزيل إلى جميع الأساتذة والباحثين الذين ساعدونا في إعداد وتنظيم الكتاب، وأفادونا بإرشاداتهم وانتقاداتهم

البنّاءة وملاحظاتهم القيّمة، آملين من العليّ القدير، أن يزيد من توفيقاتهم.

نأمل لهذه البذرة النموّ في ظلّ الإمام المنتظر المبارك (عج) حتى تضحى «شجرةً طيّبةً تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربّها»، وعطاءً وافراً يساهم في إغناء وترشيد الأخلاق الإسلاميّة، فكراً وثقافةً وسلوكاً.

الفصل الأول

المدارس الأخلاقيّة؛ تعريف ومقارنة

ثمّة اتّجاهات مختلفة في علم الأخلاق لدى المسلمين، وطبيعيّ أن يؤدّي هذا الاختلاف في الاتّجاهات إلى ظهور أنظمة أخلاقيّة عدّة. وفي مقاربة أوّليّة يمكننا تصنيف الكتب الأخلاقيّة الموجودة في أربعة محاور، هي: الكتب الأخلاقيّة ذات الطابع الفلسفيّ (العقليّ)، الكتب الأخلاقيّة ذات الطابع العرفانيّ (السلوكيّ)، الكتب الأخلاقيّة الأثريّة، والكتب الأخلاقيّة التوفيقيّة.

والآن، وقبل أن نشرع في التعريف بالكتب الأخلاقيّة للباحثين المسلمين، يجدر بنا الإشارة، ولو بصورة عابرة، إلى هذه الاتّجاهات الأربعة.

أ) الأخلاق الفلسفيّة

قسّم الفلاسفةُ الحكمةَ إلى قسمين: نظريّة وعملية، وقالوا في بيان الفرق بينهما قولين:

القول الأول: الحكمة النظرية هي العلم بالأمور التي يحسن تعلُّمها. والحكمة العمليّة هي العلم بالأمور التي ينبغي تطبيقها والعمل بها.

القول الثاني: الحكمة النظرية هي العلم بأحوال الموجودات التي أمرُ وجودها خارج عن إرادة واختيار الإنسان. وأمّا الحكمة العمليّة فهي العلم بأحوال الموجودات التي يَرتهن تحقّقها ووجودها في الخارج بإرادة الإنسان، فهي داخلة في متعلّق قدرته. وتشمل الأعمال الاختيارية للإنسان، سواء في ذلك الجوانحيّة والجوارحيّة وما يتعلّق بالقلب أو بالقالب.

ثمّ يقسّم الفلاسفة الحكمة العمليّة إلى ثلاثة أقسام: الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن. ويرى الحكماء أنّ الأعمال التي تصدر عن الإنسان ـ دائماً أو غالباً ـ إنّما هي عبارة عن الهيئات والمَلَكات المستقرّة في النفس الإنسانيّة. ويُعبّر عن هذه المَلَكات بـ «الخُلْق»، وتنقسم إلى قسمين: الخُلق الحسن والخُلق السيّئ أو الرديء. كما يعبّر عن الأولى بـ «الفضيلة» وعن الثانية بـ «الرذيلة».

ويجدر القول إنّ نقطة الانطلاق في الاتّجاه الفلسفي، في ما يتعلّق بتحديد الفضائل والرذائل وتصنيفها وتحليل مداليلها، تكمن في تعريف الإنسان لدى هذا الاتجاه.

الأسس والمرتكزات الإناسية في الأخلاق الفلسفيّة

ثمّة أصول ومرتكزات يستند إليها الحكماء المسلمون في وعيهمْ وتعريفهم للإنسان. وهذه الأصول هي كالآتي:

الأصل الأول: تتمتّع النفس الإنسانيّة بثلاث قوى متمايزة في ما بينها. وهي: القوّة الشهويّة والغضبيّة والناطقة.

الأصل الثاني: هناك تعامل بين هذه القوى الثلاث، بحيث إنّ كلّ واحدة منها تتبدّى في القوّتين الأُخريين.

الأصل الثالث: أنّ حقيقة الإنسان إنسانيّته التي يمتاز بها عن سائر الموجودات، إنّما هي بالتعقّل والوعي والحكمة.

الأصل الرابع: لمّا كان كمال الشيء متوقّفاً على وصوله إلى مرحلة الفعليّة وعلى تحقُّق الفَصْل المميِّز لماهّيته الذي به قوام صورته النوعيّة، وتحقّق ماهيّته تحقّقاً تامّاً، إذن، فسعادةُ الإنسان هي الأخرى رَهْنُ التكامل العقلاني ووصولِ النفس الناطقة إلى مرتبة الفعلية التامّة التي تُعَدّ الفَصْلَ المميِّز للنوع الإنساني عن غيره من الأنواع.

والآن نحاول تقديم بعض الإيضاحات حول هذه الأصول الأربعة، فنقول:

يعتقد الحكماء أنّ النفس الإنسانية تتوافر على ثلاث قوى، هي:

أ) **القوّة الشهوية**: وتُسمّى أيضاً «القوّة البهيميّة»؛ وهي قوّةٌ عملها جلب وجذب الملائمات والأمور المحبّبة، ومحلّها في الجسم، وآلتها الجسمانيّة هي «الكبد».

ب) **القوّة الغضبية**: وتُسمى أيضاً بالقوّة «السَبُعيّة» وهي قوّة للتخاصم، والتدافع، ودفع المضارّ والأمور المنفّرة. ومحلّها في الجسم، وآلتها الجسمانيّة هي «القلب الصنوبري».

ج) **القوّة الناطقة**: وتُعرف أيضاً بالقوّة «المَلَكيّة»، هذه القوّة هي عامل الهداية وسبب التعلّم، ومحلّها في الجسم، وآلتها الجسمانيّة هي «الدماغ».

ولمّا كان الإنسان كائناً ذا وحدة حقيقيّة وغير اعتباريّة، إذن، فلا بدّ من التسليم بأنّ عمل كلّ واحدةٍ من هذه القوى الثلاث، يؤثّر على وجود الإنسان برمّته، كما يؤثّر على كلتا القوّتين الأُخريين، كما لو كان يوجد شكل هندسيّ وأردنا تغيير أحد أضلاعه؛ فستتغيّر حتماً نسب ومقادير الأضلاع الأخرى.

وبناءً على ذلك، لو تعلّقت إرادة شخص ما، باشباع رغباته ونزواته المرتبطة بالقوّة الشهويّة، فإنّ تلك اللذّات والشهوات ستصرف همّة ذلك الشخص واهتمامه عن متطلّبات القوّتين الأخريين: الغضبية والناطقة، (نظير الأمن، وكسب المعرفة)، وتمنع إرادته من التحكّم بتلك القوّتين وتصرفها عن أن تتعلّق بتلك المتطلّبات.

وممّا لا شكّ فيه أنّ تعويد النفس على الشهوات والملذّات يُضْعِفُ لدى الإنسان روحَ الحماسة، وعزّة النفس، والاقتدار الروحي، وأيضاً حبّ الحكمة، والتفكّر، والتدبّر، في عاقبة الأمور. كما إنّ الاهتمام بإرضاء القوّة الغضبيّة وإفساح المجال أمامها بالكامل، يثير في الإنسان خصلة الافتراس والمقاتلة ويجعله ذلك إنساناً شريراً لا رادع له، يفكّر دوماً في التغلّب على الآخرين وقهرهم. وواضح أنّ العصبيّة والغضب يتسبّبان في ظهور الأمراض الجسديّة واختلال المزاج، كما يُعيقان عمليّة التفكير ويُطفئان مصباح العقل. أمّا إذا غلبت النفس الناطقة على القوّتين الأُخريين، فإنّها ستعمل على إصلاح تلك القوتين وتمنعهما من الإفراط أو التفريط، وتعمل على توظيفهما والإفادة منهما على أساس المصلحة والحكمة.

ومن جهة أخرى، فإنّ التوافر على القوّة الشهويّة والقوّة الغضبيّة، أمر يشترك فيه الإنسان مع سائر الحيوانات. وعليه فهاتان القوّتان لا يمكن أن تكون ملاكاً لتمايز الإنسان عن غيره. وأمّا القوّة الناطقة، فهي الجوهرة التي تشعّ في جبين الإنسان. وهي مصداق التكريم الإلهيّ؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَ ءَادَمَ . . . .﴾[1].

---

(1) سورة الإسراء: الآية 70.

ولايمكن أن يكون الإنسان مسجوداً له من قِبَل الملائكة، إلاّ إذا استفاد ـ وبملء اختياره وإرادته ـ من إرشاد وتسديد هذه القوّة.

وهنا لا بدّ من التذكير بهذه النقطة، وهي أنّ الإنسان لا يمتاز عن سائر الموجودات إلاّ بعد أن يطوي مدارج الكمال، في طريق صعب وشائك. وهذا يعني أنّ إنسانيّة الإنسان في بدء مساره التكامليّ ليست ناجزة. وأنّ هويّته التي يمتاز بها عن غيره لم تكن فعليّة، بل كانت ناقصة. وأن كماله مُرتَهَنٌ بفعليّة الفَصْل المُمَيِّز لهويته؛ أي القوّة العاقلة. ويرى الحكماء أنّ تكامل العقل البشريّ إنّما يتمّ عبر مسارٍ ذاي مراحل متعدّدة، يمكن تصويرها بإيجاز بالنحو التالي:

المرحلة الأولى: العقل الهيولاني، في هذه المرحلة تكون النفس خالية من جميع الصور العلميّة.

المرحلة الثانية: العقل بالمَلَكة، تضحي النفس ـ في هذه المرحلة ـ على اطّلاع بالعلوم البديهيّة وبالكلّيّات.

المرحلة الثالثة: العقل بالفعل، في هذه المرحلة تكتسب النفس العلم النظريّ، وتصل إلى مرتبة بحيث إنّ المعلومات، وإن لم تكن حاضرة بالفعل لديها، فبإمكانها استحضارها.

المرحلة الرابعة: العقل المستفاد، في هذه المرحلة تضحي النفس ـ بسبب عدم انشغالها بأمور البدن والقضايا العالقة حولها ـ مستحضرةً لجميع معلوماتها.

فالنفس الإنسانيّة في هذه المرحلة تكون مطّلعة على كلّ شيء، في جميع الآنات ولا شيء من المعلومات خافٍ عنها. وهنا تجدر الإشارة

إلى أنّ العقل برمّته كلٌّ واحدٌ ولا يتضمّن أجزاء، وأمّا ما نتحدّث به من تعدّد العقل، فهو في الواقع نشآت لذلك العقل الكلّ الواحد، يترتّب بعضها على بعض، في نظام طوليّ واحد. وكلّ نشأة تكتسب وجودها من إشعاعات النشأة السابقة لها، حتى يصل الأمر إلى العقل الفعّال. وباتّصال النفس بتلك النشأة تصعد إلى مرتبة العقل المستفاد. وبهذا النحو تكتمل مدارج الكمال لها، بدءاً بمرحلة الناسوت وحتى ملكوت العقل المستفاد، ومن ثمّ تمتدّ إلى حيث لاهوت نشأة عقل العقول وهو العقل الكلّ القيّومي. وباتّحاد العقل والعاقل والمعقول، تتمّ مدارج الوجود، وتستديم الفرحة والسرور، وتتحقّق السعادة اللّامتناهية.

وبذا، يتّضح أنّ الحكماء يرون في تهذيب النفس عملية رفعٍ للموانع والعقبات التي تعترض مسار ممارستها الناطقة لعملية التفكير وبالتالي تكاملها.

ومن هنا، فإنّ علم الأخلاق من منظور الحكماء، هو العلم الذي يُعنى بدراسة العوامل النفسانيّة والممارسات الاختياريّة التي تؤثّر على مهمّة التفكير وعلى مسار التكامل الذاتي العقلاني، الذي يراد للنفس الناطقة أن تطويه.

اتّجاهات الأخلاق الفلسفيّة

إلى هنا بيّنّا الجوهر الحقيقيّ والمضمون المشترك لما عُرِف بالأخلاق الفلسفيّة في العالم الإسلامي، إلّا أنّه لا بدّ من العلم بأنّ هذه المدرسة الفلسفية تشتمل على اتّجاهات متباينة عرفت بعناوين محدّدة، هي كالتالي: الاتّجاه الجالينوسي، الاتّجاه الأفلاطوني، الاتّجاه الفيثاغوري ـ الهرمسي، والاتّجاه الأرسطي. وإن كان ثمة شكوك في

مدى صحّة انتساب الاتّجاهات الثلاثة الأولى إلى حكماء اليونان.

ويتمثّل الاتّجاه الجالينوسي للأخلاق الفلسفيّة في كتاب **الطبّ الروحاني** لمحمّد بن زكريّا الرازي، إذ يتعامل مع الصدمات الروحيّة التي يصاب بها الإنسان كأيّ طبيب حاول أن يبحث ويشخّص أيَّ عوامل مَرَضيّة بعينها، تدخّلت في تدهور صحّة المريض. فهو يرى أنّ الأخلاق فرع من الطبّ العام، ويُقْسم الطبّ إلى قسمين: طبّ خاصّ بعلاج الأمراض الجسديّة، يعرض فيه لبيان الأمراض الجسدية وعلاجها والأصول والتعليمات الصحية. وقسم آخر هو «الأخلاق»، ويحاول من خلاله معالجة الأمراض الروحيّة وبيان أصول الصحّة النفسيّة.

ويتمثّل الاتّجاه الأفلاطوني في كتب الفارابي، وبالتحديد في مقولة **العلم المدني** التي أكّد عليها الفارابي ضمن عديد من مؤلّفاته، بما فيها كتاب **تحصيل السعادة**. وينتمي مسكويه ـ وكتابه **تهذيب الأخلاق** ـ، إلى هذا الاتّجاه أيضاً، والذي يتمّ التأكيد فيه على الجانب الاجتماعي والمدني للسعادة البشرية بشكل خاص.

وأمّا الاتّجاه الفيثاغوري ـ الهرمسي، فيُعنى بالتأكيد بالإيضاحات التمثيليّة للحقائق الموجودة في العالم وفي الإنسان، ويحاول تقديمَ بيانٍ رياضيّ للنظام الذي يحكم العلاقات القائمة بين الظواهر الموجودة في العالم. وأكثر ما تجلّى هذا الاتجاه في **رسائل إخوان الصفا**، بما فيها الرسالة التاسعة المختصّة بالأخلاق. والملاحظ أنّ ما جاء في الرسائل قد امتزج ببعض المعتقدات المتعلّقة بالأجرام السماوية وما تتركه من تأثيرات على مزاج الإنسان ونفسيته.

وأخيرا الاتّجاه الأَرسطي، وأبرز مَعْلم فيه هو قانون الاعتدال

الذهبي. وممّن يمثّل هذا الاتّجاه أبو علي مسكويه وكتابه المعروف **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.**

وفي هذا المجال نلاحظ أنّ ثمّة كتباً هامّة ودقيقة، نظير رسالة **تهذيب الأخلاق** لابن هيثم، ورسالة **مدارج الكمال** لأفضل الدين الكاشاني، وهي، مع توافرها على العناصر الأصيلة المكوّنة لمدرسة الأخلاق الفلسفية، لا يمكن نسبتها إلى أيٍّ من الاتّجاهات الأربعة.

والملاحظة الجديرة بالذكر هي أنه قد تعارف بين أهل العلم خطأً، أنّه متى أُريدَ التحدّث عن «العنصر الجوهري» في مدرسة الأخلاق الفلسفيّة في العالم الإسلامي، يذكر «قانون الاعتدال الذهبي»، والذي يمثّل الشاخص الأبرز في الاتّجاه الأرسطي. والسرّ في حدوث مثل هذا الخطأ يكمن في أنّ الاتّجاه الأرسطي هو الوحيد من بين تلك الاتّجاهات، الذي سنحت له الفرصة للبروز والتجلّي بشكل مكرّر، ليس فقط في كتاب **أخلاق ناصري** لنصير الدين الطوسي، **ولوامع الإشراق** لجلال الدين الدواني؛ بل في أكثر المصادر المهمّة المتعلّقة بالمدرسة التوفيقيّة، من قبيل **ميزان العمل** لأبي حامد الغزالي، **وجامع السعادات** للمولى محمّد مهدي النراقي. ومن هنا حظي هذا الاتجاه بالاهتمام وصار المحور في تحليل الفضائل والرذائل.

ولأهمّية قانون الاعتدال الذهبي، نورد هنا توضيحاً موجزاً عنه، في نقاط عدّة، هي كالتالي:

1 ـ النفس الإنسانيّة فيها ثلاث قوى هي: القوّة الناطقة، والقوّة الشهويّة والقوة الغضبيّة.

2 ـ كلّ واحدة من هذه القوى، إمّا أن تعمل بانتظام واعتدال، وإما أن تُصاب ـ في عملها ـ بالإفراط أو التفريط.

3 ـ إذا عملتْ كلّ واحدةٍ من هذه القوى، في المجال الطبيعي الذي خلقها لها الصانع الحكيم، وبالقدر الذي يحقّق الغرض المطلوب منها، حينئذٍ تحصُل الفضيلة المختصّة بتلك القوّة، وأمّا إذا خرجتْ عن مسارها المحدّد وتضاءل مستوى عملها، أو زاد عن المستوى المقرّر، حصلت الرذيلة المختصّة بتلك القوّة. إذن، الاعتدال في القوى باعث على الفضيلة، وأمّا الإفراط والتفريط فيها فيبعث على الرذيلة.

4 ـ الحدّ الوسط في القوّة الناطقة، هو أن يشتغل العقلُ بالمعارف اليقينيّة والمفيدة. وحدُّ التفريط فيها هو أن يترك تحصيل تلك العلوم. وأمّا حدُّ الإفراط فهو أن يتعدّى العقلُ المعارفَ اليقينيّة والعلوم المفيدة، فإمّا أن لا يراعي قدراته وقابلياته، فيتكلّف في تحصيل العلوم التي لا قدرة له على استيعابها، ويدعي فهمها وإدراكها، وإمّا يكتفي بالأدلّة الظّنية غير الموثوقة، أو يتّجه نحو العلوم غير المفيدة. وواضح أنّ مراعاة حدّ الاعتدال والحركة في المدار الوسط، في ما يتعلّق بالتعقّل، تستتبعه فضيلة «الحكمة»، والتفريط في التعقّل يورث «البَلَه»، وأمّا الإفراط في ذلك فينتج رذيلة «الجربزة» أو «السَفَه».

5 ـ الحدّ الوسط في القوة الشهويّة، هو أن يُخْضِعَ الإنسانُ شهواتِه لحُكْم العقل وتدبيره، ويتعاملَ في المأكولات والمنكوحات وسائر المشتهيات بالدرجة التي يضمن معها سلامة البدن أو استمرار النسل. وبكلمة أخرى: أن يعمل بالقدر الذي يتحقّق منه الغرض

الذي خُلقت له تلك القوّة. وحدّ الإفراط في هذه القوّة هو أن يسعى وراء تحصيل الملذّات والشهوات من دون حدّ ولا رادع ويخالف في ذلك حكم العقل وتدبيره. ولا يكون له همّ سوى إرضاء شهواته تلك وإشباعها وحدّ التفريط هو أن يغفل عن حاجاته الجسديّة وعن إشباعها بالشكل المعقول والكامل.

إنّ مراعاة حدّ الاعتدال والحركة في مدار الوسط، في ما يتعلّق بالقوى الشهويّة، يولّد فضيلة «العِفّة»، في حين أنّ التفريط في إشباع المشتهيات الضرورية، يوجب ظهور رذيلة «الخمود». وأمّا الإفراط فيوجب رذيلة «الشَرَه».

6 ـ الحدّ الوسط في القوّة الغضبيّة، هو أن تَخْضَعَ القوّةُ الدافعة في النفس وقوّة الحراسة والحماية في الإنسان، لحكم العقل، وتنضبط بضوابطه، من أجل أن يبقى الإنسان بمنأى عن عوامل الخطر التي تهدّد النفس أو المال أو العِرْض.

وحدّ التفريط في عمل القوّة الغضبيّة هو أن يتعامل الإنسانُ بضَعْفٍ تجاه إضرار الآخرين وعوامل الخطر، من دون أن يمتلك الجُرْأة على مواجهتها: ولا الهِمّة الكافية على دَرْئها. وأمّا حدّ الإفراط في عمل هذه القوّة فهو أن يصبّ الإنسان جام غضبه على الآخرين من دون مبرّر، أو أن يواجههم بقسوة فائقة، أو أن يستولي عليه الغضب لأدنى سبب، أو أن يخرج عن توازنه في مواجهته للأخطار فيعّرض نفسه للخطر ويُظْهر تهوّراً لا مبرّر له. وطبيعيّ أنّ الثمرة المترتّبة على مراعاة حدّ الاعتدال والتزام جانب الوسطيّة، من القوّة الغضبيّة، هي فضيلة «الشجاعة». وأمّا ما يترتّب على التفريط في

عمل القوّة الغضبيّة فهو رذيلة «الجُبْن»، وأمّا الإفراط فثمرته هي رذيلة «التهوّر».

7 ـ إذا التزمتْ قوى النفس الثلاث ـ «الحكمة» و«العفّة» و«الشجاعة» ـ جانب الوسطيّة والاعتدال، ونأت عن الإفراط والتفريط، فإنّ النتيجة المترتّبة على اجتماع الفضائل الأساس للقوى الثلاث والتعاون التام والكامل بينها، هي ظهور فضيلة أخرى لدى النفس تسمّى «العدالة». وهذه الفضيلة بدورها تبعث على ظهور سلوكيّات وتصرّفات لدى الإنسان، تجاه نفسه والآخرين، تتّسم بالإنصاف. وعلى ضوء ذلك سيؤدّي الفرد كلّ حقّ في ذمّته للآخرين ويضع الأمور في نصابها. وأمّا إذا لم تَحُلّ هذه الهيئة الفاضلة في «النفس»، فسيبتلى الإنسان برذيلة «الظُلْم» إذا أُصيب بالإفراط. وسيُبتلى برذيلة «الانظلام» إذا عمل بتفريط. وهناك من يرى أنّ صفَتَيْ الظُلْم والانظلام كليهما خروج عن الاعتدال ومصداق للظلم.

8 ـ هذه الخصائص الروحيّة، لا يصحّ أن تسمّى فضيلة أو رذيلة، إلّا بعد أن تَرْسَخ في النفس، وتُصبح «مَلَكة» أو «هيئة روحيّة ثابتة». وأمّا إذا كانت مجرّد «حالة» تقبل الزوال، فلا تُسمّى فضيلة أو رذيلة.

9 ـ يجب الالتفات إلى أنّ الفضائل الأربع «الحكمة، العفّة، الشجاعة والعدالة»، والرذائل الثماني الإفراطيّة والتفريطيّة المقابلة لها، تعدّ أصول الفضائل والرذائل، وتتشعّب عن كلّ واحدة منها، جملة من الفضائل والرذائل الجزئية.

وبعبارة منطقيّة نقول: إنّ هذه الهيئات النفسانيّة الاثنتي عشرة، تُعَدّ أجناساً عاليةً (جِنْسَ الأجناس) لكلّ فروع الفضائل والرذائل المطروحة بشكل تفصيليّ في مصادر من قبيل **تهذيب الأخلاق** لمسكويه، و**أخلاق ناصري** لنصير الدين الطوسي، و**لوامع الإشراق** للمحقّق الدواني.

ب) الأخلاق العرفانيّة

توجد تعاريف عِدّة للعِرْفان والتصوّف. يقول عبدُ الرزاق الكاشاني عن التصوّفَ إنّه التَخَلُّق بالأخلاق الإلهيّة[1].

ويكتب التهانوي:

«الصوفيّ.. هو فانٍ بنفسه، باقٍ بالله تعالى، مُسْتَخْلَصٌ من الطبائع، مُتّصِلٌ بحقيقة الحقائق. والمتَصَوِّفُ هو الذي يجاهد لطلب هذه الدرجة. والمستوصف هو الذي يُشَبِّهُ نفسَهُ بالصوفيّ والمُتَصَوِّفُ لطلب الجاه والدنيا. وليس بالحقيقة من الصوفيّ والمتصوّف»[2].

ويقول الشيخ الرئيس في التمييز بين العارف، والعابد، والزاهد:

«المعْرِضُ عن متاع الدنيا وطيّباتها، يُخَصُّ باسم الزاهد، والمواظب على نَفْل العبادات، من القيام والصيام ونحوهما، يُخَصّ باسم العابد. والمُنصَرفُ بفكره إلى قُدْس الجبروت، مستديماً لشروق نور الحقّ في سرّه، يُخَصّ باسم العارف. وقد يتركّب بعض هذه مع بعض»[3].

---

(1) عبد الرزاق الكاشاني (كمال الدين)، **اصطلاحات الصوفية**، تحقيق محمد إبراهيم جعفر، ص 156.

(2) محمد أعلى التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، تصحيح محمد وجيه، ج 1، ص 841.

(3) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، تصحيح مجتبى زارعي، ص 355 و356.

وعادة ما يذكر مائزين، في التفريق بين العرفان والتصوّف.

الأول: إنّ العرفان يُعنى بالجانب العلمي لهذا المسلك، ويعدّ منهجاً علميّاً مقارناً بالمناهج المعنيّة بتحصيل المعرفة الدينية. والحال أنّ التصوّف ومن منظور علم الاجتماع، يعبِّر عن الأوضاع الاجتماعيّة للثقافات المحليّة أو المناطقيّة في المجتمع الإسلامي.

والثاني: إنّ المفردات المرتبطة بالعرفان ناظرة إلى الأبعاد النظريّة، في حين أنّ المفردات والمفاهيم المرتبطة بالتصوّف، أكثر ما تكون ناظرة إلى الأبعاد العمليّة للسلوك، بمعنى أنّ الإنسان السالك سبيل الأخلاق والتربية، باعتبار ممارسته في العرفان النظريّ، يُعدّ «عارفاً». وباعتبار التزامه العملي بالعرفان، ومجاهدته في تهذيب النفس في المنازل والمقامات، يُسمّى «صوفيّاً» أو «متصوّفاً». وعلى كلّ حال، يجدر بنا، وقبل الدخول في نظام الأخلاق العرفانيّة، أن نذكر بعض طبقات ومراتب العُرَفاء ومراحل تطوّر العرفان العملي.

طبقات العرفاء وأدوار التصوّف

بما أنّ تسمية «الصوفي» شاعت في القرن الثاني، وصار يوجد تيار ثقافي يُعرف بهذا الاسم، لذا فإنّ الطبقة الأولى من العرفاء تعود إلى القرن الثاني للهجرة. وهذا لا يمنع من القول إنّ آثار العرفان والتصوّف كانت موجودة في حياة بعض الصحابة والتابعين، أي منذ القرن الأول.

الطبقة الأولى، عرفاء القرن الثاني

الحسن البصري (ت 110 هـ)، مالك بن دينار (ت 131 هـ)، إبراهيم الأدهم (ت 161 هـ)، رابعة العدوية (ت 135 أو 136) أو (180 أو 185)، أبو هاشم الكوفي (لا يُعلم تاريخ وفاته، وهو أول من أُطلق عليه تسمية

الصوفي)، سفيان الثوري (161 هـ)، شقيق البلخي (ت 174 أو 184 هـ)، معروف الكرخي (ت 200 أو 206 هـ) وهو رئيس فرقة الذهبيّة وهي الفرقة التي تدّعي أنّها تتبع وتوالي في طريقتها ومسلكها الإمام علي بن موسى الرضا (ع)، وقد ورد في التاريخ أنّ معروفاً هذا ولد من أبوين نصرانيّين، ثمّ أسلم في ما بعد على يد الإمام الثامن من أئمة أهل البيت (الإمام الرضا (ع))، وتربّى على يديه.

الطبقة الثانية، عرفاء القرن الثالث

بايزيد البسطامي (ت 261 هـ. وهو أوّل من تحدّث عن الفناء في الله. وقد عدّه العرفاء من أهل السُكْر، وأنّه كان يتكلّم عند الجذْبة والفناء بكلام عُرِف بالشطحيّات، من قبيل «ليس في جُبّتي إلّا الله»)، بشر الحافي (ت 226 أو 227 هـ)، السري سقطي (ت 245 أو 250 هـ)، حارث بن أسد المحاسبي (ت 243 هـ)، أبو سعيد الخرّاز (ت 286 هـ)، جنيد البغدادي (ت 297 هـ ويلقّب بين العرفاء بـ «سيّد الطائفة»، وهو من أكثر وجوه المتصوّفة قبولاً)، ذو النون المصري (ت 240 أو 250 هـ)، سهل التستري (ت 283 أو 293 هـ) وحسين بن منصور الحلّاج (ت 306 أو 309 هـ).

الطبقة الثالثة، عرفاء القرن الرابع

أبو بكر الشبلي (ت 334 أو 344 هـ)، أبو علي الرودباري (ت 322 هـ)، أبو نصر السّراج (ت 378 هـ، صاحب الكتاب المعروف **اللُمَع في التصّوف**)، محمّد الكلاباذي (ت 380 هـ، صاحب كتاب **التعرّف في شرح التصوّف**)، أبو الفضل السرخسي (ت 400 هـ، أستاذ أبي سعيد أبو الخير)، أبو طالب المكّي (ت 385 أو 386 هـ، صاحب الكتاب المعروف **قوت القلوب**)، وأبو عبد الرحمن السلمي (412 هـ).

الطبقة الرابعة، عرفاء القرن الخامس

الشيخ أبو الحسن الخرقاني (ت 425 هـ)، أبو سعيد أبو الخير (ت 440 هـ)، أبو علي الدقّاق (ت 405 أو 412 هـ)، أبو الحسن الهجويري (ت 470 هـ، صاحب كتاب **كشف المحجوب**)، الخواجة عبد الله الأنصاري (ت 481، الملقّب بشيخ الهرات وصاحب عديدٍ من المصنّفات، منها **منازل السائرين**)، أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ، المعروف بحجّة الإسلام وله عديدٌ من المؤلّفات الأخلاقيّة ـ العرفانيّة أهمّها **إحياء العلوم**).

الطبقة الخامسة، عرفاء القرن السادس

أحمد الغزالي (ت 520 هـ، أخو أبي حامد وأستاذ عين القضاة)، عين القضاة الهمداني (ت 525 أو 533 هـ، صاحب كتاب **لُمعات**)، السنائي الغزنوي (المتوفّى في النصف الأول من القرن السادس، صاحب **حديقة الحقيقة**)، أحمد جام (ت 536 هـ، المشتهر بـ «جنده بيل»)، عبد القادر الجيلاني (ت 560 أو 561 هـ، له أتباع كثيرون في شمال أفريقيا)، روزبهان البقلي (ت 606 هـ، الملقّب بـ «الشيخ الشطّاح» وصاحب كتاب **عبهر العاشقين**).

الطبقة السادسة، عرفاء القرن السابع

الشيخ نجم الدين كُبرى (ت 616 هـ، أستاذ بهاء ولد، والد العارف الشهير مولانا)، فريد الدين العطّار النيشابوري (ت 626 أو 628 هـ، الشاعر الواله وصاحب **منطق الطير وتذكرة الأولياء**)، الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (ت 632 هـ، صاحب **عوارف المعارف**)، ابن الفارض المصري (ت 632 هـ)، صاحب أعمق ديوان في الشعر العرفاني

باللغة العربية)، محي الدين بن العربي الأندلسي (638 هـ)، الملقّب بالشيخ الأكبر، إذ عُدّ أبا العرفان النظري، وله كتب منها: **فصوص الحكم، والفتوحات المكّية**، وتعدّ من أهمّ النصوص في العرفان النظري)، صدر الدين القونوي (ت 672 ـ 673 هـ وهو من أبرز من شرح وفسّر آراء ابن العربي، وقد اعتبر بعضٌ من أهل الخبرة أنّ مؤلّفاته أكثر دقّة وإتقاناً من مولّفات ابن العربي)، جلال الدين محمّد البلخي، المعروف بالمولوي (ت 672 هـ، صاحب كتاب **مثنوي معنوي**)، فخر الدين العراقي الهمداني (ت 688 هـ).

الطبقة السابعة، عرفاء القرن الثامن

علاء الدولة السمناني (ت 736 هـ، عارف شيعي، خالف في مساره العرفاني آراء ومتبنّيات ابن العربي)، عبد الرزاق الكاشاني (ت 735 هـ، صاحب **شرح فصوص الحِكَم وشرح منازل السائرين**)، الخواجة شمس الدين الحافظ الشيرازي (ت 791 هـ)، الشيخ محمود الشبستري (ت 720 هـ، صاحب كتاب گلشن راز «بالفارسية»)، السيّد حيدر الآملي (لم يعلم تاريخ وفاته، صاحب كتاب **جامع الأسرار**)، عبد الكريم الجيلي (806 هـ، صاحب **الإنسان الكامل**).

الطبقة الثامنة، عرفاء القرن التاسع

الشاه نعمة الله الولي (ت 830 أو 827 أو 834 هـ، صاحب ديوان ومؤسّس طريقة النعمة الإلهيّة)، صائن الدين علي تُركة الأصفهاني (ت 830 هـ، صاحب **تمهيد القواعد**)، محمّد بن حمزة الفناري الرومي (ت 834 هـ، صاحب **مصباح الأنس** وهو شرح لكتاب **مفاتيح الغيب** للقونوي)، شمس الدين محمّد اللاّهيجي (توفّي قبل عام 900 هـ،

صاحب شرح گلشن راز «بالفارسية»)، عبد الرحمن الجامي (817 ـ 898 هـ، صاحب نفحات الأنس).

العرفان والتصوّف في مرحلته الجديدة

منذ أواخر القرن التاسع فصاعداً، طرأت متغيرات على تيّار العرفان والتصوّف، إذ يمكن القول إنّ هذا التيّار دخل مرحلة جديدة تمتاز بأربع خصائص، هي:

1 ـ منذ هذا التاريخ فما بعد، تجد أنّ أغلب روّاد وأقطاب الطرق الصوفيّة، يفتقرون إلى الدور العلمي[1]. ومن جهة أخرى، يلاحظ على الأتباع والمريدين، أنّ أغلبهم بصدد التظاهر بالآداب والظواهر الخاصّة بفرقهم والتي قد تقترن ببعض البِدع والمظاهر غير الشرعيّة.

وهذا يكشف عن أن التصوّف الرسمي، الذي كان رائجاً في الطرائق السابقة، فقد كثيراً من طابعه الثقافي الذي كان عليه، وأضحى أقرب ما يكون إلى تيّار اجتماعي. وعليه، من العبث أن يُلتمس من هؤلاء شيء من قبيل إنتاج العلم والمعرفة الأخلاقيّة والعرفانيّة.

2 ـ منذ ذلك التاريخ برزت شخصيات علمية كبيرة في العرفان النظري، تُعدّ من الطراز الأول، إلّا أنّها لا تنتسب إلى أيٍّ من هذه المجموعات والطرق الرسمية للتصوف. من قبيل صدر المتألّهين الشيرازي، الفيض الكاشاني، المير قاضي سعيد القمي، آقا محمّد رضا القمشه اي، ميرزا هاشم الأشكوري، والإمام الخميني، هذا في الوسط

---

(1) يعد بروز شخصية نظير الجنابذي صاحب تفسير بيان السعادة في هذه الفترة استثناءً.

الشيعي. وأما في الوسط السنّي، فمن قبيل محمّد بن حمزة الفناري الرومي.

3 ـ منذ القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر الهجري، ولا سيما في القرن الثاني عشر، برزت شخصيّات شيعية كبيرة، في مجال العرفان العملي والسلوك إلى الله، استطاعت أن تطوي المقامات والمنازل العرفانيّة، لتُعدّ من الواصلين إلى الله، مع أنّهم لا يعتقدون بأيٍّ من هذه الفرق والطرق الصوفيّة، بل إنّهم اعتمدوا في سلوكهم منهجاً خاصاً، أبرز ما فيه هو التأكيد على التقيّد الكامل بالشريعة، والتسليم المحض لها، إلى جانب الزهد والعزلة والمراقبة. فراحوا يهدون أتباعهم وطلّاب الكمال إلى الهدف ضمن هذا المنهج. ومن هذه الشخصيّات يمكن الإشارة إلى كلٍّ من: السيّد مهدي الطباطبائي المعروف بـ «بحر العلوم»، الشيخ محمّد البيدآبادي، الملاّ حسين قلي الهمداني، الشيخ محمّد البهاري، السيّد أحمد الكربلائي، آقا سيد علي القاضي، والميرزا جواد الملكي التبريزي.

4 ـ يلاحظ في هذه المرحلة شحّ التأليفات، في مجال العرفان العمليّ والنظريّ، وكثرة الشروح والتعليقات.

مراحل تطوّر العرفان العملي

والآن، وبعد التعرف بإيجاز على طبقات العرفاء، نبحث باختصار عن المراحل والأدوار التي مرّ بها العرفان العملي.

لقد مرّت الآراء والأفكار العرفانيّة العمليّة، خصوصاً ما يتعلّق منها ببحث مقامات العارفين أو ما عرف بمراحل السلوك، بخمس مراحل. مرحلتان منها تختصّ بما قبل التدوين، وثلاث مراحل بما بعده.

أ) قبل التدوين

1 ـ **مرحلة التأسيس والتعليم**: في هذه المرحلة نشاهد أُولى بوادر التصوّف، والتي كانت في بداياتها يغلب عليها مظاهر الزهد والبساطة. ثمّ أخذ التصوّف منحىً طقوسيّاً ومدرسيّاً وعرفاناً مُشَرَّباً بالعِشْق والمُعاشقة، شيئاً فشيئاً.

لقد تبلورت هذه المرحلة في القرن الثاني الهجري، على يد الطبقة الأولى من المتصوّفة، من أمثال الحسن البصري، معروف الكرخي، شقيق البلخي، والخرّاز. والملاحظ في هذه المرحلة أنّها لم تشهد آراءً وأفكاراً في مجال العرفان العملي بصورة محدّدة وواضحة.

2 ـ **مرحلة التبليغ والترويج**: في هذه المرحلة برزت شخصيّات صاخبة ومؤثّرة، من قبيل بايزيد البسطامي والحلاج، استطاعت أن تجتذب إليها مجاميع من الأتباع والمؤيّدين بفعل شطحيّاتهم المدهشة وتصرّفاتهم المثيرة، فراح التصوّف يتوسّع ويتعمّق في بعض طبقات المجتمع. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مع ظهور شخصيّات كبيرة ـ من قبيل جنيد البغدادي وذي النون المصري وإلى حدٍّ ما الحارث بن أسد المحاسبي وسهل التستري ـ، اكتسب العرفان العملي مضموناً أكثر نُضجاً، وبرز التصوّف بمنطق جذّاب وقويّ. وهو يمتلك عناصر مبلورة تؤهله للانتشار بين الخواصّ من أهل العلم.

ويمكن القول إنّ هذه المرحلة تكوّنت بفعل جهود الطبقة الثانية من المتصوّفة، في القرن الثالث الهجري.

ب) بعد التدوين

3 ـ **مرحلة التصنيف والترتيب**: في المرحلة اللاّحقة، والتي تزامنت

مع القرن الرابع الهجري، تمّ تدوين أُسس وأصول التصوّف ومنازل السلوك ومقامات العرفاء، على أيدي أربعة من أعلام الطبقة الثالثة من العرفاء لأوّل مرّة. وقد شرع ثلاثة منهم في التدوين في زمنٍ واحد تقريباً. وهم: سراج الطوسي[1]، والكلاباذي، وأبو طالب المكّي. وهم وضعوا ثلاثة مولّفات خالدة، هي: **التعرّف**، **اللُمَع**، **وقوت القلوب**. وأمّا الرابع فهو السُلمي حيث كتب، وبعد فاصل زمني يسير، رسائل عدّة في أصول ومعارف الصوفيّة.

وسنقتصر في كتابنا هذا على التعريف بثلاثة كتب من بين ما ألّفه هؤلاء الأربعة، تعريفاً مفصلاً. وإليك عناوينها: كتاب **اللُمَع** للسّراج، وكتاب **قوت القلوب** للمكّي، و**رسائل السُلمي**.

4 ـ مرحلة التنقيح: بلغ علم التصوّف والسلوك، بحلول القرن الخامس الهجري، أعلى مراتب النظم والإتقان، وذلك على يد اثنين من أبرز عرفاء الطبقة الرابعة، وهما الخواجة عبد الله الأنصاري وأبو حامد الغزالي. فقد قام الخواجه عبد اللّه، في كتابه **منازل السائرين**، وهو من أهمّ النصوص التي تتحدّث عن مقامات العرفاء ومنازل السير إلى الله، بشرح وتهذيب بيانات العرفاء المتقدّمين، في ما يتعلّق بمراحل تهذيب النفس، وتحديد المنازل المتوسطة منزلاً بعد منزل وتعدادها، وكذلك بداية مسار العرفاء الباحثين عن الله ونهايته. وأمّا الغزالي، فحاول ـ من خلال عددٍ من مؤلّفاته، أن يبرهن على هذه الدعوى الهامّة، وهي أنّ السبيل إلى تحصيل معارف الشريعة الحقّة والعلوم الدينيّة، هو تصفية

(1) هو أبو نصر السرّاج، المذكور سابقاً.

الباطن وهو سبيل العرفاء. وأمّا سائر المشارب والمناهج، نظير مشرب المتكلّمين والفلاسفة والفقهاء في تحصيل المعرفة الدينيّة الخالصة ونيل السعادة المقصودة لدى الشارع، فهي فاشلة ولا تأتي بخير.

لقد بذل الغزالي جهداً علميّاً عظيماً في سبيل أن يوفّق بين الشريعة والطريقة، ويطّبق إحداهما على الأخرى. كما قام بتسليط الضوء على عديد من المعارف الأخلاقيّة الصوفيّة، تحت عنوان المُهلكات والمُنجيات، في كتابيه: **إحياء العلوم**، و**كيمياء السعادة**[1].

5 ـ مرحلة التحليل والتفسير: قد يتراءى للوهلة الأولى، أنّه لا توجد مرحلة بعد مرحلة التنقيح في المسار التكاملي لتدوين العرفان العملي، ولكنّ الأمر ليس كذلك، فبحلول القرن السابع وظهور محي الدين ابن عربي وقعت حادثة جديدة، وذلك حين أقدم على تأسيس «العرفان النظري» وإعداد صياغات نظريّة لعديدٍ من البحوث الهامّة، في ما يتعلّق بـ «وحدة الوجود» و«الحضرات الخمس»، أو نشآت الوجود و«الإنسان الكامل»، أو الكون الجامع، باعتبارها النتيجة المستحصلة من عمليّة الشهود التي ينالها السالكون. وقد استطاع بما أوتي من تحليل دقيق لطبقات الوجود ولمراتب صقع النفس الإنسانيّة، وكذلك من خلال ملاحظة التناظر الموجود بين العالم الأكبر والعالم الأصغر، والتطابق

---

(1) تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من الدور الفريد الذي قام به الغزالي في بيان الوجه الشرعي لتعاليم ونظريّات المتصوّفة وقضايا العرفان والتأسيس الديني لمقولات التصوّف، إلاّ أنه مع ذلك كلّه لا يمكننا عدّ مصنّفاته من التراث الصوفي الخالص، وذلك لأنه مع حبه الشديد للتصوّف يعدّ فقيهاً، وأصوليّاً، ومتكلّماً، ومفسّراً، نابهاً، وهذا ما جعل مؤلفاته ذات طابع تلفيقي يجمع بين العرفان، والقرآن، والبرهان. ولذلك قمنا بإدراج مؤلفاته الأخلاقية في هذه الدراسة في عداد المدرسة التوفيقيّة.

الكامل بين السير الأنفسي للسالك مع السير عبر المدارج الآفاقيّة لعوالم الوجود، استطاع أن يقدّم رؤية تحليليّة عميقة لما يجده السالك في شهوده على أساس العرفان النظريّ. والملاحظ أنّ كبار شرّاح مدرسة ابن عربي، ممّن ينتسبون إلى الطبقتين السابعة والثامنة من طبقات العرفاء، نظير عفيف الدين التلمساني، وعبد الرزاق الكاشاني، وصائن الدين علي تُركه، ومحمّد بن حمزة الفناري، وشمس الدين محمّد اللاّهيجي، وآخرين، استطاعوا في ما بعد ومن خلال الاستفادة من آراء ومتبنّيات ابن عربي، أن يقوموا بشرح وتفسير أهمّ مصادر العرفان العملي بصورة علميّة وتخصّصية مثل كتاب **منازل السائرين**، وبعض أجزاء كتاب **گلشن راز** للشبستري، و**مفاتيح الغيب** للقونوي وبذلك يمكن القول إنّ المرحلة الأخيرة من طور التأسيس للعرفان العملي، بدأت بابن عربي واستمرت حتى بدايات القرن العاشر بتسارع وتطوّر ملفتين. ولكن بعد ذلك التاريخ بدأ يشهد هذا المسار تلكُّؤاً واضحاً وضموراً بيّناً في الحركة، استمرّ عليه حتى يومنا هذا.

هدف مدرسة الأخلاق العرفانيّة

ثمّة هدف كبير تتوخّاه هذه المدرسة، وهو إعداد وتربية الإنسان الكامل. والإنسان الكامل أو قُل «الكون الجامع»، يُعدّ عصارة الخِلْقة، والجامع لجميع نشآت الوجود، والغاية التي لأجلها خُلقت سائر العوالم، وهو يشتمل على جملة من الخصائص والمميّزات، نوردها كالآتي:

1 ـ شهود باطن الوجود وإدراك حقيقة الوحدة.

2 ـ انتقال الروح من عوالم المادّة، والمثال، والعقل، إلى التشرّف بمجاورة قرب الحقّ في نشأة اللاّهوت.

3 ـ قَصْرُ المحبّة على الله تعالى.

4 ـ التخلّق بأخلاق الله والاتّصاف بصفاته تعالى.

5 ـ الهرب من النفس وإرغامها، إلى حدّ التسليم والفناء في الذات والصفات، والأفعال.

الأسس المعرفية والإناسية عند مدرسة الأخلاق العرفانيّة

في ما يتعلّق بنظريّة المعرفة، يؤكّد العرفاء على منهج الشهود القلبي. ففي ضوء الاتّجاه المعرفي للعرفاء تضحي المناهج الحسّية والعقليّة مناهج قاصرة عن تحصيل المعرفة. فالإنسان لا سبيل له إلى إدراك حقائق العالم إلّا من خلال تصفية الروح وتهذيبها، وبذلك يضحي القلب متلألئاً بأنوار الحقيقة. وحينئذٍ يكون قادراً على إدراك حقائق الوجود. ومن هنا يتبيّن أنّ الحجّة في العرفان لا تستند إلى البرهان والاستدلال العقليّين، فما يقوم به العرفاء في بعض الأحيان، من بيان مدركاتهم الشهوديّة في قوالب وسياقات عقليّة، إنّما هو من باب الاستجابة للضرورة التي يُمليها عليهم الارتباط والتواصل مع غيرهم.

وأمّا في خصوص نظرتهم إلى الإنسان وما هي أُسسها ومرتكزاتها، فنقول:

أولاً: يرى المتصوّفة أنّ حقيقة الوجود الإنساني تكمن في «قلب» الإنسان. القلب هو اللباب، وأمّا العقل والحسّ والبدن، فهي قشور ليس إلّا. فإذا كان القلب عامراً، صار وجود الإنسان برمّته عامراً. وأمّا إذا اكتنف الظلام قلب الإنسان، فإنّ أمره يؤول إلى حيث السقوط والانحطاط.

ثانياً: النقطة الأساس في دراسة ووعي مدرسة الأخلاق العرفانيّة، هي تحديد طبيعة الرؤية التي يختزنها العرفاء عن حقيقة الروح ومراتبها. إذ يعتقد العرفاء أنّ صقْع النفس يشتمل على مستويات ومراتب عدّة، ينتظم بعضها فوق الآخر بشكل طولي.

وخلافاً لغيرهم ممّن يذهب إلى أنّ النفس ذات بُعْدٍ واحد، غاية الأمر أنّها تنقسم بشكل عرضي ـ مقابل طولي ـ إلى قوى عدّة: ناطقة، وشهويّة، وغضبيّة، وربما وهميّة، يعتقد العرفاء أنّ النفس ذات مساحات وأبعاد طوليّة وقابليّات واستعدادات وجوديّة، مترتّبة بشكل عمودي، بحيث إنّ كلّ بُعْدٍ ـ أو قل كلّ مستوى ـ إنّما يكون فعليّاً إذا ارتقى الإنسان من الناحية المعنويّة مرتبةً أعلى، وثمة عشر أبعاد تقابلها عشرة مراتب.

وعلى هذه المراتب يتحدّث الملاّ عبد الرزاق الكاشاني فيقول:

إنّ النفس الإنسانيّة تشتمل على ثلاثة عناصر أوّلية، هي كالتالي: النفس الحيوانيّة، الأثر الروحاني، السّر الإلهي. وكلّ واحد من هذه العناصر يشتغل بثلاثة أمور:

أ) بتدبير ما دونه.

ب) بالاشتغال بعين ذاته.

ج) بكسب الفيض ممن هو أعلى منه مرتبة.

وبذلك يكون للنفس تسعة مواقف. ومضافاً إلى هذه المراتب، توجد مرتبة للنفس ـ وهي مرتبة جامعة ـ تسمى بمرتبة «الأحدية». إذن للنفس

عشر مراتب مرتّبة ترتيباً صعودياً[1]. وقد ذكر بعض العرفاء أسماء هذه المراتب العَشْر بالشكل التالي: غيب الجنّ، غيب النفس، النفس اللّوّامة، النفس المطمئنّة، غيب القلب، غيب العقل، مقام السّر، غيب الروح، المقام الخفيّ، وغيب الغيوب (المقام الأخفى).

الحركة والنشاط في الأخلاق العرفانيّة

يذهب العارف إلى أنّ عالم الوجود يتشكّل من نشأتين، نشأة الظاهر (عالم الشهادة)، ونشأة الباطن (عالم الغيب). ويرى أنّ مرتبة الظاهر هي في الواقع درجة نازلة من مرتبة الباطن، أو قل هي رقيقة (من الرقّة) مرتبة الباطن والتي تتجلّى في الأفق السفلي من الوجود.

وعليه، فإنّ عالم اللاّهوت (الصقع الربوبي) هو باطن عالم الجَبَروت. وعالم الجبروت (عالم العقول المجرّدة) هو المرتبة النازلة من عالم اللاّهوت. وكما إنّ عالم الجبروت هو باطن عالم المَلَكوت (عالم المثال المنفصل)، كذلك عالم الملكوت هو رقيقة عالم الجبروت. وبالتالي فإنّ عالم الملكوت هو باطن عالم الناسوت (عالم المادّة)، فيعدّ عالم المادّة نازلَةَ عالم الملكوت. وكما تعلمون فإنّ المعلول هو نفس العلّة لكن بدرجةٍ أضعف وأقل، والعلّة هي نفس المعلول لكن مع ارتقاء واشتداد، بمعنى أنّ موطن كمال المعلول هو الصقع الوجودي لعلّته. وعلى هذا المنوال، ينظر العرفاء إلى الإنسان على أنّه وحسب هذه النظرة، له ظاهر وباطن، ولباطنه بواطن تتعدّد حتى تبلغ عشر مراتب كما أشرنا آنفاً.

---

(1) محمد علي حكيم، **لطائف العرفان**، ص 231.

عندما يولد الإنسان، لا يكون يعرف شيئاً سوى الأكل والنوم، بل لا يستطيع أن يعرف شيئاً وراء ذلك، وهذا يعني أنّ أقل مراتب النفس الإنسانيّة وأدناها ـ وهي النفس الحيوانيّة ـ تكون هي الفعليّة، والمؤثّرة، والفعّالة عنده ولكن بمرور الزمن ينمو الطفل ويبلغ ويتعلّم ويفكّر ويدبّر، فتتجلّى أبعاد أخرى من حقيقة نفسه، وتصل إلى مرتبة الفعليّة مع أنّ كثيرٌ من الناس تقعد به الهمّة عن تحقيق أكثر من مرتبتين أو ثلاث من مراتب النفس فلا يرقى بنفسه إلى أكثر من مرتبة النفس اللّوامة، وربما يصل بها إلى حدود مرتبة النفس المطمئنّة.

يرى العرفاء أنّ تحصيل الكمال الحقيقي وبلوغ السعادة النهائية، لا يتسنّى إلّا اذا استطاع الإنسان أن يحصل على جوهرة وجوده الكامنة في أعمق مراتب صقع النفس. ومن ثمّ يعمل على تطويرها وتنميتها في سبيل إخراج جميع مراتب السِعَة الوجوديّة إلى حدّ الفعليّة. وهذا لا يتمّ إلّا من خلال اجتياز المراتب الظاهريّة والعمل على تربية وإعداد المراتب الباطنيّة لوجوده.

من هنا، يُفترض بالإنسان ـ ومن أجل تكامل روحه ـ أن يسافر، لكن ليس المقصود به السفر في آفاق العالم الخارجي وإنّما في العوالم الأنفسيّة لوجوده، بمعنى أنّه في هذا السفر يتّحد «السائر» بـ «المسير»، كما إنّ كلاًّ من المبدأ والمقصَد والمنازل ومواقف السفر، هي الأخرى ليست وراء المسافر وخارجة عنه، أي أنّها كلّها مراتب نفس ذلك السالك.

وبذا يتّضح السّر في تدرّج الأخلاق العرفانيّة وكونها ذات مراحل عدّة. فهي أخلاقٌ ذاتُ طابعٍ سلوكي، والسالك في كلّ منزلٍ من منازل

المسير، تترتّب عليه جملة أحكام خاصّة، وتطرأ عليه عوارض تتناسب والمقتضيات الجديدة لمنزله الجديد. كما إنّ أصول تهذيب النفس وقواعده وتطهير الروح في ذلك الموقف، تختلف عن متطلّبات ومستلزمات التزكية في الموقف السابق، كما تختلف في الموقف اللاّحق. وعليه، فإنّ لكلّ منزل أخلاقيّاته الخاصّة به، إلى جانب الأصول الأخلاقيّة العامّة، وهذا هو معنى ما يقال من أنّ «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

ومن المهم القول هنا إنّ صاحب كلّ مرتبة من مراتب النفس العَشر يجب عليه أن يجتاز عشرة مواقف. وفي كلّ موقف عليه أن يشتغل بالمجاهدة. والمجاهد في كلّ موقف يصبح صاحب ذلك المقام والمرتبة. والنتيجة هي أنّه يوجد مائة مقام لابدّ للعارف السالك من أن يطويها. وهنا ينبغي التذكير بأنّ كلاًّ من مصطَلَحَيْ «المنزل» و«المقام» يمكن إطلاقه، بمعنى من المعاني، على المواقف التي تتوسّط الطريق، فمن حيث إنّ العارف يقوم باجتياز هذه النقاط، يسمّونها «منازل». ومن حيث إنّ السالك يتوقّف قليلاً عندها حتى تصدُق عليه أحكامها وتترسّخ خواصّها في وجوده، تسمّى «مقامات». وفرق هذين عن «الحال» يعود إلى أنّ المقام أو المنزل اكتسابي والسالك لا يصل إليه إلّا من خلال الرياضة، والمجاهدة، والتزكية. وأمّا «الأحوال» فهي واردات غيبيّة ومواهب تَعْرِض للسالك أثناء سلوكه.

ومن هنا قيل: إنّ «الأحوال مواهب والمقامات مكاسب». وقيل أيضاً: «الأحوال هي من الجود والمقامات من بذل المجهود».

مراتب النفس العشر ومقاماتها

والآن نتعرض إلى بيان مراتب النفس العشر والمقامات العشرة، لكلّ مرتبة من تلك المراتب[1].

1 ـ المقامات العشرة للمرتبة الأولى من النفس «أي مرتبة غيب الجنّ»،

---

(1) هنا لا بدّ من التذكير بأن العرفاء قد اختلفوا في ما بينهم في تعداد المقامات «المنازل» وفي بيان عدد الأحوال. وما أوردناه في نص الكتاب مستفاد من أهم النصوص وأكثرها إتقاناً، التي تمثّل ذروة ما وصل إليه العرفان العملي في مرحلته المتقدّمة وهو كتاب «**منازل السائرين**» للخواجه عبد الله الأنصاري .وإلّا فقد ذكروا للمقامات أعداداً أخرى مختلفة منها: 7 و40 و44 و. . . ، كما إن بعض المقامات التي أشار إليها الخواجه عبد الله الأنصاري عدّها بعضهم من «الأحوال»، كالأحوال العشر التي ذكرها السّراج الطوسي في كتابه «**اللمع**»، حيث ورد ذكر أكثرها في كتاب «**منازل السائرين**» على أنها من المقامات. وسبب الاختلاف في تعداد المقامات والأحوال يكمن في هذه النقطة. وهي أنّ ما يقوم به العرفاء من وصف للمقامات العرفانية ومنازل السلوك، هو في الواقع إخبار عن التجارب الباطنيّة المتعالية التي تحصل لدى النفس، والتي يمكن إدراجها ضمن فرع جديد من فروع علم النفس، يطلق عليه اسم «علم النفس الرقي» Gorwth psychology.

ومن الملاحظ أنّ كل واحد من العرفاء الكبار، يقوم بإعداد تقرير عن التجربة الباطنيّة التي مرّ بها من خلال سيره المعنوي أو قل سفره الباطني. ومن ثم يبسّط الكلام في شرح هذه التجربة، ويعدّد المقامات وفقاً لعدد المحطات التي مرّ بها. وهنا توجد ملاحظتان أساستان، وهما:

أولاً: تختلف قدرات الأفراد وقابليّاتهم في السلوك، فبعض من الأكابر والكمّل من الأولياء، قد يصلون إلى المقصد عبر طريق خاص مختزل، وبالتالي لا يمر على بعض هذه المقامات. وهذا نظير ما يحدث للنوابغ في بعض الأحيان إذ تجدهم يطوون مراحل عدّة، بين المعلوم والمجهول، ضمن حركة دفعيّة واحدة، من هنا، فإن شرّاح منازل السائرين تنبّهوا إلى هذه النقطة، وهي أنّ هذا الترتيب الذي عليه المقامات، إنما هو بلحاظ المتوسطين من أهل السلوك، ويصدق في حقهم.

ثانياً: كما قيل في محلّه فإن بعض السوانح والواردات التي يمرّ بها السالك، قد تظهر له في بداية الأمر على أنها من قبيل «الأحوال» العابرة؛ لكنها بالنسبة إلى أهل النهايات تظهر على نحو «المقام» والملكة المستقرّة. وهنا يكمن أحد أسباب الاختلاف الموجود بين العرفاء في ما يتعلق بذكر عدد المقامات.

هي: اليقظة، التوبة، المحاسبة، الإنابة، التفكّر، التذكّر، الاعتصام، الرياضة، الفرار، السماع. وتسمّى بـ «البدايات».

2 ـ المقامات العشرة للمرتبة الثانية من مراتب النفس «مرتبة غيب النفس»، هي: الحزن، الخوف، الإشفاق، الخشوع، الإخبات، الزهد، الورع، التبتّل، الرجاء، الرغبة. ويُطلق على مجموعها اسم «الأبواب».

3 ـ المقامات العشرة للمرتبة الثالثة من مراتب النفس «مرتبة النفس اللوامة»، وهي: المراعاة، المراقبة، الحرمة، الإخلاص، التهذيب، الاستقامة، التوكّل، التفويض، الثقة، التسليم. ويُطلق عليها بأسرها اسم «المعاملات».

4 ـ المقامات العشرة للمرتبة الرابعة «مرتبة النفس المطمئنة»، وهي: الصبر، الرضا، الشكر، الحياء، الصدق، الإيثار، الخُلُق، التواضع، الفتوّة، الانبساط. وتُعرف بمجموعها بـ «الأخلاق».

5 ـ المقامات العشرة للمرتبة الخامسة من مراتب النفس «مرتبة غيب القلب»، وهي: القصد، العزم، الأدب، الإرادة، اليقين، الأنس، الذكر، الفقر، الغنى، المراد. وتُسمّى بـ «الأصول».

6 ـ المقامات العشرة للمرتبة السادسة من مراتب النفس «مرتبة غيب العقل»، وهي: الإحسان، العلم، الحكمة، البصيرة، الفراسة، الإلهام، التعظيم، السكينة، الطمأنينة، الهمّة. وتُعرف مجموعها بـ «الأودية».

7 ـ المقامات العشرة للمرتبة السابعة من مراتب النفس «مرتبة مقام السّر»، وهي: المحبّة، الغيرة، الشوق، القلق، العطش، الوجد،

الدهش، البرق، الهَيَمان، الذوق. وتُدعى بـ «الأحوال».

8 ـ المقامات العشرة للمرتبة الثامنة من مراتب النفس «مرتبة غيب الروح»، وهي: اللّحظ، الوقت، الصفاء، السرور، السر، النَفَس، الغربة، الغَرق، التمكن، الغيبة. وتُسمّى بمجموعها بـ«الولايات».

9 ـ المقامات العشرة للمرتبة التاسعة من مراتب النفس مرتبة «المقام الخفي»، وهي: المكاشفة، المشاهدة، المعاينة، الحياة، القبض، البسط، السُكر، الصحو، الاتصال، الانفصال. وتُسمّى بـ «الحقائق».

10 ـ لمقامات العشرة للمرتبة العاشرة من مراتب النفس «مرتبة غيب الغيوب». وهي: المعرفة، الفناء، البقاء، التحقيق، التلبيس، الوجود، التجريد، التفريد، الجمع، التوحيد وتُسمّى بـ «النهايات».

وبذا يتّضح أنه عندما تُتِمُّ كلّ مرتبةٍ من مراتب النفس أسفارَها العشرة، ففي الحقيقة تعرج الهويّة الإنسانية وإثْرَ حركةٍ جوهرية، من المرتبة الحيوانيّة إلى مرتبة ما فوق الملك ومقام الخلافة الإلهيّة. وثمّة نقطة هامة، وربما غامضة بعض الشيء، تجدر الإشارة إليها، لها علاقة بكيفيّة ترتب المقامات بعضها على بعضها الآخر، نذكرها بشيء من التوضيح:

ذكر كبار المحقّقين من أهل السلوك من أمثال الملاّ عبد الرزاق الكاشاني، أنّه يجب أن لا نتصوّر أن ترتيب المقامات يشبه مدارج السلم الواحد، بحيث إنّ السالك متى ارتقى درجة، فهذا يعني أنّه اجتاز الدرجة السابقة واستغنى عنها بالكامل، بل يجب أن يعلم أنّ كلّ واحدةٍ من هذه المقامات المائة ـ في السير إلى الله ـ لها عشر صور وعشرة مظاهر خاصة

بها، إحداها تتجلّى في الطبقة المرتبطة بها، والتسع الأخرى تتجلّى في الطبقات لتسع من المقامات الأخرى.

علمنا في ما سبق أنه يوجد مائة مقام، تتوزّع على عشر طبقات، هي: البدايات، الأبواب، المعاملات، الأخلاق، الأصول، الأودية، الأحوال، الولايات، الحقائق، النهايات.

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ كلّ واحدة من هذه المقامات المائة ـ والتي هي بالأساس تقع في واحدة من هذه الطبقات العشر ـ لها تسع تجلّيات وظهورات. وبعبارة أخرى لها تسعة أنماط من الحضور والتجلّي في الطبقات التسع الأخرى. فمثلاً التوبة باعتبارها المقام الثاني من المقامات المائة، والتي تتعلّق بالطبقة الأولى من المقامات، أي طبقة «البدايات»، لها نوع من الحضور الاندماجي وغير المباشر في الطبقات التي تلي طبقة البدايات. بمعنى أنّ العارف ـ السالك ـ الذي طوى المنازل العشر الأول، ووصل إلى الطبقة الثانية من المقامات «الأبواب» (أي من المقام الحادي عشر وحتى المقام العشرين)، عليه أن يجدّد توبته مرة أخرى، ولكن ضمن مقتضيات الظروف التي تحكم هذه الطبقة، وبقدر المعرفة والظرفية الجديدة التي حصل عليها. وهكذا عندما يبلغ مقامات الطبقة الثالثة، أي طبقة «المعاملات»، عليه أن يجدّد التوبة مرة أخرى. وهكذا حتى يصل الطبقة العاشرة.

وبنظرة فلسفيّة يمكن القول، إنّ المقامات السفلى هي في الواقع مراتب نازلة لوجودٍ أشدّ للمقامات العليا، أي أنّ المقامات الدنيا موجودة بنحو اندماجي في صقع المقامات العليا. وهو من قبيل ما نقوله من أن كلّ طبقات المعلولات والمخلوقات قبل الخلقة، وقبل انتشار الكثرة من الوحدة، موجودة بنحو اندماجي في صقع العلم الأزليّ الإلهيّ. ومن

جهة أخرى فإنّ كلّ واحد من المقامات العليا أيضاً، له وجود ضعيف ورقيق في الطبقات الأدنى من طبقته الأصليّة التي هو فيها. فمثلاً مقام «السرور»، باعتباره المقام الرابع والثمانين، هو في الأصل متعلّق بالطبقة الثامنة من المقامات أي طبقة «الولايات». ولو أنعمنا النظر لوجدنا أنّ السالك إلى الله وإن كان يصل إلى حقيقة «السرور» بعد أن يطوي الطبقات السبع الأولى من المقامات، ولكن هذا لا يعني أنّه ـ وعندما كان في سيره في الطبقة الأولى، أو الثانية، أو الثالثة، أو الخامسة، أو السادسة، ـ لا حظّ له من السرور والبهجة العرفانيّة. فهو بمقدار معرفته واندراجه تحت الولاية الإلهيّة، يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، فحزن الابتعاد وهمّ الغُربة، والظلمة، والحاجة، يتبدّل إلى سرور وبهجة بمقدار تقرّب السالك إلى الله تعالى. وببيان دقيق، لمّا كانت المقامات النازلة تعدّ «رقيقة» بالنسبة إلى المقامات العليا، وفي المقابل المنازل العليا هي «حقيقة» في المنازل الدنيا، إذن في ضوء حمل «الحقيقة ـ الرقيقة»، تكون النسبة بينهما نسبة مساواة، فكلّ المقامات جارية بعضها في بعضها الآخر، نزولاً وصعوداً والكلّ متحقّق في كلٍّ من الكلّ.

في ضوء ما قلناه من أنّ كلّ واحدة من المقامات، له عشرة تجلّيات في الطبقات العشر من المقامات، عدّوا منازل السائرين إلى الله ألف منزل، وذلك من خلال ضرب مائة مقام في عشر طبقات.

وهذا ما يفسر لنا سرّ النشاط والحيويّة التي يشتمل عليها نظام الأخلاق العرفانيّة. فالأخلاق العرفانيّة وخلافاً لجميع الأنظمة الأخرى،

---

(1) سورة يونس: الآية 62.

ترسم للأخلاق الإنسانيّة مساراً محدّداً، له نقطة انطلاق ومبدأ وله مقصد وله أيضاً منازل محدّدة تتوسط بين المبدأ والمقصد. والسبيل إلى الكمال والسعادة، لا يتيسر إلّا من خلال الحركة المستمرّة في هذا المسار. وإذا أردنا النظر إلى الفضائل والرذائل، من هذه الزاوية، فيمكن تصوير مجموعة الرذائل والفضائل على صورة عناصر، كلّ عنصر يشتمل على طبقات عدة. والسالك في حركته التكامليّة (الصعوديّة) تتجلّى له عند كلّ طبقة حقيقة إحدى الفضائل وتكون حاضرة لديه. وهذه الخصوصيّة هي التي تميّز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس.

ج) قراءة مقارنة بين المدرستين الفلسفيّة والعرفانيّة

بما أنّ استحضار المميّزات وخطوط الافتراق، بين الاتجاهين الفلسفيّ والعرفانيّ، أمر ضروريّ بالنسبة إلى كلّ باحث في مجال الأخلاق الإسلاميّة. بناءً على ذلك، نحاول هنا أن نعقد مقارنة إجماليّة بين هاتين المدرستين في محاور عدة[1].

---

(1) تجدر الإشارة إلى أنّ عقد مثل هذه المقارنة بين الاتجاه الأثريّ والاتجاه التوفيقيّ، وبيان النسبة بينهما وبين كلّ من الاتجاهين الفلسفي والعرفاني، لا يتمتّع بتلك الضرورة. وذلك وكما سيأتي في ما بعد، لأنّ التراث الذي وصلنا في ما يتعلّق بالأخلاق الأثرية يفتقر إلى العناصر والملاكات التي ينبغي أن تتوفر ويشتمل عليها كمدرسة أخلاقيّة. وبالتالي فإنّ الأخلاق الأثريّة لا تتحمّل إجراء دراسة مقارنة بصددها. وأما في خصوص الأخلاق التركيبيّة فلا وجه للمقارنة، وذلك لأن الهويّة التركيبيّة لهذه المدرسة ناشئة بالأساس من عناصر من كلا الاتجاهين الفلسفي والعرفاني. وواضح أنّ هذه المدرسة هي في الواقع محاولة استيفاء لمضامين هذين الاتجاهين بضميمة معطيات الأخلاق الأثريّة. بناءً على ذلك فإنّ نسبة الأخلاق التوفيقيّة إلى أيّ من الاتجاهين الفلسفي والعرفاني ليست نسبة «التباين».

والحال أنّ النسبة بين الاتجاهين الفلسفي والعرفاني في بعض المواقف، لا تقف عند التباين، بل ربما تصل إلى حدّ التعارض.

لا شكّ في أنّ من أهم أوجه التمايز بين اتجاهين أخلاقيين والذي يفرّق بينهما بشكل كامل، هو التمايز في «الأُسس»، و«الغايات»، و«المنهج». وبإمكاننا أن نطلق على أوجه التمايز هذه تسمية «الفوارق الجوهريّة». وهذه الفوارق من شأنها أن تحدّد وجهة كلّ كتاب أخلاقي وإلى أيٍّ من النظم الأخلاقيّة الموجودة ينتسب، ومضافاً إلى هذه الوجوه ثمة وجوه تمايز أخرى، غالباً ما تكون ناظرة إلى الجوانب الإثباتيّة والمنهجيّة المتّبعة في عرض مواضيع الكتاب. والتي يمكن التوصّل إليها من خلال دراسة المصاديق التاريخيّة لكلّ مدرسة من هذه المدارس والمقارنة بينها. وقد سمّينا هذه الفوارق بـ «الفوارق العرضيّة». وهنا نتعرّض بالتفصيل إلى بيان بعض الفروق الموجودة بين الاتجاهات الأخلاقيّة.

أما غاية الأخلاق الفلسفيّة والأخلاق العرفانيّة، فقد سبق أن تحدّثنا عنها بالتفصيل.

إنّ الاختلاف الموجود بين الحكيم والعارف، في نظرتهما إلى الغايات، هو الذي أدّى بمدرسة الأخلاق الفلسفيّة إلى الاهتمام بفضيلة «الحكمة»، أكثر من الفضائل الأخرى نظير «العفّة» و«الشجاعة» و«العدالة». وبالتالي أدّى إلى أن تولي هذه المدرسة اهتماماً أكبر بالأخلاق الفردية، قياساً بالأخلاق الاجتماعيّة، فمن الناحية الكميّة، نجد أنّ الأخلاق الفرديّة قد شغلت أكثر من نصف حجم الكتب الأخلاقيّة المنتسبة إلى هذه المدرسة. والسّر في ذلك يعود إلى التأكيد والاهتمام الزائد الذي توليه هذه المدرسة لتهذيب القوة الناطقة. كما نجد أنّ العناوين الأخلاقيّة المعنيّة بشؤون الأسرة يقلّ نصيبها في

القسم المختصّ بالأخلاق من الكتب الفلسفيّة، وإن بحثت بعض هذه العناوين في أبواب «تدبير المنزل».

والملاحظ أنّ كثيراً من كتب الأخلاق الفلسفيّة يفتقد بالكامل إلى عناوين مرتبطة بـ «أخلاق العبوديّة»، نعم، وردت بعض الإشارات في بعض الكتب. فعلى سبيل المثال، **طهارة الأعراق** لمسكويه، مع ما فيه من شموليّة واستيعاب لأهمّ المحاور المطروحة في علم الأخلاق، إلّا أنّه عندما يذكر قائمة من الفضائل المندرجة تحت الشجاعة، والعفّة، والحكمة، والعدالة، نجده يغفل عن ذكر مجموعة من الفضائل التي تذكر في بحث «أخلاق العبوديّة»، ولها انعكاساتها في الأدبيّات الدينيّة، وهي: التوكّل، والخوف، والرجاء، والرضا، والتسليم، وغيرها من الفضائل. فهو بعد أن يتحدّث عن أصل مفهوم العبادة والعبوديّة، يشير إلى مفهوم التقوى فقط فيقول: «والعمل بما توجبه الشريعة وتقوى الله تعالى يتمّم هذه الأشياء ويكمّلها»[1].

في المقابل نجد أنّ كتب ومصادر السير والسلوك العرفاني، قد خصّصت حجماً كبيراً من عناوينها لأخلاق العبوديّة والأخلاق الفرديّة. وأمّا العناوين المرتبطة بأخلاق الأسرة والأخلاق الاجتماعيّة، فقلّما تجد لها أثراً في مثل هذه الكتب. نعم، لو قدّر أن يتوسّع في شرح أحوال

(1) مسكوية **طهارة الأعراق**، ص 45.

(2) يذكر العرفاء أربعة أسفار للسالك هي: من الخلق إلى الحق، بالحق في الحق، من الحق إلى الخلق، بالحق وبالحق في الخلق. السفران الأول والثاني يتمّان في قوس الصعود. وأما السفران الثالث والرابع فيحدثان في قوس النزول. السفر الأول من المخلوق إلى الخالق، والسفر الثاني في نفس الخالق، بمعنى أن العارف سيتعرّف على الصفات والأسماء الإلهيّة ويتصف بها. وفي السفر الثالث يعود السالك إلى الخلق من دون أن ينفصل عن الله، بمعنى أنه في الوقت الذي هو بمعيّة الله، يعود إلى الخلق بهدف إرشادهم =

العارف في سفري السلوك الثالث والرابع في كتب المتصوّفة[1]، لكان وُجد مجال أكبر لطرح موضوع الأخلاق الاجتماعيّة بقوة. لكنّ الكتب التي بين أيدينا لا تبحث سوى عن علاقة العبد بالله ومنازل حركة السالك، حتى يصل إلى مرحلة الفناء والتوحيد، ولم يُذكر فيها منزل آخر.

تجدر الإشارة إلى أن نظام الأخلاق الفلسفيّة، من المنظور المعرفي، يقوم على أساس محوريّة العقل، وأنّ الإنسان كلّه فكر ومعرفة. كما ينظر إلى المعرفة العقليّة على أنها ذروة المعرفة الإنسانيّة. فالإدراك من وجهة نظر الفيلسوف عبارة عن الفهم العقلاني. ولذا تجد أنّ مهمة الفيلسوف هي تنمية وترشيد الجانب العقلي في الإنسان. وعليه، فهو يعتقد أن آخر مرحلة يمكن للعارف السالك أن يتوصّل إليها، هي عالم العقول والمجرّدات.

أمّا الأخلاق العرفانيّة، فهي من حيث الأُسس المعرفيّة، تبتني على أساس محوريّة الشهود. فالعارف ـ وخلافاً للفيلسوف ـ يرى في المعرفة القلبيّة والشهوديّة، ذروة المعرفة وكمالها. والإدراك الحقيقي من وجهة نظرة يرقى فوق الإدراك العقلاني. ومن هنا بالذات، نرى أنّ مهمته هي تنمية وتقوية الجانب الروحي والشهودي لدى الإنسان.

وبذا يتبيّن أنّ الأُسس والمنطلقات التي تشكّل بمجموعها المنظور الذي يختزله العارف عن الإنسان، تختلف عمّا هي عليه لدى الفيلسوف. فالأول ينظر إلى «القلب» على أنّه جوهرة الوجود الإنساني بينما يرى الثاني أنّ العقل هو جوهرة الوجود الإنساني. أضف إلى ذلك أنّ العرفاء

= وهدايتهم ومساعدتهم، والسفر الرابع فهو بين الخلق ومع الحق، وفي هذا السفر يكون مع الناس وبينهم، يسعى في تسيير أمورهم ليسوقهم بالتالي نحو الحق تعالى.

يعتقدون بوجود مراتب طوليّة للأبعاد الوجوديّة للإنسان ولحقيقته أيضاً.

فهم ـ وكما رأينا ـ يذكرون للنفس عشر مراتب. بينما لا يمتلك الفلاسفة مثل هذه الرؤية. ولكنّهم يرون أنّ للنفس ثلاث قوى في عرضٍ واحد، هي: الشهويّة والغضبيّة والناطقة.

وطبيعيّ أن يسري الاختلاف الموجود بين الاتجاهين، الفلسفي والعرفاني، في مجال الأُسس والمنطلقات وفي مجال الغايات، إلى «المنهج». ولعلّ من الصحيح أنّ نقول: إنّ «الاختلاف في المنهج» هو بالأساس من تجلّيات ومن مظاهر الاختلاف في المنطلقات والأهداف. والمقصود من المنهج هنا، منهج الاستدلال والمنهج المتّبع في تدعيم التعاليم الأخلاقيّة.

وفي ضوء المدرسة الفلسفيّة، يُصار إلى برهنة النظريّات ـ والتعاليم الأخلاقيّة ـ على أساس البرهان العقلي، إذ يسعى الفيلسوف إلى تدوين منظومة قِيَميّة. وذلك بالتأكيد على محوريّة العقل. فالمحور والمرتكز الذي يعتمده الفيلسوف في إثبات التعاليم والنظريّات الأخلاقيّة، هو التحليل العقلي والنفسي، إلى جانب الاهتمام بالمناشئ والآثار المترتبة على العمل. ولو نظرنا إلى التراث الفلسفي الموجود، لرأينا أنّه يشتمل على كمّ كبير من الأدلّة العقليّة والسيرة العقلائيّة، وأقوال الحكماء، والحقائق المرتبطة بالإنسان، وتحليل مسائل النفس وقضاياها، والتجارب الإنسانية، والمسلّمات الفلسفية، في حين نجد أنّ اعتمادها على الآيات والروايات محدودٌ للغاية.

ومن هذا المنطلق بالذات، نجدهم يكتفون ـ في مجال الآثار المترتّبة على الأفعال، والتصرّفات، والمَلَكات الأخلاقيّةـ، بذكر «الآثار

الدنيويّة» إلى حدٍّ ما. هذه الطريقة في بعض المصادر الفلسفيّة، ربما توهم الإنسان بالاعتداد بنفسه والاستغناء عن الإرشاد الأخلاقي للشريعة في ظلّ التمسّك بالعقل[1].

أما في الأخلاق العرفانيّة الأصيلة، فالمحور الأساس لتبرير صحّة القضايا الأخلاقيّة هو الشهود. وعليه، لا سبيل لتصديق ما يقوله المتصوّفة، إلّا السلوك العملي المؤدّي إلى الإدراك الشهودي. ومن هنا نجد أنّ أخلاق الصوفّية ـ كما هو واضح من كتبهم، غالباً ما تقتصر على وصف وبيان مراحل ومنازل السلوك، من دون أن تتعرّض إلى الاستدلال. كما إنّ السّر في كثرة اعتمادهم على أقوال مشايخ المتصوّفة، في كتبهم العرفانيّة، يكمن في هذه النقطة.

وهنا لا بدّ من التنويه بحقيقة وهي أيضاً أنّ العرفاء قد استفادوا من العقل والنقل في بيان دعواهم. ويجدر القول إنّ المصادر العرفانيّة عادة ما تكون مشحونة بالأدلّة القرآنيّة والروائية. ومن العرفاء من حاول أن يظهر إلى الملأ وجود مواءمة واتفاق بين ما يقرّره من آراء وأفكار وبين تعاليم الوحي، ليتخلّص بذلك من التهم التي قد تلحق به، من قبيل البدعة والاعتماد على الذاتي من دون التنوّر بالمصادر الإسلاميّة.

إلى جانب ذلك، يُلاحَظ أنّ الاستدلال والتحليل العقلاني قد يسري إلى الكتب العرفانية، خصوصاً بعد ابن عربي، إلّا أنّ ثمة نقطة هامة في ما يتعلّق بمنهجيّة العرفاء وهي أنّ هذا المنهج لا يتقوّم بالبيان العقلي،

---

(1) تجدر الإشارة إلى أنّ كتاب **الطب الروحاني**، بسبب المنحى العقائدي لمؤلّفه، قد أغفل ذكر النتائج الأخرويّة للسلوكيّات الأخلاقيّة عن عمد. إذ إنّ المؤلّف ينفي وجود ضرورة لإرسال الرسل والشريعة. انظر هذا الكتاب، الفصل الخاص بمدرسة الأخلاق الفلسفيّة، تعريف بـ«الطب الروحاني».

فهذا البيان إنّما هو صرف ترجمة وتقرير، للمدركات الشهوديّة، بلغة العقل العامة والعلم الحصولي.

فالمبدأ في إثبات القضايا العرفانيّة إنما هو الإدراك القلبيّ والشهوديّ، ومن دون هذا الإدراك لا يبقى اعتبار لتعاليم الأخلاق العرفانيّة.

ولا شك في أنّ البيانات العقليّة والاستدلالات التي تتضمّنها الأخلاق الفلسفيّة (الحكمة العمليّة)، ليست صعبة ومعقّدة للغاية، بخلاف ما تضمّنته الحكمة النظريّة من بحوث وأفكار ـ، لذا يمكن تصوّرها بسهولة ومن ثم التصديق بها. وبناءً على ذلك، فإنّ بحوث ومضامين العرفان الأخلاقيّ تقبل التبسيط، ومِن ثمّ يمكن عرضها في المنتديات العامة وعلى الطبقة المتوسّطة من الناس.

أمّا بالنسبة إلى الفلاسفة، فقد التزموا قالب الإقناع العقلاني من دون أن يراهنوا على أُسلوب الإثارة والتأجيج العاطفي، فراحوا يتحدّثون إلى الناس بلغة استدلاليّة وفلسفيّة جافة، قد تورث في بعض الأحيان الملل والسأم لدى الناس. فالفلاسفة وإن كان خطابهم موجّهاً بالأصل إلى عموم الناس، إلّا أنّهم وبسبب إصرارهم على التمسّك بقوالب وسياقات متعسّرة الفهم، ومصطلحات علميّة معقّدة، عجزوا عن التواصل مع غير النخب والعلماء.

وفي المقابل، فإنّ الأخلاق العرفانيّة هي أخلاق تختصّ بفئة وطبقة خاصة ولها مخاطبها الخاص. فأخلاق العرفاء، بخلاف الأخلاق الفلسفيّة والتي تشتمل على لغة مشتركة وهي لغة العقل، لا يمكن عرضها على عامة الناس.

نعم، ثمة أشخاص قلائل بمقدورهم التواصل مع المفردات والمصطلحات العرفانيّة والانفتاح عليها، ذلك لأنّهم تجهّزوا بالكشف والشهود، ولم يعتمدوا على العقل، لكن، على الرغم من هذه الخصوصية، نجد أنّ الأخلاق العرفانيّة واجهت تفاعلاً من قبل عموم الناس أكثر من الأخلاق الفلسفيّة. ولعلّ هذا النجاح الذي حقّقته الأخلاق العرفانيّة يعود إلى عوامل عدة نوردها كالآتي:

أ) لقد تنبّه العرفاء والمتصوّفة، وبشكل جيّد، إلى الدور الفاعل والمؤثّر الذي تقوم به العواطف الإنسانيّة. ولذا تجدهم قد استفادوا من الفن، والأدب، والشعر، والخطابة، والموعظة، للتأثير على قلوب مخاطبيهم التي تغطّ في سباتها. ولا بدّ من القول هنا إنّ الأدب العرفاني الغني، بما لديه من شخصيّات كبيرة، نظير الخواجة عبد الله الأنصاري وسعدي الشيرازي وحافظ ومولوي وغيرهم، وبما امتاز به من صناعات أدبيّة لطيفة ومحسّنات لفظيّة ومعنويّة، وبما تضمّنه من الحكاية والتشبيه والتمثيل ـ نظماً ونثراً ـ استطاع هذا الأدب أن يجد له مكانة وموقعاً لدى الخاصة والعامة وأن يتواصل مع عموم الناس بسهولة.

جدير ذكره أنّ حلاوة وجاذبيّة حديث العرفاء، وإن جعلت خطابهم مسموعاً ومُرضياً لدى الجميع، ويستشهد به حتى صغار الكسبة، لكن لا يمكن أن نتوقع أنّ بمقدور عامة الناس أن يدركوا المفاهيم العرفانيّة ويحيطوا بما فيها.

ب) لا ريب في أنّ المفاهيم العرفانيّة تفوق مستوى وعي الناس وإدراكهم وعادة ما تحاط بهالة من الإبهام والإجمال. فمفردات

من قبيل: القلق، العطش، الوجد، الدهشة، البرق، الهياج والإثارة، اللّحظ، الوقت، المكاشفة، الشهود، السكر، الصحو، الاتصال، الفناء، البقاء، الجذبة إلى غير ذلك من المفردات، تثير المخاطب وتلفت انتباهه، وتحفز فيه حب الاستطلاع. وذلك لما تتّسم به من الإبهام والإجمال في النص العرفاني. كما أنّها تنتج أجواء من القدسيّة، وتضفي شيئاً من الجاذبية والإغراء على النص وتفتح أمام المخاطب المجال ليستلهم رؤىً متعددة وألواناً من الفهم ترتبط بالمؤدّى العرفاني، عبر علائق سلسة ومحببة لدى النفس في آن واحد، ما يؤدي بالتالي إلى أن يكثر المرتادون على الأدب العرفاني، ليظن كل واحد منهم أنّ بيت القصيد هو ما تتطلع إليه نفسه. وبذلك يقتنع المخاطب بمؤدّى النص، حسب تشخيصه وفهمه وليس وفقاً لما يبغيه صاحب النص.

ج) الملاحظ أنّ عامة الناس يتطلّعون ـ بحسب فطرتهم التي تنشد الكمال والوصول إلى الله دوماً ـ إلى المعنويّة وإلى التعالي والرفعة، وينفرون من التعلّقات الماديّة والأنماط الرتيبة المتكرّرة التي تخلو من الجدّة والظرافة. في غمرة هذه التطلّعات، يظهر العرفاء في زيّ القداسة، يدعون الناس إلى حيث الكمالات المعنويّة، ويظهرون وكأنّهم الملاذ والملجأ الرغيد الذي يدغدغ أحاسيس الإنسانية القابعة في حصار المادة، وقد أعياها التكالب على الدنيا واللّهاث وراء متاعها الرخيص، فباتت وعين رجائها نحو السماء.

لقد حاول العارف والفيلسوف أن يؤثّرا على مخاطبهما ولكن بما أن

إنسان الفلاسفة كائن لوحظ فيه جانب العقل فقط، لذا نجد أنّ الطابع العقلاني هو الغالب في تراثه. ولما كان الإنسان ـ من منظار العرفاء ـ يقتصر على القلب فقط، جاء تراثهم متميزاً بالطابع العاطفي وحسب. لقد أنكر الفلاسفة الخطاب العاطفي، أو تجنبوا استخدامه عن قصد واختيار، وفي المقابل امتنع أكثر العرفاء عن التزام الخطاب العقلاني الإقناعي. ولكن ثمة مفكّرون وخطباء حاولوا نقل التراث الفلسفي إلى عامة الناس وذلك عبر أسلوب التشبيه والتمثيل والحكاية والشعر والأدب؛ وكان النجاح حليفهم في محاولتهم هذه. ويمكن أن نجد في كتاب «أخلاق محتشمي» نموذجاً لمثل هذه المحاولات.

ويلاحظ في كتب الأخلاق الفلسفية ومصادرها أنّ اهتمامها بالآيات والروايات قليل، حيث نجد أن البعض ممن ألّف في هذا المجال، لم يحرص على ذكر المستندات والمؤيّدات الشرعيّة لما يطرحه من وصايا أخلاقيّة. ومن هنا يطرح هذا التساؤل: هل تمثّل الأخلاق الفلسفيّة الاتجاه الإسلامي للأخلاق؟ وهل أنها من مصاديق النظم والسياقات المقبولة في إطار منهج الأخلاق الإسلاميّة؟

لا شك في أن الإجابة عن هذا التساؤل بـ «نعم» يبتني أساساً على نقاط لا بدّ .س افتراضها والتسالم عليها أولاً، من قبيل أن تكون هذه المنظومة ـ في جميع الأصول والفروع ـ متطابقة مع عناصر ومقوّمات الأخلاق الإسلاميّة، وأن لا يكون هناك تباين على صعيد جوهر الخطاب الأخلاقي والأساليب التربوية، بل نفترض أنّ ثمة انسجاماً وتماهياً بين الاثنين. كما علينا أن نفترض سلفاً أن عملية تنسيب مدرسة أو مذهب فكريّ ما إلى الدين تقوم على أساس عنصر جوهريّ وحاسم، وهو وحدة المضمون ووجود تطابق في الخطابات. وأمّا الاستناد إلى

النصوص الدينيّة، فليس هو الأساس في عملية التنسيب هذه. في ضوء هذا التسالم والمفترضات يمكننا القول إنّ الأخلاق الفلسفيّة هي أيضاً أخلاق دينيّة، على الرغم من أنها ـ في مقام إبراز وبيان الخطاب المعتمد لديها ـ تستفيد من قوالب وسياقات عقلانيّة لم يستند فيها بشكل صريح على شواهد دينيّة ونقليّة. وعلى كلّ حال، لا يمكننا التغافل عن عناصر القوة الموجودة في الطرح العقلاني، وإهمال دوره الكبير على صعيد بيان حقائق الوحي، والدفاع عن التعاليم الدينيّة والشرعيّة بلغة العقل الإقناعيّة، وأيضاً على صعيد نشر تلك التعاليم والترويج لها.

د) الأخلاق الأثريّة (النقليّة)

يطلق هذا العنوان على مجموعة التصانيف التي تُعنى بالتأكيد على الروايات الأخلاقيّة جمعاً وتبويباً، من قبيل **مشكاة الأنوار** للطبرسي، و**غرر الحكم** لعبد الواحد الآمدي، و**الزهد** لحسين بن سعيد الأهوازي، و**مصادقة الإخوان** للشيخ الصدوق.

هذا على صعيد التراث الشيعي، وأمّا من تراث أهل السنّة فنذكر كلاًّ من **شعب الإيمان** للبيهقي، و**الأدب المفرد** للبخاري، و**كتاب الزهد** لعبد الله بن مبارك، و**رسائل** ابن أبي الدنيا، حيث تُعدّ هذه الكتب من أبرز ما صُنف قديماً في هذا المضمار عند المدرسة السنّية.

عموماً يمكن القول ولو بشيء من التسامح، إنّ ثمة مفروضاً تسالم عليه مصنّفو هذا الاتجاه في ما بينهم ـ وان لم يلتفتوا إليه بنحو تفصيلي ـ وهو «ارتباط الأخلاق بالوحي». وبعبارة موجزة، يمكن القول إنّ القاسم المشترك، بين هذا النوع من التصنيفات إنما هو الاعتقاد بأنّ الوحي هو المصدر الوحيد ـ أو قل المصدر الأهم ـ للأخلاق. وأمّا محاولات

التدعيم والبرهنة على القضايا الأخلاقيّة بمناهج أخرى، من قبيل المنهج العقلي، أو منهج الكشف والشهود العرفاني، فهي محاولات غير مجدية أو غير كافية على الأقل.

والملاحظ على هذه المصنفات أنها تذكّر بمقولة الأشاعرة قديماً وهي الحُسن والقُبح الشرعيّان، هذا بالرغم من أنك قد لا تستطيع أن تجد تصريحاً لأحدٍ من رموز هذا الاتجاه ـ أي الاتجاه الأشعري ـ في كتبهم.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أننا لا نمتلك دليلاً تاماً على مثل هذا الاستبطان لهذه العقيدة. وربما توجد استظهارات أخرى قد تكون وجيهة في حق بعض رموز هذا الاتجاه. ومن المحتمل أنّ أشخاصاً من مثل الكليني والحسين بن سعيد والشيخ الصدوق وعلي بن الحسن الطبرسي، إنما كتبوا في الاتجاه الأثري انطلاقاً من تخصّصهم في تدوين الحديث، من دون أن يكون لهم موقف محدّد ـ سلباً أو إيجاباً ـ إزاء الاتجاهات والمناهج الأخرى المعنيّة بالقضايا الأخلاقيّة. وبذا يتّضح أنّ وجه امتياز هذا اللون من المصادر، عن سائر المصنّفات الأخلاقيّة الأخرى، يكمن في طريقة تكييف القضايا الأخلاقيّة، وطبيعة الإسنادات التي ترتكز عليها. لكن على الرغم ممّا ذكر، يبقى ثمة تساؤل يطرح نفسه في ما يخصّ الجوامع الروائيّة للأخلاق الإسلاميّة. وهو:

«هل بإمكان هذه الجوامع أن تكون ممثّلة عن مدرسة الأخلاق الأثريّة، أو أنّ تصنيف الروايات تحت عناوين خاصة لا يكفي لأن يطلق عليها عنوان المدرسة؟».

والواقع أنّ هذا ليس تساؤلاً عن إمكانية استكشاف مدرسة أخلاقيّة تبتني على تعاليم الوحي ولا تساؤلاً عن أنّه هل يمكن ـ ثبوتاً ـ من خلال

تصنيف الروايات تصنيفاً خاصاً، استخراج الأسس والغايات والقواعد العامة، واكتشاف قيمة القضايا الأخلاقيّة وصولاً إلى نظام أخلاقي منسجم تصح نسبته إلى الدين؟ بل إنّ السؤال هو عن التحقّق التاريخي لهذه الفكرة، بمعنى:

هل كان تأليف هذه الكتب بداعي تحقيق هذا الهدف؟ وهل تمّ إنجاز مشروع تدوين نظام أخلاقي على أساس تعاليم الوحي، أو أنّ ما أنجز بالفعل هو تنظيم وتصنيف مجموعة روايات ليس أكثر؟. بعبارة أخرى: هل يمكن عدّ هذه الكتب كتب أخلاق، أو أنها لا تعدو أن تكون كتب رواية يمكن أن يُستفاد منها في تأليف كتاب في الأخلاق؟

ويمكن القول: إنّ «مدرسة الأخلاق الأثرية» أو «النظام الأخلاقي المبتني على تعاليم الوحي»، لايمكن تصوّرها إلا بعد أن يصار إلى استخراج وتحرير الأُسس والغايات والقواعد العامة للأخلاق، من المصادر الرئيسيّة للدين ـ الآيات والروايات ـ ليُصار إلى رفع التعارض بالرجوع إلى تلك الأُسس والقواعد، والتحاكم إليها على أساس المنهج السائد في البحوث النقليّة. وفي هذا المجال، لابدّ من تحديد آليّة مهمّتها حلّ موارد التزاحم، وتقييم القضايا الأخلاقية والبتّ بها.

ومما لا شك فيه، أنّ أكثر هذه الكتب الموجودة لا تتّسم بهذه المواصفات، ولا تعدو أن تكون بمستوى محاولة تصنيف حديثي. وخير شاهد على ما ندّعيه وجود روايات متكرّرة وأخرى متعارضة أو متداخلة تحت عنوان واحد. ولم يكلّف مولّفو هذه الكتب أنفسهم مشقّة حلّ التعارض وترجيح أحد الطرفين، أو لملمة البحث والخروج بحصيلة نهائيّة وموقف أخير، في ما يتعلّق بالروايات العامة والخاصة والمطلقة والمقيّدة والمجملة والمبينة وغير ذلك.

ويجدر القول إنّ هذه الوضعيّة تكشف عن حقيقة مفادها أنّ مؤلّفي هذه الكتب كانوا بصدد تأليف كتبٍ روائيّة وليس تأليف كتبٍ أخلاقيّة، فقد عنوا بـ «الظاهر» و«القالب» أكثر من بيان «المحتوى والمضمون». وممّا يؤيّد قولنا، الالتفات إلى أجواء صدور الروايات؛ فأغلبها مقاطع من كلمات الأئمة المعصومين، قالوها في خطبة أو رداً على أسئلة.

وكما هو ملاحظ، فإنّ هذه الروايات التي تم جمعها طيلة أكثر من 250 عاماً ـ وهي المرحلة الزمنيّة التي عاشها أئمتنا المعصومين (ع)، جاءت في ظلّ ظروف مختلفة وخلفيّات تاريخيّة وثقافيّة خاصة، وتنطلق من معالجات ميدانيّة لأزمات وأخطار محليّة عالقة بتلك الفترة. كما أنّ مخاطبي هذه الروايات يختلفون من حيث مستوى الوعي والإدراك. وتبعاً لذلك جاءت مضامين الأحاديث مختلفة من حيث العمق والدقة. البعض منها موجّه إلى الناس العاديين والبعض الآخر إلى الخواص، وثمة أحاديث للنخب من الخواص. هذه الأحاديث بهذه المستويات المختلفة، تمّ جمعها في كتب الحديث في مكان واحد وضمن موضوع واحد. أضف إلى ذلك أنّ رواج بعض الانحرافات ـ في مقاطع تاريخيّة وجغرافيّة خاصة ـ أدى إلى أن تواجه بعض المواضيع أسئلة واستفسارات كثيرة، تسبّبت في تضخّم هذه المواضيع وازدياد فروعها، خلافاً لما هو متوقّع بالنسبة إلى ذهنيّة الإنسان المعاصر. وفي المقابل، فإنّ جملة من المواضيع، على الرغم من أهميّتها والتأثيرات الكبيرة التي تتركها، تبقى مغمورة لم تستوفِ حقّها من البحث والاهتمام. من هنا، نخلص إلى القول بأنّ تحديد أهميّة الموضوع على أساس كثرة الأحاديث، أمر غير ممكن. وعليه، فإن استكشاف النظام الأخلاقي الإسلامي من خلال التراث الروائي يستلزم دراسة فنية وبحثاً جامعاً.

نعم، لو قدّر لباحث أن يكتشف حقيقة الخطاب الإسلامي ورسالته، بصورة منسجمة ومنظّمة، فيختزنه في وعيه، ثم يصير إلى تجميع روايات يحذف منها المكرّرات، وينفي عنها شبهة التنافي والتعارض، وينظّمها بنحو دقيق، بحيث تكون هذه المجموعة قادرة على نقل تلك الحقيقة أو الرسالة نفسها، حينئذٍ يمكن القول إنّ الحد الأدنى من النظام الأخلاقي الديني قد تحقّق. ولا ريب في أنّ مثل هذا النمط وهذا النسق، يختلف كثيراً عن كتابة الموسوعات والجوامع الروائيّة. وقد ادُّعي مثل هذه الدعوى في خصوص كتاب **شجرة المعارف والأحوال** لمؤلّفه العزّ بن عبد السلام[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمة كتباً روائية، دوّنت بصورة موضوعيّة، وحاولت أن تكرّس هذا الاتجاه في العناوين والبحوث الفرعيّة للأخلاق. أضف إلى ذلك، أنّه يلوح في الأفق مؤلّفات معاصرة تسعى إلى تبيين نظام أخلاقي إسلامي منسجم، انطلاقاً من المصادر الأثرية خصوصاً القرآن الكريم. وقد فتحت هذه المؤلّفات آفاقاً جديدة في هذا المجال.

كتب الأخلاق الأثريّة، خصائصها وسماتها العامة

ثمة جملة من الخصائص العامة التي تمتاز بها مصادر الأخلاق الأثريّة، نشير في ما يأتي إلى أهمها:

1 ـ من الناحية الكميّة، يمكن القول إنّ المصادر المعنيّة بهذا الاتجاه، هي أكثر من الكتب والمصادر المعنيّة بسائر الاتجاهات نوعاً ما.

2 ـ تفتقر هذه الكتب، غالباً، إلى منهجيّة وترتيب مقبول يستحق الدفاع، على الرغم من وجود مصادر تحتوي على منهجيّة أفضل، من قبيل كتاب «**شجرة المعارف**» و«**تصنيف غرر الحكم**».

(1) محمّد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 599.

3 ـ نظراً إلى كثرة المخاطبين وتعدّد أمزجتهم وأذواقهم، فإنّ الروايات الواردة تحت موضوع واحد، ليست بمستوى معرفيّ واحد، بل تشتمل على مستويات معرفيّة متعدّدة.

4 ـ تضمّنت مصادر هذا الاتجاه خلطاً واضحاً بين الأخلاق الإسلاميّة والآداب الإسلاميّة.

5 ـ من الناحية الأدبيّة والبيانيّة، ربما تستهوي هذه الكتب بعض المتدينين باعتبار اتجاهاتهم المعرفيّة، إلّا أنها عموماً لا ترقى إلى مستوى جاذبيّة مصادر الاتجاه التوفيقي ومصادر الاتجاه العرفاني.

6 ـ في ما يرتبط بدائرة الموضوعات والعناوين الأخلاقيّة التي يعنى بها هذا الاتجاه، نلاحظ أنه في ما يتعلّق بالأسرة والاجتماع، تغطّي كتب ومصادر هذه المدرسة مواضيع وعناوين أكثر، قياساً بمصادر المدرسة العرفانيّة. كما أنّ دائرة اهتمامها (أي مصادر الأخلاق الأثريّة) في مجال أخلاق العبوديّة والأخلاق الاجتماعيّة، تتّسع لتشمل مواضيع وعناوين أكثر، قياساً بمصادر المدرسة الفلسفيّة، إلّا أنها قياساً بمصادر المدرسة التوفيقيّة. فالنسبة الموجودة هي نسبة العموم والخصوص من وجه؛ وذلك لأنّ بعض العناوين المتعلّقة بالأخلاق الفرديّة أو بالأخلاق الاجتماعيّة أو بأخلاق الأسرة، لم ترد في الكتب الروائيّة. وفي المقابل فإنّ جملة من العناوين كانت محطّ اهتمام الروايات، لم يرد لها ذكر في مصادر الأخلاق التوفيقيّة.

7 ـ الملاحظ أنّ محدّثي الشيعة قد اهتموا في موسوعاتهم الروائية، بالعناوين الأخلاقيّة، فخصّصوا لها مجالاً أكبر. هذا في حين كرّس

أهل السنّة جهودهم لتدوين كتب مستقلّة في الأخلاق الأثريّة، أكثر جامعيّة وأكثر تفصيلاً.

هـ) الأخلاق التوفيقيّة

لقد حاول بعض المؤلّفين المختصّين في مجال الأخلاق الإسلاميّة، أن يستفيدوا من عناصر القوة ومميّزات المدارس الأخلاقيّة الثلاث، الفلسفيّة والعرفانيّة والنقليّة بأجمعها، وإحداث تركيبة جديدة عرفت بـ «مدرسة الأخلاق التركيبية أو التوفيقية».

نستنتج مما ذكرنا سابقاً وبوضوح، أنّ الاختلاف الموجود بين المدرسة الفلسفيّة والمدرسة العرفانيّة، يعود إلى اتجاهين متباينين، تحملهما كلٌّ من هاتين المدرستين إزاء مقولتَيْ المعرفة ومقولة الإنسان. وهذا الاختلاف هو الذي أدى إلى ظهور تيارين متباينين بالكامل، بحيث لا يمكننا تصوّر أيّ تركيب بينهما، لو كان التركيب على صعيد المنظور الغائي، أو على صعيد الأسس والمنطلقات لعلم الأخلاق؛ وذلك لأنه لا يمكن تصوّر غاية للأخلاق يمكن أن يتفق حولها الرواد الحقيقيّون للاتجاهين معاً[1]. وأمّا إذا أردنا بالتركيب معناه العام، فإنّ كل كتّاب

---

(1) الرواد الحقيقيّون، إشارة إلى الذين يمثّلون الأطراف المتشدّدة والمتطرّفة في كلا الاتجاهين. فهؤلاء ليس بوسعهم أن يبدوا أيّ مرونة إزاء الفهم الذي يحمله الطرف الآخر. وبذلك يكون طريق التوفيق والتركيب بينهما ضمن منظومة واحدة مسدوداً إلى الأبد؛ لأن بعضهم يرى الكمال المنشود في الرشد العقلاني الحاصل من الرياضة العقليّة، ويرفض ممارسات الزهد والارتياض في سبيل الوصول إلى الكشف والشهود القلبيين. بينما يذهب بعضهم الآخر إلى أنّ الكمال يكمن في الإشراق الشهودي، وأن استدلال المستدلّين لا يجدي نفعاً. وفي مقابل هؤلاء وهؤلاء، هناك اتجاه معتدل يتوسّط الطرفين. وهذا الاتجاه، وإن اختلفت رموزه في كيفيّة التركيب النهائي، وفي تنظيم النسب والأولويّات؛ لكنها تتفق على إمكانيّة التركيب والتوليف في ما بينها.

يتضمّن مجموعة خصائص تنتسب إلى مدراس مختلفة، حينئذٍ يعدّ هذا الكتاب أثراً تركيبياً، وإن كانت العناصر الذاتية والمقوّمة له هي في الواقع تتعلّق بالاتجاه الأثري أو الفلسفي أو العرفاني. إذن عنوان «التوفيقي» يضم أطيافاً مختلفة من التصانيف الأخلاقيّة، البعض منها يكون أقرب إلى الاتجاه الفلسفي نظير **جامع السعادات**، والبعض الآخر أقرب إلى الاتجاه العرفاني مثل **إحياء العلوم**. فيما توجد مصنفات من قسم ثالث، نظير كتاب **الذريعة** للراغب الأصفهاني، هو أقرب ما يكون إلى الاتجاه الأثريّ (القرآني ـ الروائي).

والخصوصيّة الأهم والأبرز، والتي اعتُمِدت معياراً في نسبة هذا المصنف أو ذاك إلى الاتجاه «التوفيقي»، هي التوفيق في منهج الإسناد المتّبع، وكذلك في الأسلوب المتّبع في بيان مضامين وبحوث الكتاب.

وهذه الخصوصية المأخوذة في المصنفات التركيبية، لا تتنافى مع ترجيح البعد الفلسفي في بعضها على البعد العرفاني أو الجانب الأثريّ. والنقطة التي تجدر الإشارة إليها هنا، هي أنه يبدو أنّ علماء الأخلاق ـ وحتى قبل ظهور مدرسة صدر المتألّهين، والتي سعت إلى التوليف بين معطيات العرفان والبرهان والقرآن ـ لا يرون أنّه يوجد فرق واضح بين خطابات القرآن والعرفان والبرهان، بل يعتقدون بوجود انسجام وتماهٍ، منذ البداية، بين معطيات العقل والوحي والشهود. من هنا نلاحظ أنهم حاولوا أن يفيدوا من تعاليم الوحي (القرآن والسنّة) في تدعيم الطرح الفلسفي والطرح العرفاني. وكذلك من قضايا الفلسفة في تعزيز وتكريس الطرح النقلي والعرفاني. وهكذا من معطيات العرفان في التأسيس للاتجاه الأثري والفلسفي. وبالتالي نجد أنهم استطاعوا أن يصلوا إلى تصور أخلاقي جامع ومنظومة أخلاقيّة متكاملة.

وبغضّ النظر عن مدى النجاح الذي لاقاه العلماء المتقدّمون في تحقيق هدفهم المنشود هذا، فإن وجود مثل هذا الاتجاه بحدّ ذاته يعدّ مكسباً كبيراً. والمطلوب من المفكّرين والعلماء، في مجال الأخلاق في العصر الحاضر، أن يكملوا هذا المشوار ويؤسسوا لنظام جامع ومنسجم، يستفيدون في تأسيسه من عناصر القوة الموجودة في الاتجاهات الثلاثة بأحسن صورة، وأن يتم ذلك كلّه في إطار عمليّة اجتهادية متقنة.

وهنا لا بدّ من التذكير بأننا، حتى الآن، خصّصنا كلامنا حول تحديد معالم الاتجاه التوفيقي في أعلى مستوياته. ولذا نرى من المناسب أن نقارن بين المستوى الأعلى والمستوى الأدنى. أو قل بين الحدّ الأعلى من التوفيق والحدّ الأدنى منه، فنقول:

أ) **المرتبة الأولى**: الجمع بين عناصر القوة الموجودة في المدرستين، الفلسفيّة والعرفانيّة، إلى جانب المعطيات الأثريّة. في هذه العملية نستفيد من العقل في إطار نظام فلسفي محدّد، ينتج لنا أصولاً وقواعد وقضايا عقلية خاصة، تبتني على أُسس فلسفيّة أرسطيّة أو أفلاطونيّة أو سينويّة (نسبة إلى ابن سينا)، أو إشراقيّة (نسبة إلى المدرسة الإشراقيّة للسهروردي)، أو صدرائيّة (نسبة إلى مدرسة صدر المتألّهين الفلسفيّة). وفي إطار هذا النظام، يُستفاد أيضاً من العرفان والشهود الديني ضمن النسق الذي طرحه صاحب **منازل السائرين** الخواجة عبد الله الأنصاري، وكذلك من أُسس ومباني الرؤية الكونيّة لعرفان ابن عربي.

ب) **المرتبة الثانية**: من الواضح أنّه ليس كلّ تفكير عقلاني، يعني بالضرورة أنه تفكير فلسفي، حيث يمكن أن نتصور توفيقاً أقل مؤونة

وحداً أدنى، وهو عبارة عن جمع التحليلات العقليّة والمعطيات النقليّة. وفي إطار هذا التصوّر، من جهة هناك قيمة معرفيّة للوحي لا بدّ من الاستناد إليها والتعبّد بها، ومن جهة أخرى هناك عقل بسيط مدبّر، هو من الناحية الفلسفية يعدّ غير متعيّن بعد، يقوم بتحليل المعطيات النقليّة، ليربط ـ في مرحلة لاحقة ـ بين نتاج هذا التحليل وبين المعطيات المتوفّرة في ما يتعلّق بعلم الاجتماع وبعلم الإنسان وعلم العالم. والمقصود من العقل في التوفيق، النوع الثاني وهو العقل الأصولي في تعامله الاجتهادي مع النص. والذي يقابله نوعٌ من الأخباريّة الأخلاقيّة التي لا ترى للعقل أي دور في النظام الأخلاقي الإسلامي. فالتلفيق في حدّه الأقصى يبتني على ثلاث ركائز هي: العقل الفلسفي والشهود العرفاني والنقل. وأمّا التلفيق في النوع الثاني، فيستند إلى ركيزتين هما: التحليل العقلي والمعطيات الأثريّة غالباً.

وتجدر الإشارة إلى أنه تاريخياً، كما وجدت مصاديق للتوفيق الأكثريّ في التراث الأخلاقي للمسلمين نظير: **إحياء العلوم**، و**جامع السعادات**، و**الأربعون حديثاً** للإمام الخميني، فإنّ التوفيق من النوع الثاني هو الآخر له مصاديقه التاريخية مثل: **الرعاية لحقوق الله** للمحاسبي، و**أدب الدنيا والدين** للماوردي. ففي هذين المصنفين لا تجد أثراً للبحوث الفلسفيّة والعرفانيّة المتعارفة، في حين يمكنك ملاحظة الكثير من التحليلات العقلانية في ما يتعلّق بالبحوث الأخلاقيّة ووعي التعاليم الدينيّة ذات الطابع الأخلاقي. نبحث في هذا الكتاب، في الفصل المخصّص بالمدرسة التوفيقية، عن هذين التصوّرين، كما تعرّضنا إلى ذكر مصنّفات توفيقيّة من النوع الأول، إلى جانب مصنّفات من النوع الثاني.

و) ثغرات عامة في تراث المدارس الأربع

في خاتمة الفصل، تجدر الإشارة إلى أنّ المصنّفات الأخلاقيّة الموجودة ضمن المدارس الأربع، الفلسفيّة والعرفانيّة والأثريّة والتوفيقيّة، تعاني من ثغرات عامة، نشير هنا إلى بعضها:

1 ـ لم يُصر إلى تأسيس منهجيّة للبحث في علم الأخلاق الديني، ولا إلى الأسس والمباني النظريّة التي يرتكز عليها هذا العلم. كما أنّ المائز الذي يميّز «الأخلاق الدينيةّ» عن «الأخلاق العلمانيّة» لايبدو واضحاً (غياب المنهجيّة العلميّة في الأخلاق الدينية).

2 ـ لم تتضمّن هذه المدارس بحوثاً في مجال «تاريخ علم الأخلاق». ولا «فلسفة علم الأخلاق».

3 ـ هناك خلط بين الأخلاق والتربية، في المعالجات الموجودة، وفي موارد معيّنة يمتد الخلط ليشمل الآداب أيضاً، فلا توجد عملية فرز وتمييز للمجال البحثي لكلّ واحد من هذه الموضوعات.

4 ـ الملاحظ أنّ «الأخلاق الأُسرية» لم تحظَ باهتمام كبير من قبل الباحثين والعلماء.

5 ـ يلاحظ على المعالجات النظريّة أنها ذات طابع جزئي وقلّما تجدها تهتم بتأسيس الأصول واستخراج القواعد العامة.

6 ـ ثمة جهات بحثيّة عديدة وهامة لم تبحث بعد، من قبيل: تحديد مقدمات علم الأخلاق ومنطلقاته، وكذلك الأُسس والمرتكزات النظريّة التي يعتمدها هذا العلم؛ سواء على صعيد الرؤية الكونية، أم على صعيد نظريّة المعرفة، أم المنظور، أم بالنسبة إلى القضايا الأساسية المتعلقة بالإنسان، كما لم يتم التوافر على تحليلٍ

لموضوع ومحمول القضايا الأخلاقيّة، وكذلك مباحث فلسفة الأخلاق، إلّا اليسير الذي تضمّنته المصنفات الفلسفيّة.

7 ـ ثمة عدد من البحوث المتعلّقة بفلسفة الأخلاق، نظير بحث «الحُسن والقُبح العقليين»، عولجت في التراث الإسلامي ضمن مباحث علم أصول الفقه.

8 ـ لم يُصر إلى تدوين «الأخلاق المهنيّة» و«الأخلاق العمليّة»، إلّا في مورد أو موردين، من قبيل أخلاق التعلّم والأخلاق السلطانيّة.

9 ـ إنّ التراث الأخلاقيّ يبدو ضعيفاً في ما يتعلّق بالتحليل النفسيّ، رغم وجود بداية قوية ـ في هذا المجال ـ اتّسم بها المحاسبي (ت 241 هـ) في كتابه القيّم **الرعاية لحقوق الله**؛ ولم تُرَدف هذه المحاولة بمحاولات جادّة أخرى ـ في هذا المضمار ـ تكمل المشوار.

الفصل الثانـي

مدرسة الأخلاق الفلسفيّة

1

كتاب الطبّ الروحانيّ[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

مؤلّف هذا الكتاب هو «أبو بكر محمد بن زكريا بن يحيى الرازي» الذي اشتهر بين الأوساط بأوصاف عديدة؛ منها، «جالينوس العرب»، «فيلسوف العرب»، «الطبيب المارستاني»، «الطبيب المسلم» و«العلاّمة في علوم الأوائل». وُلد في عام 251 هـ، المصادف 865 م، في مدينة الريّ. ولا تتوفّر معلومات دقيقة عن بدايات شبابه ومسيرته العلمية.

وجِّهت إليه العديد من الدعوات من قبل الحكّام والأمراء، بعد وصوله إلى الذروة في العلم، واشتهر كعالم بارز يشار إليه بالبنان، فدوّن رسائل

(1) محمد بن زكريا الرازي (ت 313 هـ)، الرسائل الفلسفيّة، جمع وتصحيح بول كراوس، القاهرة: مطبعة بول باربية (بدون تاريخ)، 316 صفحة من القطع الوزيري، مع تعليقات حميد الدين الكرماني من 1 إلى 96.

وكُتُباً بأسمائهم. عاد إلى موطنه «الريّ» فترة، وتصدّى لإدارة المستشفى هناك. توفّي في الخامس من شهر شعبان عام 313 هـ، في هذه المدينة.

ألّف الرازي، إلى جانب كتابه **الطبّ الروحانيّ**، رسالة أخرى في الأخلاق سمّاها **السيرة الفلسفيّة**، وقد قام المستشرق الألماني «بول كراوس» بتحقيقها، ومن ثم نشرها مع بعض مصنّفاته تحت عنوان **الرسائل الفلسفية**. ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللّغة الفارسيّة بقلم عباس إقبال، وقامت دار نشر «انتشارات آموزش انقلاب إسلامي» بطبعه عام 1413 هـ، مع مقدمة للباحث «السيد مهدي محقّق». وهو في كتابه **الطبّ الروحاني** يبحث عن الأخلاق بشكل عام. وأمّا في كتابه الثاني ـ **السيرة الفلسفية** ـ فقد بحث عن الأخلاق من منظور فلسفي.

وقد كان الرازي غزير الإنتاج، بحيث يذكر له التاريخ 56 كتاباً في الطبّ، و33 كتاباً في الطبيعيات، و7 كتب في المنطق، و10 كتب في الرياضيات والنجوم، و7 كتب في تفسير وتلخيص كتب فلسفيّة وطبيّة لمؤلّفين آخرين، و17 كتاباً في العلوم الفلسفية، و6 كتب في «ما بعد الطبيعة»، و14 كتاباً في الإلهيات، و22 كتاباً في الكيمياء وكتابين في الكفريات، و10 كتب في مختلف الفنون[1].

في كتابه **السيرة الفلسفية**، يكتب الرازي قائلاً:

«وبالجملة، فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة، خرجت عني، إلى وقت عملي هذه المقالة، في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والإلهي»[2].

---

(1) المصدر نفسه، ص 153 ـ 151.

(2) محمد بن زكريا الرازي، **الرسائل الفلسفية**، ص 109.

مذهب المؤلّف

ثمة اختلاف في عقيدة الرازي؛ إلّا أنّ بعض المعاصرين اعتبروه شيعيّاً فقد ورد في كتاب فلاسفة الشيعة النص الآتي حوله:

تشير الدلائل إلى أنّ «الرازي» كان شيعياً، متفاعلاً بروح التشيع، فقد عرفنا أنه وضع كتباً تبدو في عناوينها الروح الشيعية، أحدها كتاب آثار **الإمام الفاضل المعصوم**، ثانيها كتاب **الإمام والمأموم المحقين**، ثالثها كتاب **النقض في الإمامة على الكيال**. وعرفنا أيضاً أنه كان تلميذ البلخي في الفلسفة، والبلخي ـ هو على ما يظهر ـ أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، الشيعي، المتوفّى عام (322 هـ). ومن القريب ـ عادة ـ أن يتأثر التلميذ بآراء أستاذه وعقيدته. وقد وجدنا الرازي في رسالته برء **الساعة** التي نقلها ابن طاووس المتوفى عام (644 هـ) في كتابه **الأمان**[1] يسلك في بدء رسالته وفي ختامها طريقةً اعتدنا أن نجدها عند الشيعة. فهو قد بدأ رسالته المذكورة بما هو لفظه: «الحمد لله كما هو أهله ومستحقه، وصلواته على خير خلقه محمد وآله وعترته» **وختمها بقوله**: «والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيد المرسلين محمد النبي وآله».

هذا بالإضافة إلى أنّ «الطهراني» عدّ الرازي من مؤلّفي الشيعة وقد ذكر كتبه في كتابه «**الذريعة**»[2].

وهنا لا بدّ من التذكير بأنّ الأسس التي ينطلق منها آقا بزرگ الطهراني، في عدّ المصنفين من الشيعة أو من غيرهم، غير متفق عليها

(1) المصدر نفسه، ص 152 و161.

(2) انظر: **الذريعة**، ج 15، ص 142.

لدى الجميع. ويؤكّد ذلك أنّ الرازي كان على صلة وثيقة برجالات الشيعة وشخصياتهم، فقد كان على صلة بصاحب الديلم أبي محمد الأطروش الشيعي، المعروف «بالناصر الكبير»، و«بناصر الحق» (304 هـ). وقد وضع الرازي كتاباً له في الحكمة تحت عنوان كتاب **إلى الداعي الأطروش في الحكمة**. كما كان على صلة بالمسعودي، المؤرّخ المشهور وهو من رجالات الشيعة، وكتب رسالة بعنوان **كلام جرى بينه وبين المسعودي في حدوث العالم**. وأمّا صلته بسلاطين الشيعة البويهيين فهي واضحة وهذه الصلة تكشف عادة عن انتمائه المذهبي[1].

وفي المقابل، عدّه البعض ملحداً ومنكراً للشريعة، مثل أبي ريحان البيروني (440 ـ 362 هـ)، حيث كتب في مقدّمة رسالة له ألّفها حول فهرس مصنفات الرازي، اتهمه بالتّعصب واتّباع الهوى والتقصير والإعراض، بل الطعن في قضايا الدين، والتأثّر بالشياطين، واتّباع المذهب المانوي، ونصب العداء للإسلام، وبذاءة اللسان والقلم والفكر، وتضييع دين الناس[2]. وعدّ كتابين من كتب الرازي في زمرة الكفريات وهما كتاب في النبوّات ويُسمّى **نقض الأديان**، وكتاب في حيل المتنبين ويُسمّى **مخاريق الأنبياء**[3].

والملاحظ أنه لا أثر لهذين الكتابين حالياً ولكنّ بعض العلماء أشار إليهما. وفي هذا السياق يقول أبو حاتم الرازي:

ثم يصنف ـ أي الرازي ـ بعقله المدخول ورأيه المأفون، كلاماً في

---

(1) عبد الله نعمة، **فلاسفة الشيعة**، ص 478 ـ 476.

(2) أبو ريحان البيروني، **فهرست كتاب هاى رازى**، ص3 ـ 2.

(3) المصدر نفسه، ص17.

إبطال النبوّة، ويورد ذلك الهذر في كتابه الذي صنفه في هذا الباب[1].

ولعلّ الإسماعيليّة، وهم ألدّ أعداء الرازي، نسبوا إليه مثل هذا الكتاب، وذلك لأنّ له كتاباً آخر تحت عنوان **في وجوب دعوة النبي على من نقر بالنبوات**، وهو لاينسجم مع الكتاب المذكور بالكامل[2].

يقول ابن أبي أصيبعة (668 ـ 595 هـ) في خصوص كتاب **في حيل المتنبين**:

كتاب في ما يرومه من إظهار ما يدّعي من عيوب الأولياء، أقول: وهذا الكتاب، إن كان قد أُلّف ـ والله أعلم ـ فربما أنّ بعض الأشرار، المعادين للرازي، قد ألّفه ونسبه إليه، ليسيء ـ من يرى ذلك أو يسمع به ـ الظن بالرازي وإلّا فالرازي أجلّ من أن يحاول هذا الأمر وأن يصنّف في هذا المعنى، وحتى أن بعض من يذم الرازي بل يكفّره يسمّون ذلك الكتاب: **كتاب الرازي في مخاريق الأنبياء**[3].

وكلمة مخاريق جمع مخرقة، وتعني الحيلة والخداع والشعوذة. وليس هناك أثر لكتاب «**مخاريق الأنبياء**» لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي ويحتمل أنّ أنّ أبا حاتم بن حمدان بن أحمد الرازي (ت 322هـ)، وهو أحد كبار علماء الإسماعيليّة قد اطّلع عليه واقتبس منه بعض الأمور التي نقلها في كتابه **أعلام النبوّة** مباشرة.

وثمة مصادر أشارت إلى كتاب الرازي هذا، بما فيها المقدسي؛ حيث ذكر هذا أنّ له كتاباً ادّعى أنه **مخاريق الأنبياء** ولايجوز للإنسان

---

(1) أبو حاتم الرازي، **أعلام النبوّة**، ص 34.

(2) أبو ريحان البيروني، **فهرست كتاب هاى رازى**، ص 151.

(3) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج 2، ص 359؛ وأيضاً أبو ريحان البيروني، مصدر سابق، ص152.

المتديّن وصاحب المروءة، أن ينقل عنه، كما لا يجوز أن يصغي إلى ما ورد فيه، لأن هذا الكتاب يفسد القلب ويزيل الدين ويهدم المروءة ويورث العداء للأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وأتباعهم[1].

ويقول ابن القيّم:

فكان ـ أي الرازي ـ قد أخذ من كلّ دين شرَّ ما فيه، وصنف كتاباً في إبطال النبوّات ورسالة في إبطال المعاد، فركّب مذهباً مجموعاً من زنادقة العالم[2].

وألّف أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم البصري الرياضي (ت 430 هـ)، كتاباً بعنوان **نقض على أبي بكر الرازي المتطبّب، رأيه في الإلهيّات والنبوّات**.[3] ولم ينقل من عقائد الرازي في باب نبوة الأنبياء سوى ما ورد في كتاب «أعلام النبوة».

وقد ألف هذا الكتاب وفقاً لمناظرات دارت بين أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي، ويبدو من بعض عبارات الكتاب، أنّ هذه المناظرات جرت في مجالس متعدّدة، عقدت بحضور الأمير وقاضي قضاة «الري»، ويحتمل أنه كان يحضرها بعض الفلاسفة أيضاً[4]. وقد أورد النص الكامل لعبارات محمد بن زكريا الرازي في خاتمة كتابه **الرسائل الفلسفية** أيضاً، مقتبساً من كتاب **أعلام النبوة**[5].

---

(1) انظر: مهدي محقق، **فيلسوف ري**، ص126.

(2) ابن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان**، ج2، ص 241.

(3) محمد بن زكريا الرازي، **الرسائل الفلسفيّة**، ص 168.

(4) أبو حاتم الرازي، **أعلام النبوّة**، مقدّمة غلامرضا أعواني، ص 10.

(5) محمد بن زكريا الرازي، **الرسائل الفلسفية**، ص 291 وما بعدها.

ويعتقد أبو ريحان البيروني أنّ الرازي قد أخذ أفكاره هذه من المصادر المانويّة، خصوصاً كتابه **سفر الأسرار**. وهو يقول عنه في هذا المجال:

إنّ الرازي في كتابه **في النبوات**، يستخف بالفضلاء والكبار، فهو بتأليفه لهذا الكتاب قد دنّس فكره ولسانه وقلمه، بأمور يأباها ويتورع عنها كلّ عاقل[1].

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه، أنّ لماني كتاباً يدعى **سفر الأسرار**، وهو يقول عن هذا الكتاب:

وكتاب **سفر الأسرار** يطعن فيه على آيات الأنبياء[2].

وعلى كل حال، فإنّ ثمة شكوكاً قوية تحوم حول طبيعة عقيدة الرازي في الشرائع ونبوة الأنبياء. وحتى لو سلمنا بأنه يعتقد بأصل النبوة، فمما لا شك فيه أنه لم يكن معتقداً عصمتهم، كما تصرح بذلك عباراته في كتابه **الطبّ الروحاني**[3].

2 ـ النسخ والطبعات

نشر المستشرق «بول كراوس»، وللمرة الأولى في 1939م، النص العربي لهذا الكتاب ضمن كتاب **الرسائل الفلسفيّة**. وقبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، قامت المكتبة المرتضويّة في طهران بإعادة طباعته.

---

(1) أبو ريحان البيروني، **فهرست كتابهاى رازى**، ص 3.

(2) **مانى ودين او**، ص 104.

(3) محمد بن زكريا الرازي، **الطب الروحاني**، ص 113؛ وأيضاً له نفسه **الرسائل الفلسفية**، ص 45.

وفي عام 1420 هـ. أعيدت طباعة النص العربي للكتاب، طبعة «بول كراوس» وبإشراف الأستاذ مهدي محقّق، من قبل مؤسسة الدراسات الإسلاميّة لجامعة طهران، وبالتعاون مع جامعة «مك جيل» الأميركية، إلى جانب صورة عن النسخة الخطية للكتاب والتي يحتفظ بها في مكتبة «يحيى المهدوي». ونشير هنا إلى أنّ المكتبة المركزية لجامعة طهران تحتفظ بميكرو فيلم عن هذه النسخة برقم 1559، كما تحتفظ بصورة لهذه النسخة برقم 6146 ـ وقد قام الأستاذ مهدي محقّق بكتابة مقدّمة ضافية، قدم فيها رؤيّة تحليليّة عن الكتاب.

وتوجد نسخ خطّية أخرى لهذا الكتاب، في كلّ من المتحف البريطاني برقم 25758، 759 هـ. ومكتبة روما الفاتيكان برقم 182، ودار الكتب المصرية برقم 2241. وفي عام 1955 م. طبع الكتاب في القاهرة، بتحقيق وتعليق «فؤاد سيد». كما قامت دار الحكمة للنشر بطبع الكتاب في كلّ من دمشق وبيروت، في عام 1986 مع تحقيق «سليمان البواب»[1].

وقد اعتمد بول كراوس في طبعه للكتاب على كلٍّ من النسخ الخطّية التالية: «نسخة المتحف البريطاني برقم 25758، 759 هـ، ونسخة مكتبة روما في الفاتيكان برقم 182 ـ كما اعتمد نسخة دار الكتب المصرية برقم 2241، في قسم التصوّف والأخلاق الدينيّة إلى جانب فصول من الكتاب كانت قد أوردت ضمن كتاب **الأقوال الذهبية** لحميد الدين الكرماني. ويرى بول كراوس أنّ النسخة الأولى هي أكمل النسخ الموجودة وأصحّها؛ ولكنه يذهب إلى أنه قد وقع فيها قليل من التحريف

---

(1) مؤلّفات ومصنّفات رازي، ص 250.

والتصحيف. وهي متطابقة في الغالب، مع النسخة المعتمدة في كتاب **الأقوال الذهبية**. وقد أورد المحقّق بول كراوس وصفاً كاملاً لهذه النسخة في مقدّمة التحقيق[1].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

ترجم هذا الكتاب إلى اللّغة الفارسيّة بقلم جمع من أساتذة الحوزة العلميّة وجامعة الزهراء، ترجمة حرة بعنوان **بهداشت رواني** مع مقدمة للأستاذ عبد الكريم بي آزار شيرازي. وقامت دار «انتشارات أنجمن أوليا ومربيان» في 1421 هـ. بطبع الترجمة في طهران في عام 1421 هـ.

كما توجد مقالة مختصرة للمستشرق الهولندي «دي بور» حول هذا الكتاب، قام فيها بترجمة بعض أجزائه إلى اللّغة الهولندية[2]. بدوره قام آربري ـ أستاذ بجامعة كمبريج ـ بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الهولندية وذلك في عام 1950 م[3].

وكان ليعقوب بن إسحاق الكندي كتاب قبل الرازي، تحت عنوان **الطبّ الروحاني** ولكن لم يصل إلينا. ولا ندري هل هو نفس كتابه والذي يحمل عنوان **في الأخلاق** أو أنه كتاب آخر؟ وقد حظيت الآراء الأخلاقية للكندي باهتمام علماء الأخلاق، فقد نقل عنه ابن مسكويه في كتابه **تطهير الأعراق** فصلاً كاملاً، وذكر أنّ له رسالة عنوانها **في حدود الأشياء ورسومها** قام فيها بتعريف المصطلحات والمفردات الفلسفيّة والأخلاقيّة.

---

(1) محمد بن زكريا الرازي، **الرسائل الفلسفية**، ص 4.

(2) طبعت هذه المقالة في مجلة أكاديمية العلوم في هولندا امستردام 1920 م، ص 17 ـ 1، تحت عنوان (De «Mediciona Ments» Van Den Artes Razi)

(3) مهدي محقّق، **الدراسة التحليلية لكتاب الطب الروحاني**، ص 235.

ولكن ما نفهمه هو أنّ منهج الكندي يختلف تماماً عن منهج الرازي، لكنه يقترب كثيراً مع منهجية مسكويه في كتابه **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، ومع منهجيّة ابن سينا في رسالته **رسالة في علم الأخلاق**، وكذلك مع ابن حزم في رسالته **في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق**. حيث يمكن القول إنّ هؤلاء الأعلام قد تابعوا منهج الكندي الذي يبدو عليه أنه يقتفي أثر المنهج الأرسطي. وأمّا الرازي فقد تأثّر بأفلاطون وجالينوس أكثر من غيرهما.

والملاحظ أنه قبل الرازي، لم يؤلّف كتاب منهم في الأخلاق من وزن **الطبّ الروحاني** بحيث يمكن أن نقرنه به. وأمّا الكتاب الذي ألّفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، تحت عنوان **سلوك المالك في تدبير الممالك** باسم الخليفة العباسي المعتصم بالله، والذي تحدّث فيه عن سياسة المدن وتهذيب الأخلاق، فهناك تشكيك في أصله وذلك لأنه يحتوي على مضامين ومعالجات قيمة وناضجة، بدرجة أننا نستبعد أن تكون قد طرحت قبل الفارابي ـ في ما يتعلّق منها بسياسة المدن، وقبل مسكويه وابن الهيثم ـ في ما يتعلّق بالأخلاق ـ . وكما احتمل جرجي زيدان أنّه ربما كانت كلمة «المعتصم» في الأصل «المستعصم» لكنّ النساخ أخطأوا حين النقل[1].

وقد أصبح مفهوم «الطب الروحاني» عنواناً شائعاً ورائجاً بعد الرازي، حيث نجد أنّ مير سيد شريف الجرجاني عرّف الطبّ الروحاني في كتابه **التعريفات** قائلاً: «الطب الروحاني هو العلم بكمالات القلوب

(1) ناجي التكريتي، **الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع**، ص 8.

وآفاتها وأمراضها وأدوائها وبكيفيّة صحتها واعتدالها». ثم قال في تعريف الطبيب الروحاني: «هو الشيخ العارف بذلك الطب، القادر على الإرشاد والتكميل».

بدوره ألّف أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، كتاباً باسم **الطبّ الروحاني** اختار عناوين 19 فصلاً من فصول الرازي لتكون عناوين لفصول كتابه هذا. ولم يترك سوى الفصل الرابع عشر في دفع الانهماك في الشراب. في هذا الكتاب أورد مضامين وبحوث كتاب الرازي، ضمّنها آيات وأحاديث وأشعاراً وأمثالاً وحِكَماً. كما أضاف إليها أبواباً أخر، من دون أن يذكر اسماً للرازي. وحتى المقدمة التي أوردها في بداية كتابه، كتبها متشبهاً بالرازي، حيث مدح فيها العقل ومكانته، نعم، أورد الرازي عبارة «زمّ الهوى» ـ وهي بمعنى الإمساك بزمام هوى النفس ـ في كتابه، وأما ابن الجوزي فقد جاءت عبارة كتابه «ذم الهوى» بمعنى ما يقابل المدح والإطراء. ولا يُدرى هل هذا خطأ من ابن الجوزي، أو من النسّاخ الذين كتبوا تراثه[1].

وقد أجاب الرازي عن الإشكالات التي أوردت على **الطبّ الروحاني**، حيث ألّف كتاباً في الرد على أبي بكر حسين التمار. والذي نقض على الكتاب بنقوض عديدة، سمّاه **في نقض الطبّ الروحاني على ابن التمار**.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يفهم من عنوان الكتاب، أن المصنف لم يكن بصدد تأليف دورة

(1) انظر: مهدي المحقق، مصدر سابق، ص 236.

كاملة في علم الأخلاق، ولم يدّع ذلك؛ لأن كلمة «طب» أساساً ـ سواء قصد بها الطبّ الجسماني أم الروحاني ـ تُعنى في الغالب بمعرفة الأخطار والمضار وكيفيّة معالجتها. وعليه، فمن الطبيعي أن يكون البحث عن الفضائل الأخلاقيّة ـ والتي لا تعدّ من الأمراض الروحيّة ـ في مثل هذا الكتاب، بحثاً عارضاً يشار إليه لمناسبة وأخرى.

من هنا، في تقييمنا لمدى شمولية الكتاب وجامعيته، لا بدّ من أن نأخذ بالاعتبار المهمة التي أُلِّف الكتاب لأجلها، فمهمة الكتاب تختص بمجال «الطب الروحي» ومعرفة الأمراض والآفات المعنويّة. ومع الأخذ في الاعتبار هذه الملاحظة، يمكن القول إنّ الكتاب على درجة جيدة من الاستيعاب والشموليّة. نعم، ثمة موارد متعدّدة من المخاطر والآفات الروحيّة، والسلوكيّة، والأخلاقيّة، أغمض عنها المؤلّف. فمثلاً، لم يذكر شيئاً حول التعرّض إلى مال الآخرين وأغراضهم (أي الغيبة، والزنا، والسرقة، والتهمة، والنميمة).

5 ـ هيكليّة الكتاب ومباحثه

في الفصل الأول، يقوم المؤلّف بالتعريف بالكتاب وأنه يهتم بالطب الروحاني، ثم يخلص إلى تعريف الإنسان. وفي تعريفه للإنسان السليم يرى أنّه لا يمكنه أن يحظى بالسلامة الروحيّة والأخلاقيّة إلّا عندما يجعل العقل محور جميع نشاطاته وفعالياته.

في الفصل الثاني، يتناول المؤلّف ظاهرة «اختلال المزاج»؛ جذورها وأسبابها. ويركز على الآفات والمخاطر الأخلاقيّة التي تهدّد الإنسان، معتقداً أنّ جميع المشاكل التي يعاني منها، مردّها إلى اتّباع الهوى.

وأمّا الفصل الثالث، فلا يقوم بدور هام ضمن الخطة المرسومة للكتاب. وإنما يتطرّق إلى كيفيّة ترتيب أبواب هذه الرسالة، ويذكّر بأهمّية الفصلين الأولين ضمن هذه الرسالة.

في الفصل الرابع، يحثّ المؤلّف القراء على العمل على «تشخيص وكشف الحالات المرضيّة» التي قد تنتابهم في الجانب الأخلاقي، وينصح مخاطبيه بأن يخضعوا أنفسهم وحالاتهم وسلوكياتهم العامة لمراقبة دقيقة، وعمليات اختبارية أشبه ما تكون بالاختبارات الطبية التي يجريها الطبيب على المريض. والهدف من ذلك، تحديد العيوب والانحرافات السلوكية التي قد تعلق بالإنسان والكشف عنها. وأمّا ما تبقّى من الفصول، أي من الفصل الخامس وحتى الفصل الثامن عشر وكذلك الفصل العشرين، فهي تُعنى ببيان «الأمراض الروحيّة» وكيفية معالجتها.

يمكن القول عموماً، إنّ التنظيم الذي اعتمده المؤلّف، تنظيم جيد ويتناسب مع مهمة الكتاب. بقي أن أشير إلى نقطة هامة في ما يتعلّق بالتسلسل المنطقي للفصول، إذ كان من الأفضل للرازي أن يقدم الفصل التاسع عشر ـ وكذلك البحث الوارد في نهاية الفصل الثامن عشر ـ قبل الفصل الخامس. وذلك لأنّ البحث المصدّر بـ «الفرق بين ما يرى الهوى وما يرى العقل»، والذي أورد في نهاية الفصل الثامن عشر، يعنى ببيان وتحديد «المعايير والموازين» التي من خلالها يمكن التمييز بين الحالة الصحّية والحالة المرضية. وأمّا الفصل التاسع عشر فيبحث فيها المؤلّف «السيرة الفاضلة». ويتطرّق من خلال هذا البحث إلى بيان مظاهر الصحة الأخلاقية. وكلا المحورين يعدّان من البحوث العامة ومن المناسب أن يوردا ـ في إطار البحوث العامة ـ في بداية الكتاب وقبل ذكر مصاديق الأمراض.

وطبقاً لما ورد في نسختين مختلفتين، يظهر أنّ للكتاب مقدمتين، ففي إحداهما ذكر أنّ الدخول إلى الفلسفة يتم من خلال أحد المداخل الثلاثة وهي: صناعة الهندسة، وإصلاح أخلاق النفس، وصناعة المنطق. وقد اختار المصنف المدخل الثاني، أسوة بأفلاطون وأتباعه. لكنه في الوقت نفسه يعتقد بأنه لا يمكن إلغاء أيٍّ من هذه المداخل الثلاثة. وفي مقدمته الثانية، يذكر أنّ السبب الذي حمله على تأليف هذا الكتاب، هو الطلب الذي تقدم به أبو صالح منصور بن إسحاق، حاكم الريّ»، في خصوص تأليف كتاب الأخلاق على غرار كتاب **المنصوري في الطبّ الجسماني**. ولذلك أطلق عليه تسمية **الطبّ الروحاني**.

ونستعرض الآن، وبشيء من التفصيل، مضامين الفصول العشرين من الكتاب.

في الفصل الأول بحث المؤلّف «مكانة العقل وفضيلته» وعدّه هو السبب في تقديم الإنسان على الحيوان. وأمّا آفة العقل فهو هوى النفس.

ويُعنى الفصل الثاني بالبحث في «مجاهدة النفس»، إذ يرى المؤلّف أنّ أشرف الأمور وأكثرها فائدة في ما يتعلّق بتحقيق غرض الكتاب، هو «مخالفة هوى النفس». ويرى أنّ مخالفة الهوى على مراتب، أدناها مرتبة التمتّع بملكة الإرادة، والقيام بالفعل بعد التروي. وهذه المرتبة متحققة لدى أكثر الناس؛ ولكنّ الكلام في بلوغ أعلى مراتب هذه الفضيلة وهي مرتبة صعبة، وتختص بالفيلسوف الفاضل. والملاحظ أنّ الأمم والأفراد تتفاضل في ما بينها في درجة تأثرها بالأخلاق وتحليها بها. وهذا ما يؤثر بالتالي، في سهولة أو صعوبة اكتساب فضيلة من الفضائل، أو دفع رذيلة من الرذائل. ثم يذكر المؤلّف كيفية اكتساب هذه الفضيلة ـ أي مخالفة

الهوى ـ حيث يرى أنّ الهوى يسوق الإنسان أبداً باتجاه اللذّات الآنيّة ولا يدعه يتدبّر عواقب الأمور. من هنا جدير بالإنسان العاقل الذي يتدبّر عاقبة أمره أن لا يتّبع الهوى.

ويذهب الرازي إلى أكثر من ذلك، فيرى أنّ من الأفضل للإنسان أن يخالف هوى النفس حتى في الموارد التي لايكون في اتّباع الهوى أثر سيليه. وذلك من أجل ترويض النفس وتدريبها على التحمّل في سائر الموارد. يقول المصنّف: «وينبغي أن تعلم أن المؤثّرين للشهوات، المدمنين لها، المنهمكين فيها، يصيرون منها إلى حالة لا يلتذّونها ولا يستطيعون مع ذلك تركها»[1]. وذلك لأنها أضحت بالنسبة إليهم من ضروريّات الحياة.

وينقل المصنّف في هذا الفصل، عن أفلاطون رأيه، بأنّ لدى الإنسان ثلاث أنفس: نفس ناطقة، ونفس غضبيّة، ونفس شهوانيّة. ويعرّف الرازي مقولة «الطب الروحاني» بأنه عبارة عن إقناع الشخص بالحجج والبراهين، وحمله على تعديل أفعال هذه النفوس ـ الثلاث ـ بمساعدة الطبّ الجسماني. ويرى أنّ السيطرة على هوى النفس أمر واجب، بالنسبة إلى كل إنسان عاقل، أياً يكن دينه ومسلكه. ويؤكّد أنّ المعاناة التي يقاسيها الإنسان، جرّاء مجاهدة الهوى والنفس، سوف تخفّ وطأتها بعد مدة وتضحى أمراً محتملاً بعد الاعتياد.

وفي الفصل الثالث، يتعرّض المؤلّف إلى بيان «الخطة» التي اتّبعها في تنظيم فصول الكتاب، مشيراً إلى أنّ الفصلين الأول والثاني يشكّلان

---

(1) محمد بن زكريا الرازي، **الرسائل الفلسفية**، ص 22.

أُسس النظريّة التي يتبناها في كتابه هذا. وأمّا الفصول اللاّحقة فلا تُعدّ سوى تطبيقات للأصول التي بيّنها في الفصلين المتقدمين.

في الفصل الرابع، يشير المؤلّف إلى نقطة هامة، مفادها أنّ حب الـ «أنا والذات» تمنع الإنسان من مشاهدة عيوبه والتعرّف عليها. لذا فهو ينصح مخاطبه بأن يلازم إنساناً عاقلاً، بغية أن يكشف له عمّا به من عيوب وثغرات في شخصيّته.

وأمّا الفصل الخامس، فيُعنى بالحديث عن رذيلة «العشق» ـ ويقصد به العشق الشهواني ـ. ويقدّم المصنف للحديث في هذا المجال مقدّمة يبيّن فيها حقيقة «اللّذة». وأنها عبارة عن الرجوع إلى الحالة الطبيعيّة، وأنّ الأذى هو مقدّمة لإدراكها. بناءً على ذلك، فإنّ كلّ من جعل الالتذاذ غايته وهدفه المنشود، فإنه في واقع الحال غافل عن شدّة وعورة الطريق المودّي إلى اللّذات.

في هذا الفصل، يستعرض الرازي مساوئ العشق المادّي وآثاره السلبيّة، ليستنتج بالتالي أنّ الإنسان، وبحكم العقل، يجب عليه في الخطوة الأولى أن يراقب نفسه ويحاذر من الابتلاء بهذا الداء الوبيل. وأمّا إذا ابتُلي به، فعليه أن يمنع استشراءه وزيادته.

في الفصل السادس، يعقد المؤلّف بحثاً في «معالجة العجب»، فينصح مخاطبيه بأمرين: الأول، أن يوكل تقييم ما به من محاسن ومساوئ إلى غيره. الثاني، أن لا يقيس نفسه بالأراذل من الناس.

في الفصل السابع، يتعرّض للحديث عن «الحسد»، فيرى أنّه ينشأ من خصلتين هما البخل والشره، (ويمكن عد هاتين الخصلتين مصداقاً

للإفراط في القوة الشهويّة). ثم يعدّد الآثار السيئة لهذا المرض بالأدلّة والبراهين.

ويختصّ الفصل الثامن بمبحث «الغضب»، حيث يشير المؤلّف إلى أنّ الغضب إذا جاوز الحدّ يتسبّب في أضرار كبيرة على الشخص الغاضب وعلى الآخرين، وذلك لأنّ الإنسان في حالة الغضب يفقد عقله. من هنا، بالذات، يوصي المؤلّف بأنّ على الإنسان إذا أراد أن يعاقب، فعليه أن يبتعد عن عدة خصال، هي الكبر والعداوة، حتى لا يتمادى في الانتقام والمعاقبة أكثر من اللّازم. كما عليه أن ينأى عن ضدَّي هاتين الخصلتين، لئلاّ يُقصّر في العقاب، ويكتفي بما هو أقل من العقاب اللّازم.

في الفصل التاسع يتعرّض الرازي إلى الحديث عن «الكذب»، حيث يرى أنّ أهم ما يترتّب على الكذب هي الفضيحة بين الناس ويقول:

«إذا كان الكذب يقصد من ورائه أمرٌ جميلٌ مستحسن، بحيث إذا انكشفت حقيقة الأمر يكون له مبرّر مقبول، فلا إشكال فيه».

في الفصل العاشر، الكلام في «البخل». يرى الرازي في معرض حديثه عن مناشيء البخل، أنّه قد ينشأ من النظر في أحوال المستقبل والخوف من الأيام الصعبة التي قد تحلّ به في حياته. وهذا لايمكن عدّه رذيلة. وربما نشأ من الهوى ومن دون أن تكون هناك حجة مقبولة. فإذا كان البخل صادراً عن الأخير فلا بدّ من معالجته.

ويخصّص الرازي في الفصل الحادي عشر، الحديث عن «الهوس»

و«تبلبل الخاطر والقلق غير المبرّر». وواضح أنّ اشتداد هذه الحالة لدى الإنسان تسبّب له مزيداً من الأذى والتعب. وقد تدفعه إلى إهمال الحاجات المادّية الضروريّة. وتقعد به عن الوصول إلى أهدافه وغاياته. وبعد الحديث عن ذمّ هذه الحالة، يبيّن المؤلّف السبيل إلى علاجها.

في الفصل الثاني عشر، يعقد الرازي بحثاً في «مناشىء الغم وتكدر الخاطر»، وكيفية التخلص من هذه العارضة. ويرى أنّ الغمّ ينشأ بسبب افتقاد الإنسان الأمورَ المحبّبة لديه، وقصوره عن تحصيلها. وأمّا التخلّص من هذه الحالة فيمكن من خلال تصحيح رؤية الفرد للنِعم الدنيويّة، إلى جانب القيام بجملة تمارين لترويض النفس وحملها على الصبر والثبات، وبذا يتمكّن من دفع هذه العارضة ومعالجتها.

في الفصل الثالث عشر، يبحث المؤلّف «مساوئ الشره والنهم» والمضار المترتّبة عليهما، سواء على صعيد البدن أم على الصعيد الاجتماعي. ويشدّد على أنّ عدم الاهتمام بمعالجة هذه الرذيلة وإهمالها، سيساعد على استشرائها واشتدادها في النفس بحيث تصعب معالجتها. ويقول: إنّ العاقل يأكل ليبقى حياً وأمّا الإنسان المتابع لهواه فهو يعيش ليأكل.

في الفصل الرابع عشر، يعدّد المضار التي تلحق البدن والروح جراء «تعاطي المسكر» وينصح مخاطبيه بالتورّع عنه، فيقول ما نصّه:

قد يحتاج إلى الشراب ـ ضرورة ـ في دفع الغم وفي المواضع التي يحتاج فيها إلى فضل من الانبساط ومن الجرأة والإقدام والتهوّر. وينبغي

أن يحذر ولا يقرب الشراب البتة، في المواضع التي يحتاج فيها إلى فضل فكر وتبيُّن وتثبّت[1].

أمّا الفصل الخامس عشر، فيعنى بالحديث عن «الإفراط في الجماع» ويحذّر من مساوئه ومضاره، كما يعرض للحديث عن معالجة هذه الخصلة.

في الفصل السادس عشر، يبدأ المؤلّف حديثه عن «الولع في القضايا العبثيّة» والتافهة (نظير العبث باللحية). وللتخلّص من هذه العارضة، يؤكّد على ضرورة التذكّر واليقظة ونبذ الغفلة، واستنفار الهمة والعزيمة، إلى جانب الاستعانة بالخجل والحياء لدرئها. بعد ذلك يبحث مسألة الوسواس في الطهارة والنجاسة.

في الفصل السابع عشر، وبعد أن يشير الرازي إلى ضرورة تنظيم الحياة الاجتماعيّة على أساس مبدأ «تقسيم الأعمال»، يتطرق إلى المسائل الاقتصاديّة في المجتمع، فيعرِّف المال بأنّه العلامة التي بها يُعرف مقدار ما يستحقّه كلّ إنسان إزاء الجهد المفيد الذي يقدّمه إلى الآخرين، والذي به حصل على استحقاق ذلك.

وفي ما يتعلّق بتحصيل المال، ينصح المصنّف مخاطبيه بالتورّع عن الإفراط والتفريط. وذلك لأن الإفراط في طلب المال مآله التعب والإعياء بلا محصّل، وأمّا التفريط في ذلك فيعود على الإنسان بالذل والهوان. كما ينصح بضرورة ادّخار جزءٍ من المال من أجل المحافظة على استقرار الحياة المعيشيّة. وأمّا الادّخار من أجل رفع المستوى المعيشي وتحقيق

---

(1) **الرسائل الفلسفية**، كتاب الطب الروحاني، مصدر سابق، ص 74.

أكبر درجة من الرفاهية، فلا يراه نافعاً. وفي خصوص صرف المال، يرى أنّ هناك ثلاثة عناصر يجب أن يأخذها الفرد بعين الاعتبار كملاك للإنفاق المتعادل. وهذه العناصر هي: الدخل، الوضع الاجتماعي والادّخار.

الفصل الثامن عشر من الكتاب، تم تخصيصه لـ «طلب الجاه والمقام الدنيوي»، حيث يعدّ الرازي ذلك ناتجاً من هوى النفس. وفي المقابل، فإنّ الاكتفاء بحدّ الكفاف هو مما يحكم به العقل. ثم يتعرّض للحديث عن الفرق بين إرشادات العقل وهوى النفس، ويذكر ثلاثة فروق للتمييز بينهما.

الفصل التاسع عشر خصّصه المؤلّف لذكر أوصاف وخصائص «السيرة الحسنة الفاضلة»، وهي السيرة التي تؤدّي إلى جلب حبّ واعتزاز الناس، وتجنّب أذاهم وشرورهم المحتملة.

وفي الفصل الأخير، يعقد الرازي بحثاً في معالجة حالة الخوف من الموت، بالنسبة إلى من لايعتقد بالحياة بعد الموت، وكذلك بالنسبة إلى من يعتقد بوجود دار أخرى وراء دار الدنيا، ويرى في الموت أنه خير من الحياة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

أ) تبنّى المصنّف المنهج الاستدلالي ـ التحليلي، في أغلب فصول الكتاب، وفي موارد قليلة تبنّى منهجاً وصفيّاً استعراضيّاً (كما في الفصل الحادي عشر مثلاً).

ب) يبدو أنّ المصنّف قد أخذ على نفسه أن لا يفيد من المشهورات والمسلّمات، في بيان أصل استدلالاته أبداً، أو في الأعمّ

الأغلب. وأمّا في ذيول البحث فقد أفاد من أمثال هذه القضايا كمودات ومن باب التحشيد للبحث.

ج) إنّ الهدف الأساس الذي يبغيه المصنّف في كتابه هذا، هو إقناع الجميع بضرورة الإقلاع عن اتّباع الهوى، ولزوم الإذعان لحكم العقل وتحصيل المعرفة. فهو يعتقد بأنّ السبيل الوحيد الذي يفضي إلى سعادة الإنسان، بغضّ النظر عن العقيدة التي يحملها والرؤية الكونية التي يصدر عنها، هو مخالفة الهوى وتحصيل العلم والمعرفة. ومن هنا بالذات راح الرازي يعطي استدلالاته بطريقة تقنع الجميع، سواءً منهم القائلين بوجود حياة أخرى بعد الموت، أم الذين يعتقدون بفناء الروح بعد مفارقتها الجسد. ولذا تجده يؤكّد ـ في طريقه لإثبات مضار ومساوئ الأخلاق الرذيلة ـ على الآثار السلبية التي تلحق بالإنسان نتيجة هذه الأخلاق في الدنيا. ولا يشير إلى الآثار السلبية المترتّبة على التصرّفات والملكات البذيئة في عالم الآخرة. كما أنه لا يستند في معالجته هذه، لا إلى الآيات ولا إلى الروايات.

د) يرى الرازي أنّ النصائح الأخلاقيّة وكذلك عمليّة إصلاح النفس، يمكن ترحيلها على مراحل ودرجات. وعليه فإنّ أيّ مرحلة تتحقّق فهي غنيمة وجيدة وضروريّة في الوقت نفسه.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يصرّح المصنّف في مقدّمته على الكتاب، بأنّ الكتب الأخلاقيّة اعتمدت طريقة الشرح والإطناب. ولكن لمّا كان الناس بحاجة إلى رسالة

مختصرة ومفيدة، في هذا المجال، لذلك توخّى الإيجاز في تأليف الكتاب.

ويمكن القول إنّ الكتاب، بصورة عامة، يمتاز بقلم رصين وواضح، إلّا في بعض الموارد التي قد تعنّ فيها للقارئ بعض المفردات المهجورة. وأمّا الأسلوب الذي اختاره المصنّف فهو الأسلوب الفلسفي إلى حدّ ما، وكذلك الأدبيّات التي تضمّنها هي الأخرى ذات طابع فلسفي، إذ قلّما استفاد من الشعر والمسائل التاريخيّة، أو التشبيه والحكاية.

8 ـ التقييم النهائي

الملاحظ أنّ ما يصدر عنه الكتاب، من أُسس ومضامين، جاءت منسجمة ومتّسقة في جميع الفصول[1]. حيث نجد انسجاماً في المادة المطروحة، كما يوجد ترابط منطقي وموضوعي بين مفاصل الكتاب. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى الخطّة المناسبة التي اعتمدها المؤلّف في تأليفه للكتاب. والمتابع للأدلة والتحاليل المطروحة، يلاحظ أنّ الاستدلالات جاءت قويّة ورصينة. نعم، أهم ما يؤخذ على المصنّف، في كتابه هذا، هو الاكتفاء بذكر الغايات والأهداف والآثار الدنيويّة، وعدم الاهتمام بمقاصد الوحي والشريعة. وإلى جانب ذلك، يلاحظ أيضاً وجود حلول ونصائح مخالفة للشريعة الإسلامية.

(1) في بعض الموارد وجدنا اضطراباً وعدم تناسق في التعبير، فمثلاً مفردة «الشره» وردت في بداية الفصل السابع وفي الفصل الثالث عشر في معنيين، أحدها عام والآخر خاص. كما أنه في بيان دور القوة الغضبيّة تعرّض إلى بيان وجهتَيْ نظر مختلفتين في كلٍ من الفصل الثاني والفصل الثامن.

2

فصول منتزعة[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

مما لا شك فيه أنّ أستاذ الفلاسفة، أبو نصر محمد بن طرخان[2] الفارابي[3] (339 ـ 260 هـ) من أكبر حكماء وفلاسفة القرن الرابع الهجري، وعدّه البعض أكبر فيلسوف مسلم (شيعي)[4] على الإطلاق. وبالنسبة إلى جميع العصور[5].

---

(1) محمد بن طرخان الفارابي ت 339 هـ، **فصول متَزَعة**، تحقيق وتقديم وتعليق فوزي متري نجار، طهران، انتشارات الزهراء، 1405 هـ، 115 صفحة قطع وزيري.

(2) تم ضبط اسم ونسب الفارابي عند الأغلبيّة بالنحو التالي: محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ (أنظر شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 25، ص 181، وأبو العباس بن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج 5، ص 153، و...). وإن كان البعض ذكر أنه محمد بن أحمد بن طرخان بن اوزلغ (السيد حسن الصدر، **تأسيس الشيعة**، ص 383)، وآخرون ذكروا أنه محمد بن محمود بن أوزلغ بن طرخان (إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين**، ج 6، ص 39).

(3) الفارابي، نسبةً إلى مدينة فاراب في خراسان. ابن النديم، **الفهرست**، ص 323.

(4) عدّه بعض الباحثين من الشيعة استناداً إلى شواهد منها: التشابه والتقارب الموجود بين ما يراه الفارابي في خصوص ارتباط رئيس المدينة الفاضلة بالله سبحانه وتعالى بواسطة العقل الفعّال، وبين ما يذهب إليه الخواجة نصير الدين الطوسي في خصوص الإمام المعصوم عند الشيعة. ومن هذه الشواهد يتّضح أن الفارابي نحا بالفلسفة باتجاه السياسة. وهذا الطريق نفسه الذي سلكه الشيعة للإطاحة بالسلطات الحاكمة وإقامة النظام السياسي الذي يترأسه الإمام. أضف إلى ذلك هناك شواهد أخرى سنأتي على ذكرها في هذا الكتاب. انظر: تاريخ الفلسفة في العالم الإسلامي، حنّا الفاخوري وخليل الجر، ص 402 وص 440 وآخرين.

(5) في تقييمه للفارابي يقول ابن سبعين: «وهذا الرجل أفهم فلاسفة الإسلام وأدراهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير (ابن سبعين **العارف**، ص 143). ويكتب عنه =

كان ملمّاً بالأدب العربي والمنطق والفلسفة والحكمة والكلام والهيئة والرياضيّات، والموسيقى والسياسة وعلم الاجتماع، إلماماً جيداً. ويجيد العديد من اللّغات. ومع ذلك جاءت جميع مؤلّفاته باللغة العربية[1].

من أبرز أساتذته: يوحنا بن حيلان ومتى بن يونس وابن سراج النحوي. وأمّا أشهر تلامذته فهما: يحيى بن عدي وإبراهيم بن عدي[2].

وقد صنف الفارابي تصانيف كثيرة، لم يصل منها إلينا إلا بعضها ومع ذلك فالكتب التي وصلتنا هي الأخرى كثيرة وقد ترجمت عيون تراثه إلى عدد من لغات العالم (بما فيها الفارسية، والتركية، والعبرية، واللاتينية، والروسية، والإنجليزية، والألمانية، والفرنسيّة)[3]. وهنا نشير إلى بعضها: شرح كتب أرسطو: «**المقولات، المغالطات، العبارة، القياس، البرهان، الجدل، الخطابة، الشعر**»، **آراء أهل المدينة الفاضلة، السياسات المدنية، إحصاء العلوم، الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون**

= البيهقي: «ولم يكن أفضل منه في حكماء الإسلام قبله. وقيل: الحكماء أربعة، اثنان قبل الإسلام وهما أرسطو وأبو قراط، واثنان في الإسلام وهما أبو نصر وأبو علي.. وكان أبو علي تلميذاً لتصانيفه». (**تاريخ حكماء الإسلام**، ظهير الدين البيهقي، ص 41). وقد مدح الشهرزوري أبا نصر قائلاً: «لم يأت في حكماء الإسلام من هو أفضل منه». (**نزهة الأرواح وروضة الأفراح**، محمد بن محمود الشهرزوري، ص 41). ويقول ابن خلكان عنه: «الحكيم المشهور.. وهو أكبر فلاسفة المسلمين» (**وفيات الأعيان**، شمس الدين بن خلكان، ج 5، ص 153)، والظاهر أنه لعلوّ مرتبته في شتّى العلوم لقب بالمعلّم الثاني بعدما لقّب أرسطو قبل قرون بالمعلّم الأول.

(1) أنظر: ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص 603؛ ومحمد بن علي الخطيبي الزوزني، **تاريخ الحكماء**، ص 280 ـ 277؛ وحسين علي محفوظ وجعفر آل ياسين، **مؤلّفات الفارابي**، ص 472 ـ 469.

(2) محمد بن علي الخطيبي الزوزني، **تاريخ الحكماء**، ص 277 ـ 280؛ وشمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 5، ص 183 ـ 181.

(3) د. حسين علي محفوظ وجعفر آل ياسين، **مؤلّفات الفارابي**، ص 24، ص 496 ـ 472.

وأرسطوطاليس، ماهيّة النفس، تحصيل السعادة، التنبيه على سبيل السعادة، الأخلاق، نيل السعادات، السيرة الفاضلة، وفصول منتزعة[1].

2 ـ النسخ والطبعات

يتراءى للباحث أنّ كلاًّ من **فصول منتزعة** و**الفصول المدنيّة** هما عنوانان لكتاب واحد من كتب الفارابي. ولكن ذكر كلّ واحد من العنوانين وحده، كان سبباً لتوهم أنهما كتابان مختلفان[2]. كما إن **السياسات**، و**مبادىء الموجودات** أيضاً، اسمان مختلفان لمصنّف آخر من مصنّفات الفارابي[3].

وتوجد نسخ خطيّة عدّة لهذا الكتاب، نكتفي هنا بالإشارة إلى النسخة الموجودة في كلّية الإلهيّات بجامعة طهران برقم 695 ـ والنسخة الموجودة في مكتبة الشعب بإسطنبول (ضمن مجموعة فيض الله الأفندي) برقم 1279 ـ والنسخة الموجودة بمكتبة كنَه لو دياربكر برقم 1970[4].

وقد طبع هذا الكتاب، مرة، تحت عنوان **الفصول المدنيّة** وصحّحه وترجمه إلى الإنكليزية د. م. دانلب وطبع من قبل دار النشر التابعة لجامعة كمبريج البريطانية عام 1961م، وطبع مرة أخرى تحت عنوان **فصول**

---

(1) المصدر نفسه؛ وأيضاً إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين**، ج 6، ص 39؛ والزوزني، مصدر سابق، ص 280 و279.

(2) **فصول منتزعة**، مقدّمة المصحّح، ص 9.

(3) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص 608؛ ومحمد لطفي جمعة، **تاريخ فلاسفة الإسلام**، ص 22.

(4) حسين علي محفوظ وجعفر آل ياسين، مصدر سابق، ص 335؛ ومقدمة د. فوزي متري نجار على فصول منتزَعة، ص 15 ـ 19.

منتزعة، بتحقيق وتقديم وتعليق، الدكتور فوزي متري نجار من قبل دار المشرق في لبنان (بيروت) في عام 1971 م[1]. وقد قامت دار نشر الزهراء في طهران بسحب الكتاب نفسه على الأوفسيت عام 1405 هـ[2].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

ترجم كتاب **فصول منتَزَعة** مرتين، حتى الآن، إلى اللّغتين الإنكليزية والروسية[3]. ولم نعثر على دراسة نقدية، أو شرح حول الكتاب، أو تعليقة مستقلة على الكتاب.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

اهتم الفارابي في مصنّفه هذا، بجملة بحوث، من قبيل «علم النفس»، و«علم النفس الأخلاقي». وإلى جانب ذلك تعرّض إلى تعريفات دقيقة لجملة من المصطلحات والمفردات الأساسيّة في علم الأخلاق، من قبيل الفضيلة والرذيلة والفاضل والضابط والحكمة والسعادة. كما بحث نظريّة الحدّ الوسط (قانون الاعتدال الذهبي).

ومن جهة أخرى درس المصنّف قضايا، من قبيل: العلاقات الأخلاقيّة والبناء الاجتماعي، وأنماط الحكم والطبقات الاجتماعيّة، من منظار علم الاجتماع الأخلاقي، من دون أن يفصّل في الحديث عن الفضائل والرذائل الأخلاقيّة نفسها، والأسباب والمناشئ التي تتسبّب بها والآثار النفسيّة والسلوكيّة التي تتبعها، أو كيف يُصار إلى معالجتها

---

(1) حسين علي محفوظ ود. جعفر آل ياسين، مصدر سابق، ص 335؛ **ومأخذ شناسي علوم عقلي**، محسن كديور ومحمد نوري، ج 2، ص 1670.

(2) عبد الجبار الرفاعي، **معجم المطبوعات العربية في إيران**، حرف الفاء.

(3) **مؤلفات الفارابي**، ص 335؛ **ومأخذ شناسي علوم عقلي**، ص 1670.

والتخلّص منها. نعم، في ما يتعلّق بالفضائل العقلانيّة (فضائل القوة الناطقة) بالتحديد، عرض الفارابي للحديث عنها بالتفصيل وقام بتعريفها ضمن فصول متعدّدة واهتمّ بتحديدها وبيان مميزاتها والفروق الموجودة في ما بينها بشكل تام. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ثمة مواطن بحثت فيها جملة بحوث، في مجال الأخلاق الاجتماعيّة، إلّا أنها لم تشغل حيّزاً ملحوظاً من حجم الكتاب.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

على الرغم مما يحظى به كتاب **فصول منتَزَعة** من أهميّة بالغة، على صغر حجمه (عدد صفحات الكتاب 40 صفحة من القطع الوزيري)، حيث يتضمّن جملة من البحوث القيّمة، والآراء الدقيقة، في مجال «الأخلاق الفلسفيّة»، على الرغم من ذلك فهو يفتقر إلى تبويب وهيكليّة محدّدة. حيث لا نجد أمامنا سوى مجموعة نقاط وإثارات مختصرة، دوّنها المصنّف الكبير ضمن 96 ـ أو 100 ـ قسم، وسمّاها فصولاً، من دون أن يختار لكلّ فصل عنواناً معيناً، ومن ودون أن يصنّفها ضمن أبواب وفصول محدّدة. مع كلّ ذلك، فإننا إذا أعدنا قراءة هذا النصّ المضغوط عدة مرات وبدقة، ستكشف لنا، شيئاً فشيئاً، الخطوط العامة لخطة الكتاب العامة، من وراء ظاهر الكتاب ـ والذي يبدو متناثراً ومن دون نظام وترتيب ـ ولكن حتى نتوصّل إلى هذه الخطة العامة، ينبغي لنا أولاً وقبل كلّ شيء، أن نتعرّف على المنظومة الفكريّة للفارابي، والهندسة التي تتوزّع في ضوئها العلوم من وجهة نظره (طبعاً في حدود ما يتعلّق بفكره الأخلاقي)، ولو بشيء من الاختصار. من هنا نبدأ بمقدّمة ضروريّة في هذا المجال.

علم المدنيّة، من إبداعات الفارابي

لقد كان أفلاطون وأرسطو، وهما من حكماء اليونان، ينظران إلى الأخلاق والسياسة على أنهما علمان مستقلّان وفرعان منفكّان في الحكمة العملية. إلّا أنهما في الوقت نفسه يعتقدان بأن هذين العلمين يشتركان في غاية وهدف واحد وهي «السعادة». فالدور الأساس الذي يضطلع به القانون من وجهة نظر أفلاطون، هو بناء مجتمع فاضل وتربية إنسان فاضل[1].

من جانبه، أفرد أرسطو الفصل الأخير من كتابه **الأخلاق** لبحث الأخلاق والسياسة، معتقداً أنّ نهاية أحدهما هي بداية للآخر. ومن هذا المنطلق، يمكن أن نعدّ رسالة **السياسة** التي دونها أرسطو، رسالة للأخلاق الاجتماعية، والتي تهدف إلى تعليم وتربية المواطنين من ذوي الفضيلة. فهو يرى أنّ علم الأخلاق ما هو إلّا مقدمة وتمهيد للدخول في علم السياسة[2].

أمّا المعلم الثاني، والذي يعدّ من أبرز مدرّسي وشارحي تراث هذين الفيلسوفين، فقد بذل جهوداً كبيرة في تقريب آرائهما ـ في هذا المورد بالذات ـ وهو ردّ على نظريتهما التجزيئية، مؤكّداً على وحدة الأخلاق والسياسة.

من هنا بالذات، لا يجد القارئ لتراث الفارابي، أيّ كتاب أو رسالة مستقلة له في باب الأخلاق، نهج فيها على منوال المنهج الأرسطي ـ

---

(1) **مجموعة آثار أفلاطون**، ترجمة محمد حسن لطفي، ج 4، (كتاب القوانين).

(2) أرسطو، **أخلاق نيكوماخوس**، ترجمة محمد حسن لطفي، ص 70.

الأفلاطوني. وإنما الملاحظ أنّ جميع نظريّاته وآرائه في الأخلاق جاءت في سياق أفكاره الاجتماعيّة والسياسيّة. والسرّ في ذلك يعود بالأساس إلى الموقف الذي اتخذه الفارابي في ما يتعلّق برؤيته للعلوم ومنهجيّتها.

إنّ جانب الإبداع والبعد التأسيسي للفارابي، في حركته الفكريّة، في ما يتعلّق بتصنيف العلوم وتحديد مَدَياتها ودوائرها، يكمن في مشروعه الفكريّ. وهو «العلم المدني» حيث يمكن جعله حلقة وسطى بين العلم الطبيعيّ والعلم الإلهيّ. ويجدر القول إنّ مشروع «العلم المدني» للفارابي، هو مشروع علمي شمولي جامع، موضوعه جميع الأفعال الإرادية للإنسان. وعلى الرغم من أنّ العلم الطبيعي هو الآخر يُعنى بموضوع الإنسان، إلّا إنّ موضوع ذلك العلم هو الإنسان في مرتبته الجسميّة الطبيعيّة. وأمّا العلم المدني، فيُعنى بدراسة الإنسان من حيث إنّه كائن ذو إرادة واختيار، وبالتالي فهو ـ أي الإنسان ـ سبب لوجود أنواع كثيرة من الموجودات، يزعم الفارابي أنها مريدة ومختارة. وتشمل الموجودات الإراديّة ـ بحسب ما يراه ـ أحوال النفس الإنسانيّة وحالاته الفكريّة والمعنويّة وما يترتّب على هذه الفعاليات من نتائج وآثار. والملاحظ أنّ العلم المدني، وإن كان موضوع بحثه يتّسع لجميع الموجودات الإرادية، إلّا أنه يقتصر في دراسته لها على الجوانب الاجتماعيّة والأخلاقيّة فيها والتي تؤثّر في سعادة المدينة والفرد.

وينقسم العلم المدني الذي ـ بشّر به الفارابي ـ إلى قسمين: نظريّ وعملي. القسم النظري يُعنى بالبحث عن ماهيّة الخير والسعادة والفضيلة. وأمّا القسم العملي، فيبحث فيه عن كيفيّة وصول الفرد والمجتمع إلى ذلك الخير وتلك السعادة. وذلك من خلال المنهج الذي يتّبعه رئيس

المدينة (أو ـ على حدّ تعبير الفارابي في موارد مختلفة ـ الإنسان الكامل، الفاضل الأول، الإمام، الرئيس الأول، واضع النواميس)، في إدارة المدينة وقيادتها[1].

ثمة صورة جانبيّة يرسمها الفارابي عن المجتمعات، حيث يصنّف فيها الاجتماعات الإنسانيّة ـ على أساس السعادة الحقيقيّة التي تتطلّع إليها ـ إلى أربعة أقسام: المجتمعات الفاضلة، والمجتمعات الجاهلة، والمجتمعات الضالّة، والمجتمعات الفاسقة. وكما هو الظاهر، فإنّ هذا التصنيف ذو طابع قِيَمَيّ واضح[2].

ويعرّف الفارابي «المدينة الفاضلة» بأنّها المدينة التي يكون فيها الناس على معرفة تامة بحقيقة السعادة. والمقصود الحقيقي من الاجتماع في مثل هذه المدينة هو التعاون على الأمور التي تؤدّي إلى السعادة.

وأمّا «المدينة الجاهلة» فهي المجتمع الذي لايعرف فيه الناس حقيقة السعادة، وحتى لو عرّفت لهم ماهيّة السعادة ومفهومها، فإنّ الناس سوف لن يفهموها، وذلك لعدم امتلاكهم القدرة الكافية على الفهم والإدراك.

وتعرّف «المدينة الضالّة» بأنها المجتمع الذي ينشد أهله السعادة الغائيّة؛ لكن لديه تصوّرات وآراء فاسدة حول العالم والخالق وقضايا الخير والشر.

---

(1) الفارابي، **إحصاء العلوم**، ص 102؛ الحروف، ص 6؛ وأيضاً انظر:

R. Lerner and M. Mahdi, **Medieval political philosophy**, p.24.

(2) يطرح الفارابي في كتابه «**فصول منتزَعة**» مصطلح المدينة الفاضلة، مقابل المدينة الضروريّة. والتي يكون فيها المقصود الحقيقي من الاجتماع: التعاون على الأمور المعيشيّة والرفاهيّة الدنيويّة فقط، ص 6 و45.

وأخيراً «المدينة الفاسقة»، يُراد بها المجتمع الذي يتوافر أهله على معتقدات وآراء صحيحة عن العالم، وعن الإنسان وعن الخير والسعادة، إلّا أنهم ـ على صعيد السلوك والالتزام العملي ـ يتصرّفون كما يتصرّف أهل المدينة الجاهلة[1].

ويذهب الفارابي إلى أنّ العامل الذي يؤدّي إلى الانسجام والتضامن، من داخل المدينة الواحدة، هو «المحبة الإراديّة»[2] التي تنشأ بين الأعضاء. ومن أهم العوامل التي تساعد على إيجاد هذه العلاقة الحسيّة، هو الاشتراك في الآراء والعقائد، في ما يتعلّق بقضايا من قبيل بدء الخلق، ومصير الكون، ومكانة الإنسان في النظام الكوني، والهدف الغائيّ الذي ينشده. وفي ما يتعلّق بالمدينة الفاضلة، فإنّ هناك جملة من المعتقدات المشتركة هي السائدة فيها، نظير: الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى، وبعالم الغيب وبالأئمة[3].

وبدورهم، يُدين الأعضاء في المدينة الفاضلة بالطاعة لحكّام فضلاء وهم الفلاسفة والفقهاء. ومن جانبها، أخذت الحكومة على نفسها عهداً أن تعرّف الناس بالسعادة الحقيقيّة، وتعلّمهم المعتقدات الصحيحة، وأن تعمل على إصلاح أخلاقيّات الناس، وأن تجهد في إشاعة القيم المثلى في المجتمع، وتسعى في هداية المجتمع نحو السعادة وإقامة العدل،

---

(1) الفارابي، **السياسة المدنية**، ص 80؛ أنظر أيضاً، الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، ص 118.

(2) يقسم الفارابي المحبة إلى قسمين: إراديّة وتكون ذات قيمة أخلاقيّة، وطبعيّة أو بالطبع (نظير محبة الأم ولدها).

(3) الفارابي، **فصول منتزعة**، الفصل 61، ص 70.

وتقوم بتوزيع الثروات والخيرات ـ المادية والعامة ـ بأمانة، وأن تعاقب المفسدين والأشرار وتعمل على تأديبهم[1].

وفي هذا السياق يقول:

والمستنبط للمتوسّط والمعتدل، في الأخلاق والأفعال، هو مدبّر المدن، والملك والصناعة التي يستخرج بها ذلك هو الصناعة المدنية والمهنة الملكيّة[2].

ويرى الفارابي أنّ العوامل المؤثّرة في تأسيس سلوك أخلاقي معيّن وفي بناء الملكات والسجايا التربويّة لدى الفرد، لاتنحصر في طبيعة البنية الاجتماعية، ونوع المدينة، ونمط الحكومة والطبقة الحاكمة، بل تتعدّى ذلك لتشمل حتى نوع المسكن وجنسه والفن المعماري الذي عليه. فكلّ هذه العوامل تساهم في إيجاد خصال وصفات أخلاقيّة وخصائص روحيّة ونفسيّة معيّنة لدى الفرد. وفي ضوء هذه المؤثرات التربويّة، فإنّ على الفرد والشعب والحكومة، أن يأخذوا بالاعتبار حتى نوع البيت الذي يقطنه الأفراد وخصائصه[3].

---

(1) بحث الفارابي مهام الحكومة هذه في كتبه التالية: **فصول منتزعة**، الفصول، 21 ـ 10؛ **السياسة المدنيّة**، ص 71 ـ 70 وص 90 ـ 89؛ **آراء أهل المدينة الفاضلة**، ص 129 وص 146، وتحصيل السعادة، ص 80 ـ 81.

(2) **فصول منتزعة**، الفصل 5، ص 25.

(3) إنّ التصوير الذي يختزنه الفارابي عن المجتمع، في وعيه، والذي راح يبثه في الكثير من مصنفاته، هو تصوير فَسْلَجي وظيفي على أساس تشبيه المجتمع المدينة بجسم الإنسان، باعتبار أن ثمة تناظراً يمكن إيجاده بين الأدوار والوظائف التي تنهض بها مكوّنات المجتمع (المدينة) وبين وظائف الأعضاء داخل الجسم الواحد. وهذا التصوير ينطلق من رؤية تعوّل كثيراً على المنبت الاجتماعي، لمصير وهوية أفراد المدينة. وكما نعلم في ما يتعلّق بالعلاقة العضويّة الثنائيّة الموجودة بين أنسجة وأعضاء الجسم ـ بخلاف العلاقات الميكانيكيّة، فإنّ سلامة الأعضاء وصحة أدائها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بصحة وسلامة عمل وأداء سائر الأجهزة، بمعنى أن الجهاز الهضمي أو جهاز الدورة ـ مثلاً ـ الدمويّة لا =

تأسيساً على ما قلناه، يمكننا تحديد موقع ومكانة الفكر الأخلاقي للفارابي، في إطار الفلسفة المدنيّة، وفي ضوء أفكاره الاجتماعيّة، ضمن عدة نقاط رئيسة هي:

1 ـ إنّ العلّة الغائيّة للحياة، في المدينة الفاضلة، تكمن في الأهداف الأخلاقيّة (السعادة وأعلى مراتب الخير). وفي الأدوات الفرديّة التي يُستفاد منها في تحصيل تلك الغاية ـ أي الفضائل ـ.

2 ـ الحاكم الفاضل والحكومة العادلة، هما بمثابة العلة الفاعليّة التي تسهم في استقرار الحياة المدنيّة الطيّبة.

3 ـ طبيعة البنية الاجتماعيّة للمدينة ومكوّنات المجتمع، سواء منها التي تحمل طابعاً قِيَميّاً إيجابياً أو سلبيّاً بمجموعها، تقوم بدور العلّة الصُوَرية في حدوث واستمرار الحياة المدنيّة الطيّبة.

4 ـ وأمّا الأموال والمعادن والمراتع وجميع المواهب والإمكانات المادّية العامة، فهي بمثابة العلّة الماديّة لتأسيس الحياة الطيّبة المدنيّة هذه.

إذن، «الفلسفة المدنيّة» من وجهة نظر الفارابي، هي العلم الذي يُعنى بتأمين سعادة الإنسان، ويتكفّل بالإجابة عن التساوات المطروحة، في ما يتعلّق ببحث السعادة ويهتم هذا العلم بجملة تساؤلات، تبتدئ بأدوات استفهاميّة خاصة، بهدف الوصول إلى إجابات محدّدة، أدوات استفهامية من قبيل: ما هو، لم هو، هل هو، كيف هو؟ وفي هذا

= يمكنه أن يستمرّ في حياته ما لم يكن جهاز التنفس سليماً. والعكس صحيح أيضاً. يحاول الفارابي من وراء هذا التمثيل بيان هذه الفكرة. وهي أن الفرد ليس بإمكانه الوصول إلى السعادة القصوى والفوز بالخير الأعلى إذا كان المجتمع غير سليم.

المجال، يتولّى الجزء الأول من الحكمة المدنيّة، أي الفكر الأخلاقي، الإجابة عن السؤالين الأولين، في ما يهتم الجزء الثاني منه، أي الفكر الاجتماعي ـ السياسي، بالإجابة عن السؤالين الأخيرين.

والآن، وبعد هذه الإطلالة التي قدّمناها عن الفكر الأخلاقي لدى الفارابي، صار بإمكاننا تقديم قراءة أكثر دقة لمواضيع كتاب **فصول منتزعة**. وكما أسلفنا، فإنّ المقاطع أو الفصول المائة في هذا الكتاب، لم يعمل المؤلّف على تبويبها وعَنْوَنتها.

ومن المناسب هنا، ومن أجل تعريف الباحثين بالكتاب، أن نقوم بفهرسة فصوله المائة ووضع عنوان مناسب لكلّ فصل، لنقوم بعد ذلك، وعلى أساس المضامين المشتركة للفصول، باقتراح تبويبها وتقسيمها، وفق رؤية المصنّف المعرفيّة للعلوم.

الباب الأول: حكومة المجتمع بمثابة طبابة النفوس

1 ـ ملاك صحة وسقم البدن والنفس.

2 ـ تعريف الفضيلة والرذيلة.

3 ـ تشابه وظائف الطبيب والمدني (الحاكم).

4 ـ التمايز بين وظائف الطبيب والحاكم.

5 ـ العلوم اللاّزمة للطبيب والحاكم.

الباب الثاني: علم نفس الأخلاق ومعرفة أنواع الفضائل

6 ـ نسبة الصورة والمادة في الأجسام.

7 ـ قوى النفس الخمس.

8 ـ أنواع الفضائل الخلقيّة والنطقيّة.

9 ـ تكرار الأفعال وتكوّن الرذائل والفضائل.

10 ـ قابليّة الإنسان على كسب الفضائل والرذائل.

11 ـ الاختلاف في القابليّات الأخلاقيّة.

12 ـ الاستعداد الطبيعي ودوره في التمهيد لتنمية وتقوية الفضائل والرذائل.

الباب الثالث: المراتب الأدنى والأعلى للسلوك الأخلاقي وعلاقتها بالتصنيف السياسي للمدينة

13 ـ مراتب الاستعداد الأخلاقي (نقطة تربويّة).

14 ـ الفرق بين الضابط (يعمل الخير وهو يهوى الشرّ ويشتاق إليه)، والفاضل (يعمل الخيرات وهو يشتاقها).

15 ـ لزوم تحلّي رئيس المدينة بالفضائل.

16 ـ لزوم أن يكون كلّ فرد من أفراد أهل المدينة، إمّا فاضلاً أو ضابطاً، وإخراج الآخرين.

17 ـ إمكانية تغيير الأخلاق، وعلاقة الأخلاق بالعادة.

الباب الرابع: تعريف الحدّ الوسط وأقسامه والخطة التي يتّبعها مدبّر المدينة في تحديد الحدّ الوسط

18 ـ تعريف فضائل الحدّ الوسط ورذائل الأطراف.

19 ـ تقسيم التوسّط إلى توسّط مطلق وتوسّط نسبي.

20 ـ لحاظ الزمان والمكان ومستويات الأفراد، في تحديد الحدّ الوسط الأخلاقي.

21 ـ تحديد النسب وتعيين الحدّ الوسط، من اختصاصات قائد المجتمع (رئيس المدينة).

الباب الخامس: دور المنزل والأسرة في المدينة الفاضلة، والفرق بين المدينة الفاضلة والمدينة الضرورية

22 ـ تعريف المنزل والمدينة.

23 ـ تأثير نوعيّة المسكن والبيئة الجغرافيّة، في تصرّفات وطباع الإنسان.

24 ـ مهام ووظائف مدير الأسرة.

25 ـ تشبيه المنزل والمدينة ببدن الإنسان.

26 ـ تدبير أمور المدينة ومعالجة ما يطرأ عليها من فساد، بطرد العضو الفاسد.

27 ـ ضرورة امتلاك رؤية اجتماعيّة في استنباط حدّ الوسط.

28 ـ تعريف المدينة الفاضلة وما يميّزها عن المدينة الضروريّة.

29 ـ ضرورة تفعيل الحدّ الوسط في المجتمع بشكل عملي.

الباب السادس: الغاية والهدف من الحكومة

30 ـ مهمة رئيس المدينة: تأمين سعادة الناس.

31 ـ الآراء الفاسدة حول عوامل نشوء الحكومة وغايتها.

32 ـ القدرة على تدبير المدن شرط ملاك الحاكميّة.

الباب السابع: أجزاء القوة الناطقة وفضائلها

33 ـ تقسيم فضائل القوة الناطقة بما يتناسب والجزء النظريّ والفكريّ لها[1].

34 ـ تعريف الجزء النظريّ للقوة الناطقة.

35 ـ معاني العلم وإطلاقاته.

---

(1) يميّز الفارابي بين الجزء النظريّ والجزء الفكريّ للقوة الناطقة.

36 ـ حقيقة العلم.

37 ـ الحكمة.

38 ـ العقل العملي (الجزء الفكريّ).

39 ـ التعقّل، الكياسة، الدهاء و. . .

40 ـ اللذائذ ومؤذيات النفس والبدن.

41 ـ تأثير الأخلاق في تحديد الملائمات والملذّات.

42 ـ أنواع التعقّل.

43 ـ الظنّ الصواب.

44 ـ الذهن.

45 ـ جودة الرأي.

46 ـ أدوات التروّي: المشهورات والمجرَّبات.

47 ـ الغمر.

48 ـ الجنون.

49 ـ الحُمق.

50 ـ الذكاء.

51 ـ الدهاء والخبث والمكر، مقابل التعقّل والكياسة.

52 ـ أفضليّة الحكيم على المتعقّل.

53 ـ نسبة الحكمة إلى التعقّل.

54 ـ فضيلة الخطابة وكونها تستعمل في الخير وفي الشر.

55 ـ الفرق بين جودة التخيّل وجودة الإقناع.

56 ـ أقسام التخيّل والنسبة بينه وبين الشعر.

الباب الثامن: بيان وصفي لمجتمع المدينه الفاضلة

57 ـ تصنيف الأعمال والمشاغل في المدينة الفاضلة.

58 ـ تصنيف رواء المدينة الفاضلة.

59 ـ نظام السلطة والرئاسة، في الأصناف والفئات المختلفة.

60 ـ مراتب ودرجات المشاغل، على أساس قيمة كلّ شغل.

61 ـ وحدة العقيدة في ما يتعلّق بالمبدأ والمنتهى. وائتلاف أجزاء المدينة ومراتبها على أساس المحبة والعدل.

62 ـ الأصول والقواعد في تطبيق العدالة.

63 ـ الرؤى والمنطلقات في باب العقوبات والعفو عن المتخلّف.

64 ـ العدالة الأخلاقيّة أخصّ من العدالة الاجتماعيّة.

65 ـ الأسس والمرتكزات في تقسيم المشاغل.

66 ـ الآراء في توزيع الثروة.

67 ـ أسباب ومناشئ الحرب.

الباب التاسع: فلسفة الشرور والرذائل الأخلاقيّة

68 ـ أقسام الوجودات الإمكانيّة (تعريف).

69 ـ مصاديق الوجودات الإمكانيّة.

70 ـ أقسام الوجودات الممتنعة العدم.

71 ـ مراتب أقسام الوجودات الممتنعة العدم.

72 ـ نقص العدم والحاجة.

73 ـ وجود الضدّ، علامة النقص.

90 ـ الأهواء والظنون، ركيزة السياسات الجاهلة.

91 ـ معرفة مكوّنات السياسات الجاهلة.

92 ـ مراتب أصناف السياسة الجاهلة.

الباب الثاني عشر: العلم والعمل، في المدينة الفاضلة والجاهلة

93 ـ مراتب القوة التجريبيّة، في المدينة الفاضلة والجاهلة.

94 ـ مراحل العلم وتقدّمه على العمل.

95 ـ فضيلة التفكر.

96 ـ مسار التربية مرتهن بقابليّات الأفراد وحاجات المدينة.

97 ـ الإنسان مزيج من النوازع المتضادّة وما ينجم عن هذا التمازج.

98 ـ أفضليّة العامل من دون علم على العالم بلا عمل.

99 ـ تضامن المجتمع الفاضل في ظلّ هدف واحد وتشرذم المجتمع الجاهل.

100 ـ عاقبة أمر الغافل والمتغافل.

في ضوء ما أوردناه في هذا الفهرست، هناك جملة بحوث حظيت باهتمام وافر من قبل المؤلّف، بحوث من قبيل: المنطلقات النفسيّة والاجتماعيّة للأخلاق، الأسس الكلاميّة ومنطلقات الرؤية الكونيّة التي تبتني عليها منظومة الأخلاق، تعريف الفضيلة وأقسامها وما هو الحدّ الوسط فيها، مع التأكيد على فضائل ورذائل القوة الناطقه. وأخيراً ارتباط السياسه بالأخلاق، مع التركيز على المهام الخاصة التي يضطلع بها رئيس المدينة. وهي دراسة مقارنة حول المجتمعات الأخلاقيّة والمجتمعات غير الأخلاقيّة. ثمة عناوين أخرى جاءت في المرتبة الثانية

من حيث اهتمام المؤلّف بها، نظير فضائل ورذائل القوة الشهويّة. وأمّا العناوين المرتبطة بأخلاق العبوديّة، فقد كانت أقلّ حظاً من سابقتها ولم تُبحث بشكل تفصيلي ومستوعب.

6 ـ منهجيّة الكتاب

يعتمد الكتاب المنهج العقلاني، حيث لم يفد المصنف من المصادر العرفانيّة الأثريّة. وهنا لا بدّ من التذكير بأنّ العقلانية المتّبعة في الكتاب، هي مزيج من النشاط الفكريّ ذي الطابع الانتزاعي الفلسفي، والنشاط الفكريّ ذي الطابع التجريبي التاريخي. وقد أفاد الفارابي من جملة أساليب، سواء في بيان وتدعيم القضايا الأخلاقية، أم في إقناع مخاطبيه وقرّائه، هي كما يلي:

أ) بيان دقيق لما يعتري النفس من دخائل وأمور نفسيّة، وذلك من خلال استشراف الباطن أو قل المقاربة الباطنيّة (إرجاع تلك الأمور إلى التجارب الروحيّة والنفسيّة، إلى جانب عرض دقيق لمواصفاتها وعلائمها).

ب) إحداث منظومة معانٍ منسجمة في ما بينها، وذلك من خلال تقديم معالجات تحليليّة معرفيّة عميقة، إلى جانب تزويد القارئ بتعاريف جامعة ومانعة.

ج) اعتماد التمثيلات الواضحة والمناسبة، لرفع الغموض واللَّبس عن المعنى وتقريبه للذهن.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يمثّل الكتاب نموذجاً متميّزاً لنصّ فلسفيّ ناضج، وقلم متمرّس،

حيث اللّغة المختزلة والمضغوطة، إلى جانب الروعة والخلوّ عن التعقيد في التعبير. وقد ساهمت في ولادة نصّ رصين ومتقن.

والملاحظ أنّ الكتاب لم يتضمّن آيات ولا روايات ولا قصصاً ولا حكايات. نعم، في موارد قليلة أفاد من التمثيل والتشبيه بنحو مناسب.

8 ـ التقييم النهائي

يُعدّ كتاب **فصول منتزعة** لأبي نصر الفارابي، من عيون مصادر الأخلاق الفلسفيّة. فهو، على الرغم من صغر حجمه، احتوى على جملة من البحوث الأخلاقيّة والتربويّة، بقلم قويّ وبديع. ومن النقاط المضيئة والمميزة فيه، تقديم تعاريف دقيقة للمفاهيم الرئيسيّة والأساسيّة في مجال الأخلاق، حيث يمكن القول إنّ مستوى الدقة في بعض التعاريف قد لا نجد له نظيراً في النصوص الأخرى.

وثمة جانب آخر يستحق التقدير، في الفكر الأخلاقي للفارابي ـ ولاينحصر في كتابه هذا ـ هو تأكيده على التعامل مع مقولة الأخلاق من منطلق حضاريّ وشموليّ. من الملاحظ أنّ يقدّمها عن الأخلاق، لاتنظر إلى الأخلاق بمعزل عن سائر مرافق ومكوّنات الحضارة، ولا بمنأى عن طموحات وتطلّعات البشريّة، بل هي مترابطة ومندكّة في هذه المكوّنات والطموحات. فالفارابي ينطلق في رؤيته للمدينة في بنائها العام، على أساس وجود علاقة عضويّة تربط وتشدّ مفاصل ومكوّنات المدينة بعضها بالبعض الآخر.

كما يعتقد أنّ سلامة وفاعليّة الفكر والضمير والغاية الأخلاقيّة، كلّ ذلك من شأنه أن يُثير في المجتمع الحساسية إزاء الموقف الخاطىء والتوجّه الخاطىء والآليّات والأدوات غير المناسبة، التي قد تتّبعها كلّ من مؤسّسات الأسرة والاقتصاد والسياسة والتعليم والدين. ومن جانب

آخر، يذهب الفارابي إلى أن مهمة صيانة نظام المدينة، هي من شؤون رئيس المدينة، وهو الإنسان الكامل الذي وصل أعلى المراتب في اكتساب الفضائل الأخلاقية. كما يرى أنّ الملاك في صحة ما تقوم به المؤسّسات الاجتماعيّة، من أدوار ونشاطات، هو أن تكون محصلة هذه الأدوار والنشاطات في خدمة الأخلاق وتبعث على صيانة وتكريس ونشر الفضائل في المجتمع.

وأخيراً، تجدر الإشارة إلى أنّ أغلب الباحثين في تراث الفارابي من المستشرقين والباحثين المسلمين، تسالموا على أنّ النظريّة السياسيّة للفارابي، جاءت متأثّرة بنظريّة الإمامة لدى مدرسة أهل البيت. حيث نجد في قراءتنا لفكره، في ما يتعلّق بخصائص ومواصفات رئيس المدينة (الفاضل الأول، أو واضع الناموس): أنه يُعتبر في حاكم المجتمع، ما يُعتبر في إمام الشيعة، من «ولاء الزعامة» و«ولاء الهداية». وحتى السلطة السياسية للحاكم. فإنه ـ الفارابي ـ يراها قائمة على الشرعيّة الذاتيّة ـ الإلهيّة ـ لا الشرعيّة التي تمنحها الجماهير[1] ويرى ايضاً أنّ معرفة الحدّ الوسط أو الفضيلة، في كثير من المجالات، متوقّفة على التأسّي بالحاكم الفاضل (الإمام)[2].

يبقى القول إنّنا إذا تجاوزنا نقاط القوة في هذا المصنَّف، فإنّ أهم إشكال يتوجّه إليه هو عدم التبويب وعدم كتابة العناوين للفقرات المائة من الكتاب.

(1) فصول منتزعة، الفصل 32.
(2) المصدر نفسه، الفصل 21.

3

السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانيّة(1)

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيشابوري، المشتهر بـ «أبي الحسن العامري» (حدود 300 ـ 381 هـ) الفيلسوف والمنطقيّ والعرفانيّ، ولد في نيشابور ودرس فيها العلوم الدينيّة، سافر إلى شامستيان من قرى بلخ، ودرس الفلسفة على أبي زيد البلخي. وبعد وفاته انتقل إلى «جاج»، ودرس عند أبي بكر القفال الفقه والكلام «الماتريدي». وسكن «الريّ» خمس سنوات وذلك في حدود عام 353، واشتغل بالتصنيف والتدريس، وحظي بتأييد وحماية أبي الفضل بن العميد وابنه وخليفته أبي الفتح.

وحول المدرسة الفكريّة التي ينتمي إليها العامري، يمكن العثور على جملة دلالات، تكشف عن تأثّره بالفكر المعتزلي. فهو يعتقد ـ مثلاً ـ بأنّ التمييز بين الخير والشر والحُسن والقُبح، يُعدّ من المهام الأساس للعقل، ما يدلّ بوضوح، على أنّ هذا الفيلسوف يعتقد بالحُسن والقُبح العقليّين، وأنه يتماشى مع ما جاء في الفكر المعتزلي، في خصوص هذه المسألة. وأمّا عن مذهب أبي الحسن العامري، فلم تتطرّق أكثر المصادر

---

(1) محمد بن يوسف، العامري النيشابوري (ت 381 هـ)، **السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية**، مقدّمة مجتبى مينوي، تهران، انتشارات وانشگاه تهران، 1356 هـ كد + عدد الصفحات 459 صفحة، قطع وزيري.

إلى هذا الجانب، وتوجد جملة أدلّة، توافرت عليها بعض المصادر، تكشف عن ميله إلى المذهب السنّي. فعلى الرغم من استناداته الكثيرة إلى أهل البيت (ع) والإمام علي (ع) واستشهاداته المتعدّدة بأقوالهم، في كتابه **السعادة والإسعاد**، إلّا أنه من جهة أخرى، ذكر أمّ المؤمنين عائشة مرّتين وأبا بكر أربع مرات، ونقل عن عمر بن الخطاب اثنتي عشرة مرة. وفي كلِّ هذه الموارد جاء ذكرهم مقروناً بالتقدير والتبجيل. إلّا أنه ينبغي الاعتراف بأنّ هذه الشواهد لايمكن أن تكون دليلاً على تشيّعه أو تسنّنه. وبالتالي تبقى هناك شكوك وتردّدات حول ميول العامريّ واتجاهاته المذهبيّة.

لقد أشار الباحثون إلى ثمانية، أو تسعة كتب، لأبي الحسن العامري، في مجالات الفلسفة والكلام والأخلاق. ومن أبرز مصنّفاته الأخلاقية الدينية، كتاب **الإعلام بمناقب الإسلام** والذي طبع باهتمام أحمد عبد الحميد غراب، في القاهرة، وترجم إلى اللغة الفارسة بقلم أحمد شريعتي وحسين منوجهري، ونشرت الترجمة في طهران عام 1409 هـ. وفي تقييمهم للكتاب، أكّد الباحثون أنّه كتاب فريد في حيث المنهج والأسلوب، ربما لم يسبقه أحد في تأليف كتاب بهذا المنهج والسياق. ومن مؤلّفاته الأخرى: **الإتمام لفضائل الأنام**، و**النسك العقلي والتصوّف المِلّي**.

2 ـ النسخ والطبعات

يُعدُّ كتاب **السعادة والاسعاد** من أشهر مؤلّفات العامري. ولم يرد تشكيك في هذا العنوان في أيّ من المصادر التي ذكرت الكتاب، إلّا أنه، وبسبب النقص الموجود في نسخته الأصليّة ـ حيث يوجد فيها سقط

في أولها وآخرها ـ لا يوجد الاسم الكامل للمؤلّف في الكتاب، من هنا شكّكت بعض المصادر في نسبة الكتاب إلى أبي الحسن العامري. والظاهر أنّ أول من قام بتعريف النسخة الخطيّة له هو محمد كرد علي، في عام 1929 م. وتعود النسخة القديمة إلى القرن الخامس الهجري وموجودة حالياً في مكتبة مستر شستر بيتي (برقم 3702، دبلن). وهذه هي التي قام مجتبى مينوى، بالاستنساخ عليها نسخة أخرى بخطّه. وقامت دار النشر التابعة لجامعة طهران بنشر نسخة مجتبى مينوى المرقّمة برقم 435 ـ وهناك نسخة أخرى في مصر حقّقها أحمد عبد الحليم، وطبعتها دار الثقافة للنشر والتوزيع عام 1991 م. في القاهرة.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

بتأليفه لهذا الكتاب، يكون العامري قد دشّن مرحلة جديدة من مراحل المسار التطوّريّ للتأليف في علم الأخلاق الإسلاميّة. ولكنّ الملاحظ أنّ كتابه هذا، لم يحظ باهتمام كبير من قبل العلماء والمفكّرين المتأخّرين. ولعلّ السرّ في ذلك، أنّ الكتاب دوّن على شكل كتابات متناثرة، وهي في الغالب تقتصر على نقل أقوال حكماء اليونان، من دون أن تردف بتحليل من قبل المؤلّف. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل علماء بغداد ـ وأغلبهم من المناطقة والنحويين ـ يتوجّهون بالنقد للعامري ويقلّلون من شأنه[1].

ونحن بدورنا أيضاً، لم نجد ترجمة أو شرحاً على هذا الكتاب. والظاهر عدم وجود تأليف مستقلّ يعنى بنقد **السعادة والإسعاد**. ولكنّ

(1) محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 400 و401.

بعض المصادر التي تهتمّ بنقد الفكر الأخلاقيّ والفلسفيّ، تطرّقت إلى ذكر الكتاب بصورة ضمنيَّة وموجَزة. وقامت بنقده أيضاً، مثل كتاب **العقل الأخلاقي العربي** من تأليف محمد عابد الجابري[1].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

تمركز الحديث عن «علم الأخلاق» في هذا الكتاب، في الفصل الثاني، أكثر من الفصول الستة الأخرى. ففي الفصل الثاني يحاول المؤلّف أن يعدّد أهم الفضائل والرذائل ـ ولو بصورة متناثرة وغير متكافئة، فذكر أغلب العناوين الأخلاقيّة، إلّا أنه لم يعطِ بعض العناوين حقها من البحث والدراسة. فمثلاً عنوان العدالة لم يبرز كثيراً، كما لم تتمّ الإشارة إلى فضائل ورذائل القوة العاقلة.

لقد ركّز العامري في هذا المصنّف على جانب «الإسعاد». وهذا ما انعكس على حجم بحوث الكتاب. فمن مجموع 450 صفحة، تختص 170 صفحة ببحث السعادة والذي يُعدّ الغرض الأول للمصنّف. كما أولى بعض البحوث اهتماماً خاصاً. فمثلاً، تناول بحث «اللّذة والأذى» في الفصل الأول في 22 صفحة. وفي الفصل الثاني، خصّص 23 صفحة لبحث «المحبة والصداقة». كما بحث مسألة «الأدب والتأديب» في 16 صفحة في الفصل السادس. هذا، في حين نجد أنه بحث كلاًّ من صفتَيْ «العفة والشجاعة» ـ اللتين يعدّهما المؤلّف من أمهات الفضائل ـ في ثمان صفحات تقريباً. ولا بدّ من القول إنّ قراءة سريعة وعابرة للكتاب، تكشف للقارئ وبكلّ وضوح، عن أنّ اختلاف حجم البحوث المطروحة

---

(1) المصدر نفسه، ص 395 ـ 401.

في الكتاب، لا يدل بالضرورة على أهميّة الموضوعات المعروضة للبحث، بل الأمر خاضع لذوق ومزاج المؤلّف بالدرجة الأولى.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يهدف كتاب **السعادة والإسعاد** إلى بيان جملة أصول ومقترحات عمليّة أخلاقيّة، من أجل الوصول إلى السعادة الفرديّة، ومن ثم إيصال المجتمع إلى السعادة الجماعيّة. ويقع الكتاب في ستة فصول، الفصل الأول والثاني منها خصّصا لبحث «السعادة»، وأما الفصول المتبقّية فتهتم ببحث مقولة «الإسعاد».

لقد قام المصنّف في الفصل الأول (وحتى الصفحة 66)، بتعريف السعادة وبيان تقسيماتها وطرق اكتسابها. وتطرّق إلى ذكر أسباب الشقاء وأساليب علاجه. وتعرّض بالمناسبة، لبحوث نظير: الخير والشر، الضارّ والنافع واللّذة والألم. في هذا الفصل، بعد تعريف السعادة بأنها «استكمال الصورة الإنسانيّة»، يقسّمها إلى سعادة إنسيّة وسعادة عقليّة، وإلى مطلقة ومقيدة. ويرى المؤلّف أنّ موضوع السعادة العقليّة هو النفس الناطقة النظريّة (العقل النظريّ). ويعتبر أنّ أفعال النفس الإنسانيّة ينبغي أن تتمحور حول محور العقل وتدور مداره، واكتساب السعادة لا يكون إلّا عن طريق اكتساب الأفعال الفاضلة.

في الفصل الثاني (ص 173 ـ 66)، يتعرّض المصنّف للحديث عن «الفضيلة والرذيلة» وتعريف كلّ واحدة منهما، وتحديد أقسامها وطرق معرفتها. ويبحث بعد ذلك جملة من الفضائل والرذائل، نظير: العفّة والشره، الحريّة، الغنى، الهمة، الكرامة، الشجاعة، الحسد، الغضب، الحلم، المحبة، الصداقة والمعاشرة. ويعرّف المؤلّف الرذيلة بأنها

الانحراف عن الحدّ الوسط، والميل إلى الزيادة أو النقصان. ويعتبر جميع الفضائل والرذائل أموراً اكتسابية.

في الفصل الثالث (ص 251 ـ 173)، يبدأ المصنّف بالحديث عن «الإسعاد» وخصائصه وطريقة الإسعاد، ومواصفات المرشد الذي يرشد الناس إلى ذلك. ثم يتعرّض لجملة بحوث ترتبط بالإسعاد، من قبيل: أقسام الرعايا، أقسام السياسات، كيفيّة السياسة وجذب الناس إلى طريق السعادة، تفصيل الجنايات، العدل والجور.

ويختصّ الفصل الرابع (ص 271 ـ 251)، ببحث «أقسام الرئاسات» وما يترتّب عليها من آفات وأخطار، كما يبحث «أقسام المدن».

في الفصل الخامس (ص 337 ـ 272)، يتعرّض لبيان جملة بحوث نظير: خصائص السائس والحاكم، كيفيّة السياسة، في جلوس المالك للعامة، كيفيّة تنفيذ البرامج والخطط (السياسات)، ضرورة العقوبة والإهانة في السياسة، التفصيل بين عقوبة الأولياء وعقوبة الأعداء، آفات السياسة وخصائص ومواصفات قوى العسكر.

وأمّا الفصل السادس والأخير (ص 444 ـ 338)، فيعنى ـ أساساً ـ بالحديث عن «طرق تزكية النفوس»، ويشتمل على بحوث من قبيل: الأدب، تربية الأطفال، آداب التعلم، سياسة المرأة، سياسة الجند، الاستشارة والاستبداد.

وعلى الرغم مما ذكره المؤلّف، في مقدّمته المختصرة، من أنّ ما ورد في هذا الكتاب هو السبيل الذي شرعه الله تعالى لطلاب السعادة والإسعاد، إلّا أنّ عمدة البحوث المطروحة، هي أمور نقلها عن حكماء اليونان القدامى، خصوصاً أفلاطون وأرسطو.

ويمكن القول عموماً، إنّ الفصول الستة للكتاب أو ما عبّر عنها المؤلّف بأقسام الكتاب، يمكن تصنيفها بالشكل التالي:

الفصل الأول: يبحث «مبادئ علم الأخلاق» والفصل الثاني: يُعنى بالأخلاق العمليّة (السلوكيّة) والفصل الثالث: خاص بـ «التربية» والفصلان الرابع والخامس: اختصّا ـ في الغالب ـ بالحديث عن «السياسة العامة لأمور البلد». وأمّا الفصل السادس: فبحث جملة من القضايا المختلفة. وبناءً على ذلك، فإنّ الهيكليّة العامة للكتاب، منطقيّة ومقبولة، سوى الفصل السادس. نعم، في داخل كلّ قسم أو فصل لم يضع المؤلّف ترتيباً ونظاماً ثابتاً. والملاحظ أنّه في تنظيمه للكتاب اعتمد ـ وللأسف الشديد ـ على أسلوب التجميع، بمعنى أنه قام بجمع عدة بحوث متفرّقة وغير مترابطة، تشترك في موضوع واحد، من دون أن ينسّق في ما بينها، ويربط بعضها بالبعض الآخر، حتى أنّ أحد الباحثين العرب المعاصرين وصفه بأنه من «أصحاب العقل اللاّنسقي»، وأيضاً من «مثقّفي المقابسات»[1]. وطبيعي أنّ مثل هذه السمة، التي يوسم بها من يمثل المدرسة الفلسفيّة في الأخلاق، مدعاة للتعجّب والدهشة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

اعتمد العامري في كتابه هذا «المنهج التحليلي» أكثر من المنهج الإقناعي. هذا أولاً وثانياً: يلاحظ، بصورة عامة، أنه برز كمقرّر وناقل لآراء ونظريّات القدامى في مجال الأخلاق. فهو في أكثر مواطن الكتاب ينقل آراء المفكّرين اليونان، وفي بعض الأحيان ينقل بعض آراء الحكماء

---

(1) أنظر، محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ج 1، ص 397 ـ 393.

الفرس أو العرب. إذن فجانب التأسيس في ما كتبه، قليل وضامر، حيث يظهر في صورة نقد وإصلاح للآراء المنقولة[1].

ولقد اتخذ العامري، في تحديده لأغراض وأهداف الأخلاق، منحىً فلسفياً، بمعنى أنه يعتقد بأنّ الرشد والتكامل الأخلاقي، رهن التعالي الذي يتأتى للنفس الناطقة، وذلك من خلال تحصيل المعرفة وتهذيب العقل من الجهالات وبالتالي ابتغاء الحكمة. من هنا يتّضح أنه لا أثر في آرائه لقضايا من قبيل الشهود والوصول والاتحاد والفناء.

وقد اهتم في كتابه **السعادة والإسعاد** ـ ولا سيما في الفصل الأول والثاني، من الكتاب المختصّ بالأخلاق لا سياسة المدن ـ بجملة أبحاث، تشكّل إجابات جاهزة لأسئلة من سنخ السؤال بـ «ما هو». وأمّا البحوث التي تضمّنت أسئلة من قبيل: «هل هو» و«لم هو»، فكانت نادرة.

وبعبارة أوضح، يبدو أنّ الهاجس الذي انطلق منه العامري في تأليفه هذا الكتاب، هو التنقيح المفاهيمي للمعرفة الأخلاقيّة، من خلال تقديم تعاريف دقيقة، ومناقشة التعريفات الخاطئة أو الناقصة، وبيان مدى العمق الدلالي للمفردات الأخلاقيّة، وذلك من خلال بيان أنواع وأفراد المفهوم الكلّي (تحديد المصداق). وبعد الاهتمام بالحديث عن «ما هو»، يأتي الحديث عما يقع جواباً للسؤال بـ «كيف هو» في الدرجة الثانية. بمعنى أنّ ثمة موارد بحث المؤلّف فيها عن كيفيّة الوصول إلى

(1) تجدر الإشارة هنا إلى أن وصف العامري بأنه ناقل أو مقرّر، لايحطّ من شأنه إلى مستوى مقلّد. وذلك لأن ثمة موارد ـ وإن كانت نادرة ـ لم يقبل فيها المصنّف رأيَ أفلاطون أو أرسطو، فأعلن عن مخالفته بالدليل والبرهان.

هدف أخلاقي محدّد، وكيف هو السبيل للتحلّي بفضيلة من الفضائل، وللتخلّص من رذيلة من الرذائل؟ أمّا السؤال عن العلل والأسباب والبحث في المجهولات التصديقية، فلا تشغل إلّا حيزاً ضئيلاً جداً من حجم الكتاب[1].

7 ـ أدبيّات الكتاب

أ) يتميّز المؤلّف، في كتابه هذا، بقلم فصيح وسلس وبديع، وموارد التعقيد عنده نادرة جداً.

ب) النثر الذي عليه الكتاب، ذو طابع فلسفي، إذ يزدحم في الصفحة الواحدة عدد كبير من المصطلحات الفلسفيّة.

ج) لمّا كان غرض الكتاب تقديم تقرير فلسفي لجملة من البحوث الأخلاقيّة من خلال نقل أقوال وآراء الحكماء السابقين، لم يتضمّن الكتاب إلّا موارد قليلة من الحكايات والتشبيهات. وأمّا الأشعار فقد استفيد منها بندرة.

د) الكتاب يشتمل على ست عشرة آية و55 حديثاً.

8 ـ التقييم النهائي

الكتاب من حيث تعريف القارئ بالتراث الأخلاقي اليوناني وإيران القديمة، جدير بالقراءة والاهتمام وإن لم تكن ممكناً وضعه في عداد المصادر القويّة المنسوبة إلى المدرسة الفلسفيّة في الأخلاق الإسلاميّة.

نعم، بعض الموارد التي بحثها المؤلّف بنفسه وأدلى فيها برأيه الخاص، كان موفّقاً فيها إلى أبعد الحدود.

---

(1) من الموارد التي اهتم فيها المؤلّف بهذا الجانب، ما ورد في ص 16 وص 46.

4

رسائل إخوان الصفا (الرسالة التاسعة)[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّفين ومؤلّفاتهم

ثمة اختلاف كبير حول مؤلف هذه الرسائل، فقد نسبها بعض إلى الإمام جعفر الصادق (ع)[2]، وآخرون إلى مسلمة بن قاسم الأندلسي[3]. ويوجد من قال إنها تأليف الحكيم أبو القاسم المجريطي (ت 398 هـ)[4].

ويذهب حاجي خليفة إلى أنّ المجريطي كانت له رسائل، شبيهة بهذه الرسائل وبالاسم نفسه، لكنها فقدت[5]، فيما يعتقد آخرون أنّ المجريطي نقل هذا الكتاب من المشرق إلى الأندلس وأملاه على تلامذته، ومن هنا جاءت نسبة الكتاب إليه على نحو الخطأ. في المقابل، يعتقد باحثون آخرون أنّ بدء تأليف الكتاب كان بقلم عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، من أبناء الإمام الصادق (ع)، ويعدّ من كبار

---

(1) إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا**، إعداد وتحقيق عارف تامر، بيروت / باريس، منشورات عويدات، 1995 م / 1415 هـ، الطبعة الأولى، خمسة مجلدات، قطع وزيري الرسالة التاسعة: ج 1، ص 355 ـ 285.

(2) صابر عبده، أبو زيد محمد، **فكرة الزمان عند إخوان الصفا**، ص70. نقلاً عن ابن حجر العسقلاني، **لسان الميزان**، ج2، ص63.

(3) أحمد زكي باشا، **مقدمة رسائل إخوان الصفا**، ص 31.

(4) انظر: **مقدمة ابن خلدون**، ص 480.

(5) ملاّ كاتب جلبي حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص 904.

الإسماعيلية، وبعد وفاته قام ابنه أحمد بن عبد الله بإكمال الكتاب[1].

وقد حاول بعض أن يجمع بين هذه الأقوال المختلفة بشيء من التكلف والتحميل. وأمّا القول المشهور، فهو أنّ هذه الرسائل هي عمل وجهود جماعة سريّة من كبار الإسماعيلية، اختلف في أسماء أعضائها وعددهم بصورة كبيرة، وثمة احتمال قويّ أن يكون أبو حيان التوحيدي أحد أعضاء هذه الجماعة المنظمة[2].

وعلى الرغم من البحوث والدراسات الكثيرة التي أُلّفت حول هذه الرسائل خلال أكثر من قرن، إلّا أنه وحتى يومنا هذا، كان ولا يزال يوجد نقاش محتدم حول هوية مؤلّف هذه الرسائل، ولم يحسم بعد.

وأول مصدر تاريخي حول مؤلّف ـ أو مؤلّفي ـ الكتاب، هو تقرير أعده أبو حيان التوحيدي (حوالي عام 414 هـ)، أورده في كتابه **الإمتاع والمؤانسة**، إذ نقل أنه في عام 373 هـ. وعندما كان في مجلس حضره ابن سعدان ـ وزير صمصام الدولة البويهي ـ، سأله الوزير عن «زيد بن رفاعة» ما هو قوله ومذهبه، وفي مقام الجواب، مدح أبو حيان ذكاء زيد بن رفاعة، وسعة اطلاعه في شتى الفنون. ثم قال:

وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيستي ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني ـ، النهرجورى ـ، والعوفي، وغيرهم.

---

(1) عارف تامر، حقيقة إخوان الصفا وخلان الوفاء، ص 10.

(2) انظر: دايرة المعارف بزرگ إسلامي، تحت إشراف كاظم موسوي بجنوردي، ج 7، ص 245.

ثم يضيف أبو حيان:

إنّ هؤلاء كانوا يعتقدون أنّ الشريعة قد دنّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلّا بالفلسفة. وزعموا أنه متى امتزجت الفلسفة اليونانيّة والشريعة العربيّة، فقد حصل الكمال. وصنّفوا خمسين رسالة[1] في جميع أجزاء الفلسفة: علميّها وعمليّها، وأفردوا لها فهرستاً، وسمّوها **رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا**، وكتموا أسماءهم وبثوها في الورّاقين.

وعلى الرغم من امتداحه وإطرائه على مؤلّفيها، إلّا أنّ التوحيدي وقف منها موقف المنتقد، إذ يقول عنها:

وحملتُ عدّةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني، وعرضتها عليه، ونظر فيها أياماً واختبرها طويلاً، ثم ردّها عليّ وانتقدها بشدة، واصفاً إياها بأنها جهود غير مفيدة وغير نافعة[2].

لقد حاول إخوان الصفا، في رسائلهم هذه، أن يعرّفوا القراء بشتى العلوم والفنون النظريّة والعملية الموجودة في ذلك العصر. وذكروا أنّ الهدف من هذه المحاولة، هو إرشاد الضالّين وإيقاظ الغافلين[3].

غاية ما يمكن القول في حقّ إخوان الصفا هو أنّهم أناس مثاليّون، كانوا يتطلّعون إلى بناء عالم إنساني جديد غير العالم الذي يحيط بهم. ومن أبرز ما يتّصفون به هو التخفّي والالتزام بالعمل السّري، حتى لا يطّلع على أخبارهم من ليس بأهل لذلك، فكانوا يدعون إخوانهم إلى

---

(1) تجدر الإشارة إلى أن الرسائل الموجودة بين أيدينا تضم 51 رسالة.

(2) أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، ج 2، ص 603.

(3) **رسائل إخوان الصفا**، ج 4، ص 242.

ندوات ولقاءات سريّة، يتدارسون فيها العلوم وشؤون المعرفة، ويتداولون بعض الأسرار، ويتناقلون أحداث ومتغيّرات عصرهم[1].

ويوصي الإخوان مخاطبيهم بأن لا ينصبوا العداء لأيّ من العلوم ومذاهب المعرفة، ولا يتعصّبوا لأيّ من المذاهب، وذلك لأنّ عقيدة ومذهب إخوان الصفا تتّسع لجميع المذاهب والعلوم. ويؤكّد هؤلاء على أنّ المصادر التي يعتمدونها، في تحصيل المعرفة، هي أربعة: كتب ومولّفات الحكماء، كتب الأنبياء، المصنّفات والكتب العلميّة، والكتب الإلهيّة التي بيد الملائكة. ومن المحتمل جداً أن يكون الإخوان على مذهب الشيعة الإسماعيليّة. فالملاحظ أنهم لم يخفوا تشيّعهم، بل راحوا يؤكّدون عليه في أكثر من موقف. إذ ذكروا أفضليّة آل البيت (ع)، وأنهم معادن علم الله وورثة علوم الأنبياء[2]، وأنّ الولاية والخلافة العظمى تليق بالرسول الأكرم (ص) وأمّا الولاية الخاصة فبأهل البيت وهم أفضل من غيرهم[3]، وأشاروا في مواطن عدّة إلى واقعة كربلاء[4].

والإمام، من وجهة نظر الإخوان، مثاله مثال الإنسان الكامل، الذي لا يخلو منه زمان، وإن لم يره الآخرون، أو جهلوه، وهو كالحبل الممدود بين الله وبين العباد، يربطهم بالله ويشدّهم إليه، وقد انتقل هذا المقام بعد وفاة النبي، إلى أهل بيته، ومن ثم أوليائهم وأتباعهم المخلصين. ويرى إخوان الصفا أنفسهم أنّهم سائرون في خط هواء الكمّل من الناس. والملاحظ أنّ الإخوان عادة ما يستخدمون ضمير

(1) المصدر نفسه، ص 190.
(2) المصدر نفسه، ص 186.
(3) المصدر نفسه، ص 375 و376.
(4) المصدر نفسه، ص 33 و75.

المتكلّم بصيغة الجمع (نا، ونحن)، لكن ثمة موارد استخدموا فيها ضمير المتكلّم بصيغة المفرد (مثلاً في ج 1، ص 129؛ ج 4، ص 298 وص 397).

ولإخوان الصفا كتاب آخر اسمه **الرسالة الجامعة**، وهو في الواقع تلخيص لهذه الرسائل[1].

2 ـ النسخ والطبعات

طبعت مجموعة رسائل إخوان الصفا مرات عدّة في القاهرة والهند (حيدر آباد دكن). وتوجد طبعة أخرى للرسائل، في أربعة مجلّدات، مع مقدّمتين، لأحمد زكي باشا وطه حسين في القاهرة، نشرت عام 1928 م، وطبعت أخيراً في بيروت، بتقديم وتحقيق عارف تامر (1995 م). وثمة طبعة يعود تاريخها إلى عام (1975 م) مع مقدّمة بطرس البستاني.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

لقد طبع كتاب أشبه ما يكون بترجمة قديمة لرسائل إخوان الصفا، تحت عنوان **مجمل الحكمة** باللّغة الفارسية، بقلم محمد تقي دانش پژوه وإيرج أفشار، وطبعته مؤسّسة (پژوهشگاه علوم إنسانى ومطالعات فرهنگى) في عام 1417 هـ. والظاهر أنها ترجمة لفصول مختارة من الكتاب.

إلى جانب ذلك، توجد ترجمات لفصول مختارة منه بلغات أوروبيّة

(1) انظر، **دايرة المعارف بزرگ إسلامى**، ج 7، ص 242.

عدّة، (الفرنسيّة، الإنكليزية، الألمانيّة..)، وتذكر بعض المصادر وجود ترجمة تركيّة وأخرى هنديّة لها[1].

تجدر الإشارة إلى أننا لم نعثر على أي شرح أو دراسة نقدية مستقلّة للرسائل. نعم، طبعت فصول مختارة من هذه الرسائل على انفراد، ما يكشف عن مدى اهتمام الباحثين بما اشتملت عليه هذه الفصول من مواضيع وبحوث[2].

وقبل أن نقوم بدراسة وتقييم مكانة هذه الرسالة ـ أي الرسالة التاسعة من رسائل إخوان الصفا ـ في تاريخ علم الأخلاق، لا بدّ من أن نؤكّد على أهميّة مكانة مجموعة **رسائل إخوان الصفا** في تاريخ الفكر الإسلامي. والملاحظة الأهم التي يمكن الإشارة إليها في هذا السياق، هي أنّ هذه الرسائل، من حيث كونها حصيلة جهود جماعيّة، تُعدّ ظاهرة رائدة لم تسبقها محاولة من هذا القبيل، على الصعيدين الإسلامي والشيعي. ويعتقد كثير من الباحثين أنّ **رسائل إخوان الصفا** هي من عيون التراث الفلسفي، ومن أقدم الموسوعات الفكريّة التي تضمّنت عديداً من عناصر القوة، من قبيل: الجدّة، والإيجاز، والوضوح، والبلاغة، والحكمة. واشتملت على العلوم الفلكيّة، والرياضيّات، والموسيقى، والهندسة، والطب، والأدب، وعلم الحيوان، والتربية، والأخلاق، والشعر، وعلوم أخرى أبدعها العقل الإسلامي، في عصر كانت توسم فيه الفلسفة بالكفر والإلحاد[3].

---

(1) صابر عبده، أبا زيد محمد، **فكرة الزمان عند إخوان الصفا**، ص 85.

(2) يمكن الإشارة هنا إلى جملة منها نظير: **انتخاب إخوان الصفاء**، بإشراف جيمس ميخائيل في لندن 1830م. **خلاصة الوفاء في اختصار رسائل إخوان الصفا**، باهتمام فريدريك ديتريش في برلين 1886 م .**تحفة إخوان الصفا**، من قبل أحمد بن محمد شروان اليمني.

(3) **رسائل إخوان الصفا**، مقدمة عارف تامر، ج 1، ص 9.

وكان لهذه الموسوعة تأثير كبير على المنظومة الفكريّة للفرقة الإسماعيليّة، إذ انعكس معظم الموروث الفلسفي لهذه الفرقة في جميع رسائل إخوان الصفا.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

تتضمّن هذه الرسالة ـ الرسالة التاسعة من رسائل إخوان الصفا ـ عناوين أخلاقيّة عامة وكليّة. والملاحظ أنها تولي اهتماماً خاصاً بالشريعة وتحديد الموقف الشرعي إزاء المعالجات الأخلاقيّة التي تتعرّض لها.

أضف إلى ذلك أننا نجد أنها في تفصيل الحديث عن العناوين الأخلاقيّة العامة، تشير إلى بحوث لم تتطرّق لها الكتب الأخلاقيّة عادة، من قبيل: تأثير الأخلاط الأربعة، والمزاج، والمناخ، والبيئة الجغرافية، وكذلك أحكام النجوم على الأخلاق، وتقسيم النفوس الإنسانيّة إلى خمس نفوس وغير ذلك. وفي الوقت نفسه، ثمة موضوعات متداولة في الكتب الأخلاقيّة، تُعنى بتوضيح الفضائل والرذائل وتفصيلها وسبل اكتساب الفضائل ومعالجة الرذائل، قلّما تناولتها الرسالة.

وتتفاوت البحوث المطروحة في هذه الرسالة، من حيث الحجم، تبعاً لدرجة الاهتمام التي يوليها مؤلّفو الرسائل لهذه البحوث المطروحة. إذ تشغل العناوين المرتبطة بالإناسة ومعرفة الإنسان، من منظور علم الأخلاق ـ وفقاً لعلم الطبيعيّات القديم ـ حجماً أكبر.

فمن مجموع 69 صفحة، وهو عدد صفحات الرسالة، تم تخصيص حوالي 9 صفحات لبحث «ما هو منشأ اختلاف الطباع» و«طرق تهذيب الأخلاق»، و8 صفحات تقريباً لبحث «مراتب النفوس» و«القوى ومهامها وخصائصها»، وما يقرب من 7 صفحات لـ «مراتب الناس في الأخلاق»، وما يجب على أهل كلّ مرتبة و9 صفحات تقريباً لانقسام الناس في السعادة

إلى أربعة أقسام، وبيان صفات أهل الدنيا وأهل الآخرة والخواص من المؤمنين. كما تمّ بحث مقولتَيْ «الحرص» و«الزهد» في 6 صفحات تقريباً، و«التوبة» و«الاستغفار» و«الدعاء» في حدود 8 صفحات. هذا في حين شغلت بحوث أخرى ـ نظير: طلب العلم، وأخلاق المتعلّمين، وبيان أصول ومناشئ المعاصي والشرور ـ حجماً أقل.

5 ـ هيكليّة الكتاب، واستعراض البحوث الواردة فيه

في مطلع الرسالة، يدور الحديث عن تعريف الإنسان من منظور علم الأخلاق (على أساس علم الطبيعيّات القديم). وفي القسم الثاني من الرسالة، يبحث في أمور متفرّعة على ما جاء في مطلعها. ويلاحظ أنّ القسم الأول يمتاز بترتيب وتنسيق أفضل، فيما لا يجد القارئ ترتيباً منطقياً بين الأبحاث في القسم الثاني.

يتناول الكتاب في بداية الرسالة، سبب التنوّع الأخلاقي بين البشر. ويصرّح مؤلّفوها بأنّ الهدف المتوسّط هو كسب الاستعداد الإنساني لإبراز جميع القابليّات والكمالات الحيوانيّة والإنسانيّة. وأمّا الهدف الأعلى فهو تمكين الإنسان من التشبّه بالله سبحانه، الذي أراد للإنسان أن يتصدّى لمقام الخلافة الإلهية.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ اختلاف طباع الناس وأخلاقيّاتهم، من منظور إخوان الصفا، لها أربعة مناشئ رئيسة وهي:

المنشأ الأول: أخلاط الأجساد والمزاج الحاصل من التركيب بين هذه الأخلاط

الناس على أربعة أقسام: حارّ المزاج، بارد المزاج، يابس المزاج، ورطب المزاج.

«الحرارة» تنشأ من «نفس» الإنسان، وتظهر في «المرّة الصفراء». «البرودة» وهي نتاج «الروح المنفوخة» في الإنسان وتظهر في البلغم. وأمّا «اليبوسة» فتنشأ نتيجة للعنصر «الترابي» في وجود الإنسان، وتظهر في «المرّة السوداء». وأخيراً «الرطوبة»، وتعدّ من عوارض العنصر «المائي» في خلقة الإنسان، وتبرز في «الدم».

هذه الأمزجة الأربعة تستتبع خصائص أخلاقيّة ونفسيّة خاصة بها؛ فمثلاً، الإنسان الحارّ المزاج، يتّصف بالشجاعة، وحسن الخُلق، والذكاء، لكن في الوقت نفسه تجده عجولاً وقليل الصبر. وأمّا رطب المزاج، فتجده بليد الذهن متهاوناً لا عزم له، حسنَ الخلق ليّن الجانب وفي الوقت نفسه مقهوراً في الأمور الطبيعية. والسلامة تكمن في الاعتدال بين النسب المزاجيّة الأربع. وبناءً على ذلك، متى زادت نسبة أحد هذه الأمزجة عن نصف النسبة، حدث الاختلال في الجسم وبرز المرض.

وينبغي أن يعلم أن النفس تستعيد تعادلها بالروح والتراب بالماء. وهنا يتعرض مؤلّفو الرسالة للحديث عن آثار ومهام كلّ واحد من المقوّمات الوجودية الأربعة للإنسان (أي الروح والنفس والتراب والماء) بالتفصيل

المنشأ الثاني: البيئة الجغرافيّة والمناخ

تبعاً للمحلّ الذي يولد فيه الإنسان، ثمة مواصفات وخصائص خلقيّة وسلوكيّة، نتوقّع بروزها في شخصيّة ذلك الإنسان في الأعمّ الأغلب. حيث تؤثّر الجغرافيا في روحيّات الأفراد من جهات مختلفة نظير: الجهة، وفرة المياه وقلّتها، ارتفاع الحرارة، كيفيّة شروق الشمس، نوعيّة الأرض والتربة، وهبوب الرياح.

المنشأ الثالث: تأثير أحكام النجوم

إنّ اقتران زمن ولادة الإنسان بكلّ من البروج الناريّة أو المائيّة أو

الترابيّة، أو الهوائيّة، يستدعي آثاراً خاصة على صعيد أخلاقيّات الفرد وسلوكه.

المنشأ الرابع: الأنماط التربوية، والعادات، والمعتقدات

لا ريب في أنّ كلّ عادة من العادات، تبعث على تقوية نمط خاص من الروحيّات والخلقيّات التي تناسبها. والملاحظ أنّ بعض من الأفراد يختار المعتقدات التي تتلاءم مع روحيّاته، وخلقيّاته، وتوجّهاته. وفي المقابل ثمة من ينظّم روحيّاته وخلقيّاته على ضوء التعاليم والمعتقدات التي يتبناها. وواضح أنّ المدح، والذم، والإنذار، والتبشير، إنما يتوجّه إلى هذا القسم الثاني من الأخلاق الاكتسابيّة التي تأتي منسجمة مع المعتقدات.

والقسم الآخر من بحوث الرسالة التاسعة، يختصّ بمراتب النفس. إذ يذهب إخوان الصفا إلى أنّ للنفس خمس عشرة مرتبة، إلّا أننا لا نعرف منها سوى خمس مراتب وهي بالترتيب، من الأدنى إلى الأعلى، كما يلي:

1 ـ المرتبة النباتيّة.

2 ـ المرتبة الحيوانيّة.

3 ـ المرتبة الإنسانيّة.

4 ـ المرتبة الحكميّة المَلَكيّة.

5 ـ المرتبة الناموسيّة القدسيّة.

وتختصّ المرتبة الرابعة بالمؤمنين المخلصين والعلماء الراسخين. وأمّا المرتبة الخامسة فمختصّة بالنفوس الشريفة للأنبياء والأوصياء.

يتطرّق المؤلّفون في الصفحات اللاّحقة، إلى بحث مهام ومختصات كلّ واحدة من هذه النفوس الخمس، وكذلك ما يتعلّق بها من أدوات

وقوى، ومن ثم تحديد سلسلة الأسباب والعوامل التي تحدّد سلوكيّات وتصرّفات الإنسان. ويعتقد الإخوان أنّ أحد أهم العوامل التي تبعث الإنسان على القيام بجميع النشاطات والفعاليّات، هو ما يُعرف بـ «شهوة البقاء على أتمّ الحالات والفرار من الفناء والنقص». والسر في إيداع مثل هذا النزوع الفطريّ العميق، لدى الإنسان، يكمن في ضرورة أن يحمل الخليفة علامة عن المخلّف عنه، ورقيقة النفحة الإلهية عن حقيقة الذات السبحانيّة.

ويرى إخوان الصفا أنّ السعادة هي خير محض، لا تُطلب إلّا لذاتها، وتنقسم إلى دنيويّة وأُخرويّة. ويعتقدون أنّ الأفعال التي تصدر عن الإنسان، على أربعة أنواع، بعدد الأخلاط والأمزجة البشرية، ويمكن ترتيبها كما يلي:

1 ـ الفطريّة الطبيعيّة.

2 ـ النفسانيّة الاختياريّة.

3 ـ العقليّة الفكريّة.

4 ـ الناموسيّة السياسيّة.

كما يعدّون كلّ واحد ـ من الطبيعة، والنفس، والعقل، والناموس (الشريعة) ـ خادماً للعنصر الذي يليه. وأمّا الناموس فهو «مخدوم الكل».

في هذه الرسالة يتعرّف القارئ على سبعة أصناف من الناس، ومن ثم يهتدي إلى الناموس أو الشريعة وأنه يتضمن ثمانية أركان. بدءاً بالقراء وحفاظ ألفاظ التنزيل العزيز، وانتهاءً بعلماء التأويل والعارفين بأسرار الناموس. ثم يفصّل بالحديث عن الصفات والخصال التي ينبغي أن تتحلّى بها كلّ واحدة من هذه الأركان الثمانية.

وفي مقطع آخر تتحدّث الرسالة عن علاقة الإنسان بكلّ من النشأتين، الدنيويّة والأخرويّة. وكون علاقته بالأولى ـ أي النشأة الدنيويّة ـ

ذات طابع مقدَمي. وأمّا علاقة الإنسان بالنشأة الأخرويّة فهي العلاقة الأصيلة المقصودة بالأصالة لا بالتبع. والناس أيضاً على أربعة أقسام: إمّا سعداء في كلتا النشأتين، أو أشقياء في كلتيهما، أو سعداء في الدنيا وأشقياء في الآخرة، أو بالعكس. وتمتاز أخلاق عَبَدَة الدنيا بأنها غير اكتسابيّة وذات طابع بهيميّ. وأمّا أخلاق أهل الآخرة فهي اكتسابية وناشئة من العقل والرؤية. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه ووفقاً لهذه الرؤية، فإن الأوامر والنواهي الصادرة عن الشرع والناموس، غالباً ما تكون على خلاف الميول والنوازع المرتكزة في ذواتنا.

ويرى إخوان الصفا أنّ بعض الفضائل مدحها العقل وبعضٌ آخر امتدحه الشارع. وكذا الحال بالنسبة إلى الرذائل، فبعضها مذمومة بحكم العقل وبعضٌ آخر مذموم بحكم الشرع.

وتطالعنا في هذه الرسالة حكايات وقصص عدّة، جيء بها ـ في جميع مواضع هذه الرسالة ـ لإفهام القارئ النظريات والتعاليم الأخلاقيّة. وإيصال المفاهيم إليه بشكل حي وملموس. ومن بين الحكايات الواردة، حكاية الراهب المسيحي والعارف المسلم، إذ كان الأول يشكو من التشديد الموجود في الشريعة والتضييق الذي عليه صاحب الشريعة. وأمّا الثاني فينطلق من مقام الرضا؛ فتبين ـ الحكاية ـ الرؤية العميقة التي يمتلكها المسلم الحقيقي.

ثم يعقد مؤلّفو الرسالة فصلاً للحديث عن أسرار بعثة الأنبياء وعلاقة مسألة البعثة بالكمال المعنوي للإنسان. وكيفية معاملة الله سبحانه لكلّ من المؤمنين والكفار.

ومن المحاور المطروحة في هذه الرسالة أيضاً، فضيلة العلم، وأخلاق المتعلّمين، والآفات والمضار التي تهدّد أخلاق العلماء بالخطر.

وفي نهاية هذا المحور يصار إلى التأكيد على أنّ كلّ علم لا يبعث صاحبه نحو الآخرة، فهو وبال عليه يوم القيامة وحجة عليه لا له.

ويرى إخوان الصفا أنّ أمهات الرذائل والتي إليها مردّ جميع المساوئ الأخلاقيّة ثلاثة هي: الكبر، والحرص، والحسد، وبعد أن يتعرّض لبيان هذه الرذائل الأساس وتجلّياتها التاريخيّة ـ في كلّ من إبليس، وآدم أبي البشر، وقابيل، وهابيل ـ يكرس الحديث في ما يتفرّع عليها من شعب وفروع.

ومن زاوية أخرى، يرى الإخوان في حب الدنيا والحرص على متاعها، رأس كلّ مفسدة ورذيلة. وعلى هذا الأساس يقسمون الناس إلى ستة أقسام، مؤكّدين على هذه النقطة، وهي أنّ الوصول إلى أعلى مراتب الكمال والسعادة، لا يتم إلّا بالتقيد بتعاليم الشريعة أولاً ومن ثم بالعمل على تهذيب النفس وتجريدها من أغلال الدنيا، وكدورات الشهوات، ورين الأهواء، والتخلّص من الآراء الضالة والمعتقدات الفاسدة.

في هذه الرسالة، تم التأكيد على ضرورة الابتعاد عن الشره وكثرة الأكل، واستشهد بحديث عن عائشة، عدّ فيه للشره خمسين مفسدة.

وفي فصل آخر من الرسالة نتعرّف على الصورة المشرقة لأولياء الله. وفي هذا المجال يتعرض المؤلّفون إلى الحديث عن ثمان خصال من خصال المؤمنين وأولياء الله الكرام وصفاتهم. ثم يؤكّدون على تعظيم خصلتين من خصالهم الثمان، الأولى معرفة الشيطان، والثانية معرفة الملائكة.

وفي حديثهم عن الشيطان وتعريفهم به، يتعرض إخوان الصفا إلى بيان مجموعة من التجارب القيّمة لبعض العرفاء والعُبّاد في مجال مجاهدة الشيطان. والنتيجة التي يمكن الخروج بها من هذا البحث، هي

وعي هذه الحقيقة الهامة والمؤثّرة في الوقت نفسه، والتي مفادها أنّ النفس الشهويّة والنفس الغضبيّة، هما في الواقع شيطانان متجسّدان يعملان على إغواء الإنسان ويكمنان بين جنبيه. والسبيل الوحيد لمجاهدة هذه النفس الجامحة، هو العزم الراسخ على التهذيب والتزكية، وكذلك التوكّل على الله سبحانه وتعالى، والاستعانة بالزهد، والخوف، والرجاء.

والفصل الأخير من هذه الرسالة يختص ببحث التوبة، والاستغفار، والدعاء. وفي إطار التأكيد على ضرورة إشاعة وترويج ثقافة الدعاء، يستشهد المؤلّفون بالأحاديث الواردة عن المعصومين (ع).

وفي القسم الأخير من الرسالة، أشير إلى امتناع الجمع بين الدنيا والآخرة، واستشهد على ذلك بحديث قدسي، مفاده، أنّ اللّه ارتضى للإنسان الآخرة، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يختار شيئاً غير ما ارتضاه له ربه الكريم والرؤوف.

وفي ختام الرسالة، خصص فصل بمواعظ متنوّعة وقصيرة في موضوعات مختلفة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

النصف الأول من الرسالة يشتمل على جانب تحليلي وعملي أكبر، مع التأكيد على الطبيعيّات القديمة. وأمّا القسم الثاني فهو ذو طابع خطابي وإقناعي. والملاحظ أنّ آيات وروايات كثيرة، مضافاً إلى كلمات العلماء والحكماء، وُظّفت في إثبات أو تقوية مقاصد الرسالة. من جهة أخرى، فإن الأساليب والحلول التربويّة المقترحة، هي في الغالب ذات طابع معرفي، ولكن هذا لا يمنع من وجود الخطط والحلول التربويّة السلوكيّة.

7 ـ أدبيات الكتاب

تمتاز الرسالة بقلم ممتع وسلس. ولم تتأثر أدبيّات الكتاب بالمأثورات النقليّة كثيراً. ولا يمكن وصف الأسلوب المتّبع في كتابة الرسالة، بالتحديد، بأنه فلسفي، أو عرفاني، أو كلامي، بل هي ذات أسلوب أدبي مبتكر وبديع، لعلّنا يمكن أن نطلق عليه أدبيات أهل الباطن. فعلى سبيل المثال، يوجد إصرار على استخدام مفردة «الناموس»، كما إنه يوجد تكرار كثير لعبارة «اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروحٍ منه» أو ما يشابهها، في أكثر فصول الرسالة.

والملاحظ أنّ الاستفادة من الحكايات والقصص المطوّلة نسبياً في هذه الرسالة، لتوضيح البحوث المطروحة، هي أقل بالمقارنة مع الآيات والروايات. أمّا التشبيه، والتمثيل، والشعر، فلم تتم الاستفادة من أي منها في هذه الرسالة.

8 ـ التقييم النهائي

يمكن عدّ هذه الرسالة معالجة هامة في مجال تدوين المقدّمات المعرفيّة لمقولة الإنسان، من منظور علم الأخلاق، خصوصاً في ضوء المشهد الفكريّ الذي ارتهن به عصر إخوان الصفا، من نظريّات وآراء فلسفيّة في مجال الطبيعيّات والفلسفة. نعم، في ما يتعلّق ببحث العناوين المتداولة في مجال علم الأخلاق، يعاني الكتاب من فقر واضح.

كما إنّ تأكيد إخوان الصفا على دور ومكانة الشريعة في النظام الأخلاقي، جدير بالملاحظة. هذا فضلاً عن أننا نواجه آراء ومنطلقات منسجمة وغير متناقضة في هذه الرسالة، التي يلاحظ أنها في طرحها لبعض البحوث، لم تتسم بنسق وترتيب مناسب يمكن القبول به.

5

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي، الملقب بـ «مسكويه»[2]، والمشتهر بـ «المعلّم الثالث»، و«الخازن»، و«النديم». ولد عام 320 هـ في منطقة الريّ. قرأ كتب ومصنفات محمد بن زكريا الرازي وجابر بن حيان، فرغب في تحصيل علم الكيمياء.

وقضى فترة من عمره إلى جانب أبي الطيب الرازي، اشتغل فيها بتحصيل هذا العلم بكلّ جدّ واجتهاد. صحب أبا الفضل بن العميد، وزير البلاط البويهي، مدّة سبع سنوات، وبعد وفاته صار ملازماً لابنه ابن

(1) أبو علي أحمد بن يعقوب، (مسكويه الرازي)، (ت421 هـ)، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، مقدّمة حسن تميم، قم انتشارات بيدار، بدون تاريخ، عدد الصفحات 189 صفحة من القطع الوزيري. وأيضا، المؤلف نفسه، **تهذيب الأخلاق**، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، الجامعة الأميركية، 1966 م، ع + 243 صفحة، **قطع وزيري**.

(2) في ما يخص لقب مسكويه، تجدر الإشارة إلى نقطتين هامتين:

أ ـ في خصوص ضبط كلمة «مسكويه» لفظاً وكتابةً نقول: تم ضبط لقب المصنف على ثلاثة أنحاء، الأول: مِشكوَيْه، الثاني: مِسكوَيْه، الثالث: مُشكويْه. نعم، النحو الأول والثاني أكثر شهرةً.

ب ـ ينبغي الالتفات إلى أن «مسكويه» لقب المؤلف نفسه لا جده. وعليه فضبط الاسم بالطريقة التالية: «أبو علي أحمد بن محمد مسكويه» والذي نشاهده في بعض المصادر غير صحيح. انظر علي بن يوسف القفطي، **تاريخ الحكماء**، ص 331؛ وأيضاً أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، ج 1، ص 136.

العميد، الملقب بـ «ذو الكفايتين»، الذي شغل منصب أبيه وزيراً لركن الدولة الديلمي. وكان من أتباع مدرسة الإمام جعفر الصادق (ع)[1]. تولى إدارة مكتبة أبي الفتح بن العميد ومن هنا لقب بـ «الخازن». وبعد إعراضه عن الكيمياء أقبل على الأخلاق والتاريخ والفلسفة، فألّف فيها كتباً وتصانيف قيمة[2]. توفّي في التاسع من شهر صفر عام 421 هـ في إصفهان، ودُفن في منطقة تدعى «خواجو» بأصفهان، وله هناك قبر معروف.

ومن المحتمل جداً أن يكون مسكويه قد التقى أبا سليمان السجستاني، العالم المنطقي الشهير. كما أنّ من المتيقن لقاءه بكلّ من أبي الحسن محمد بن يوسف العامري، الفيلسوف المعروف والشيخ الرئيس ابن سينا وأبي حيّان التوحيدي، الأديب والمفسّر الكبير، في القرن الرابع[3].

---

(1) قراءة كتب مسكويه تكشف عن هويته الشيعيّة، فمثلاً في كتابه تهذيب الأخلاق في بحث الشجاعة، يصف شجاعة أمير المؤمنين (ع)، انظر: نسخة حسن تميم، ص 105. ومما يدلّ على تشيعه، تأكيده على ضرورة الإمامة، وأن الإمام يشترك مع الرسول في عشر خصال ويختلف عنه في خصلة واحدة وهي نزول الوحي. (انظر: أبو علي مسكويه، **الفوز الأصغر**، المسألة الثالثة، الفصل الثامن، ص 114). وأيضاً تنصيصه على إمامة علي بن أبي طالب وأولاده المعصومين في مطلع نقله لأقوال حكماء العرب (انظر: جاودان خرد، ترجمة تقي الدين محمد أرجاني شوشتري (عالم البلاط الهندي في عصر البابريين)، ص 211): أضف إلى ذلك أنّ المؤرخين أيضاً قد اتفقوا على ذلك ـ أي كونه شيعياً. (انظر: ميرزا محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 1، ص 257 ـ 254).

(2) يرى محمد إقبال اللاّهوري، أنّ مسكويه، أعلى مقاماً ورتبة من الفارابي، وأنّ فلسفته أكثر نظماً وترتيباً من فلسفة المعلم الثاني. انظر: محمد إقبال اللاهوري، **سير فلسفة در ايران**، ص 33.

(3) جمال الدين علي بن يوسف القفطي، **تاريخ الحكماء**، ص 332.

وقد عدّ الباحثون له 35 كتاباً[1]. وأمّا اهتمامه في مجال «الحكمة العمليّة» و«الأخلاق»، فكان بدرجة قلّ نظيرها بين علماء الشيعة، وأمّا كتبه الأخلاقيّة فهي كما يلي: **أدب الدنيا والدين**، **ترتيب السعادات ومنازل العلوم**، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، **الحكمة الخالدة**، (جاودان خرد) **الرسالة المسعدة**، **رسالة في دفع الغم من الموت**، **الفوز الأكبر** (هذا الكتاب مفقود ويعتقد بعضٌ أنه هو نفسه كتاب **تهذيب الأخلاق**)، **الفوز الأصغر** (جزء من هذا الكتاب في الأخلاق)، **فوز السعادة** (**نور السعادة**)، و**فوز النجاة**.

إلى جانب هذه المصنّفات في الأخلاق له إسهامات في مجالات ذات علاقة بتهذيب الأخلاق، نظير: **معرفة النفس والسياسة** (السعادة الجماعيّة)، وله رسالة سمّاها **رسالة حقائق النفوس** و**كتاب الخواطر**، و**رسالة في ماهية العدل** و**كتاب السياسة**.

2 ـ النسخ والطبعات

اشتهر الكتاب بعنوانين هما:

أ) **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، إذ ذكرت أغلب المصادر وكتب التراجم هذا الكتاب الأخلاقي المهم لمسكويه بهذا الاسم.

ب) **طهارة الأعراق**، كما صرّح به المصنّف في نصّ الكتاب[2].

ويعتقد جلّ أصحاب التراجم والمعاجم، بل كلّهم، أنّ كتاب **تهذيب الأخلاق** هو من تأليف أبي علي مسكويه الرازي. ويتحدّث الباحث العربي المعاصر، محمد أركون، عن وجود ست نسخ خطيّة

---

(1) أنظر، أبو علي مسكويه، **تجارب الأمم**، ج 1، مقدّمة المحقّق، ص 23 ـ 28.

(2) نسخة حسن تميم، ص 94.

لهذا الكتاب موجودة اليوم في كلّ من متحف بريطانيا وآيا صوفيا في تركيا ودار الكتب في القاهرة.[1] كما توجد نسختان خطّيتان للكتاب إحداهما في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي الإيراني برقم (2/ 19259)، وفي مكتبة الحرم الرضوي برقم (1/ 938)، ويعود تاريخهما إلى القرن الحادي عشر الهجري. أمّا أقدم نسخة موجودة في إيران فهي تلك النسخة المودعة في مكتبة جامعة طهران، إذ يعود تاريخها إلى القرن السادس الهجري.

وقد طُبع من كتاب **تهذيب الأخلاق** حتى الآن طبعات عدّة، الأولى كانت في الهند عام 1271 هـ، وطبع في القاهرة في عام 1298 هـ و1305 هـ في هامش كتاب مكارم الأخلاق للطبرسي. ثم طبع في إسطنبول عام 1298 هـ و1299 هـ، وأعيدت طباعته في طهران سنة 1314 هـ، إلّا أنه طبع للمرة الأولى من قبل قسطنطين زريق بصورة محقّقة ومصححة في عام 1966 م. وهي تعدّ أفضل الطبعات الموجودة.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

يعدّ كتاب **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق** من أشهر كتب مسكويه. وهو يشير إلى أنه نشره قبل كتابه **الحكمة الخالدة**، إذ يصرح فيها قائلاً: «ولولا أننا قد أحكمنا لك الأصول كلّها في كتابنا الموسوم بـ **تهذيب الأخلاق**، لأوجبنا لك إيرادها هاهنا»[2]. تجدر الإشارة إلى أنّ كلاًّ من كتابَيْ **الفوز الأكبر**، و**الفوز الأصغر** تمّ تدوينهما قبل هذا الكتاب (أي **تهذيب الأخلاق**). وقد تأثّر الخواجة نصير الدين الطوسي به بشدة،

---

(1) محمد أركون، **نزعة الأنسنة في الفكر العربي**، ص 227.

(2) أبو علي مسكويه الرازي، **الحكمة الخالدة**، ص 25.

وأنشد أبيات عدّة من الشعر في حقّه وحقّ المؤلف. ويعتبر كتاب **أخلاق ناصري** (بالفارسية) ترجمةً وشرحاً لهذا الكتاب.

ومن المفيد القول إنّ كتاب **تهذيب الأخلاق** قد تأثّر بالتراث الفلسفي اليوناني، نظير ما كتبه أرسطو وأفلاطون وجالينوس، إلّا أنه لمّا كان المؤلّف قد أولى اهتماماً بالغاً بالشريعة الإسلامية، نجده قد أجهد نفسه للتوفيق بين آراء فلاسفة اليونان وبين المعتقدات الدينية والتعاليم الشرعيّة الإسلاميّة. ونذكر هنا بعض الشواهد على مدى تأثّر مسكويه في كتابه هذا بحكماء اليونان:

1 ـ في تعريف النفس، نجده يتّفق مع أفلاطون في أنّها مغايرة لجوهر الجسم وذلك لأنها لا تتغيّر ولا تستحيل.

2 ـ تأثّر بمدرسة أفلاطون من خلال تقسيمه لقوى النفس إلى ثلاث قوى، هي: القوة الشهويّة والقوة الغضبيّة، والقوة العاقلة.

3 ـ توجد ثلاث فضائل أساس ومحورية، يؤكّد عليها المؤلّف في كتابه هذا. والملاحظ أنّ التعاريف التي يوردها المؤلّف في خصوص كلّ واحدة من هذه الفضائل جاءت ناظرة إلى إحدى قوى النفس الثلاث، ثم يضيف إلى هذه الفضائل الثلاث «فضيلة الاعتدال». والواقع أنّ جميع الحكماء اتفقوا على أنّ أول من عرّف هذه الفضائل الأربع هو شيخ الحكماء سقراط، ومن ثم تلميذه أفلاطون. وهو شاهد آخر على تأثّر مسكويه بفلاسفة اليونان.

4 ـ يعتقد مسكويه، تبعاً لسقراط، أنّ اللّذة ضدّ الألم، والألم ضدّ اللّذة. وإن التمتّع بأيّ من اللّذات الجسديّة لا بدّ وأن يكون ضمن حدود معينة، فإذا تجاوز الشخص تلك الحدود ابتُلي بالألم.

5 ـ يرى مسكويه في كتابه هذا، تبعاً لأرسطو، أنّ الإنسان لمّا كان مدنيّاً بالطبع وجب عليه أن يتعاون مع أخيه الإنسان في قضايا الحياة.

أضف إلى ذلك أنّ مسكويه قد تأثّر في كتابه هذا، تأثراً بيّناً بالرازي، وبالتحديد بكتابيه **الطبّ الروحاني**، **ورسالة في اللّذة**؛ فمثلاً، في معالجته للأمراض النفسيّة، نظير: الحزن والحسد والغمّ وغيرها، تجده يصدر تعليمات على منوال الأوامر التي يصدرها الرازي في معالجته لهذه الأمراض. كما إنه في بيان كيفيّة التخلّص من حالة الخوف من الموت، يفيد من عبارات تشابه عبارات الرازي في كتابه **الطبّ الروحاني**. وممن تأثّر به مسكويه أيضاً، الكندي، خصوصاً في كتابه **دفع الأحزان**، عندما بيّن رأيه في حقيقة الحزن والغم، ووافقه على رأيه في ذلك.

ويبدو أنّ أول ترجمة لكتاب **تهذيب الأخلاق** جاءت بعد قرنين من تأليفه، على يد نصير الدين الطوسي الذي أثنى على الكتاب كثيراً وقام بترجمته إلى اللّغة الفارسيّة ترجمة حرّة، ثم أضاف إليه فصلين هما «تدبير المنزل» و«سياسة المدن»، وأطلق على المجموع عنوان **«أخلاق ناصري»**.

توجد ترجمة فارسيّة أخرى لهذا الكتاب يعود تاريخها إلى الفترة القاجارية ـ القرن الثالث عشر الهجري ـ، قام بها الميرزا أبو طالب الزنجاني، وقام أبو القاسم الإمامي بتصحيحها. ونشرت من قبل دار «نشر ميراث مكتوب» بالتعاون مع دار «انتشارات نقطة» تحت عنوان **كيمياى سعادت**.

وثمة ترجمة حرّة أخرى إلى اللّغة الفارسيّة، قامت بها السيدة المجتهدة أمينة الأصفهاني، نشرتها تحت عنوان **أخلاق**. وآخر ترجمة

فارسية هي لعلي أصغر الحلبي، نشرها دار «انتشارات أساطير» في عام 1423 هـ.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يشتمل الكتاب على بحوث أساس في علم الأخلاق بحثت بشكل جيد ومناسب. كما بُحث عدد من أهم نظريّات فلاسفة اليونان. ولكن المقالة السابعة، والتي اشتملت على بحث قوى النفس الثلاث: الشهويّة، والغضبيّة، والناطقة، وما يرتبط بها من الفضائل والرذائل، ولم تبحث سوى القوى الغضبيّة بصورة شاملة ومستوعبة، بينما لم يتمَّ التطرُّق للقوَّتين الأُخريين.

وتقع النسخة التي صحّحها الشيخ تميم في 154 صفحة، وتتكوّن من مقدّمتين ـ كلّ واحدة منهما في صفحتين ـ وسبع مقالات. ومع أنّ المؤلّف يتمتّع بأسلوب موجز ومضغوط، إلّا أنه لم يلتزم بذلك في المقال الثاني (حول تأديب الأطفال ومراتب الحيوانات)، وفي المقال الخامس والمقال السابع بدرجة أقلّ، فقد أسهب في بحث موضوعات تلك المقالات أكثر من المتوقّع.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

تطرَّق المؤلّف في بداية الكتاب، إلى بحث مقدّمات علم الأخلاق، نظير: معرفة النفس وقواها وفضائلها، ثم السبيل للتوصّل إلى الفضيلة والسعادة، بمعنى التربية، وبعد ذلك أشار إلى غاية علم الأخلاق، أي الخير والسعادة، وبحث أيضاً العدالة الاجتماعيّة والمحبة والصداقة. وفي

الخاتمة بحث الآفات والأمراض الأخلاقيّة، ضمن فصلين، أحدهما في كيفيّة الوقاية، والآخر في كيفيّة العلاج.

يقول مسكويه في مقدّمته على الكتاب:

غرضنا في هذا الكتاب، أن نحصّل لأنفسنا خُلُقاً تصدر به عنا الأفعال كلّها بصورة جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقّة. ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي. والطريق في ذلك: أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي؟ وأيّ شيء هي؟ ولأيّ شيء أوجدت فينا؟ (أعني كمالها وغاياتها) وما قواها وملكاتها؟ وما الأشياء العائقة لنا عنها؟[1].

يتعرّض المؤلّف في المقالة الأولى، ـ والتي دوّنت لغرض معرفة النفس الإنسانيّة، ـ إلى بيان عديد من الأدلّة في إثبات تجرّد النفس. ثم يشير إلى أنّ لكلّ موجود فعلاً خاصاً به هو، لا يشاركه فيه أحد من الموجودات الأخرى. وكمال كلّ ماهيّة مرتهن بمدى النجاح الذي تحقّقه تلك الماهيّة في أفعالها الخاصة بها. ولمّا كان وجه امتياز الإنسان عن سائر الموجودات، يكمن في قوّته العاقلة والمميّزة، متى كانت القوة العاقله لدى الإنسان أكمل وأكثر سلامة وصحة، كانت إنسانيّته أكمل.

ثم يقسم المصنّف قوى النفس الإنسانيّة إلى ثلاث قوى: العاقلة والغضبيّة والشهويّة (الملكيّة ـ السبعيّة ـ البهيميّة)، معتقداً أنّ الإنسان ينظر إلى حقائق الأمور بعقله فيشخّصها. وفضيلة القوة العاقلة هي

(1) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 27.

«الحكمة» وتقع حداً وسطاً بين رذيلتين هما «البله» (وتعني أن يعطّل الإنسان قوته العاقلة بإرادته)، و«السفه أو الجربزة» (وتعني الاستفادة من القوة العاقلة في الأمور التي لا تنبغي).

من جانب آخر، فإنّ الإنسان وبالاعتماد على القوة الغضبيّة، يقدم عادة على أمور مخيفة ومروّعة، ويجد في نفسه هوى التسلّط والتفوّق على الآخرين. لذا فإنّ فضيلة القوة الغضبيّة هي «الشجاعة» والتي هي حدّ وسط بين رذيلتين هما «الخوف» و«التهور». كما إنّ الإنسان بواسطة القوة الشهويّة، يسعى إلى إشباع ملذّاته. وفضيلة هذه القوة هي «العفة». وهي الحدّ الفاصل بين رذيلتَيْ «الشره» و«الخمود» (عدم الاهتمام بالملذّات الضروريّة المباحة).

وواضح أنّ كلّ واحدة من هذه القوى الثلاث تدعو الإنسان إلى تلبية متطلّباتها. ولا شك في أنّ تأمين كلّ متطلّبات هذه القوى متعذّر وغير ممكن، في آن واحد وبشكل كامل. ومن هنا، فإن حالة الاعتدال بين هذه القوى ينجم عنها فضيلة أخرى تعرف بـ «العدالة»، وهي الحدّ المتوسّط بين، رذيلتي «الظلم» و«الانظلام». بناءً على ذلك، فإنّ الفضائل الأساس والمحوريّة، هي: الحكمة، والعفّة، والشجاعة، والعدالة. وتندرج تحت كل واحدة من هذه الفضائل صفات حميدة متعدّدة. وقد أشار المصنّف إلى بعض هذه الصفات، وقام بتعريفها باختصار.

ومن النقاط الهامة في هذه المقالة مسألة «التعاون الاجتماعي» ودوره في سعادة الإنسان، إذ يرى مسكويه أنّ الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يطوّر نفسه ويوصلها إلى كمالها، إذ من دون معاونة الآخرين ليس

باستطاعته أن يحصل على أيّ فضيلة من الفضائل، بل أكثر من ذلك، ستزول قواه وملكاته وتتبدّد.

ويقوم المؤلّف في المقالة الثانية ـ أولاً ـ بتعريف «الخُلق» وتقسيمه إلى طبيعيّ واكتسابيّ، ليشير إلى الاختلاف الموجود بين المفكّرين حول قابليّة الأخلاق على الثبات أو التغيير، وبالتالي يقرّر، وتبعاً لأرسطو، إمكانية تغيير الأخلاق. وفي معرض إجابته عن السؤال الآتي: هل الإنسان مجبول في طبعه الأوّلي على الخير، أو أنّ الطبع الأوّلي له هو الشرّ؛ ينقل رأي جالينوس الحكيم، الذي يفرّق بين الناس من هذه الجهة. ثم يؤكّد على القول إنه، لمّا كان علم الأخلاق يُعنى بإصلاح الأفعال الخاصة بالإنسان، وجب أن يكون أفضل العلوم العمليّة. وذلك لأن موضوعه أشرف المخلوقات ـ الإنسان ـ وغرضه أشرف الأغراض. وحول كمال الإنسان، يرى المؤلّف أنّ ـ الإنسان وبسبب توافره على القوة العاملة والعالمة ـ له كمالان؛ كمال علميّ وكمال عمليّ. والمراد بالكمال العلمي هو أن يتوافر الإنسان على علم صحيح، وعقيدة صحيحة، وتفكير سليم. وأن يتدرّج في العلم، بأمور الموجودات، حتى يصل إلى العلم الإلهيّ، ويحصل على الاطمئنان القلبيّ. وفي ما يخصّ الكمال العملي يكتب:

وأمّا الكمال الثاني، الذي يكون بالقوة الأخرى، أعني القوة «العاملة»، فهو الذي نقصده في كتابنا هذا، وهو الكمال الخلقي الذي تصدر أفعاله كلها ـ بحسب قوّته المميّزة ـ منتظمة مرتّبة[1].

---

(1) **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، مصدر سابق، ص 5758.

ثم يردّ المؤلّف على من يرى أن كمال الإنسان يكمن في تمتّعه بالملذّات الحسيّة. ويذكر استدلالات جالينوس في ردّهم مضافاً إلى ردود المؤلف نفسه.

ثم يشير إلى مسألة وحدة النفس وكثرة قواها. ويضع هذه القوى في نسق ترتّبي، فيرى أنّ أدنى قوة وأحطّها، هي القوة الشهوية والتي تأبى ـ بطبعها ـ التأدّب. ثم تليها في المرتبة الثانية القوة الغضبية والتي تقبل التأدّيب. وأمّا أشرف قوى النفس ـ والتي تأتي بالمرتبة الثالثة ـ فهي القوة العاقلة، التي بطبعها تكون ممتزجة بالأدب. بناءً على ذلك، كلّما كانت النفس البهيميّة الشهويّة، أكثر نشاطاً وفاعليّة في وجود الإنسان، قلّ حظّه من الكمال الإنساني بالدرجة نفسها، وكلّما كانت القوة العاقلة أقوى وأكثر نشاطاً كانت النفس أكثر كمالاً. ومن هنا، بالذات، نجد أنّ أفراد البشر يختلفون في ما بينهم ـ بحسب مراتبهم الكماليّة ـ اختلافاً أكبر بكثير من الاختلاف الذي نشهده بين سائر الموجودات.

ويفرد مسكويه، في مقالته هذه، بحثاً حول تربية الأطفال، يتعرّض من خلاله إلى بيان منهج وخطة عمل تفصيليّة في هذا الجانب. ويقترح أن تبتني العمليّة التربوية للطفل على أساس المسار الطبيعي لظهور القوى، بدءاً من القوة الشهويّة، ثم القوة الغضبيّة، وتليهما القوة العاقلة.

ويبحث المؤلّف، في مقالته الثالثة، مقولَتَيْ «الخير» و«السعادة»، فينقل عن أرسطو قوله: «إنّ الخير هو المقصود من الكلّ، وهو الغاية الأخيرة». وقد يسمّى الشيء النافع في هذه الغاية خيراً. وأمّا سعادة كلّ شخص فهو الخير المختصّ به، وسعادة كلّ شيء في تماميته وكماله ومن

هنا، فإن الفرق بين الخير والسعادة يكمن في أنّ الخير له طبيعة وذات معيّنة، يقصدها الجميع ويشتركون فيها. وأمّا السعادة فليس لها طبيعة أو ذات محدّدة، بل تعيُّنها وتشخُّصها يحصل عندما تنسب إلى الأفراد.

ويذكر مسكويه تقسيمات عدّة للخير، ويشير إلى أنّه موجود في الأعراض وفي الجواهر على حدّ سواء. ويعتبر الخير الأول في الجواهر، هو الله جلّ وعلا. وذلك لأن جميع الأشياء تتّجه نحوه بشوق. بعد ذلك يتعرّض إلى بيان أقسام السعادة من وجهة نظر أرسطو، فيذكر لها خمسة أقسام، بعضٌ منها يختصّ بالبدن، وبعضٌ آخر يختص بما هو خارج عنه. وثمة قسم ثالث يختصّ بالنفس. أمّا من وجهة نظر الحكماء المتقدّمين على أرسطو، فإنّ الفضائل والسعادة إنما تحصل في النفس فقط، ولا يتوقّف تحققها على فضائل البدن أو ما هو خارج عنه. ثم ينقل عن المحقّقين من الفلاسفة أنهم يحتقرون ما يعرف بالبخت وما يتعلّق به، ولا يرون له أيّ تأثير في جلب السعادة. أمّا من يعتقد بأنّ السعادة النهائية تتعلّق بالنفس خاصة، فيذهب إلى أنّ مثل هذه السعادة إنما تتحقّق في عالم الآخرة، وبعد انفصال النفس عن البدن، وعن الطبيعيّات. بينما يذهب آخرون إلى أنه يمكن تحقيق السعادة في عالم الدنيا أيضاً. ثم يحاول المؤلّف أن يقضي بين الاتجاهين، فيقرّر أنّ الإنسان ذو فضيلة روحانيّة وفضيلة جسمانيّة، إلّا أنّ مجالسة الأرواح الطيّبة غير متوقّفة على السعادات البدنيّة. فالسعادة النهائية ـ بحسب المصنف ـ على مرتبتين:

1 ـ السعادة لمن هو في مرتبة الأشياء الجسمانيّة، ويكون متعلّقاً بأحوالها، سعيداً بها، وهو مع ذلك يتطلّع إلى شرائف الأمور، ويتشوّق إليها ويتحرّك نحوها. وفي الوقت نفسه يتأمل في الأمور

البدنية ويعتبر بها، ويتفكر في آثار القدرة الإلهيّة وعلائمها، وينظر في دلائل الحكمة.

2 ـ وأمّا السعيد الحقيقي، فهو الذي نال حظاً وافراً من الحكمة، فصار ـ بروحانيّته ـ مقيماً بين الملائكة، يستنير بنور الله، ويطلب دوماً الاستزادة من الفضائل التي يتحلّى بها.

ثم ينقل عن أرسطو قولاً مفاده: إنّ أسمى الفضائل بالنسبة إلى الإنسان هو أن يكون فعله ـ كما هو فعل الله ـ يقصد به ذات الفعل. ويعدّ أرسطو هذه المرتبة غرض الفلسفة، ومنتهى السعادة.

ويعتقد المصنّف أنّ السعادة لا يمكن أن تتحقّق من دون تعلّم أجزاء الحكمة بشكل كامل وصحيح. فإذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة من السعادة، يكون قد نال أهلية لقاء اللّه بعد الموت. ثم يشدّد القول بأنّ هذه المرتبة من السعادة لا تتحقّق إلّا إذا اجتاز الإنسان المرتبة الأولى من السعادة.

ثم يتحدّث عن المرتبة الأولى، فيؤكد حقيقة أنّ الإنسان إذا لم يهتمّ بإصلاح قوى النفس الثلاث، بأكملها، وإنما اهتمّ ببعضها دون بعض، فسوف لن يصل إلى السعادة.

ثم يشير المؤلّف إلى وجود ثلاث سِيَر هي: سيرة اللذّة وسيرة، الكرامة، وسيرة الحكمة، معتبراً الأخيرة أشرف السير والتي يجب على الإنسان أن يختارها. وهو يؤكّد على أنّ الإنسان السعيد لا ينفصل عن سعادته أبداً؛ وذلك لأن الفضائل التي اكتسبها تحول دون أن تؤثّر الأحداث عليه سلباً. مضافاً إلى ذلك، يقسم مسكويه اللّذة إلى لذّة

انفعاليّة ولذّة فعليّة. ويرى أنّ اللّذة الانفعالية هي، في الواقع، انفعالات القوة الشهويّة والغضبيّة، وهي بالتالي لذّة ناقصة، وزائلة، وعَرَضيّة، وحسيّة. وأمّا اللذة الفعليّة فهي تختصّ بالإنسان، واصفاً إياها بأنها لذّة تامة، وثابتة، وذاتيّة، وعقليّة، وإلهيّة. ويرى أنّ اشتياق الإنسان ورغبته، في اللّذات الحسيّة، قوية جداً. وفي المقابل تجد أنّ الإنسان بطبعه ينفر من اللذّة العقلية في البداية، لكنه إذا عمل على تحصيلها مدة من الزمن، تحصل لديه الرغبة والشوق إليها. وفي نهاية المقالة، ينقل المؤلّف عن أرسطو قوله «إنّ السعادة لا تقبل المدح وذلك لأنها فوق كلّ مدح وثناء».

وأمّا المقالة الرابعة، فقد تناولت موضوع «العدالة» بشكل رئيس. وفي مطلعها أشير إلى أنّ سعادة الإنسان تظهر في أفعاله. ولكن الأفعال الحسنة قد تبدر من الفرد غير السعيد أيضاً. فمثلاً، الأفعال التي تتناسب وتنسجم مع صفة الشجاعة، أو السخاء، أو العفّة، أو العدالة، إذا صدرت عن الإنسان بدواعٍ نفسانيّة غير نزيهة، فحينئذٍ سوف لا تكشف عن وجود سعادة. وعليه يجب أن ننسب كلّ فعل إلى الغرض الذي من أجله صدر ذلك الفعل.

ثم تطرّق إلى بحث جملة من العوامل والأسباب ـ أعمّ من أن تكون إراديّة أو غير إراديّة ـ التي تؤدّي إلى الإضرار بالآخرين، من قبيل: الشهوة، والشرّ، والخطأ، والشقاء. ثم أشار إلى تعريف العدالة وموارد تحقّقها، ونقل عن أرسطو أنّها على أقسام ثلاثة: الأول: العدالة في حق الله (بمعنى الحقوق الإلهيّة، نظير: العبادة، المعرفة، تزكية النفس..الخ). والثاني: العدالة في حق الناس، والثالث: العدالة في حق الآباء والأجداد (الأسلاف). ويرى مسكويه أنّ العدالة ليست إحدى

الفضائل، بل إنّ كل فضيلة من الفضائل هي مصداق لها، كما إنّ كلّ رذيلة تُعدّ مصداقاً للجور.

وفي ختام المقالة، يجيب مسكويه عن سؤالين حول العدالة هما: هل العدالة والجور أمران اختياريان؟ وكيف تنسجم كثرة ممارسة الفضائل ـ والتي تعدّ أمراً ممدوحاً ـ مع العدالة (بمعنى رعاية الحّد الوسط)؟

المقالة الخامسة للكتاب تختصّ بالحديث عن «المحبة» و«الصداقة». وهنا يشير المصنّف إلى حاجة الناس بعضهم إلى بعضهم الآخر، ودور الاجتماع الإنساني في تحصيل الكمال المطلوب للإنسان، إذ يرى في المحبة عنصراً ضروريّاً في حياة الإنسان، ويعدّد للمحبة أقساماً مختلفة. ويذكر أنّ دوافع المحبة إمّا اللّذة، أو المنفعة، أو الخير، أو تركيب من هذه الأمور الثلاثة. فالمحبة التي يكنها الأطفال بعضهم لبعضهم الآخر هي بدافع اللّذة، ومحبة الكبار تكون بدافع المنفعة، ومحبة الأخيار والصالحين تكون بدافع الخير. ومن أنواع المحبة أيضاً «المحبة الإلهيّة»، فالإنسان متى قام بتنزيه جوهر وجوده الإلهيّ من كدورات عالم الطبيعة، وأنواع الشهوات، فسوف يبصر الخير المحض بعين عقله ويتشوّق إليه. ومقتضى هذه المحبة، المعرفة، والطاعة، والتعظيم. والفارق بينها وبين سائر أقسام المحبة، هو أنّها لا يعتريها الزوال، وأنّها موجودة بين الصلحاء والخيرين فقط، ومنشأها هو الخير.

ويضيف المؤلّف، أنّ دوافع المحبة القائمة بين شخصين قد تكون متشابهة، وربما اختلفت دواعي المحبة من شخص إلى آخر. فتجد أنّ هذا يحب ذاك لسبب خاص، وذاك يحب هذا لا للسبب أو الداعي

نفسه، بل لسبب ـ وداعٍ ـ آخر. ثم يبحث أطيافاً عدّة مختلفة من المحبة، نظير: محبة الأخيار، ومحبة السلاطين، ومحبة الوالدين للولد، ومحبة الولد لوالديه، ومحبة الإخوان، ومحبة الحكماء، ومحبة التلميذ لمعلّمه، وأيضاً المحبة الموجودة بين المحسن ومن أَحسَنَ إليه. ويحاول أن يحلّل أسباب وجذور كلّ طيف من أطياف المحبة هذه. وفي مقطع آخر من المقالة، يفصِّل مسكويه في الحديث عن الصديق والصداقة، فيؤكّد على مدى حاجة الإنسان إلى الصديق. وما هي الشروط والمواصفات التي ينبغي أن تؤخذ بالاعتبار في اختياره. وكيف يتم التعامل معه؟ وما هي العوامل التي تنقض عُرى الصداقة؟ وفي هذا المضمار يؤكّد على أهمية الإنفاق، في العلم والتجربة، على الأصدقاء، كما يؤكّد على ضرورة تجنّب الجدال وإظهار عيوب الآخرين، وأن لايكون الإنسان نمّاماً.

وفي الفصل الأخير، من هذه المقالة، يبحث المؤلّف في باب «السعادة التامة والخالصة»، حيث ينقل عن أرسطو قوله: «إنّ السعادة التامة والخالصة يختص بها الله تعالى والملائكة والمتألّهون من الناس.» ومع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الفضائل الإنسانية لا وجود لها لدى الله تعالى والملائكة، إذن، لو أراد الإنسان بلوغ هذا القسم من السعادة ـ أي الخالصة والتامة، لتعيّن عليه أولاً أن يعرف الخير والسعادة الحقيقيّة، ومن ثم يبذل قصارى جهده في طلب مرضاة الله تعالى. وحينئذٍ سوف تشمله محبة الله وعنايته جلّ وعلا، ويصل إلى مقام «الخلّة».

ومن النقاط المهمة التي تتضمنها هذه المقالة، تأكيد الشريعة على ضرورة تكريس الألفة بين المسلمين، والتواصل مع الناس، وتقوية

الأواصر الاجتماعية. ويؤكّد المؤلّف أنّ من أهم مهام ووظائف الحاكم، حفظ الدين وتطبيق أوامر الله ونواهيه.

وتُعنى المقالة السادسة بالحديث عن «طرق الوقاية من الإصابة بالأمراض النفسيّة»، وكيف يمكن الاحتفاظ بسلامة الروح؟. ففي البداية يذكر مسكويه مقدّمة موجزة حول الترابط الموجود بين الجسم والروح، والتأثير الذي يتركه كل واحد منهما على الآخر. كما يشير إلى الفرق الموجود بين الوقاية والعلاج. بعد ذلك يعدّد سبل الوقاية من الأمراض النفسية، فيذكر منها ما يلي:

1 ـ معاشرة طلاب العلوم والمعارف الحقّة، وتجنّب مجالسة أهل الشر.

2 ـ ممارسة نشاطات فكريّة ونظريّة، والقيام بتمارين رياضة الفكر باستمرار، وذلك لأن التوقّف عن ممارسة النشاطات الفكريّة، يجعل الإنسان بليد الذهن أبله.

3 ـ الابتعاد عن العجب والغرور.

4 ـ الاهتمام بالقيمة الكبيرة للجوهر الباطني للإنسان، والعمل على صيانته والإفادة منه.

5 ـ الإفادة من القوى الشهويّة والغضبيّة بصورة متعادلة، وتجنّب تحريك وإثارة أيّ من هاتين القوتين.

6 ـ العمل على أساس الفكر، ومخالفة العادات السابقة، وتوبيخ النفس ومعاقبتها.

7 ـ الاستعداد والتهيّؤ المسبق لمكافحة الأمراض الروحيّة.

8 ـ مراقبة النفس باستمرار، والعمل على كشف عيوبها ونقاط ضعفها.

وتهدف المقالة السابعة إلى «معالجة الأمراض النفسيّة»؛ إذ تعرض المؤلّف فيها إلى معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة الغضبيّة فقط. فهو بعد تعريف الغضب، يعدّد عشرة عوامل توجيه: العجب، المفاخرة، المجادلة، اللّجاج، المزاح، التيه، الاستهزاء، الخيانة، الضيم، وطلب الأمور النادرة.

ثم يتناول مسكويه، بالتفصيل، التبعات والآثار السلبيّة المترتّبة على هذه الأمور. وينصح بضرورة السيطرة على النفس وكبح جماحها في مثل هذه الموارد. ويعرّف الغضب بأنه خروج عن حدّ الاعتدال، وبالتالي فهو من مصاديق الجور، وعليه ينبغي أن لايوصف بأنه ضرب من الرجولة. والرذيلة الأخرى، والتي تقع على حدّ التفريط بالقوة الغضبية، هي صفة «الخوف والضعف»، وعلاج هذه الخصلة يتأتى من خلال تحريك القوة الغضبيّة داخل النفس، والعمل على إيقاظها وتحفيزها، من خلال الإقبال على المخاطر ومواضع الخوف.

إلى جانب ذلك، قام المؤلّف بدراسة علل الخوف وعوامله، وقسّمها إلى قسمين: ممكنة وضروريّة، ثم أشار إلى طرق معالجتها.

ويرى المصنّف أنّ الخوف من الموت إنما ينشأ من الظنون الباطلة، فمثلاً، الذي لا يعرف حقيقة الموت أو يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد وما شاكل ذلك، تراه يخاف الموت. مثل هذا الشخص إذا أراد أن يتحرّر من الخوف من الموت، عليه أن يُلِمّ بعالم الموت وحقائقه. وأمّا في ما يتعلّق بمعالجة الحزن، فمن النافع للشخص أن يزداد معرفة بالقوانين التي تحكم العالم.

6 ـ منهجيّة الكتاب

المنهج المتّبع في هذا الكتاب منهج فلسفي صرف. فالملاحظ أنه يغلب عليه طابع الاستدلال البرهاني، وإن كانت ثمة موارد استفاد فيها المؤلّف من الأقيسة الخطابيّة والجدليّة. وأمّا الاستدلال بالنقل والأثر، فلم يعمل على إبرازه بشكل ملموس. وربما استفاد في بعض الأحيان من المقبولات الشرعيّة كشاهد على دعوى يدّعيها. فمثلاً، في مقالته الخامسة، يشير إلى بعض التعاليم والأحكام الاجتماعيّة للإسلام، باعتبارها من السبل الكفيلة بتحقيق المحبة الإنسانيّة والاجتماعيّة.

في الجانب التربوي، نلاحظ أنّ المؤلّف يؤكد على التربية الاجتماعيّة كأسلوب تربوي، وهذا يَدُلُّ على أنّه لا يرى جدوى للاعتزال والتهذيب الفردي، فهو ينظر إلى مقولة الأخلاق من منظور العالِم والمنكر الاجتماعي الذي له هواجس وتطلّعات اجتماعيّة.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يحظى الكتاب ـ مقارنة بالكتب المشابهة ـ بقلم سلس وأسلوب واضح نسبيّاً وإن كانت ثمة موارد لا تخلو من تعقيد وإغلاق (نظير المقالة الثالثة). كما إنّ المفردات والمصطلحات التي ذكرها المؤلّف، ذات طابع فلسفي في الغالب.

8 ـ التقييم النهائي

يعتمد الكتاب ـ في بيانه للأخلاق الأرسطيّة، وتوضيحه للبحوث

الأخلاقيّة الأساس ـ على منهج عقلاني واستدلالات متينة ومقبولة، وأسلوب كتابي سلس وواضح إلى حدّ ما.

كما يتميّز بقوته في التوفيق بين الإدراكات العقليّة والتعاليم والأحكام الشرعيّة. من هنا، يمكننا القول إن مسكويه كان ناجحاً في تحقيق الغرض الذي يسعى إليه ومن حيث النظام والترتيب، جاءت مقالاته منتظمة وفق نسق وترتيب جيدين.

نعم، يلاحظ على المقالات أنها تعاني ـ في بعض الأحيان ـ من التكرار، ويلاحظ أيضاً أنّ المؤلّف لم يكن موفقاً في اختيار المحل المناسب لطرح بعض البحوث. وهذا ما يؤثّر سلباً على حسن الترتيب المشهود في الكتاب.

تجدر الإشارة أخيراً إلى أنّ الكتاب نال إعجاب وتقدير كبار العلماء، نظير: الفيلسوف نصير الدين الطوسي[1] والعلامة الطباطبائي[2] والإمام الخميني[3].

---

(1) انظر: نصير الدين الطوسي، **أخلاق ناصري**، ص 36.

(2) انظر: محمد حسين حسيني الطهراني، **مهر تابان**، ص 54.

(3) انظر: روح الله الموسوي الخميني، **الأربعون حديثاً**، شرح الحديث 7، ص 133؛ وفي شرح الحديث 29، ص 512.

6

تهذيب الأخلاق[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، نبغ في الرياضيّات، ويعدّ أكبر عالم مسلم في الفيزياء والضوئيّات. ولد حوالي عام 354 هـ في البصرة. اشتغل منذ صباه في تحصيل العلوم الطبيعيّة والفلسفيّة. وعلى الرغم من شهرته الواسعة، إلّا أنه لا تتوفّر معلومات تفصيليّة عن حياته، خصوصاً في ما يتعلّق بنشأته العلميّة وأساتذته. في الواقع، توجد روايات متضاربة، فيروي بعضٌ أنه كان يتولى أمر الديوان في البصرة، على عهد الدولة البويهيّة، ـ وكانوا يعبّرون عن الديوان آنذاك بوزارة البصرة ـ وإبان حكومة الحاكم الفاطمي، سافر إلى مصر، وقضى ما تبقى من عمره في القاهرة (حوالي عام 430 هـ).

ويعدّ هذا العالم الكبير من رواد العلماء التجريبيين بكلّ ما للكلمة من معنى. ويقال إنه سبق فرانسيس بيكن في استخدامه للمنهج الاستقرائي العلمي. وأكثر من ذلك، فقد توافر على رؤى ونظريّات أكثر

(1) يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا (ت 364 هـ)، **تهذيب الأخلاق**، تقديم وتصحيح وترجمة وتعليق محمد الدامادي، طهران: مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، 1406 هـ. عدد الصفحات 27 + 106 صفحة، قطع وزيري.

عمقاً وشموليّة من بيكن. وقد أطلق عليه البيهقي لقب بطليموس الثاني ومدح فيه زهده وتديّنه.

كان ابن الهيثم خبيراً باللّغة العربية، حسن الخط. وتمتاز الكتب التي كان يستنسخها، مضافاً إلى الخط الجميل، بأنها في غاية الدقّة العلميّة. وكان طلاب هذه الكتب يبذلون بإزائها أموالاً طائلة.

وهو عدّد في رسالته **علوم الأوائل** مصنفاته، فذكر أنّها حتى عام 417 هـ سبعين رسالة (25 منها في الرياضيّات، 44 في الطبيعيّات والإلهيّات، ورسالة في علوم الأوائل). وفي عام 419 هـ أضاف إلى مؤلّفاته السابقة 21 مؤلّفاً آخر.

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه مجموعة تراث ابن الهيثم حسب الترتيب الزمني. ويعدّ **كتاب المناظر** من أشهر كتبه، وقد ترجم إلى اللاّتينية إبان القرون الوسطى، فأثر تأثيراً كبيراً على مسار العلوم في العالم الغربي، وأحدث تحوّلاً عظيماً على صعيد المنهج التجريبي[1].

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الرسالة وبالعنوان نفسه (أي **تهذيب الأخلاق**)، نُسبت إلى كلّ من يحيى بن عدي، ومحيي الدين بن عربي، وأبي عثمان الجاحظ، وابن الهيثم. وثمة من احتمل نسبة هذه الرسالة إلى ثابت بن قرة الحراني، أو سنان بن ثابت بن قرة[2].

2 ـ النسخ والطبعات

توجد أكثر من عشرين نسخة خطّية لهذا الكتاب، أقدمها تعود إلى

---

(1) أنظر: علي بن زيد البيهقي، تتمة صوان الحكمة؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، القفطي، **تاريخ الحكماء**.

(2) محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 319.

عام 639 هـ. وقد قام الباحث عبد الرحمن البدوي بطباعة هذه الرسالة، على أساس النسخة الخطّية الموجودة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في طهران، ضمن كتاب **دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب**. وذلك في عام 1981 م في بيروت، تحت عنوان **«مقالة في الأخلاق»**. وقد تردّد بدوي في نسبتها، إلى الحسن بن الحسن بن الهيثم أو يحيى بن عدي. وقد طبع هذا الكتاب قبل ذلك أيضاً، وذلك عام 1332هـ، تحت عنوان **«فلسفة الأخلاق»** من قبل علي محمد أبو طالب في القاهرة مع مقدمة وخاتمة. ونسب إلى محيي الدين بن العربي.

من جانبه نسب عبد الرحمن حسن محمود الكتاب بعنوانه **«تهذيب الأخلاق»** أيضاً إلى ابن عربي. واستدلّ على اختياره لهذا العنوان بالعبارات الواردة في نهاية الكتاب[1]. وأمّا نسبة الكتاب إلى يحيى بن عدي،[2] فقد بدأت منذ عام 1866 م فصاعداً، إذ كررت هذه النسبة في أكثر من عشر طبعات، من قبل المحققين. والملاحظ أنّ كثيراً من قدماء أصحاب التراجم، بمن فيهم القفطي، وابن النديم، وابن أبي أصيبعة،

---

(1) ابن عربي، **الأخلاق**، المقدمة.

(2) أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد، ولد عام 280 هـ. بتكريت، ثم رحل إلى بغداد، وحضر درس أبي نصر الفارابي وأبي بشير متى بن يونس. وكان من النصارى اليعقوبيين، خبر اللّغة العربيّة والسريانيّة، وترجم العديد من الكتب من السريانيّة إلى العربية. كما قام بنسخ كثير من الكتب بخط يده. له العديد من المؤلّفات في الفلسفة والكلام والمنطق.

من جملة مؤلّفاته **«شرح مقالة الاسكندر»**، **«مقالة الموجودات»** و**«تفسير كتاب طوبيقا لأرسطو طاليس»**. توفّي عام 364 هـ في بغداد. (انظر: محمد بن اسحاق، **فهرست ابن النديم**، ص 322؛ القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص 237؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج 2، ص 227؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلّفين**، ج 13، ص 211؛ الشهرزوري، **نزهة الأرواح وروضة الأفراح**، ترجمة مقصود علي تبريزي، ص 384.

وآخرون، لم يعدّوا هذا الكتاب من مصنّفات يحيى بن عدي، في حين نجد الزركلي في أعلامه يعدّه ـ وبهذا العنوان ـ من مصنّفات ابن عدي[1].

وينسب عثمان يحيى هذا الكتاب إلى ابن عربي، ويذكر له عنوانين آخرين، هما: **رسالة في الأخلاق والأعلاق، وفي مكارم الأخلاق**[2].

ويرى الباحث المعاصر، محمد عابد الجابري، في دراسة قيّمة له أنّ إبطال نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ أو ابن عربي، أمرٌ هيّف يسير يفرض نفسه فرضاً على كلّ من اطلع عليه وكان على معرفة بفكر كل من الجاحظ وابن عربي وأسلوبهما، إذ لا شيء يجمعه بهما. فيدور الأمر بين ابن الهيثم وابن عدي وهنا تبدو ثمة صعوبة في تحديد من هو المؤلّف، من بين هذين الاثنين، في ضوء النسخ الخطّية الموجودة[3].

والحصيلة النهائية التي تخرج بها هذه الدراسة، استناداً إلى شواهد عدّة، هي صحة انتساب الكتاب إلى ابن الهيثم. أمّا الشواهد فهي ما يأتي:

1 ـ ذكر القدامى من أصحاب التراجم، بمن فيهم القفطي وابن أبي أصيبعة، لابن الهيثم كتاباً بعنوان **مقالة في الأخلاق**، والحال أنّ المصادر الموجودة لم تذكر لابن عدي أيّ كتاب في الأخلاق.

2 ـ إن ابن الهيثم، على ما يذكر ابن أبي أصيبعة، تولّى «وزارة البصرة»

---

(1) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 8، ص 156؛ وذبيح الله صفا، **تاريخ علوم عقلي در تمدن اسلامي**، ج 1، ص 195.

(2) عثمان يحيى، **مؤلّفات ابن عربي**، ص 262.

(3) محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 317.

كما تولّى شؤون بعض الدواوين في القاهرة. أمّا يحيى بن عدي فلم يذكر أحد أنه تولّى منصباً سياسيّاً. ومع الأخذ بالاعتبار أنّ القسم الأعظم من بحوث الرسالة يتعلّق بأخلاق الملوك والأمراء، من هنا فإن احتمال نسبة الكتاب إلى ابن الهيثم أقوى.

3 ـ ثمة عبارة وردت في خاتمة كتاب **تهذيب الأخلاق** وهي «وهذا حين نختم القول في تهذيب الأخلاق». ومثل هذا الختام أقرب إلى طريقة ابن الهيثم في كتابه الشهير **كتاب المناظر** إذ وردت فيه عبارة مشابهة وهي «وهذا حين نختم هذه المقالة»[1]. وفي المقابل لا نجد في أي مقالة من مقالات يحيى بن عدي عبارة تشبه ما ورد في خاتمة **تهذيب الأخلاق**. كما إنّ طريقة دخوله إلى البحث، تشكل قرينة أخرى في هذا المضمار.

4 ـ إنّ الألفاظ والمفردات المستعملة في الكتاب، تختلف اختلافاً بيّناً عن الألفاظ والمفردات التي يستعملها ابن عدي، فأسلوبه غالباً ما يتضمّن نقضاً واعتراضاً على الآخرين، ما يجعل منه كاتباً جدليّاً. في حين يمتاز ابن الهيثم بأسلوب علمي هادئ، لا أثر للجدل فيه. ورسالة **تهذيب الأخلاق** كتبت طبقاً للأسلوب الثاني ومن دون ملاحظه آراء الآخرين.

5 ـ الطريقة المتّبعة في البحوث الأخلاقية في هذا الكتاب تشبه طريقة جالينوس، ومن نوع **الطبّ الروحاني**. وقد كان ابن الهيثم على صلة بكتب جالينوس، فقد لخّص كثيراً منها، ولا سيما وأنه يعدّ من

---

(1) ابن الهيثم، **كتاب المناظر**، ص 532.

علماء الطب. وأمّا يحيى بن عدي فلم تكن له صلة، لا بالطب ولا بجالينوس، كما اعترف[1].

ثمة شاهد آخر على ما ندّعيه وهو أنّ المؤلّف، في تنظيم بحوث الكتاب، اتّبع أسلوباً مبتكراً وبديعاً، وتجنّب الأسلوب السائد في كتب الأخلاق الفلسفيّة. ومثل هذا النهج التأسيسي يتناسب مع المقام العلمي لابن الهيثم أكثر من ابن عدي، والذي كان يولي اهتماماً بالترجمة واستنساخ النسخ.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

قامت مؤسّسة «مطالعات وتحقيقات فرهنگي» بطباعة الترجمة الفارسية لهذا الكتاب ونشره تحت عنوان **تهذيب الأخلاق**، وقد تولّى الترجمة، والتقديم، والتعليق، محمد الدامادي، وفي هذه الطبعة نسب الكتاب إلى يحيى بن عدي. كما نقله إلى اللغة التركية، أحمد مختار، تحت عنوان **محاسن الأخلاق**. وقد نسب الأخير الكتاب إلى ابن عربي[2].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يتضمّن كتاب **تهذيب الأخلاق**، على الرغم من اختصاره، بحوثاً أخلاقيّة عدّة، بعضها ذو طابع عمليّ وبعضها الآخر ذو طابع نظريّ. وإلى جانب توافر الكتاب على معالجات في مجال تهذيب الأخلاق،

---

(1) انظر: محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 315 ـ 338.

(2) **تهذيب الأخلاق**، مقدّمة عبد الرحمن حسن محمود، ص 7؛ وعثمان يحيى، **مؤلّفات ابن عربي**، ص 263.

اهتم أيضاً بـ «أخلاق الملوك» بصورة خاصة. إلّا أنه لم يتناول المقدّمات التصوّرية والتصديقيّة لعلم الأخلاق (من قبيل تعريف السعادة، والشقاء، واللذة، والألم، وبحث إمكانيّة التربية الأخلاقيّة وغير ذلك من البحوث المقدمية). كما لا نجد أثراً للعناوين الأخلاقيّة المتعلّقة بأخلاق العبوديّة وارتباط الإنسان بالله تعالى.

يقع الكتاب في 40 صفحة تقريباً ويشتمل على مقدّمة وستة فصول. يقع الفصل الأول في صفحتين، ويتناول تعريف الأخلاق وبيان الخصائص العامة للخلق والطبع الإنساني. أمّا الفصل الثاني فيشغل خمس صفحات، ويتناول «سر اختلاف أخلاق الناس». وإلى جانب ذلك يتناول بحوثاً حول «النفس» و«القوى النفسانية». ويُعنى الفصل الثالث ببيان «أهم الفضائل والرذائل الأخلاقيّة» ضمن إحدى عَشْرة صفحة. وأمّا الفصل الرابع فيقع في صفحتين، ويبحث فضيلة وضرورة «تهذيب الأخلاق» والمعيار الحقيقي للتهذيب. ويتعرض الفصل الخامس إلى بيان كيفية «تأديب القوى الشهويّة والغضبيّة»، والسبيل إلى «تقوية القوة الناطقة»، وذلك في سبع صفحات.

ويقع الفصل السادس في عَشْر صفحات، ويشمل بياناً تفصيلياً للصفات الأخلاقيّة للإنسان الكامل، وكيفية الوصول إلى ذلك المقام. من هنا يتضح أنّ ما يقارب نصف الكتاب (أي الفصل الثالث والفصل السادس) يختصّ بذكر الرذائل والفضائل الأخلاقيّة. ومع الأخذ بعين الاعتبار الهدف الأساس من تأليف الكتاب، يبدو هذا الحجم المخصص له مناسباً ومنطقياً.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

لم تقسم رسالة **تهذيب الأخلاق** إلى أبواب وفصول. ومع ذلك، إذا

كان تعريفنا للنظام المطلوب مراعاته في تدوين الكتب والرسائل، هو تنظيم المواد ومراعاة السياقات المنطقيّة بين الموضوعات المطروحة على بساط البحث، فنقول إنّ الرسالة هذه تحظى بنظام وترتيب جيد ومناسب إلى حدّ ما. وذلك لأننا، ومن خلال قراءتنا للكتاب ومحتوياته، نجده قد توفّر على مثل هذا النظام والترتيب. ويمكن بيان ترتيبه بالنحو الآتي:

1 ـ المقدّمة.

2 ـ ضرورة الحياة الأخلاقيّة في بلورة الهويّة الإنسانية.

3 ـ الترويج لعلم الأخلاق، فوائده وآثاره الإيجابيّة. الموضوع الأول: تعريف ماهيّة الخُلق. الموضوع الثاني: مناشئ الأخلاقيّات (مسألة قوى النفس الثلاث). الموضوع الثالث: تقسيم الملكات النفسانيّة (الأخلاقيّات) إلى الفضائل والرذائل، وتوضيح مختصر للمصاديق العشرين لكلّ منهما. الموضوع الرابع: تحديد طريقة التحلّي بالفضائل والأسلوب المناسب واللاّزم للتخلّص من الرذائل (مسألة التربية الأخلاقيّة). الموضوع الخامس: رسم صورة شفّافة وموثوقة عن الإنسان كامل الأخلاق.

وكما هو ملحوظ، يوجد تقدم واضح ومنطقيّ بين البحوث التمهيديّة والمحاور الخمسة للكتاب، كما إنّ الترتيب موجود بين كلّ واحد من المواضيع المتقدّمة والمحاور اللاّحقة.

في البداية يحدد المصنّف غرضه من تأليف الكتاب، بأنه بصدد الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أ) ما هو الخُلق؟

ب) ما هي عوامله ومكوّناته؟

ج) ما هي أنواعه المذمومة والممدوحة؟

د) من هو الإنسان الكامل (وما هي مواصفاته)؟

ويرى المصنّف أنّ أسمى الأمور التي ينبغي للإنسان أن يوطّن نفسه في سبيل تحصيلها، هو كمال الذات وتمامها. وهذه الذات المتكاملة، أو الكاملة، لا يمكن تشييد أركانها إلّا من خلال تهذيب النفس الإنسانية من القبائح والرذائل، وحملها على التحلّي بالفضائل والمحاسن. ولا ريب في أنّ التوافر على إجابات صحيحة عن الأسئلة المتقدّمة، من شأنه أن يحدد السبل الكفيلة بالنهوض بعملية التهذيب من القبائح، والتحلّي بالفضائل والمحاسن.

في مقدّمة الكتاب، ذكر المؤلّف جملة من الفوائد المترتّبة على الترويج لعلم الأخلاق. والملاحظ أنّه وقف عند نقاط قلما يشار إليها في المصادر الأخلاقيّة، وعادة ما يكتفى بذكر بعضها.

بعد هذه المقدمة، يشرع المؤلّف في البحوث الأخلاقيّة، فيبدأ أولاً بتعريف الخلق بأنه حالة توجد في النفس الإنسانيّة، ومن خلالها تصدر الأفعال من الإنسان بشكل عفويّ وبلا تروٍّ. ثم يشير إلى أنّ بعض الأخلاقيّات طبعي، وبعضها اكتسابي. ويرى أنّ قلّةً من الناس هم الذين جُبلت طباعهم على الفضائل والأخلاق الحسنة. وفي المقابل فإنّ غالبية الناس يتّصفون بأخلاق رديئة. ومن هنا، احتاجوا إلى الشرائع والسُنَن والمناهج التربويّة. ثم يقوم بتصنيف الناس من جهة طبيعة المواقف التي يتخذونها إزاء الرذائل، ومدى تأكيدهم على قبحها، والآثار السلبية المترتّبة عليها.

ثم يتعرض المؤلّف، في قسم آخر من الكتاب ـ ومن دون أن يفرد باباً خاصاً ضمن عنوان مستقلّ ـ إلى ذكر أسباب الاختلاف ومناشئه في

ما يتعلّق بأخلاقيّات الناس، إذ يرى أنّ سر الاختلاف يكمن في النفوس (أو القوى) الثلاث: الشهويّة، والغضبيّة، والناطقة، والتي يصدر منها جميع الخُلُقيات. نعم، تختصّ بعض الخلقيّات بواحدة من القوى الثلاث، وتوجد خلقيات تصدر من قوّتين معاً، وأخرى تصدر من القوى الثلاث بصورة مشتركة. ثم يفصّل الحديث في بيان مواصفات وخصائص كلّ واحد من هذه القوى، فيبدأ بالنفس الشهوانيّة، إذ يعدّها من موارد الاشتراك بين الإنسان والحيوان. ويؤكّد أنّ أي شخص إذا أوْقَعَ زمام أموره بيد هذه القوة، سيسقط إلى حد البهائم، إذ ستدفعه شهواته إلى ارتكاب أفعال قبيحة. ونظراً إلى أن أمثال هؤلاء يعانون من أمراض روحيّة، يتحتّم على الحاكم أن يعزلهم عن المجتمع، ويأمر بنفيهم وإبعادهم عن بلادهم ومواطنهم. وفي المقابل، فإن من سيطر على شهواته واتّسم بالعفة، ستكون جميع أفعاله صالحة وممدوحة.

ثم يبحث المؤلّف القوة الغضبيّة، ويشير في البداية إلى أنّ هذه القوة يشترك فيها الإنسان والحيوان، وأنّها أقوى وأكثر ضرراً من القوة الشهوية، بمعنى أنّ الإنسان لو هيمن عليه غضبه، فسيكون سبعاً ضارياً يؤذي جميع من حوله، كما سيعرّض نفسه إلى نقمة الناس وغضبهم وحقدهم. أمّا إذا عمل على تربية هذه القوة وتهذيبها، فسيصبح حليماً ووقوراً. من هنا يتبيّن ضرورة أن يلتزم الإنسان بتهذيب النفس الغضبيّة.

ثم يتطرّق المؤلّف في نهاية هذا القسم إلى النفس الناطقة، إذ يرى فيها أنها ملاك شرف الإنسان، وذلك لأن تهذيب القوتين الأُخرتين وتربيتهما لا يمكن إلّا بواسطة هذه القوة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذه النفس تعلّق بها جملة من الفضائل والرذائل؛ من قبيل اكتساب العلوم

والآداب، وضبط النفسين الأخرتين من جهة، والحيلة، والحسد، والتملّق، والرياء، من جهة أخرى.

وفي خاتمة هذا البحث، يخلص إلى أنّ سرّ اختلاف الناس في مقدار اتصافهم بالفضائل والرذائل، وتخلّقهم أو عدم تخلّقهم، إنما يعود إلى النفس الناطقة. هل هي قوية ومهذّبة؟ وما هو مستوى القوة التي تتحلّى بها ودرجة التهذيب التي عليها، أو أنها ضعيفة وغير متربية؟ وعلى هذا الأساس، سيكون التفكّر وثم المعاشرة والعادات، ذات أهميّة فائقة.

وفي مقطع آخر من الكتاب ـ من دون أن يذكر عنواناً مستقلاً ـ يذكر المؤلّف وبالتفصيل، مصاديق الفضائل والرذائل، في عشر صفحات. في البداية يعدّد عشرين فضيلة ويعرّفها، وهي: 1 ـ العفة، 2 ـ القناعة، 3 ـ كفّ النفس، 4 ـ الحلم، 5 ـ الوقار، 6 ـ المحبة، 7 ـ العطف، 8 ـ الوفاء، 9 ـ تأدية الأمانة، 10 ـ كتمان السّر، 11 ـ التواضع، 12 ـ البِشْر، 13 ـ الصدق، 14 ـ حُسْن السريرة والنصح، 15 ـ الكرم، 16 ـ الشجاعة، 17 ـ التسابق في الخيرات، 18 ـ الصبر في الشدائد، 19 ـ علوّ الهمة، 20 ـ العدالة.

ثم يصدر أحكاماً خاصة حول ضرورة اتّصاف طبقات اجتماعيّة خاصة بهذه الفضائل، نظير: الملوك، الزّهاد، العلماء، الخطباء، الأطفال، الشباب، والنساء.

ثم يذكر عشرين رذيلة ـ كلّ واحدة تقابل واحدة من الفضائل المذكورة. وفي ختام هذا القسم يعقد المؤلّف تتمة يتحدّث فيها عن نسبية بعض الفضائل والرذائل باختلاف الأشخاص والطبقات. ويشير إلى صفات لا تقتضي القبح ولا الحُسن في حد نفسها؛ فمثلاً، التزيّن قبيح بالنسبة إلى العلماء والخطباء؛ لكنه حسن بالنسبة إلى الأطفال والنساء والملوك.

ويذهب مؤلّف رسالة **تهذيب الأخلاق** إلى أنّ «الغنى والثروة» بإمكانهما أن يوفّرا للفرد المهذب قسطاً أكبر من الفضيلة والسعادة، كما بإمكانهما أن يجلبا لغير المهذب مزيداً من الشقاء. ولكن على كل حال، ينبغي أن يعلم أنّ العظمة والهيبة ـ الناتجتين من التموّل والغنى ـ عرضة للزوال وهذا بخلاف العظمة والهيبة عندما ينتجان من الفضائل النفسية، فهما ذاتيّتان وثابتتان.

وفي القسم اللّاحق، يتعرّف القارئ على «أساليب التربية الأخلاقية»، فيتعلّم أولاً ضرورة البحث عن طرق وآليّات سياسة النفس. ثم يطّلع على كيفية التحلّي بالفضائل والتحرّر من الرذائل. فعلى سبيل المثال، يوصي المؤلّف، لقمع الشهوات، بعدم الغفلة عن مجالسة الزهّاد، والمواظبة على قراءة الكتب الأخلاقيّة، وتجنب الخمر واعتزال من يعاقره، وذلك لأن الخمرة أم الخبائث وهي مصدر خطر كبير على العفة والطهارة. إنّ على طالب العفة أن يتدبّر عواقب الأمور، فيتأمّل في رذائل القوة الشهويّة والعواقب السيئة التي تترتّب عليها، وأن لا يخرج عن التنبّه واليقظة لحظة واحدة.

أمّا الطريق إلى كبح جماح النفس الغضبية فيكمن في مطالعة أحوال الناس من ذوي المزاج الناري الذين يغضبون بسرعة، وتذكّر ما يصدر عنهم من أفعال قبيحة حال الغضب، يذمّها كلّ العقلاء، ويلومون صاحبها عليها. أضف إلى ذلك، يجب على المتربّي إذا عرضت له حالة الغضب والانتقام أن ينظر على من غضب؛ فإذا كان قد غضب على شخص ـ كان قد ارتكب بحقه جريمة قتل ـ فهل من الصحيح أن يقابل المجرم بالغضب عليه، وارتكاب العمل القبيح نفسه الذي بسببه أصبح ذاك المجرم مذموماً وملوماً لدى الجميع؟! ولترويض «النفس السبعيّة»

ينصح المؤلّف بضرورة الابتعاد عن مرافقة السفهاء، وتجنّب حمل السلاح، والابتعاد عن شرب الخمر، والالتزام بحكم العقل عند اتخاذ القرار.

وبعد أن يبيّن المصنّف جملة من الأساليب العمليّة لتربية النفس الشهوانيّة والنفس الغضبيّة، يؤكّد على أنّ تهذيب هاتين النفسين يتوقّف بالدرجة الأولى على الأداء الصحيح للنفس الناطقة، وذلك لأنّها أداة التربية وآلتها ومركب الرياضة. فعلى طالب الفضيلة إذن، النظر في نفسه الناطقة، فإذا وجد ـ بعد طول تأمّل وإمعان نظر ـ أنها ليست قويّة ولا قويمة بالقدر الكافي وجب عليه أن يهتمّ بتقويتها. وليعلم أنّ تقوية النفس الناطقة ـ بالنسبة إلى من له أهلية القيام بالأعمال الفكريّة ـ يتمثّل في اكتساب العلوم العقليّة، والاهتمام بالدراسات التربويّة والأخلاقيّة. وأمّا بالنسبة إلى من لا يوجد لديه هذا التأهيل، فتقوية النفس تعني مجاهدتها، والتدبّر في الأمور والأعمال من خلال التمثيل والتنظير، ومقارنة الإحسان بالظلم، وما يترتب على كل واحد منها من آثار. وفي المقطع الأخير من هذا القسم، تؤكّد الرسالة على علوّ الهمة ومناعة الطبع والجد في طلب مكارم الأخلاق.

ويخصص الربع الأخير من الكتاب لذكر صفات «الإنسان الكامل»، ورسم صورة لسيماء الإنسان المهذب. ففي البداية يعرف «الإنسان الكامل» وهو ذلك الإنسان الذي لا تفوته فضيلة، ولم يعلُق بثوبه دنس رذيلة. ثم يشدّد على أنّ بناء الذات، والحصول على جوهرة النفس بأتمّها، والسعي لإكمالها وتطويرها، يبدو لأول وهلة صعباً وبعيد المنال، لكنه أمر ممكن إذا توفرت هناك عزيمة قوية وسعي دؤوب. ثم يورد قائمة بأوصاف الإنسان الكامل. وبعد ذلك يقسّم الناس إلى فئتين:

حكام ومحكومين (ملوك وغير ملوك). ويشرح الطريقة التي يمكن من خلالها التوصّل إلى مقام الإنسان الكامل لكلّ فئة من الفئتين. فبالنسبة إلى الفئة الأولى (الحكام)، يؤكّد على ضرورة اختيار أهل الفضل والسداد كمستشارين ومعاضدين. وأمّا بالنسبة إلى الفئة الثانية، فينصح بقراءة كتب الحكمة والأخلاق بشكل دائم، ومجالسة أهل العلم. ويؤكّد المصنف على «الاعتدال في التمتّع بملذّات الحياة» كقانون خالد لا يتخلّف، تستوي على أساسه حياة الإنسان الكامل. ويرى أنّ الإنسان ما دام محبّاً للشهوات فلن يبلغ مدارج الكمال أبداً. وأن ينبغي للإنسان الكامل أن يعتدل في أكله، ويشرك الآخرين في طعامه، ولا يمنّ عليهم بشيء، ويستصغر أمر المال، ويسعى في طلبه عن طريق الحلال. وأن يدّخر شيئاً من ماله لغده، بعد أن يصرف جزءاً منه في مصارفه الضروريّة. وعليه أن يهتم بأمر الإنفاق، في كلّ حال، أكثر من اهتمامه بتأمين احتياجاته الشخصية، وعلى الملوك أن يكونوا من السبّاقين في أمر الإنفاق.

ومن ضمن التعاليم التي يلتزم بها الإنسان الكامل ويوطّن نفسه عليها، هي: لزوم كفّ النفس عن الغضب والانتقام، ومحبة الناس، ورد الجميل. ويذكّر المصنف بأنّ الغاية لاتبرر الوسيلة، وعليه فليس من الصحيح أن نفيد من أدوات وآليّات شريرة وإن بدت الغايات والأهداف نبيلة وخيّرة.

وفي الخاتمة يؤكّد المؤلّف على نقطتين:

الأولى: على الفرد العاقل الطالب للكمال أن يتنزّه عن العيوب، إذ العيوب لا تظلّ خافية عن أعين الناس وإن جهد الإنسان في إخفائها. وهنا ينتهز الفرصة ليقدّم نصيحته للحكام بأن لا يغترّوا بكلام المتملّقين ومحاباة المقرّبين والندماء.

الثانية: أن يعلم العاقل أنّ الرئاسة، بذاتها وطبعها، تنشأ من التحلّي بالفضائل وبالكمال. وأمّا رئاسة غير الكاملين، فلمّا كانت مخالفة لمقتضى وطبيعة قوانين العالم، نجدها تقترن أبداً بالقهر والغلبة. وكم هو جميل أن يتحلّى الملك بالرئاسة الحقيقية والذاتية، أيضاً إلى جانب الرئاسة الظاهريّة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

المنهج المتّبع في الكتاب هو المنهج العقليّ التحليليّ. وعلى الرغم من أنّ المؤلّف، في أكثر معالجاته، بصدد بيان وشرح المفاهيم الأخلاقيّة وتحليلها، لإثبات القضايا الأخلاقية، إلّا أنه استفاد كثيراً من المقبولات، والمشهورات، والمسلّمات، في القياس الجدلي الذي اعتمده في كثير من مواضع الكتاب. وأمّا في مجال التربية، فقد اعتمد المصنّف منهجين؛ أحدهما «المنهج المعرفي» والآخر «المنهج العملي» أو التطبيقي، إلّا أنّ تأكيده على جانب التطبيق والأساليب العملية، أكبر وآكد.

والملاحظ أنّ الكتاب قد تأثّر بأسلوب جالينوس الحكيم، بمعنى أنّه في معالجته يقترب من طريقة الأطباء في معالجتهم الطبية. إذ إنك تجد المؤلّف يتحدّث وكأنه طبيب يشفق على مرضاه، ويحرص على إزالة الأمراض الروحيّة منهم، ويعنى بسلامتهم روحياً ونفسياً. وفي سياق هذا الاتجاه الأخلاقي، يمكن القول إنّ ابن الهيثم يأتي في المرتبة الثالثة بعد كلّ من الكندي والرازي. أمّا عن التأثير الذي تركته هذه الرسالة على الباحثين والمفكّرين فلا توجد لدينا معلومات في هذا الخصوص.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يكشف نص هذه الرسالة عن قلم جميل، وأسلوب بديع، وعبارات

رصينة وخالية من الاستطرادات والحشو الزائد. فقد بالغ المؤلّف في الالتزام بجانب الدقة في تحديد المفاهيم وطرح البحوث. وحاول استخدام بيان موجز وشيّق، أفاد فيه من الصناعات الأدبية، إلى جانب استعماله للمفردات الكبيرة ذات الإيقاعات القوية. وعلى الرغم من أنّ الكتاب، في نظامه وهيكليّته، يختلف كثيراً عن النظام الأخلاقي الأرسطي، إلّا أنّ نص الرسالة اشتمل على عديد من المصطلحات الفلسفيّة في مواضع كثيرة. والملاحظ أنّ الكتاب لم يستفد أبداً من الشعر، والحكاية، والتشبيه، في بحوثه الأخلاقيّة، كما لا يستند في جميع معالجاته إلى آية أو رواية.

8 ـ التقييم النهائي

لم يتطرّق الكتاب إلى معالجة جميع البحوث المتعلّقة بتهذيب الأخلاق، إلّا أنّ البيان الواضح والطرح المنسجم والاحتراز عن الانجرار إلى البحوث الهامشيّة والمتناثرة ووضوح الأغراض والمقاصد، جعلته فريداً من نوعه.

والملاحظ أنّ البحوث الأخلاقيّة ـ في العادة ـ تُعنى بثلاثة محاور رئيسة هي: علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بالآخرين، وعلاقته بربه، ونحن نجد أنّ كتاب **تهذيب الأخلاق** يقتصر في معالجاته على علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بالناس الآخرين، من دون أن يتعرّض الى البحث عن علاقته بربه. ولعلّ سرّ ذلك يكمن في اهتمام الكاتب بالأخلاق الإنسانيّة العامة. فمن الملاحظ أنّه كان بصدد أن يبرهن على أهمية وضرورة الأخلاق من منظور إنساني، يتّسع لمَدَيات ودوائر بحثيّة وراء المنظور الديني.

7

مدارج الكمال[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

هو أفضل الدين محمد بن حسن المَرَقي الكاشاني، الحكيم، والعارف، والشاعر الإيراني. كان يعيش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري والنصف الأول من القرن السابع الهجري. ويعرف بـ «بابا أفضل الكاشاني» (لقب بابا، في المصطلح العرفاني، يطلق على الأستاذ والشيخ المرشد). وقد ذاع صيته في إيران، بسبب ما ألّفه من تصانيف فلسفيّة باللّغة الفارسيّة، وكذلك الأشعار التي أنشدها بالفارسية أيضاً.

والملاحظ أنّ المصادر التي تُعنى بترجمة حياته قليلة، منها رسالة قديمة وموثّقة تحت عنوان **مختصر في ذكر الحكماء اليونانيين** يعود تاريخها إلى نهايات القرن السابع أو بدايات القرن الثامن الهجري، وقد ورد فيها أنّ الكاشاني هذا توفّي حوالي عام 610 هـ[2].

---

(1) بابا أفضل الدين محمد مرقي الكاشاني، **المصنّفات**، تصحيح مجتبى مينوي ويحيى مهدوي، طهران، شركت سهامي خاص، انتشارات خوارزمي، 1407 هـ، عدد الصفحات 52 صفحة، حجم وزيري.

(2) **مختصر في ذكر الحكماء اليونانيين والمليين**، فرهنگك ايران زمين، ج 7، ص 322 وص 323.

عدّه بعضٌ من الشيعة الإسماعيليّين استناداً إلى بعض العقائد المأثورة عنه (نظير قوله إن الله ليس بعلّة)، وإلى بعض الرباعيّات المنسوبة إليه في وصف الإمام علي (ع)، وكذلك نظراً إلى أنَّ تلميذه كمال الدين الحاسب كان إسماعيلي المذهب[1]. إلّا أنه ثمة شواهد أخرى موجودة في كتبه تدلّل على أنه سنّي المذهب[2]. تقع مقبرته في قرية «مرق» إلى الشمال الغربي من مدينة كاشان، وعلى بعد 42 كيلومتراً منها.

ويعدّ بابا أفضل من كبار شعراء الحكماء المسلمين، بل يمكن عدّه من أبرز الشعراء الذين أنشدوا الرباعيّات[3]. وقد ألّف كتبه باللغة العربيّة، ثم قام بترجمتها إلى الفارسية في ما بعد. وتعدّ رسالة **مدارج الكمال** من المصنّفات التي دُوّنت بالعربية أولاً ثم أعاد المؤلّف كتابتها بالفارسيّة. كما قام بترجمة بعض مصنفات الحكماء الأوائل، من العربيّة إلى الفارسيّة.

إنّ ما قام به بابا أفضل الكاشاني، من جهود في مجال ترجمة المفردات الفلسفيّة، واختيار ما يعادلها بالفارسيّة، يمكن مقارنته بالجهود التي بذلها الشيخ الرئيس ابن سينا في ترجمة كتاب **دانش نامه علائي**. نعم، ثمة فارق يمتاز به بابا أفضل وهو أنه كان يهتم كثيراً بالجوانب الجماليّة لدى استعماله المفردات. وفي هذا المجال نشير إلى ترجمته

---

(1) انظر: نصير الدين الطوسي، **مجموعة رسائل رسالة سير وسلوك**، ص 38.

(2) انظر: بابا أفضل كاشاني، **مصنّفات**، ص 297.

(3) أفضل الدين مرقي كاشاني، **رباعيات**، ص 51؛ وذبيح الله صفا، **تاريخ أدبيات در إيران**، ج 3، ص 426 ـ 427.

لرسالة **النفس** لأرسطو، والتي تُعدّ نموذجاً ممتازاً للترجمة الفلسفيّة والتأليف باللّغة الفارسيّة[1].

وقد أُثر عن المؤلّف جملة من الكتب في الشعر والنثر، منها: **رباعيّات بابا أفضل** (بالفارسيّة) باهتمام سعيد نفيسي، وديوان **الحكيم أفضل الدين محمد مرقي كاشاني** (بالفارسيّة)، تم طبعها بإشراف مصطفى فيض وآخرين. وفي النثر توجد جملة رسائل منها رسالة **عرض نامه** (بالفارسية)، ورسالة **في العلم والمنطق**، **وترجمة** رسالة **النفس** لأرسطو في الفلسفة، ورسالة **مدارج الكمال**، ورسالة **جاودان نامه** (بالفارسية)، ورسالة **جامع الحكمة**، ورسالة **ره انجام نامه**، ورسالة **ينبوع الحياة** في الأخلاق والعرفان، ورسالة **ساز وپيرايه شاهان پرمايه** في الفلسفة السياسيّة (بالفارسية).

وقد ذكرت لرسالة **مدارج الكمال** ثلاث تسميات. والملفت للانتباه أنّ التسميات الثلاث كلّها من وضع المصنّف؛ إذ إنّ أصل الرسالة ـ والتي كتبها باللغة العربية ـ سُمّيت بـ **مدارج الكمال**، وفي الترجمة الفارسية ـ والتي قام بها المؤلّف نفسه ـ سُمّيت في موضع بـ **گشايش نامه**، وفي موضع آخر بـ **فتوح هشت در**[2]. وليس هناك شك في نسبة هذه الرسالة إلى الحكيم الكاشاني.

2 ـ النسخ والطبعات

توجد نسخ عدّة من رسالة **مدارج الكمال**، منها النسخة الموجودة

---

(1) أنظر: محمد تقي بهار، **سبك شناسي**، ج 3، ص 162 ـ 163.

(2) انظر أفضل الدين الكاشاني، **مصنّفات**، ص 2 و3 وص 700.

في مكتبة «نور عثمانية» برقم (4931)، ويعود تاريخ هذه النسخة إلى عام 674 هـ، والنسخ الموجودة في مكتبة جامعة طهران بأرقام وتواريخ مختلفة: (9، 431) عام 1079 هـ، و(2، 431) عام 1303 هـ، و(9، 1036) عام 1104 هـ، وأخيراً توجد نسخة في المتحف البريطاني (Add.16832). وقد طبعت هذه الرسالة حتى اليوم مرتين، في عام 1371 هـ وعام 1407 هـ في طهران، وضمن مجموعة مصنفات المصنف تحت إشراف مجتبى مينوي ويحيى مهدوي.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

لم يطبع الأصل العربي للكتاب حتى يومنا الحاضر، وما هو موجود اليوم في المكتبات هو الترجمة الفارسيّة ـ ترجمة المصنّف نفسه ـ. وبحسب التتبّع الذي قمنا به في ما يخصّ الرسالة، لم نعثر على شرح أو دراسة نقديّة حولها.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

مع الأخذ بالاعتبار أنّ المصنّف لم يكن بصدد تأليف كتاب جامع في الأخلاق، وإنما كتب الرسالة بعنوان رسالة وعظ ونصيحة في **بيان الخير والسعادة في الدارين**، لذا لا يمكننا أن نتوقّع منها تغطية جميع البحوث والعناوين الأخلاقيّة. ولم يكن المؤلّف بصدد بحث القواعد الأخلاقيّة بالتفصيل وإنما حاول دراسة أسبابها وتحديد مناشئها. وفي أواخر الرسالة أورد قائمة غير شاملة بعدد من الفضائل والرذائل. ومع الأخذ بالاعتبار حجمها المختصر والغرض من تأليفها، يمكن القول إنها لا تخلو من فائدة.

خُصِّص ثلث الكتاب ـ أي حوالي خمسين صفحة ـ لبيان «حقيقة النفس وقواها». وقد شغل البابان الأول والثاني من الكتاب، واللذان يبحثان جملة بحوث تمهيدية، إلى جانب الإشارة إلى بعض مقدمات علم النفس الفلسفي، شغلا أكثر من نصف الكتاب. وما عدا الباب الثالث ـ إذ نُظِّم في أربعة فصول وتسع صفحات ـ لم تشغل بقية أبواب الرسالة أكثر من صفحتين أو ثلاث صفحات.

ومن النقاط التي يؤكّد عليها المصنّف ويحاول إبرازها هي «التضادّ الموجود بين الجسم والروح» بحيث إنّ تقوية أحدهما يؤدّي إلى تضعيف الآخر، وذلك في الباب الرابع والخامس من هذه الرسالة.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يتبيّن من خلال المقدّمة، أنّ الفكرة المحوريّة التي تنتظم على أساسها أبواب وفصول هذا الكتاب، هي «كمال الإنسان». وفي ضوء هذه الفكرة انتظمت أبواب الرسالة بالشكل التالي:

الباب الأول وقد حلّ محل المقدمة، بحث فيه المؤلّف كلاً من المواضيع التالية: حقيقة النفس وقواها، الطبيعة الجسمانية، النفس النباتية، النفس الحيوانية، والنفس الإنسانية.

الباب الثاني، ويعدّ تتمة لبحوث الباب الأول، بحث فيه المؤلّف «موارد افتراق الإنسان عن غير الإنسان».

الباب الثالث ويختص بتعريف ما هو المراد من «كمال النفس ونقصانها».

الباب الرابع، ويبحث «أسباب الكمال».

الباب الخامس، «في موانع الكمال».

الباب السادس في «معالم وآثار الكمال».

الباب السابع، يختصّ بالحديث عن «الطريق إلى تحصيل أسباب الكمال».

الباب الثامن، يبحث الغرض الذي من أجله دوّنت الرسالة وعلى أساسه تم اختيار عنوان الرسالة، وهو مدارج ومراتب الكمال.

في ضوء هذا السرد السريع لمفاصل الكتاب، يتّضح أنّ النسق والترتيب الذي عليه بحوثه، هو نسق وترتيب منطقي، ومقبول، ومناسب.

في مقدّمته على الرسالة، يشير المصنّف إلى خمس نقاط رئيسية هي: سبب تأليف الرسالة، معيار الكمال والنقصان، تعريف الفضائل والرذائل، تعريف السعادة والشقاء، علائم الكمال والسعادة والنقصان والشقاء.

وبعد ذكر المقدّمة يبدأ المؤلّف أبواب الرسالة الثمانية بالنحو التالي:

الباب الأول: ويختص ببحث «جوهر وحقيقة الإنسان». ويتضمّن ستة فصول. في الفصل الأول يحدّد المؤلّف مخاطبه وأن الكلام ليس مع أرباب الفضائل ولا مع المحرومين من الفضائل ـ ذوي المنكرات ـ، بل مع السالكين من أهل المرتبة الوسطى. وفي الفصل الثاني يبيّن مراده من النفس الإنسانيّة والتي بها قوام إنسانيّة الإنسان. ويرى أنّ علامة وجودها في الإنسان، هي ظهور الفضائل والخصال الحقيقيّة وآثارها على سلوكه وتصرّفاته. ويختصّ الفصل الثالث بإثبات الطبيعة الجسمانيّة للإنسان،

الطبيعة التي لاتفارق جسمه وتعدّ الواسطة في تأثير العوامل المؤثرة عليه.
الفصل الرابع جاء تحت عنوان «النفس الغاذية» ويتحدّث عن القوة النباتية للنفس الإنسانيّة. ويعتقد المؤلّف أنّ الله سبحانه وتعالى، أودع في الإنسان قوة أراد بها أن يصون بقاءه واستمراره على قيد الحياة. وهذه القوة تشتمل بدورها على قوى عدّة، هي: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والمميّزة، والدافعة، والغاذية، والمصوّرة. وهذه القوة والتي تسمّى «النفس النباتية»، بخلاف الطبيعة الجسمانية، تنفصل عن جسم الإنسان متى اختلّ المزاج.

ويختصّ الفصل الخامس بالحديث عن القوة الحيوانيّة للنفس الإنسانيّة. وهذه القوة مشتركة بين الإنسان والحيوان، وتشتمل بدورها على قوّتين: الأولى: قوة الشوق والإرادة والتي تسيطر على القوى الشهوانيّة والغضبيّة وتتحكّم بها. والأخرى: القوة المدركة والتي تتضمّن الحسّ الظاهر والحسّ الباطن. وتجدر الإشارة إلى أنّ القوى المحرّكة تعمل تحت إمرة القوى المدركة، وتأثير النفس يتمّ عن طريق القوى الحيوانيّة، فمنها يصل التأثير إلى «النفس النامية» ومنها إلى «الطبيعة الجسمانية»، ومن ثم تظهر الحركة في الجسم.

وأمّا الفصل السادس، فيتحدّث عن «النفس الإنسانية» والتي هي أشرف القوى، وحاكمة على جميعها، وهي ملاك الإنسانية. هذه النفس هي النور الإلهيّ، وهي منيرة بنفسها وسائر الأشياء تقتبس نورها منها.

ويجدر القول إنّ للوجود، من حيث الظهور والخفاء، أربع مراتب: مرتبة الهيولى (الإمكان)، ومرتبة الجسم (الوجود غير المدرك)، ومرتبة النفس، ومرتبة العقل. والنفس الحيوانيّة غير منفكّة عن النفس الإنسانية.

ومن هنا نستكشف أنّ رتبة النفس الحيوانيّة في الإنسان أعلى من الحيوانات.

الباب الثاني: يبحث هذا الباب في «الفرق بين الإنسان وغير الإنسان». ويتضمن فصلاً واحداً. في هذا الفصل يرى المؤلّف أنّ الإنسان عندما يصل في خصوصيّته إلى حد الكمال، يرجع إلى مبدأه. وهذا الذهاب والعود حركة فكرية ذات مراحل، بعضها روحاني وبعضها الآخر جسماني. والطالب للكمال يبدأ ـ أولاً بالعبور ـ من المنازل الجسمانيّة، ثم يمرّ بالمنازل الروحانيّة، فيدرك جيداً، وفي جميع منازل وجوده، أنّ المرتبة العقلانيّة للنفس هي أفضل المراتب وأرقاها، وأنها تستنير بالعلم الذي هو من مكاسب هذه النفس. ونتيجة لذلك يتسنى لها التمييز بين الأشياء كافة.

الباب الثالث: في بيان «خصوصيّات ومميّزات الإنسان في مراتبه بين طرفَيْ الكمال والنقصان». ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول: في الفصل الأول يشير المؤلّف إلى هذه النقطة، وهي أنّ السبب في أفضليّة الإنسان على سائر الحيوانات يكمن في أنّ الإنسان، علاوة على ما يتمتّع به من كمالات الحيوانات، يحظى بكمالات خاصة به. كما إنّ لكلّ نوع من الأجساد روحاً تناسبه، وأفضل الأرواح هي التي تحظى بأصلٍ أطهرَ وذاتٍ ألطف. وكل واحدة من الأرواح، سواء الإنسانية، أم الحيوانية، أم النباتية، إنما تكتمل اذا حظيت بما أمكنها من الكمالات.

ويتحدّث في الفصل الثاني عن «كمال الإنسان»، معتبراً أنّ كمال الإنسان واحد، وعليه فلا يتضمّن أقساماً ولا مراتب. وهذا بخلاف جانب النقصان، إذ إنّ له مراتب حميدة وأخرى غير حميدة. ثم يعدّد المؤلّف

مراتب الناقصين غير الحميدة. وفي الفصل الثالث يتناول «المراتب الحميدة للناقصين» ويصفها بأنها مراتب لعامة الناس ممن يُرتجى فيهم الصلاح والفوز، من جهة أنّ النفس العاقلة لديهم ما زالت هي المسيطرة على قواهم الحيوانيّة. وفي الفصل الرابع يذهب إلى أنّ أعلى مرتبة من المراتب الحميدة للناقصين، تتعلّق بالأخيار والأبرار من حيث العلم، والعمل، والأخلاق. ولا يصل هذه المرتبة إلّا من اتّقدت روحه بالنور الإلهي، فأضحت كشعاع الشمع الذي ضاع بين أنوار الشمس المتوهجة. وهذه غاية الغايات ومنتهاها.

الباب الرابع: يُعنى هذا الباب ببيان «أسباب الكمال الخاص بالإنسان»، ويضمّ فصلاً واحداً يبحث في مسألة كون الشيء يتقوّى إذا صادف شيئاً شبيهاً له ومن سنخه، ولا يضعف إلّا إذا صادف شيئاً مخالفاً له ومن جنس غير جنسه. وبما أنّ المُدرِك لا يستقوي بغير المدرَك، فكلّ شيء يعين النفس على أن تصل إلى مرحلة عالية من الإدراك، بإمكانه أن يكون مساعداً للنفس في وصولها إلى الكمال.

الباب الخامس: في «الآفات التي تعترض كمال النفس الإنسانية»، ويضمّ فصلاً واحداً يبحث فيه المؤلّف موانع الكمال والأمور التي تخالف جوهر النفس ولاتتناسب معها ولا تشابهها، وهي الجسم والأحوال الجسمانيّة.

الباب السادس: يعقد فيه المؤلّف فصلاً في «علائم الكمال»، معتقداً أنّ ذكر هذه العلائم سيكون سبباً في معرفة علائم النقصان. ويرى أنّ علامة الإنسان الكامل هي أن تصل جميع قواه النباتيّة والحيوانيّة ـ تحت إمرة العقل ـ إلى مرتبة الاعتدال.

الباب السابع: ويضم فصلاً واحداً، يبحث المؤلّف من خلاله «الطريق إلى تحصيل أسباب الكمال». إذ يقسّم أسباب الكمال إلى قسمين: القسم الأول، يبحث في الأسباب والعوامل التي تؤهّل الإنسان لاكتساب العلم، وتمنحه الصلاحيّة لأن يكون عالماً. والقسم الآخر، يُعنى ببحث الأسباب المولّدة للعلم والمعرفة، أو قل التي تجعل الإنسان عالماً ومدركاً بالفعل، بعدما اكتسب أهليّة التعلم وصلاحيّة إدراك الحقائق. ثم يعرض لبيان سبل تحصيل الأهليّة، والاستعداد لاكتساب العلم، فيرى أنها عبارة عن تهذيب النفس، واجتناب الخصال الذميمة التي يتّصف بها غير الكُمّل، والعمل على اكتساب مكارم الإنسان الكامل. وأمّا السبل لتحصيل أسباب العلم والمعرفة، فتكمن في الاجتهاد في تحصيل العلوم الأولى، والتأمّل في أحوال النفس.

الباب الثامن: هو الباب الأخير للرسالة، يضم فصلاً واحداً في «فائدة العلم». وهو من مختصات أفراد النوع الإنساني، وهذه الخصوصيّة موجودة لدى الإنسان؛ إمّا بالفعل أو بالقوة. ولكلّ واحد من الشقّين مراتب. وقد أطلق المصنّف على مراتب العلم عنوان «مدارج الكمال». إذ يَعُدّ سبع درجات؛ أعلاها يتعلّق بالعالِم الكليّ للكلّيات، وهو مقام اتحاد العقل، والعاقل، والمعقول، والوجود التام، واللّذة المستدامة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

المنهج الذي اتّبعه بابا أفضل في رسالته **مدارج الكمال** هو المنهج العقليّ ـ الفلسفيّ. وتحظى بحوث الكتاب بنظام معقول ومنطقي. وقد تمتّ الاستعانه بالأدلّة العامة في مقام دراسة وإثبات الموضوعات

الأخلاقيّة أيضاً. واستفاد المؤلّف، في مقدّمات هذه الاستدلالات العقليّة، من الوجدانيّات، والمسلّمات، والتجريبيّات في الأغلب.

المنهج التربوي الذي تبنّاه المؤلّف في هذه الرسالة، هو المنهج المعرفي. نعم، ربما أمكننا إعادة إنتاج بعض التعاليم العمليّة والسلوكيّة من خلال التأمّل في مطاوي بحوث الكتاب.

7 ـ أدبيّات الكتاب

من الخصائص التي تميّز بها بابا أفضل الكاشاني، أنّ أغلب كتبه كُتبت في البدء بلغة فارسيّة سلسة. وفي بعض الموارد ـ نظير هذه الرسالة ـ كتبها بالعربيّة، ثم ترجمها في ما بعد إلى الفارسيّة[1].

كما إنّ كتابته الفارسيّة، بخلاف نصير الدين الطوسي وابن سينا لم تكن نزولاً عند رغبة الآخرين، بل بوحيٍ من إرادته وانطلاقاً من دوافع شخصيّة بحتة، رجح فيها الكتابة بالفارسيّة. والأسلوب الذي اتبعه أسلوب ناضج وسلس، يقترب من أسلوب القدامى. ومن مميّزات أسلوبه اعتماده الجمل القِصار، وتكرار الكلمة عند الضرورة، وقلّة الاستفادة من الضمير ومن المفردات المترادفة. وهي من خصائص النثر القديم. والرسالة عموماً تحتوي على نثر جميل ومفردات جزلة وتراكيب لغويّة ذات إيقاعات موسيقيّة. وبكلمة، الرسالة تعكس اهتمام المؤلّف الوافر بالجانب الجمالي في استعماله للمفردات. ويبقى أن نقول إنّ اهتمامه بالترجمة، وحرصه على إيجاد بدائل فارسيّة للمفردات الفلسفيّة، وأيضاً

---

(1) أفضل الدين محمد مرقي، **مصنّفات**، ص 671 و700.

الطابع القديم الذي يمتاز به قلمه، كلّ ذلك يجعل القارئ المعاصر يعاني كثيراً من التعقيدات في فهم مُراده.

إنّ بابا أفضل، وعلى الرغم من أنه يُعدُّ من كبار شعراء الحكماء، ومن أبرز من أنشد في الرباعيّات، إلّا أنه في أغلب كتاباته العلميّة ـ بما فيها هذه الرسالة ـ لاتجد شيئاً من الشعر والحكاية. نعم، في كثير من الموارد، استخدم صناعة التشبيه والتنظير من أجل إيصال مراده إلى القارئ وإفهامه إياه..

8 ـ التقييم النهائي

إذا أخذنا بالاعتبار صغر حجم الرسالة ومحدوديّة الموضوع الذي تعالجه، يمكن القول إنّها تحظى بنظام منطقيّ وترتيب مناسب، في ما بين الأبواب والفصول. أضف إلى ذلك أنّ المصنّف قد أظهر براعة فائقة على صعيد الاستدلال والإقناع، ما يسمح بتصنيف هذا العمل في عداد الكتب المتقنة في تراث المدرسة الأخلاقيّة الفلسفيّة.

8

أخلاق ناصري[1] (بالفارسيّة)

1 ـ نبذة مختصرة عن المولّف ومولّفاته

أبوجعفر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، المشتهر بـ «الخواجة نصير الدين الطوسي». وُلد عام 597 هـ في مدينة طوس. وأصل أسرته من منطقة «جهرود» من نواحي مدينة قم، لكنها هاجرت إلى طوس وفيها ترعرع نصير الدين فعُرف بالطوسي. لا تتوفر معلومات كثيرة عن فترة طفولته وشبابه، سوى أنه درس المقدّمات عند والده الذي كان من تلامذة فضل الله الراوندي ونبغ في جميع العلوم العقلية والنقلية الرائجة في عصره.

أمضى مدّة من عمره في منطقة «قُهستان» في خدمة الدولة الإسماعيليّة، فألّف هذا الكتاب ـ في تلك الفترة ـ وكان عمره يومذاك 36 عاماً. وبعد هجوم هولاكو خان المغولي على إيران، تولى الوزارة له

(1) الخواجة نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ)، **أخلاق ناصري**، تصحيح وتنقيح ومقدّمة مجتبى مينوي وعلي رضا حيدري، طهران، شركة نشر الخوارزمي العامة: 1397 هـ، مجلّد واحد، عدد الصفحات 344 صفحة (مع مقدّمتين في 32 صفحة) مع جدول في اختلاف النسخ، مع تعليقات وفهرس للأشعار وللآيات والأحاديث، مع قاموس فارسي وعربي، مع قاموس اصطلاحات، وقاموس اصطلاحات فارسي ـ انكليزي، وفهرس بالأسماء، وفهرس بالمصادر، وفهرس بالموضوعات. الكتاب مع ملحقاته يقع في 620 صفحة من القطع الوزيري.

وذهب معه إلى بغداد. ومن أبرز إنجازاته الحفاظ على مكتبة قيمة من الكتب، أثناء فتح بغداد على يد المغول، إذ مانع إتلافها. وكذلك تأسيس مرصد كبير في مدينة «مراغة» عرف باسمها، وتأسيسه لمكتبة عظيمة ضمت أربعمائة ألف كتاب.

توفّي نصير الدين الطوسي يوم عيد الغدير لعام 672 هـ في بغداد، ودفن في مشهد الإمام موسى الكاظم (ع) حسب وصيّته. وقد ترك تراثاً قيّماً، إذ عدّ صلاح الدين الصفوي ـ في كتابه **الوافي بالوفيات** ـ ما ألّفه نصير الدين 40 مؤلّفاً، فيما سجّل له بروكلمان 56 كتاباً وأمّا جورج سارش فقد ذكر أنّ عدد مؤلّفاته 64 كتاباً[1].

ومن أبرز مولّفات الطوسي: **تجريد الاعتقاد في علم الكلام**، وقد قام لفيف من كبار العلماء، نظير العلّامة الحلّي والملاّ علي القوشجي، بشرح هذا الكتاب، ومن مؤلّفاته أيضاً **التذكرة النصيرية** في علم الهيئة، **أساس الاقتباس** في علم المنطق، و**تحرير أقليدس** في الهندسة، و**تحرير المجسطي** في الهيئة، وكتاب **شرح الإشارات** في المنطق والحكمة. وثمة كتب في مجال الأخلاق أُثِرَث عن الخواجة، هي كالآتي: **آداب المتعلمين**، و**أوصاف الأشراف**، و**أخلاق محتشمي**، و**أخلاق ناصري**[2].

والظاهر أنّ الخواجة، في بادئ الأمر، كان بصدد ترجمة كتاب

---

(1) محمد تقي مدرسي رضوي، **أحوال وآثار نصير الدين**، ص 338.

(2) انظر: الخوانساري، روضات الجنات، ج 6، ص 300؛ صلاح الدين خليل الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 1، ص 179؛ نصير الدين الطوسي، **أخلاق ناصري**، مقدّمة مجتبى مينوى، ص 14.

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق إلى اللّغة الفارسيّة، ثم بدت له فكرة أن يعيد تحرير ذلك الكتاب باللغة الفارسيّة، ويضيف إليه بابين في الحكمة العمليّة وهما: تدبير المنزل وتدبير أمر الدولة (سياسة المدن). وبالفعل أنجز هذا المشروع عام 633 هـ، إلّا أنه عاد، بعد أكثر من عشرين عاماً وبعدما أفلت من قبضة الإسماعيلية، ليعيد النظر في الكتاب ويضيف إليه بعض البحوث (من قبيل، مراعاةِ حق الوالدين، في المقالة الثانية ص236). ويضع له مقدّمة جديدة، يعتذر فيها مما صدر منه من المدح والثناء للإسماعيلية، متذرّعاً في ذلك بالاضطرار. ولمّا كان ناصر الدين عبد الرحيم بن منصور، حاكم قهستان الإسماعيلي المذهب، هو الذي اقترح على الخواجة فكرة تأليف هذا الكتاب، لذا سمّاه بـ **أخلاق ناصري**. ولا يوجد أدنى ريب في انتساب الكتاب إلى مؤلّفه نصير الدين الطوسي.

2 ـ النسخ والطبعات

يوجد نسخ خطّية عدّة لكتاب **أخلاق ناصري** في مكتبات عدّة داخل إيران وخارجها. ومن أقدم النسخ النسخة المحرّرة عام 676 هـ، والتي شاهدها الشيخ آقا بزرگ الطهراني في النجف في مكتبة محمد علي الخوانساري. وتضم هذه النسخة ـ مضافاً إلى مقدّمة المؤلّف الثانية ـ المقدّمة الأولى التي كتبها في تحريره الأول. ومن النسخ الخطّية الأخرى، يمكن الإشارة إلى النسخة الموجودة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي (برقم 8037، القرن السابع الهجري)، والنسخة الموجودة في المكتبة الوطنيّة بطهران ـ كتابخانه ملي ـ (برقم 360ف، القرن السابع الهجري).

وقد طبع الكتاب مرّات عدّة، منها طبعة جلال الدين همايي (طهران، عام 1360 هـ). والطبعة المحقّقة من قبل مجتبى مينوي وعلي رضا حيدري (طهران عام 1397 هـ). كما طُبع مع مقدّمة للباحث بزرگك علوي (طهران عام 1401 هـ).

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

حظيَ كتاب **أخلاق ناصري** بشروح وتلخيصات عدّة، نشير هنا إلى بعض منها: **مفتاح الأخلاق** شرح للكتاب بقلم عبد الرحمن بن عبد الكريم برهان بوري، كتبه وقدّمه لملك الهند أورنك زيب. **توضيح الأخلاق**، لعلاء الدين حسين آملي وبأمر من الملك الإيراني «شاه صفي» أعاد فيه صياغة كتاب **أخلاق ناصري** بعبارات إيضاحيّة، وطبع في عام (1051 هـ). وبدوره قام أبو المعالي العاملي، أيضاً، بعمل من هذا القبيل للسلطان عبد الله قطب شاه وسماه **توضيح الأخلاق عبد الله شاهي**. وقام سيد عليم جالندهري بكتابة **شرح على أخلاق ناصري** بعنوان **شرح أخلاق ناصري**. و«محمد سعد اللّه» له شرح أيضاً بعنوان **حديقة اللّغة**. ثمة شرح آخر لسيد علي محمد لكهنوي بعنوان **شرح أخلاق ناصري**. وأخيراً يوجد كتاب يحمل عنوان **مهذب الأخلاق** مؤلّفه مجهول. ولكن الملاحظ على هذا الكتاب أنه هو نفسه كتاب **أخلاق ناصري**، إلّا أنّه توجد تغييرات طفيفة في الباب الثالث؛ إذ تم تقليل عدد المقالات من ثمان مقالات إلى أربع.

وقد ترجم «ويكنز» كتاب **أخلاق ناصري** إلى اللّغة الإنكليزية، وطبع عام 1964 م. في لندن ضمن مجموعة كتب أطلق عليها عنوان **التراث الإيراني**. وقد أفاد «بزرگك علوي» من هذه الترجمة في طباعة الكتاب،

ومن هنا قام بإضافة مسند المفردات والمصطلحات، من الفارسيّة إلى الإنكليزية ومن الإنكليزيّة إلى الفارسيّة.

وثمة ترجمة إنكليزية أخرى لهذا الكتاب تحت عنوان The Nasirean Ethics، طبعت عام 1964 م في لندن. كما قامت وزارة الثقافة بطهران بطباعة مختارات من هذا الكتاب عام 1360 هـ تحت إشراف الأستاذ جلال همايى.

وقد اقتفى جلال الدين الدواني أثر الخواجة في كتابه **أخلاق جلالي، لوامع الإشراق**، وذلك من خلال الحفاظ على الهيكليّة والتركيبة نفسها الموجودة في كتاب الخواجة ـ **أخلاق ناصري** ـ، مع فارق بين الكتابين، إذ حذف جلال الدين الهمايى أبواباً عدّة كانت موجودة في كتاب الخواجة.

وقد بحث باب الأخلاق، وباب تدبير المنزل، وباب سياسة المدن في ثلاثة لوامع، (تجدر الإشارة إلى أنه قسم كتابه إلى لوامع عدّة، وقسم كلّ لامع إلى لمعات عدّة أو لمع)، لكنه في كلّ باب قام بحذف بعض المحاور. ففي الباب المختص بتهذيب الأخلاق، تم حذف القسم الأول من **أخلاق ناصري** والذي يبحث في المقدّمات. وأمّا القسم الثاني ـ أي المقاصد ـ فقد تكرّر بحذافيره. وتختلف اللّمعة الأولى واللّمعة الثانية، عن الفصلين الأول والثاني من كتاب **أخلاق ناصري** اختلافاً يسيراً. كما يختلف الفصل السادس من كتاب **أخلاق ناصري** عن اللّمعة السادسة من كتاب **أخلاق جلالي**. وأمّا بقيّة الفصول واللّمعات، فجاءت متطابقة بعضها مع بعضها الآخر.

من جانب آخر، فإنّ الباب المعنون بـ «تهذيب الأخلاق» من رسالة

جام جهان نما أو ما يدعى بـ **أخلاق منصوري** لغياث الدين منصور الدشتكي الشيرازي، هو أيضاً جاء تلخيصاً لكتاب **أخلاق ناصري**.

ثمة رسالة أخرى تحت عنوان «**كليد سعادت**»، «الباب السابع عشر من **تراثيات الأدب الفارسي**»، هي أيضاً تلخيص لكتاب «**أخلاق ناصري**» بقلم السيد صمد موحد، طبعت عام 1416 هـ من قبل دار «انتشارات سخن».

تعرّض السيد تقى دانش پژوه في تقديمه لكتاب **أخلاق محتشمي**، والذي ضمّنه بحثاً تحقيقياً قيّماً، إلى كتاب **أخلاق ناصري**. وقام بالتعريف بعدد كبير من نسخ هذا الكتاب، إلى جانب الترجمات، والشروح، والتعليقات، والاقتباسات، والمعالجات المحاكيه له. ونحن نعرض صفحاً عن الإشارة إليها وذلك توخّياً للاختصار، ولأن أكثر هذه النسخ والأعمال غير متوفّرة، ونرجع الباحثين إلى تلك المقدمة[1].

ويمثّل كتاب **أخلاق ناصري** آخر المحاولات التي تبتني أساساً على الطرح الفلسفي الخالص في مجال علم الأخلاق، بحيث أنك قلّما تجد محاولة متأخرة عن هذا الكتاب، قام بها علماء الأخلاق، تعتمد هذا الطرح وتأتي في هذا الاتجاه، خصوصاً في ما يتعلّق بتقسيم الحكمة العمليّة إلى: الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن، وتخصيص فصول مستقلة لبحثها. نعم، ثمة نموذجان لمحاولة من هذا القبيل، جاءت بعد كتاب **أخلاق ناصري** وهما كتاب **روضة الأنوار عباسي** للمحقق السبزواري وكتاب **أخلاق جلالي** بقلم المحقق الدواني ولا تجد

(1) انظر: نصير الدين الطوسي، **أخلاق محتشمي**، ص 11 ـ 20.

ثالثة لهما. وقد استفاد المحقّق نصير الدين الطوسي في تأليفه لهذا الكتاب من مصادر عدّة، بما فيها كتاب **تهذيب الأخلاق** لمسكويه[1].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

الملاحظ في هذا الكتاب ـ وكما هو المنهج المتّبع لدى سائر كتب الأخلاق الفلسفيّة ـ، أنه قلّما بحث العناوين المتعلّقة بأخلاق العبوديّة. وأمّا في مجال الأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة، والأخلاق الأسريّة، فقد اشتمل على مجموعة كاملة نسبياً من الموضوعات المبحوثة، فهو أكثر تغطية مما عليه **تهذيب الأخلاق** لمسكويه في ما يتعلّق بمعالجة أمراض النفس؛ مثلاً ترى تفكيك أمراض القوة النظريّة، والقوة الشهويّة، والقوة الغضبيّة. وفي المقابل لا تجد عناوين بحثيّة تتعلّق بأمراض القوة النظريّة في كتاب **تهذيب الأخلاق**.

وقد بحث كتاب **أخلاق ناصري** في الأبواب الثلاثة الأولى، الحكمة العمليّة في 300 صفحة، تضمّنت الصفحات الخمسين الأولى مقدّمات الكتاب وجملة من المبادئ والمقدّمات النظريّة التي لا بد من تحريرها أولاً عند مداخل علم الأخلاق. ومن ثم تناول مقاصد الأخلاق وسياسة المدن في 100 صفحة، وتدبير المنزل في 40 صفحة. وبنظرة عامة يمكن القول إنّ ثمة توازناً نسبياً بين بحوث الكتاب، فلا تجد أثراً لإطناب مُملٍّ أو اختصار مُخلّ في الموضوعات التي بحثها الكتاب تقريباً.

5 ـ هيكلية الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

من المهم القول إنّ الباب الخاص بتهذيب الأخلاق، من كتاب

---

(1) المصدر نفسه، ص 3 ـ 9.

أخلاق ناصري يقترب كثيراً من كتاب **تهذيب الأخلاق** لمسكويه، سواء من جهة الهيكليّة وخطة الكتاب أم من جهة المواضيع والمعالجات المطروحة، وإن كان الخواجة قد قام بتقديم وتأخير بعض المواضيع. وعموماً فإنّ منهجيّة الكتاب تكشف عن ذوق سليم أعمله الكاتب في تدوينه للكتاب. فمثلاً، بَحْثُ الخير والسعادة الذي بحثه مسكويه بصورة مستقلّة في المقالة الثالثة من كتابه، تعرض له الخواجة الطوسي ضمن الباب المخصّص بالمبادئ والمرتكزات النظريّة لعلم الأخلاق، بعدما بحث موضوع كمال النفس. نعم، ثمة ملاحظة وهي: أنه لمّا كان الكثير من المواضيع المبحوثة ضمن الفصل السابع، يتعلّق بالعدالة الاجتماعيّة وتصرّفات الحكام، يبدو من المناسب كثيراً أن ينقل هذا العنوان إلى المقالة الثالثة التي تبحث موضوع «سياسة المدن».

في هذا الكتاب يعقد المؤلّف مقدّمة موجزة، يعرّف فيها الحكمة. ويبحث الأقسام الثلاثة للحكمة العمليّة (وهي الأخلاق الفرديّة، تدبير المنزل، وسياسة المدن) في ثلاث مقالات.

تضمّ المقالة الأولى للكتاب المبادئ والأصول النظريّة (سبعة فصول) والمقاصد (عشرة فصول). والملاحظ أنّ القسم الأعظم منها هو في الواقع ترجمة وتلخيص لكتاب مسكويه، تعرض فيه إلى تعريف «النفس وقواها». ومن ثم يعالج مقولات نظير: الكمال، والخير، والسعادة، بالنسبة إلى الإنسان. وفي خصوص المقاصد، يقوم المؤلّف بتعريف خلق، وفضائل، ورذائل كلّ قوة من قوى الإنسان، وتعريف العدالة. كما يتطرّق إلى مراتب السعادة وكيفيّة الحفاظ على صحة النفس وسلامتها ومن ثم يعرض لبيان طرق وأساليب معالجة أمراض النفس.

وقد حاول في تنظيمه لهذه المقالة، أن يلتزم بالنظام والترتيب العام نفسه الذي التزمه ابن مسكويه في كتابه. لكن ثمة موارد جزئيّة أعمل فيها الخواجة ذوقه الخاص، وخرج من النظام العام الذي التزمه. كما لم يتقيد بترجمة عبارات مسكويه، إذ أضاف إليها بعض الإيضاحات وبعض الحكايات والاستشهادات.

وفي المقالة الثانية التي تضمّ خمسة فصول، عالج فيها المؤلّف قضايا من قبيل: الحاجة إلى المنزل، أركان المنزل، تدبير الأموال والأقوات، وتدبير الأهل والأولاد والخدم والعبيد.

الفصل الرابع من هذه المقالة والذي يُعنى بتدبير الأولاد، يمثّل ترجمة حرّة لبحث تربية الأولاد الموجود في كتاب ابن مسكويه.

وتختص المقالة الثالثة من الكتاب ببحث «سياسة المدن» وتتضمّن ثمانية فصول، الفصل الأول في احتياج الخلق إلى المدينة وبيان ماهيّة وفضيلة هذا النوع من العلم.

الفصل الثاني في فضيلة المحبة.

الفصل الثالث في أقسام المجتمعات الإنسانيّة، وبيان أحوال المدن (المدن الفاضلة وغير الفاضلة ـ الجاهلة، والفاسقة، والضالة، وغير ذلك).

الفصل الرابع في سياسة الملك وآداب الملوك.

الفصل الخامس في سياسة الخدم وآداب أتباع الملوك.

الفصل السادس في فضيلة الصداقة وكيفيّة معاشرة الأصدقاء.

الفصل السابع في كيفيّة معاشرة أصناف الخلق.

الفصل الثامن في وصايا أفلاطون.

تجدر الإشارة إلى أنّ الفصل الثاني (المحبة)، والفصل السادس (الصداقة)، من هذا القسم، هما أساساً ترجمة للمقال الخامس من كتاب **تهذيب الأخلاق** لمسكويه.

6 ـ منهجيّة الكتاب

يشترك كتاب **أخلاق ناصري** مع كتاب **تهذيب الأخلاق** لابن مسكويه، في المنهج بشكل تام. وعليه فما قلناه مسبقاً في كتاب مسكويه، ينطبق بالكامل على هذا الكتاب أيضاً.

7 ـ أدبيات الكتاب

يعدّ الكتاب من أقدم كتب الخواجة التي وصلتنا. وقد اعتمد في بيانه على أسلوب كتاب كليلة ودمنة، بقلم نصر الله المنشي، وكان موفّقاً في أسلوبه هذا إلى أبعد الحدود. وكان تدوينه بهذا الأسلوب قبل تأليف كتاب **گلستان** للشاعر الإيراني المعروف سعدي الشيرازي[1]. فالكتاب عموماً يتضمن نصّاً علميّاً متقناً، وفي الوقت نفسه يبدو ممتعاً وشيّقاً لمن يجيد الفارسيّة ونصوصها الأدبية القديمة. ويعرف الاصطلاحات العلميّة والفلسفيّة، إذ قلّما تجد فيها مفردات مهجورة أو مستغربة. ونظراً للطابع الفلسفي للكتاب، نجد أنّ استناده إلى الآيات والروايات قليل جداً. نعم، ثمة موارد قليلة زاد فيها الخواجه الطوسي آية أو رواية على ما كان قد أورده مسكويه في كتابه **تهذيب الأخلاق**، ومع ذلك لم يتجاوز مجموع الآيات والروايات ـ في الكتاب ـ الخمسين مورداً.

---

(1) انظر: نصير الدين الطوسي، **أخلاق ناصري**، ص 16 و17.

توجد موارد أفاد فيها الخواجة من الأشعار الفارسيّة والعربيّة، فأضفى بذلك على الكتاب مسحة من الطرافة. كما إنّ عدد الحكايات والتشبيهات ليست كثيرة ويغلب على بحوث الكتاب اللّغة العلميّة.

8 ـ التقييم النهائي

كتاب **أخلاق ناصري** أشبه ما يكون بترجمة لكتاب مسكويه. فقد ضمّ الخواجة قدراته العلميّة إلى قدرات مسكويه، ليخرج إلى النور جهد علميّ قيّم. وأهمّ ما يلاحظ على الكتاب على صعيد نقد المضمون، كلامه المثير للاستغراب في خصوص آداب تناول الخمر، إذ لا يتناسب ومكانة الخواجة العلميّة ومقامه الديني. وهو بذلك كشف عن مدى تأثّره بالكتب اليونانيّة في ذلك.

ويعتقد الباحث «جي. أم. ويكنز» أنّ الكتاب عبارة عن محاولة دمج وتلفيق بين التراث الفلسفي والعلمي اليوناني، من جهة، وبين موقف الإسلام، في ما يتعلّق بالإنسان والاجتماع البشريّ والعالم من جهة أخرى. وقد كانت المحاولة حاذقة وناجحة. وأمّا المحصّلة النهائيّة التي خرج بها الكتاب فهي تركيب يغلب فيه طابع الأخلاق الإسلاميّة على الأخلاق اليونانيّة[1].

(1) **دانشنامه ايران واسلام**، ج 10، ص 1345.

9

لوامع الإشراق في مكارم الأخلاق (أخلاق جلالي)[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

جلال الدين محمد بن أسعد الدواني[2] (المعروف بالعلّامة الدواني)، من علماء القرن التاسع الهجريّ (ت 907 هـ). تتلْمَذ على أبيه في علوم العربيّة. وأمّا في العلوم الدينيّة والحكمة فقد حضر درس الملاّ محيي الدين الأنصاري وهمام الدين صاحب كتاب **شرح الطوالع** في مدينة شيراز بإيران. والملاحظ أنّ سيد شريف الجرجاني ينقل آراءه باحترام وتقدير، كما حظيت كتبه ومصنّفاته باهتمام مختلف العلماء والمفكّرين، ويعدّ بعض تلامذته، نظير جمال الدين محمد الاسترآبادي وأمير حسين اليزدي شارح **كتاب الهداية**، من رواد وأئمة البحوث العقليّة.

وقد نبغ العلاّمة الدواني في كثير من العلوم، بما فيها المنطق، والحكمة، والأخلاق. وله مؤلّفات عدّة، أكثرها في مجال المنطق

---

(1) جلال الدين محمد بن أسعد الدواني (ت 907 هـ)، **لوامع الإشراق في مكارم الأخلاق**، المشتهر بـ«أخلاق جلالي»، الهند، لكنهو، بدون تاريخ، 350 صفحة، قطع وزيري، طبع حجري.

(2) نسبة إلى دوان، إحدى قرى كازرون من مدن شيراز.

والفلسفة والكلام، منها: **نور الهداية**، **شرح العقائد العضدية**، **أنموذج العلوم** و**تنوير المطالع**. أضف إلى ذلك أنّ له العديد من التعليقات على **شرح التجريد للقوشجي**. ويُذكر أنّ الدواني كان في البدء شافعيّاً[1]، لكنه اختار مذهب أهل البيت وانتقل إلى التشيّع في النهاية[2].

2و3 ـ النسخ والطبعات، أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

توجد نسخ خطيّة كثيرة لكتاب **أخلاق جلالي** وحسب التتّبع الذي قام به صاحب **الذريعة**. فإن أقدم نسخة تعود إلى القرن التاسع، أو العاشر. ومن بين النسخ يمكن الإشارة إلى النسخة الموجودة في مكتبة الإلهيّات (برقم 281 د.)، ونسخة مكتبة فرخ مشهد (برقم 148). وحتى يومنا هذا، فقد طبع الكتاب مرّات عدّة، أغلبها في الهند[3].

ومن الشروح المهمة، شرح مولوي محمد هادي علي (من البداية وحتى أواخر اللامع الأول)، وقام مولوي محمد عبد الغفور بشرح باقي الكتاب ويضاهي حجم هذا الشرح حجمَ الكتاب نفسه ويزيد.

هذا الكتاب، كما هو كتاب **أخلاق محسني**، كان قد أُقرّ كمنهج دراسي في المدارس الهندية حتى جلاء بريطانيا عن الهند واستقلالها. ويعدّ أول كتاب مهمّ في الأخلاق الإسلاميّة استطاع أن يلفت أنظار

---

(1) يعلم من بعض فقرات الكتاب، أن الكتاب أُلّف قبل تشيّع مؤلّفه، ومع ذلك فإنّ الكتاب يطفح بالحب والولاء للإمام علي (ع) قياساً بسائر الصحابة.

(2) محمد علي بن محمد طاهر مدرس، **ريحانة الأدب**، ج 2، ص 232؛ الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 2، ص 239؛ آقا بزرگ الطهراني، **الذريعة**، ج 18، ص 359.

(3) آقا بزرگ الطهراني، مصدر سابق، ج 18؛ **فهرست كتابهاى چاپي فارسى**، ج 1، ص 194.

الباحثين الغرب. وبواسطته تعرّف الكثير من الغربيين على كتاب **أخلاق ناصري** المهم. وقد أعيدت طباعة الترجمة الإنكليزية لتامبسون، في لاهور عام (1895 م).

وقامت المؤسّسة الشرقية للترجمة، في لندن، بتقديم هذه الترجمة على أنها تمثّل الفلسفة العمليّة للمسلمين. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الترجمة عُدّت من الدراسات العلمية الإنكليزية الممتازة في بدايات القرن التاسع عشر[1].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

الكتاب غنيّ في مجال «الأخلاق الفرديّة» و«الأخلاق الأسريّة والاجتماعيّة» نسبياً، ونظراً إلى المنهج الفلسفي الذي اختطّه وتأثّره العميق بكتاب **أخلاق ناصري** للخواجة الطوسي. والذي يتميّز باتجاهه الفلسفي في التعاطي مع مقولة الأخلاق؛ لذا لا نجد اهتماماً يذكر بالموضوعات المتعلّقة بأخلاق العبوديّة.

يشتمل الكتاب، كما هو كتاب **أخلاق ناصري**، على الأقسام الثلاثة للحكمة العمليّة. ويظهر من خلال حجم المساحة التي خصّصها للّوامع الثلاثة، أنّ المصنّف بذل أكبر اهتمامه على الأخلاق الفرديّة ومن ثم على سياسة المدن.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يبلغ عدد صفحات كتاب **أخلاق جلالي** في الطبعات المحشاة 350

(1) انظر: **دانشنامه ايران وإسلام**، ج 10، ص 1343.

صفحة. ويضم تمهيداً ومقدمة وثلاثة لوامع في تهذيب النفس، وتدبير المنزل، وسياسة المدن.

في كلمة التمهيد والتي بلغت عشرين صفحة، ذكر المصنّف أنّ الباعث على تأليفه لهذا الكتاب هو امتثال أمر السلطان حسن بك بهادر خان، في إصلاح وتهذيب كتابٍ أخلاقي ـ كان قد استأثر باهتمامه، ولم يذكر اسم الكتاب ـ. ثم يذكر أهم الإشكالات التي يعاني منها ذلك الكتاب، نظير اشتماله على عبارات غير متعارفة، وأشعار غير مأنوسة، وعدم الترتيب في طرح المواضيع، وعدم الإحاطة بجميع أركان علم الأخلاق والسياسة. ويقرّر المصنّف أنّ هدفه من تأليف هذا الكتاب هو تقديم كتاب يتضمّن أصول الحكمة العمليّة. وعلاوة على ذلك، يستند في طرحه إلى أدلّة وشواهد مقتَبَسة من الآيات والروايات، ورؤى الحكماء الإلهيّين، وذوقيات أهل الكشف والشهود. كما يؤكّد المؤلّف حرصه على أن يؤمّن الكتاب المقاصد والأغراض التي جاء من أجلها.

ثم يضع مقدّمة، في ثلاثين صفحة، تضمّ أربعة فصول ـ تحت عناوين: مطلع، تنوير، تبصرة وكشف غطاء ـ، يبحث فيها: «المكانة السامية للإنسان في عالم الوجود»، «سبل تحصيل الكمال الإنساني»، «تقدّم تهذيب النفس على تحصيل العلم»، «إمكانيّة تغيير الخلق».

اللامع الأول (يبلغ ما يقارب 140 صفحة). ويشتمل على عشر لمعات، يتناول المؤلّف من خلالها مواضيع في تهذيب الأخلاق، هي:

1 ـ حصر المَلَكات الأخلاقيّة في: الحكمة، والعدالة، والشجاعة، والعفة.

2 ـ تعريف الفضائل الأخلاقيّة.

3 ـ الأنواع المندرجة تحت أجناس الفضائل الأربع.

4 ـ الفرق بين الفضائل وما يناظرها من الرذائل.

5 ـ أنواع الرذائل (وتشمل: السفه والبله، التهوّر والجبن، الشره والخمود، والظلم والانظلام).

6 ـ شرف العدالة.

7 ـ أقسام العدالة.

8 ـ الترتيب والتدرّج في اكتساب الفضائل.

9 ـ المحافظة على سلامة النفس وصحتها.

10 ـ معالجات الأمراض النفسيّة (ويشمل علاج الحيرة، والجهل البسيط والمركب، والغضب، وسوء السريرة، والخوف، والإفراط في الشهوة، والحزن، والحسد).

اللاّمع الثاني (في أربعين صفحة تقريباً) ويبحث في تدبير المنزل ويشتمل على ستٍّ لمعات في الموضوعات التالية:

1 ـ سبب الحاجة إلى المنزل.

2 ـ سياسة الأقوات والأموال.

3 ـ سياسة الأهل.

4 ـ سياسة الأولاد (ويتضمّن مواضيع من قبيل: آداب الكلام، والحركة والسكون، وأكل الطعام).

5 ـ مراعاة حقوق الآباء والأمهات.

6 ـ سياسة الخدم.

اللاّمع الثالث (في حدود 40 صفحة)، يبحث حول تدبير المدن والآداب الملوكيّة ورسومها وتضم سبع لمع في الموضوعات الآتية:

1 ـ احتياج الإنسان إلى المدنيّة.

2 ـ فضيلة المحبة.

3 ـ أقسام المدينة.

4 ـ سياسة الملك وآداب الملوك.

5 ـ آداب الخدمة وتقاليد الخدم والمقرّبين من السلطان.

6 ـ فضيلة الصداقة ووظائف المعاشرة مع الأصدقاء.

7 ـ آداب المعاشرة مع مختلف طبقات المجتمع.

ثم يختم المصنّف ـ وتبعاً للخواجة الطوسي في كتابه **أخلاق ناصري** كتابه بذكر بعض وصايا ونصائح أفلاطون لتلميذه أرسطو (وهي نصائح عامة). ونصائح أرسطو لتلميذه الإسكندر (وهي نصائح تتعلق بالسياسة وتدبير أمور الملك).

وبذا يتّضح أنّ هيكليّة وخطة الكتاب مقبولة وموفّقة؛ وذلك لأنّها اشتملت، في المقدّمة، على بيان المبادئ والمقدّمات النظريّة لعلم الأخلاق، كما ضمّت ثلاثة لوامع تضمّنت أهم البحوث الأخلاقيّة المناسبة والجديرة بالاهتمام. ثم إنّ هناك نظاماً وتناسقاً جيداً بين لمعات كلّ لامع.

6 ـ منهجيّة الكتاب

المنهج المتّبع في هذا الكتاب هو المنهج الفلسفيّ والذي يعتمد في أغلب المواطن على الاستدلالات البرهانية، وفي موارد قليلة أفاد المؤلّف من أقيسة خطابيّة وجدليّة أيضاً. وأمّا الأدلّة النقليّة والروائيّة فنادرة. ويؤكّد المصنّف ـ مضافاً الى الأخلاق الفرديّة ـ على التربية والسلوكيّات الاجتماعيّة.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يتّصف قلم المؤلّف ببيان معقّد وثقيل نوعاً ما، والسبب يكمن في إفادته من مفردات وكلمات عربيّة وفارسيّة في آن واحد. وكذلك في كثير من المصطلحات والأدلّة الفلسفيّة في ردّ أو تبنّي المباحث. ومع ذلك كلّه، فإنّ الاستفادة الكثيرة من الآيات والروايات والأشعار والحكايات والاستشهاد بأقوال كبار العلماء العاملين، قلّلت بعض الشيء من تعقيد النص وزادت من لطافته وجاذبيته.

8 ـ التقييم النهائي

لقد تأثّر الكتاب إلى حدّ كبير بكتاب **أخلاق ناصري** وذلك بإقرار المصنّف وشهادة خطة الكتاب، وهيكليّته وفصوله، وموضوعاته، بحيث يمكن عدّه من الكتب أو الدراسات التي جاءت على هامش كتاب **أخلاق ناصري**. ولكن لا يمنع من الاعتراف بما يمتاز به المؤلّف من إحاطة علميّة، وقدرة كتابيّة، ودقة فنيّة تؤثّر في إغناء وتطوير الموضوع وفي جمالية النص أيضاً.

وهنا لا بد من التذكير بمدى دقة المؤلّف وبصيرته، في حذف بعض البحوث (نظير آداب شرب الخمر)، وكذلك في الفرز بين المواضيع المتعلّقة بالمبادئ والمقدّمات النظريّة لتهذيب الأخلاق، وبين البحوث والمعالجات الأصليّة والإشارة إلى ذلك في مقدمة الكتاب. نعم، لا يخلو الكتاب من إشكالات من هذا القبيل وبيانه المعقّد، وبعض الاستطرادات التي تنأى به عن مهامه ومقاصده الأصلية (نظير البحث التفصيلي الذي قدّمه المؤلّف حول الموسيقى بمناسبة الحديث عن العدالة والمساواة).

قائمة بعدد من مصادر الأخلاق الفلسفيّة

1 ـ **رسالة في الحيلة لدفع الأحزان**، لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت 246 هـ).

2 ـ **رسالة في تسهيل سبل الفضائل**، لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت 246 هـ).

3 ـ **التنبيه على سبيل تحصيل السعادة**، لأبي نصر محمد بن طرخان الفارابي (ت 339 هـ).

4 ـ **تهذيب الأخلاق**، لثابت بن سنان بن قرة (ت 363 هـ).

5 ـ **رسالة في اقتصاص طرق الفضائل**، لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي (ت بعد عام 372 هـ).

6 ـ **مقالة في مراتب قوى النفس وكيفيّة الإنذارات التي تنذر بها النفس**، للمؤلّف نفسه.

7 ـ **تدبير المتوحّد**، لمحمد بن يحيى (ابن باجة الأندلسي) (ت 533 هـ).

8 ـ **تهذيب الأخلاق**، محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ).

9 ـ **لطائف الحكمة** (في الحكمة البدنيّة والمنزليّة والمدنيّة)، لسراج الدين الأرموي (ت 682 هـ).

10 ـ الرسالة الشاهية في الأخلاق، للقاضي عضد الدين الأيجي (ت 756 هـ).

11 ـ أخلاق محسني[1] (جواهر الأسرار)، للملاّ حسين الكاشفي الواعظ (ت 910 هـ).

12 ـ **أخلاق شمسيّة**، لحسن بن روزبهان الشيرازي الشيعي (كان حياً عام 933 هـ).

13 ـ **أخلاق منصوري** (جام جهان نما)، لغيّاث الدين منصور الدشتكي (ت 948 هـ).

14 ـ **رسالة الحكمة العمليّة** (أخلاق منصوري)، لغيّاث الدين منصور الدشتكي (ت 948 هـ).

15 ـ **گوهر مراد** (المقصد الأول من الخاتمة)، للملاّ عبد الرزاق بن علي اللاّهيجي (ت 1051 هـ).

16 ـ **أخلاق عالم آرا** (على منوال كتاب أخلاق ناصري)، لمحسن فاني الكشميري (ق 11).

(1) هذا الكتاب وكذلك الأخلاق الشمسيّة على الرغم من أنهما يصنّفان ـ بلحاظ الهيكليّة والمنهج ـ على مدرسة الأخلاق الفلسفيّة، إلّا أنهما يتضمّنان العديد من الحكايات والأشعار أيضاً.

الفصل الثالث

مدرسة الأخلاق العرفانيّة

1

اللُمَع في التصوّف[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى أبو نصر السّراج، الملقّب بـ «طاووس الفقراء»، من كبار ومشاهير الصوفيّة في القرن الرابع الهجري. ولد بطوس ودفن فيها، ليس لدينا معلومات كافية عن حياته وتاريخ ولادته. ويُروى أنه تُوفّي سنة 378 هـ [2].

كان السّراج على مذهب أهل السنّة، وإلى جانب زهده وتصوّفه كان مهتماً بتحصيل العلم وتطبيق الشريعة، ويُعدّ فقيه الصوفية[3]. يبدو أنه

---

(1) أبو نصر عبد الله بن علي، (السّراج الطوسي) (ت 378 هـ)؛ **اللمع في التصوّف**، تحقيق وتصحيح رنولد ألن نيكسون، ليدن، مطبعة بريل، 1914م، يب + 472 + 154 صفحة، قطع وزيري.

(2) عطار نيشابوري، **تذكرة الأولياء**، ص 639؛ جامي، **نفحات الأنس**، ص 283.

(3) عبد الحسين زرين كوب، **جستجو در تصوف ايران**، ص 67.

كان دائم السفر وذلك لأنه يخبر في كتاب اللّمع عن لقاءاته وحواراته مع الكثير من الصوفيّة في مختلف بقاع الدولة الإسلاميّة، نظير: بغداد، البصرة، دمشق، الرملة، إنطاكية، صور، طرابلس[1]. ومما لا شك فيه أنّ كتاب **اللُمَع في التصوّف**[2] هو الكتاب الوحيد الذي عرفناه للسّراج الطوسي. ولعلّ الأمر كما يقول الجامي في كتابه **نفحات الأنس**؛ من أنّ للمؤلّف كتباً ومصنفاتٍ عدّة أخرى في التصوّف، ومع هذا لم يصل إلينا شيءٌ من ذلك[3].

2 ـ النسخ والطبعات

في مقدّمته على **اللّمع** يخبر نيكلسون بوجود نسختين خطيّتين، إحداهما في مكتبة «أي جي إليس» الشخصيّة، والأخرى في المتحف البريطاني. والنسخة الأولى هي النسخة الأصليّة والأكمل والتي قام بتصحيحها نيكلسون، وتقع في 197 ورقة من الحجم الرحلي، ويعود تاريخها إلى 683 هـ، وأمّا النسخة الثانية فيعود تاريخ تحريرها إلى عام 548 هـ وتبلغ 243 ورقة.

وقد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في عام 1914 م، في مطبعة بريل، بمدينة ليدن الهولندية، في مجلّد واحد، ونصّه وفهارسه بالعربية وثمة شروح بالإنكليزية، مع تحقيق لـ «رنولد آلن نيكلسون». وقد كانت بعض بحوثه مفقودة في هذه الطبعة. فقام آ. ج. آربرى بإخراج وتصحيح تلك البحوث، وطبعها في لندن عام 1947 م.

---

(1) كتاب **اللّمع**، مقدّمة نيكلسون.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

كما طبع كتاب **اللّوامع** من قبل دار الكتب الحديثة في القاهرة ومكتبة المثنى ببغداد وذلك في عام 1960 م. وقد قام كلّ من الأستاذ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، بتحقيق الكتاب وكتابة مقدّمة عليه مع فهرس للأحاديث.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

في ما يتعلّق بكتاب **اللّمع** يمكن الإشارة إلى التلخيص الذي قام به نيكلسون للكتاب بالإنكليزية. أضف إلى ذلك، توجد محاولة ترجمة فارسيّة في إيران لم تنجز بعد. يتضمّن القسم الأول من هذه الترجمة مقدّمة تفصيليّة نسبياً، وترجمة مقدّمة وتلخيص نيكلسون مع النص العربي للكتاب وضبط حركاته، حتى بداية كتاب **آداب المتصوّفة**. وقد طبعت الترجمة الفارسية للكتاب إلى هذا الحد عام 1380 هـ ش من قبل دار «نشر فيض كاشان». وقد صدرت أخيراً الترجمة الفارسية الكاملة للكتاب تحت عنوان **اللُمَع في التصوّف** من دار «انتشارات أساطير» عام 1382، بقلم المترجم مهدي محبتي.

إلى جانب الأهميّة التاريخيّة التي يحظى بها الكتاب، فقد امتاز بالدقّة والأمانة في نقل آراء وأقوال المتصوّفة القدامى، ما جعله مصدراً ونصاً موثوقاً في مجال تاريخ التصوّف، بحيث يمكّن القارئ من التعرّف إلى لغة وعقائد وطرائق الصوفيّة، في مراحلهم الأولى[1].

من أهم المصادر التي اعتمدها السرّاج، في كتابه هذا، نشير إلى ما يلي: كتاب **المشاهدات** لعمرو بن عثمان المكي، كتاب **السُنن** لأبي داود

(1) المصدر نفسه.

السجستاني، كتاب **المناجاة** للجنيد، كتاب **الوجد** لأبي سعيد بن الأعرابي، كتاب **المعرفة** لإبراهيم الخواص، **تفسير الجنيد** لشطحيات بايزيد البسطامي. كما نقل آراء العديد من الصوفيّة ومن أبرزهم: الشبلي، ابن سالم، سهل بن عبد الله، الحلاج، ذو النون المصري، أبو بكر الواسطي، سري السقطي ويحيى بن معاذ.

وقد أفاد كلٌ من القشيري والهجويرى، من كتاب **اللمع** هذا كثيراً، كما يُعدّ من المصادر التي اعتمدها الغزالي في كتابه إحياء العلوم. ونقل السبكي في **طبقات الشافعيّة الكبرى**، والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد** عن كتاب **اللمع**، بالواسطة عن كتاب **تاريخ الصوفية** للسلمي، وهو كتاب مفقود في الحال الحاضر، هذا كلّه يدلّ على المقام الرفيع والنفوذ العلمي والعملي لأبي نصر السّراج وكتابه **اللّمع** لدى أهل التصوف.

ثمة نقطة هامة أخرى، نستكشف من خلالها أهميّة هذا الكتاب ودوره[1]، وهي أنّ المتصوّفة في مراحلهم السابقة كانوا قد أسّسوا لنظام فكريّ وعمليّ متكامل، لكن لم تكن أجزاؤه منظّمة ومرتّبة بنحو مناسب، ولم يكن يطرح بشكل متواصل ومتسلسل، إلّا أنه في الفترة التي سبقت عصر السّراج ظهرت محاولات لإزالة هذا الاضطراب وعدم الانسجام والتناسق المشهود. ومن ضمن هذه المحاولات يمكن الإشارة إلى كتاب **الرعاية لحقوق الله** للحارث بن أسد المحاسبي (ت 243 هـ). وإلى جانب هذه المحاولة وُجدت محاولات أخرى، منها كتاب **التعرف لمذهب أهل التصوّف** لأبي بكر محمد الكلاباذي (ت 380 هـ). **وقوت القلوب** لأبي طالب المكي (ت 386 هـ). ويأتي كتاب **اللمع** في هذا

---

(1) يحيىٰ يثربي، **عرفان نظري**، ص 137.

المضمار، إذ تميّز بتوفّره على تطوّر مشهود في بيان العلوم النظريّة والعمليّة للتصوّف. وقد تطرق السّراج في هذا الكتاب، إلى جملة من المسائل العقديّة، كما عالج بعض القضايا المتعلّقة بإثبات حقانيّة وصدقيّة التصوّف. وتصدّى للشبهات والإشكالات التي أشار اليها المعارضون للتصوّف، كما تضمّنت معالجاته بحوثاً أخلاقيّة وعمليّة وذلك بأسلوب جديد وطريقة مبتكرة.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

تمتاز المواضيع العرفانية المطروحة، في كتاب **اللمع**، بالتنوّع والتفصيل. إذ لا نجد في تراث أيٍّ من العرفاء الذين سبقوا أبا نصر السّراج كتاباً يتضمّن هذا الكمّ الكبير من البحوث العرفانيّة المتنوّعة. هذا التنوّع والتفصيل جعل الكتاب مطوّلاً، على الرغم من أنّ السّراج أكد في مواطن عدّة من كتابه، عدم وجود مجال للتفصيل في المواضيع، وأنه يكتفي بالبيان الموجز.

والملاحظ أنّ التفصيل المشهود في العناوين والموضوعات الأخلاقية لهذا الكتاب، بالنسبة إلى غيره من الكتب العرفانيّة، له مبرّراته ومسوّغاته وهو بالتالي مقبول. ومع أنّ أغلب عناوين أبواب وفصول الكتاب ذات طابع عرفاني، إلّا أنّ الكتاب يتضمّن بحوثاً ومعالجات أخلاقيّة عدّة، خصوصاً أنّ أكثر الأقسام تفصيلاً في الكتاب، والذي يحمل عنوان «كتاب آداب المتصوّفة» في 26 باباً وسبعين صفحة، يتضمن مواضيع أخلاقيّة. تُعنى أكثرها بالأخلاق الاجتماعيّة، كما يفرد المؤلّف، في هذا القسم، باباً تحت عنوان «آداب المتأهّلين ومن له ولد» إذ يختصّ بأخلاق الأسرة.

ومن الأقسام الأخلاقيّة الأخرى في الكتاب، ما جاء تحت عنوان «كتاب الأحوال والمقامات». إذ الملاحظ أنّ جميع العناوين المبحوثة فيه هي عناوين تتعلّق بأخلاق العبوديّة. وأمّا الأخلاق الفرديّة، فلم نشاهد عنواناً خاصاً بها في الكتاب إلّا أننا نواجه بعض العناوين التي ترتبط بذلك فيه. فالكتاب من هذه الجهة ليس فقيراً أو دون المستوى المطلوب. كما يضمّ بحثين، هما: «كتاب الأسوة والاقتداء برسول اللّه (ص)» و«كتاب الصحابة»، إذ يتعرّض فيهما المؤلّف إلى بيان السيرة الأخلاقية للرسول الأكرم (ص) وصحابته. وقد أضفى هذا البحث على الكتاب غنىً.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يقع كتاب **اللّمع** في مقدّمة تشتمل على 18 باباً وتقع في 40 صفحة، والكتاب بعد المقدمة فوزع على ثلاثة عشر كتاباً، انتظمت فيها البحوث بالشكل التالي:

1 ـ كتاب الأحوال والمقامات (يضم 19 باباً وفي 33 صفحة). 2 ـ كتاب أهل الصفوة في الفهم والاتّباع لكتاب الله عزّ وجلّ (في 9 أبواب و23 صفحة). 3 ـ كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله (ص) (في 4 أبواب و16 صفحة). 4 ـ كتاب المستنبطات (في 5 أبواب و15 صفحة). 5 ـ كتاب الصحابة (في 7 أبواب و22 صفحة). 6 ـ كتاب آداب المتصوّفة (في 26 باباً و70 صفحة). 7 ـ كتاب المسائل واختلاف أقاويلهم في الأجوبة (بدون باب وفي 21 صفحة). 8 ـ كتاب المكاتبات، والصدور، والأشعار، والدعوات، والرسائل، (في 5 أبواب و35 صفحة). 9 ـ كتاب السماع (في 12 باباً و33 صفحة). 10 ـ كتاب الوجد (في 6 أبواب و15

صفحة). 11 ـ كتاب إثبات الآيات والكرامات (في 6 أبواب و18 صفحة). 12 ـ كتاب البيان عن المشكلات (في بابين و42 صفحة). 13 ـ كتاب تفسير الشطحيّات والكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح (في 32 باباً و61 صفحة).

وأمّا في ما يتعلّق بنظام وترتيب هذه الكتب، فقد بحث المؤلّف ـ في كتاب الأحوال والمقامات ـ جملة مواضيع تمهيديّة، ثم بيّن المنازل والمقامات التي ينبغي أن تُطوى في السير والسلوك العرفاني. وفي كتاب «أهل الصفوة في الفهم والاتّباع لكتاب الله عزّ وجلّ»، يحاول المؤلّف شرح هذه المقامات والأحوال والتي تحصل للإنسان من خلال فهم القرآن الكريم واتّباع آياته. وأمّا الصفوة الذين وصلوا، إلى مقامات روحانيّة وعرفانيّة، من خلال تهذيب أنفسهم وتزكيتها، فبإمكانهم أن يحصلوا على فوائد ومعانٍ أعمق وأخصّ من آيات كتاب اللّه.

وفي كتاب «الأسوة والاقتداء برسول الله (ص)» يتمّ تعريف السنّة النبويّة على أنها مصدر آخر من مصادر السير والسلوك العرفاني، وعليه فلا بدّ من الاهتمام بها والتركيز عليها. وفي كتاب «المستنبطات» يشير المؤلّف إلى ما يستفيده المتصوّفة وأهل الباطن، من معانٍ وفوائد خاصة من القرآن الكريم والسنّة النبويّة. وفي كتاب «الصحابة»، يسلّط المؤلّف الأضواء على صحابة رسول الإسلام، باعتبارهم أسوة ونماذج للناس، حازوا على مراتب عالية ومقامات رفيعة، من خلال اقتدائهم بالرسول محمد (ص).

ومن الكتاب الخامس وحتى الكتاب التاسع ـ أي كتاب آداب المتصوّفة، وكتاب المسائل واختلاف أقاويلهم في الأجوبة، وكتاب المكاتبات، وكتاب الصدور، وكتاب الأشعار والدعوات والرسائل،

وكتاب السماع ـ يدور الحديث حول آداب المتصوّفة، وتعاليمهم، وخصوصيّاتهم الأخلاقيّة والاجتماعيّة. وأمّا الكتاب العاشر وحتى الثاني عشر ـ أي كتاب الوجد وكتاب إثبات الآيات وكتاب الكرامات ـ يتعرّض المؤلّف فيها إلى بيان الآثار والنتائج الحاصلة من التصوّف والسير والسلوك العرفاني. وفي الكتابين الأخيرين (كتاب البيان عن المشكلات، وكتاب تفسير الشطحيّات)، يتعرّض المؤلّف إلى بيان الأخطار والمحاذير التي تحفّ بطريقة أهل التصوّف وسلوكهم، كما يتصدّى الى دفع الإشكالات النظريّة والعمليّة التي أوردها البعض على المتصوّفة، ومن ثم يتعرّض إلى توضيح مصطلحات وشطحيات المتصوّفة، كما يشير إلى بعض الممارسات المغلوطة والتوظيفات الخاطئه، للتعاليم الصوفيّة، محاولاً تصحيحها.

ففي خصوص ترتيب عناوين الأبواب المدرجة تحت كلّ كتاب، يلاحظ أنّ ثمة نظاماً ونسقاً معقولاً ومناسباً قد تم إعماله. نعم، ربما أمكن تقديم وتأخير بعض الأبواب في بعض الكتب، (نظير كتاب آداب المتصوّفة) في ما يتعلّق بالجانب الذوقي والاستحساني. أمّا في خصوص سائر الكتب فإنّ الترتيب الموجود يعدّ مناسباً وجديراً بالإطراء، إذ يدلل على أنّ الكاتب مهتم بمراعاة ترتيب الأبواب.

6 ـ منهجيّة الكتاب

الكتاب محاولة جادة للدفاع عن العرفان، وقد سعى السّراج الطوسي، من خلاله، إلى البرهنة على أنّ القضايا العرفانية تبتني أساساً على المصادر الدينية (القرآن والسنّة). وبكلمة يمكن القول بحق إنّ كتاب **اللّمع** هو عمل موسوعي في مجال التعريف بالتراث العرفاني في القرون

الأولى التي تلت صدر الإسلام. يقدّم المصنّف في هذا الكتاب تقريراً مفصلاً عن آراء المتصوّفة وأفكارهم. ويحاول أن يستدرج القارئ نحو المجال العقائدي الخاص به، من خلال إيراده لأقوال العديد من كبار العرفاء. ويتعرّض، في الأثناء، إلى بيان أهم البحوث والتحدّيات الراهنة في ما يتعلّق بالفكر العرفاني.

وقد حرص المؤلّف على التنويع في كتابة البحوث، فجاء الكتاب لافتاً ومثيراً للإعجاب من هذا الجانب. ومن أجل التعريف بالمشهد العرفاني، ثقافة وفكراً، لم يقتصر على ذكر أقوال الصوفيّة، بل علاوة على ذلك قام بنقل وصاياهم، وأدعيتهم، وأشعارهم، وآدابهم العمليّة، وكذلك المقدّمات التي كتبوها على الكتب والمدوّنات والمراسلات في ما بينهم، جمعها بشكل ينسجم في فصول مستقلّة من هذا الكتاب. وقد حرص على أن يظهر ومنذ البداية، مدافعاً يحمل راية الدفاع بجد، ويسعى إلى برهنة أنّ الفكر العرفاني ينسجم تماماً مع المصادر الدينيّة وذلك من خلال الاستشهاد بآيات وروايات كثيرة. كما تصدّى لتصحيح ما يبدو من سوء فهم وأخطاء عالقة لدى بعض في تقييمهم، فراح يدرأ عن المتصوّفة تهمة مغايرة خطابهم للتعاليم القرآنية.

ومن النقاط الجديرة بالذكر في هذا الكتاب، أنّ المصنّف يؤكّد على مرجعيّة ما يذهب إليه مشايخ الصوفيّة وكبار العرفاء، أكثر من تأكيده على الاستدلال، والبرهنة، ومحاولات إقناع القارئ. ومن هنا، بالذات نجده يحاول تدعيم آرائه من خلال تحشيد أكثر عدد ممكن من أقوال مشايخ المتصوّفة وسيرتهم.

والهدف الذي يبتغيه المؤلّف خلال انتهاجه هذه الطريقه ليس واضحاً؛ فهل يهدف إلى التأكيد على وثاقة قول المشايخ، أو أنّ الهدف

صيانة الموروث العلمي للسلف، أو أنها طريقة تربويّة من أجل التأثير أكثر على المخاطب ومحاولة إقناعه ولو عاطفياً؟ ولكن على كلّ حال، فإنّ هذه الطريقة من التأليف جعلتنا نرتبط بميراث المتصوّفة في القرون الأولى. ومن هذه الجهة فإنّ كتاب **اللمع** يعدّ تراثاً علمياً متقناً. وكسائر المتصوّفة، فقد أفاد المؤلّف في كتابه، من الأساليب التربويّة المعرفيّة والتعليمات السلوكيّة.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يشتمل كتاب **اللمع** على قسمين: القسم الأول يتضمّن اثني عشر باباً تمثّل مقدّمة المؤلّف. وأمّا القسم الثاني، فيبدأ من الباب الثالث عشر من المقدّمة وحتى نهاية الكتاب. والملاحظ أنّ القسم الأول لا يتضمّن أيّ نقل لأيّ قول، في حين أنّ الحجم الأكبر من القسم الثاني، هو نقل مباشر لأقوال مشايخ الصوفيّة. وعلى هذا الأساس، للتعرّف على خصائص ومميّزات قلم المصنّف بدقة لا بد من قراءة الاثني عشر باباً الأولى من المقدّمة.

وقد لاحظ نيكلسون، مصحّح الكتاب، أنّ ثمة قواعد أدبية ونحويّة لم تراعَ في الكتاب، وأشار إلى موارد عدّة شائعة على سبيل المثال. وأمّا إذا تجاوزنا هذه الملاحظة، فيمكن القول إنّ قلم السرّاج يمتاز بالسلاسة والوضوح. وفي الموارد التي تكون الجمل من إنشائه هو، لا يواجه القارئ أيّ مشكلة. ولكن في القسم الثاني المشحون بالاستشهادات بآراء وأقوال كبار الصوفيّة، يشعر القارئ في كثير من الموارد بالإغلاق والإيجاز، بحيث لا يفهم مؤدّى العبارات بوضوح. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذه من خصوصيّات الكلمات القِصار، التي يفيد منها كبار المتصوّفة، بناءً على سيرتهم في الإيجاز.

وكما هو ملاحظ، فإنّ قلم السرّاج خالٍ من المحسّنات الأدبيّة وصناعات البديع، بحيث لا يتوقّف القارئ أبداً عند مستوى التأمّلات اللّغويّة، فالمفردات وأساليب البيان، لم تفرض نفسها على النص، ليس لها أيّ بروز وظهور. وهذا يدلّل على أنّ المصنّف كان بصدد إيصال المعنى، وقد صرف جلّ اهتمامه على نقل المعاني بشفافية ومن دون واسطة وبلا التواء.

و أمّا عن حجم المنقولات في كتاب **اللمع** فنقول:

1 ـ هذا الكتاب والذي يمتاز بطابعه التاريخي، مشحون بكلمات الوحي، ففي أغلب البحوث تجد أنّ كلّ إشارة أو فكرة، تسند بآية أو آيات.

2 ـ يشتمل الكتاب على547 حديثاً نبويّاً، القليل منها مكرر، مما يكشف عن أنّ الكتاب غني من حيث استناداته إلى القرآن والسنّة.

3 ـ كما أفاد المصنّف، في بيانه لأفكار الكتاب، من الشعر بشكل مباشر تارة، وأخرى على لسان بعض مشايخ المتصوّفة. وعلى الرغم من قلّة الأشعار الموجودة في كتاب **اللمع**، إلّا أنّ هذا لا يعني بأيّ حال من الأحوال، أنّ المصنّف كان قليل الاهتمام بالشعر. فكتاب **اللمع** لا يُعدّ فقيراً من حيث احتوائه على الأدب الصوفيّ المنظوم، بل على العكس نجد أنه في باب «في أشعارهم ومعاني أحوالهم وإشاراتهم» وإلى حدّ ما في «كتاب البيان عن المشكلات»، قد بذل اهتماماً خاصاً، وقام بنقل حشد كبير من الأشعار.

4 ـ إنّ حجم الحكايات والقصص، المقتبسة من سيرة مشايخ الصوفيّة

وكبارهم، والتي تنطوي على الوعظ والحكمة الواردة في كتاب **اللّمع**، ملفت للنظر، فقد شغلت حيّزاً كبيراً من الكتاب. وقد نقل السّراج، في أكثر أبحاثه، الكثير من القصص عن سيرة سلف الصوفيّة وخصالهم.

5 ـ الملاحظ أنّ المؤلّف قلّما أفاد من التمثيلات والتشبيهات، واكتفى ببعض الموارد التي ضمّنها استشهاداً، بقول أو بفعل، لواحد من الكبار؛ إذ أتى على ذكر عدد محدود من التشبيهات والأمثال.

8 ـ التقييم النهائي

يحظى كتاب **اللمع** بنقاط قوة عدّة، منها:

- توافره على عناوين ذات طابع شمولي وجامع، واشتماله على نظام محدّد وترتيب منطقيّ ومناسب بين الأبواب والفصول.
- يتمتّع الكتاب ببيان سلس، إلى جانب التوظيف الصحيح للآيات والروايات.
- المحافظة على التراث الشفاهي (التراث المسموع) للعرفاء المتقدّمين، والحرص على تدوينه، إلى جانب جمع الكلمات القصار لمشايخ الصوفيّة من الصدر الأول، المتناثرة هنا وهناك.

بقي أن نقول إنّ بعض فصول هذا الكتاب يبدو مطوّلاً، ما قد يثير شيئاً من التعب والسأم لدى المبتدئين، من القراء، ممن يريدون التعرّف على التصوّف والأخلاق العرفانيّة.

2

قوت القلوب[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

الاسم الكامل للكتاب هو **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، للزاهد والعارف الشهير محمد بن علي بن عطية الحارثي، المعروف بأبي طالب المكي. ولد في منطقة الجبل في إيران. ولا تتوفّر لدينا معلومات دقيقة عن تاريخ ولادته، سوى أنه عاش في القرن الرابع، ونشأ وترعرع في مكة المكرمة ولذا عرف بالمكي. إثر وفاة ابن سالم، في البصرة، أسند إليه منصب الوعظ والإرشاد، فاشتغل بوعظ الناس وإرشادهم. ثم أقام مجالس الوعظ والإرشاد في بغداد ولكن الناس أخذوا ينتقدونه لبعض تعابيره الغريبة والشطحيات التي كانت تصدر عنه بين الحين والآخر[2]، وأعرضوا عنه، فترك مجلس الوعظ والإرشاد[3].

---

(1) أبوطالب محمد الملكي (ولد 386 هـ)، **قوت القلوب**، مقدمة عبد الحفيظ علي القرني، ويتضمّن حاشية ضمّت كلاً من كتاب **سراج القلوب وعلاج الذنوب**، لعلي المعيري، وكتاب **حياة القلوب في كيفيّة الوصول إلى المحبوب**، لعماد الدين الأموي، ج2، القاهرة، مطبعة الأنوار المحمّدية، 1405 هـ، 314+357 ص قطع رحلي؛ وأيضاً تحقيق سعيد نسيب مكارم، بيروت، دار صادر، 1995 م، ط 1، مجلدان، 542+570 ص، قطع وزيري.

(2) تنسب إليه هذه العبارة: «ليس على المخلوقين أضرّ من الخالق».

(3) ابن خلّكان، **وفيات الأعيان**، ج 2، ص 374.

كان أبو طالب من أهل الرياضة، حتى قيل عنه إنه ترك الطعام مدة طويلة واقتصر على أكل النباتات، بحيث أخضرّ لون جلده. وقد عُدّ من كبار الفرقة السالميّة، وكان له دور في نقل الكثير من آراء هذه المدرسة إلى الأجيال اللاّحقة من الصوفيّة وإلى شخصيّات نظير: محمد الغزالي، أبي الحسن الشاذلي، وابن عربي.

إلى جانب مشايخه في إجازة الحديث، استفاد في عالم الطريقة والتوحيد من أساتذة كثر أبرزهم: أبو بكر بن جلاء وأبو الحسن أحمد بن سالم. ويتّصل المكي، عن طريق أبيه، بجماعة أتباع سهل التستري (ت 283 هـ)[1]. وقد اعتبره بعض من المعتزلة[2]، لكن أغلب أصحاب التراجم لا يرون ذلك[3]. وعلى كل حال فقد فارق الحياة عام 386 هـ ببغداد[4].

نسبت إليه ثلاثة كتب وهي: **قوت القلوب**، **علم القلوب**، **المجمل المختصر**. والكتاب الأول موجود ونسبته إليه لا شك فيها وهكذا الكتاب الثاني، لكن ثمة من يتردّد في نسبته إليه. وأمّا الكتاب الثالث فلا شك في انتسابه إليه لأنه قد نصّ عليه[5]، ولكنه للأسف مفقود إذ لا يتوفّر منه حتّى نسخة واحدة.

2 ـ النسخ والطبعات

توجد نسخ كثيرة من هذا الكتاب، متوزّعة على مكتبات العالم،

---

(1) ابن عطاء الله، **لطائف المنن**، ص 179 ـ 180.

(2) ابن حجر العسقلاني، **لسان الميزان**، ج 5، ص 300.

(3) اعتبر أبو طالب نفسه تابعاً في الأصول للحسن البصري. انظر: **قوت القلوب**، ج 1، ص 261.

(4) ابن خلّكان، **وفيات الأعيان**، ج 2، ص 374.

(5) أبو طالب المكي، **قوت القلوب**، ج 1، ص 280.

منها: نسخة مكتبة فاتح بإسطنبول برقم 2765، ونسخة المتحف البريطاني برقم 7726[1].

طبع الكتاب مرتين: الأولى في القاهرة عام 1310 هـ في مجلّد واحد، قطع رحلي، مع كتابين آخرين في هامشه، والثانية في القاهرة عام 1381هـ في مجلّدين، قطع وزيري. وقد أعيدت طباعة الطبعة الثانية في بيروت على الأوفست مرات عدّة. والعجيب أنّ الطبعة الأخيرة خالية من المقدّمة، والتصحيح، وقائمة المصادر، وفهرست الموضوعات.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

توجد تلخيصات عدّة للكتاب، منها: نسخة ملخّصة، مسجّلة في مكتبة برلين برقم 2816 ـ 7، كما توجد نسخة ملخّصة بقلم حسين بن معن، في مكتبة «فاتح» بإسنطبول، برقم 2768. إلى جانب ذلك قام محمد بن إبراهيم بن عباد النضري الرندي (ت 791 هـ) بشرح القضايا المعقّدة في الكتاب، وثمة نسخة من هذا الشرح في مكتبة أسكوريال[2].

يحظى كتاب **قوت القلوب** في تاريخ العرفان العملي، والتصوّف، والزهد، بمكانة ممتازة، إذ يمكن عدّه من أكمل وأوضح النصوص وأبسطها، ومن أوائل المحاولات التي اتّسمت بالشمول والجامعية. كما يعدّ الكتاب محاولة منظّمة إلى حدّ ما، في مجال مواءمة الآداب والآراء الصوفيّة مع الموزاين الشرعية، لدرجة أنّ الكثير من كبار المتصوفة عدّوه

---

(1) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج 4، ص 79 ـ 80.
(2) المصدرنفسه، ج 4، ص 78 ـ 79.

من المصادر الأمّ في السلوك والتصوف[1]. فقد وصفه عين القضاة الهمداني بأنه رائد وفريد من نوعه[2]. ونقل عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال: «**كتاب الإحياء يورثك الحلم وكتاب القلوب يورثك النور**»[3].

ترك الكتاب تأثيراً عميقاً على شخصيّات تُعدّ من الطراز الأول في عالم التصوّف، نظير: شهاب الدين عمر السهروردي (صاحب كتاب **العوارف**)، وأبي الحسن الشاذلي، كما ترك بصمات كبيرة على الغزالي في كتابه **إحياء العلوم**، إذ نقل الكثير من معالجاته، ورواياته، وحكاياته. وحتى ابن عربي بدا متأثراً به في بيانه للفرق بين مشيئة الحق وإرادته وكذلك في عدم تكرار التجلّيات[4].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يعدّ كتاب **قوت القلوب** في تغطيته للعناوين الأخلاقيّة، أحد أكثر المصادر العرفانيّة شموليّة ومن أبرزها، وقد تضمّن جميع التقسيمات الموجودة في علم الأخلاق: أخلاق العبوديّة، والأخلاق الفرديّة، وأخلاق الأسرة، والأخلاق الاجتماعيّة.

وقد تم تخصيص الفصل الأول وحتى الفصل الحادي والعشرين، وكذلك الفصل الثالث والثلاثين (وهو فصل مبسوط وموسع)، والفصل

---

(1) الغزالي، **المنقذ من الضلال**، ص 137؛ مؤيد الدين الجندي، **نفحة الروح وتحفة الفتوح**، ص 166؛ يحيى باخزري، **أوراد الأحباب وخصوص الآداب**، ص 44 و92.

(2) عين القضاة الهمداني، **رسالة شكوى الغريب**، ص 18، ص 26.

(3) ابن عطاء الله، **لطائف المنن**، ص 180 ـ 179.

(4) محيي الدين بن عربي، **فصوص الحكم**، تعليقات، ص 276 ـ 277؛ المؤلّف نفسه، **الفتوحات المكية**، ج 3، ص 172؛ وج 4، ص 190.

الثامن والثلاثين للحديث عن آداب وشعائر العبودية. وأما الفصل الثالث والعشرين وحتى الفصل الثاني والثلاثين، فيعنى بأخلاق العبودية التي ينبغي أن يكون عليها الخواص وأهل الباطن. وثمة فصول متناثرة من الكتاب بحثت جملة من العناوين المرتبطة بالأخلاق الفرديّة (نظير الأبحاث الموسّعة المتعلّقة بالأكل والشرب، وبحث العمل والكسب، وبحثُ أهميّة السفر).

ويختص الفصل الخامس والأربعون بأخلاق الأسرة، فيما أهتم كلّ من الفصل الثالث والأربعين، والفصل الرابع والأربعين، وبعض عناوين الفصل السابع والثلاثين، والفصل الثامن والأربعين ببحوث الأخلاق الاجتماعيّة.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يشتمل كتاب **قوت القلوب** على 48 فصلاً، والملاحظ أنّ المؤلّف لم يتوافر على نظام عام تكون هذه الفصول أجزاء فيه، وإنما شرع في بحث الفصول من دون إيضاحات مسبقة وبلا تقسيم وتصنيف.

ولكن من خلال التدقيق في جغرافيا الكتاب والتدبّر في مضامينه، يمكننا استكشاف نظام لهذه الفصول، إذ يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أبواب رئيسة:

الباب الأول: المقدّمة ويتضمن الفصول الـ 22 الأولى من الكتاب، ويشغل هذا الباب 150 صفحة. وكل فصل من هذه الفصول القصيرة يتضمّن جملة آيات وروايات، حول العبادات المستحبة والآداب والسُنَن المرتبطة بالشعائر الدينيّة وآداب تلاوة القرآن.

الباب الثاني: ويختصّ ببيان طريق السلوك، ووصف أحوال العارفين، ويتضمن عشرة فصول (من الفصل 23 وحتى الفصل 32). ويشغل 520 صفحة. ويعدّ الفصل الأخير من هذا الباب (الفصل 32)، هو الأكثر تفصيلاً وتحليلاً، قياساً بسائر فصول الكتاب. كما إنه أكثر الفصول متعة وأجدرها بالقراءة، ويقع في 325 صفحة، ويعرض فيه المؤلّف لبيان مقامات اليقين التسعة (أو ما يسمى بمقامات السالكين). ويمكن القول إنّ ما يحظى به كتاب **قوت القلوب** من اعتبار ومكانة ممتازة في تاريخ العرفان العملي والأخلاق الصوفية، يعود في الغالب إلى هذا الباب. لذا، ونظراً إلى أهمية هذا الباب، نورد فهرست الفصول العشرة التي يتضمّنها:

1 ـ الفصل الثالث والعشرون، في محاسبة النفس ومراعاة الوقت.

2 ـ الفصل الرابع والعشرون، في ذكر ماهيّة الورد للمريد، ووصف حال العارف بالمزيد.

3 ـ الفصل الخامس والعشرون، في ذكر تعريف النفس وتشريح مواجيد العارفين (في باب معايب وتسويلات النفس).

4 ـ الفصل السادس والعشرون، في ذكر مشاهدة أهل المراقبة.

5 ـ الفصل السابع والعشرون، في كتاب أساس المريدين (أصول ومنطلقات السلوك والتهذيب).

6 ـ الفصل الثامن والعشرون، في مراقبة المقرّبين ومقامات الموقنين.

7 ـ الفصل التاسع والعشرون، في ذكر أهل المقامات من المقرّبين، وتمييز أهل الغفلة المبعدين.

8 ـ الفصل الثلاثون، في ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب.

9 ـ الفصل الواحد والثلاثون، في تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين في العلوم. ويتضمن أيضاً بياناً في فضل علم الباطن على علم الظاهر والفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. وذم علماء السوء الآكلين ـ بعلومهم ـ الدنيا.

10 ـ الفصل الثاني والثلاثون، في شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين.

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ الفصل الثاني والثلاثين أهم فصول هذا الباب وأكثرها تفصيلاً. وهنا نحاول استعراض عناوين المقامات التي بحثها المؤلّف في هذا الفصل، مع الإشارة إلى أهم البحوث التي تطرق إليها في سياق ذكره لهذه المقامات:

المقام الأول: مقام التوبة ويقع في ثلاثين صفحة، ويتضمّن هذه العناوين: واجبات التوبة، شرح فضائل التوبة، ووصف أحوال التوّابين.

المقام الثاني: مقام الصبر ويقع في عشرين صفحة، يبحث خلالها فضل الصبر ووصف حالات الصابرين، وثلاثة بيانات لتفضيل الصبر على الحالات الأخرى.

المقام الثالث: مقام الشاكرين ضمن عشرين صفحة، يتعرّض خلالها إلى شرح مقام الشكر ووصف الشاكرين.

المقام الرابع: مقام الرجاء ويقع في 24 صفحة، يتعرض خلالها لشرح مقام الرجاء ووصف أحوال الراجين.

المقام الخامس: مقام الخوف في ثلاثين صفحة، ويتضمن الأبحاث التالية: شرح مقام الخوف، تفصيل المخاوف، ووصف أحوال الخائفين.

المقام السادس: مقام الزهد ويقع في ثلاث وخمسين صفحة، ويضمّ بيانات في شرح مقام الزهد وماهيّته، شرح أحكام الزهد، وصف أحوال الزاهدين، فضل الزهد، بيان ماهيّة الدنيا، كيفيّة الزهد في الدنيا، واختلاف مراتب الزهاد.

المقام السابع: مقام التوكّل ويقع في سبعين صفحة، بحث خلالها الموضوعات التالية: إثبات أسباب الكسب والتصرّف في المعايش، علاقة الادّخار مع التوكّل، التداوي وتركه للتوكّل، استواء الاعتقاد بتساوي الأسباب المتعلّقة به وبالآخرين مع وحدة المعطي الأصلي، كتم الأمراض وجواز إظهارها، تشبيه التوكّل بالزهد، فضل التارك للكسب، حكم المتوكّل إذا كان ذا بيت، ووصف المتوكّلين.

المقام الثامن: مقام الرضا ويقع في اثنتين وعشرين صفحة، ويتضمّن بحثاً في شرح مقام الرضا، ووصف أحوال أهل الرضا.

المقام التاسع: مقام المحبة في اثنتين وستين صفحة، ويبحث كلاً من: حقيقة المحبة، أحكام المحبة، أنواع المحبة، غاية المحبة، وصف حالات المحبين، والمخاوف السبعة الخاصة بالسالكين في المقام التاسع.

والملاحظ أنّ المقامات الثلاثة، الخاصة بالزهد والتوكّل والمحبة، قد استقطبت القسط الأوفر من اهتمام المؤلّف، فراح يفصّل في الحديث عن الحقائق المتعلّقة بها. وعموماً فإن الباب الثاني من الكتاب يمتاز بجملة خصائص وسمات، هي:

1 ـ غَلَبة الطابع التحليلي والتفصيلي على جانب النقل، في جميع فصول هذا الباب، باستثناء الفصل الحادي والثلاثين.

2 ـ كثرة الاستناد إلى القرآن والاستفادة من المضامين القرآنيّة.

3 ـ هيكليّة الباب بصورة عامة مناسبة. ولكن كان من الأفضل نقل الفصل الخامس والعشرين والفصل السابع والعشرين، إلى بدايات الباب، إلى جانب ذلك فإنّ من الأولى أن يخضع الفصل الحادي والثلاثون إلى عمليّة تهذيب وحذف لأغلب البحوث الواردة فيه، ليكون هذا الباب أكثر انتظاماً، وانسجاماً، ومنطقيّة.

الباب الثالث: يشتمل هذا الباب على جملة قضايا عقائديّة، وتعاليم عباديّة، وآداب فرديّة واجتماعيّة. ويتضمّن 16 فصلاً (من الفصل 33 إلى الفصل 48)، يقع في أكثر من أربعمائة صفحة. وثمة خصائص يتمتّع بها هذا الباب، أهمّها:

1 ـ البحوث التي تضمّنتها هذه الفصول، الستة عشر، اشتملت على آيات قرآنيّة وروايات نبويّة ونتف من أخبار وأحوال الصحابة، كما اشتملت أيضاً على كلمات وحكايات المشايخ الصوفيّة. ولذا فإنّ هذا الباب أخذ طابعاً نقليّاً، وأمّا جانب التحليل والبرهنة فقد اتّسم بالانحسار والضمور.

2 ـ تفتقر الفصول إلى النظم والانسجام المطلوب في ما بينها، فمثلاً، بداية الباب (الفصل الثالث والثلاثين) خصّص للحديث عن الآداب الظاهريّة والباطنيّة لأركان الإسلام الخمسة (الشهادة، الصلاة، الزكاة، الصوم، والحج). ثم يتناول المؤلّف جملة من البحوث

العقائديّة في فصلين، يليهما بحثان في مجال أخلاق العبوديّة، ثم يعقد فصولاً عدّة للحديث عن الآداب المتعلّقة بالأخلاق الفرديّة، لكنه بعد ذلك يعود للحديث عن آداب صلاة الجماعة في فصل واحد؛ فيما يخصّص الفصول الأربعة الأخيرة لبحث جملة من الآداب المرتبطة بالأخلاق الاجتماعيّة، وأخلاق الأسرة، وأخلاق التجارة.

3 ـ ثمة بحوث نالت اهتمام المؤلف وراح يؤكّد عليها ويتوسّع في استيفاء الحديث عنها وشرحها، نشير هنا إلى جملة منها: الفصل 33 في الآداب الظاهريّة والباطنيّة لأركان الإسلام الخمسة (79 صفحة)، الفصل 39 والفصل 40 في طريقة أهل السلوك في الطعام وأدب الأكل (52 صفحة)، الفصل 44 في الأخوّة والصحبة (53 صفحة)، الفصل 45 في الزواج ومعاشرة المرأة (39 صفحة)، والفصل 47 و48 في أدب الكسب والارتزاق (64 صفحة).

6 ـ منهجيّة الكتاب

من الملاحظ أنّ المؤلّف، في كتابه هذا، ركّز جلَّ اهتمامه على النقل والإفادة من الآيات والروايات وأخبار وحالات الصحابة. وذلك كمنهج أساس يحاول من خلاله إقناع القارىء وحمله على التسليم بمتبنيات الكتاب. ويصرّح المكّي في نقله للأحاديث والأخبار بأنه يعتمد في أغلب الموارد على قوة استذكاره. وكثيراً ما ينقل الرواية أو الخبر بالمضمون. كما نقل جزءاً يسيراً من الجوامع الروائيّة التي كانت في

متناول يده. ويورد جملة شواهد لتأييد منهجه هذا وتدعيم من كلمات الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وابن عباس، وأنس بن مالك[1].

وقد أكّد المؤلّف، بشكل رئيس، على التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم في إثبات مدعيات الكتاب. ومن جهة أخرى هو يرى العقل بمثابة أداة لفهم القرآن والسنّة، نظير ما يقال في غير المستقلاّت العقليّة في علم أصول الفقه. وأمّا العقل كمصدر مستقلّ لكشف الأحكام الأخلاقيّة، أو في استصدارها، فهذا مما لا يقرّ به المؤلّف بحسب ما يفهم من محصل ما ورد في كتابه. ومن هنا، فإنّ الجهد التحليلي الذي بذله تركّز على كشف الملازمات العقليّة للخطابات الشرعيّة. وبصورة عامة، فإن أبرز ما يتميّز به المشرب العرفاني، لأبي طالب المكّي، هو التمسّك بالشريعة وأحكامها، ومحاولة بلْوَرَة مشرب عرفاني يتّسم بالوضوح والبساطة، محورهُ الزهد مع التأكيد على ترويض النفس وتهذيبها[2].

ويعتقد المؤلّف أنّ الجوع، والسهر، والصمت، والخلوة، أساس السلوك. ويؤكّد على المراقبة المستمرة. والملاحظ أنّ المنهج التربوي الذي أقتفى أثره، في هذا الكتاب، هو تلفيقي، أو قل ثنائي مزدوج، بمعنى أنه كما أفاد من المنهج المعرفي، كذلك نجده قد أفاد أيضاً من المنهج السلوكي. فهو في الوقت الذي يسعى فيه إلى تعريف القارئ بحقيقة الدنيا ومتاعها، وطبيعة النفس الأمّارة والأهواء النفسية، وعظمة

(1) أبو طالب المكّي، **قوت القلوب**، ج 1، الفصل 31، ص 356.
(2) المصدر نفسه، ص 194 ـ 205.

العالم العلوي وجماله، تجده يؤكّد على ضرورة الالتزام بالمناسك والأحكام العمليّة والآداب، سواء منها المنصوص عليها في الشريعة، أم التي سار عليها الأولياء والأوصياء، ليسعى بذلك إلى الأخذ بأيدي طلاب مقام اليقين إلى الهدف الأخير، خطوة خطوة ومرحلة بعد أخرى.

ومن الخصائص التي يشترك بها كتاب **قوت القلوب** مع جملة كتب أخرى، نظير: كتاب **التعرف** للكلاباذي، و**اللمع** للسراج، ونوعاً ما **الرسالة القشيرية**، هي الاهتمام المتميّز بالتعريف بمسلك التصوّف والدفاع عنه، إلى جانب البحوث الأخلاقيّة والعرفانيّة. ولهذا نجد أنّ مساحة، لا بأس بها من هذه الكتب، قد تمّ تخصيصها لهذا الجانب. وأمّا كتاب **قوت القلوب** فهو، بغضّ النظر عما فيه من توسّع واسترسال في هذا المجال، يفوق سائر الكتب الأخرى؛ لأنه أساساً قد تمّ تكريسه لبحث جملة الواجبات التي ينبغي للعرفاء وأرباب القلوب أن يتوافروا عليها في سلوكيّاتهم القائمة على الزهد والتقشّف. وبعد ذلك، وبشكل استطرادي وثانوي، راح يصور سيماء أهل السلوك ويثني عليهم.

7 ـ أدبيّات الكتاب

من أبرز ما اتّسمت به المدرسة العرفانيّة، لأبي طالب المكّي، على صعيد النثر ـ والتي تجلّت في أسلوب قلمه في **قوت القلوب** بصورة واضحة ـ هو البساطة في التعبير وخلوّه عن التعقيد. وعلى الرغم من إلمامه الكامل بالمفردات الفنيّة والتخصّصية في مجال التصوّف، ومعرفته التامة بالاتجاهات اللّغويّة، والتمثيليّة، والشطحيّة، والاستعارة التي عليها أسلاف المتصوّفة وروادهم، إلّا أنّ المؤلّف ألزم نفسه بأدبيّات أقرب ما

تكون إلى الشريعة. ومن هنا نجده قد توافر على بيان سلس ومترسل بلا إغلاق وعارٍ عن المفردات الفنيّة العرفانيّة.

ولم يغفل المكّي جانب «الشعر» ومدى أهميّته. ولذا فقد استفاد منه بما يتناسب مع شأن كتاب عرفانيّ ـ أخلاقيّ، على غرار **قوت القلوب**، إذ يبدو أنّ نسبة إستفادته من الشعر قليلة قياساً بكلام الوحي والذي يأتي بالدرجة الأولى، ثم الأخبار والمأثورات.

وأمّا «العبر» من أحوال رسول الإسلام (ص)، وصحابته، ومشايخ الصوفيّة، فقد استطاعت أن تخرج الكتاب من الرتابة الباعثة على السأم. وبصورة عامة، فإنّ أدبيّات هذا السفر القيّم تُعدّ مَعْلَماً شاخصاً للتصوّف الواضح البسيط، القائم على أساس الزهد، والملتزم بنهج الشريعة في الأدوار الأولى للعرفان الإسلامي.

8 ـ التقييم النهائي

لا شك في أنّ كتاب **قوت القلوب** من عيون التراث في مجال الأخلاق العرفانيّة التي قل نظيرها، إذيمتاز بالعديد من نقاط القوة، منها: تضمُّنه لعناوين جامعة تشمل جميع مجالات الأخلاق، أعمّ من أخلاق العبوديّة، والأخلاق الفرديّة، وأخلاق الأسرة، والأخلاق الاجتماعيّة. ومنها: توافره على منظومة عرفانيّة متشرعة. ومنها: اهتمامه الكبير بالقرآن الكريم، وحرصه على اكتشاف تعاليمه التربويّة. ومنها: الإفادة من أكثر من منهج تربويّ في زمان واحد، إذ تضمّن الكتاب المنهج المعرفي والمنهج السلوكي العملي، في خطابه التربوي. ومنها: بساطة التعبير، وسلاسة البيان، والإيقاع الوجداني الدافئ والآسر.

ومع كلّ هذه المميّزات، إلّا أنّ الكتاب لا يخلو من مواطن ضعف، نشير هنا إلى بعضها:

ـ افتقاره إلى نظام منطقيّ، وتبويب واضح، وترتيب لفصول الكتاب.

ـ إطناب في بعض الأبحاث في عدد من الفصول.

ويمكن القول، عموماً، إنّ بإمكان هذا الكتاب أن يرقى ليكون من أفضل مصادر الفكر الأخلاقي الإسلامي، في المجال العرفاني، إذا أعيد تنظيمه وتلخيصه، من قبل خبراء ومختصّين. وعلى كلّ حال، فإن الفصول العشرة (من الفصل 23 إلى الفصل 32) تُعدّ من أهم وأبرز مصادر الأخلاق العرفانية، وذلك نظراً لسبقها التاريخي على أكثر ما ورد في تراث التصوّف الإسلامي، وتأثيرها الكبير والحاسم على كبار العرفاء.

3

ثلاث رسائل لأبي عبد الرحمن السُّلَمي(1)

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السُّلَمي الأزدي النيسابوري. ولد عام 325 أو في عام 330 هـ في نيسابور، وتوفّي عام 412 هـ. لا تُقدّم لنا المصادر الموجودة إلّا النزر اليسير حول حياته(2). تعلّم على يد جدّه لأُمّه، إسماعيل بن جُنيد السُّلَمي، الذي كان أحد كبار فرقة الملامتيّة وعُرف في الوقت ذاته بأنه كان محدّثاً مشهوراً. وقد كان أشعريّ الاتجاه في الأصول، بينما كان يتّبع مدرسة الشافعي في الفروع.

يبدو أنَّ السُّلَمي كان يضع نصب عينيه ـ في جميع مؤلّفاته وآثاره ـ غايتين: إحداهما الذبُّ عن التصوّف أمام منتقديه، والأخرى نشر علم التصوّف. وهو في ذلك لم يكن يُظهر متبنياته بشكل مباشر، وإنما كان

---

(1) أبو عبد الرحمن السُّلَمي (ت 412هـ)، **مجموعة آثار عبد الرحمن السُّلَمي**، جمعها نصر الله بورجوادي، طهران، مركز النشر الجامعي، 1411 هـ، ط 1، ج 1، 502 صفحة من القطع الوزيري. المؤلف نفسه، **درجات المعاملات**، ص 465، ج 495؛ أيضاً المؤلف نفسه، **جوامع آداب الصوفية**، ص 341 ـ 408؛ وكذا، **عيوب النفس ومداواتها**، ص 464 ـ 409.

(2) انظر: أبو عبد الرحمن السُّلَمي، **طبقات الصوفية**، مقدّمة شريبة، ص 16 وما بعدها.

يقوم بدور الجامع لآراء الصوفيّة فحسب، إذ نهض بمهمة تدوين آراء المشايخ السابقين وأقوالهم (الذين سبقوه بجيلين أو ثلاثة أجيال). ويُعزى سبب سعة تراث السُّلَمي وتنوّع موضوعاته، إلى أنه اضطلع بدور الجامع لتلك الآثار، مضافاً إلى سعيه واهتمامه بمخاطبة شرائح وفئات عدّة من الناس[1]. ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعل تصانيفه تلقى انتشارا وقبولاً، وتباع بأغلى الأثمان، وغدا أهل العلم والعرفان يبدون رغبة فائقة فيها، ويتحمّلون العناء من أجل سماع روايته والحصول على إجازة رواية آثاره[2]. وتجدر الإشارة إلى أنّ الإقبال الكبير كان في الأغلب منصبّاً على أعماله الرئيسة والكبيرة وهي: **حقائق التفسير**، **وتاريخ الصوفيّة**، **وطبقات الصوفية**. واشتهر السُّلَمي أيضاً بكثرة التأليفات التي بلغت ـ بناءً على ما أورده كاتب ترجمته، أبو سعيد الخشاب ـ، سبعمائة مجلّد في التصوّف وثلاثمائة مجلّد في الحديث[3]. ومن أهم آثاره: **كتاب السماع**، **نسيم الأرواح**، **كلام الشافعي في التصوّف**، **والأربعين في الحديث**.

أ ـ جوامع آداب الصوفيّة

هذا الكتاب هو في شرح عادات الصوفيّة وتقاليدها وتعاليمها الخاصة. وقد حقّقه إيتان كولبرغ، وطُبع ضمن مجموعة كتب تحت عنوان **مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السُّلَمي**. توجد ثلاث مخطوطات

---

(1) **مجموعة آثار أبو عبد الرحمن السُّلَمي**، جمعها نصر الله بورجوادي، مقدّمة كولبرغ على رسالة **جوامع آداب الصوفيّة**، ج 1، ص 315.

(2) شمس الدين الذهبي، **أعلام النبلاء**، ج 17، ص 248.

(3) المصدر نفسه، ج 17، ص 247.

للكتاب، إحداها «مخطوطة برلين» التي تحمل الرقم 3081، وهذه الرسالة هي الأثر التاسع ضمن مجموعة تتألّف من 182 صفحة، وتضمّ 19 أثراً، ستّة آثار منها للسُّلَمي. وقد تم استنساخ هذه المجموعة في حدود عام 1000 للهجرة، وهي موجودة حالياً في مكتبة جامعة توبينغن. والمخطوطة الثانية هي «مخطوطة لاله لي» التي تحمل الرقم 1516 ضمن مجموعة تتألّف من 119 صفحة، وهي مستنسخة بعد عام 1000 للهجرة. والمخطوطة الثالثة هي «نسخة ليدن» التي تحمل الرقم Or: 1-842، ونص هذه النسخة خلاصة للجوامع. وليس من المعلوم اسم الكاتب وتاريخ الكتابة[1].

تجدر الإشارة إلى أنّ تأليف الرسائل في شرح عادات الصوفيّة، وتقاليدها، وتعاليمها الأخلاقيّة الخاصّة قد بدأ قبل السُّلَمي بمدّة طويلة. ومن جملة الرسائل التي وصلتنا رسالة **آداب النفوس** للمحاسبي (ت 243 هـ)، و**أدب المفتقر إلى الله** للجنيد (ت 298 هـ)، و**أدب النفس** للحكيم الترمذي (ت بعد عام 318 هـ)، و**أدب الفقير** لأبي عبد اللّه الروذباري (ت 369 هـ).

وكان هدف السُّلَمي من تأليف الجوامع، كما أكّد هو، أن يوضّح الحقيقة للمنكرين على الصوفيّة، الذين ينتقدونهم من غير أن تكون لديهم معرفة كافية وصحيحة عن سيرتهم وآدابهم. وهذه الآداب، في رأي السُّلَمي، لا تتطابق مع مواقف أهل السنّة فحسب، بل تبتني بشكل مباشر على سيرة شخص النبيّ (ص)[2].

---

(1) مجموعه آثار عبد الرحمن السلمى، مصدر سابق، ص 328 ـ 330.
(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 317.

يحتوي نص رسالة **جوامع آداب الصوفيّة** على مقدّمة تقع في حوالي خمس صفحات و163 فصلاً قصيراً، يبدأ كلّ فصل منها بعبارة «من آدابهم». ويورد، عادة، في كلّ فصل آية أو آيات من القرآن وحديثاً وقولاً لمشايخ الصوفية، من أجل تبيين وتوجيه الأدب الذي يرمي إليه. ويوجد في الجوامع 26 آية من القرآن، و19 حديثاً عن الرسول، وأكثر من 250 قولاً من أقوال الصوفيّة. ونقل أبياتاً من الشعر في أربعة مواضع منها. ويختلف حجم مواضيع الفصول من فصل الى آخر. وأمّا من حيث النظام والترتيب، فلا تخضع موضوعات الفصول لنظام أو نسق محدّد، إلّا في بعض الحالات التي شرح فيها المؤلّف موضوعاً واحداً في فصول عدّة متوالية (مثل الفصول 47 إلى 49 و52 و53 و106 إلى 108)، أو جمع فيها الأقوال المنقولة عن شخص واحد، مثل أقوال السّري السقطي (الفصل 88 وحتى 99)، وبشر الحافي (الفصول 132 إلى 136)، والحلّاج (الفصل 83 إلى 87 و155 إلى 156).

لقد تطرّق السُّلَمي، في **الجوامع**، إلى بيان طبيعة العلاقة بين الشيخ والمريد وبين الإخوان. وبيَّن توجّهاته التربويّة والأخلاقيّة على أساس المنهج السلوكي. ويمكن تلخيص مضمون أقواله في أنَّ الصوفيّة يُحاربون، على الدوام، الشهوات والنوازع والملذّات النفسيّة ويتجنّبون الدنيا وأهلها ومتاعها، وينتقدون معايبهم النفسيّة بشدّة. وهم بذلك يعملون على تحرير أنفسهم من النفاق والكبر والعجب، ويعيشون على الدوام حالة من التنبّه إلى قرب الأجل وقصر الأمل، ويدركون مدى أهميّة الوقت، ويحرصون على استثماره. ويحرص الصوفيّة على أن يتّصفوا بالصِدق مع أنفسهم ومع غيرهم، وترك أيّ نوع من التنازع، مضافاً إلى عدم التظاهر بالوجد في مجالس السماع. وهم يواظبون أيضاً

على حفظ الأدب الظاهريّ وهو صون الجوارح عن اقتراف الآثام، والأدب الباطني ـ أو أدب السرّ ـ وهو طهارة القلب من العيوب. وهم يتوكّلون على الله؛ ولهذا يضعون التدبير والاختيار جانباً، ولا يسعون في طلب الرزق. وأخيراً يحرصون على رعاية كمال الأدب والاحترام بين يدي الله، ويسلكون طريقاً ينتهي بهم إلى العبوديّة المحضة.

ويتّضح من خلال هذه الخلاصة، أنّ الآداب التي شُرحت في **الجوامع** تُقسم إلى ثلاثة أقسام تتداخل أحياناً بعضها مع بعض. وهي: الآداب التي يجب مراعاتها مع الله، والآداب التي يجب مراعاتها مع النفس، والآداب التي يجب مراعاتها في العلاقة مع سائر المتصوّفة. وبعبارة أخرى: إنّ هذه الرسالة تطرّقت إلى أخلاق العبوديّة والأخلاق الفرديّة والأخلاق الاجتماعيّة (بمعناها الخاص؛ أي جماعة الصوفيّة). ولكن نادراً ما تحدّثت ـ أي الرسالة ـ عن علاقة الصوفيّة بغيرهم. وهذا مخالف تماماً لما سار عليه السُّلَمي في آداب الصحبة، لأنه تحدّث هناك أيضاً عن آداب معاشرة الصوفي مع من هو أكبر ومن هو أصغر منه، ومع الشيوخ والشباب وغيرهم[1].

ويمكن القول، عموماً، إنّ هذه الرسالة قد نجحت في رسم صورة واضحة نسبياً عن نظرة الصوفيّة، في عصر السُّلَمي، إلى الأخلاق والآداب الإسلاميّة. كما إنّ أسلوب تدوين هذه الرسالة سهل واضح، إلى جانب ذلك تُعدّ من الآثار الصوفيّة القليلة التي أكّدت على الجمع بين الظاهر والباطن (الشريعة والطريقة)، وإن كانت الرؤية الأشعريّة عند السُّلَمي تستقطب نظر القارئ لما فيها من تعاليم جبرية وخصوصاً في

(1) السلمي، **آداب الصحبة**، ص 69 ـ 70.

الفصول المتعلّقة بموضوع التوكّل، والتي انطلق فيها ـ من موقف جبري ـ إلى نفي الاختيار ونهي الإنسان عن التدبير.

ب ـ درجات المعاملات

وهذه رسالة أخرى من رسائل أبي عبد الرحمن السُّلَمي، وقد طُبعت لأوَّل مرّة ضمن **مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السُّلَمي** بتحقيق أحمد طاهري العراقي.

وقد تم التعرّف حتى الآن على مخطوطة واحدة من هذه الرسالة مكوّنة من إحدى عشرة صفحة وهي محفوظة في مكتبة برلين ضمن مجموعة تحمل الرقم 3081 (Sprenger 851)، ومحفوظة حالياً في مكتبة جامعة توبينغن.

وعنوان هذه الرسالة يوضح «المقامات والمنازل» التي يواجهها السالك أثناء طيّه لمراحل السير والسلوك. والمقصود من «الدرجات» هنا، هي تلك المقامات والمنازل، وإن كان الخواجة عبد الله الأنصاري (ت 481 هـ) قد استعمل في **منازل السائرين** الدرجة بمعنىً أخصّ من المقام، واعتبر كلّ مقام يشمل درجات عدّة. ولكن السُّلَمي سارَ على ما دأب عليه أكثر القدماء، واستعمل الدرجات في معنىً مرادفٍ للمنازل والمقامات.

والمقصود من «المعاملة» تعامل السالك مع الله تعالى. وهي إشارة إلى الأحكام الباطنيّة لمسائل السلوك الذي يجب أن يتّصف به السالك، في علاقته بالله؛ كالزهد، والإخلاص، والتوكّل، والخوف، والرجاء، وما إلى ذلك.

ونشير هنا إلى أنّه تحت عنوان «اصطلاحات وألفاظ صوفيّة»، قام السلمي بشرح «درجات السلوك» على نحو الإيجاز. ويبلغ مجموع الاصطلاحات هذه أربعة وأربعين اصطلاحاً. وقد استشهد خلال ذلك بآيات قرآنيّة في ثمانية مواضع، وبأحاديث في ستة مواضع ونقل شعراً في موضع واحد. ويتّصف ترتيب الاصطلاحات بدرجة من النظم والتنسيق إلى حد ما.

تبدأ هذه الرسالة، بعد مقدّمة مقتضبة، بتوضيح مصطلح «التوبة». وهي الخطوة الأولى التي يخطوها السالك. ويذكر «الإنابة» عقب التوبة ويعدُّها نوعاً من التوبة. ليعقبهما بالتقوى التي اعتبرها الحارث بن أسد المحاسبي أوّل منزل[1]. ثم يأتي «الزهد» الذي يُعتبر من المقامات وترتيبه هنا يعيد إلى الأذهان الترتيب الذي ذهب إليه أبو طالب المكّي (ت 38 هـ) ويؤكّد كلامه الذي يقول فيه: «لا يُنال الزهد إلّا بالخوف، لأن كلّ خائف قادر على الترك»[2]. كما إنه شرح «التوكّل» بعد الزهد، على غرار ما فعل المكّي أيضاً. وفي آخر الرسالة جاء على ذكر «الفناء والبقاء» و«الجمع والتفريق» باعتبارها آخر المقامات. وعلى الرغم من كلّ ذلك فإنَّ ترتيب الاصطلاحات في هذه الرسالة لا يتطابق مع الترتيب الذي ورد في سائر تراث الصوفيّة. ويُعزى سبب ذلك إلى أنّه لا توجد أساساً وحدة نظر في ترتيب وعدد المقامات والأحوال، إذ اختلفت كتب ومصادر الصوفيّة في هذا المجال بشدّة، هذا أوّلاً، وثانياً فلأنَّ الاصطلاحات المذكورة في هذه الرسالة، ليست كلّها من المقامات

(1) الحارث بن أسد المحاسبي، **الرعاية لحقوق الله**، ص 33 ـ 42.

(2) أبو طالب المكّي، **قوت القلوب**، ج 1، ص 528.

والأحوال وإنما جاء فيها ما هو شائع بين الصوفية من اصطلاحات وألفاظ أخرى. ولهذا لا يُرتجى أن تكون على ترتيب ونسق معيّن. وأخيراً فإنَّ المقامات والأحوال، لم تفصل عن بعضها في هذه الرسالة.

وهنا نشير إلى المصطلاحات والألفاظ التي تمّ توضيحها في هذه الرسالة وهي كالآتي: التوبة، الإنابة، التقوى، الخوف والرجاء، الزهد، التوكّل، الإخلاص، الوفاء، الفقر، الجود والسخاء، التفكّر، الحياء، العناية، الرضا، التصوّف، الخُلُق، الزيارة، السماع، الوجد والوجود والتواجد، الحق والحقيقة، المعرفة، اليقين، التفريد والتجريد، الفراسة، المحبة والعشق، الصدق، الشوق، علم اليقين وعين اليقين، الموافقة، المشاهدة، الأُنس، السكر، الفناء والبقاء والجمع والتفريق.

وكما ذكرنا سابقاً، يمكن ملاحظة أنّ بين عناوين مصطلاحات هذه الرسالة، جملة من الاصطلاحات الأخرى للصوفيّة، عدا المقامات والأحوال، مثل «الفراسة» التي يعتبرها السُّلَمي نوراً يقذفه الله في قلب العبد فيرى فيه المغيّبات. وكذلك «الزيارة» التي لم يقتصر فيها على الاعتراف بزيارة قبر رسول الله (ص) فقط والاستشفاع به لقضاء الحاجات، وإنّما ذكر فيها الأنواع الأخرى للزيارة (بمعناها العام).

وتتّسم رسالة **درجات المعاملات** بأسلوب سلس وبسيط، غير أنّ الإيجاز واختصار العبارات قلّل أحياناً من وضوحها المفهومي. وكما ذكر المصنّف نفسه في ختام هذه الرسالة، فهي تتطلّب مزيداً من التوضيح والإكمال. وعلى العموم، فلو أردنا مقارنة هذه الرسالة مع سائر آثار المتصوّفة التي اهتمّت بشرح وتبيين المقامات والمنازل، مثل **منازل السائرين**، فلن تمتاز عنها من ناحية غنى المحتوى وكثرة الموضوعات.

ونظراً إلى التقدّم الزمني لآثار أبي عبد الرحمن السُّلَمي، فإنَّ هذا الأثر يمكن أن يكون بمثابة الإرهاصات الأولى لمثل هذا النمط من الآثار.

ج ـ عيوب النفس ومداواتها

رسالة أخرى من مؤلّفات السُّلَمي في الأخلاق، اهتمّ بتحقيقها إيتان كولبرغ، وطبعت ضمن **مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السُلَمي**. وتوجد حتى الآن ثلاث مخطوطات من هذه الرسالة وهي: مخطوطة برلين التي تحمل الرقم Sprenger 851 = 3131، ومخطوطة المتحف البريطاني وتحمل الرقم Or. 3122، ويعود تاريخ كتابتها إلى القرن الثاني عشر للهجرة، ومخطوطة كوبرولو التي تحمل الرقم 8/ 1603، وتاريخ كتابتها هو عام 739 هـ[1].

ومن المفيد القول هنا إنّ المنهجية التعليميّة التي تتّصف بها هذه الرسالة، ورغبة مصنّفها الواضحة في نقل الآيات القرآنيّة والأحاديث، تشيران إلى أنّه كان يهدف من ورائها إلى التحدّث إلى عوام الناس، غير أنّ هذه الرسالة، في الوقت نفسه، مفيدة للمريدين أيضاً. ولهذا السبب حظيت بالاهتمام في القرون التالية حتى إنها نُظِمت شعراً في القرن التاسع للهجرة[2]، وكتب عليها شرح في القرن العاشر للهجرة[3].

وتضمّ رسالة **عيوب النفس** مقدّمة و68 بنداً موجزاً. وهي تهتم ببيان

---

(1) **مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السلمي**، مقدمة كولبرغ على رسالة **عيوب النفس**، ج 1، ص 330.

(2) أبو العباس أحمد بن محمد بن زرّوق البرنسي (ت 889 هـ)، **الأنس في شرح عيوب النفس**، انظر: بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج 4، ص 87.

(3) بقلم محمد بن علي الخرّوبي الصفاقسي (ت 963 هـ) انظر: بروكلمان، مصدر سابق.

عيوب النفس وكيفية مداواتها. ويبدأ كلّ بند بعبارة «ومن عيوبها»، ويستأنف الحديث بعبارة «ومداواتها».

ويمكن القول، عموماً، إنّ الفهرست الذي حملته هذه الرسالة، عن عيوب النفس، يبيّن أنّ بعض العيوب ناتجة من عدم الإخلاص والإيمان بالله. وهي تؤدّي إلى سلب نعمة التوكّل على الربّ، أو تؤدّي به إلى التقصير في أداء الفرائض الدينيّة أو أدائها مع الغفلة. ومن العيوب الكبرى للنفس «العُجُب» الذي يؤدّي بالمرء إلى الإعجاب بذاته والرضا عن نفسه. كما أنّ الشهوات الدنيويّة خطر آخر يهدّد النفس على الدوام، ويؤدّي إلى الخواطر الرديئة، والهوى، والنَهَم، والطمع، والحرص على مال الدنيا، والبخل، والغضب، والكذب، والحَسَد، وهو ما ينتهي بالإنسان إلى «الغرور» والتصديق بما يبديه له الآخرون من مديح كاذب وأباطيل، والميل إلى مجالسة الأغنياء وأعداء الحق والمعرضين عنه، والتظاهر بالفقر والتوكّل، واستشعار الراحة والسرور بالدنيا بسبب الغفلة عن عواقب الأمور. وفي مجال معالجة عيوب النفس، أكّد على عنصر المجاهدة والسعي، مع بيان السبل الكفيلة بإيجاد العزم على هذه المجاهدة.

لقد انتهج السُلَمي، في هذه الرسالة، أسلوباً تربوياً سلوكيّاً، سعياً وراء تربية قُرّاء **عيوب النفس** تربية أخلاقيّة، من خلال ما نقله فيها من آيات، وأحاديث، وأقوال، وأحوال، ومعتقدات الزُهاد الأوائل الذين كانوا يعتبرون رسول الله (ص) أسوتهم الحسنة. وقد استند في هذه الرسالة إلى القرآن والأحاديث (89 مرّة)، أكثر من استناده إلى أقوال الزهّاد والمتصوّفة (39 مرّة)، واستشهد بالأشعار في مواضع قليلة (3 مواضع)، ولا يوجد أثر لنقل الحكايات والقصص.

إن الأسلوب الذي اتّبعه السُّلَمي في كتابة رسالة **عيوب النفس ومداواتها** سلسٌ وبسيط، مثلما هو الحال في سائر رسائله. وما ذكره فيها من عيوب جديدة ومتنوّعة للنفس، مما لا ينتبه إليه الناس عادة، جعل هذه الرسالة أكثر جاذبيّة. وهذه الميزة جعلتها من المتون الجديرة بالاهتمام في التراث الأخلاقي الإسلامي المكتوب، في حقل الأخلاق والتربية. ولا بدّ من الإشارة طبعاً إلى أنَّ ميزة الكتابة الصوفية للمؤلّف، في بيان سبيل معالجة عيوب النفس، مشهودة بكلّ وضوح منذ الوهلة الأولى وتسترعي نظر قُرّاء هذه الرسالة.

ومِن العيوب التي تفَطّنَ إليها السُّلَمي بذكاء، ونبّه إليها في هذه الرسالة، عدم التذاذ النفس بطاعة الله وعبادته. ويعزو سبب ذلك إلى أمور، هي: قلّة الإخلاص في العمل، وشوب الطاعة بالرياء، وأُنس النفس بالخواطر الرديئة، والانشغال بالظواهر، والتظاهر بالخشوع والتعبّد، وطلب الأجر لقاء الأعمال التي يؤدّيها (يعتبر نفسه ذا مَنٍّ على الله)، وطلب الخير من الله في بداية اتخاذ القرار، وعدم الرضا بما يقسمه له ربّه ويرتضيه له، في نهاية الأمر؛ والحرصُ على إعمار الدنيا، وعدم الانتباه في طلب الرزق إلى ما ضمنه الله تعالى، وترك الواجبات العينيّة من أجل طلب الرزق والغوص في دقائق وتفاصيل العلوم من أجل استمالة نظر الآخرين، والميل إلى معاشرة ومرافقة الأتراب والأصدقاء، والتهرّب من الوحدة والخلوة، وعدم الاعتبار للفرص التي يتيحها الله لترك الذنوب، والاقتناع ـ في أفعال الخير وأقواله ـ بما يعلم ويعمل، وترك السعي للاستزادة من الخيرات، والإصرار على الذنب أملاً بالمغفرة والرحمة الإلهية، ومصاحبة المخالفين للحق والمعرضين عنه،

والانهماك في أسباب التنعّم والفرح والبهجة، واللامبالاة وعدم الجدية في التعامل مع الأمور. وأخيراً، من العيوب أن يرى الفرد نفسه في مقام الصبر، ناظراً بذلك إلى منغّصات الحياة، فيغفل عن شكر الرب للنِعم الإلهيّة التي تترى عليه في كلّ آنٍ ولحظة.

4

الإشارات والتنبيهات
(النمط التاسع، مقامات العارفين)[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

مؤلّف هذا الأثر هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (428 ـ 370 هـ) أكبر الفلاسفة المشّائين، والطبيب الإيراني المعروف في العالم الإسلامي[2]. وقد استطاع بفضل ما كان يتّصف به من نبوغ وذكاء بارع، أن يتقن علوم عصره في مدّة وجيزة. كان في سن الثانية والعشرين حين توفّي والده، فاضطرَّ إلى العمل في بعض الشؤون الديوانيّة في حكومة الأمير الساماني عبد الملك الثاني، من أجل تأمين أمور معاشه ومنذ ذلك الوقت شهدت حياته الكثير من التقلّبات.

خلّف ابن سينا تراثاً ضخماً، معظمه في الفلسفة، والعرفان، والطب. ومن مؤلّفاته الأخلاقية، رسالة تتألف من صفحات عدّة، عنوانها **رسالة في علم الأخلاق**، وهي مكتوبة على منوال «الأخلاق الفلسفيّة».

---

(1) الحسين بن عبد الله (ابن سينا)، (428 ـ 370 هـ)، **الإشارات والتنبيهات**، تحقيق مجتبى زارعي، قم: بوستان كتاب قم، 1423 هـ، ج 1، 448 صفحة، من القطع الوزيري.

(2) انظر كتاب: أبو الحسن علي بن زيد البيهقي، **تتمّة صوان الحكمة**؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في معرفة الأطباء**؛ القفطي، **تاريخ الحكماء**.

وقد طبعت في القاهرة في عام 1326 هـ ضمن مجموعة من تسع رسائل في الحكمة والطبيعيّات.

تضمّن تراث ابن سينا كتابات عدّة، حاول فيها بيان مراحل السير والسلوك العقلي للإنسان في صيغة رموز واستعارات. وأهم هذه الكتابات **رسالة حي بن يقظان**، و**رسالة الطير**، و**رسالة سلامان وأبسال**. وله أيضاً قصيدة عينيّة في طبيعة النفس. وقد كتب الشيخ الرئيس في ترجمته لحياته: «صنّفت لأبي بكر البرقي كتاباً، في الأخلاق، سمّيته **كتاب البرّ والإثم**[1] وهو لا يوجد إلّا عنده، إذ إنه لم يُعِرْ أحداً بنسخ منه»[2].

2 ـ النسخ والطبعات

أقدم مخطوطة لهذا الكتاب، هي المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية الإيرانيّة، وتحمل الرقم (1015/4، ق 5)، والمخطوطة المحفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في طهران وتحمل الرقم (5085 ق. 7 و8). وتوجد أيضاً مخطوطة تعود إلى القرن الحادي عشر وهي محفوظة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي وتحمل الرقم (6525). وذكر محقّق الكتاب، في مقدمة التحقيق، مخطوطات أخرى كُتبت مع شرح الحكيم الطوسي[3].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

كان كتاب **الإشارات** بسبب ما يتّصف به من رصانة علميّة واختصار

(1) ذُكر هذا الكتاب في **الذريعة**، بعنوان البرء الأتمّ.
(2) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في معرفة الأطباء**، ص 439.
(3) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، مقدمة مجتبى زارعي، ص 20 ـ 19.

في العبارات، موضع اهتمام العلماء والحكماء على الدوام. وكان يُتّخذ كمنهج دراسي معتَبر، في المستويات العليا من الدراسات الفلسفيّة. ولهذا السبب كُتبت عليه شروح عدّة، نعرض في ما يلي بعضاً منها:

شرح الإشارات، فخر الدين الرازي؛ **حلّ مشكل الإشارات** المعروف بـ **شرح الإشارات**، نصير الدين الطوسي؛ **الإشارات إلى معاني الإشارات**، العلّامة الحلّي؛ **بسط الإشارات**، العلّامة الحلّي؛ **إيضاح المعضلات من شرح الإشارات**، العلّامة الحلّي؛ **شرح الأصول والجمل**، سعد الدين ابن كمونة؛ **زبدة النقض ولباب الكشف**، نجم الدين النخجواني؛ **شرح الإشارات**، أمير معصوم القزويني؛ **شرح الإشارات**، كامل الدين البحراني؛ **المحاكمات بين شرحَيْ الإشارات**، محمد بن محمد قطب الدين الرازي البويهي؛ **لباب الإشارات**، فخر الدين الرازي؛ الفصل الأخير من المجلّد الثالث من **بحر المعارف**، مولى عبد الصمد الهمداني وهو عبارة عن إعادة صياغة وشرح **لمختصر الإشارات**. وذكر آقا بزرك الطهراني شروحاً وحواشي كثيرة أخرى[1]. ومن المعاصرين الذين كتبوا حول **كتاب الإشارات**، حسن ملك شاهي إذ قام بترجمة الإشارات وشرحها بالفارسيّة، والشهيد مرتضى مطهري الذي قام بترجمة كلّ من النمط الرابع، والنمط الثامن، وجزءٍ من النمط التاسع من **كتاب الإشارات** مع الشرح والتوضيح.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يعدّ النمط التاسع من **الإشارات** أثراً أخلاقيّاً قبل أن يكون أثراً

(1) **الذريعة**، ج 6، ص 110.

عرفانياً. وأكثر ما ينصبّ اهتمام المؤلّف، في هذا الأثر، على تبيين الحالات العارضة على العارف في مسير وصال الحق[1]. ولكنّ هذه المقالة لا تغطّي، أبداً، كلّ مجالات الأخلاق، لا على صعيد أخلاق العبوديّة، ولا على صعيد الأخلاق الفرديّة أو الاجتماعيّة أو الأُسريّة. وإنما ركز المؤلّف اهتمامه فيها على تبيين «السلوك الفردي» المؤدّي إلى البهجة والسعادة الحقيقية فقط. وهو لا يعرض، فيها موضوعاً جديراً بالاهتمام، سوى الإشارة إلى بعض الصفات الأخلاقيّة المختارة والمهمّة، بالنسبة إلى العارف.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

ذكر المؤلّف، بعد بيان الفارق بين الزهد، والعبادة، والعرفان، وكذلك كيفية زهد وعبادة العارفين، إشارات في وصف أحوالهم في سلوك طريق الحق. وبيّن تسع درجات من درجات أهل السلوك، بعدما قدّم توضيحاً حول الإرادة والرياضة، بالترتيب التالي: الوقت (خلسات من مشاهدة نور الحق)، التوغّل (حصول الاتصال بالحق بنحو الملكة والتي تحصل في غير حال الرياضة)، الاستيفاز (حالة من عدم الاستقرار، تحصل على أثر غلبة الأحوال)، الانقلاب (تبديل الوقت إلى سكينة وحصول المعارفة المستقرّة)، التغلغل (الاستغراق في المعارفة بحيث لا يظهر عليه الابتهاج)، المشيئة (حصول المعرفة الخاصّة بمجرّد إرادة السالك)، التعريج (مشاهدة تجلّيات الحق في الأشياء، ودوام

(1) خلافاً لكتب مثل منازل السائرين واللّمع، التي تعتبر من آثار مدرسة الأخلاق العرفانيّة وتُبحث فيها عادة مفاهيم وموضوعات أخلاقيّة مثل: الورع، والزهد، والصبر، والتوكّل، والرضا، والخوف، والرجاء، وما شابه ذلك.

الاتصال به، والعروج من العالم الكاذب إلى العالم الصادق)، التردّد (تبدّل سرّ الإنسان إلى مرآة كاشفة عن الحق وإدراك اللّذائذ العليا، في وقت ما زال فيه السالك متردّداً بين الحق وذاته ولم يحصل له بَعدُ انقطاع كلّي عن ذاته)، والوصول (الغفلة عن الذات، والملاحظة التامّة لجناب القدس)(1). ثم بيّن خصائص عدّة من الخصائص الأخلاقيّة للعارف.

وتناول الشيخ، في النمط الأخير من **الإشارات**، الذي جاء بعد هذه الرسالة، كيفيّة صدور الكرامات وخوارق العادات، من العارفين وعرض توجيهاً فلسفياً لها. كما بيّن في النمط الثامن من **الإشارات** (البهجة والسعادة) المبادىء الفلسفيّة للأخلاق. مما هو خارج عن إطار بحثنا.

6 ـ منهجيّة الكتاب

من المؤكّد أنّ الشيخ قد أخذ بعين الاعتبار الكتب العرفانيّة التي سبقته واستفاد منها عند تنظيم هذه الرسالة. غير أنّ أسلوب بيانه، في مقامات العارفين، مبتكر تماماً وليس له نظير من قبل، ولم يسر على خُطاه أحد من بعده. إذ يتطرّق الشيخ، في هذا الكتاب، إلى بيان المعطيات المعرفيّة الحاصلة من الرياضة خلافاً لسائر الكتب العرفانيّة، فلم ينظر إلى الالتزامات العمليّة والسلوكيّة المنبثقة من التدرّج في مدارج معرفة الله، فهو يفصل بين المقامات تبعاً لدرجات معرفة

---

(1) اصطاد الخواجة في شرحه هذه العناوين من بين ثنايا عبارات الشيخ، فالشيخ نفسه لم يُسَمِّ المقامات التسعة بهذه التسميات.

السالك، ولذلك يأتي بعناوين مثل: الوقت، والتوغّل، والانقلاب، وما شابه ذلك، والتي تنظر كلّها إلى مراتب من المعرفة الموهوبة. بينما نلاحظ في سائر كتب العرفان عناوين كالتوكّل، والرضا، والخوف، والتسليم، والصبر، والتي تعبّر عن خصائص سلوك السالك بما يتناسب مع درجة معرفته. وهذه الرسالة، كما الحال بالنسبة إلى كتاب **منازل السائرين**، تتناول وصف «منازل السلوك» فقط، من غير أن تستند إلى أيّ دليل عقليّ أو نقليّ. هذا في حين أنّ أكثر كتب العرفان تستند، على الأقل، إلى أدلّة نقليّة لتأييد محتواها. ولا يُلاحظ في هذه الرسالة، اهتمام بالتعاليم التربويّة، إذ إنّ مؤلّفها لم يكن بصدد بيان الأساليب التربوية.

7 ـ أدبيّات الكتاب

مما يلاحظ، عموماً، على تراث الشيخ الرئيس خلوُّه من الدقائق والمحسّنات الأدبيّة؛ إذ إنّ القالب العلمي الجاف قد ألقى بظلاله على عباراته؛ ولكنه في هذا الكتاب ـ وعلى الرغم من رغبته الواضحة في الإيجاز، حاول التعبير عن مراده بأزهى حُلّة، مع الاستفادة من الصناعة الأدبيّة وخاصّة السجع. ولكن في الوقت ذاته، إنّ إيجاز العبارات وما تقتضيه طبيعة البحث وبُعد المفاهيم الباطنيّة عن متناول الأيدي، جعل فهم مراد الشيخ أصعب مما عليه الحال في الآثار المشابهة، ودفع الشارحين إلى التكلّف في توضيحها. كما لا يُشاهد، في هذه المقالة، أثر من الآيات القرآنيّة أو شيء من الأحاديث، أو الحكايات، أو الأشعار، ولا أقوال السلف. نعم، ثمة شيء واحد ورد في مستهلّها وهو الإشارة إلى قصّة **سلامان وأبسال** الرمزيّة.

8 ـ التقييم النهائي

النمط التاسع من **الإشارات** يتألّف من صفحات عدّة، وغايته تسليط الضوء، بنحو إجمالي، على أجواء العرفان العملي وأحوال العارفين. ولكن بما أنّ الأسلوب الذي سار عليه، في بيان المقامات، أسلوب مبتكر، لذلك فإنَّ قراءة هذا الكتاب لا تربط القارئ بالتراث العرفاني الموجود، ولا تغنيه عن قراءة الكتب العرفانيّة الأخرى.

5

الرسالة القشيريّة[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

المؤلّف هو أبو القاسم القشيري النيشابوري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، من كبار العلماء والمؤلّفين ومن مشاهير المتصوّفة في القرن الخامس (465 ـ 377 هـ). وينحدر من أصل عربي، من منطقة تدعى «الاستواء» تقع في أطراف مدينة نيشابور. ويعود نسبه ـ من جانب الأب ـ إلى قشير بن كعب بن ربيعة، ومن جانب الأم إلى محمد بن سليمان السلمي. وقد عُدّ القشيري، في مجال العرفان والسير والسلوك، من تلامذة أبي علي الرقّاق وأبي عبد الرحمن السلمي (صاحب طبقات الصوفيّة). وهو أشعريّ المذهب، وتلميذ ابن فورك الأصفهاني وأبي إسحاق الإسفرايني، وأمّا في الفقه والفروع، فهو شافعيّ المسلك، ومن تلامذة أبي بكر محمد بن بكر بن محمد الطوسي النوقاني. مصنّفاته في الأخلاق هي: **الأربعون في تصحيح المعاملة، نحو القلوب وترتيب السلوك**. كما أثر عنه كتاب في التفسير تحت عنوان: **التفسير الكبير (التيسير في علم التفسير)**.

---

(1) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيشابوري، **الرسالة القشيرية في علم التصوف**، تحقيق وإعداد معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، بيروت، دار الجيل، [بدون تاريخ]، ط 2، ويقع في 477 صفحة، قطع وزيري.

2 ـ النسخ والطبعات

تعدّ هذه الرسالة من عيون التراث الصوفي ومن مصادره المهمّة، وقد طبعت مرات عدّة، منها طبعة 1346 هـ، وطبعة 1359 هـ في القاهرة، وطبعة 1419 هـ في بيروت.

توجد نسخ خطّية عدّة لهذه الرسالة، منها النسخة الموجودة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي في قم، (برقم 183، بتاريخ الثاني من جمادى الأولى، عام 891 هـ) بخط أحمد بن عيسى بن أحمد بن محمد الكنجي، والتي تمّ تصحيحها ومقابلتها في هامش الرسالة[1]. وتوجد نسخة في المكتبة الوطنيّة التابعة لمجلس الشورى الإسلامي (برقم 4233)[2].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

تُرجمت **الرسالة القشيرية** إلى اللّغة الفرنسيّة، كما قام أبو علي حسن بن أحمد العثماني (أحد تلامذة القشيري)، بترجمتها إلى اللّغة الفارسيّة. وقد صدرت هذه الترجمة، مع تصحيحات واستدراكات الأستاذ بديع الزمان فروزانفر عام 1340 هـ، عن مركز (انتشارات علمي وفرهنگي).

وبعد ذلك التاريخ، تلاحقت الطبعات لهذه الترجمة مرات عدّة. كما قدّم زكريا بن محمد الأنصاري ـ من مشايخ الصوفيّة (ت 910 هـ)، شرحاً للرسالة باللّغة العربية سمّاه **أحكام الدلالة على تحرير الرسالة**، وذلك عام 893 هـ[3]. كما قام مصطفى محمد العروسي عام 1271 هـ بكتابة تعليق

---

(1) فهرست النسخ الخطية لمكتبة آية الله المرعشي النجفي، ج 1، ص 198، رقم 183.

(2) فهرست مكتبة مجلس الشورى الإسلامي للكتب الخطية العربية والفارسية، ج 11، ص 251، رقم 4233.

(3) حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص 882.

مفصّل على الشرح المذكور سمّاه **نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرساله القشيرية**.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

تُعنى **الرسالة القشيريّة**، في معالجاتها الأخلاقيّة، بالأخلاق الفرديّة بشكل أساس، إذ تتعرّض إلى بيان المهام الروحيّة والمعنويّة للسالك في مسار العبوديّة، إلّا أنه لمّا كان المنهج الذي يتّبعه المصنف في إلقاء بحوثه، يبتني على أساس نقل قصص مشايخ الصوفيّة، وأحوالهم، وأقوالهم. من هنا، فإن ثمة موارد كثيرة دخل المصنّف من خلالها مجال الأخلاق الاجتماعيّة أيضاً، فمثلاً، على نحو التحديد، نشير إلى الباب الأخير للرسالة «باب الوصية للمريدين».

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

تقع **الرسالة القشيريّة** في طبعتها المحشاة، في 500 صفحة، وتشتمل على مقدّمة موجزة وفصلين و55 باباً.

وقد ذكر المؤلّف، في مقدّمته على الرسالة، أنّ رسالته هذه موجّهة إلى جميع المتصوّفة في البلاد الإسلاميّة، بداعي إنذارهم وتحذيرهم من خطر الفساد في الطريقة، إثر انقراض المحقّقين من هذه الطائفة، ومضيّ الذين كان بهم الاهتداء، وظهور جيل منحرف عن الصراط السويّ، قد ضيّع السُنن والآداب التي كان عليها أهل الحقيقة. والتذكير بالسيرة الصالحة لشيوخ هذه الطريقة.

ويُعنى الفصل الأول والثاني من الرسالة ببيان أصول عقائد الصوفيّة في خمس عشرة صفحة، تمّ التأكيد فيها على قضايا التوحيد والصفات

الإلهيّة بشكل أكبر. ويهدف المؤلّف، من تخصيص هذين الفصلين، إلى إثبات موافقة الأوتاد وأكابر الصوفيّة لعقائد أهل السنّة في القضايا الرئيسة.

بعد هذين الفصلين، يخصّص المؤلّف باباً مفصلاً، في حدود ثمانين صفحة، يشرح فيها حالات كبار الصوفيّة ومشايخهم ويورد طرفاً من أخبارهم، بدءاً بإبراهيم بن أدهم (ت 162 هـ)، وانتهاءً بـ «أبي عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري» (ت 369 هـ)، فيأتي على ذكر أكثر من ثمانين من مشايخ الصوفيّة. والملاحظ أنّ أغلب النقاط التي ذكرها، في هذا الباب، قد اقتبسها من كتاب **طبقات الصوفيّة** لأبي عبد الرحمن السلمي. ونظراً للدقة التي أعملها المؤلّف في ترجمة حياة المشايخ، يحظى هذا القسم من الرسالة، من الناحية التاريخيّة، بأهميّة فائقة على الرغم من الإيجاز الذي هو عليه. في مطلع هذا الباب، يقوم القشيري بتعريف مصطلح (الصحابة)، (التابعين)، (الصوفيّة)، معتبراً أنّ التصوّف مما اختصّ به الخواصّ، والزهاد، والعبّاد من أهل السنّة. وفي ترجمته لحياة المشايخ وبعد أن يورد تعريفاً مجملاً لكلّ واحد منهم، يذكر نبذة عن عقائدهم وأحوالهم. وفي خاتمة هذا الباب، يذكر عشرة من المشايخ من المعاصرين له، ويعتذر عن عدم ذكر طرف من أحوالهم وعقائدهم، خوفاً من الإطالة والإطناب.

ويؤكّد القشيري، مرة أخرى، أنّ الغرض من ذكر حالات وكلمات المشايخ المذكورين هو إثبات أنهم متّفقون ومجمعون على تعظيم الشريعة وتبعيّتهم للسنّة، والتزامهم التقوى والتديّن، وسلوكهم طريق الرياضة. وخلافاً لما يتوهّمه بعض، فإن أعمال وتصرّفات المشايخ لاتنأى بهم عن خط التديّن والتقوى.

في الباب الثاني، خصّص المؤلّف أربعين صفحة في تفسير أكثر من خمسين اصطلاحاً من اصطلاحات الصوفيّة. والظاهر أنّه سجّل آراءه وانطباعاته الشخصيّة، في توضيحه للاصطلاحات المذكورة. وفي محاولة منه لتدعيم كلامه وتوثيق ما يرد فيه من تقسيمات، أورد جملة من أقوال كبار مشايخ الصوفيّة. وربما أفاد في هذه الأثناء، من الشواهد القرآنيّة والروائيّة والشعريّة، إلّا أنه لم يتطرّق إلى الاختلاف الموجود في الآراء والأفكار. المصطلحات والألفاظ التي تمّ توضيحها في هذا الباب، هي كالآتي: الوقت، المقام، الحال، القبض، البسط، الهيبة، الأُنس، التواجد، الوجد، الوجود، الجمع، التفرقة، الفناء، البقاء، الغيبة، الحضور، الصحو، السكر، الذوب، الشرب، المحو، الإثبات، الستر، التجلّي، المحاضرة، المكاشفة، اللّوائح، الطوالع، اللّوامع، البواده، الهجوم، التلوين، التمكين، القرب، البعد، الشريعة، الحقيقة، النفس، الخواطر، علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين، الواردات، الشاهد، الروح، السر، الشريعة. ثم يورد المصنّف أكثر أقسام الرسالة تفصيلاً، والذي يتناول فيه الحديث عن مقامات ومدارج أرباب السلوك، في ثلاثمائة صفحة. وخلافاً للسّراج الطوسي في **اللّمع**، لا يراعي القشيري الترتيب ولذا نجده لا يفكّك بين الأحوال، والمقامات، والمعاملات.

وأمّا العناوين التي يعالجها المؤلّف في هذا الباب، فهي كالتالي:

التوبة، المجاهدة، الخلوة والعزلة، التقوى، الورع، الزهد، الصحة، الخوف، الرجاء، الحزن، الجوع وترك الشهرة، الخشوع والتواضع، مخالفة النفس، الحسد، الغيبة، القناعة، التوكّل، الشكر، اليقين، الصبر، المراقبة، الرضا، العبوديّة، الإرادة، الاستقامة،

الإخلاص، الصدق، الحياء، الحريّة، الذكر، الفتوّة، الفراسة، الخُلق، الجود والسخاء، الغيرة، الولاية، الدعاء، الفقر، التصوّف، الأدب، أحكام السفر، الصحبة، التوحيد، أحوال المشايخ عند الخروج من الدنيا، المعرفة بالله، المحبة، الشوق، حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم، السماع، إثبات كرامات الأولياء، رؤى الصوفية في المنام والنصيحة للمريدين.

وفي الباب الأخير الذي يعدّ كخاتمة، يورد المؤلّف وصايا مختلفة إلى المبتدئين من أهل السير والسلوك.

والملاحظ أنّه يبدأ كلّ باب من أبواب هذه الرسالة بآيات من القرآن الكريم، أو بروايات نبويّة تتناسب مع موضوع ذلك الباب.

وفي سياق معالجته للبحث المطروح في كلّ باب، يفيد من أقوال، وآراء، وحكايات الصحابة، والتابعين، ومشايخ الصوفيّة. ويصل عدد الذين ينقل عنهم القشيري، رواية أو حكاية، في هذا الباب، إلى 587 نفراً.

ومن بين المشايخ الذين استشهد المؤلّف بأقوالهم وكلماتهم، من بعد الروايات النبويّة، وحظوا باهتمامه أكثر من غيرهم، هم:

الجنيد بن محمد، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد، أبو علي الدقّاق، إبراهيم بن أدهم، أحمد بن عيسى الخراز، أحمد بن محمد النوري، بشر بن الحارث الحافي، أبو بكر الشبلي، ذو النون المصري، السرّي بن مغلس السقطي، أبو عثمان النيشابوري، سهل بن عبد الله التستري، أبو يزيد البسطامي ويحيى بن معاذ الرازي.

6 ـ منهجيّة الكتاب

يعتمد القشيري، في معالجاته المطروحة ضمن هذه الرسالة، على النقل (الروايات النبويّة، أحوال وأقوال مشايخ الصفويّة وغير ذلك) بشكل أساس، إذ انصبّت جهوده في الغالب، على استعراض معالم ومختصّات السيرة العمليّة ومواصفات النظام المعرفي الذي يرتكز عليه أهل التصوّف. وبصورة عامة، فإنّ المنهج التربوي الذي أفاد منه المؤلّف في الرسالة، ذو طابع معرفي، وإن أفاد في بعض الأحيان من المنهج التربوي السلوكي (خصوصاً في الباب الأخير من الكتاب).

7 ـ أدبيات الكتاب

يتمتّع المؤلف بقلم معبّر وسهل وبشكل عام هو خالٍ عن التعقيد ثمّ إنّ تضلّعه في علوم التفسير، والحديث، والأدب العربي، وكذلك معرفته وأنسه بكبار المتصوّفة، وفي النتيجة الاستعمال الكثير والمناسب للآيات، والروايات، والقصص الجذابة، والأشعار الجميلة ـ من الصوفيّة وغيرهم ـ كل ذلك قد زاد من جاذبيّة نصّه إلى حدٍ كثير.

8 ـ التقييم النهائي

يمكن القول عموماً إنّ **الرسالة القشيرية** تطرّقت إلى موضوعات متنوّعة وعالجتها ـ حيث ضمّت عناوين متعدّدة في مجالات متنوّعة، من قبيل: أصول عقائد الصوفيّة، سيرة المشايخ، شرح وتوضيح المصطلحات، مقامات ومدارج أرباب السلوك. وقد امتازت بترتيب ونظام مناسب وجيد (إذ بدأ ببيان أصول العقيدة وإيضاح المصطلحات، ومن ثم شرع في إعطاء إيضاحات حول المقامات)، إلى جانب تغطية

مناسبة للعناوين الخاصة بأخلاق العبادة، والالتزام بالدقة والأمانة في نقل الآراء والأقوال والأسلوب الكتابي السلس والشيّق.

ولكن، على الرغم من كلّ الإيجابيات التي توافرت عليها الرسالة إلّا أنّ ثمة نقاط ضعف قلّلت من قيمة الكتاب، من قبيل عدم التطرّق إلى المسائل والعناوين المتعلّقة بالأخلاق الاجتماعيّة وأخلاق الأسرة، وعدم الإشارة إلى اختلاف الآراء في ما يتعلّق بالمصطلحات الصوفيّة، وكذلك عدم مراعاة الترتيب في بيان المقامات.

6

منازل السائرين[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو إسماعيل عبد الله بن أبي منصور محمد الأنصاري الهروي الحنبلي، الملقب بشيخ الإسلام والمشتهر بشيخ هرات ـ الخواجة عبد الله الأنصاري ـ من مشاهير العرفاء في القرن الخامس الهجري (481 ـ 369 هـ). يعود نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري، من أصحاب رسول اللّه (ص). ولد في مدينة هرات والتي كانت تعيش آنذاك ـ كسائر بلاد خراسان ـ ازدهاراً وتطوّراً في مجال العلوم والمعارف الإسلاميّة[2].

لم يكن الخواجة يمتاز بمنزلة عالية في تاريخ التصوّف وحسب، بل عُدّ أيضاً من الوجوه اللاّمعة في سماء الأدب. وقد كان لإحاطته الشاملة بألفاظ ومعاني القرآن والحديث والمعارف الدينية، وكذلك خبرته الواسعة بالأدب العربي واللّغة الفارسية الدَرية[3]، وما حباه الله تعالى من ذوق وافر وحافظة قويّة وتجارب عرفانية، كان لكلّ ذلك أثر كبير على مؤلّفاته العربية منها والفارسية إذ أضفى عليها متعة ولطافة خاصة.

---

(1) الخواجة عبد الله الأنصارى (ت 481 هـ)، منازل السائرين، مقدّمة وإعداد علي شيرواني، قم؛ مؤسسة دار العلم، 1417 هـ، 151 صفحة حجم رقعي.

(2) الجامي، نفحات الأنس، ص 336، رقم 397.

(3) هي اللغة الفارسية القديمة.

وتتّسع مؤلّفات الخواجة لتشمل مجالات الوعظ، والخطابة، والتفسير، والحديث، والكلام، وحتى الأخلاق والعرفان وتعاليم الطريقة وأسرارها، وترجمة حياة مشايخ الصوفيّة ونقد آرائهم وأقوالهم[1].

من المهم القول إنّ جميع المصادر التي ترجمت حياة الخواجة، اتّفقت على أنّه كان يشنّ هجمات شديدة ضدّ المبتدعين وأصحاب الرأي، كما أكدت أنه كان شديداً في إقامة الدين والسنّة[2]. وتذهب المصادر إلى وجود ثلاث شخصيات من مشايخ العرفان وهم الشيخ أبو عبد الله الطاقي السجستاني، والشيخ أبو الحسن الخرقاني، والشيخ أحمد الجشتي[3]، كان لهم الأثر الكبير في تكوين شخصيته العرفانية وصقل مواهبها.

وأمّا في ما يتعلّق بتراثه، فقد عدّوا له 36 كتاباً، أهمها: **كشف الأسرار وعدة الأبرار، طبقات الصوفية، ذم الكلام، منازل السائرين، كنز السالكين، صد ميدان** (بالفارسيّة)، **علل المقامات، الهي نامه، ومناجات نامه**[4].

2 ـ النسخ والطبعات

كما هو الظاهر من المقدّمة الموجزة لصلاح الدين النجد، على

(1) الخواجة عبد الله الأنصاري، **مجموعة رسائل فارسية**، مقدمة محمد سرور مولايي، ص33.
(2) الخواجة عبد الله الأنصاري، **طبقات الصوفية**، مقدمة محمد سرور مولايي، ص 21.
(3) المصدر نفسه، ص 27.
(4) المصدر نفسه، ص 177 ـ 180.

كتاب **منازل السائرين** طبعة القاهرة، فإنّ «السير ج. بوركاي» هو الذي قام بتصحيح وتحقيق الكتاب، بعد مراجعة مضنية لـ 36 نسخة خطيّة منه يتراوح تاريخ كتابتها بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر الهجري وذلك عام 1960 م في القاهرة، وقام بطبعه في العام نفسه.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

ثمة كتب ورسائل عدّة، في بيان مقامات ومنازل العرفاء والسالكين، سبقت رسالة **منازل السائرين**، ويعود تاريخ أول تجربة كتابيّة في هذا المضمار إلى القرن الثالث الهجري. وهنا نشير إلى بعض هذه الرسائل:

1 ـ **مواطن العباد**، تأليف محمد بن إبراهيم (أبو حمزة) (ت 289هـ)[1].

2 ـ **مقامات القلوب**، تأليف أبو الحسين النوري، (ت 295 هـ)[2].

3 ـ **منازل العباد**، تأليف الحكيم الترمذي (ت حوالي عام 318 هـ)[3].

4 ـ **المواقف والمخاطبات**، تأليف النفري (ت بعد عام 366 هـ).

5 ـ **اللّمع**، تأليف سراج الطوسي (ت 386 هـ). يشتمل على باب يحمل عنوان «الأحوال والمقامات في بيان المقامات والمنازل».

6 ـ **قوت القلوب**، تأليف أبي طالب المكي (ت 385 هـ). ويتضمن فصولاً عدّة يشرح فيها المولّف مقامات النفس ومراتب السلوك.

7 ـ **التعرّف لمذهب أهل التصوف**، تأليف أبي محمد الكلاباذي (ت 3807هـ).

---

(1) محمد بن إسحاق، **فهرست ابن النديم**، الفن الخامس من المقالة الخامسة، ص 237.

(2) سزكين، ج1/ 4، ص136.

(3) المصدر نفسه، ص 148.

8 ـ **الرسالة القشيريّة**، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري.

هذه بعض الكتابات والرسائل التي سبقت رسالة **منازل السائرين** في شرح وبيان مقامات ومنازل السير والسلوك[1]. ولمّا وجد الخواجة الأنصاري أنّ أياً من هذه الكتب والرسائل لا تفي بالمطلوب ولا تؤدّي الغرض، شمّر عن ساعد الجدّ، وألّف كتابين في هذا المجال، كتاب **صد ميدان** باللغة الفارسية وكتاب **منازل السائرين** باللّغة العربية. ويشترك الكتابان في 51 موضوعاً، ويختلفان في 49 عنواناً. وقد جاء تأليف كتاب **منازل السائرين** بعد مضيّ 27 عاماً على تأليف كتاب **صد ميدان** وبعدما، اكتسب المؤلّف خبرة عالية وبلغ أوج التكامل العلمي والعملي (أي في عام 475 هـ عن عمر ناهز الثمانين).

ولا بدّ من الإشارة إلى خصائص امتاز بها كتاب **منازل السائرين** عن سائر المصادر المعنية بالعرفان العملي، منها: الأسلوب المتميز في بيان المادة العلمية، والقلم الممتع، والطرح الأدبي، وترتيب البحوث، والشموليّة، والاحتراز عن الإطناب والتطويل، وإيضاح الأبحاث الجانبية التي ترتبط بالموضوع. لقد كانت جميع هذه الخصائص، إلى جانب الشخصية العلميّة والعمليّة المميّزة التي يتمتّع بها المؤلّف، سبباً في إلفات أنظار السالكين والباحثين، في مجال العرفان، إلى الكتاب منذ صدوره وحتى اليوم، كما حفّز جماعة على كتابة شروح وتعليقات عليه، وهنا نشير إلى جملة منهم[2]:

---

(1) انظر: الخواجة عبد الله الأنصاري، **منازل السائرين**، مقدمة علي شيرواني، ص 8.

(2) انظر، **أنيس العارفين**، ص 18.

سديد الدين عبد المعطي (القرن 7 هـ)[1]، سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني (ت 690 هـ)[2]، أحمد بن إبراهيم الواسطي (ت 711 هـ) مع شرح لكتاب **تنزل السافرين**[3]، عبد الغني بن عبد الخليل التلمساني[4]، شمس الدين التستري (توفّي في بدايات القرن الثامن الهجري)[5]، محمود بن محمد الدركزيني (ت 743 هـ)[6]، شمس الدين محمد بن أبي بكر، المشهور بابن قيم الجوزية (ت 751 هـ)، مع شرح لرسالة **مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**[7]، وشرح كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، (القرن الثامن الهجري)[8].

وقد دوّنت شروح أخرى بعد شرح الكاشاني، إلّا أنّ أيّاً منها لم يرقَ

---

(1) نشره سير ج. بوركاي في القاهرة عام 1954 م.

(2) قام بتصحيح هذا الكتاب عبد الحفيظ منصور، وطبع للمرة الأولى عام 1989م من قبل دار التركي في تونس، وأعيد طبعه عام 1413 هـ في إيران من قبل انتشارات بيدار.

(3) انظر: ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 1، ص 24؛ عفيف الدين التلمساني، **شرح منازل السائرين** ص 37؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 2، ص 1828؛ أبو محمد اليافعي، **مرآة الجنان**، ج 4، ص 250؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج 1، ص 139.

(4) انظر: ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 6، ص 139؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 2، ص 1828؛ وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج 12، ص 199.

(5) انظر: الكاشاني، **شرح منازل السائرين**، ص 31.

(6) انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 6، ص 139؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 2، ص 1828؛ وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلّفين**، ج 12، ص 199.

(7) طبع هذا الكتاب مرات عدّة في كلّ من القاهرة وبيروت ودمشق. وعلق على الكتاب أبو طاهر محمد بن أحمد الفيشي (ت 747 هـ)، وقام مصلح الدين، المعروف بابن نور الدين (ت 981 هـ) بترجمته إلى التركية، كما قامت الكاتبة عائشة بنت يوسف الدمشقيّة بتلخيصه وسمّته «الإشارات الخفية في المنازل العلية». كما قامت دار الكتاب العربي ببيروت بنشره في ثلاث مجلدات، تحقيق وتعليق محمد المعتصم بالله البغدادي.

(8) مع مقدمة وتحقيق محسن بيدارفر، قم، انتشارات بيدار، 1420 هـ.

إلى مستوى شرح الكاشاني، ولذا لم يحظَ بإقبال واهتمام المختصّين وأهل الفن. من هذه الشروح:

شرح محمود الفركاوي (أواخر القرن الثامن الهجري وهو تلخيص لشرح عبد المعطي)، شرح جمال الدين يوسف، (القرن التاسع الهجري)، شرح زين الدين أبو بكر الخافي الهروي (ت 838 هـ)، **تسنيم المغربين في شرح منازل السائرين**، وهو شرح مزجي وباللّغة الفارسيّة، لشمس الدين محمد البتادكاني الطوسي (ت 891 هـ)[1]، **أنيس العارفين** وهو بالأصل إعادة صياغة بالفارسيّة لشرح عبد الرزاق الكاشاني، للكاتب صفي الدين محمد طارمي[2].

وصدرت في السنوات الأخيرة مجموعة كتب في شرح **منازل السائرين** وهي:

التمكين في شرح منازل السائرين بقلم محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني[3]، ترجمة **منازل السائرين إلى** الفارسيّة الدريّة مع مقارنة بين الكتاب وكلّ من كتاب **صد ميدان** (بالفارسيّة للخواجة عبد الله الأنصاري)، وكتاب **علل المقامات** (تأليف أبي الفتح عبد الملك الكروخي، ت 548 هـ، من تلامذة الخواجة عبد الله الأنصاري) بقلم روان فرهادي[4]، كتاب **راه ورسم منزل ها** (بالفارسية) بقلم علي شيخ

---

(1) انظر شرح التلمساني على **منازل السائرين**، ص37.

(2) مع تصحيح وتحقيق علي أوجبي، طهران، انتشارات روزانه، 1419 هـ.

(3) القاهرة، دار النهضة.

(4) طهران، انتشارات مولى، 1373 هـ.

الإسلامي[1]، **شرح منازل السائرين** بقلم علي شيرواني وهو كترجمة لشرح الملاّ عبد الرزاق الكاشاني[2]، **مقامات معنوي** (بالفارسيّة) تأليف محسن بينا.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يشتمل كتاب **منازل السائرين** على مائة عنوان (كما هو عليه سائر المصادر العرفانية الأخرى). والملاحظ أنّ أغلب هذه العناوين ناظرة إلى علاقة الإنسان بالله (أخلاق العبوديّة). وثمة موارد تضمّنت عناوين تتعلّق بالأخلاق الفرديّة، إلّا أنها في مقام تفسيرها أو بيان مراحلها ومراتبها، تم إرجاعها إلى أخلاق العبوديّة. نعم، توجد بعض الموضوعات المتعلّقة بالأخلاق الاجتماعيّة، موجودة بصورة متناثرة وغير منتظمة، في الكتاب، من قبيل: الإيثار، حُسن الخُلق، التواضع، الفتوّة والانبساط. وأما العناوين المتعلّقة بأخلاق الأسرة فلا يوجد لها أثر مطلقاً. أضف إلى ذلك أنّ المؤلّف لم يتعرّض إلى بيان الرذائل الأخلاقيّة بصورة مستقلّة ـ كما هو متوقّع من اسم الكتاب وكما يتوقّع من الغرض المنظور له ـ إذ ينصبّ التأكيد على التحلّي بالفضائل والحركة على محور الإيجابيّات، نحو اللّانهاية. نعم، في بعض الموارد وضمن بيان الفضائل، يُصار إلى معالجة بعض الرذائل الخُلُقية، (فمثلاً في باب الإنفاق تمت الإشارة إلى موضوع العُجب والجدال، بشكل مختصر وموجز).

---

(1) طهران، نشر فرهنگي آيه، 1421 هـ.

(2) طهران، انتشارات الزهراء (ع)، 1355 هـ. ق.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

في ترتيبه لبحوث الكتاب وتصنيفه لموادّه قسّم الخواجة منازل ومقامات السير والسلوك إلى عشرة أقسام. وفي كلّ قسم تم التطرّق إلى عشرة مقامات شرحاً وتوضيحاً.

وإليك عناوين هذه الأقسام والأبواب المبحوثة في كلّ قسم:

1 ـ قسم البدايات، ويشتمل على الأبواب (المقامات) التالية: باب اليقظة، باب التوبة، باب المحاسبة، باب الإنابة، باب التفكّر، باب التذكّر، باب الاعتصام، باب الرياضة، باب الفرار، وباب السماع.

2 ـ قسم الأبواب، ويتضمّن الأبواب التالية: الحزن، الخوف، الإشفاق، الخشوع، الإخبات، الزهد، الورع، التبتّل، الرجاء والرغبة.

3 ـ قسم المعاملات، ويضم الأبواب التالية: الرعاية، المراقبة، الحرمة، الإخلاص، التهذيب، الاستقامة، التوكل، التفويض، الثقةّ، التسليم.

4 ـ قسم الأخلاق، ويضمّ الأبواب التالية: الصبر، الرضا، الشكر، الحياء، الصدق، الإيثار، الخلق، التواضع، الفتوّة، الانبساط.

5 ـ قسم الأصول، وفيه الأبواب التالية: القصد، العزم، الأدب، الإرادة، اليقين، الأنس، الذكر، الفقر، الغنى، ومقام المراد.

6 ـ قسم الأودية، ويتضمن هذه الأبواب: الإحسان، العلم، الحكمة، البصيرة، الفراسة، الإلهام، التعظيم، السكينة، الطمأنينة والهمّة.

7 ـ قسم الأحوال، وفيه الأبواب التالية: المحبة، الغيرة، الشوق، القلق، العطش، الوجد، الدهش، البرق، الهيمان، والذوق.

8 ـ قسم الولايات، ويشمل أبواب: اللّحظ، الوقت، الصفاء، السرور، السر، النفس، الغربة، الغرق، التمكين، والغيبة.

9 ـ قسم الحقائق، ويتضمّن هذه الأبواب: المكاشفة، المشاهدة، المعاينة، الحياة، القبض، البسط، السكر، الصحو، الاتصال، والانفصال.

10 ـ قسم النهايات، ويضم الأبواب التالية: المعرفة، الفناء، البقاء، التحقيق، التلبيس، الوجود، التجريد، التفريد، الجمع والتوحيد.

وأما الطريقة التي يتمّ بها عرض المطالب، في كلّ مقام، فتبدأ أولاً بعنوان الباب، ثم يستشهد بآية من القرآن الكريم، ثم يتم توضيح معنى المقام المبحوث. وبعد ذلك يُصار إلى بيان مقتضى ذلك المعنى على ثلاثة مستويات مختلفة من مستويات السالكين. والسر في هذا التقسيم كما يوضحه الملاّ عبد الرزاق الكاشاني، يكمن في أنّ الشخص السالك إما أن يكون في بداية الطريق وفي مرحلة البدايات (درجة العامة)، أو يكون قد بلغ نهاية الطريق، فهو يسير في منزل النهاية (درجة المحقق)، أو يكون في متوسّط الطريق، بين البدايات والنهايات وفي إحدى المنازل الثمان الوسطى (درجة السالك)[1].

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطة ذكرها الملاّ عبد الرزاق الكاشاني،

---

(1) كمال الدين عبد الرزاق القاساني، **شرح منازل السائرين**، ص 25.

وهي أنّ ترتيب المنازل، في كتاب الخواجة الأنصاري، إنما هو على أساس حال المحبين التامّي الفطرة، من ذوي الاستعداد المتوسط. ونذكّر بأن بعض السالكين، وتبعاً لما يمتازون به من خصوصيّة روحيّة أو خصوصيّة في قدراتهم واستعداداتهم، إمّا أنهم لا يمرّون على بعض هذه المنازل أصلاً، أو أنهم لا يتوقّفون عندها[1].

وبين هذه المقامات، من كلّ قسم، يوجد نظام وسياق خاص؛ فالسالك بعد اجتيازه لكل مقام من المقامات، ووصوله إلى المقام الأعلى، ينبغي عليه أن يتابع فروعاً أكثر من المقام السابق. وبناءً على ذلك، يعتقد بعض الشرّاح ـ من أمثال الملاّ الكاشاني ـ أنّ الترتيب الموجود بين هذه المقامات يماثل ترتيب الأجناس على الأنواع، إذ يكون فيها الفرد العالي، له صورة في الفرد السافل، والفرد السافل له رتبة في الفرد العالي، وليس من قبيل مراقي السلّم؛ كلّ من بلغ المرقاة العليا يكون قد اجتاز المرقاة السابقة بالكامل، فلا يرتبط بها بشيء.

وبناءً على هذا الترتيب، كلّ مقام من المقامات المائة، وتبعاً للدرجات التي تكون له في سائر الأقسام، ينقسم إلى عشرة أقسام، فإذا ضربنا عدد المقامات بعدد الأقسام، ينتج لنا ألف مقام.

في هذا التقسيم، المقامات التي تقع في البدايات، درجاتها واضحة في سائر الأقسام. وأمّا درجات المقامات التي تقع في النهايات، فتتحقّق في الأقسام التي قبلها، بهذا النحو وهو أنّ كلّ مقام يقع في النهايات له صورة في البدايات، وإن كانت تلك الصورة تختلف كثيراً عن الصورة

(1) المصدر نفسه، ص 17.

الموجودة في النهايات. وذلك لأنّ الشخص المبتدئ هو الذي يباشر أعماله بنفسه، والحال أنّ صدور الأفعال من الشخص الذي بلغ نهاية السير هو صدور بالحق.

وقد ذكروا توجيهين في ما يتعلّق بانحصار أقسام المقامات في الأقسام العشرة، وارتباط كلّ قسم بالآخر، وفقاً للترتيب الذي نصّ عليه صاحب **منازل السائرين**. التوجيه الأول للحاج محمد علي الحكيم في كتابه **لطائف العرفان**. والتوجيه الآخر للملاّ عبد الرزاق الكاشاني، وهنا نوضّح كلاً وجد من هذين الوجهين:

أ ـ ما ذكره الحاج محمد علي الحكيم

في ما يرتبط بالترتيب الذي عليه المقامات، يصف الحاج الحكيم السير والسلوك العرفاني، فيقول: ثُمّ اعلم أنّه قد تعتبر مراتب السلوك الإنسانيّة عشراً، بأن يقال: إنّ للإنسان نفساً حيوانية وأثراً روحانياً وسرّاً إلهيّاً، ولكلّ واحد منها ثلاثة أوجه؛ وجه إلى تدبير ما دونه، ووجه هو عين ذاته، ووجه إلى ما فوقه للاستفاضة والاستمداد. فهذه الوجوه التسعة مع مرتبة «الأحديّة» تصير جمعها عشرة كاملة:

1 ـ مرتبة النفس الحيوانيّة:

أ) مرتبة وجه النفس إلى تدبير البدن بقواها، ويجب فيها السير عن مقار الطبيعة وعاداتها بامتثال أوامر الله ونواهيه (قسم البدايات).

ب) مرتبة ذات النفس من حيث هي، ويجب فيها على السالك تطهيرها عن الصفات الرذيلة والكدورات وتعديل صفاتها (قسم الأبواب).

ج) مرتبة وجه النفس إلى الروح ويجب فيها التمكّن والاستقرار في التوجّه إلى الروح بحيث يفيض عليها النور القلبي (قسم المعاملات).

2 ـ مرتبة الأثر الروحاني:

أ) وجه الروح إلى تدبير النفس وتزكيتها بحيث تحصل لها العدالة الكاملة، وتتمّ لها مكارم الأخلاق (قسم الأخلاق).

ب) ذات الأثر الروحاني من حيث هي، وهي حقيقة النفس الناطقة والقلب الذى هو وسط الوجود (قسم الأصول).

ج) وجه توجّه القلب إلى السر وحضوره مع الحق للاستفاضة من أسمائه والاتصاف بصفاته (قسم الأودية).

3 ـ السر الإلهي:

أ) وجه السر إلى تدبير ما دونه من القوى، والإفاضة على القلب (قسم الأحوال).

ب) ذات السر من حيث هي، وهي مقام صفاء الوقت والتمكّن بحيث لا تزول مواهبها (قسم الولايات).

ج) وجه السر إلى الله وشأنه التوجّه التام إليه بالتدلّي وحيث لم يبق من حجاب وجوده الظلماني شيء فينكشف له الحقائق بالله (قسم الحقائق).

4 ـ مرتبة الأحديّة:

مرتبة أحديّة جامع جميع المراتب بحيث يدخل ويتحقّق في مقام جمع الجمع بالتجلي الذاتي (قسم النهايات).

ب ـ ما ذكره الملاّ عبد الرزاق الكاشاني

يعتقد الكاشاني أنّ سير الإنسان وسلوكه يبدأ من الباطن، كما إنّ مراتب ومنازل السير هي الأخرى ناظرة إلى مراتب الغيوب الباطنيّة، وهذه المراتب هي:

1 ـ مرتبة غيب الجن. 2 ـ غيب النفس. 3 ـ غيب القلب. 4 ـ غيب العقل. 5 ـ غيب الروح. 6 ـ غيب الغيوب.

والنفس في مرتبة غيب النفس وقبل مرتبة غيب القلب، على مرتبتين: مرتبة النفس اللوّامة، ومرتبة النفس المطمئنّة. ولها مرتبة فوق مقام العقل ودون مقام الروح، يُقال لها: «مرتبة السّر»؛ كما إنّ لها مرتبة تعلو على مقام الروح وتُسمّى «المرتبة الخفيّة». ويتبلور من مجموع هذه المراتب مقامات عشرة هي كالآتي:

1 ـ غيب الجن، قسم البدايات. 2 ـ غيب النفس، قسم الأبواب. 3 ـ النفس اللوّامة، قسم المعاملات. 4 ـ النفس المطمئنّة، قسم الأخلاق. 5 ـ غيب القلب، قسم الأصول. 6 ـ غيب العقل، قسم الأودية. 7 ـ مقام السّر، قسم الأحوال: وهي مرتبة تكون فيها النفس على درجة من التجرّد والصفاء، بحيث ترتقي إلى مقام الروح. 8 ـ غيب الروح، قسم الولايات. 9 ـ المقام الخفي، قسم الحقائق وفي هذه المرتبة ترقى الروح إلى مقام الوحدة. 10 ـ غيب الغيوب، قسم النهايات. تجدر الإشارة إلى أنه، بناءً على الوجه المذكور، فإنّ أبواب كلّ واحد من الأقسام العشرة، مهمّتها إيصال السالك إلى القسم الأعلى. مع الأخذ بالاعتبار هذه النقطة، يأخذ الملاّ عبد الرزاق

الكاشاني في شرح المقامات. ونحن هنا نكتفي بنقل توضيحاته في خصوص أبواب قسم البدايات توخّياً للاختصار:

في بداية الأمر تكون النفس أمّارة بالسوء، فإذا تنبّهت من نوم الغفلة فإنّ أول مقام تحصل عليه هو مقام «اليقظة»، وهو أول مرتبة من مراتب البدايات. فإذا أحسَّ في هذه المرتبة ببعده عن اللّه وأنه قد تابع الشيطان، وتحت ولايته، يتوب من ذنوبه. ومن ثم تراه يخلط أعماله الصالحة بالسيئات، ويشرع بالمحاسبة لتفوّق حسناته على سيئاته، وتقلّ نسبة العقبات والموانع في طريقه. وهنا يصل إلى مرحلة الإنابة إلى الحق، ثم يفكر في الأعمال الصالحات التي تصلح حاله وترفع من شأنه ومقامه. من نتائج هذا التفكر وصول الإنسان إلى مقام التذكر والاتعاظ بالعبر. بعد ذلك يصل مرحلة الاعتصام، فيطلب المدد من حول اللّه وقوّته ويفرّ من مكر الشيطان وحبائله. وفي هذه المرحلة يرى نفسه بحاجة إلى الارتياض ويتأثّر بسماع الوعد بقدر لطافة نفسه. كما يتأثّر بالوعيد ويفرُّ من النقصان[1].

6 ـ منهجيّة الكتاب

يعدّ كتاب **منازل السائرين** من أهم الكتب التي تتكفّل ببيان مراحل السلوك في العرفان العملي. ولمّا كان العرفاء ينأون عن الاستدلال، في صياغاته المدرسيّة والمنطقيّة ولايؤمنون به، لذا نجد مؤلّفاتهم خالية من الاستدلال نوعاً ما. وفي خصوص كتاب **منازل السائرين** ثمة نقطة أخرى

(1) **شرح منازل السائرين**، ص 24 ـ 27.

تحتّم على المصنّف أن يكون كتابه بعيداً عن الاستدلال والبرهنة، وهي خصوصيّة بحث مقامات ومنازل السلوك.

فقد كان جلّ اهتمام الخواجة الأنصاري، ينصبّ على كتابة تقرير وصفي لهذه المنازل. مثاله في ذلك مثال المدرب الذي يعمل على إعداد وتربية فريق من الشباب لصعود الجبال، وفي هذا المجال يحاول أن يبين لتلامذته وفريق الصعود، وجودَ عشر محطات تصادفهم في طريقهم وأنهم ليس بمقدورهم أن يتجاوزوا أيّاً من هذه المراحل، إلى المرحلة التي تليها، إلّا إذا قاموا بأعمال ونشاطات خاصة. وكذلك هي سائر المحطات إلى آخر محطة.

والواقع أنّ ما قام به الخواجة عبد الله الأنصاري، هو عمل من هذا القبيل، إذ ذكّر مخاطبيه باسم كلّ موقف من هذه المواقف، ليتعرّفوا من خلال اطّلاعهم على عنوان المنزل أو الموقف، على وظيفتهم الخاصة التي تنتظرهم في ذلك المنزل والتي تعينهم على مواصلة المسير إلى حيث المنازل الأخرى.

وفي إطار التعريف بالجوّ العام لكلّ منزل، يقوم الخواجة أولاً بالتنويه باسم المنزل. ومن ثم يورد جملة شواهد قرآنيّة في تأييده والتأكيد عليه، وبعد ذلك يحدّد مهمة السالك على ثلاثة مستويات، المبتدئين، والمتوسّطين، والخبراء.

وهنا لا بدّ من التذكير بنقطة هامة، أغفلها الأنصاري في تقريره وهي بيان طبيعة النظام والترتيب القائم بين المنازل والسّر في العلاقة الترتّبية في ما بينها. ولعلّ السبب الذي أدّى بالمؤلّف إلى إغفال هذه النقطة، هو

حرصه على الإيجاز في الكتابة والاحتراز من الإطناب. وحول المنهج التربوي الذي اتّبعه الخواجة في **منازل السائرين** ثمة كلمة لا بدّ من التنويه بها، وهي: إنّ السالك في مسار العرفان العملي، يُعنى برعاية تربويّة من قبل مجموعة من التربويّين، على الصعيدين المعرفيّ والسلوكيّ. ففي كلّ موقف يترقّى فيه السالك على الصعيد النظري، يترقّى على صعيد العمل كذلك؛ فيلتزم سلوكاً خاصاً يتناسب مع ذلك المقام والموقف. هذا المنهج نجده حاضراً في كلّ مواطن الكتاب بوضوح.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يفيد المؤلّف في كتابه هذا، من قلم سلس؛ لكنه في الوقت نفسه يشوبه شيء من الإبهام، كما هي عليه التصانيف العرفانيّة. والملاحظ أنّ المؤلّف حرص كثيراً على أن ينأى عن التعابير المدبّجة والألفاظ المنمّقة عديمة الجدوى، ويكتفي ببيان أمهات المطالب المنظورة. إلّا أنّ حرص المؤلّف على الإيجاز في الكتاب أدّى، في كثير من الموارد، إلى أن يواجه القارئ صعوبة في فهم نصّ الكتاب، بحيث احتاج إلى شرح وتعليق.

وحول حجم الآيات والروايات، التي اعتمدها المصنّف في توثيقه لأبحاث الكتاب، نقول: ثمة روايات قليلة وردت في مقدّمة الكتاب وأمّا الروايات والآيات التي أفاد منها المؤلّف في كلّ الكتاب، فهي عدد محدود أحياناً، يوردها المصنّف بشكل كامل وأخرى يكتفي بذكر فقرات منها في بداية كلّ منزل وقبل البدء بالبحث. ولم يفد الخواجة، في حديثه عن المنازل، من الشعر ولا القصة. نعم، في خاتمه الكتاب، أورد ثلاثة أبيات من الشعر اختتم بها كتابه.

8 ـ التقييم النهائي

يرى عدد من الخبراء أنّ منازل السائرين هو من أكمل وأفضل ما صنفته الصوفيّة، في ما يتعلّق بمراحل السلوك. وللحق والإنصاف نقول إنّ الكتاب يُعدّ محاولة رائدة وناجحة، على صعيد تبويب وتنظيم البحوث والموضوعات وتصوير مراحل السير إلى الله تعالى بشكل متسلسل ومتواصل. كما إنّ المحاولة نجحت في تجنّب التشتّت في التفكير أثناء الكتابة. مع ذلك بقيت نقاط لا بدّ من التذكير بها، وهي:

1 ـ توجد عناوين بحثيّة كثيرة، لها صلة بعلم التصوّف، لم يتطرّق اليها الكتاب، واكتفى ببيان مراحل السلوك وتحديد منازل السير المعنوي.

2 ـ حرص المصنّف على الإيجاز في الكتابة ما أضرَّ في بعض الأحيان، بالجانب البلاغي للكتاب، فبقيت البحوث يشوبها الإجمال والإبهام.

3 ـ وجه الاستناد والاستشهاد بآيات القرآن الكريم في بدايات بعض فصول الكتاب لم يكن واضحاً، وربما بلغ حدّ التكلّف في بعض الأحيان.

4 ـ لم يشر المصنّف إلى مكانة كلّ منزل من المنازل وموقعه، وعلاقته بسائر المنازل ووجه الترتّب القائم بينها.

5 ـ كما هو معلوم، فقد قسّم المؤلّف منازل السلوك المائة إلى عشرة أقسام رئيسة، وينقسم كلّ قسم بدوره إلى عشرة، هذا اللون من التقسيم أبعد ما يكون عن التقسيم الطبيعي والحقيقي، بل يغلب عليه التصنّع والتكلّف.

7

أوصاف الأشراف[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أوصاف الأشراف رسالة مختصرة باللّغة الفارسيّة (حوالي 60 صفحة) في السير والسلوك، تأليف أبي جعفر، محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، الملقّب بالخواجة نصيرالدين الطوسي. ويعدّ الخواجة من كبار الشيعة في القرن السابع الهجري. وقد أشرنا آنفاً إلى ترجمة حياته وأعماله الفكريّة، في حديثنا عن كتاب **الأخلاق الناصرى**. ولا يوجد أدنى شكّ في صحة اسم الكتاب أي **أوصاف الاشراف**، وكذلك في انتسابه إلى الخواجة نصير الدين الطوسي.

2 ـ النسخ والطبعات

لهذا الكتاب نسخ عدّة، يمكن العثور عليها في أغلب المكتبات. وتوجد نسختان منه في المكتبة الرضويّة التابعة لمرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مدينة مشهد برقم 96 ورقم 98، ويعود تاريخ تحرير

---

(1) الخواجة نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ)، **أوصاف الأشراف**، تصحيح نجيب مايل هروي، مضافاً إلى رسالتين أُخريين بالفارسيّة أيضاً، هما «هفت بند حلاج» و«وصاياي عبد الخالق غجدواني»، انتشارات الإمام، 161، 291 صفحة رقعي.

النسخة الأولى إلى عام 969 هـ، فيما يعود تاريخ تحرير النسخة الثانية إلى عام 1055 هـ[1].

وقد أُعيدت طباعة هذه الرسالة، مراراً، في كل من تبريز وبرلين وطهران. ومن أفضل هذه الطبعات الطبعة التي قام بتصحيحها السيد نصر الله تقوي، وطبعت بالأوفست، بخط الخطّاط محمد حسين عماد. من جانبه، يرى المحقّق السيد نجيب مايل هروي أنّ هذه الطبعة هي الأخرى لا تعتمد على أسلوب علمي صحيح في التحقيق والتصحيح، ولذا عمد بنفسه إلى تصحيح وتحقيق الكتاب من جديد، وهذه النسخة متوفّرة اليوم[2].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

جاء تأليف هذا الكتاب، من قبل الخواجة، بعد كتابه **أخلاق الناصري**. وقد تعرّض فيه إلى بيان أخلاق أهل السير والسلوك، والأصول والقواعد التي يعتمدونها في سيرهم وسلوكهم وذلك نزولاً عند رغبة الخواجة نصر الدين محمد الجويني، وزير ابا قا خان ابن هولاكو. وقد رتّبه في ستة أبواب.

وقام ركن الدين محمد بن علي الجرجاني بترجمة هذا الكتاب إلى العربيّة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري. وتوجد في المكتبة الرضوية الآن نسختان من هذه الترجمة برقم 120 و121، وقد طبعت النسخة المعرَّبة مع تصحيح المدرسي الزنجاني[3].

---

(1) محمد تقي المدرسي الرضوي، **أحوال وآثار نصير الدين**، ص 457.

(2) نصير الدين الطوسي، **أوصاف الأشراف**، ص 37.

(3) محمد تقي مدرسي رضوي، **أحوال وآثار نصير الدين**، ص 458.

وتوجد رسالة في الأخلاق تحت عنوان **أخلاق الأشراف** لعبيد الزاكاني، يبدو من عنوانها وعلاقة موضوعها بعلم الأخلاق، أنّ من المحتمل جدّاً أن يكون المؤلّف قد تأثّر بكتاب **أوصاف الأشراف** للخواجة الطوسي.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

بما أنّ الكتاب دوّن على غرار كتب «الأخلاق العرفانيّة»، من هنا جاءت عناوين الموضوعات والفصول متّفقة تماماً مع أخلاق العبوديّة والأخلاق الفرديّة للسالك. وفي المقابل، لا نجد أثراً للعناوين المرتبطة بالأخلاق الاجتماعية وأخلاق الأسرة. نعم، تضمّنت العديد من معالجاته إشارات ذات صلة بالأخلاق الاجتماعية، ما يعزّز لدينا القول إنّ الخواجه ليس بمنأى عن الأخلاق الاجتماعية بالكامل. ففي بحث التوكل كتب ما يلي:

ليس معنى التوكّل أن يمتنع الإنسان عن القيام بأيّ عمل، بدعوى التوكّل على الله وتفويض الأمر إليه. وإنما التوكّل هو أن يتيقّن أنّ من كلّ ما سوى الله هو من الله تعالى، ويعتبر ما عنده من علم، وقدرة، وإرادة، من الأسباب والشروط التي تختصّ بإيجاد بعض الأمور التي ينسبها الشخص إلى نفسه. وعليه ينبغي للإنسان أن يكون أكثر جدية ونشاطاً في الأعمال التي من شروطها إرادة الإنسان وقدراته الشخصيّة[1].

---

(1) الطوسي، **أوصاف الأشراف**، ص 144 ـ 145.

5 ـ هيكلية الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يقول الخواجة في حديثه عن هيكليّة الكتاب والنظام الذي يوالف بين أبحاثه ومفاصله:

لا شك في أنّ الإنسان لو تدبّر في أحواله وأوضاعه، سيجد نفسه ناقصاً ومحتاجاً إلى الغير، وحينما يدرك نقصه يدبّ في أعماقه الشوق إلى الكمال والحاجة في السير لنيله، وهو ما يطلق عليه العرفاء وأهل الطريقة بـ «السلوك». ولا بد لمن يريد أن يجدّ السير في هذا المضمار، من أمور ستة، هي كالآتي:

الأمر الأول: ما يلزمه في بدء حركته، إذ من الواضح أنّ على السالك أن يوفّر لرحلته زاداً وراحلة، وزاده وراحلته هي ما يلي: الإيمان، والثبات، والنية، والصدق، والإنابة، والإخلاص. وهذه الخصال الست شكّلت عناوين فصول الباب الأول.

الأمر الثاني: إزالة العوائق ورفع الموانع والعقبات التي تعيقه في حركته وسلوكه، وتمثل الفصول الست التالية عناوين هذه المرحلة والتي شكلت بمجموعها الباب الثاني من الرسالة. وإليك هذه الفصول بعناوينها: التوبة، الزهد، الفقر، الرياضة، المحاسبة، المراقبة والتقوى.

الأمر الثالث: الحركة التي من خلالها يصل السالك من المبدأ إلى المقصد وهو السير والسلوك. وهنا أيضاً توجد عناوين ستة لحالات السالك في مرحلته هذه، وتشكّل ستة فصول تندرج تحت الباب الثالث

للرسالة وهي: الخلوة، التفكر، الخوف والحزن، الرجاء، الصبر والشكر.

الأمر الرابع: الأحوال التي تعرض للسالك وهو في سلوكه. وهي أحوال ستة تشكل بنفسها عناوين لفصول الباب الرابع وهي: الإرادة، الشوق، المحبة، المعرفة، اليقين، والسكون.

الأمر الخامس: الأحوال التي تسنح للواصلين بعد رحلة السلوك، هذه الأحوال هي الأخرى شكّلت عناوين للفصول الستة التي يتضمّنها الباب الخامس من الكتاب وهي: التوكّل، الرضا، التسليم، التوحيد، الاتحاد، والوحدة.

الأمر السادس: نهاية الحركة وانقطاع السلوك والذي يُسمّى الفناء في التوحيد. ويصرّح الخواجة بأنه لا تعدّد ولا تكثّر في هذه المواطن بالذات. وبناءً على ذلك، نجد أن الباب السادس اشتمل على فصل واحد فقط.

والملاحظ أنّ المحقّق الطوسي اختار، لفصول هذا الكتاب، عناوين مطابقة لمراحل السير والسلوك والأحوال التي تعرض على السالكين. ويعدّ الباب الثاني «في إزالة العوائق والموانع» من أكثر الأبواب تفصيلاً، ويقع في 25 فصلاً ويقع الفصل الأول منه، «في التوبة» في سبع صفحات. وأقل الأبواب حجماً هو الباب السادس والذي يحمل عنوان (في الفناء)، إذ يقع في أقلّ من صفحة. وكأنّ الخواجة لا يرى حاجة لتوضيح هذا المقام بأكثر من ذلك، ولعلّه رأى أنّ البيان والقلم قاصران.

تجدر الإشارة إلى أنّ الخواجة الطوسي، في خاتمة مقدّمة كتاب **أوصاف الأشراف**، وفي شرحه للأحوال والمقامات التي يعدّدها للسالكين، أورد عبارات يُستفاد منها أمراً يخالف ما قرره شراح كتاب **منازل السائرين** ـ من أنّ تصنيف المنازل والمقامات وطبيعة النظام الترتيبي القائم في ما بينها، هو من سنخ الترتيب الموجود بين الجنس والفصل ـ فيرى أنّ النظام والترتيب القائم بين منازل العرفاء والسالكين ومقاماتهم، يماثل الترتيب القائم بين مراقي السلّم.

وفي هذا السياق يكتب قائلاً:

ينبغي أن يعلم أنه، كما إنّ كلّ جزء من الحركة غير الجزء الآخر، والآخر مسبوق بجزء منها ومستعقَب بجزء. كذلك كلّ حال من أحوال السالك يكون واسطة بين فقدانِ سابق وفراقِ لاحق، في حال فقدان السابق كانت تلك الحال مطلوبة، وفي حال الفراق مهروباً منها، فحصول كلّ بقياسه إلى ما تقدم كمال مطلوب. والمقام على ذلك الحال ـ في صورة ما إذا كان التوجه إلى الحال اللاّحق، هو المطلوب وهو المرغوب فيه ـ نقصان. وإليه الإشارة بقولهم: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

6 ـ منهجيّة الكتاب

صنّف الخواجة نصير الدين الطوسي، مراحل السير والسلوك والأحوال التي تعرض على السالك، في ستة أبواب. وقام بتقسيم كلّ واحد من الأبواب الخمسة الأولى إلى ستة فصول. وأمّا الباب السادس، والذي يُعنى بالحديث عن الفناء وحمل عنوان «في الفناء»، فقد بحثه في

فصل واحد وذلك لأنه، على حد تعبير الخواجه: «الفناء لا يقبل التكثر».

وقد حرص المصنّف، في كتابه هذا، على أن يقتفي منهج العرفاء والصوفيّة في البحث وإن تخلّل البحث العديد من أفكاره وإثاراته الحِكميّة. وهذا المنوال سبق وأن نسج عليه في كتابه **الأخلاق الناصرية**، وهذا ما جعل عباراته في باب السير والسلوك ذات طابع حِكمي. ولا بد من التذكير بالمنهج التربوي الذي تبنّاه صاحب كتاب **أوصاف الأشراف** بأنّ الكتاب يعتمد على التربية الفكريّة والمعرفيّة، وهذا لا يمنع وجود نقاط سلوكيّة في طيّات البحث.

7 ـ أدبيّات الكتاب

كتاب **أوصاف الأشراف** صِيغ باللّغة الفارسيّة وبقلم سلس، وأسلوب جيد وبيان بليغ. وهو يمتاز عن كتاب **الأخلاق الناصرية** بأنه يعتمد لغة أبسط وأكثر إيجازاً[1]. وقد استشهد المصنّف، في بدء كل فّصل، بآية من آيات القرآن الكريم تتناسب مع موضوع البحث. وفي كثير من الموارد استند إلى الأخبار والأحاديث النبويّة، إلى جانب الآيات القرآنية. وفي نقله لروايات وآراء الصوفيّة حرص الخواجة، في أغلب الأحيان، على نقل أكثرها اعتدالاً، محترزاً بذلك من نقل الأقوال ذات الطابع الإفراطي، والأحاديث التي تفتقر إلى السند.

وقياساً بالآيات والروايات، لم يستفد الكاتب من القصة والتمثيل إلّا

---

(1) نصيرالدين الطوسي، **أخلاق ناصرى**، مقدمة مجتبى مينوي، ص 29.

في موارد قليلة جداً. أمّا الشِعر فلا نجد له أيّ أثر في الكتاب. نعم، في بعض النسخ المخطوطة، في نهايات الفصول الأولى توجد عبارة «وقد أنشد البعض في هذا المعنى» يليها بيت، أو بيتان من الشعر، يناسب موضوع البحث المطروح. ويبدو أنّ هذه الأشعار هي من إنشاد الخواجة نصير الدين الطوسي.

8 ـ التقييم النهائيّ

على الرغم من الإيجاز الذي عليه كتاب **أوصاف الأشراف** إلّا أنه يتضمّن معاني عميقة ودقيقة، وصِيغ بقلم سلس وأسلوب ممتع، ما جعله تصنيفاً شيّقاً، ومؤثّراً، وخالداً. أضف إلى ذلك، إنّ الشخصيّة السياسيّة، والأخلاقية، والكلامية، للخواجة نصير الدين الطوسي ساهمت بدورها في توسيع وتعميق تأثير الكتاب. والملاحظ أنّ حجم الاقتباسات والمنقولات مقبول ومناسب، إلّا أنّ حرص المؤلّف على الإيجاز أدّى إلى عدم الاستفادة من الحكايات والتمثيلات بالقدر الكافي. ومن جهة أخرى حرص المؤلّف على أن يضفي على أفكاره وآرائه طابعاً عرفانيّاً وفلسفيّاً. وبذلك يكون قد سعى إلى إيضاح المصطلحات الصوفيّة بشكل كامل. ملاحظة أخيرة نسجلها على الكتاب في ما يتعلّق بالقضايا التربويّة، فلو أنّ المؤلّف كان قد استفاد من العناصر المرتبطة بالجانب السلوكيّ والعمليّ بشكل أكبر، لأضحى الكتاب أكثر جاذبيّة وأكثر تأثيراً وأهميّةً.

وأمّا في ما يتعلّق بالمواضيع التي عالجها الكتاب، فقد اتسعت لتشمل عناوين متعدّدة في مجال «أخلاق العبوديّة» و«الأخلاق الفرديّة» لا بأس بها من حيث المجموع، أمّا في مجال الأخلاق الأسريّة والأخلاق الاجتماعيّة، فلا نجد اهتماماً ملموساً من قبل الكاتب.

8

مصباح الأنس بين المعقول والمشهود(1)
(الفصل الخامس من المقدّمة)

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

شمس الدين محمد بن حمزة الرومي الحنفي، المشهور بـ «الفناري، وابن الفناري، والعلّامة الفناري». وهو من كبار علماء العثمانيين في القرن التاسع الهجري (851 ـ 734 هـ)، ولم يكن له مثيل في إلمامه بعلوم العربيّة والعلوم العقليّة والنقليّة في عصره. وكان ملتزماً بأحكام الشريعة إلى أبعد الحدود، إذا إنّه لم يقبل شهادة الملك العثماني بصراحة وذلك لعدم حضوره صلاة الجماعة. ويتّصل الفناري بواسطة أبيه بالفرقة الأكبريّة، كما يتّصل بالفرقة الزينبيّة من خلال عبد اللطيف القدسي، وبالفرقة الأردبيليّة عن طريق جمال الدين آق سرايي، وهو تتلمذ على يدي كلّ من علاء الدين الأسود (شارح المغني) وجمال الدين آق سرايي.

---

(1) محمد بن حمزة الفناري، **مصباح الأنس بين المعقول والمشهود**، وبضميمته نصّ كتاب **مفتاح الغيب** للقونوي، مع تعليقات ميرزا هاشم الأشكوري، وسيد محمّد القمي، وآقا محمّد رضا القمشه اي، والإمام الخميني، والأستاذ حسن حسن زاده آملي؛ **فتح المفتاح**، تصحيح وتقديم محمد خواجوي، طهران، انتشارات مولى 1416 هـ، لط + 144 + 768 صفحة، قطع وزيري.

وشغل منصب القضاء في كلّ من بيروت، وبروسه، والقسطنطينيّة. له مصنفات عدّة في مختلف العلوم، منها: **أساس التصريف، شرح المصباح في النحو، شرح الإيساغوجي في المنطق، شرح تلخيص الجامع الكبير في الفروع، فصول البدايع في أصول الشرائع، شرح المواقف في الكلام، عين الأعيان في تفسير القرآن، ومصباح الأنس بين المعقول والمشهود في شرح مفتاح الغيب والوجود**[1].

ويلاحظ أنّ تراث الفناري هو بمثابة شرح لفلسفة القونوي وابن عربي. ويُعدّ كتابه **عين الأعيان في التفسير**، شرحاً لكتاب **تفسير الفاتحة** للقونوي.

2 ـ النسخ والطبعات

في مقدّمته على النص المصحّح لكتاب **مصباح الأنس**، ينوّه المصحّح إلى وجود نسخ عدّة اعتمدها هو في عمليّة التصحيح والتحقيق، ومن هذه النسخ: نسخة الأوفسيت، كليّة الآداب في جامعة طهران، بخط مير سيد محمد القميّ، كتبها عام 1321، نسخة مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، نسخة المكتبة السلطانيّة في ألمانيا ونسخة النجومي.

وقد طبع هذا الكتاب مع تصحيح ومقابلة محمد الخواجوي بضميمة نصّ مصحّح لكتاب **مفتاح الغيب** [لصدر الدين القونوي]، مع تعليقات جماعة من المحقّقين عام 1416 هـ في طهران.

---

(1) محمد علي مدرّس، **ريحانة الأدب**، ج 4، ص 52 ـ 54؛ وأيضاً إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين**، ج 6، ص 188.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

لا يوجد تعليقات وهوامش على كتاب **مصباح الأنس** سوى ما قام به بعض الأعلام. وتجدر الإشارة إلى أنّ جميع هذه الهوامش والتعليقات قام بها جمع من علماء الشيعة، نذكرهم حسب التسلسل الزمني: آقا محمد رضا قمشه اي (حكيم الصهباء)، ميرزا هاشم الأشكوري، مير سيد محمد القمي الفاطمي، روح الله الموسوي الخميني، وحسن حسن زاده آملي، إلى جانب تعليقات لمؤلّف مجهول يدعى **فتح المفتاح**.

4و5 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة، هيكلية الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

كتاب **مصباح الأنس** هو شرح لكتاب **مفتاح الغيب** للقونوي، ويضم بحوثاً في العرفان النظريّ، كما تتضمّن بعض أبحاثه معالجات في مجال العمل والعرفان العمليّ.

ويُعدّ الفصل الخامس من «باب الفاتحة» أكثر من سائر الفصول الأخرى التصاقاً بموضوع الأخلاق والعرفان العملي، وأكثر تناسباً معه، ويحمل العنوان التالي «في ما أفاده الكمّل من ضبط كلّيات مهمّات العلم والعمل». يتطرّق فيه المؤلّف إلى بيان وشرح أربعة طرق «في السير والسلوك» ذكرها كبار الصوفيّة. ونحن في هذه البيبليوغرافيا نكتفي بذكر ما ورد، في هذا الفصل فقط، من كتاب **مصباح الأنس**.

في ضوء بيان الفناري فإنّ «الطريق الأول» هو الطريق الذي تبنّاه أبو حامد الغزالي في كتابه **جواهر القرآن**، والذي ذكر أنّ أبواب السير والسلوك أربعين باباً: عشرة أبواب في العقائد، وعشرة في العبادات

الظاهريّة، وعشرة في الأعمال الباطنية التي تسمّى المهلكات، وعشرة في الأعمال الباطنية التي تُسمّى المُنجيات.

الطريق الثاني، هو الآخر لأبي حامد الغزالي. إذ يذكر في كتابه **منهاج العابدين** أنّ طريق السلوك فيه سبع عقبات، وعلى السالك أن يهذّب باطنه أثناء اجتيازه هذه العقبات السبع.

وأمّا الطريق الثالث فقد بيّنه الشيخ الأكبر، محيي الدين بن عربي، في كتابه **مواقع النجوم**. يقضي هذا الطريق بأنّ جميع الفضائل التي تحصل للسالك من خلال سلوكه، تُعزى إلى التوفيق وتُعدّ من نتائجه. ثم إنّ للتوفيق مراتب؛ أوّلها الإسلام، ووسطها الإيمان، وآخرها مقام الإحسان. وعليه، فإنّ السالك إذا شمله التوفيق الصحيح، فسيحصل في خاتمة المطاف على النتائج الثماني عشرة والتي تكون كلّ نتيجة فيها فرعاً للنتيجة السابقة عليها. وهذه النتائج هي كالآتي:

التوفيق، الإنابة، التوبة، الحزن، الخوف، الاستيحاش من الأغيار، الخلوة (وهي من نتائج وثمار الاستيحاش من الأغيار)، الفكر، الذكر، دوام الحضور، الحياء، الأدب، مراعاة الحدود الشرعيّة، القرب، الوصال، الأنس، الإدلال والانبساط، السؤال والإجابة.

والطريق الرابع، هو الطريق الذي أشار إليه الخواجة عبد الله الأنصاري في كتابه **منازل السائرين**. وقد مرّ بيان هذا الطريق في الحديث عن الكتاب في هذا المعجم.

ويحاول صاحب كتاب **مصباح الأنس** إيضاح ما هو الوجه وبيانه ـ أو

الوجوه المنظورة ـ في ترتيب المنازل المائة والتي أخذها الأنصاري بعين الاعتبار بالنسبة إلى السالك .إلّا أنه، وكما سنشير إليه في شرح كتاب **مصباح الأنس**، أعمل بعض التصرّفات والتغييرات في ما يتعلّق بدرجة أهميّة بعض المنازل والأبواب، قياساً ببعض الأبواب الأخرى، إذ قام بإبراز بعض المنازل باعتبارها منازل أصليّة، وعدّ المنازل الأخرى من توابعها وملحقاتها.

وكما هو المتعارف في كتب ومؤلّفات المتصوّفة، فإنّ المواضيع التي عالجها الكتاب شملت، في الأغلب، عناوين ذات صلة بأخلاق العبودية والأخلاق الفردية. وقلّما نجد عناوين ترتبط بأخلاق الأسرة والأخلاق الاجتماعيّة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

تتجلّى منهجية الكتاب في الأمور التالية:

1 ـ لا يلتزم الفناري في استعراض البحوث بمنهج واحد. ففي بعض البحوث يتبنّى منهجاً استدلالياً تعليليّاً، ويذكر الدليل والشاهد والمدرك. وفي مواضع أخرى يكتفي بالبيان الوصفي الاستعراضيّ الذي يسعى إلى توضيح المسألة وتصويرها وتحديد الموضوع فقط.

2 ـ من أهم النقاط المنهجيّة التي امتازت بها قراءة الفناري لحقيقة السلوك الذي يسلكه السالك في مسيرته إلى الله ـ ولتعدّد المراحل والمقامات وطبيعة العلاقة الترتبيّة القائمة بين هذه المقامات ـ هي أنه سعى جاهداً لأن يؤسّس قراءته لماهية وخصائص سلوك السالك

ومختصّات المقامات التي تقع على طول السير ـ أي السير الأنفسي ـ على أساس نظرة معرفيّة كونيّة إلى طبقات العالم وعوالم الوجود ونشآت الصقع الربوبيّة في التنزّلات الأسمائية للحق تعالى. ويطبق التحوّلات الباطنيّة والأنفسيّة للسالك والتكامل المعنويّ له على كيفيّة الاشتداد الوجودي، وعبوره عوالم الوجود، وصعوده في نشآت الصقع الربوبي، ـ إذ يبدأ بالتدريج من فعل الباري تعالى وأسمائه الظاهرة والباطنة، وأولى التعينات الأسمائية، لينتهي بالتالي إلى استدامة الحضور في مشهد تجلّيات الذات ـ . ويبدو أنّ هذه الخصوصيّة تعود إلى الأجواء العامة التي تهيمن على عملية التلفيق بين العرفان العملي، وبين التأمّلات والتفاسير الرائجة في مرحلة ازدهار العرفان النظريّ التي تلت مرحلة ابن عربي. ولا تختص بكتاب الفناري وإن كان يُعدّ من أبرز رجالات هذه المرحلة ومن رواد هذا النمط، في تقرير مقامات ومنازل السالكين.

3 ـ من الملاحظ أنّ الفناري، وفي سياق البرهنة على الرؤى والأفكار التي يعتمدها كثيراً، لم يُفِد من التطبيقات الثلاثة بين عناصر الدين من جهة، وبين كلٍّ من المراتب الوجوديّة للإنسان، والنشآت الربوبية، ومراتب العلم، من جهة أخرى. وكان يتحدّث دوماً عن «الإسلام والإيمان والإحسان»، وعن «النفس والروح والسّر»، و«القلب الأول والقلب الثاني والقلب الثالث»، و«التجلّي الفعلي والتجلي الأسمائي والتجلّي الذاتي»، و«علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين».

4 ـ ربما أفاد مصنّف **مصباح الأنس** من طرائق التحليل المتّبعة في فقه اللّغة لبيان مراده؛ فمثلاً، في بداية بحث المقامات، عندما ينقل

كلام محي الدين ابن عربي من كتاب **مواقع النجوم**، ويركز الحديث على مفردة «التوفيق»، يذكر جذرها اللّغوي واشتقاقاتها، ويعاود ممارسة هذا اللون من الأسلوب في توضيح مقام «الفقر».

5 ـ لم يغفل شارح **مفاتح الغيب**، الأساليب والفنون الأدبيّة، نظير: الاستعارة وتشبيه المعقول بالمحسوس، في تفهيم مراده. وفي موارد، نظير كيفيّة تحقّق القلوب الثلاثة ضمن مراحل مختلفة للسلوك لدى الشخص السالك، أفاد من تعابير التناكح، والزوجية، والمشيمة، والجنين، والتوالد.

6 ـ في ما يتعلّق بكيفية بيان الأمور المرتبطة بمنزل من المنازل وخلافاً للخواجة ـ الذي تصدّى إلى بيان مائة منزل واهتم بشرحها ـ لا يطرح الفناري كلّ منزل بشكل مستقلّ ومنفصل عن سائر المنازل، خصوصاً بالنسبة إلى المنازل غير الأصليّة. وعلى حد تعبيره: المنازل المتمّمة، بل يطرحها بشكل متسلسل، وفي بعض الموارد قد يتحدّث عن منازل عدّة ضمن سطر واحد أو سطرين.

7 ـ يعتقد الفناري أنّ جميع المنازل والمقامات المائة، التي أشار إليها الخواجة، ليست بمستوى واحد من الأهميّة ولا في مرتبة واحدة؛ إذ إنّ بعضاً منها يحظى بأهميّة أكبر وبعضها الآخر يندرج في ذيل المجموعة الأولى أو يكون متمّماً لها. ومن هنا فقد حرص على أن يُدرج المنازل الفرعيّة في ذيل المنازل (المقامات) الأصليّة.

8 ـ كان المؤلف موفّقاً في الاستفادة من آيات القرآن الكريم، في توثيق مدّعيات الكتاب وبرهنتها، بالتصريح تارة وبالإشارة أخرى،

وبصورة جزئية أو كلية. والى جانب الآيات أفاد أيضاً من الروايات في تدعيم بحثه ولكن بدرجة أقلّ.

9 ـ في ما يتعلّق بتحديد غايات التربية الأخلاقيّة والأساليب التربويّة وأهدافها، يسعى كتاب **مصباح الأنس** ـ كما هو دأب سائر مؤلّفات المدرسة العرفانيّة في الأخلاق الإسلاميّة ـ إلى إعداد الإنسان وتربيته من أجل الوصول إلى مرتبة الشهود ولقاء الله، وذلك بتقديم حلول عمليّة وسلوكيّة.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يعدّ نص الكتاب من النصوص التخصّصيّة للمراحل الأخيرة من علم العرفان. وهو ويعاني من تعقيدات كثيرة نشير هنا إلى بعض الأسباب التي ساهمت في ذلك التعقيد:

1 ـ مقتضى طبيعة البحوث العرفانيّة وصعوبة تصوّر وإدراك المفاهيم الباطنيّة.

2 ـ إنّ كون النص نصّاً تخّصصيّاً، إلى جانب اعتماده على الكتب التمهيديّة المقدميّة، أدّى بالمؤلّف في كثير من الموارد إلى أن يكتفي بالإشارات والكنايات.

3 ـ وفرة المصطلحات العرفانيّة الخاصة.

4 ـ يمتاز بيان المؤلّف بشيء من التعقيد وقد تمثّل هذا التعقيد في ما نلاحظه من جمل طويلة، وإضافات متتابعة، وفواصل معترضة بين أجزاء الجملة، بين الفعل والفاعل، والصفة والموصوف، والمبتدأ والخبر. وهذا ما دفع بعض الشرّاح إلى التأكيد على الجانب

النحويّ والصرفيّ، وإعراب الجمل، وتحديد التراكيب اللّغويّة ضمن الجمل وخارجها.

5 ـ تعمّد المؤلّفون وكتاب العلوم الباطنيّة إبقاءَ هذه المعارف، بعيداً عن متناول عموم الناس ومن ليست أهلية حملها. يفترض المؤلّف أنّ القارئ وصل إلى مستوى علميّ رفيع، ومن هنا راح يكتب بلغة علميّة جافة وفنيّة، واجتنب نقل القصص والأمثال.

والكتاب ـ كسائر المصنّفات العرفانيّة ـ لا يخلو من الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة، ففي كلّ صفحة ثمة استشهاد بدليل نقلي ـ حديث أو آية ـ . وفي أغلب الموارد، تكون هذه الاستشهادات مرفقة بتأويلات وتفاسير باطنيّة تجاوزت دائرة المعنى الظاهريّ والمتعارف.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض الأحاديث النبويّة التي نشاهدها في المصنّفات العرفانية، لا نجدها في الجوامع الروائية، سواء الشيعية أم السنّية، وبعضها ليس له أسانيد صحيحة ومعتبرة، ولا يستند إلا إلى شهرته في النصوص العرفانية.

8 ـ التقييم النهائي

يلاحظ على الكتاب أنه لا ينفع عموم الباحثين في مجال الأخلاق الإسلاميّة، باستثناء بعض من الباحثين ممن له اطلاع على هيكليّة علم العرفان (النظريّ والعمليّ) وعلى معرفة إجماليّة بمصطلحاته الفنية.

يقوم الفناري، في هذا الفصل من كتابه، والذي يقع في عشرين صفحة، بشرح «منازل السير والسلوك المائة» شرحاً موجزاً. وعلى الرغم

من أنه كان قد تصدّى إلى شرح **منازل السائرين** لمؤلّفه عبد الله الأنصاري الهروي؛ فإنّه في بعض الموارد لم يلتزم بالترتيب، وأخلّ بالنسق الذي عليه الكتاب، وفي موارد أخرى اكتفى بذكر الاسم أو العنوان، وثمة موارد اكتفى فيها بتعريف المنازل فقط، وتوجد موارد غيرها يتفق فيها أن شرحه وإيضاحاته تتفق مع شرح الخواجة في **منازل السائرين**.

ومن أبرز خصوصيّات هذا الكتاب، انطباق بحوث العرفان العملي ومقامات السلوك إلى الله، مع البحوث التي تُعنى بنظام الكون واتّساقه والتي أشبعت بالبحث، في إطار العرفان النظريّ وفي مرحلة ما بعد محيي الدين بن عربي. لقد أشار المؤلّف إلى أنماط ونماذج عدّة من السير والسلوك، في بداية هذا الفصل. وهي التفاتة مهمّة جديرة بالتأمّل ويبدو أنها لم تثر من قبل.

9

رسالة السير والسلوك[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

العلاّمة السيد محمد مهدي بن مرتضى بن محمد البروجردي الطباطبائيّ، الملقّب ببحر العلوم، من أعاظم ومفاخر علماء الشيعة في القرن الثالث عشر الهجري (1155 ـ 1212 هـ).

ولد في مدينة كربلاء ودفن في النجف الأشرف. كان إلى جانب إلمامه بمختلف العلوم والفنون ـ بدءاً بالأدب العربي، مروراً بالفلسفة والكلام والحكمة، وصولاً إلى الفقه والأصول والتفسير والحديث وغيرها من العلوم، معروفاً بكراماته وأخلاقه الحسنة ونفسه الزكيّة. وأمّا تشرّفه بلقاء سيدنا ومولانا الإمام الحجة صاحب الزمان ـ مرّات ومرّات ـ فهو أمر معروف. وعلى الرغم من مكانته العلميّة السامية (إذ تتلمذ على يديه ثلة من فحول علماء الإماميّة، من قبيل الفاضل النراقي صاحب مستند

(1) السيد مهدي بن سيد مرتضى الطباطبائي النجفي (بحرالعلوم) (ت 1212 هـ)، **رسالة السير والسلوك**، شرح وتقديم محمد حسين الحسيني الطهراني، طهران، انتشارات حكمت، 1370 هـ ش. ط 2، عدد الصفحات 222 صفحة، حجم رقعي. وأيضاً توجد رسالتان في السير والسلوك إحداهما للسيد بحر العلوم والأخرى للسيد حسين القزويني، أشرف على نشرهما المحقّق رضا أستادي، طهران، انتشارات بنياد فرهنگي امام رضا (ع)، 1401هـ.

الشيعة، وحجة الإسلام الشفتي، والشيخ محمد علي الأعسم، والسيد جواد العاملي وغيرهم من الأفذاذ)، إلّا أنّه لم يترك مصنّفات كثيرة وحتى المصنّفات التي أثرت عنه بقيت مخطوطة. من أهم مؤلّفاته **الدرة المنظومة (الدرة النجفية)**، **المصابيح**، **القواعد الأصولية**، **الفوائد الرجالية**، **تحفة الكرام في تاريخ مكة والبيت الحرام**، **مشكاة الهداية** و**ديوان الأشعار**[1]. ومن مصنّفاته باللّغة الفارسيّة **رسالة السير والسلوك**. وقد شكّك بعض في صحة انتسابها ـ كلّها أو بعضها ـ إلى المؤلّف، إلّا أنّ بعض الأكابر من أهل السلوك والعرفان قطع في صحة انتسابها إليه[2].

2و3 ـ النسخ والطبعات، أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

توجد نسخ كثيرة من هذه الرسالة، بما فيها ثلاث نسخ في مكتبة حرم الإمام الرضا (ع)، وثلاث نسخ في مكتبة جامعة طهران، كما طبعت هذه الرسالة مرّتين؛ مرة في بدايات القرن الحاضر مع مقدّمة وتحقيق وتعليق رضا الأستادي، وأخرى بتقديم، وتحقيق، وتعليق السيد محمد حسين الحسيني الطهراني. وتوجد بين الطبعتين بعض الفروق من حيث هيكليّة الكتاب وحجم المادة المطروحة. ومن ضمن الأعمال ذات الصلة بهذه الرسالة رسالة **لب اللباب في سير وسلوك أولي الألباب**، تأليف السيد محمد حسين الحسيني الطهراني.

---

(1) محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 7، ص 203 ـ 216؛ ، التبريزي، **ريحانة الأدب**، ج 1، ص 234؛ الشيخ عباس القمي، **الكنى والألقاب**، ج 1، ص 67 ـ 71.

(2) **رسالة السير والسلوك**، مقدّمة رضا أستادي، ص 10.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

لقد ضمّت الرسالة، على إيجازها، أهم العناصر العلميّة والعمليّة المأثورة في الأخلاق العرفانيّة والسير والسلوك الفرديّ، إلّا أنّ التصنيف البديع والترتيب الجيد بين بحوث الكتاب، إلى جانب المنظور الخاص الذي ينطلق منه المصنّف في معالجاته، كل ذلك أدى إلى تقديم عناوين بحثيّة جديدة لم يألفها القارئ كثيراً في مصنّفات أخرى من هذا القبيل.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

تقع رسالة السير والسلوك في مقدّمة وأربعة مقاصد. ففي المقدّمة التي بلغت سبع صفحات، أشار المصنّف إلى حديث «**من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**» وراح يبيّن التأثير الخاص، لهذا العدد بالذات، في ظهور القابليّات والملكات وتكاملها ضمن عمليّة طيّ المنازل والمقامات، مستنداً في ذلك إلى تجارب أهل الباطن والسلوك، وعدد من الآيات والروايات الصريحة في هذا المجال. فكتب يقول:

إنّ كلّ من كان بإمكانه أن يطوي هذه المنازل الأربعين في عالم الخلوص ـ بعد أن يكون قد برّز قابليّات وملكات الخلوص إلى مرحلة الفعليّة ـ ستتفجر ينابيع المعرفة والحكمة من قلبه. وينبغي لهذا المسافر أن يعي أربعة أمور هي:

1 ـ المعرفة الإجماليّة بالمقصد، وهو عالم ظهور ينابيع الحكمة.

2 ـ ضرورة طيّ عوالم عدّة، هي في الواقع منازل تسبق عالم الخلوص.

3 ـ الدخول إلى عالم الخلوص ومعرفته.

4 ـ السير في المنازل الأربعين لعالم الخلوص.

وهذه الأمور نفسها تشكّل المقاصد الأصليّة للرسالة. في «المقصد الأول» وضمن صفحتين، يعرِّف المصنف المقصد بأنه «عالم الحياة الأبدية» أو «البقاء ببقاء المعبود» معتبراً ما ورد في الحديث من ظهور ينابيع الحكمة والتي تعني العلوم الحقيقيّة، إشارة إلى هذا المعنى بالذات. وذلك باعتبار أنّ العلوم الحقيقيّة والمعارف الحقّة، هي رزق النفوس القدسيّة، والرزق الأبدي إنما هو للحياة الأبديّة. وللوصول إلى هذا العالم الذي هو جامع للمراتب الكماليّة التي لا تعدّ ولا تحصى.

في المقصد الثاني، وهو المقصد الأصلي وأطول مقطع في هذه الرسالة، يبحث المصنّف المنازل التي تسبق عالم الخلوص ضمن 43 صفحة، ويقول إنّ على المسافر أن يجتاز اثني عشر عالماً، وهذه العوالم تنتظم ضمن الترتيب التالي:

1 ـ **الإسلام الأصغر**: وهو إظهار الشهادتين والقيام بالفرائض، إذ ورد عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «**الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس؛ شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً رسول الله (ص)، عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان**».

2 ـ **الإيمان الأصغر**: وهو التصديق القلبيّ والإذعان الباطنيّ بتلك الأمور التي ذكرناها. ولازمه الاعتقاد بجميع المعارف التي جاء بها النبي الأكرم (ص). وهذا ما تفيد به الرواية الواردة عن الإمام الصادق، إذ جاء فيها: «. . . . . **الإيمان هو الهدى، وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام، وما ظهر من العمل به**».

3 ـ **الإسلام الأكبر**: وهو التسليم والانقياد وعدم الاعتراض على الحق تعالى. والتزام جانب الطاعة في جميع لوازم الإيمان الأصغر والإسلام الأصغر، والإذعان بأن جميع تلك اللّوازم يجب أن يُؤتى بها كما هي وما عداها يترك كليّاً. وهذا أدنى مراتب العبوديّة، وإليه تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

4 ـ **الإيمان الأكبر**: وهو جوهر وروح الإسلام الأكبر (كما أنّ الإيمان الأصغر يشكل روح وجوهر الإسلام الأصغر)؛ يعني تجاوز الإسلام الأكبر، من مرحلة التسليم والانقياد والطاعة، إلى مرتبة الشوق والرضا والرغبة وانتقال الإسلام من العقل إلى الروح. والآية الكريمة ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2] تعدّ مصداق هذه الحالة.

5 ـ **الهجرة الكبرى**: كما إنّ الهجرة الصغرى هي الهجرة بالبدن من دار الكفر إلى دار الإسلام، كذلك الهجرة الكبرى هي الهجرة بالجسم من مخالطة أهل العصيان، وبالقلب من مودّتهم ومحبّتهم. وهي أيضاً الهجرة بكليهما (البدن والقلب) من عادات وتقاليد أهل العصيان.

6 ـ **الجهاد الأكبر**: وهو يتم بمحاربة جنود الشيطان، بالاستعانة بجنود العقل (وهم حزب الرحمان).

7 ـ **الفتح والظفر**: يتحقق بالانتصار على جنود الشيطان، والخروج من عالم الجهل، وإليه أشارت الرواية: «شيعتنا أهل الهدى وأهل التقى وأهل الخير وأهل الفتح والظفر».

8 ـ **الإسلام الأعظم**: الإنسان، قبل الدخول في عالم الفتح والظفر،

---

(1) سورة آل عمران: الآية 19.

(2) سورة الزمر: الآية 22.

هو سجينُ عالم الطبيعة وأسير جنود الوهم، والغضب، والشهوة، ويقع مغلوباً للأهواء المتضادّة للّجة الطبيعة. ولكن بعد الفتح والظفر على جميع تلك العقبات، وبعد التحرّر من عالم المادة والطبيعة، ينفتح على حياة جديدة. وإثر حدوث القيامة الأنفسيّة الصغرى (موت النفس الأمّارة) يفوز بالمشاهدات المعنويّة الملكوتيّة، بدلاً عن عالم المعلومات الصوريّة والملكيّة، وتتجلّى له الكثير من الأمور الخفيّة وتعرض له الكثير من الأحوال العجيبة، ويصل إلى القيامة الأنفسيّة الوسطى. وحينئذٍ، إذا لم تتداركه العناية الأزليّة فإنه سيضحى فريسة الأنانيّة والإعجاب، لما يشاهد من نفسه من أمور وحالات، وسيقع في فخّ العدو الداخلي، أي النفس، إذ ورد في الرواية: «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**»، ويُبتلى بالكفر الأعظم.

ومحصّل الكلام، أنّ الإسلام الأعظم في حقيقته، هو عبارة عن التصديق بفناء الأنا، والإذعان إلى وجود الذلّ والعجز والعبوديّة والمملوكيّة، وذلك بعد أن تتكشّف له الحقيقة، ويعتقد بأنّ ما كان يشاهده من الإحاطة والنور، من نفسه، هو عين الفقر والظلمة.

9 ـ **الإيمان الأعظم**: وهو شدّة ظهور الإسلام الأعظم، وتخطّيه حدود العلم والإذعان إلى مرتبة المشاهدة والعيان، وإيذانٌ بالدخول في هذا العالم ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[1]. في هذه المرحلة ينتقل السالك من عالم الملكوت إلى عالم الجبروت، ويفوز بالمعاينات الجبروتيّة بعدما كان يرفل بالمشاهدات الملكوتيّة وتقوم عليه القيامة الأنفسيّة

(1) سورة الفجر: الآية 29.

الكبرى ويهجر عالم النفوس المتعلّق بالأفلاك ليردّ العالم المنزّه عن الأجسام.

10 ـ **الهجرة العظمى**: وتعني أن يترك الإنسان وجوده الذاتي ويهاجر إلى حيث عالم الوجود المطلق، وينقطع إليه، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

11 ـ **الجهاد الأعظم**: ويعني أن يشرع الإنسان، بعدما هجر وجوده ونفسه، في مكافحة جميع آثار وصفات الوجود الضعيف، مستعيناً في كفاحه هذا بالمليك المقتدر، فيدخل عالم التوحيد المطلق بعد أن يمحو جميع تلك الآثار والمواصفات.

12 ـ **الفتح والظفر**: والذي يحصل إثر الجهاد الأعظم هو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[2]. في هذه المرحلة تقوم القيامة الأنفسيّة العظمى على السالك فيجتاز جميع الأجسام، والأرواح، والتعيّنات، والأعيان، ويتخلّص منها بالكامل ليدخل بعد ذلك عالم اللاّهوت، ويفوز بالحياة الأبديّة لينعم بالبقاء فيها، وينقل من المعاينات الجبروتيّة إلى التجلّيات اللاّهوتية، مرفوع الرأس.

بعد هذا الشرح للعوالم الاثني عشر هذه، يتصدّى المؤلّف لشرح طريق السلوك ضمن بيانين بإيجاز:

البيان الأول: يتكفّل بشرح المسار الذي تسير فيه العوالم آنفة الذكر بالأدبيّات السابقة نفسها، ويؤكّد على الدور الأساس والتأثير المتبادل بين

(1) سورة الفجر: الآية 30.

(2) سورة آل عمران: الآية 169.

العلم والعمل وعلى الالتزام بالرفق والمداراة، وتجنّب الإفراط في طريق السلوك، وأهميّة تعلّم فقه النفس (أحكام الطبّ الروحاني) عن طريق التلقي من الأستاذ وعلى الأهميّة القصوى للذكر، والتفكّر، والتضرّع.

البيان الثاني: بعد أن يتعرّض المؤلّف من خلاله إلى الاختلاف الموجود بين علماء الطريقة في خصوص عدد المنازل وعقبات السلوك وطبيعة الترتيب الذي تنتظم فيه المنازل والعقبات، وأنّ أغلب هذه المنازل موجودة في عالم النفس، ومن بين هذه المنازل «الجهاد الأكبر»، ويختلف ترتيب هذه المنازل باختلاف الأشخاص. وفي هذا السياق يرى بحر العلوم: أنّ حقيقة السلوك ومفتاحه، يكمن في تسخير النفس والبدن من خلال رفع لواء الإيمان بالله تعالى. ومن ثم إفناء النفس والروح تحت لواء الكبرياء الإلهيّ، إلّا أنّ طيّ هذا الطريق يتوقّف على أمور كثيرة، من أهمّها ما يلي:

ترك العادات والتقاليد التي تشكل موانع في طريق السلوك، العزم الجازم، الرفق والمداراة، الثبات والدوام، المراقبة، المحاسبة، المواخذة، المسارعة، الإرادة، الأدب، النيّة الخالصة، الصحة، الجوع، الخلوة، السهر، دوام الطهارة، المبالغة في التضرّع، الاحتراز عن الشهوات بقدر الاستطاعة، كتمان السّر، الشيخ والأستاذ، الورد (الأذكار الكلاميّة)، نفي الخواطر، الفكر والذكر.

في المقصد الثالث، بحث المؤلّف عالم الخلوص ضمن إحدى عشرة صفحة؛ وقسّمه إلى قسمين: خلوص الدين، وإليه تشير الآية الكريمة ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1] وخلوص العبد، المشار إليه بقوله

---

(1) سورة البيّنة: الآية 5.

تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]، وواضح أنّ خلوص الدين يُعَدُّ مِن مقدّمات الوصول إلى خلوص العبد. والحديث الوارد «**من أخلص لله أربعين صباحاً**» ناظر إلى المرتبة الثانية وهي مرتبه التوحيد الحقيقي. والسالك ما لم يصل إلى هذه المرتبة يعدّ مشركاً. وقد أثبت القرآن الكريم ثلاثة مناصب سامية لصاحب هذه المرتبة:

1 ـ الإعفاء من حضور حساب الحشر الآفاقي: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

2 ـ الحصول على ثواب وراء ثواب العمل وفوق ذلك الثواب: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

3 ـ والثناء للّه تعالى حق ثنائه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[4]. وهذه غاية ما يصلها المخلوق من مرتبة وأعلى ما يمكن أن ينتهي إليه الإنسان من منصب. وما لم تتفجّر ينابيع الحكمة في قلب الإنسان ـ بأمره تعالى ـ لا يكون بإمكانه أن يلج هذا الميدان. وما لم يطوِ مراتب عالم الممكنات، وتُسعد عيناه برؤية عالم الوجوب واللاّهوت، لن يبلغ هذه المرتبة. فالحياة الأبديّة هي لعباد الله المخلصين، فهم مستقرّون عند ربهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[5]. ورزق هؤلاء معلوم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾[6].

---

(1) سورة الصّافات: الآية 74.
(2) سورة الصّافات: الآية 127.
(3) سورة الصّافات: الآية 39.
(4) سورة الصّافات: الآية 159.
(5) سورة آل عمران: الآية 169.
(6) سورة الصافات: الآية 41.

وقوله: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى مرتبة الخلوص هذه. وهذان الرزقان متّحدان ويقترنان بـ «الكون عند الرب»، وهو عبارة أخرى عن القرب والذي يمثّل حقيقة الولاية التي هي أصل شجرة النبوة. بعد ذلك، يوضح المؤلّف معنى القتل وأقسامه باختصار. ويشير إجمالاً إلى الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر وبعض صفات المنافقين.

في المقصد الرابع، يبحث في خصوص منازل عالم الخلوص، وذلك في ثلاث صفحات، إذ يقرّر أنّ المراد من هذه المنازل طيُّ مراتب القوة والاستعداد، وتحصيل الفعلية التامة. فكما إنّ الشيء ما لم يحترق جميع أجزائه سينطفئ بأدنى ريح وإن احترق ظاهره، فكذا الحال بالنسبة إلى السالك إذ إنّ مجرّد الدخول في عالم الإخلاص لايكفي، لأن هناك بقايا من العالم القبلي موجودة في زوايا ذاته وتلافيف وجوده، وبأدنى زلّة يكون قد رجع إلى محلّه الأول. وعليه، ينبغي أن تبلغ جميع مراتب الخلوص، لدى السالك، مرحلة الظهور ليخلص عن الشوائب، وترتفع جميع آثار الأنانية بالكامل. ويكون بإمكانه أن يرقى من هذا العالم، ويضع قدميه على بساط القرب وهو مقام «أبيت عند ربي»؛ مقام ظهور ينابيع الحكمة. وهذا لا يحصل إلّا بحصول مَلَكة الخلوص.

ولمّا كان أقل مدّة لحصول هذه المَلَكة أربعين يوماً، إذن ما لم يسر السالك خلال هذه المدة في عالم الخلوص، ويطوِ مراتب الفعليّة التامة، لا يكون بمقدوره أن ينطلق إلى الأمام خطوة. ومع الأخذ بالاعتبار الترتّب المنطقي الموجود بين المقاصد الأربعة الأصليّة، بالنحو الذي

أشرنا إليه آنفاً، يمكن القول إنّ الهيكليّة العامة للكتاب مقبولة[1]، كما إنّ حجم البحوث والمعالجات المطروحة جاء متناسباً مع أهميّة مواضيعها ومع حجم كلّ الرسالة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

المنهج التربوي الذي اتّبعه المؤلّف، في كتابه هذا، هو منهج وصفيّ معرفيّ سلوكيّ، يشتمل على أحكام عمليّة. ومن النقاط الهامة في ما يتعلّق بمنهجه، التطابق الدقيق بين التعاليم النظريّة والأحكام العمليّة من جانب، وبين الآيات والروايات من جانب آخر، وهذه نقطة جديرة بالتأمّل والتدقيق.

7 ـ أدبيّات الكتاب

لا بدّ من القول إنّ **رسالة السير والسلوك** مليئة بالآيات والروايات، ولم يستفد المؤلّف من الأشعار والحكايات والتشبيهات إلّا نادراً. ويمتاز الكتاب ببيان سلس، لكنه في الوقت نفسه متين وغنيّ من حيث المضمون. وثمة موارد يتعسّر فهمها على القارئ الفارسي، قد تصل في بعض الأحيان إلى حدّ التعذر. وذلك يعود إلى كثرة استخدام المؤلّف للمفردات العربيّة ضمن العبارات الفارسيّة.

8 ـ التقييم النهائي

اشتملت هذه الرسالة على خطة بحث جديدة وجامعة، في السير

---

(1) الترتيب الذي أوردناه أعلاه، هو الترتيب الذي قرّره السيد رضا أستادي عن الكتاب. وأما وفقاً للنسخ الخطيّة والتي ورد فيها المقصد الثاني بعد المقصد الثالث والرابع، فإن ترتيب مقاصد الرسالة غير مقبول.

والسلوك الفرديّ. إلى جانب ذلك، فإن توظيف المؤلّف للآيات والروايات، في ما يتعلّق بدعم وتأييد هذا السلوك، والبرهنة على مطابقته للشريعة الإسلامية، كان موفقاً وناجحاً. وبالتالي فإنّ الرسالة، إلى جانب تميزها بالإتقان والإيجاز، اشتملت على أهم البحوث المعنية بالسير والسلوك. يبقى القول إنّه ونظراً لما توافرت عليه من مختصّات وامتيازات، استطاعت الرسالة أن تبرز كجهد عملي جامع ومنظّم ومفيد.

10

بحر المعارف[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

هو العالم الربّاني المولى عبد الصمد الهمداني، وهو باحث كبير له إسهامات في شتّى مناحي المعرفة، بما فيها الحكمة وليس من المعلوم تاريخ ولادته على نحو الدقة وإلى جانب ذلك، فقد بلغ درجة عالية في الزهد والتقوى. له باع طويل في أكثر العلوم، خاصة في علم المنقول، إذ يعدّ من أعاظم العلماء في هذا المجال. شغل منصب الاجتهاد والإفتاء قرابة ثلاثين عاماً. من أبرز أساتذته أستاذ الكلّ محمد باقر الوحيد البهبهاني، والسيد علي الحائري صاحب **الرياض**. له عدد من المؤلّفات، منها: **اللّغة الكبير** (كتاب كبير غير كامل في اللّغة)، **بحر الحقائق** في الفقه، **شرح مختصر النافع** للمحقّق الحلّي، **شرح معارج الأصول** للمحقّق الحلّي، وأخيراً هذا الكتاب أي **بحر المعارف** في الحكمة والعرفان العملي.

قُتِل غدراً في الهجوم الوهّابي على مدينة كربلاء المقدّسة، في يوم عيد الغدير، عام 1216 هـ بعد أن أُخرج المؤلّف من بيته بحيلة، ومن ثم

---

(1) المولى عبد الصمد الهمداني، **بحر المعارف**، تحقيق وترجمة أستاد ولي، طهران، انتشارات حكمت، 1412 هـ، 3 أجزاء، 815 و765 و876، صفحة، قطع وزيري.

قتل هو وثلة من رجال العلم والدين، عن عمر لم يتجاوز الستين عاماً. نقل عنه أنه قبل استشهاده كان يكرّر هذه المقولة كثيراً: سرعان ما ستخضّب لحيتي بدمي الأحمر القاني[1].

2و3 ـ النسخ والطبعات، أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

في مقدّمة التحقيق، يشير محقّق الكتاب السيد حسين أستاد ولي، إلى وجود نسختين خطّيتين من هذا الكتاب، وقد طُبع مرّة على الحجر في قطع رحلي في 550 صفحة، وفي المرة الثانية طبع في ثلاث مجلدات مع تحقيق وترجمة السيد حسين أستاد ولي. وقد قام المترجم بتقطيع النص إلى فقرات، وكتب بعد كلّ فقرة ترجمتها الفارسيّة، ، وميّزها عن النص العربي، عبر كتابتها بحروف صغيرة. ويأتي الكتاب في عداد الكتب العرفانيّة المميزة، نظير كتاب **الإشارات** لابن سينا، و**منازل السائرين**. ولم نجد جهداً علميّاً ذا صلة بهذا الكتاب سوى هذا التحقيق والترجمة المشار إليهما.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

مما لا شك فيه أنّ هذا الكتاب لا يعدّ، بالنسبة إلى العناوين الأخلاقيّة، كتاباً جامعاً ومانعاً، وذلك لأن الكتاب يُعنى بمعالجة جملة بحوث تتعلّق بعلوم أخرى إلى جانب معالجته للبحوث الأخلاقيّة.

---

(1) وردت ترجمة حياه المؤلّف في مقدّمة الطبعة المحقّقة لهذا الكتاب، كما وردت في كلّ من الكتب التالية: **روضات الجنّات**، **الفوائد الرضوية**، **الذريعة**، **بستان السياحة**، **رياض السياحة**، **طبقات الأعلام**، **رياض العارفين**، **طرائق الحقائق**، **هدية العارفين**، **ريحانة الأدب**، **مكارم الآثار** و**شهداء الفضيلة**.

وسنتطرّق إلى ذلك في الحديث عن محتويات الكتاب. كما إنه لم يبحث أياً من العناوين المتعلّقة بأخلاقيّات الأسرة أبداً. أضف إلى ذلك أنّ المتابع للعناوين المتعلقة بأخلاق العبوديّة، والأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة التي بحثها الكتاب، يجد أنها مع كثرتها، لم يستوفها المؤلّف وإنما ذكر منها ما يتطابق مع غرضه وأهدافه. ثم إنّ الإجمال والتفصيل، في بيان مواد الكتاب، لا يخضع لملاكات وضوابط محدّدة وواضحة فبعض العناوين الأخلاقيّة بحثت بتفصيل وإسهاب كبيرين، في حين نجد أنّ عناوين أخرى بُحثت بإيجاز ولم تنل حظّها من الاهتمام وإنما مجرّد إشارات عابرة لا أكثر.

وقد صرّح المؤلّف في مقدّمته على الكتاب، أنّ كتابه يُعنى بالحكمة العمليّة، لكنّ القارئ يجد نفسه أمام بحوث ومعالجات هامة وجادّة في العرفان النظريّ، والكلام، والتاريخ، وخاصة في إثبات ولاية أمير المؤمنين والأئمة الأطهار. وكما أشرنا، فإنّ الكتاب لم يحفل بالعناوين المرتبطة بأخلاق الأسرة أبداً، كما إنّ اهتمامه بالعناوين المندرجة تحت الأخلاق الاجتماعيّة أيضاً كان قليلاً، إلّا أنّ الكتاب قد تألّق كثيراً في معالجة العناوين المرتبطة بأخلاق العبوديّة والأخلاق الفرديّة.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يشتمل الكتاب على مقدّمة موجزة و126 فصلاً. وأشار المؤلّف في المقدمة[1] وفي مواضع كثيرة من النص[2] إلى أنّ الكتاب قد وضع في

(1) **بحر المعارف**، ج 1، ص 13.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 399.

«الحكم العملية الأربع»، وأنه لا يخرج عن هذا الموضوع إلّا على نحو الاستطراد. ويقصد بالحكم العملية الأربع الأمور التالية:

1 ـ تهذيب الأخلاق الظاهريّة من خلال العمل بأحكام الشريعة.

2 ـ تهذيب النفس من الرذائل الخُلُقيّة.

3 ـ تحلّي الباطن بالفضائل الحميدة.

4 ـ مشاهدة الآثار المَلَكوتيّة. وهي حصيلة وثمرة الأمور الثلاثة الأولى[1].

إلّا أنه وكما سنلاحظ، فإنّ البحوث الاستطراديّة ازدادت بدرجة أنها شغلت حجماً كبيراً من الكتاب. أضف إلى ذلك، أنّ الترتيب الموجود بين هذه الحكم الأربع لم يراعَ كما ينبغي.

ففي الفصول الأولى من الكتاب، تطرق المؤلف إلى بحوث من قبيل: استجابة الدعاء، اكتساب الصديق المؤمن، لزوم تذكّر الذنب دائماً وتجنّب العُجب، زيارة مقابر الأولياء، فضائل الشيعة، التقيّة، صلة الرحم، النوافل، كفّ الأذى عن الآخرين، الإقلال من الأكل، اجتناب الرزق الحرام، الزهد وترويض النفس، كبحوث تمهيديّة. ثم تحدّث عن طرائق الوصول إلى الله تعالى، واعتبرها ثلاثاً هي:

الطريقة الأولى: وهي أن يجدّ الإنسان بترويض النفس وتهذيب أخلاقه، وأن يسعى في معالجة كلّ صفة رذيلة ـ تؤدي إلى مرض القلب ـ بضدّها. وواضح أولاً: أنّ هذه الطريقة تستغرق مدّة زمنيّة طويلة

(1) بحر المعارف، ج 3، ص 792.

لتتبدّل الصفة الذميمة إلى صفة حميدة. وثانياً: لا يمكن من خلالها اجتثاث الرذائل بالكامل. وهذه طريقة أرباب المجاهدة ورياضة النفس وتسمّى «طريقة الأبرار».

الطريقة الثانية: وهي طريقة أهل المعاملات. وتبتني على كثرة الصلاة، والصوم، وتلاوة القرآن، والحج، والجهاد، والعبادات الظاهريّة، من أجل وصال الحق، وتسمّى «طريقة الأخيار». والواصلون إلى حظيرة الحق عبر هذه الطريق، هم قلّة أيضاً.

الطريقة الثالثة: طريقة السالكين إلى الله، الذين يحلِّقون في ألق السماء بمدد القوة الإلهيّة، وهي طريق أهل المحبة. وعدد الذين يفوزون بمقام الوصل، من خلال هذا الطريق، أكثر من الطائفتين السابقتين. وتسمّى هذه الطريقة «طريقة الشطّار». وقد اختار المصنّف الطريقة الثالثة وراح يُفصِّل في الحديث ـ فيها ـ في كتابه هذا.

إنّ أول وأهم عنوان، في هذا الطريق هو «المراقبة الدائمة» و«ذكر الله». وقد بحث المؤلّف، بالتفصيل، عن فضيلة الذكر، وثمرته، وطرقه، وآدابه، ومراتبه، وأقسامه، في أحد عشر فصلاً. ومن ثم أفرد فصلاً راح يذكِّر فيه بأهميّة العمل بالأحكام الشرعيّة الظاهريّة. ثم تعرّض إلى الحديث عن ضرورة الأستاذ، وشروط المرشد، وآداب الحضور لدى الشيخ، ضمن عدّة فصول.

ويرى المؤلّف أنّ من شروط الشيخ والمرشد، هو اعتقاده بإمامة الأئمة الاثني عشر (ع). وبهذه المناسبة عقد بحثاً مفصّلاً في إثبات إمامة

الأئمة، وقد احتل هذا البحث أكثر من 200 صفحة من الكتاب، نحى فيه المؤلّف تارةً منحىً كلامياً وأخرى منحىً تاريخياً.

وبعد بيانه شروط المرشد بالتفصيل، عقد المؤلّف بحثاً للحديث عن «آداب المريد». وفي طيّات هذا البحث تناول الكثير من المفاهيم الأخلاقيّة بالمناسبة، من قبيل: التوبة، الزهد، التقوى، الصبر، الشجاعة، البذل، الفتوة، الصدق، الأدب، حسن الخلق، التسليم، التفويض، مراعاة حق الناس. بعد ذلك يتعرّض إلى الحديث عن «العلم والمعرفة» ضمن فصول عدة، يبدأ من العلم الظاهر، ثم يبيّن قيمة المعرفة، ومراتب العلم الباطني في اثني عشر فصلاً.

وفي هذا المضمار، يبحث المؤلّف المقام الباطني للمعصومين (ع)، ويعقد مقارنة بين النبوّة، والرسالة، والولاية، ثم يخصّص فصولاً عدة للحديث عن فضائل الأئمّة المعصومين، ولا سيما الإمام علي (ع)، (وذلك في 900 صفحة). وأمّا الفصول التسعة الأخيرة للكتاب فيخصّها بالحديث عن مواصفات العالم الرباني، ويذكر أهمها، نظير: الورع والعمل بالعلم، والفرار من الدنيا، والزهد، والتحرّز من العُجُب. وفي الفصل الأخير من الكتاب، يعاود التذكير بضرورة تجنّب العُجب، ومن ثم يشرح مقامات السلوك وأنواع الرياضة الشرعية.

ويعدّ هذا المقطع المتعلّق بالأخلاق العرفانيّة، والذي لا يتجاوز عدد صفحاته الخمسين صفحة، من أهم البحوث التي عالجها الكتاب، إذ يورد المصنّف فهرستاً بالمنازل المائة للسلوك، ويرفقها باستشهادات من القرآن الكريم.

والملاحظ أنّ هذا الفهرست يتطابق تماماً وكتاب منازل السائرين، إلّا أنه ربما اختلف عنه في بعض الاستشهادات القرآنية. ثم كتب، في بيان ترتيب المنازل، قائلاً:

[هذه] خلاصة المقامات. والغرض منها أن يتحقّق عندك أنّ العالم الصوريّ، كما إنه مظهر الأسماء الإلهيّة، فكذلك العالم المعنويّ، هو أيضاً مظهرها، وأنّ إحصاء الأسماء لا يتهيّأ لأحد إلّا بقيامه بهذه المقامات. وقد قالوا: إنّ المقامات تتعلّق بسير الإنسان من بدايته إلى نهايته، وذلك ينتهي إلى هذا لا غير. وبيانه: أنهم قالوا: إنّ للإنسان في سيره وسلوكه بداية ونهاية وما بينهما مراتب، وهي قد انحصرت في عشر: البدايات، والأبواب، والمعاملات، والأخلاق، والأصول، والأودية، والأحوال، والولايات، والحقائق، والنهايات. وهذه العشر صارت مائة، لأن كل واحدة تحتها عشر، والمائة يجوز أن تصير ألفاً.

وتفصيلها: أنّ سير الإنسان إلى الحق، بالباطن، وإن كان مع استعانته بالظاهر، وذلك لصعود الهيئات البدنيّة إلى حيّز النفس والقلب، وهبوط الهيئات النفسانيّة والقلبيّة إلى الظاهر للعلاقة بينهما. ومراتب غيوب الباطن، بحسب الوجود، ستّ هي: غيب الحسّ الظاهريّ والذي هو غيب القوى الباطنية، وغيب النفس، وغيب القلب، وغيب العقل، وغيب الروح، وغيب الغيوب وهو غيب الذات الأحديّة.

وبحسب السير والترقّي تحصل للنفس مرتبتان قبل مقام القلب، لأنّها قبل التوجّه إلى الحق نفس أمّارة، ثم تصير لوّامة، ثم مطمئنة. وللقلب مرتبة فوق العقل ودون مقام الروح تسمّى السر، وهي عند ترقّيه

إلى مقام الروح في التجرّد والصفاء. وللروح مرتبة تُسمّى الخفاء وتحصل عند ترقّيها إلى مقام الوحدة. فيكون له في الغيب عشر مراتب، وله في كلّ مرتبة قسم من الأقسام المذكورة، يحتوي على عشرة مقامات هي أمهات المقامات كلّها. وهذه العشر تصير مائة والمائة ألفاً[1].

ويقسّم المصنّف «رياضات الحكماء» إلى قسمين: علمي وعملي. وفي ما يتعلّق بقسم «الرياضات العلميّة»، يوضح المراتب الأربع: العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد (المشكاة، الزجاجة، النور، ونورٌ على نور). وفي ما يتعلّق برياضات القوة العمليّة، يذكر المؤلّف أربع مراتب أيضاً: تهذيب الظاهر بالعمل بالشريعة، وتخلية النفس من الرذائل الخلقية، وتحلية السر بالأخلاق الحميدة، ومشاهدة آثار الملكوت والتي تعدّ الثمرة النهائيّة للمراتب السابقة.

بعد ذلك، يقدّم بحثاً للحديث عن «رياضات العرفاء». والملاحظ أنّ الهيكليّة العامة لهذا القسم مقتبسة من النمط التاسع من كتاب **الإشارات**. والجهد الذي بذله المصنّف في هذا المجال لا يتعدّى التلخيص، والشرح، والتصرّف بعض الشيء في ما جاء في **الإشارات**. وفي هذا المضمار يشرح المصنّف حديث الإمام علي (ع) في «نهج البلاغة» إذ يقول: «**فاتّقوا الله عباد الله وفرّوا إلى الله من الله**»، فيرى أنّ الفرار إلى الله هو بمعنى الإقبال الكامل على الله والتوجّه الباطني إليه. ويرى للفرار مراحل عدة هي:

---

(1) **بحر المعارف**، ج 3، ص 785 ـ 787.

المرتبة الأولى: الفرار من بعض آثار وأفعال الله إلى بعضٍ آخر، نظير الفرار من الأثر المترتّب على الغضب الإلهي، إلى الأثر المترتّب على رحمته.

المرتبة الثانية: الفرار من مشاهدة الأفعال، والفرار من صفة إلى أخرى، نظير اللّجوء من غضب الله إلى عفوه.

المرتبة الثالثة: أن يطرح عنه ملاحظة الصفات، فيكون الفرار من الذات إلى نفس الذات لصيرورته في مقام الوحدة الصرفة.

ويختصّ البحث الأخير من الكتاب، بالمنازل العامة لأهل السلوك: المنزل الأول وهو لأهل البدايات (وهم من أصحاب الأنوار اللّامعة وربما تعرض عليهم بعض الخلسات). المنزل الثاني وهو لأهل الثواني أو أهل الجمع. المنزل الثالث وهو لأهل الفرق. المنزل الرابع وهو لأهل الفرق والجمع. المنزل الخامس وهو لأهل التحير (وهم الذين انتقلوا من مرحلة السلوك إلى الله، إلى مرحلة السلوك في الله. وأضحى بوسعهم مشاهدة أنوار الذات الإلهيّة بلا واسطة وبصورة كاملة). المنزل السادس هو منزل أهل الفناء والاستغراق (وهم الذين اتّصلوا بالحق اتصالاً كاملاً، واستغرقوا في مشاهدتهم له، وسكروا على مدامة المحبة، وذُهلوا عن أنفسهم بالكامل). والمقام الذي يليه هو مقام «البقاء بعد الفناء» ويعبّر عنه بـ «الطمس».

وكما هو واضح، فإنّ الكتاب يبدو مزيجاً من البحوث الكلاميّة والتاريخيّة، والفلسفيّة، والعرفانيّة، والأخلاقيّة، ولا يتّصف بنظام أو ترتيب محدّد. وبعبارة أخرى: لم يدوّن بصورة مدرسيّة (كلاسيكيّة)

ومنظّمة، إلّا أنّ المعالجات المطروحة، عموماً، تحظى بترابط في ما بينها.

6 ـ منهجيّة الكتاب

أبدى الكاتب تمسّكاً شديداً بطريقة العرفاء، وتضمن كتابه بحوثاً عرفانيةً هامة، خصوصاً الفصل الأخير إذ تمَّ اقتباسه من كتاب **منازل السائرين** للخواجة عبد الله الأنصاري، ومن كتاب **الإشارات** لابن سينا. إلّا أنّ المؤلّف سعى جاهداً لأن يَدعم بحثه وأفكاره بالآيات والروايات ويؤكّد دعواه من خلال الرجوع إلى القرآن والحديث. وهنا لا بدّ من التذكير بأنّ الكثير من الروايات التي أفاد منها في كتابه هذا، نقلها عن مصادر روائيّة من الدرجة الثانية، من قبيل: **مشارق الأنوار**، **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع)**، **مصباح الشريعة**، **وعوالي اللآلي**.

أضف إلى ذلك أنّ الاستشهاد بأقوال عرفاء السلف وسيرتهم، أكّد طابع الكتاب العرفانيّ أكثر وأكثر. ومن مختصات هذا الكتاب، أنه نقل عن كثير من المصادر العرفانية من دون أن يذكر عنوان الكتاب ولا اسم الكاتب، وربما اكتفى المؤلّف في بعض الأحيان بتلخيص ما يقتبسه ـ من مطالب ـ ببعض عباراته. والفصل الأخير من الكتاب يتضمّن موارد عدة من هذا القبيل (التلخيص والتصرّف في العبارات).

ويبدو للقارئ أنّ المولى عبد الصمد الهمداني ينتسب إلى مدرسة الحكمة المتعالية، ويتبنّى المنهج الصدرائي بقوة. وهذا يعني أنّه قد استفاد من جميع معطيات «الطرح العرفاني»، و«الطرح القرآني»، و«الطرح البرهاني» ومعطياتهم في بيان وتوضيح المعارف الدينية وإثباتها.

نعم، ثمة فارق هو أنّ صدر المتألّهين جعل من التفكير الفلسفي الإطار والقالب العام الذي تنتظم داخله جميع ممارساته ونشاطاته الفكريّة، وضمن هذا الإطار قام بتوظيف معطيات: العرفان (الشهود الصحيح المنطبق على الكشف المحمدي التام)، والقرآن (المشتمل على مأثورات قطعيّة السند والدلالة)، والبرهان؛ باعتبارها مداخل وقنوات لإنتاج المعرفة اليقينيّة. في حين أنّ الهمداني جعل من التفكير العرفاني القالب والإطار النهائي، الحاكم على معطيات الطروحات الثلاثة العرفانية والقرآنية والبرهانية، وراح يوظّف هذه المعطيات بما يناسب النظام المعرفي الحاكم الذي اختاره.

7 ـ أدبيّات الكتاب

مما لا ريب فيه أنّ القلم الذي اعتمده المولى الهمداني في تحرير الكتاب، قد تأثّر كثيراً بالمنظومة الاصطلاحيّة والمفاهيميّة العرفانيّة. فعلى الرغم من أنّ قلم المؤلّف قد تشرّب بالأدب الصوفي؛ ولكنه في الوقت نفسه، سعى جاهداً إلى أن يبدو ملتزماً بأدبيات القرآن والروايات. من جهة أخرى، نجد أنّ نص الكتاب جاء مزيجاً من العبارات الفارسيّة والعربيّة، ويمتاز التعبير الفارسي بأنه يتضمّن عبارات فخمة وذات أثر طيب في النفس، كما يمتاز بالسلاسة أيضاً. وفي هذا المضمار استفاد المؤلّف من شعراء كبار أبرزهم سعدي الشيرازي. وأمّا العبارات العربية، فهي ليست على ذاك المستوى الرفيع من الإتقان. فالهمداني يبدأ الكثير من فصول الكتاب بعبارة «إي عزيز» بمعنى «أيها العزيز». وفي بعض الموارد نجد أنه استبدل هذا الخطاب بخطاب آخر وهو «إي درويش» بمعنى «أيها الفقير أو أيها الزاهد». والملاحظ أنّ

أغلب هذه الموارد قد تضمّنت عدداً من النصائح والمواعظ. وعموماً يمكن القول إنّ المادة المطروحة، ليس فيها صعوبة ولا إغلاق. نعم، في موارد خاصة، قد تواجه القارئ بعض الصعوبات ودرجة من الإغلاق وذلك تبعاً للمطالب التي تتضمّنها.

8 ـ التقييم النهائي

إذ لا شك في أنّ الكتاب يعدّ من عيون التراث العرفاني ذي المنحى الشيعي، فهو يتضمّن عدداً من البحوث النظريّة والعمليّة، ببيانٍ راقٍ وعذب. ولمّا كان مؤلّفه ـ وهو ممن فاز بمقام الشهادة في سبيل اللّه ـ يعدّ من أبرز عرفاء الشيعة المتشرّعين، جاء كتابه عظيم المنزلة، فتشكّل موسوعة كبيرة تضمّ إليها أغلب المعارف الحقة (بدءاً بالتوحيد والإمامة ووصولاً إلى الأخلاق والمعاد).

إنّ الكتاب، من حيث المضمون، لا يتضمّن شيئاً من الإبداع والجدّة؛ لكنه يتوافر على بيان معبّر وسلس ووافٍ بالمسائل العرفانيّة، كما يمتاز بكثرة استناده إلى الآيات القرآنية والروايات. أضف إلى ذلك، أنّه في فصله الأخير تضمن تقريراً دقيقاً لمراحل السلوك ومقامات العرفاء، في التراث الشيعي.

بقي أن نقول أخيراً إنّ ثمة ثغرة في الكتاب، تشكّل نقطة ضعف أساس فيه، وتتمثل في عدم الترابط والتناسق بين فصوله وتناثر مواده ومطالبه.

11

تحفة الإخوان في خصائص الفتيان[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

الكتاب من تأليف كمال الدين عبد الرزاق بن جلال الدين الكاشاني (ت 736 هـ)، كتبه بطلب من علي بن محمد بن شهاب الدين عمر السهروردي. وكان الكاشاني متضلّعاً بجميع علوم عصره، لاسيّما الأدب، والفلسفة، والعرفان، والكلام، والحديث. وإلى جانب خبرته في العلوم الظاهريّة فقد خبر أيضاً العلوم الباطنيّة. ومن أبرز مؤلّفاته : **شرح منازل السائرين**، **شرح فصوص الحكم**، **تأويلات القرآن**، **شرح تائية ابن الفارض في التصوّف**، **لطائف الإعلام في إشارات أهل الأفهام في اصطلاحات الصوفية**، **رشح الزلزال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال**، ورسالة **آغاز وانجام** (بالفارسية).

ويعدّ عبد الرزاق الكاشاني من تلامذة ومريدي الشيخ نور الدين عبد الصمد بن علي النطنزي الأصفهاني (ت 699 هـ)، وعلى يديه تقلّد شملة الصوفيّة. وبدوره فإنّ الشيخ النطنزي أخذ شملته من الشيخ نجيب الدين

---

(1) كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، **تحفة الإخوان في خصائص الفتيان**، مقدّمة وتصحيح وتعليق السيد محمد دامادي، طهران، شركت انتشارت علمي وفرهنگي، 1411 هـ، ط 1، 519 صفحة وزيري.

علي بن بُزغش الشيرازي، الذي تقلّد شملة الصوفية على يد شهاب الدين عمر السهروردي.

وقد أظهر المؤلّف تمسّكه الشديد بأهل البيت (ع)، وتوجد علائم كثيرة تدلّ على تشيّعه؛ منها أنه عدّ الإمام علي (ع) ـ وهو رأس حلقة أولياء الفريقين، ومقتدى الصوفية لكافة مراتبهم وسلسلاتهم ـ إمام فتيان العالم[1]. كما إنه يأتي على ذكر سائر أئمة الشيعة نظير الإمام الحسن (ع)، والإمام الحسين (ع)، والإمام زين العابدين (ع)، بكلّ احترام وإجلال. كما يستند إلى الأحاديث المأثورة عنهم في تدعيم وتقوية أُسس ومرتكزات طرق الاستدلال التي يعتمدها. إلى جانب ذلك، نجده في كلّ مرة يردف الصلوات على محمد، بالصلوات على آل محمد (ص)، ويبيّن أرجحيّة علي (ع) على سائر الصحابة ضمن قصة معبرة يوردها في كتابه[2]. وبناءً على ما نقله صاحب روضات الجنات، فإنّ الشهيد الثاني امتدح الملاّ عبد الرزاق الكاشاني كثيراً، وأثنى على كتابه الذي يحمل عنوان **في تأويل القرآن**. كما إنّ القاضي نور الله الشوشتري في كتابه **مجالس المؤمنين**[3] وصفه بأنه «مولانا العارف الكاشف لأسرار الغواشي»، وعدّه من الشيعة الإماميّة.

2 ـ النسخ والطبعات

طبع كتاب تحفة الإخوان بتقديم، وتصحيح، وتعليق، السيد محمد

---

(1) عبد الرزاق الكاشاني، **تحفة الإخوان**، ص 51.

(2) المصدر السابق، ص 97ـ98.

(3) محمد باقر الموسوي الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 4، ص 197.

الدامادي عام 1369 هـ. ش، من قبل شركة نشر «انتشارات علمي وفرهنگي». وحول النسخ التي راجعها وحقّقها، يشير المؤلّف إلى نسخة من النص الفارسي ونسختين من النص العربي. النسخة الفارسيّة موجودة ضمن مجموعة رسائل مختلفة ومتنوّعة في الجناح الخاص بالنسخ المصوّرة في المكتبة المركزيّة في جامعة طهران، إذ تمّ تصوير هذه النسخة من المكتبة الحميديّة في تركيا (رقم الفيلم 195، علماً بأن رقم النسخ المصوّرة يقع بين 2832 وحتى 2834). وأمّا نسختا النص العربي، فإحداهما موجودة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي برقم (12/ 369)، وقد تمّ تدوينها بين عام 1083 وعام 1085 هـ[1]. والأخرى محفوظة في مكتبة «ملك» برقم (14/ 829)[2].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

لا شك في أنّ الملاّ عبد الرزاق الذي يعدّ من كبار مشايخ السلسلة السهروردية، قد تأثّر في كتابه **تحفة الإخوان** بكتاب **عوارف المعارف** لشيخ الإسلام شهاب الدين عمر السهروردي كمصدر أساس له، كما كان كتابه مصدر تأثير على شخصيات من قبيل: شمس الدين محمد بن محمود الآملي من علماء القرن الثامن الهجري في كتابه **نفائس الفنون في عرائس العيون**، والملاّ حسين الواعظ الكاشفي السبزواري في كتابه **فتوت نامه سلطاني**، ومحمد معصوم الشيرازي (معصوم عليشاه نائب الصدر) في كتابه **طرائف الحقائق**[3]. فعلى سبيل المثال، في المجلّد

---

(1) آغا بزر الطهراني، **الذريعة**، ص 416.

(2) أحمد منزوي، **فهرست نسخه هاى خطي**، ج 1، ص 1074.

(3) عبد الرزاق الكاشاني، **تحفة الإخوان**، مقدّمة الدامادي، ص 29.

الأول من كتاب **طرائق الحقائق** في تفسيره للآية الكريمة ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[1] من سورة الكهف، ينقل عبارات **تحفة الإخوان** بحذافيرها في سياق استشهاده بأقوال القدماء، في ما يتعلّق بأصحاب الكهف[2].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

المتبادر من كلمة «الفتيان»، في السابق، أنهم جماعة من الناس يسعون في سبيل إصلاح الوضع الأخلاقي في المجتمع، إلّا أنّ العناوين والموضوعات التي بحثها الكتاب تكشف عن وجهة نظر المؤلّف في خصوص السبيل إلى تحصيل مقامات أهل الفتوة، مفادها أنّ السبيل يبدأ من إصلاح الخلقيّات الفردية، وينتهي بالوصول إلى مقام الخلوص في العبوديّة. وفي إطار السير من الإصلاح الفردي، وإلى حين الوصول إلى غايات الفتوة ونهاياتها، ثمة ثمار ومكاسب قيّمة وجنيّة على صعيد الأخلاق الاجتماعيّة، تحصل لمن يطوي هذا المسير.

وبنظرة إلى عناوين أبواب الكتاب نؤكّد هذه النتيجة، نظير عنوان الباب الأول، أي «التوبة»، فطبقاً للتعريف الذي حرّره المؤلّف، فإن التوبة تعني عودة الإنسان إلى ذاته. وبذا يتّضح أنّ هذا العنوان من العناوين التي تندرج تحت الأخلاق الفرديّة. وأمّا عنوان الباب الثاني وهو «السخاء»، فيندرج تحت عناوين الأخلاق الاجتماعيّة، وهو ـ أي العنوان هذا، طبقاً للسياق الذي عليه الكتاب ـ يقع نتيجة التوبة، ما يدلّ على أنّ

---

(1) سورة الكهف: الآية 13.

(2) انظر: محمد معصوم الشيرازي، **طرائق الحقائق**، ص 117 و118.

المؤلّف يعتقد بأنّ إصلاح الأخلاق الاجتماعيّة إنما يتأتّى من خلال إصلاح الأخلاق الفرديّة. أضف إلى ذلك أنّ المؤلّف يعرّف كلاًّ من عنوان «التواضع» وعنوان «الأمن» بنحو ينطبق على الأخلاق الفردية، إذ يقول في خصوص التواضع:

ولا يتم التواضع إلّا بقلّة اهتمام النفس بحقّها، وعدم الالتفات إلى خطرها ووقعها[1].

وهو يعرِّف الأمن بأنه الطمأنينة وهدوء النفس.

وأمّا العناوين المتعلّقة بأخلاق العبوديّة، فنقرأها من الباب الخامس وحتى الباب الثامن، بمعنى أنّ السالك، وبعد أن يجتاز عقبة العفة والشجاعة، ويصل إلى الطريق المعبّد المؤدّي به إلى حيث نتائج الحكمة والعدالة، وهنا بالذات تقع عناوين أخلاق العبوديّة. فمثلاً في باب الصدق، يقسّم المؤلّف الصدق إلى ثلاثة أقسام: الصدق في النيّة، والصدق في الحديث، والصدق في الفعل. ومعلوم أنّ الصدق في النيّة يندرج تحت عناوين أخلاق العبوديّة، والصدق في القول تحت الأخلاق الفرديّة، والصدق في الفعل (أي أن تُستوفى حقوق كلّ ذي حق بالكامل) يندرج تحت الأخلاق الاجتماعيّة.

وبالتالي، فإن الباب الأخير خصّص لعنوان «الوفاء»، والذي يعدّه الملّا عبد الرزاق الكاشاني غاية ما تقتضيه الفتوة من فعل. ويراد بالوفاء، الوفاء بالعهد القديم والأزلي للإنسان مع الله تعالى، وهذا يندرج تحت

---

(1) **تحفة الإخوان**، ص 245.

أخلاق العبودية. وطبيعي أنّ ثمرة الوفاء هي الوفاء مع الخلق ومع عباد الله عزّ وجلّ.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يُعدّ كتاب **تحفة الإخوان** من المصادر الرئيسة والمعتَبرة[1] في ما يتعلّق بقضايا الفتوّة. وهو يشتمل على مقدّمة وعشرة أبواب وخاتمة. وتتضمّن المقدّمة أربعة فصول، هي: الفصل الأول في بيان حقيقة الفتوة، والفصل الثاني في بيان منبع الفتوة ومظهرها، والفصل الثالث في بيان مبادئها ومبانيها، والفصل الرابع في المنطلقات والأُسس التي ترتكز عليها.

وأمّا الأبواب العشرة للكتاب، فهي: الباب الأول في التوبة، الباب الثاني في السخاء، الباب الثالث في التواضع، الباب الرابع في الأمن، الباب الخامس في الصدق، الباب السادس في الهداية، الباب السابع في النصيحة، الباب الثامن في الوفاء، الباب التاسع في آفات الفتوّة وقوادح المروءة، والباب العاشر في الفارق بين الفتى والمتفتّي والمدّعي.

وتتضمّن الخاتمة ثلاثة فصول هي: الفصل الأول في طريق اكتساب الفتوة، والفصل الثاني في خصائص أصحاب الفتوّة وسيرتهم وطرائفهم، والفصل الثالث في الخدمة والضيافة. والفارق الوحيد بين النص الفارسي والنص العربي يكمن في ترتيب الفصول والأبواب، إذ نجد أن الفصل

---

(1) الحكيم السنائي في **حديقة الحقيقة**، ص 745، يمتدح الكتاب بأبيات من الشعر الفارسي مضمونها: كلّ ما أُثر عن المشايخ وكلّ ما هو نص وما هو إخبار، قد جمعت في هذا الكتاب، وعلى الرغم مما رأينا من الكتب وما قرأنا لكن لم نشهد لهذا التصنيف مثيلاً.

الثالث من مقدمة النص الفارسي (في بيان مأخذها وابتداء طريقها)، قد جاء في النص العربي في ذيل الفصل الثاني من خاتمة الكتاب. كما إنّ الفصل الثالث من خاتمة النص الفارسي ـ والذي يُعنى بالحديث عن الخدمة والضيافة ـ قد ورد في نهاية الفصل الثاني (والذي تحدّث عن خصال أصحاب الفتوة)، ومن دون عنوان مستقلّ في النص العربي.

وتبتني خطة الكتاب والنظام الذي رُتّبت في ضوئه الأبواب، على أساس أنّ المصنّف في نهاية الفصل الرابع يقسم أجناس الفضائل ـ على المنوال الذي عليه مصنّفات الأخلاق الفلسفيّة ـ، إلى أربعة أقسام وبالترتيب التالي: العفة، والشجاعة، والحكمة، والعدالة. ومن ثم يورد الخصال الثماني ـ التي تشكّل أُسس ومنطلقات الفتوة ـ تحت عناوين الأجناس الأربعة التي أشرنا إليها، كلّ خصلتين تحت عنوان واحد وبالطريقة التي يرتأيها. وفي هذا المجال يقول الكاشاني:

وقد اختار ـ أمير المؤمنين علي (ع) ـ من أنواع كلّ جنس منها ما هو بمنزلة الأصل والمبدأ الذي إذا حصل استتبع البواقي فلم يلبث أن تبعته، وما هو بمنزلة الغاية والنهاية الذي إذا حصل استجمع الجميع فلم يخرج منه بشيء. فالتوبة والسخاء من باب العفة، والتواضع والأمن من باب الشجاعة، والصدق والهداية من باب العدالة[1].

6 ـ منهجيّة الكتاب

في سياق البرهنة على النظريّات والآراء المطروحة في الكتاب، لم يقيّد المصنّف نفسه بمصدر محدّد، بل أفاد من العقل، والنقل،

(1) تحفة الإخوان في خصائص الفتيان، ص 54.

والسيرة، والحكايات، وأقوال المشايخ، وكبار الصفويّة. إلّا أنه لمّا كان الملاّ عبد الرزاق نفسه من كبار المتصوّفة ومن المتبحّرين في التصوّف، فإن أغلب الأدلّة التي ساقها ذات طابع صوفي، واستدلالاته العقلية أغلبها مبتنية على مقدّمات مشهورة ومقبولات عرفيّة. وهنا لا بد من التذكير بأن تعاضد هذه الأدلّة مع الاستشهاد بالآيات القرآنية وروايات المعصومين (ع)، أضفى على الكتاب طابعاً نقليّاً أيضاً.

ومن جهة أخرى، فإنّ تنوّع المصاد التي اعتمدها الكتاب؛ أدّى بالمؤلّف إلى أن يستفيد من الطريقة التركيبية في تصنيف مطالب الكتاب. فمثلاً، في تقسيم الفضائل إلى فضائل أربع، استفيد من المنهج الفلسفيّ، وأما في التعريف بغايات الفضائل، فقد استفاد المؤلف من المنهج العرفاني؛ ولذا ذكرت ثلاث غايات للفضائل، هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وأمّا المنهج التربوي الذي يتّبعه الكتاب، فهو تلفيق بين المنهج المعرفيّ النظريّ والمنهج العملي، وإن كان المنهج المعرفي يغلب على المنهج العملي. ومن هنا جاءت معالجات المؤلّف في إطار تصحيح الرؤية المعرفية للمخاطب، والتشجيع على العمل في ضوء تلك الرؤية المعرفية المصححة.

7 ـ أدبيّات الكتاب

أُلِّف كتاب **تحفة الإخوان** باللّغة العربية أولاً. ومن ثم قام مؤلّفه نفسه بترجمته إلى اللّغة الفارسية، من أجل تعميم الفائدة للناطقين بهذه اللغة. ويمتاز نثر الكتاب ـ سواء النص العربي أم الفارسي ـ بعبارات سهلة وسلسة وصناعات لغويّة ممتعة، لدرجة أنّ النقاد عدّوا النص الفارسي من عيون النصوص الأدبيّة الفارسيّة، بينما عدّوا النص العربي نموذجاً من

تراث الأدب العربي إبّان القرن الثامن الهجري. ويجدر القول إنّ لغة الكتاب، وإن بدت ـ ربما ـ غريبة بالنسبة إلى القارئ المعاصر الذي لا أنس له بأدبيّات الصوفيّة ومصطلحاتهم[1]، ولكن قليلاً من الصبر يكفل له حلّ المشكلة، إذ سرعان ما سيحصل للقارئ المتطلّع إلى المسائل الأخلاقية والعرفانية أنسٌ بالكتاب وانشداد إليه. وقد أفاد المؤلّف في معالجاته وأبحاثه التي بثّها في هذا الكتاب، من الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة، وبنحو خاص الروايات العَلَوية؛ إذ نقل الكاشاني في أكثر من ثلاثين مورداً كلمات نورانيّة للإمام علي (ع)، كما استشهد في موارد أخرى بأحوال وأحاديث للإمام الحسن (ع) وللإمام الحسين (ع). إلى جانب ذلك، أورد جملة من الحكايات والقصص الشيقة، وأقوالاً لشخصيّات بارزة ضمن كلّ باب من أبواب الكتاب. وأيضاً استشهد في موارد قليلة (ثمانية موارد) بأشعار عربيّة وفارسيّة.

8 ـ التقييم النهائي

بنظرة نقديّة تقويميّة تتجاوز بعض السلبيّات الطفيفة، يمكن القول إنّ الكتاب يحظى بمميزات إيجابيّة كثيرة؛ من قبيل حُسن التحرير، والطرح القوي للأفكار، والبيان الجميل والفصيح، والعبارات السلسة الخالية من الإغلاق والتطويل. فهذه وغيرها من محسّنات نص كتاب **تحفة الإخوان**، أضف إلى ذلك أنّ إلمام المؤلّف بالعلوم العقليّة والمعارف النقليّة السائدة في عصره، وحبه وولاءه لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأهل بيت العصمة (ع)، والمكانة المعنويّة والوجاهة التي يمتلكها هو نفسه

---

(1) انظر: **مقدّمة المصحّح**، ص 21 ـ 24.

(الكاشاني) ـ باعتباره أحد مشايخ الصوفية ومن رواد هذا الفن وهذا ما يؤثّر إيجاباً في الوثوق بما ينقله عن الصوفيّة من أقوال وتعاليم ـ، كلّ ذلك أعطى الكتاب اعتباراً ووجاهة خاصتين.

ومن المميزات البارزة لهذا الكتاب قياساً بغيره من الكتب، حرص المؤلّف على تجنّب الاستشهاد بالأقوال الهزيلة وغير المعقولة، وعدم خروجه عن دائرة بيان أُسس ومرتكزات «أخلاق الفتوة» وتوضيحها، فلم ينجرّ إلى الدخول في القضايا الفرعيّة والأحكام والآداب التي قد تبدو في بعض مواردها قراءة مغلوطة لأُسس وضوابط الفتوة، أو أنها تعتمد الذوق الشخصي، ولا تحتكم إلى موازين ومبرّرات منطقيّة وموضوعيّة، أو التي تتضمّن تعابير شَطَحية حول الفتوة، فقد راح بعض ممن ألّف في هذا المضمار (أخلاق الفتوة والفتيان)، يجهد نفسه لاقتناص مفاهيم ومعانٍ صائبة وصحيحة ـ على الرغم من ظاهرها غير المرضي وألفاظها غير السوية ـ عبر قراءة قسريّة وبتكلّف شديد[1]، وهذا ما لم يقع فيه الكاشاني. إذن فالأداء الجيد، إلى جانب مقام ووجاهة المؤلّف، ساهم في إضفاء أهميّة خاصة لكتاب **تحفة الإخوان**، وجعل منه وثيقة معتبرة وقيمة.

نعم، توجد نقطتان يمكن توجيه النقد إلى الكتاب من خلالهما:

---

(1) من قبيل اللّعب بالنرد، وحمل السيوف والخناجر، والقامات، والمكاسرة، ويقصد بها التنازع بين المحلات واستعراض العضلات والبطولة وغير ذلك. انظر حسين واعظ كاشفي سبزواري، **فتوت نامه سلطانى**، قام بنشره محمد جعفر محجوب، بنياد فرهنگ ايران، 1392 هـ.

الأولى أنّ أسانيد الأحاديث والروايات لم تذكر فيه؛ وربما أجيب عن ذلك بأنّ المصدر الأساس الذي اعتمده المؤلّف هو كتاب **عوارف المعارف** للسهروردي، علماً أن الأخير لم يغفل عن ذكر أسانيد الأحاديث وسائر مستلزمات البحث والتحقيق، أضف إلى ذلك أنّ طريقة المؤلّف في تأليف الكتاب مبنيّة على الإيجاز والاختصار، ولذا لم يذكر سلسلة أسانيد الروايات والأحاديث.

وأمّا النقطة الثانية، فهي ترتبط بأسلوب الكاشاني في ما يتعلّق بتصنيف أبواب الكتاب؛ إذ ذكر في المقدّمة أنه واستناداً إلى رواية عن أمير المؤمنين علي (ع)، يذكر فيها أنّ الفتوة مبنيّة على ثمانِ قواعد وأصول، ويقسم الكتاب إلى ثمانية أبواب. وذكر ـ في سرده للأبواب ـ باب «الوفاء» قبل باب «النصيحة»، والحال أنّ الوفاء هو آخر درجات الفتوة، وقد جاء الحديث عنها في نص الكتاب بعد باب النصيحة أيضاً.

يضاف إلى ذلك، أنّ النصّ الفارسيّ للكتاب، سقط منه بعض الرواية الواردة عن الإمام علي (ع) والتي أشرنا إليها قبل قليل؛ إذ ورد في النص العربي في آخر الرواية، كلمة «والتوبة»، وقد سقطت هذه الكلمة في النص الفارسي. وهذا يؤدّي إلى حصول خلط وإرباك لدى القارئ؛ وذلك لأن الخصال الواردة في الرواية ليست أكثر من سبع خصال، في حين أنّ الملاّ عبد الرزاق استفاد من هذه الرواية ثمان خصال، والخصلة الثامنة هي «التوبة»، وقد سقطت لسبب مجهول من ذيل الرواية.

تجدر الإشارة إلى أنّ كتاب **تحفة الإخوان** يصنف ضمن المؤلّفات التي تُعنى بأخلاق الفتوة. ولا شك في أنّ أخلاق الفتوة تشكّل اتجاهاً خاصاً في مجال الأخلاق العرفانيّة.

والآن، إذ انتهينا من التعريف بتراث مدرسة الأخلاق العرفانيّة، نشرع في شرح معالم وسمات هذا الاتجاه وبيانهما.

معالم
أخلاق الفتوة وسماتها

أُنجزت حتى الآن العديد من الأعمال والكتب والدراسات حول أخلاق الفتوة. وقد حظي هذا الاتجاه الأخلاقي باهتمام مصادر ومؤلّفات الصوفية، نظير: **الرسالة القشيريّة**، **كشف المحجوب**، **أسرار التوحيد** و**تذكرة الأولياء**. وقد بحث هذا الاتجاه بصورة أشمل وأكثر تفصيلاً في كتاب **طبقات الصوفيّة** لأبي عبد الرحمن السلمي. كما إنّ ثلة من العلماء والباحثين المعاصرين، ممن تأثّر بالجذبات الأخلاقيّة والاجتماعيّة لأهل الفتوة، قدّموا دراسات تحليليّة قيّمة في هذا المجال، وكل واحد منهم انطلق برؤية تحليليّة خاصة به ومن زاوية معينة. فعلى سبيل المثال، في مقدّمته على كتاب **فتوت نامه سلطاني**، قدم الدكتور محمد جعفر محجوب دراسة عن النشأة السياسيّة التاريخيّة لهذا الاتجاه مع التأكيد على دور الدولة العباسيّة في هذا المجال[1]. وقد كان الدكتور محجوب، في دراسته هذه، متأثّراً بمقال تحقيقي للدكتور مصطفى

(1) انظر: الملاّ حسين الواعظ الكاشفي السبزواري، **فتوت نامه سلطاني**، تحقيق محمّد جعفر محجوب.

جواد، في مقدّمة كتاب **الفتوة** لابن المعمار[1]. وفي كتاب «**جستجو در تصوف ايران**» (بالفارسية) قام الباحث عبد الحسين زرّين كوب بالحديث حول طبيعة العلاقة والنسبة بين الفتوة والملامتيّة[2]. وفي هذا المضمار أيضاً يمكن الإشارة إلى ما كتبه الدكتور أبو العلاء العفيفي، إذ تطرّق في كتابه إلى ذكر موارد التشابه والاختلاف بين التعاليم والمفاهيم الرئيسة؛ التصوّف، والفتوّة، والملامتيّة. وراح يبرز الترابط والعلاقة الموجودة بين الفتوة والتصوّف إلى زمن ظهور الملامتيّة في بدايات القرن الثالث الهجري. كما تُعنى هذه المقالة بتحليل ونقد الرسالة الملامتيّة لأبي عبد الرحمن السلمي[3].

وفي هذا المضمار، كان لعبد الباقي غولبينارلي، هو الآخر، اهتمام خاص بالرسائل التي دُوّنت حول الفتوّة وتنظيمات الفتيان، في سائر الدول الإسلامية، وخصوصاً في بلاد الأناضول، على صعيد المقارنة، والتحليل، والنقد، ألّف كتاباً في هذا المجال[4]. وقام الباحث مرتضى صراف بجمع سبع من الرسائل المعنية بالحديث عن الفتوة سمّاها **رسائل جوانمردان** (بالفارسية)[5].

وعلى هذا المنوال، قام بعض الباحثين بجمع أربع عشرة رسالة في

(1) محمد بن المعمار الحنبلي، **كتاب الفتوة**، مع مقدّمة للأستاذ مصطفى جواد وزملائه نقلاً عن كتاب **أحوال وآثار وأشعار ميرسيد علي الهمداني**، الدكتور محمد رياض، ص 332.

(2) انظر: **جستجو در تصوف ايران**، ص 335 ـ 357.

(3) أبو العلاء العفيفي، **الملامتية، الصوفية، الفتوة**.

(4) عبد الباقي غولبينارلي، **فتوت در كشورهاي إسلامي ومآخذ آن**، ترجمة توفيق سبحاني، طهران، نشر روزنه 1379 هـ. ش.

(5) **رسائل جوانمردان**، بالفارسية، تصحيح وتقديم الدكتور مرتضى صراف.

باب الفتوة وطبقات المجتمع ونشرها بعد تصحيحها. وإليك عناوين بعض هذه الرسائل: **رساله شاطران** (بالفارسية)، **رسالة نمد مالي** (بالفارسيّة)، **رساله خبازان** (بالفارسيّة)، **رساله كرباس بافتن، وسنگ وترازو** (بالفارسيّة)، **رساله قصابان وسلّاخان** (بالفارسيّة) ورسالة **حمّاميان وسلمانيان** (بالفارسيّة)[1].

كما اهتم بعض الكتّاب بتقديم دراسات في نقد وتقييم الصوفيّة والفتيان. وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى كتاب هاشم معروف الحسني[2] ومحمد كاظم يوسف بور[3]. حيث جاءت محاولة الأول للردّ على نظريّات مصطفى كامل الشيبي في كتابيه **الفكر الشيعي والنزعات الصوفيّة**، **والصلة بين التصوف والتشيع**. وقد ضمّن الحسني كتابه نقداً لما يُدّعى من الترابط بين الفتوّة والتشيّع[4].

وفي هذا المجال، اكتفى جماعة من الكتّاب بتأليف كتب للتعريف بحقيقة هذا التيار، ومجمل الرسوم والآداب التي كان يلتزمها أتباعه[5]. فقد عرّف محيي الدين بن عربي «الفتوة» بأنها الأخلاق الحسنة، وبذل النعم الإلهيّة إلى العباد، والتخلق بأخلاق الله، وتقديم أوامر الدين على أهواء النفس. ومن المسائل التي عالجها في كتابه، مسألة ترك الفتوة والإعراض عنها التي قد تحدُث في بعض الأحيان. ويشير أيضاً إلى أنه

---

(1) **چهارده رساله در باب فتوت واصناف**، مقدمة وتصحيح مهران افشاري ومهدي مدايني.

(2) هاشم معروف الحسني، **التصوّف والتشيع**.

(3) محمد كاظم يوسف بور، **نقد صوفي**.

(4) هاشم معروف الحسني، **التصوّف والتشيع**، ص 428 ـ 435.

(5) من قبيل كتاب: **مقدمهاى بر مباني عرفان وتصوّف**، سيد ضياء الدين سجادي، طهران، انتشارات سمت، 1372، ص 244 ـ 248؛ وأيضاً كتاب **مباني عرفاني واحوال عارفان**، للدكتور علي أصغر حلبي، طهران، أساطير، 1409 هـ، ص 229 ـ 233.

قد فصّل في الكتابة حول مقام وأحكام أهل الفتوة في رسالة كان قد كتبها إلى الفخر الرازي سمّاها بـ **رسالة الأخلاق**[1].

ومن أبرز المؤلّفات التي دوّنت في مجال التعريف بالفتيان، المقدّمة التفصيليّة التي كتبها محمد رياض الباكستاني على رسالة **الفتوتية** لمير سيد علي الهمداني[2]، والتي تضمّنت تقريراً جامعاً عن حقيقة الفتوة وآدابها والمسار التاريخي والسياسي الذي مرّت به، والتأثيرات الاجتماعيّة والثقافيّة التي أفرزتها. وقد أفدنا من هذه المقدّمة في كتابة هذا البحث كثيراً، نظراً لشموليّتها وجامعيّتها.

«الفتوة» في اللّغة بمعنى المروءة والنجدة، وتتضمّن أيضاً معنى السخاء والكرم[3]. وأمّا اصطلاحاً فهي تيار اجتماعي له مواصفات وشروط معيّنة، كما له تقاليد وآداب ومراسيم خاصة، ويسعى إلى تحقيق أهداف إنسانية خيّرة إلى جانب السعي إلى خدمة الفرد والمجتمع خدمة صادقة.

وكانت كلمة «الفتى»، بالمعنى المصطلح، متداولة بين العرب قبل الإسلام؛ إذ كانوا يطلقون هذه التسمية على الشخص الذي يصل إلى درجة الكمال في الأخلاق، والإنسانيّة، والفضيلة، من وجهة نظرهم طبعاً. أو من يحظى بخصلتين، هما السخاء والشجاعة (إذ كان العرب

---

(1) انظر محيي الدين بن عربي، **الفتوحات المكية**، دار الكتب العربيّة، مصر، 1329 هـ، الأبواب 42 و146 و147.

(2) محمد رياض، **أحوال وآثار وأشعار مير سيد علي الهمداني**، مركز تحقيقات فارسي ايران وباكستان، 1406 هـ، ص 245 ـ 334.

(3) جبران مسعود، **الرائد**، ص 1103.

يعظّمون شأن هاتين الخصلتين)، بحيث يُلقي المرء بنفسه تحت وطأة القرض والفقر، أو تبلغ به الشجاعة أن يفدي الآخرين بنفسه، وحينئذٍ يدعى بـ «الفتى». أمّا في العالم الإسلامي، فقد ظهرت الفتوة كمصطلح دينيّ صوفيّ اجتماعيّ، يرمز إلى مسلك خاص «كان قد انتشر أمره في البلاد الإسلاميّة أكثر من أيّ طريقة أخرى ما عدا التصوّف»[1].

ويمتاز هذا المسلك بأن من شأنه أن يبرز البعد الأخلاقي للدين الإسلامي الحنيف أكثر، وأن يفعّل التصوّف الإسلامي ويجعله أكثر غنىً. ومن الناحية الاجتماعية أيضاً يعدّ هذا المسلك سبباً ومدعاةً لمساعدة المعوزين والمضطرّين، واستئصال شأفة الجبابرة والظلمة. ويعتقد أهل الفتوة أنّ المصدر الأول للأخلاق هو الصفات الكماليّة لله سبحانه وتعالى، فالباري عزّ وجلّ يرينا شواهد من كرمه لتضحى لنا مثالاً ومَعْلَماً نحتذي بها، وذلك بمقتضى الحديث القائل: «تخلقوا بأخلاق اللّه»[2].

ومما لا شك فيه أنّ جميع الأنبياء، بدءاً بالنبي آدم (ع) وختماً بالنبي محمد (ص)، كانوا ممن يصدق عليهم عنوان «الفتى»، إلّا أنه وبمقتضى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3]؛ فإن بّعض الأنبياء أعلى منزلة ـ في الفتوة ـ من غيرهم. فالنبيّ إبراهيم خليل الرحمن (ع) وهو أبو الفتيان والنبي محمد (ص) سيد الفتيان. ففتوّة وإيثار النبي

(1) سعيد نفيسى، سرچشمه تصوف در ايران، ص 134.

(2) انظر: مجموعة عكسي رسائل حكمت وتصوف وفتوت، رقم 6/ 1171 جامعة طهران، المكتبة المركزية.

(3) سورة البقرة: الآية 253.

إبراهيم كانت على درجة كبيرة، إذ تمثّلت بتقديم ابنه العزيز قرباناً في سبيل الله، كما تمثّلت في موقفه عندما أُلقي في النيران، إذ لم يطلب العون والمساعدة حتى من جبرائيل (ع). كما إنّ إكرامه للضيف قد ذاع صيته في الآفاق.

وتوجد قصة تُنقل، في هذا المجال، عن كافر حلّ ضيفاً على النبي إبراهيم (ع)، فأكرمه ومن ثم دعاه إلى دين الحق. وقد نقل الشاعر الإيراني الكبير سعدي الشيرازي هذه القصة وأوردها في الباب الثاني من كتابه «**بوستان**»، بعدما أدخل عليها بعض التعديلات والتصرّفات[1]. محصّل القول إنّ إبراهيم (ع) كان المثل الأعلى في التوحيد، والإيثار، والثبات، والصبر على البلاء، ويعدّ «أبا الفتيان»[2].

والنبيّ يوسف الصدّيق (ع) هو الآخر تعرّض إلى البلاء الشديد من قبل امرأة العزيز والنسوة الأخريات، بسبب امتناعه عن ارتكاب المعصية، فتحمل ألوان العذاب وآثر السجن على المعصية. وسعى إخوته في هلاكه وتشويه سمعته، ولكنّ الصدّيق قابل كلّ هذا الجفاء والإساءة بالعفو عنهم، وأعلن على رؤوس الأشهاد أن ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾[3]. وقد استعرض القرآن الكريم نماذج كثيرة من فتوّة سائر الأنبياء والصالحين، من قبيل أصحاب الكهف[4].

---

(1) **كليات سعدي، بوستان دوم حكايت اول**، ص273 ـ 274؛ وأيضاً انظر: **الرسالة القشيرية**، ص 14؛ وكتاب **الفتوة** لابن المعمار، ص 279 ـ 280.

(2) المقداد بن عبد الله السيوري، **رسالة الفتوة**، مكتبة مجلس الشورى، رقم 4976.

(3) سورة يوسف: الآية 92.

(4) انظر: مجلة فرهنگ ايران زمين، العدد 10، سنة 1341 هـ. ش. وأيضاً: **فتوت نامه منظوم**، ص 240 ـ 243؛ **وحيات القلوب**، ج 1، ناصري سيواسي، ص 299 ـ 304.

ويمتاز رسول الإسلام محمد (ص) من بين الأنبياء بأنّ فضائله الأخلاقية لا تعدّ ولا تحصى، وقد ذكرت كتب التاريخ، والسيرة، والحديث، والتفسير عيّنات ونماذج من فتوته. والفتيان كسائر الجماعات والفرق الإسلامية التي تؤكّد على اندكاكها برسول الإسلام، تعتبر المنهج والطريقة التي تتّبعها قد اقتبستها من حياة الرسول محمد (ص)، وتحرص على إسناد طريقتها وبرامجها ـ بكل مفرداتها ـ إليه (ص). وهنا لا بد من التذكير بوجود أحاديث وروايات لرسول اللّه (ص)، مذكورة في الكثير من مصنّفات أهل التصوّف والفتوّة؛ لكنها غير موجودة في الجوامع الروائيّة والحديثيّة المعروفة، وبما أنّ الصوفيّة وأهل الفتوة تلقوا هذه الروايات بالقبول، لذا أدرجوها في تراثهم، وراحوا يتناقلونها في ما بينهم.

والمعروف أنّ الرسول (ص)، قبل البعثة النبويّة، كان قد اشترك في حلف يُدعى: «حلف الفضول»، أوجدته جماعة من فتيان مكة وأهل النجدة منهم وذلك بهدف نصرة المظلومين. ولا ريب في أنّ الشجاعة، والسخاء، وإكرام الضيف، والرفق، والمداراة، والستر، والعفو، والتسامح، والإخلاص، والحرص، ونجدة المظلومين، والتصدي للظلمة وسفاكي الدماء، والرحمة بالضعفاء، وإعانة المساكين وما شابهها، هي من الخصال التي يحبها الفتيان وينشدّون إليها بقوة. وواضح أنّ الرسول الأكرم (ص) يمتلك جميع هذه الخصال في أعلى درجاتها، لذا نجدهم ـ الفتيان ـ ينسبون أعمالهم إليه. ومن بين أتباع الرسول (ص) وصحابته، يعدّ أمير المؤمنين علي (ع)، مثال الفتوّة الحقيقيّة ومصداقها الأتمّ، وإليه ترجع جميع حلقات وفرق الفتوة الإسلاميّة، وعلى حدّ

تعبير بعض مؤلّفي الصوفية فإن شخصية الإمام علي (ع)، هي «مصدر الفتوة، ومعدن الجود والمروءة، وقطب رحى الفتوة»[1].

ويذكر أهل الفتوة أحداثاً ووقائع كثيرة حدثت في حياة أمير المؤمنين (ع)، تجلّت فيها الفتوة بأعلى درجاتها، منها في واقعة أُحد عندما كان الإمام يحارب ببسالة وإخلاص منقطعَيْ النظير، دوّى هاتف من الغيب، بين الأرض والسماء: «لا فتى إلّا علي ولا سيف إلّا ذو الفقار». ثم كرّر النبي (ص) هذه المقالة بحق علي (ع) مرّات عدّة، فأضحت شعار الفتيان، وصار علي (ع) يدعى عندهم «سيد الفتيان»[2].

ويشترط أرباب الفتوة لمن يريد الدخول في مسلكهم، سبعة شروط عامة هي: «الرجولة، البلوغ، العقل، الدين الإسلامي، الاستقامة، المروءة والحياء». وإلى جانب هذه الشروط ثمة شروط أخرى عدّوها ضروريّة لمن يريد الانخراط في هذا المسلك، وهي: «التوبة النصوح، ترك العلائق والاشتغالات الدنيويّة، صدق القلب واللسان، التأسّي الصحيح بالأعاظم من أهل الفتوة، والإقلاع عن الشهوات والأهواء»[3]. ثم إنهم في المرحلة اللّاحقة أوصلوا شروط الفتوة إلى 72 شرطاً. وقد يعبّر عنها بـ «الصفات». وهنا نعرض بعضها:

الصدق، مساعدة الآخرين، التحرّر من هوى النفس، العفة، الوفاء، البذل للصديق والعدو، الاحتراز من السب وقول الباطل، إنزال

---

(1) مير سيد علي الهمداني، **رساله فتوتية**، المقدمة.

(2) ابن المعمار الحنبلي، **كتاب الفتوة**، ص 142.

(3) انظر: **فتوت نامه سلطانى**، ص 76.

النفس منزلة النملة في ضعفها، السعي إلى قضاء حاجة المعوزين، التورّع عن مدح النفس وعن التظاهر بالقيام بالأعمال الصالحة (إلّا إذا كان من أجل تحفيز الآخرين وتشجيعهم على تلك الأعمال)، الاحتراز من العجب والتكبر، الحلم، ترك الشكوى، ملازمة الورع، الحذر من الغش والتزوير، تطهير القلب من الحقد، تجنّب تكريم النفس، التحدّث إلى الآخرين بأدب وسماحة، بذل الاهتمام الكافي بالفرائض والواجبات، المروءة مع الخلق، الرياضة، عدم الذهاب إلى مكان بلا دعوة، مداراة كبار السن والشيوخ، والتعامل بسماحة وسعة صدر مع الشباب، ملازمة جانب الأدب، إسداء النصح إلى الأصدقاء والأخلّاء في السر، عدم ذكر الآخرين إلّا بالخير، عدم الاقتراب من المعاصي، تربية الآخرين وتأديبهم بطريقة لا تخجلهم (شباباً كانوا أم شيباً)، عدم إعطاء الخرقة لغير الأكفاء، القناعة، تقديم العبادة والدعاء على كلّ شيء آخر، جذب الناس بالإحسان إليهم والتعامل معهم على أساس المروءة، الجِديّة والمثابرة في المضيّ في طريق الإحسان، الاحتراق من أجل الآخرين كالشمعة التي تحرق نفسها لتنير للآخرين درب الهداية، وغير ذلك من الخصال.

ويعتقد الرواد من الفتيان، أنَّ اثني عشر شخصاً لا يصلحون للدخول في سلك الفتيان، وهم:

الكاهن، المدمن على الخمر، الدلّاك، الدلّال، الحائك، القصّاب، الجرّاح، الصيّاد، العامل في ديوان الدولة، والمحتكر[1].

(1) هذه الأعمال والمشاغل (من دون رعاية التقدم والتأخّر في ما بينها)، جاء ذكرها في =

ونظراً إلى الصعوبة التي امتازت بها شروط الانخراط في سلك الفتيان، تولّدت في ما بعد ما يمكن أن نعبر عنها بـ «فتوّة الحِرَف والصناعات». فمنذ نهايات القرن الثامن الهجري، على وجه التحديد، راح كلّ صنف من أصناف أهل الحِرَف والصناعات؛ في مختلف البلاد الإسلاميّة، ينسبون أنفسهم إلى فرع من فروع الفتوّة أو حلقة من حلقاتها، ويعتبرون حرفتهم أفضل من بقيّة الصناعات.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمة أفعالاً قبيحة يؤدّي ارتكابها، من وجهة نظر الفتيان، إلى الخروج من دائرة الفتوة. ولذا ينبغي أن يكونوا على حذر من هذه الأفعال ـ بعض هذه الأفعال مستلّة من الصفات الاثنين والسبعين التي ذكرناها سابقاً ـ ويصل عددها إلى عشرين وهي:

شرب الخمر، الزنا، اللّواط، النميمة، النفاق، التكبّر، الخوف من غير الله، الحسد، الحقد، الغيبة، الكذب، المخالفة وعدم التعاون في العمل الحسن، الخيانة، النظر بشهوة إلى غير المحارم، البحث عن عيوب الناس، البخل، الغيبة، البهتان، السرقة، أكل المال الحرام، وعدم الاهتمام بتربية ونصيحة الآخرين. وكما سنرى فإنَّ فتيان عهد الانحطاط قد مارسوا هذه الأعمال المحرّمة.

وللفتيان سلسلة مراتب خاصة بهم؛ إذ يدعى الشخص، عندما يتقدّم

= كثير من الكتب: **فتوت نامه سلطاني**؛ **كتاب الفتوة** لابن المعمار، ص 256 ـ 261؛ **منتخب كتاب الفتوة** (السلمي)، مخطوط برقم 90 ـ د، مكتبة كلّية الآداب، طهران؛ **رسالة في مجموعه عكس**، رقم 1171، جامعة طهران، المكتبة المركزيّة تحت عنوان الفتوة. وأيضاً **رسالة الفتوة** للشيخ المقداد، مخطوطة برقم 4976 مكتبة مجلس الشورى. وانظر **فتوت نامه منظوم ناصري**.

بطلب للانخراط في سلك الفتوّة، بـ «الطالب» أو الصغير. فإذا حظي طلبه بالقبول سمّوه بـ «ابن». أمّا القدامى منهم، فيُدعى كل واحد منهم بـ «الأب»، وبدورهم يطلقون على رئيسهم الذي يحتلّ موقع الصدارة في السلسلة كلمة «الأخ».

والملاحظ أنّ الفتيان يلبسون السراويل (جمع سروال)، بدل الخرقة، فلبس السروال ـ في معتقدهم ـ من أهم الرسوم، إذ يعدّ ثياب أهل الفتوة، وعلاقة العفاف والطهر والتقوى، وأمّا القبعة أو العمامة في منظورهم فهما شعار الاحترام والتبجيل لمقام الفتيان، وقد أصبح هذا اللون من الثياب، في ما بعد، متداولاً في أماكن رياضيّة خاصة تدعى بـ «الزورخانة» بإيران. وكان لكلّ واحد من الفتيان نطاق يسمّى «شد» أو «محزم»، معتقدين أن مرجع ذلك السروال والمحزم يعود إلى «سيد الرجال» أو ما يسمّى بالفارسية بـ «شاه مردان».

وقد اتّسمت الفتوة الإسلامية إثر امتزاجها بالتصوّف والعرفان بطابع خاص، وأصبحت ذات آداب وتقاليد تخصّها. وصار للفتيان مركز يلتقون فيه ويقيمون طقوسهم ومراسمهم، يُسمّى بـ «الزاوية»، على غرار محل اجتماع المتصوّفة والذي يسمونه بـ «الخانقاه». وقد حظيت الفتوة، إلى جانب التصوّف، بإقبال واهتمام من قبل الكثيرين. ويمكن القول أساساً، إنّ هذه الطريقة ساهمت في تطوير المسلك التربوي والأخلاقي للتصوّف، إذ جعلته أكثر غنىً[1].

(1) هذا المعنى موجود في الكثير من الكتب العربيّة والفارسية للعرفاء والصوفيّة ك: **شرح التعرّف** للمستملي البخاري؛ **كشف المحجوب** للهجويري؛ كتاب **الفتوة** لأبي عبد الرحمن السلمي من أقدم الكتب المستقلّة الخاصة بالفتوة؛ **تذكرة الأولياء** للشيخ =

وتعدّ الفترة الزمنية من القرن الخامس وحتى القرن التاسع، مرحلة تطوّر وازدهار حركة الفتوة هذه. والملاحظ أنّ مرحلة تدهور وأفول هذا المسلك تزامنت مع مرحلة انحطاط وتدهور المدّ الصوفي أيضاً. وفي الوقت الحاضر، فإن أجواء الضمور والانحسار التي تعيشها حركة التصوّف، قد امتدّت لتشمل حركة الفتوة أيضاً ولكن بدرجة أقلّ. وأمّا في إيران، فالملاحظ أنّ ما يرتبط بالفتوة من شعائر وتقاليد سجّل حضوراً أكبر وأشدّ نسبياً على صعيد الواقع الخارجي، قياساً بالتصوّف، فحتى نهايات القرن الماضي استمر هذا الحضور على قوته تقريباً.

ومن أبرز العوامل التي أسهمت في انحطاط وتدهور هذا المسلك، هو عامل الخمول والكسل وعامل النزوع إلى التظاهر والرياء اللذين أُصيب بهما أصحاب هذا المسلك وروّاده. فقد طفت على السطح سلوكيّات شاذّة ومظاهر تنمّ عن ضعف نفساني لدى بعض فرق المتصوّفة والفتيان، ثم سرت إلى سائر الأفراد والفرق، خصوصاً الجدد منهم، ثم اشتدت هذه السلوكيّات السلبيّة لتصبح فضائح كبيرة تسبّبت في تكوين صورة سيّئة عن الجميع.

وليس هذا فحسب، بل راح بعض الأفراد أيضاً يستغل اسم الفتوة وتنظيماتها، لمآربه الشخصيّة، ويمزج الحق بالباطل. وقد قام الخليفة الناصر لدين الله العباسي، في القرن السادس والسابع الهجري، بعملية تطهير حركة الفتوة من الأدعياء المزيّفين ممن ليس لهم حظ من أخلاق

= عطار النيشابوري؛ كتاب **الفتوة** لشهاب الدين عمر السهروردي؛ **جوامع الحكايات ولوامع الروايات** لمحمد عوفي؛ كتاب **الفتوة** لابن المعمار الحنبلي؛ **فتوت نامه منظوم ناصري**؛ **رسالة فتوتية** لمير سيد علي الهمداني؛ وفتوت نامه سلطاني.

الفتيان، فانتشرت هذه النهضة من قبله في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وعلى الرغم من النشاطات التخريبيّة لبعض الأفراد ممن ينتسبون إلى «العيّارين» و«الشطّارين» ـ وهما مجموعتان من الفتيان ـ إلّا أنه يبقى لهولاء الفتيان الدور الكبير في مجاهدة الحكومات الظالمة وناهبي الثروات. كما لا يمكن إغفال دورهم في مجال إعانة المساكين والفقراء من الناس، وكذلك في دخولهم الحرب ضد المحتلّين الصليبيين.

وقد استطاعت نهضة الفتوة الإسلامية أن تنتشر في البلاد الأوروبيّة، وأن تجذب إليها مسلمي تلك البلاد إبّان القرون الوسطى، بل وأكثر من ذلك، استطاعت أن تؤثّر على حضارة وثقافة غير المسلمين، من الأوروبيين، بشدة.

ومن أبرز مراكز نهضة الفتوة في العالم الإسلامي: خراسان، وبلاد ما وراء النهر، والأناضول (تركيا الحالية)، ودمشق، والقاهرة، وبغداد. وقد بدأ الدعم والتبنّي لحركة الفتوّة من قبل الدول الإسلاميّة يتضاءل شيئاً فشيئاً. وهذا يعود إلى كثرة من دخل في صفوف الفتيان وضمن تنظيماتهم، من دون وجود رقابة وتمييز للمنتسبين، ما أدّى إلى شيوع جملة من مظاهر الفساد الأخلاقي أسهمت في تكوين صورة مشوّهة وسلبية عن الفتيان، ففقدوا بذلك بريقهم السابق وقدرتهم على التأثير. نعم، كان الكثير من الرعيل المتأخّر ممّن يتسمّى بالفتيان مجرّد أدعياء ولم يحظوا بأخلاق الفتيان. وممّا لا شك فيه أنّ ثمة عوامل وراء المتغيّرات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، هي الأخرى ساهمت في هذه النتيجة. وكنّا قد أشرنا إلى بعضها سابقاً.

وعلى الرغم من أُفول حركة الفتيان، واندثار تنظيماتهم وجماعاتهم، إلّا أنه ما زالت شعوب العالم، خصوصاً المسلمين منهم، يلمسون انعكاسات هذه الحركة وآثارها على واقع الأخلاق والثقافة في مجتمعاتهم حتى يومنا هذا. فالكثير من مشاريع الخير والإحسان، التي يقوم بها الأفراد أو المؤسسات الاجتماعية في عصرنا الراهن، إنّما جاءت متأثِّرة بمفاهيم حركة الفتوة هذه وأهدافها.

وكانت للفتوة آثارها الواضحة وبصماتها الكبيرة على التراث الأدبي والصوفي، باللّغة الفارسيّة، والعربيّة، والتركيّة، وعلى صعيدَيْ النظم والنثر، بحيث إنّ جزءاً كبيراً من التراث الموجود قد يتعذّر على القارئ فهمه من دون أن يكون له إلمام بحركة الفتوّة ومعرفة بمصطلحاتها ومقاصدها.

ويعزو المستشرق الألماني «فراتنز تيشنر»[1] الأفول النهائيّ لما يعبَّر عنه بـ «الفتوة لدى أصحاب الصناعات» إلى ازدهار حركة الاقتصاد الغربيّ، ودخول البضائع والمنتجات الأوروبيّة إلى البلاد الإسلامية إبّان القرن الماضي (القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي). كما إنّ ظهور مؤسّسات ومنظّمات حكوميّة، من قبيل مؤسسة الجيش والشرطة وحرص الحكومات على فرض سيطرتها على مجمل نشاطات الجماعات بمساعدة قوات الشرطة، ساهم في التقليل من أهميّة هذه الجماعة ومكانتها ومن إعادة تنظيم الفتوة. ومن ثم قامت بتعميم نتائج وقرارات هذه العملية إلى أنحاء العالم الإسلامي كافة.

---

(1) مجلة دانشكده ادبيات، العدد 2، السنة 4، ص 94.

ومن أقرب الجماعات إلى الفتيان، في عصرنا الحاضر، هم فتيان طهران، أو ما يطلق عليهم في العرف الفارسي بـ «داش مشدي ها»، وقد كانت لهذه الجماعات مشاريع ونشاطات متواصلة ومنتظمة في مجال أعمال البرّ والإحسان، استمرّت حتى بدايات القرن الماضي، إذ يحدّثنا الكاتب والمؤرّخ الإيراني عبد الله المستوفي ـ وهو من مواليد 1297 هـ ـ عن مكانة هذه الجماعة ودورها إبّان عهد ناصر الدين شاه القاجار، ضمن تقرير مفصَّل كتبه استناداً إلى مشاهداته اليوميّة[1].

(1) عبد الله مستوفي، **شرح زندگاني من**، ج 1، ص 408 ـ 418.

قائمة بعدد من مصادر الأخلاق العرفانيّة

1 ـ **الطريق إلى الله**، أبو سعيد الخراز (ت 279 هـ).

2 ـ **علم القلوب**، منسوب إلى محمد بن علي بن عطيه، أبو طالب المكّي (ت 386 هـ).

3 ـ **الاعتبار وسلوة العارفين**، حسين بن إسماعيل الجرجاني (ت 430 هـ).

4 ـ **كشف المحجوب**، أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري الغزنوي (ت 470 هـ).

5 ـ **مفتاح النجاة**، أحمد جام النامقي (ت 522 هـ).

6 ـ **أنيس التائبين**، أحمد جام النامقي (ت 522 هـ).

7 ـ **مناقب الصوفيّة**، منصور بن أردشير العبادي المروزي (ت 547 هـ).

8 ـ **سرّ الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار**، عبد القادر الجيلاني (ت 561 هـ).

9 ـ **الفتح الرباني والفيض الرحماني**، عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ).

10 ـ **آداب المريدين**، ضياء الدين أبو نجيب السهروردي (ت 563 هـ).

11 ـ **رسالة القدس**، روزبهان البقلي الشيرازي (ت 606 هـ).

12 ـ **آداب المريدين**، شيخ نجم الدين الكبرى (ت 618 هـ).

13 ـ **آداب السلوك**، شيخ نجم الدين الكبرى (ت 618 هـ).

14 ـ **رسالة غلطات السالكين**، روزبهان البقلي الشيرازي (ت 606 هـ).

15 ـ **عوارف المعارف**، عمر السهروردي (ت 632 هـ).

16 ـ **شجون المسجون وفنون المفتون**، محي الدين ابن عربي (ت 638هـ).

17 ـ **مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد**، نجم الرازي المشتهر بنجم دايه (ت 645 هـ).

18 ـ **مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار القلوب**، عبد الرحمن بن محمد النصاري المعروف بـ «ابن دبّاغ» (ت 696 هـ).

19 ـ **طهارة القلوب والخضوع لعلّام الغيوب**، عبد العزيز بن أحمد الدّيري (ت 697 هـ).

20 ـ **مراتب العارفين**، منسوب الى سعد الدين محمود شبستري (ت 720 هـ).

21 ـ **مصباح الهداية ومفتاح الكفاية**، عزّ الدين محمود كاشاني (ت 735هـ).

22 ـ **شطر نجيّة**، علاء الدوله السمناني (ت 736 هـ).

23 ـ رسائل مير سيد علي همداني: (**ذخيرة الملوك، مشارق الأذواق، الرسالة الدرويشيّة، الرسالة الذكريّة، والرسالة الفتوتيّة**) مير سيد علي الهمداني (ت 786 هـ).

24 ـ **دقائق الطريق**، أحمد الرومي (القرن 8 هـ).

25 ـ **سلك السلوك**، ضياء الدين البخشي (القرن 8 هـ).

26 ـ **رساله اى در سير وسلوك** (بالفارسية)، محمد تقي المجلسي (ت 1070 هـ).

27 ـ **تشويق السالكين**، محمد تقي المجلسي (ت 1070 هـ).

28 ـ رسائل الإمام الحدّاد: (**النصائح الدينيّة، الدعوة التامة، المعاونة والمظاهرة والمؤازرة، الفصول العلميّة والأصول الحكميّة، سبيل الادّكار والاعتبار، رسالة المذاكرة مع الإخوان، آداب سلوك المريد، كتاب الحكم، النفائس العلويّة في المسائل الصوفيّة، وإتحاف السائل**)، الإمام عبد اللّه بن علوي الحدّاد الحضرمي الشافعي (ت 1132 هـ).

29 ـ **حسن دل** (بالفارسيّة)، محمد البيدآبادي (القرن 12 هـ).

30 ـ **آداب السلوك**، كاظم بن قاسم رشتى (ت 1212 هـ).

31 ـ **مرآة الحق**، محمد جعفر الكبودر آهنگى المشتهر بـ «مجذوب عليشاه» (ت 1238 هـ).

32 ـ **رساله در مراتب سير معكوس سالكان** (بالفارسية)، رايض الدين اعجوبه عبد الكريم (ت 1299 هـ).

33 ـ **علاج الأخلاق**، رايض الدين أعجوبه عبد الكريم (ت 1299 هـ).

34 ـ **ذخيرة المذنبين**، حسين قلى همدانى (ت 1311 هـ).

35 ـ **ولايت نامه**، ملاّ سلطان محمد بن حيدر الگنابادي، المشتهر بـ «سلطان علي شاه» (ت 1327 هـ).

الفصل الرابع

مدرسة الأخلاق الأثريّة

تنبيه: لمّا كانت مصادر المدرسة الأثريّة ليست نتاجات لكتّاب ومؤلّفين، ولا تعكس آراءهم وتحليلاتهم، من هنا فإن المحاور الثمانية التي كنا نبحث من خلالها كتب ومصادر المدارس الأخلاقيّة الثلاث السابقة ومصادرها، سوف تتغيّر في بعض عناوينها عند استعراض مصادر المدرسة الأثريّة للأخلاق. ففي هذا الباب لن يكون لدينا محور بعنوان «منهجيّة الكتاب»، ولا محور بعنوان «أدبيّات الكتاب»، إذ نستبدل هذين المحورين بمحورين آخرين هما: «درجة اعتبار ووثاقة الكتاب» و«مدى انطباق عناوين الأبواب والفصول مع الأحاديث المندرجة تحت العناوين».

أ ـ التراث الشيعيّ

1

أصول الكافي[1] (المجلد الثاني)

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق، الملقب بالكُليني الرازي، وُلد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ، في قرية من قرى الري تدعى «كُلَين». وتوفّي في منتصف شعبان عام 328 أو 329 هـ في بغداد ودفن هناك، وعُرف بالبغدادي أيضاً كونه درس فيها، وكان والداه من أهل العلم والفضل[2].

ذكره جلّ علماء الشيعة، بمزيد من التقدير، والإجلال، والعظمة. واعتبره بعض ـ من كبار مصنّفي أهل السنّة ـ مجدّد المذهب الشيعي في

(1) محمد بن يعقوب الكليني الرازي (329هـ)، **الكافي**، تحقيق علي أكبر الغفاري، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1388 هـ، ط 3، 2 ج: 48 + 566 + 691 صفحة وزيري.

(2) بحر العلوم، **الفوائد الرجالية**، ج 3، ص 326؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 364، نقلاً عن العميدي؛ ثامر هاشم حبيب، **الشيخ الكليني البغدادي وكتابه الكافي**، ص 68.

أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع[1]. ولم يذكره أحد من علماء رجال السنّة بالجرح، كما لم يروِ أحد منهم ذلك. ومن المؤكّد أنّ للكليني مؤلّفات في الفلسفة، والكلام، والتاريخ، والأدب، والرجال، منها كتاب بعنوان: **الرد على القرامطة**. ولكن للأسف الشديد فقدت جميع المؤلّفات إلّا كتاب **الكافي**. ويظهر مدى إلمامه وإحاطته بعلم اللغة من خلال خطبته التي قدّم بها كتابه **الكافي**. وينقل أن له أشعاراً في مدح الأئمة، بعضها من إنشائه، وبعضها الآخر أخذها من آخرين[2]. ولا يوجد شك في نسبة هذا الكتاب إليه.

2 ـ النسخ والطبعات

قد لا نجانب الحقيقة إذا ادّعينا أنه لا يوجد كتاب في الفقه والحديث، نال اهتمام علماء الشيعة الإماميّة، مثل كتاب **الكافي**. والشاهد على ذلك وجود أكثر من 1600 نسخة خطيّة في المكتبات الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، في مختلف بلدان العالم. ويعود تاريخ بعض هذه النسخ إلى القرن الرابع الهجري، كما هي النسخة الموجودة في المكتبة الوطنيّة الإيرانيّة والتي تحمل رقم (3135/ 4). تجدر الإشارة إلى أنّ مكتبة أمير المؤمنين (ع) العامة وحدها تضمّ 29 نسخة خطّية نفيسة لهذا الكتاب[3].

ويخبر كارل بروكلمان عن وجود نسخ خطيّة من الكتاب، في مكتبات: برلين، والإسكندريّة، وطهران، وعليكره، وهايدنبرغ،

---

(1) الجزري، **الكامل وجامع الأصول**، نقلاً عن علي أكبر الغفاري، مقدمة أصول الكافي، المطبعة الإسلاميّة، ج 1، ص 10.6.

(2) ثامر هاشم حبيب العميدي، **دفاع عن الكافي**، ج 1، ص 39.

(3) ثامر هاشم حبيب العميدي، **دفاع عن الكافي**، ج 1، ص 39.

وباريس، ومتحف بريطانيا، وكمبريج، ومانشستر، وبرنستون، وبيشاور، وكلكته، ومدرس، والقاهرة[1].

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

يوجد أكثر من عشرين كتاباً، في شرح **الكافي**، حتى يومنا هذا، نشير هنا إلى أبرزها والتي أعيدت طباعتها أكثر من مرة:

شرح أصول الكافي للملاّ صدر الدين الشيرازي (ت 1050 هـ)، **شرح أصول الكافي والروضة** للمولى محمد صالح المازندراني (ت 1081 هـ)، و**مرآة العقول في شرح أخبار الرسول** للعلاّمة محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ).

إلى جانب ذلك ثمة ما يقارب ثلاثين تعليقة على هذا الكتاب، منها: تعليقة العلاّمة المجلسي، تعليقة المولى رفيع الجيلاني المعروفة بـ**شواهد الإسلام**، تعليقة العلاّمة محمد حسين الطباطبائي، تعليقة العلاّمة الشعراني، وتعليقة محمد أمين الاسترآبادي. وعلى الرغم من الاهتمام الخاص الذي حظي به الكتاب في أوساط علماء الشيعة الإماميّة، إلّا أنّ ذلك لم يحملهم على مجانبة الموضوعية، أو الخروج عن التعاطي العلمي والدقيق معه، سواء على صعيد النصوص أم على صعيد الأسانيد. وهذا ما نستشفه من خلال أكثر من عشرين كتاباً تعنى بدراسة **الكافي** على هذين الصعيدين، إمّا بنحو مستقلّ، أو بشكل استطراديّ ضمن معالجاتها البحوث الرجاليّة أو الحديثيّة. وإليك ـ عزيزي القارئ ـ بعض عناوين هذه الكتب: **تجريد أسانيد الكافي** للسيد حسين بن سيد علي البروجردي

---

(1) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج 3، ص 339.

(ت 1138 هـ)، **جامع الرواة وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والأسناد** للحاج محمد بن علي الأردبيلي (من تلامذة العلاّمة المجلسي)، **ومعرفة أحوال العدّة الذين يروي عنهم الكليني** تأليف السيد محمد باقر الشفتي (ت 1260 هـ).

وقد لخّص بعض العلماء هذا الكتاب، فيما قام بعض آخر بترجمة بعض أجزائه، من قبيل الترجمتين الفارسيّتين **لأصول الكافي** لمحمد باقر كمره اي، وسيد جواد المصطفوي، وترجمة منتخب الكافي لمحمد باقر البهبودي. وقد طبع هذا الكتاب أكثر من عشرين مرة إمّا بصورة دورة كاملة أو بصورة مجزّأة، كما يوجد أكثر من عشرة فهارس أعدت من أجل تسهيل أمر مراجعة الكتاب والاستفادة منه.

من جهة أخرى، كان لأهل السنّة انتقادات على هذا الكتاب، من قبيل ما كتبه أبو زهرة في كتابه **الإمام الصادق** (ع)، وإحسان إلهي ظهير في كتاب **الشيعة والقرآن**، وأحمد محمد جلي في كتاب **دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين**، ومحمد منظور النعماني في كتاب **الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام**. وتتمركز هذه النقود، في أغلبها، على البحوث الآتية: الإمام المهدي(عج)، التقيّة، البداء، وتحريف القرآن الكريم. ويمكن القول إنّ جميع الانتقادات ترتبط، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بمسألة الخلافة والإمامة[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمة علماء آخرين، من كبار الشيعة قبل الكليني، كانت لهم إسهامات وكتابات في موضوع الأخلاق، نظير: أبي

---

(1) انظر: ثامر هاشم حبيب العميدي، «دفاع عن الكافي».

حمزة الثمالي، وحسين بن سعيد الأهوازي، وأحمد بن محمد البرقي، إلّا أنّ الكليني يُعدّ أول من بحث الأخلاق بشكل مفصل ومستوعب في كتابه **الكافي**. ولا شك في أنّ الكتب التي جاءت من بعده في هذا المضمار تأثّرت به وأخذت منه.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يشتمل المجلّد الثاني من **أصول الكافي** على أربعة كتب هي: كتاب الإيمان، وكتاب الدعاء، وكتاب فضل القرآن، وكتاب العشرة. والملاحظ أنّ الأبواب التي طرحها ثقة الإسلام الكليني، لتنظيم البحوث الأخلاقيّة المبثوثة في التراث الروائي الشيعي، استطاعت أن تغطّي جميع الموضوعات الأخلاقيّة تقريباً. وإذا حصرنا دائرة الموضوعات الأخلاقيّة ضمن أربعة محاور أساس، هي: أخلاق العبوديّة، الأخلاق الفرديّة، الأخلاق الأُسريّة، والأخلاق الاجتماعيّة، حينئذٍ يمكننا أن نرصد الموضوعات المذكورة ضمن عناوين أبواب **الكافي** بالشكل التالي:

أ) **أخلاق العبودية**: جميع الموضوعات المتصوَّرة، في ما يتعلّق بهذا المحور، قد تم استقصاؤها وتغطيتها، إذ أفرد لكلّ موضوع باب خاص به.

وفي الكتاب الثاني، أي كتاب الدعاء، تناول الكليني «ذكر الله» بشكل مفصل، كما تناول في موضوع «أدب التكلّم مع الله تعالى». وفي الكتاب الثالث، أي كتاب فضل القرآن، تناول موضوع «أدب الاستماع إلى كلام الله وقراءة كتاب الله».

ب) **الأخلاق الفردية**: ثمة بحوث لم يتطرّق إليها الشيخ الكليني في الكتب الأربعة، التي يشتمل عليها المجلّد الثاني من **أصول**

الكافي وهي: «ترك حياة الدعة والترف»، «تجنّب الأنانية»، «النظم والانضباط في السلوك». وأمّا بعض البحوث من قبيل «الانضباط الفكريّ»، فيمكن أن نجد له ذِكراً في كتاب «العقل والجهل». وأيضاً بحث «حب العلم والاهتمام بالعلم»، هو الآخر تم تناوله، بعض الشيء، في المجلّد الأول ضمن «كتاب فضل العلم».

ج) **الأخلاق الأسريّة**: المحور الوحيد الذي لم يستوفِ الحديث عنه في كتاب **الكافي**، وإنما احتل مساحة ضئيلة منه، هو: أخلاق الأسرة، والآداب الزوجيّة، وآداب الأبوّة والأمومة والبنوّة.

د) **الأخلاق الاجتماعية**: أغلب البحوث المرتبطة بالأخلاق الاجتماعيّة وردت في كتابي «الإيمان» و«العشرة»، ولم يخصّص باباً لبحوث من قبيل: «الشجاعة»، «ترك التملّق»، «الوقار».

5 ـ هيكليّة الكتاب ونظام الأحاديث

طبع كتاب **الكافي** في ثمانية مجلّدات. المجلّدان الأول والثاني تحت عنوان **الأصول من الكافي**، فيما يحمل المجلّد الثالث وحتى السابع عنوان **الفروع من الكافي**، وسمّي المجلّد الثامن **الروضة من الكافي**.

ويشمل المجلد الأول الكتب التالية: كتاب العقل والجهل، كتاب التوحيد وكتاب الحجة. وأغلب البحوث الواردة فيه تدور حول العقائد. ويتضمّن المجلّد الثاني بحوثاً في الأخلاق. وأمّا **الفروع من الكافي** فيتضمّن أحاديث مرتبطة بالأحكام الفقهيّة. وبدورها فإنّ **الروضة** تشتمل على بحوث متنوّعة، تاريخيّة، وكلاميّة، وأخلاقيّة، وتفسيريّة وغيرها.

وقد قام الفيض الكاشاني بتدوين أحاديث هذا المجلّد الثاني من **الكافي** ضمن المجلّد الرابع والخامس من كتاب **الوافي** مع ترتيب وتنسيق أفضل. وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح من خلال مقارنة عابرة بين فهرست الكتابين[1].

كتاب الإيمان والكفر والذي يشغل أكثر من ثلثَيَ حجم هذا المجلّد، يتضمّن بحوثاً من قبيل: الطينة والفطرة، الفرق بين الإيمان والإسلام، الفرق بين الإيمان واليقين، درجات الإيمان، التفكّر، التفويض، الخوف والرجاء، العبادة، الطاعة، التقوى، التوبة وغيرها من

---

(1) كتاب **الوافي** موسوعة روائيّة كبيرة تتضمّن 273 باباً وخمسين ألف رواية، يشتمل على مقدّمة و14 كتاباً وخاتمة، ويختصّ المجلّد الرابع والخامس من بين سائر المجلّدات بالعناوين الأخلاقيّة. إن المحقّق الكاشاني بعد ذكره لمبادئ الأخلاق والإيمان ضمن ثلاثة عناوين هي «الطينات والخلائق»، و«الكفر والشرك»، و«الإيمان والإسلام» يشرع ببيان «المنجيات» و«المهلكات»، فيدرج كل واحدة منها ضمن ثلاثة عناوين هي:

1. جنود الإيمان من المكارم والمنجيات، في مقابل جنود الكفر من الرذائل والمهلكات.
2. ما يجب على المؤمن من الحقوق في المعاشرات، مقابل ما يجب على المؤمن اجتنابه في المعاشرات.
3. خصائص المؤمن ومكارمه ويقابلها الذنوب وتداركها. ويبدو أن سرّ نجاح الفيض الكاشاني في تبويبه للأحاديث الأخلاقيّة الواردة في كتاب الوافي يكمن في نظرته التخصصيّة إلى علم الأخلاق.

وأمّا عناوين الأبواب المندرجة ضمن كتاب الإيمان والكفر فهي كالتالي: «الطينات والخلائق»، «تفسير الإيمان والإسلام وما يتعلّق بهما»، «تفسير الكفر والشرك وما يتعلّق بهما»، «جنود الإيمان من المكارم والمنجيات»، «ما يجب على المؤمن من الحقوق في المعاشرات»، «خصائص المؤمن ومكارمه»، «جنود الكفر من الرذائل والمهلكات»، «ما يجب على المؤمن اجتنابه في المعاشرات» و«الذنوب وتداركها». وإذا قارنّا المجلّد الثاني من كتاب أصول الكافي (والذي يتضمّن أربعة كتب هي: الإيمان والكفر، الدعاء، فضل القرآن والعشرة) مع عناوين وأحاديث كتاب الإيمان والكفر لموسوعة الوافي، سنجد أنه وعلى الرغم من أن مجموع الأحاديث الموجودة في المجلّد الثاني من أصول الكافي أقل من الوافي بمقدار 200 حديثاً، إلّا أنه يشتمل على 47 باباً.

العناوين المرتبطة بأخلاق العبوديّة. وثمة عناوين أخرى يتضمّنها هذا المجلّد، نظير: البشاشة، حسن الخلق، أداء الأمانة، كظم الغيظ، المداراة، التواضع، الصداقة، الأخوة، وغيرها، وكلّها ترتبط بالأخلاق الاجتماعيّة. وأمّا في ما يتعلّق بالأخلاق الفرديّة فقد اشتمل المجلّد الثاني من كتاب **الكافي** على عناوين نظير: الحلم، الصبر، الغضب، الحسد، الكبر، العجب، الطمع، القسوة، اتّباع هوى النفس.

ثم يأتي كتاب الدعاء ويتضمّن البحوث التالية: أهميّة الدعاء، آثار الدعاء، آداب الدعاء، موانع استجابة الدعاء، آثار بعض الأذكار، وتعليم بعض الأدعية. وتغطّي هذه البحوث ما يقارب سدس حجم الكتاب. ويتعرّض هذا الفصل إلى بيان مصاديق بارزة من أخلاق العبوديّة، كما يتعرض إلى بيان أدب الحديث مع اللّه تعالى. وقد ورد في فصل مستقل عن الفصل السابق لأهميّته وخطورته.

القسم الثالث، هو كتاب فضل القرآن ويقع في صفحات قليلة، إذ يشغل ما يقارب نصف العشر من حجم المجلّد. ويشتمل على بحوث من قبيل: فضيلة القرآن، تعلّم القرآن، وحفظ القرآن وقراءته، مضافاً إلى بحوث أخرى متعدّدة، لعلّ وجه صلتها بموضوع الأخلاق هو ما تضمّنته من الإشارة إلى أدب التعامل مع كلام الرب. ويختصّ القسم الأخير بكتاب العشرة ويبحث في: أهميّة التواصل الاجتماعي، آداب المعاشرة والصداقة وحقوق الأخوّة. ويشغل هذا القسم أربعين صفحة من مجموع 670 صفحة، إذ يُعنى ببيان بعض الأخلاق والأداب الاجتماعيّة.

6 ـ التطابق بين العناوين ومضمون الأحاديث

أشار الباحث المعاصر علي أكبر الغفاري[1]، بأنّه يمكن القول إنّ الكليني لم يذكر حديثاً قد أورده في باب غير بابه المناسب له، الأمر الذي نشاهده في كتب حديث أهل السنّة كثيراً، نظير **صحيح البخاري وصحيح مسلم**. ومن خلال ما قمنا به من تتّبع، لم نجد مورداً لم تتمّ فيه مطابقة العنوان لمفاد الحديث المندرج تحت ذلك العنوان.

7 ـ وثاقة الكتاب

تُعدّ موسوعة **الكافي** الروائية والتي هي حصيلة عشرين عاماً من العمل الدوب والجهد المتواصل، من أكثر المجاميع الروائيّة الشيعة اعتباراً ووثاقة. فهي من حيث جامعيّة العناوين وإتقان النص والدقّة في التأليف، لا نظير لها بين كتب الحديث. وهذا ما يفسّر لنا التقدير الكبير الذي حظيت به هذه الموسوعة من قبل كبار علماء الشيعة.

8 ـ التقييم النهائي

على الرغم من النقد الذي قد يوجّه إلى المجلّدات الأخلاقيّة من كتاب **الكافي**، من حيث النظام الكلّي وكيفيّة ترتيب الأبواب والموضوعات، إلّا أنّ هذه المجلّدات تبقى موضع اهتمام وإعجاب الباحثين في مجال الأخلاق الإسلاميّة. وذلك من جهة اعتبار ووثاقة الأحاديث، وقوة النص والشموليّة التي تمتاز بها مجموعة الروايات من حيث تنوّع الموضوعات المطروقة، وإقبال العلماء والمفكّرين عليه، وكثرة الشروح والتعليقات، وتعدّد الدراسات والكتب التي جعلت من **الكافي** مداراً للبحث والتحليل من زوايا مختلفة.

---

(1) انظر: الكليني، **الكافي**، ج 1، مقدّمة المصحّح.

2

بحار الأنوار[1]

(المجلدآت من 64 وحتى 76)[2]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

محمد باقر المجلسي، الملقب بالعلّامة المجلسي والمجلسي الثاني، هو أصغر أبناء المولى محمّد تقي المجلسي المعروف بالمجلسي الأول. ولد عام 1037 هـ[3] في مدينة أصفهان. وقد بان عليه منذ الصغر الذكاء، والنبوغ، والانشداد إلى تحصيل العلم. وأفاد من أبيه العلّامة ومن الشيخ عبد الله بن جابر العاملي ـ ابن عمة أبيه ـ كثيراً[4].

من أبرز أساتذته، في العلوم النقليّة، والده المكرّم. وأمّا في العلوم العقليّة فأُستاذه المبرّز هو الشيخ حسين الخوانساري (الذي كان يشغل موقع شيخ الإسلام في الدولة الصفويّة، على عهد المولى محمد تقي المجلسي)[5].

---

(1) محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ)، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، بيروت: دار إحياء التراث، 1412 هـ، الطبعة الأولى.

(2) كتاب **بحار الأنوار** وإن تضمن كلاماً للعلّامة المجلسي، فهو من هذه الجهة لا يعدّ من المصادر الأصليّة في الاتجاه الأثري للأخلاق الإسلاميّة، إلاّ أنّه اختير للتعريف به هنا نظراً للأهميّة الكبيرة التي يحظى بها.

(3) مير عبد الحسين خاتون آبادي (معاصر للمجلسي)، **وقائع السنين والأعوام**، ص 508.

(4) عبد الله أفندي، **رياض العلماء**، ج 5، ص 40.

(5) ميرزا حسين النوري الطبرسي، **الفيض القدسي**، طبع في المجلّد 102 من بحارالأنوار، ص 105.

وبعدما خبر العلوم بشتّى أصنافها ومارسها، وجد ضالّته أخيراً في علوم آل الرسول وأحاديث أهل بيت العصمة والطهارة (ع)، وهو يقول في مقدّمته على «البحار»:

إني كنت، في عنفوان شبابي، حريصاً على طلب العلوم بأنواعها، مولعاً باجتناء فنون المعالي من أفنانها. فبفضل الله سبحانه وردتُ حياضها، وأتيتُ رياضها، وعثرت على صحاحها ومراضها، حتى ملأت كمّي من ألوان ثمارها، واحتوى جيبي على أصناف خيارها، وشربت من كل منهل جرعة روية، أخذت من كل بيدر حفنةً مغنيةً، فنظرت إلى ثمرات تلك العلوم وغاياتها...، فأيقنت بفضله وإلهامه تعالى أنّ زلال العلم لا ينفع إلّا إذ أُخذ من عين صافية، نبعت عن ينابيع الوحي والإلهام، وأنّ الحكمة لا تنجع إذا لم تؤخذ من نواميس الدين ومعاقل الإيمان[1].

ومن هذا المنطلق، عكف همّته على أمرين: الأول: تدوين الأحاديث وتنقيحها وترتيبها. الثاني: شرح الأحاديث وتفسيرها. ومما لا شك فيه أنه كان متأثراً بأبيه العالم في كلا الأمرين، وكما إنّ أباه وبتوصية من الشيخ البهائي، قام بشرح **من لا يحضره الفقيه**، لمؤلّفه الشيخ الصدوق، عُرف بـ **روضة المتّقين**، قام هو بتوصية من أبيه بشرح موسوعتين روائيّتين هما من أعظم المجاميع الروائيّة، أي **الكافي** و**التهذيب**.

ومن أشهر شيوخه في الإجازة ـ أي الذي أخذ منهم الإجازة في الرواية، وإن لم يكن من تلامذتهم بالضرورة ـ المولى محمد تقي

(1) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، ج 1، ص 2.

المجلسي (ت 1070 هـ)، والملاّ صالح المازندراني (المتوفّى 1080 هـ)، والشيخ الحر العاملي (ت 1096 هـ). وبطلب من الملك شاه إسماعيل الصفوي، تسنّم منصب شيخ الإسلام في الدولة الصفويّة، وبقي في هذا المنصب حتى أواخر عمره الشريف. وتوفّي في عام 1110 أو 1111 هـ عن عمر ناهز الثالثة والسبعين، في مدينة إصفهان ودفن فيها.

أُثر عن العلاّمة المجلسي ما يقارب 66 كتاباً، 13 باللّغة العربيّة، و53 بالفارسية[1]. من أهم مؤلّفاته التي كتبها بالعربيّة هي: **بحار الأنوار**، **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول** (شرح كتاب الكافي لثقة الإسلام الكليني)، وملاذ **الأخيار في فهم تهذيب الأخبار** (شرح كتاب **تهذيب الأخبار** للشيخ الطوسي). وأمّا مؤلّفاته بالفارسيّة فأهمّها: **زاد العباد**، **حياة القلب**، **وجلاء العيون**.

وقد ساعده علماء آخرون في موسوعة **بحار الأنوار** العظيمة حتى رأت النور، من أمثال: الملاّ عبد الله الأفندي صاحب **رياض العلماء**، والسيد نعمة الله الجزائري صاحب المؤلّفات العديدة والشهيرة، والملاّ عبد الله البحراني صاحب الكتاب الكبير **عوالم العلوم** وآخرون.

2 ـ النسخ والطبعات

تم استنساخ المجلّدات الأولى من **بحار الأنوار** ونشرها على عهد حياة المؤلّف. وأمّا المجلّدات الأخيرة فقد نشرت بعد وفاته وذلك بفضل الجهود والمساعي الحثيثة التي بذلها زميله في العمل الملاّ عبد الله الأفندي. وتوجد نسخ خطّية عدّة من هذا الكتاب، في العديد من المكتاب

(1) انظر: درگاهي، كتاب شناسي مجلسي.

الكبيرة في إيران، من قبيل مكتبة مجلس الشورى ومكتبة الروضة الرضويّة في مشهد. ومن أقدم نسخ الكتاب النسخة الموجودة في المكتبة العامة بأصفهان والمرقّمة برقم 5190، لعام 1077 هـ، والنسخة الموجودة في كلّية الإلهيّات والمعارف الإسلاميّة بمشهد والتي تحمل رقم 1938 ويعود تاريخها إلى عام 1084 هـ . كما إنّ أول طبعة حجريّة ومشهورة، للكتاب صدرت بين عامي 1303 هـ و1315 هـ . وذلك بجهود الحاج ميرزا محمد حسن، أمين دار الغرب، المعروف بالكمباني، وقد طبعت في 26 مجلداً، بإشراف ابنه الحاج محمد حسين من بعده.

تجدر الإشارة إلى أنّ بعض المجلّدات قد طبعت قبل هذا التاريخ، ففي عام 1248 هـ طبع المجلّدان الأول والثاني في الهند، وفي عام 1275 طبع المجلّد السابع في تبريز، وهكذا. وتقع الطبعة المتداولة فعلياً في وقتنا الحاضر في 110 مجلداً، نشرت بين عامي 1376 هـ و1394 هـ في طهران، ومن قبل دارين معروفتين للنشر هما (دار الكتب الإسلامية، ودار المكتبة الإسلاميّة).

والاسم الكامل لهذا الكتاب هو: **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**. وربما يطلق عليه المصنّف في بعض الأحيان اسم «الكتاب الكبير». ولا بدّ من التذكير حول مصادر **بحار الأنوار** بأنّ العلاّمة قد ذكر 365 كتاباً أو رسالة، بعناوينها وأسماء مؤلّفيها، في مجالات عدّة أعمّ من الحديث، والتفسير، والكلام، والتاريخ، والفقه، والدعاء، والإجازات[1]. وتتوزع هذه المصادر على تراث يبدأ بالقرن الأول وحتى

---

(1) انظر: بحار الأنوار، ج 1، مقدّمة المؤلّف.

القرن الحادي عشر الهجري. ومن اللّافت للنظر ـ وذلك من خلال العديد من عمليّات التتبّع والتنقيب التي أُجريت حتى الآن ـ **أنّ العلاّمة** المجلسي كان موفقاً إلى حدّ كبير في الاستفادة من أصحّ النسخ التي اعتمدها كمصادر لموسوعته الروائيّة.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

لا بدّ من الإشارة إلى الكتب والدراسات ذات الصلة بـ **بحار الأنوار**:

1 ـ لم يكتب شرح لموسوعة **بحار الأنوار** حتى يومنا هذا.

2 ـ تُرجمت بعض مجلّدات **بحار الأنوار** إلى اللغة الفارسيّة، من قبيل المجلّد 53، والذي أُفرد له عنوان **المهدي الموعود**، وذلك بقلم الأستاذ علي الدواني.

3 ـ تم إصدار معجمين لفظيّين لـ **البحار** تحت عنوان **المعجم المفهرس لألفاظ بحار الأنوار**، وذلك من قبل وزارة الإرشاد الإسلامي والمكتب الإعلامي التابع للحوزة العلميّة بقمّ.

4 ـ تم إنجاز العديد من الفهارس الموضوعيّة واللفظية لـ **البحار**.

5 ـ توجد تعليقات عدّة لعلماء الشيعة على بعض مجلدات **بحار الأنوار**، من قبيل تعليقة العلاّمة الطباطبائي.

6 ـ يوجد العديد من الكتب المقتبسة من **البحار**، أهمّها: **سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار** للشيخ عباس القمّي، **الشافي الجامع بين البحار والوافي** للملاّ محمد تقي التبريزي، و**درر البحار** للشيخ الكاشاني (ابن اخ الفيض الكاشاني).

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

تغطّي المجلّدات الأخلاقيّة لـ **بحار الأنوار** كلّ موضوعات أخلاق العبودية والأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة، خلافاً للأخلاق الأُسريّة؛ إذ نجد العناوين الواردة في هذه المجلّدات قليلة وتتمحور بشكل أساس حول موضوعات «الغيرة»، و«حقوق الوالدين والأبناء»، و«تأمين معاش الأسرة». وتجدر الإشارة إلى أنّ المجلّدات التي تُعنى بالأخلاق هي من المجلّد 64 وحتى المجلّد 76 ـ إلّا أننا ومن أجل استكشاف عنوان «التعقّل» «وطلب العلم» (في الأخلاق الفرديّة)، راجعنا المجلّدين الأول والثاني. ولاستكشاف عنوان «أدب الحديث مع الله تعالى» (في أخلاق العبودية)، راجعنا كلاًّ من المجلّدات 90، 91 و92 والتي تُعنى بالذكر والدعاء.

5 ـ هيكليّة الكتاب ونظام الأحاديث

يتضمّن العديد من مجلدات **بحار الأنوار** آيات وأحاديث أخلاقيّة[1]، نشير إلى بعضها هنا:

المجلّدان 1 و2 ويشتملان على مواضيع العقل، والعلم، والجهل. وتتضمّن المجلّدات 64 و65 و66 بحوثاً في الإيمان، والإسلام، والتشيّع. والمجلّدان 67 و68 يُعنيان بمكارم الأخلاق. ومواضيع المجلّدين 69 و70 هي الكفر ومساوئ الأخلاق. فيما يُعنى المجلّدان 71 و72 بحقوق

(1) يقع المجلّد الواحد من بحار الأنوار في 400 صفحة تقريباً. وقد التزمنا بذكر العناوين والإرجاعات وأرقام المجلّدات على أساس طبعة بيروت.

المؤمنين وآداب المعاشرة. ويختص المجلّد 73 بالآداب والسُنن الإسلاميّة، ويشتمل المجلّدان 74 و75 على المواعظ والحكم، والمجلد 76 على المعاصي، والكبائر، والزي، والتجمّل. وتُعنى المجلّدات 90 و91 و92 بموضوع الدعاء.

ويبدو أنّ المجلسي في النظام العام للأبواب المرتبطه بالأخلاق يعتقد وكنظرائه: الكليني، والفيض الكاشاني، وسائر المحدّثين، بأن الأخلاق من توابع الإيمان وآثاره، وأنّ الفضائل والرذائل الأخلاقيّة هي جنود الإيمان والكفر. ومن هنا، بالذات نجده يتناول الأحاديث الأخلاقيّة بعد التعرّض إلى البحث عن الإيمان والكفر. وفي استعراضه للأحاديث الأخلاقيّة بدأ بأخلاق العبوديّة، ومن ثم بالأخلاق الفرديّة. بعد ذلك تطرّق إلى البحث عن الأخلاق الاجتماعيّة وحقوق المؤمنين. وفي المرحلة اللاّحقة بحث الآداب والسُنن الإسلاميّة في المجالات الفرديّة والاجتماعيّة.

وبنظرة عامة، يمكن القول إنّ وجود مثل هذا الترابط بين الأحاديث يجعل كتاب **بحار الأنوار**، من حيث التبويب العام، في مستوى جيد ومقبول؛ لكن المصنّف لم يكن موفّقاً في اختيار العناوين الأصليّة، وذلك بخلاف معاصره المحقّق الفيض الكاشاني في المجلّدين الرابع والخامس، إذ كان موفقاً في ذلك إلى أبعد الحدود. ومن هنا، فإنَّ اكتشاف هذا الترابط، من خلال قراءة فهرسة أبواب الكتاب، يبدو صعباً. وبنظرة أوليّة يمكن القول إنّ تبويب الأحاديث في **بحار الأنوار** ليس بالشكل المناسب ولا يرقى إلى التبويب الذي عليه كتاب **الوافي**.

ويتضمّن قسم المواعظ والحكم، وصايا أخلاقيّة متنوّعة تتوزّع على موضوعات مختلفة، ولكن تجنّباً للتقطيع الذي قد يحدث في كلمات وأحاديث المعصومين، جُمعت الروايات في مكان واحد. ويتضمّن المجلد 76، والذي يحمل عنوان المعاصي والكبائر، جملة من السلوكيّات المنحرفة والأخلاقيّة والتي عادة ما تترتّب عليها أحكام فقهيّة. ومن المفيد القول إنّ السمة الغالبة للروايات تتناسب والأبحاث الفقهيّة بشكل أكبر. وتندرج تحت كلّ عنوان أبواب متعدّدة تتناول موضوعات جزئيّة ترتبط بذاك العنوان الكلّي، لكن الملاحظ عدم وجود ترابط وترتيب واضح وكامل، بين العناوين والموضوعات الجزئية المندرجة تحتها، فمثلاً في ما يتعلّق بمكارم الأخلاق، لم يتمّ التفكيك بين الأخلاق الفرديّة وأخلاق العبوديّة، ولذا نجد إلى جانب مواضيع، من قبيل الطاعة، والذكر، والأخلاص، والعبادة، عناوين من قبيل العفة، والشجاعة وحسن العاقبة.

كما إنّ عنوان «الإصلاح بين الناس»، والذي يصنّف ضمن الأخلاق الاجتماعيّة، جاء في ذيل أبواب التحيّة والسلام، إلى جانب بعض الآداب والسُنن، نظير: المعانقة، والمصافحة، والمجاملة. كما ورد بحث الدعاء ـ وهو من مصاديق أخلاق العبوديّة وأدب الارتباط باللّه ـ في المجلّدات 90 و91 و92 من **بحار الأنوار** بعد كتاب الصلاة وكتاب القرآن.

6 ـ التطابق بين العناوين ومضمون الأحاديث

يمتاز كتاب **بحار الأنوار** باعتبار مطابقة عناوين الأبواب مع

الأحاديث الواردة تحت كلّ عنوان، بدقة وصحة عالية، إذ نجد أنّ الأحاديث الواردة ضمن مجموعة ما، تأتي متطابقة مع العنوان المختار لتلك المجموعة، إلّا في موارد نادرة[1].

7 ـ وثاقة الكتاب

يُعدّ كتاب **بحار الأنوار** موسوعة روائيّة ضخمة، جُمعت فيها أحاديث من مصادر شتّى بشكل موضوعي. والهدف الأساس الذي كان المجلسي يسعى إلى تحقيقه، هو تجميع الأحاديث المتناثرة، وضم المصادر المتفرّقة، لتكون رهن استفادة الباحث. وطبيعي أن يؤدّي ذلك إلى أن تقترن الأحاديث الصحيحة بالأحاديث الضعيفة، ما يتسبّب في ظهور تنافٍ وتعارض بين مفاد الروايات في بعض الموارد. ويجد الباحث أنّ نسبة التعارض بين مفاد الروايات أقلّ في الأبواب الأخلاقيّة، قياساً بالأبواب الأخرى، ومع ذلك فإنَّ تجميع التراث الروائي، وضم بعضه إلى بعضه الآخر، من شأنه أن يبرز هذه التناقضات، كما من شأنه أن يكشف عن موارد السقط وموارد الإضافة، من خلال تعاضد النصوص الروائية والقرائن التي تحصل عن هذا الطريق. أضف إلى ذلك أنّ تجميع الروايات بهذه الطريقة يسهّل عملية استكشاف التواتر أو الاستفاضة، لفظاً ومعنىً. ولا ريب في أنّ مراجعة هذه الموسوعة الحديثية، بالنسبة إلى الباحثين في حقل العلوم الإسلاميّة، فرصة ثمينة تغنيهم عن الرجوع إلى الكثير من المصادر.

---

(1) من قبيل الموارد التالية: كتاب الإيمان والكفر، الباب 16: «إنّ الشيعة هم أهل دين الله و...» ح 19؛ وكتاب الإيمان والكفر، الباب 16: «إنّ الشيعة هم أهل دين الله و...» ح 22، إذ يمكن إيجاد أبواب وعناوين أكثر مناسبة لهذه الأحاديث.

8 ـ التقييم النهائي

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الشيخ الحر العاملي ـ الذي أتحف الباحثين في مجال الفقه الشيعي بكتاب رائع محوري، وهو **وسائل الشيعة** ـ يعتقد أنّ تصنيف الأحاديث على أساس موضوعي وشرح الأخبار المشكلة، من أبرز الخصائص والسمات التي تفرّد بها كتاب **بحار الأنوار**[1]. ويرى صاحب **مستدرك الوسائل** بدوره أنّ الكثير من النقاط الحديثيّة الموجودة في شرح العلاّمة، لا يمكن العثور عليها في سائر المصادر الحديثيّة[2].

ومما لا شك فيه أنّ **بحار الأنوار** يُعدّ من أهمّ الموسوعات الحديثيّة الشيعيّة التي توفّر للباحثين فرصة الإطلالة الكاملة على التراث الروائيّ الإماميّ. وواضح أنّ هذه الخصوصيّة، إلى جانب جملة عوامل أخرى، منها: وثاقة واعتبار هذه الموسوعة، وخبرة وتخصّص مؤلّفها، وحسن التبويب وسهولة الاستفادة منها، جعلتها من أكثر المراجع الروائيّة استفادة وذيوعاً منذ القرن الثاني عشر وحتى يومنا هذا.

ويصدق هذا الكلام على المجلّدات الأخلاقيّة من هذه الموسوعة أيضاً. فعلى الرغم من وجود بعض النقائص من حيث التنظيم والترتيب، إلّا أنّ المجلّدات الخاصة بالأخلاق ـ أي من المجلّد 64 إلى المجلّد 75 ـ تُعدّ من أهم المصادر التي تُعرِّف بتعاليم وثقافة أهل البيت (ع) الأخلاقيّة. ويبدو أنّ الكتاب سيبقى إلى أمد بعيد يحتل هذا الموقع. وهذا يدلّ على أنه نظراً إلى مميّزاته وخصائصه، بإمكانه أن يرقى إلى أن يكون

---

(1) الشيخ الحر العاملي، **أمل الآمل**، ج 2، ص 248.

(2) الميرزا حسين النوري، **دار السلام**، ج 2، ص 237.

في عداد أهمّ المصادر التي تؤثّر على مسار البحوث العلميّة. وعموماً يمكن القول إنّ المجلدات من رقم 64 إلى 76 (سوى المجلّد 73) تُعدّ من التصانيف الموفقة نسبياً من بين المصادر التي تُعنى بالأخلاق الأثريّة، وذلك لما امتازت به من دقّة وشمول، سواء من حيث دائرة الموضوعات التي تتّسع لها، أم من حيثتطابق عناوين الأبواب والفصول مع مفاد الأحاديث، أم من حيث الهيكليّة والتبويب، إذ قام المؤلّف بتقسيمات أوليّة وثانويّة، ووضع عناوين للكتب والأبواب. وإن أمكن عرضها بتبويب أفضل من التبويب الذي هي عليه.

تعريف إجمالي بالمصادر الأخلاقيّة المهمّة لـ بحار الأنوار

للتعرّف على مصادر التراث الأخلاقي الأثري، نرى من الضروريّ إلقاء نظرة إجماليّة على أهم المصادر الروائيّة الشيعيّة، في مجال الأخلاق، والتي تشكّل بنفسها المصادر المعتمدة في **بحار الأنوار** أيضاً. وهنا لا بدّ من التذكير بأنّ كتاب **أصول الكافي** يُعدّ من المصادر الأخلاقيّة لـ **بحار الأنوار** أيضاً، إلّا أنه وبسبب أهميّته وسِعة دائرة موضوعاته وحجمه، تم التعريف به بشكل تفصيليّ في مرحلة سابقة.

الأوّل: كتاب الزهد[1]

هذا الكتاب من تأليف الثقة الجليل الحسين بن سعيد بن حماد بن

(1) الحسين بن سعيد الأهوازي الكوفي (250 هـ)، الزهد، تحقيق غلام رضا عرفانيان، قم، حسينيان، 1402 هـ، ط 2، 126 صفحة، قطع وزيري.

سعيد الكوفي الأهوازي، من أصحاب الإمام الرضا، والإمام الجواد، والإمام الهادي (ع)، ومن الرواة الشيعة المعروفين في القرنين الثاني والثالث الهجريّين، وقد توفّي في «قم» ودُفن بها. وكتاب **الزهد** من الكتب الثلاثين التي ألّفها الحسين بن سعيد، والتي أشار إليها الشيخ الطوسي والنجاشي في فهرستيهما. ومن جانبه امتدح الشيخ الصدوق ـ في مقدّمة كتاب **من لا يحضره الفقيه** ـ هذا الكتاب ووصفه بالوثاقة والاعتبار[1]. كما ذكر الشيخ الطوسي في كتابه **الفهرست** أنّ هذا الكتاب يعدّ مقياساً ومعياراً لاعتبار ووثاقة الكتب الأخرى. فمثلاً في وصفه لأعاظم الرواة، من قبيل صفوان بن يحيى، يقول الطوسي: «له كتب مثل كتب الحسين بن سعيد»[2].

ويقع هذا الكتاب في عشرين باباً، ويتضمّن 290 حديثاً بأسانيدها. وهنا نشير إلى بعض أبوابه ذات العناوين المهمة:

باب حسن الخلق والرفق والغضب، باب بِرّ الوالدين والقرابة والعشيرة والقطيعة، باب ما جاء في الملوك (آداب التعامل مع الإماء والعبيد)، باب ما جاء في الدنيا ومَنْ طلبها، باب التواضع والكِبَر، باب الرياء والنفاق والعجب والكبر، وباب ذكر الموت والقبر.

ويقتصر كتاب **الزهد** على نقل الأحاديث، ولا يتضمّن أيّ نوع من الإيضاح أو التعليق، من قبل الراوي، على الأحاديث المنقولة.

---

(1) الشيخ الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ص 45.

(2) الشيخ الطوسي، **الفهرست**، ص 190.

الثاني : المحاسن[1]

مؤلّفه هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، (المتوفّي سنة 274 هـ) من كبار علماء الشيعة ومحدثيهم. وقد كان ـ جده عبد الرحمن ـ يسكن الكوفة، لكنه هرب إلى إيران إثر الضغوط التي واجهها من قبل الحاكم هناك، فاستقرّ في منطقة تدعى «برقه رود» بمدينة قم (الظاهر أنّ المقصود نهر بيرقون)، ولذا اشتهرت هذه الأسرة بالبرقي. ويبدو ـ من الأحاديث والنصوص التاريخيّة ـ أنّ البرقي كان قد عاصر عدداً من الأئمة الأطهار (ع) وروى عنهم. وقد أورده الشيخ الطوسي في عداد أصحاب الإمام الجواد والإمام الهادي (ع). كما روى صاحب كتاب **الكافي** عنه رواية عن الإمام الرضا (ع).

وللبرقي مؤلّفات كثيرة، لكن للأسف قد تعرّض أغلبها إلى التلف. وكان يؤلّف كتبه تحت عنوان «المحاسن»، ولم يبق من محتوى هذا العنوان سوى ثلث الكتاب الأصلي والذي يشتمل على عشرات الأقسام وآلاف الأحاديث[2]. ويقع كتاب **المحاسن** المتوفر لدينا اليوم في أحد عشر قسماً، يُسمّى كلّ قسم منه «كتاب» ويتضمّن أبواباً عدّة. وهذه الأقسام «الكتب» هي:

كتاب الأشكال والقرائن، كتاب ثواب الأعمال، كتاب عقاب الأعمال،

---

(1) أحمد بن محمد بن خالد البرقي (274 أو 280 هـ)، **المحاسن**، تحقيق مهدي رجائي، قم، المجمع العالمي لأهل البيت (ع)، 1416 هـ، ط 2، مجلدان، 477 + 506 ص، قطع وزيري.

(2) أنظر: الطوسي، **رجال الطوسي**، ص 398 و410؛ الطوسي، **الفهرست**، ص 20؛ النجاشي، **رجال النجاشي**، ص 55.

كتاب الصفوة والنور والرحمة، كتاب مصابيح الظلم، كتاب العلل، كتاب السفر، كتاب المآكل، كتاب الماء، كتاب المنافع، وكتاب المرافق.

يشتمل الكتاب، عموماً، على الآداب والأخلاق، لكنه لا يخضع لنظام واضح ومحدّد يميّز بين الأبواب والكتب. وقد اختار الطبرسي أهم الأحاديث الأخلاقيّة الموجودة فيه وأبرزها، وقام بنشرها في كتابه **مشكاة الأنوار**.

الثالث: مصادقة الإخوان[1]

للمحدث الجليل أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). ويضمّ 125 حديثاً في 43 باباً. وتُعنى أحاديث هذا الكتاب ـ كما هو واضح من عنوانه ـ بآداب الصداقة، وأخلاق الأخوة، وبيان ما هي الصداقة وأقسام الأصدقاء، وحقوق الإخوان المؤمنين، والشروط والمواصفات المعتبرة في اتخاذ الصديق، وكيفية التعامل بين الأصدقاء. والملاحظ أنّ المصنف ـ في أكثر الروايات ـ ذكر سلسلة الرواة ولكن من دون أن يعلّق عليها بملاحظة أو إيضاح. كما إنّ الكتاب لا يتّبع نظاماً محدّداً وواضحاً، وعناوين الأبواب لم تُدرج تحت فصول أعمّ منها. كما إنّه يوجد تداخلاً بين بعض العناوين. لكن تعدد العناوين وكثرتها، في هذا الكتاب الصغير وفي موضوع محدود وجزئي، أمر جدير بالاهتمام قياساً إلى مسار تأليف كتب الأخلاق الحديثيّة وبقيّة تراث ذلك العصر.

(1) محمد بن علي بن الحسين الصدوق، (311 ـ 381هـ)، **مصادقة الإخوان**، مع الترجمة الفارسيّة بقلم محمد تقي دانش پژوه، مقدّمة سعيد نفيسي، طهران: انتشارات تشيع، [بدون تاريخ] 55 صفحة، قطع رقعي.

الرابع: مكارم الأخلاق[1]

المؤلّف هو رضي الدين، أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري. وهو ابن أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، صاحب تفسير **مجمع البيان**، ووالد علي بن الحسن صاحب كتاب **مشكاة الأنوار**. وليس ثمة معلومة دقيقة عن تاريخ ومحلّ ولادته. يذهب السيد محسن الأمين العاملي في كتابه **أعيان الشيعة** إلى أنه توفّي في عام 548 هـ في مدينة سبزوار ونقل جثمانه إلى مدينة مشهد، حيث دُفن في مكان يسمّى «قتلگاه»[2].

تختصّ الأبواب الاثنا عشر من كتاب مكارم الأخلاق، بالدرجة الأساس، ببيان «الآداب». ولذا ينبغي أن لا يعدّ هذا الكتاب من مصادر الأخلاق الإسلاميّة بالمعنى الخاص له. نعم، ربما وجدت، في ثنايا أبوابه بعض الفصول التي تحمل عنواناً أخلاقياً؛ فمثلاً، في الباب الثامن والذي يبحث حول آداب النكاح، ثمة عنوان يمكن عدُّه من العناوين الأخلاقيّة وهو «في حق الزوج على الزوجة وحق الزوجة على الزوج». وكذلك في الباب العاشر ويُعنى بآداب الدعاء، الفصل الأول من هذا الباب «في فضل الدعاء وكيفيّته» إذ يُستفاد منه أخلاق التحدّث مع الله سبحانه وتعالى. والباب الثاني عشر أيضاً؛ والذي يختص بذكر وصايا الرسول (ص)، وأمير المؤمنين (ع)، والإمام السجاد (ع) ومواعظهم.

---

(1) الحسن بن الفضل الطبرسي (القرن السادس): **مكارم الأخلاق**، تصحيح وتعليق السيد علاء الدين العلوي الطالقاني، طهران، دار الكتب الإسلامية، 1376 هـ، ح 566، قطع وزيري.

(2) السيد محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، ج 23، ص 9 ـ 15.

الخامس: غرر الحكم ودرر الكلم[1]

لمؤلّفه ناصح الدين أبي الفتح عبد الواحد الآمدي التميمي، العالم الفاضل والمحدث الكبير، في القرن السادس الهجري. وقد حظي هذا الكتاب باهتمام كبير من قبل الباحثين وطبع مرات عدة، لما امتاز به من تنوع في الموضوعات وقصر حجم الروايات، ولما تضمّنته نصوصه من صناعات أدبيّة. ونظراً إلى أهميّته صار محوراً للكثير من النتاجات، على صعيد الشرح، والترجمة، والتلخيص، والترتيب، وغير ذلك. من هذا الاعتبار يمكن الإشارة إلى كتاب **تصنيف غرر الحكم**[2]، والذي تم تّصنيف الأحاديث وتبويبها فيه على أساس موضوعي وإعداد فهارس موضوعيّة. ومن نافل القول إنّ معظم الكتاب يختصّ بعلم الأخلاق وبتقسيم أوّلي يمكن تقسيمه إلى ستة أقسام، هي:

1 ـ «القسم العقائدي» ويُعنى بالبحث في «الأُسس والمنطلقات المعرفيّة والإيمانيّة».

2 ـ «القسم العبادي» ويختصّ بمجال «أخلاق العبوديّة».

3 ـ «القسم الأخلاقي» ويتناول بشكل رئيس الأخلاق الفرديّة، والخصال، والفضائل، والرذائل.

4 ـ «القسم السياسي» ويُعنى بـ «أخلاق الحكومة والحكام».

---

(1) عبد الواحد بن محمد الآمدي التميمي (550 هـ)، **غرر الحكم ودرر الكلم**، تحقيق مير سيد جلال الدين المحدث الأرموي، طهران، انتشارات دانشگاه طهران، 1298 هـ، ط 3.

(2) عبد الواحد بن محمّد الآمدي التميمي (ت 550 هـ)، **تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم**، تحقيق مصطفى درايتي، قم: مكتب الإعلام الإسلامي، بلا تاريخ، 562 صفحة قطع وزيري، بضميمة فهرست مفردات الكتاب.

5 ـ «القسم الاقتصادي» ويتعرّض إلى بيان الأخلاق الماليّة وأخلاق التجارة، والإنتا،ج والاستهلاك.

6 ـ «القسم الاجتماعي» ويبحث في الأخلاق الجماعيّة.

وينقسم كلّ واحد من هذه الأقسام إلى أبواب عدة. ويتضمّن كل باب فصولاً عدّة.

أمّا بالنسبة إلى مدى اعتبار كتاب **غرر الحكم** فيوجد أكثر من رأي وحكم، فأغلب أحاديث هذا الكتاب ـ والذي أُلِّفَ في القرن السادس الهجري ـ لا توجد في المصادر الروائية القديمة، ما أثار شكوك بعض المحقّقين، إلّا أنّ ما يهوّن الخطب ويقلّل من تلك الشكوك، اهتمام أكابر علماء الشيعة به، بمن فيهم فقهاء مدقّقون، من قبيل المحقق السبزواري[1] وآقا جمال الدين الخوانساري، إلى جانب ما نشهده من الانسجام والسنخيّة بين مضامين رواياته وبين روح المعارف الإسلاميّة والشيعيّة.

وكما هو واضح، فإنّ كتاب **غرر الحكم** يمتاز بجملة أمور، منها: كثرة الأحاديث، تنوّع الموضوعات، قصر العبارات، جماليّة البيان، والتعبير، والتأثير العميق الذي يتركه. ونظراً إلى هذه الامتيازات وغيرها، كان هذا الكتاب ولا يزال موضع اهتمام العامة والخاصة. كما إنّ وفرة الأعمال الفكريّة التي أُنجزت حول الكتاب ضاعفت من وجدواه. إلّا أنّ قصر العبارة والاقتضاب الذي عليه روايات هذا الكتاب، من شأنه أن

(1) استند المحقّق السبزواري صاحب شرح الإرشاد وكفاية الفقه (ت 1090 هـ)، في كتابه **روضة الأنوار العباسية**، وفي ذيل بحثه عن العدالة، إلى أحاديث كتاب الغرر بشكل كبير.

يفسح المجال لفهم مغلوط للمضمون، ويجعل الفهم الصحيح والدقيق والكامل للروايات صعباً نوعاً ما. وعليه لا بدّ من أخذ هذه الملاحظة الهامة في مراجعتنا لهذا الكتاب. ومن هنا فإن ضم هذه الأحاديث إلى روايات أخرى من مصادر أُخرى، تتّحد معها في الموضوع، والتدبّر في المجموع، من شأنه أن يقلّل من الإجمال المعنويّ الذي تعانيه، ويسدّ هذه النقيصة بعض الشيء. وقد سهّل التبويب الجديد في تصنيف غرر الحكم، على الباحثين والمحقّقين الاستفادة منه، إلى أبعد الحدود، وزاد في أهميّته وجدواه. إلّا أنّ مما يقلل من قيمة الجهد المبذول في هذا التصنيف، هو أنّ ترتيب الأحاديث بدا قائماً على أساس ذوق واستحسان شخصيّ، بعيداً عن الرؤية الفنيّة والعلميّة التي ينبغي أن تكون هي الحاكمة عليه.

السادس: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار[1]

مؤلّف هذا الكتاب هو المحدث الجليل أبو الفضل علي بن الحسن الطبرسي، ابن الحسن بن الفضل الطبرسي صاحب كتاب **مكارم الأخلاق**، الذي هو ابن أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 578 هـ) مؤلّف تفسير **مجمع البيان**. ولا يوجد اختلاف أو شبهة في نسبة الكتاب إلى مؤلّفه .إلّا أنه ثمة شكوك حقيقيّة حول سائر كتبه ـ بما فيها كتاب **كنوز النجاح** ـ تساور الكثير من كبار العلماء والمحققين[2]. بناءً

(1) أبو الفضل علي الطبرسي (القرن 7 هـ)، **مشكاة الأنوار في غرر الأخبار**، قم، دار الكتب الإسلاميّة، 1385 هـ، 355 صفحة، قطع وزيري.

(2) **خاتمة المستدرك**، ج 1، ص 328؛ **رياض العلماء**، ج 4، ص 356.

على ذلك، فإن الكتاب الوحيد الذي يقطع في نسبته إلى الطبرسي هو كتاب **مشكاة الأنوار**.

لقد أشار المؤلّف في مقدّمة الكتاب إلى الباعث الذي حمله على تأليفه، فذكر أنّ أباه لمّا فرغ من تأليف كتاب مكارم الأخلاق، شرع في تأليف كتاب حديثي يشتمل على محاسن الأفعال والأحوال، إلّا أنه لم يوفّق لإتمامه وتبويبه آنذاك. ونزولاً عند طلب بعض المؤمنين، انبرى المؤلّف إلى تأليف هذا الكتاب، بترتيب وتبويب جديد، مكملاً لـ **مكارم الأخلاق**.

إنّ الكثير من روايات هذا الكتاب منقولة من كتاب **المحاسن** للبرقي. ولكن ثمة مجموعة منها غير موجودة في النسخة المتداولة اليوم من **المحاسن**. وواضح أنه دليل على أنّ كتاب **المحاسن** الموجود عندنا اليوم ناقص، وأن المؤلّف كانت لديه نسخة أكمل منه[1]. إلى جانب كتاب **المحاسن** والذي يشكّل مصدراً أساساً للكتاب، أفاد الطبرسي من مصادر أخرى من قبيل: **التوحيد**، **صفات الشيعة**، **علل الشرائع**، **عيون أخبار الرضا** للشيخ الصدوق، **الإرشاد** للشيخ المفيد، **روضة الواعظين** للنيسابوري، **مجمع البيان** و**أعلام الورى** لأمين الإسلام الطبرسي، وكتاب **الزهد** لحسين بن سعيد الأهوازي.

وقد وصف العلّامة المجلسي كتاب **مشكاة الأنوار** بأنه كتاب ظريف يشتمل على أحاديث غريبة[2]. وطبيعي أنّ هذا الوصف قد أضرّ

---

(1) آقا بزرگ الطهراني، **الذريعة**، ج 21، ص 55.
(2) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، ج 1، ص 9.

بوثاقة أحاديثه. وذلك باعتبار أنّ «الحديث الغريب» في مصطلح علم الدراية، هو ما رُوي سنداً أو متناً أو كليهما، عن طريق راوٍ واحد فقط، ثم اشتهر مضمونه بعد ذلك في الأوساط الروائيّة. وربما أطلقت هذه التسمية على الحديث الذي يشتمل على ألفاظ معقّدة وغير مفهومة[1]. ولعل هذا هو السبب الذي حمل المحقّقين في مجال علم الحديث على أن يُعدّوا كتاب **مشكاة الأنوار** من مصادر الدرجة الثانية من حيث الأهميّة والاعتبار.

يتضمّن الكتاب موضوعات تصبّ في مجالات عدّة، نظير: أخلاق العبوديّة، الأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة. والملاحظ أنّ الموضوعات والعناوين المرتبطة بالأخلاق الاجتماعيّة، عموماً، قد شغلت مساحة كبيرة من حجم الكتاب، والعنوان الوحيد الذي يمكن القطع بدخوله في عناوين الأخلاق الأسريّة، هو عنوان «حقوق الوالدين وبرّهما». وإليك عناوين أبواب الكتاب بالترتيب:

1 ـ الإسلام والإيمان؛ 2 ـ صفات وأحوال وعلامات الشيعة؛ 3 ـ محاسن الأفعال وشريف الخصال؛ 4 ـ آداب المعاشرة؛ 5 ـ مكارم الأخلاق؛ 6 ـ عيوب النفس، جهاد النفس والعقل والقلب؛ 7 ـ المصائب والشدائد وذكر الموت؛ 8 ـ الخصال السيّئة؛ 9 ـ المواعظ؛ 10 ـ المتفرّقات؛ وكما هو ملحوظ فإن أبواب الكتاب تفتقر إلى الترتيب المتقن والنسق المنطقي.

(1) الشهيد الثاني، **الرعاية في علم الدراية**، ص 108 ـ 107؛ زين العابدين قرباني، **علم حديث ونقش آن در شناخت وتهذيب حديث**، ص 117.

ويوجد، في ما يتعلّق بعناوين الأبواب والفصول، ملاحظات لابدّ من الوقوف عندها وهي:

أولاً: خلافاً لما هو متوقّع، نجد أنّ عناوين بعض الأقسام والفصول تتّحد مع عناوين الأبواب التي تشكّل المقسم[1].

ثانياً: بعض الفصول المترابطة في ما بينها والتي خصّص لها باباً محدّداً، بدل أن يتمّ تجميعها في ذلك الباب، نجد أنها طرحت في أبواب مختلفة ومتناثرة[2].

ثالثاً: تبدو عناوين بعض الأبواب، غير متناسبة، مع الفصول المرتبطة بها، كمّاً وكيفاً[3].

رابعاً: مضامين بعض الروايات لا تمتُّ بصلة إلى عنوان الفصل المندرجة تحته[4].

وعلى الرغم من نقاط الضعف الموجودة، نظير عدم التدقيق في

---

(1) نظير الباب 1، الفصل 10؛ والباب 3، الفصل 24؛ والباب 5، الفصل 7.

(2) يفترض أن يكون الباب الرابع، مثلاً، مخصّصاً لآداب المعاشرة، لكنْ ثمّة فصول نظير: صلة الرحم، إكرام الشيوخ، الاشتغال عن عيوب الناس، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، أوردت في أبواب أخرى بدلاً من ذكرها في هذا الباب.

(3) الباب الثامن مثلاً، والذي تم تخصيصه بالرذائل الأخلاقية، نجده يضم عشرة فصول ولم يشر فيها إلى الكثير من أمهات الرذائل. إذ لم يشر في أيّ من الفصول إلى الجبن، والحرص، والشره، والجهل، والنفاق، والتكبر.

(4) نظير الرواية التي تقول: «إنّ المؤمن يخشع له كلّ شيء، حتى هوام الأرض وسباعها وطير السماء». والتي وردت في الفصل الثاني من الباب الأول، والتي لا علاقة لها بالأخلاق. ورواية «التوكّل أن لا تخاف مع اللّه غيره» الواردة في الفصل الثالث من الباب الأول ولا علاقة لها باليقين. وأيضاً رواية «من سنّ سنةً حسنه فله أجرها...» الواردة في الفصل الأول، الباب السادس ولا علاقة لها بعيوب النفس ومجاهدتها.

الترتيب وفي تحكيم الانسجام بين الأبواب والفصول، ونظير نقل الرواية من مصادر من الدرجة الثانية، إلّا أنّ الكتاب يُعدّ كتاباً أخلاقياً جامعاً إلى حدٍ ما، كما إنّ الأحاديث المنقولة فيه جديرة بالاهتمام من حيث المضمون والمعنى.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ آخر طبعة محقّقة لهذا الكتاب هي التي أصدرتها «مؤسسة آل البيت لإحياء التراث» عام 1423 هـ في مجلّدين. وتمتاز هذه الطبعة بأنها قوبلت مع نسختين خطّيتين، وتم استخراج مصادرها الأصلية. وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية مرّتين؛ الأولى لعزيز الله عطاردي، والأخرى اشترك فيها مترجمان هما: مهدي هوشمند وعبد الله محمّد.

السابع: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر[1]

كتاب **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر** المعروف باسم **موسوعة ورّام**، من تأليف أبي الحسين ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري (ت 605 هـ)، أحد أحفاد مالك الأشتر النخعي (ره)، وجدّه لأمه هو السيد ابن طاووس.

يشتمل الكتاب على 23 باباً و35 بياناً وثمانية أقسام، وفي المجموع يضم 66 «عنواناً»، من بين هذه العناوين أكثر من عشرة فصول في الفضائل، وأكثر من خمسة عشر فصلاً في الرذائل، وفصلان في تحسين الأخلاق وتهذيبها. وما تبقى من البحوث يُعنى بمواضيع متفرّقة من قبيل:

---

(1) ورّام بن أبي فراس (605 هـ)، **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر**، طهران، دار الكتب الإسلاميّة [بلا تاريخ]، عدد الصفحات 316 صفحة، قطع وزيري.

الآداب، الأسماء والكنى والألقاب، السفر، المواعظ والموت والمعاد والمسائل المرتبطة بها.

وبصورة عامة، فإن الكتاب ذو طابع أخلاقي؛ لكنه يفتقر إلى التنظيم المناسب. وفي ما يتعلّق بدائرة الموضوعات التي يتّسع لها الكتاب، نقول: على الرغم من التغطية المناسبة، نوعاً ما، لمختلف الموضوعات، إلّا أنّ حجم المطالب المندرجة تحت كلّ عنوان، ضئيل ولا يتعدّى صفحات قلائل. نعم، ثمة موارد بحثها المؤلّف بتفصيل أكثر. كما يلاحظ أنّه وإن أفاد من الآيات القرآنية في طيات الأبحاث وفي المعالجات التي قدّمها، إلّا أنه كرّس جلّ اهتمامه على نقل الروايات وتبيين مفادها. وفي سياق البحوث التي يطرحها، حرص المؤلّف على الإفادة من روايات الفريقين، كما أفاد أيضاً من الأشعار والحكايات بنحو مناسب ومقبول.

الثامن: جامع الأخبار أو معارج اليقين في أصول الدين[1]

جامع الأخبار موسوعة روائية تضمّ ما يقارب 1500 حديث في 141 فصلاً. ويعود تأليفها إلى أحد أعلام القرن السابع الهجري. والأقوال في تحديد مؤلّف هذه الموسوعة متعددة. كما إنّ النسخ الموجودة من هذا الكتاب تختلف في ما بينها كثيراً. ويرى الباحث علاء آل جعفر، في دراسة قيّمة جاءت في مقدمة الطبعة الجديدة، أنّ المؤلّف هو محمّد بن محمّد السبزواري، وقد فرغ من تأليفه في شهر صفر عام 679 هـ.

---

(1) محمّد بن محمّد السبزواري (القرن السابع)، **جامع الأخبار، أو معارج اليقين في أصول الدين**، تحقيق علاء آل جعفر، قم، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1414 هـ، 632 صفحة، قطع وزيري، (سلسلة مصادر البحار: 13).

ويجدر القول إنّ سائر الفصول، باستثناء الفصول الأولى من الكتاب، تُعنى بالدرجة الأولى ببيان الأخلاق والآداب. ولا يجد الباحث نظاماً بيّناً ونسقاً واضحاً، يحكم العلاقة بينها. ولكن الفصول التي تبحث الأخلاق الاجتماعيّة والأخلاق الأسريّة، عموماً، هي أكثر بكثير من تلك التي تُعنى بمواضيع أخرى وقد حرص المؤلّف، في بداية كلّ فصل، على أن يورد الآيات المتعلّقة بالموضوع، كما حرص قبل البدء ببيان الرواية، على ذكر سلسلة رُواتها. ويقتصر الكتاب على ذكر الآيات والروايات. أمّا المؤلّف فلم يكن لديه أي بحث أو معالجة تذكر، سوى مقدمة قصيرة والملاحظ أنّ بعض الأحاديث الواردة هنا، لا توجد في أيّ مصدر روائي آخر، وهذا ما أثار تساؤلات الباحثين في حقل علم الحديث[1].

وقد خصّص المؤلّف أكثر من عشرة فصول لذكر فضائل الأئمة المعصومين (ع) وأهميّة زيارتهم.

التاسع: إرشاد القلوب[2]

كتاب **إرشاد القلوب** لأبي محمّد الحسن بن ـ أبي الحسن ـ محمّد الديلمي[3]، من علماء القرن الثامن (وفاته على وجه الاحتمال 771 هـ). أغلب طبعات هذا الكتاب كانت في مجلّدين:

المجلد الأول: في 54 باباً، ويختصّ عموماً، بالمواعظ والعبر

---

(1) انظر: محمّد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 4، ص 225.

(2) أبو محمّد حسن بن أبي الحسن الديلمي (القرن الثامن)، **إرشاد القلوب**، النجف، مطبعة الحيدريّة، 1955 م / 1374 هـ، ط 2، جزءان، 204 + 314 صفحة قطع وزيري.

(3) نسبة إلى الديلم قرب قزوين.

الواردة في القرآن، وروايات المعصومين (ع)، وبعض البحوث العقائديّة مثل «التوحيد»، وبحوث حول الذنوب والرذائل الأخلاقيّة والاجتماعيّة، من قبيل: الزنا، الربا، الغيبة، النميمة والحسد. إلى جانب عدد كبير من المحاسن والفضائل ذات الطابع الفردي نظير: الزهد، قصر الأمل، ذكر الموت، الورع، الخوف والرجاء، الحياء من الله تعالى، اليقين، الصبر والسخاء.

ويفتقد الكتاب إلى الترتيب والنظام، إذ طرحت فيه البحوث والمطالب المختلفة بشكل متداخل ومشوش. ومن حيث دائرة الموضوعات الأخلاقيّة، فإن الكتاب وإن تضمّن بعضاً من أمهات الفضائل الأخلاقية، إلّا أنّه أغفل الكثير من المفردات الأخلاقيّة، وتتأكّد هذه النقيصة في ما يتعلّق بذكر الرذائل. كما إنّ المساحة المخصّصة للموضوعات في كل باب، لا تتجاوز الصفحة أو الصفحتين في الأعمّ الأغلب.

ويحرص المؤلّف في معرض بيانه لمقاصد الكتاب على أن يبدأ أولاً بآيات القرآن الكريم، ومن ثم الروايات ما أمكن. كما إنه لم يذكر إرجاعات الآيات، وحذف أسانيد الروايات. أما قلمه فيمتاز بالسلاسة والوضوح، وذوقه في اختيار الروايات وترتيب المباحث جيد وجدير بالتقدير.

وهنا لا بدّ من التذكير بأنّ الكتاب لا يُعدّ كتاباً روائياً صرفاً، فهو يشتمل على معالجات ضمّنها المؤلّف بعض القصص والحكايات التاريخيّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ حجم هذه القصص، بالقياس إلى مجموع الكتاب، ليس كبيراً.

المجلد الثاني، يستقل بذكر فضائل ومناقب أمير المؤمنين (ع).

العاشر: أعلام الدين في صفات المؤمنين[1]

هذا الكتاب هو الآخر من تأليف الحسن بن أبي الحسن محمّد الديلمي، ويتضمّن أبواباً وفصولاً وعناوين عدّة متفرّقة، يغلب عليها الطابع الأخلاقي. والملاحظ أنّ الفصول الأولى منه، وإن تم تصديرها بعناوين كلاميّة ـ من قبيل وجوب شكر المنعم، وكلام في التوحيد ـ إلّا أنها تتضمّن مقاصد أخلاقيّة. وتبدو، من خلال مراجعة فهرس الكتاب، عناوين لموضوعات أخلاقيّة تتوزّع على: أخلاق العبوديّة، والأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة. ولا يجد القارئ عنواناً يتعلّق بالأخلاق الأسريّة بنحو مباشر.

الحريّ ذكره أنّ الكتاب يتضمّن أشعاراً وحكايات وإيضاحات، من قبل المؤلّف، إلى جانب الآيات القرآنية والروايات المنقولة عن الأنبياء والأئمة والمعصومين. ولكنّ الحجم الأكبر من الكتاب اقتباس من المصادر الدينية عموماً.

ويبدو للباحث أنّ المؤلّف لم يكن بحسبانه أن يعتمد أسلوبا محددا وخاصا في تبويب الأبواب وتنظيم الفصول وإن كان الكتاب يبدأ بموضوع معرفة الله ومعرفة الإنسان ويختتم بعناوين من قبيل «بشارة المؤمن عند وفاته وبعدها». من هنا يمكن وبشيء من التكلف، أن نحدّد لوناً من الترتيب للمواضيع التي تطرق اليها المؤلّف في كتابه. ويعدّ كتاب **أعلام الدين في صفات المؤمنين** من أهم كتب الديلمي. فهو في كتابه هذا

(1) أبو محمّد حسن بن الحسن الديلمي (القرن الثامن)، أعلام الدين في صفات المؤمنين، قم، مؤسسة آل البيت 1414 هـ، ط 2، عدد الصفحات 532 صفحة، قطع وزيري.

قد نقل كتاب **البرهان على ثبوت الإيمان** لأبي الصلاح الحلبي بتمامه.

والكتاب أي أعلام الدين كان مورد اعتماد جماعة من مؤلّفي المجامع الروائية، من قبيل العلامة المجلسي والمحدث النوري، بحيث اعتمدا على هذا الكتاب كمصدر من المصادر الروائية لكتابي **بحار الأنوار** و**مستدرك الوسائل**.

الحادي عشر: مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة[1]

مؤلّف الكتاب مجهول، فلم يُدَوِّن اسمه على الكتاب، ولم يعرّف به في كتب بقيّة العلماء، ولكن لمّا كانت الأبواب المائة من الكتاب، جميعها، مصدّرة بـ «قال الصادق (ع)»، يُستشم من ذلك أنّ المؤلّف شيعي. وعلى كلّ حال، بما أنه مجهول الحال، لا يمكن التعامل مع سند الكتاب على أنه سند معتبر وموثوق. ومن هنا، فإنّ الباحثين والمترجمين، في تقييمهم للكتاب، رجعوا إلى علماء الشيعة وموقفهم من مضمونه. وقد وجدوا مواقفهم منقسمة إلى ثلاثة طوائف؛ جماعة من قبيل: السيد رضي الدين علي بن طاووس رحمه الله في كتابه **أمان الأخطار**، والشهيد الثاني في كتبه: **أسرار الصلاة**، و**كشف الريبة في أحكام الغيبة**، و**منية المريد**، والملاّ محسن الفيض الكاشاني (ره) في **المحجة البيضاء**، وآخرين من العلماء والأعاظم، وجدوهم قبلوا الكتاب

(1) منسوب إلى الإمام جعفر الصادق (ع)، **مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة**، بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1400 هـ، 208 صفحة قطع رقعي. وأيضاً: عبدالرزاق الكيلاني، شرح فارسي **لمصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة**، بضميمة **رسالة في النية** لجمال الدين محمّد الخوانساري، مقدمة وتعليق وتصحيح السيد جلال الدين الأرموي، طهران، كتابخانه صدوق، 1401 هـ، ط 3، مقدمة + 608 صفحة، قطع وزيري.

تماماً وعدّوه من الكتب الموثوقة والمعتمدة، وبناءً على ذلك نقلوا أحاديثه ورواياته؛ فيما ذهب آخرون، من أمثال الشيخ الحر العاملي (ره) في كتابه **هداية الأمة**، والميرزا عبد الله الأصفهاني المعروف بالأفندي في **رياض العلماء**، إلى إسقاط الكتاب من الاعتبار بالكامل وذلك لاشتماله على آراء ومعتقدات الصوفيّة.

وفي مقابل هاتين الطائفتين، توجد طائفة ثالثة، أبرزت تردّدها في مضامين روايات هذا الكتاب، إلّا أنها اعتبرته مفيداً عموماً. ومن جملة من ذهب إلى هذا الموقف، العلّامة المجلسي في **بحار الأنوار**؛ إذ جعله أحد مصادره.

ويتضمن كتاب **مصباح الشريعة** مائة باب ولكن ليست كل عناوينها أخلاقية، فثمة عناوين في الفقه والآداب. وما يقارب 83 باباً منها ذات طابع أخلاقي. ومن هذه العناوين: الرعاية، القناعة، العبرة، التكلّف، المشي، العطاء، الاقتداء، العفو، المشورة، والحياء.

ب ـ التراث السنّي

1

شعب الإيمان[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي النيسابوري الخسرومردي (384 ـ 458 هـ)، محدث وفقيه شافعي، يُعدّ من أبرز الذين قاموا بجمع تراث وروايات الشافعي، وصاحب أكمل شرح لآراء الإمام الشافعي. يبلغ عدد شيوخه وأساتذته أكثر من مائة، كلّهم من علماء وأكابر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس. وهو يعدّ من كبار تلامذة الحاكم النيسابوري في مجال الحديث وإن فاق أستاذه في العلوم الأخرى كما قيل[2]. درس الفقه على أبي الفتح ناصر بن الحسين العمَري (ت 444 هـ)، وأبي القاسم الفوراني، الذي كان تلميذاً للبيهقي في علم الحديث.

(1) أحمد بن الحسين البيهقي (458 هـ)، **شعب الإيمان**، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد ابن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1410 هـ، ط 1، 9 مجلّدات، 551 + 564 + 509 + 412 + 488 + 551 + 600 + 531 صفحة، قطع وزيري.

(2) **كتاب الأسماء والصفات**، دار الكتب العلميّة، بيروت، المقدّمة، ص 5.

يمتاز البيهقي بذاكرة خارقة، فكان أوحدي عصره في حفظ الحديث والدقة فيه، مما جعل الكثير من أصحاب التراجم يثنون على مكانته العلميّة، واصفين جملة مؤلّفاته بأنها لا نظير لها[1].

اشتهر البيهقي بين علماء أهل السنّة بجملة من الخصال الأخلاقيّة نظير: الزهد والعبادة والورع. وقيل إنّه قضى السنوات الثلاثين الأخيرة من عمره صائماً[2]. وللبيهقي تلامذة كثر، نشير هنا إلى بعضهم:

أبو علي الأنصاري (حفيده أبو الحسن عبيد الله بن محمّد بن أحمد)، أبو عبد الله الفزاري، أبو القاسم الشحامي، عبد المنعم القشيري وإلى جانب هؤلاء ابنه الأكبر إسماعيل، وهو الذي سمع منه علي البيهقي ـ صاحب كتاب **تاريخ البيهقي** ـ الحديثَ. ويعتبر السمعاني ممن رأى عشرة من تلامذة البيهقي وسمع منهم الحديث[3]. كما إنّ بعض الأسانيد الروائية التي يعتمدها الذهبي تنتهي إلى البيهقي[4].

وللبيهقي كتب ومؤلّفات كثيرة، بحيث إنّ بعضاً عدّها ألف مجلد[5]. ونشير هنا إلى طرف منها:

السُنن الكبرى (موسوعة حديثيّة كبيرة، تمّ تدوينها على أساس

---

(1) على سبيل المثال، انظر: تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 4، ص 10؛ وأيضاً ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري**، ص 260 ـ 262؛ اليافعي اليمني، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ج3، ص 63؛ زين الدين عمر بن مظفر ابن الوردي، **تاريخ ابن الوردي**، ج 1، ص 516.

(2) تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 4، ص 11.

(3) عبد الكريم بن محمّد السمعاني، **الأنساب**، ج 1، ص 439.

(4) الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج 3، ص 1134.

(5) البيهقي، **الأسماء والصفات**، تحقيق وتصحيح عبد الرحمن عميرة، مقدّمة المصحّح، ص 11.

الأبواب الفقهيّة)، **معرفة السنن والآثار**، **الأسماء والصفات**، **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**. وله كتابان روائيان في الأخلاق هما: **الزهد الكبير** و**شعب الإيمان (الجامع المصنف في شعب الإيمان)**. وكتاب **شعب الإيمان** موسوعة كبيرة من الروايات الأخلاقيّة، قام البيهقي بتحريرها على منوال كتاب **منهاج الدين في شعب الإيمان** لمؤلفها الحسين بن الحسن الحليمي (338 ـ 403 هـ). وذلك للتعريف بشعب الإيمان ومراتبه. تقوم فكرة الكتاب على أساس حديثٍ لرسول اللّه (ص) يقول فيه: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأصلها قول لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

2 ـ النسخ والطبعات

يوجد العديد من النسخ الخطيّة لكتاب **شعب الإيمان**، نذكر عدداً منها:

1 ـ نسختان في مكتبة «أحمد الثالث» في محلّ يسمّى «طبقيوسراي» بإسطنبول، برقم 44 و449.

2 ـ صورة لنسخة في دار الكتب المصريّة، المكتبة العامة الواقعة في ساحة أحمد ماهر في القاهرة، تحمل رقم 714.

3 ـ نسخة في مكتبة نور عثمانية في أسطنبول برقم 108 ورقم 5498 ـ وقد قام المحقّق، عبد الحميد حامد، بتحقيق الكتاب في عام 1406

---

(1) يوجد كتاب أخلاقي آخر، يحمل العنوان نفسه، في شرح هذا الحديث الشريف بطريقة تركيبية، لمؤلّفه أبو محمّد عبد الجليل بن موسى الأندلسي، المعروف بالقصري (ت 608 هـ)، وهو كتاب **شعب الإيمان**، تحقيق السيد كسروي حسن، ط 1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1416 هـ، 672 ص، قطع وزيري.

هـ، وتم طبعه من قبل الدار السلفيّة في الهند. وطُبع مرة أخرى مع تعليق ومقدّمة الحافظ عزيز بك النقشبندي وذلك في حيدر آباد الدكن. وكلتا الطبعتين ناقصتان. وتوجد طبعة أخرى لهذا الكتاب، تحقيق محمّد سعيد بن بسيوني زغلول، صدرت عن دار الكتب العلميّة ببيروت، في 9 مجلّدات. وقد تمّ تخصيص المجلّدين الأخيرين لفهارس الكتاب، في حين أنّ الطبعات السابقة كانت في ستة مجلّدات، وبعضها في ثلاثة مجلّدات.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

استأثرت كتب البيهقي، بما فيها كتابه **شعب الإيمان**، باهتمام كبير من قبل العلماء، ونالت حيّزاً في الكثير من حقول العلم والمعرفة، بما فيها التراجم، والتاريخ، والحديث، وتفسير القرآن الكريم.، وذلك لما امتاز به المؤلّف من شخصيّة علميّة كبيرة ومرموقة، تركت بصماتها على المسار العلمي السنّي، إذ شكّل ـ في تراثه الفكريّ وآرائه ـ مرجعيّة كبرى لكبار العلماء والمحقّقين. فعلى سبيل المثال، ثمة كتب ومصادر هامة اتخذت من تراث البيهقي مصدراً لها، نظير: **نهاية الإرب** للنويري، **طبقات الشافعيّة** للسُبكي، **السيرة النبوية** لابن كثير، **صبح الأعشى** للقلقشندي، **مفتاح السعادة** لطاش كبرى زاده، **وتاريخ ابن الوردي**.

ونظراً إلى أهمية كتاب **شعب الإيمان**، قام بعض المؤلّفين بتلخيصه واختصاره، نظير: **مختصر شعب الإيمان** شمس الدين القونوي، **ومختصر شعب الإيمان** للإمام معين الدين محمّد بن حمويه[1]، **ومختصر شعب الإيمان** لأبي جعفر عمر القزويني.

---

(1) البيهقي، **الأسماء والصفات**، تحقيق عبد الرحمن عميرة، مقدّمة المصحح.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

عناوين الكتاب التي يبلغ عددها 77 عنواناً، تصبّ في الغالب في دائرة «أخلاق العبودية». وبصورة عامة فإنّ العبودية للّه سبحانه وتعالى، والاهتمام بالتكاليف والواجبات الملقاة على عاتق الإنسان من قبل خالق الكون، يشكّل المحور والروح العامة، التي تهيمن على الكتاب بأبوابه كافة. ففي الأبواب الثلاثة والثلاثين الأولى نجد أنّ العناوين ذات الصلة بأخلاق العبوديّة حاضرة بقوة، وإن كانت عناوين من قبيل: «طلب العلم الصحيح»، «نشر العلم النافع»، «الطهارة»، «الزكاة»، و«الجهاد»، «الوفاء بالعقود»، «الإخلاص»، هي الأخرى موجودة، كما يمكننا ملاحظة الأخلاق الفرديّة والاجتماعية أيضاً.

وفي ما يتعلّق بالأخلاق الفرديّة، يمكننا ملاحظة العناوين التالية: «التورّع في المطاعم والمشارب»، «تحريم الملابس والزيّ والأواني المخالفة للشرع»، «تحريم الملاعب والملاهي المخالفة للشرع»، «السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة»، «الحياء»، «الزهد وقصر الأمل» و«الصبر على المصائب وعما تنزع النفس إليه من لذة وشهوة».

وأمّا العناوين المرتبطة بأخلاق الأسرة، فهي كالتالي: «برّ الوالدين»، «صلة الأرحام»، «الإحسان إلى المماليك»، «حق السادة على المماليك»، «حقوق الأولاد والأهلين»، «الغيرة وترك المراء» و«الاقتصاد في النفقة».

وأمّا العناوين المتعلّقة بالأخلاق الاجتماعيّة، فمنها: «الثبات للعدو وترك الفرار»، «حفظ اللسان»، «أداء الأمانات»، «تحريم قتل النفوس»، «تحريم الفروج»، «قبض اليد عن الأموال»، «تحريم الوقوع في أعراض

الناس»، «طاعة أولي الأمر»؛ (طبعاً بناء على التفسير الذي يرتأيه المؤلّف في هذا العنوان، يصنّف ضمن عناوين الأخلاق الاجتماعيّة. وذلك باعتبار أنّه يرى أنّ إطاعة أولي الأمر بمعنى إطاعة قيادات الجيش أو مطلق الأمراء)، «التمسّك بما عليه الجماعة»، «الحكم بين الناس بالعدل»، «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، «التعاون على البر والتقوى»، «حسن الخلق»، «مقاربة أهل الدين ومودتهم»، «عيادة المريض»، «إصلاح ذات البين» وغير ذلك من العناوين. وإذا أردنا جدولة أبواب الكتاب، بناءً على وفرة العناوين في كلّ مجال من مجالات الأخلاق الإسلاميّة، ستكون النتيجة بالشكل التالي:

1 ـ أخلاق العبوديّة؛ 2 ـ الأخلاق الاجتماعيّة؛ 3 ـ الأخلاق الفرديّة. 4 ـ أخلاق الأسرة.

5 ـ هيكليّة الكتاب ونظام الأحاديث

في ضوء الحديث النبويّ الشريف الذي أشرنا إليه سابقاً، ألّف الحلبي كتابه **منهاج الدين** في 77 باباً، وخصّص كلّ باب لبيان شعبة من شعب الإيمان. وعلى هذا المنوال وبالترتيب نفسه تماماً، كتب البيهقي كتابه **شعب الإيمان**. إذ أورد فيه مجموعة كبيرة من الأحاديث والآثار المرويّة عن الرسول الأكرم (ص) وصحابته.

والملاحظ أنّ كتاب **شعب الإيمان**، لا يبتني على نظام وترتيب منطقيّ محدد. غاية الأمر أنّ ثمة رواية عن الرسول الأكرم محمّد (ص) تقرّر أنّ «الإيمان على شعب»، جعلها محوراً للكتاب. وبما أنّ الرواية لم تذكر شعب الإيمان على سبيل الاستقصاء، لذا شرع المؤلّف بالبحث

والتنقيب في الآيات والروايات، فاستطاع أن يحشد حوالي 77 شعبة، وراح يورد إيضاحاته وتصوّراته عن الصفة، أو الخصوصيّة، الواردة ضمن كلّ شعبة من هذه الشعب. ويبدو من العناوين التي أوردها في بداية الكتاب أنّه كان بصدد التأكيد على وجود علاقة منطقيّة بين الإيمان بالله تعالى ويوم القيامة وأصول الدين من جهة، وبين الأعمال الفرديّة والاجتماعيّة للإنسان من جهة أُخرى. إلّا أنّ على القارئ أن لا يتعب نفسه في اكتشاف العلاقة بين أبواب الكتاب.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ القارئ لعناوين كتاب **شعب الإيمان** يتبادر إلى ذهنه أنّ البيهقي في كتابه هذا، قد تطرّق إلى جملة من البحوث الكلاميّة والفقهيّة. ولكن إذا راجعنا متن الكتاب نجد أنّ الغرض الذي يرنو إليه المؤلّف، من العناوين الكلاميّة (نظير الإيمان بالله والكتاب والرسل)، أو العناوين الفقهيّة (من قبيل الصلاة والصيام والخمس والزكاة)، هو بيان ما تتضمّنه من معاني ونقاط أخلاقيّة في الدرجة الاولى وإن كانت لا تخلو من بعض الإثارات الفقهيّة والكلاميّة بما يخدم المناسبة.

ويتضمّن كتاب **شعب الإيمان** 11269 حديثاً غير مكرّر، وحوالي 300 حديث مكرر. وقد حرص البيهقي، إلى جانب ذكره لأسانيد الروايات بالكامل، على نقل كلام وإيضاحات أبي عبد الله الحليمي كاملة. وقد يضيف عليها بعض التعليقات أو الشرح، في الموارد التي تقتضي ذلك.

6 ـ التطابق بين العناوين ومضمون الأحاديث

على الرغم من أنّ المؤلّف أخذ على نفسه التفصيل في ما يبحثه من

عناوين واستحداث عناوين فرعيّة وجزئيّة كثيرة تحت العناوين الكليّة، إلا أنّه في بعض الأحيان يخرج عن محلّ البحث، ويورد أحاديث لا تتناسب كثيراً مع العنوان الأصلي المختار. والظاهر أنّ موسوعة **شعب الايمان الكبيرة**، لا يوجد فيها عنوان لا ينطبق على الموضوعات المبحوثة تحت ذلك العنوان. نعم، الأحاديث المدرجة هي الأخرى يمكن أن نجد صلة بينها وبين ذلك العنوان العام ولو بصورة غير مباشرة.

7 ـ وثاقة الكتاب

يحظى كتاب **شعب الإيمان** بدرجة عالية من الاعتبار لدى أهل السنّة، وذلك باعتبار أنّ أصحاب الحديث يعدّون البيهقي من حفاظ الحديث. وقد اتفقت كلمتهم على عدّ جميع مؤلّفاته من أفضل المؤلّفات وأكثرها فائدة[1]. وإن كان بعض أخذ عليه أنه لم يكن يحتفظ ببعض الجوامع الروائيّة المشهورة، من قبيل: **سنن النسائي**، و**سنن ابن ماجة**، و**سنن الترمذي**، وبالتالي لم يُنقل منها، إلّا أنّ عدم الإستفادة هذه لاتعدّ منقصة كبيرة خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يمتاز به البيهقي من خبرة عالية في الحديث، إلى جانب ما يحظى به من ذهنيّة نقادة وحافظة قوية جداً[2].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ مسلك علماء أهل السنّة، في علم الرجال ودراية الحديث، يختلف كثيراً عن مسلك علماء الشيعة. وعلى من أراد التفصيل في ذلك، الرجوع إلى مباحث علم الرجال والدراية.

---

(1) أحمد بن مصطفى طاش كبريزاده، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، ج 2، ص 125 ـ 126.

(2) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 2، ص 10 ـ 11.

8 ـ التقييم النهائي

لا شك في أنّ الفكرة العامة للكتاب والتي استوحاها المؤلّف من الحديث النبويّ الشريف حول الأخلاق الإيمانيّة وتقسيمها إلى شعب ومراتب مختلفة، تُعدّ فكرة رائعة وفي غاية الأهميّة وإن كنّا في بعض الموارد لا نجد مناسبة واضحة بين بعض أبواب الكتاب والتي يبلغ عددها 77 باباً. كما نلاحظ نوعاً من التشتت، في بحث الموضوعات، في كلّ الأبواب.

ونشير هنا إلى أنّ الكتاب اهتمّ بتغطية جميع العناوين الأخلاقية تقريباً، إذ تطرّق إلى جميع الموضوعات الأخلاقيّة في المجالات كافة، أعم من أخلاق العبوديّة، والأخلاق الفرديّة، والأخلاق الاجتماعيّة، وأخلاق الأسرة. نعم، يوجد تأكيد أكبر على أخلاق العبوديّة، لدرجة أنّ سائر العناوين والموضوعات قد اتّسمت بطابع هذا اللون من الأخلاق. ويمتاز قلم المؤلّف بأنه قلم سلس وواضح وبليغ. وأمّا من حيث الوثاقة، فإن الكتاب استند إلى مصادر وإرجاعات مهمّة وقيّمة، استناداً إلى المباني الرجالية والحديثية لأهل السنّة.

2

شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

مؤلّف الكتاب، أبو محمّد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (660 ـ 577 هـ)، فقيه وقاضٍ وخطيب، شافعي المذهب، عُرف عنه أنه صوفيّ المسلك، كما عُدّ من الشخصيات السياسيّة في عصره. وُلد في دمشق ونشأ وترعرع فيها. وهناك نبغ في الفقه الشافعي واشتغل بالتدريس. ارتهنت الفترة التي عاشها ابن عبد السلام، باضطرابات وفتن اجتاحت بلاد الشام ومصر، فمن جهة كانت البلاد تواجه حملات الجيوش الصليبيّة، ومن جهة أخرى كانت تعاني في الداخل صراعاً احتدم أواره بين الأيوبيين حول تقاسم الحكم والسلطة في تلك المناطق. في زحمة تلك الفتن، كان لتدخّله في الأمور السياسيّة، ووقوفه بوجه الشخصيّات المتنفّذة، وتصدّيه لجيوش الروم، وإصراره على آرائه الفقهية، أموراً جعلت منه شخصيّة بارزة يحسب لها حسابها.

(1) العز بن عبد السلام (ت 660 هـ)، **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**، تحقيق أياد خالد الطباع، دمشق، دار الفكر، 1416 هـ ـ 1996 م، ج 2، عدد الصفحات 576 صفحة، قطع وزيري (الفهارس 96 صفحة).

شغل ابن عبد السلام منصب إمامة الجمعة في دمشق، لفترة من الزمن. وإبّان تلك الفترة، أصدر فتوى بحرمة بيع السلاح إلى الصليبيّين، ولعن جيوش الكفر في نهاية الخطبة، وإثر موقفه هذا، أُدخِلَ السجن لمدة من الزمن، وبعد إطلاق سراحه ذهب إلى بيت المقدس. وفي مصر شغل، لفترة من الزمن، منصب القضاء والخطابة، وتوفي هناك. وكان على درجة من المنزلة والمكانة الرفيعة، بحيث أقيمت عليه صلاة الغائب لأيام عدّة، في دمشق وكلّ الديار الإسلاميّة في مصر والشام وحتى المدينة ومكة واليمن.

ويذكر أنّ لعبد السلام ميولاً صوفية، إذ كان يحضر درس شهاب الدين السهروردي ودرس عنده **الرسالة القشيرية**، وهو الذي ألبسه خرقة التصوف. ولم تتّسم نظرته إلى محيي الدين بن عربي بالإيجابية، إذ كان يعيب عليه بعض الأمور.

إلى جانب هذا الكتاب، أُثر عن المؤلّف الكثير من الكتب، طُبع أغلبها. وإليك بعضها:

الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، بداية السول في تفضيل الرسول، حلّ الرموز ومفاتيح الكنوز (في التصوّف)، **الفوائد في مشكل القرآن، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، الفرق بين الإيمان والإسلام، فوائد البلوى والمحن**، و**مختصر رعاية المحاسبي** أو **مقاصد الرعاية لحقوق الله** (مخطوط)[1].

---

(1) ابن شاكر، **فوات الوفيات**، ج 2، ص 350؛ السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 5، ص 80؛ الأسنوي، **طبقات الشافعية**، ج 2، ص 84؛ المقريزي، **السلوك**، ج 1، ص 1308؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 33، ص 42؛ ابن ملقن، **طبقات الأولياء**، ص 470.

تجدر الإشارة إلى أنّ اسم هذا الكتاب، في إحدى النسخ الخطيّة، هو **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال**. ولكن نظراً إلى أنّ المؤلّف، في موارد كثيرة من الكتاب، قد عطف الأعمال على الأقوال، لذا من الأرجح أن يكون العنوان أيضاً هو «صالح الأقوال والأعمال» وحذف مفردة «الأقوال» من عنوان تلك المخطوطة من سهو النسّاخ.

وأمّا نسبة الكتاب إلى المؤلّف، فهي الأخرى لا مجال للارتياب فيها. وقد أورد محقّق الكتاب ـ أياد خالد الطبّاع ـ في مقدّمة التحقيق شواهد تاريخيّة عدّة، تؤكّد بوضوح انتساب الكتاب إلى العزّ بن عبد السلام[1]. ويمكن تأكيد هذه النسبة من خلال مقارنة الكتاب مع سائر مؤلّفات الكاتب، إذ نستكشف وجود وجه اشتراك في أسلوب البيان المتبع في جميع هذه الكتب.

2 ـ النسخ والطبعات

طُبع هذا الكتاب عام 1411 هـ في كلّ من دمشق وبيروت، من قبل دار الفكر. وهنا يقول أياد خالد الطبّاع إنه على الرغم من كلّ الجهود التي بذلها، لم يعثر إلّا على ثلاث نسخ مخطوطة للكتاب، موجودة في مكتبات العالم؛ منها نسخة يعود تاريخها إلى عام 647 هـ في حياة المؤلّف. وهي محفوظة في مكتبة برلين برقم 2304، والملاحظ أنّ هذه النسخة فيها شيء من النقص. أما النسخة الأخرى فيعود تاريخ تحريرها إلى أواخر عمر المؤلّف وبالتحديد عام 655 هـ، وقد جُمعت في مجلّد

(1) العز بن عبد السلام، **شجرة المعارف**، ص 42.

واحد مع ست رسائل أخرى، وهي الآن موجودة في الأسكوريال برقم 1536 ـ كتبت بخط رديء وفيها تكرار، وتصحيف، وتحريف؛ لكنها ـ مع كلّ ذلك ـ هي النسخة الوحيدة الكاملة. وأمّا المخطوطة الثالثة فتُعتبر. ناقصة ويعود تاريخها إلى القرن العاشر. وهي التي كانت عند المحقق.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

لم نعثر على أيّ جهد مكتوب ذو صلة بالكتاب، لا ترجمةً، ولا شرحاً، ولا تلخيصاً ولا نقداً. نعم، نقل كلّ من الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتاب **فتح الباري**[1] وأيضاً المناوي في **فيض القدير**[2] ـ وهما شرحان لصحيح البخاري ـ، بعض الروايات عن هذا الكتاب.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

استطاع كتاب **شجرة المعارف** أن يغطّي جميع العناوين الأخلاقيّة، في كل من المجالات الأخلاقيّة الأربعة، أي أخلاق العبوديّة، الأخلاق الفرديّة، أخلاق الأسرة، والأخلاق الاجتماعيّة. واللاّفت للنظر أنّ الكتاب أورد العناوين المرتبطة بأخلاق الأسرة، ضمن أكثر من عشرين باباً. من هذه العناوين: في رحمة العيال والأطفال، في اجتناب ضرب الخدم والنساء، في مواساة الأهل، في إسراع القفول إلى الأهل، في خدمة الرجل أهله، في خدمة المرأة زوجها في ما لا يلزمها، في الإحسان إلى البنات، وفي استخدام الأولاد والأصحاب. وتجدر الإشارة

(1) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج 10، ص 457.
(2) المصدر نفسه، ج 6، ص 79.

إلى أنّ الكتاب تضمّن عناوين تتعلّق بأخلاق التعامل مع الحيوانات والبيئة أيضاً.

5 ـ هيكليّة الكتاب ونظام الأحاديث

يشتمل كتاب **شجرة المعارف والأحوال** على مقدّمة وعشرين باباً. وتمتاز المقدّمة بأهميّة خاصة لما تضمّنته من إثارات جديدة وملاحظات مبتكرة. وقد نجح المؤلّف في إبراز قدراته الفكريّة، كما أبدى انضباطاً جيداً في ممارسته لعمليّة التفكير، وذلك من خلال ما امتاز به من بيان سلس وشيّق وموجز. وإليك عناوين بعض البحوث الواردة في المقدّمة:

1 ـ صلاح القلب والبدن وفسادهما، وهو على قسمين: قاصر ومتعدٍّ. ويُراد بالقاصر: ما إذا كان القلب أو البدن يتّصف بصفة معيّنة، من دون أن يكون له أثر على الآخرين، من قبيل المعرفة أو الشك بالنسبة إلى القلب والجوع، وكثرة الأكل بالنسبة إلى البدن. والمتعدّي: نظير إرادة الجود أو إرادة الظلم بالنسبة إلى القلب (أي الروح) والإحسان، أو البهتان بالنسبة إلى الجسم. وربما يكون المؤلف هو أول من استخدم هذين المصطلحين.

2 ـ الأوامر والنواهي الإلهيّة تدور مدار المصالح والمفاسد، في الدنيا والآخرة معاً أو في أحدهما. ويُراد بالمصلحة اللذّة، أو المتعة، أو السبب المؤدّي إليهما. وأما المفسدة، فهي عبارة عن الألم، أو الغم، أو ما يتسبّب في حصولهما. وإذا تساوى طرفا المصلحة والمفسدة في عمل من الأعمال، يكون الإنسان مختاراً في الإتيان أو الترك.

3 ـ الصفات الإلهيّة على نوعين: صفات خاصة وصفات مشتركة.

والصفات المشتركة على قسمين: منها ما لا يجوز للإنسان التخلّق بها، مثل العظمة والكبرياء، ومنها ما يجوز للإنسان التخلّق بها وبذلك أمرت الشريعة، من قبيل: الجود، والحياء، والحلم، والوفاء. إذن، الأخلاق القرآنية هي التخلّق ببعض الصفات الربوبيّة، إلى جانب التخلّق بخصائص العبوديّة، نظير: الذلّة، والمسكنة، والاعتراف بالتقصير.

4 ـ تشرّف الأعمال الظاهريّة والباطنيّة، بأنفسها ومتعلّقاتها وثمراتها، وبما هي وسيلة آليّة وحادثة عليه.

5 ـ أفضل الأعمال الإنسان معرفة الذات والصفات الإلهيّة؛ وذلك لأن متعلّقها أشرف المتعلّقات، وثمرتها أفضل الثمار.

6 ـ الوسائل والأسباب تتبع المقاصد في الأحكام. فالوسائل المؤدّية إلى الحَسَن حسنة والوسائل المؤدّية إلى القبيح قبيحة. فالشيء الواحد إذا تسبّب في صلاح فهو، من هذه الجهة، أمر جيد ومستحسن، وإذا قُصِد منه سوء فهو سيّء وقبيح.

7 ـ أحبّ عباد الله تعالى إليه وأكرمهم عليه، العارفون بما يستحقّه مولاهم من أوصاف الجلال ونعوت الكمال، إن نظروا إلى جلاله هابوه وفنوا، وإن نظروا إلى جماله أحبّوه وضنوا.

8 ـ أسباب الفضائل على قسمين: اكتسابيّة وغير اكتسابيّة؛ غير الاكتسابيّة نظير: العقل، الصفات الكريمة المغروزة في داخل الإنسان، المعارف الإلهيّة وكرامات النبوّة والرسالة. والاكتسابيّة مثل: معرفة الله، وما يترتّب على معرفة ذاته وصفاته من حالات، الأقوال التي توجب القرب من الله، الطاعات، الورع من المنهيات

والمشتبهات والمكروهات، وكذلك المباحات التي تشغل الإنسان عن ذكر الله.

9 ـ معرفة الذات الإلهيّة كشجرة طيبة، فرعها معرفة الصفات، وثمارها الأحوال والأقوال والأعمال الصالحة. منبت هذه الشجرة هو قلب الإنسان، غرسها بالتفكّر، تعاهدها بالتقوى وصونها بالاستقامة. هذه الشجرة لها ثلاثة فروع: معرفة الصفات السلبيّة، معرفة صفات الذات ومعرفة صفات الفعل. إذن المعرفة هي أصل كلّ الخير ومصدر جميع الأعمال الصالحة.

أبواب الكتاب حسب الترتيب كما يلي:

1 ـ في التخلّق بصفات الله تعالى على حسب الإمكان.

2 ـ في كيفيّة التخلّق بالأسماء والصفات.

3 ـ في ما تشتمل عليه القلوب من الصفات والأخلاق.

4 ـ في ما يتعلّق بالقلوب والجوارح من الأحكام.

5 ـ في المأمورات الباطنة.

6 ـ في المنهيات الباطنة

7 ـ في الإحسان العام.

8 ـ في ضروب من الإحسان المذكور في كتب الفقه.

9 ـ في الإحسان بإسقاط الحقوق.

10 ـ في الإحسان ببذل الأموال.

11 ـ في الإحسان بالأخلاق والأعمال.

12 ـ في الإحسان بالأقوال.

13 ـ في الإحسان بالدعاء القاصر والمتعديّ.

14 ـ في المناهي الظاهرة.

15 ـ في المأمورات الظاهرة.

16 ـ في فوائد متفرّقة.

17 ـ في الإحسان المتعلّق بالجهال.

18 ـ في تعريف المصالح والمفاسد وما يتقدّم منها عند التعارض.

19 ـ في حسن العمل بالظنون الشرعيّة.

20 ـ في الورع.

يشرع المؤلّف، في المقدّمة بذكر أسباب التقرّب، والآداب القرآنيّة، والأعمال الفاضلة الباطنة والظاهرة، والأسباب الموصلة إليها، كما يبين فائدة المعارف والعلوم الدينيّة وثمرتها وكيف يمكن استثمار هذه العلوم في تحصيل الفضيلة والسعادة؟ وفي الباب الأول والثاني، يبحث ضرورة التحلّي بصفات الباري تعالى وكيفيّة ذلك. ثم يفصّل في الحديث عن «أقسام الصفات والأسماء الإلهيّة» ومعنى التخلّق بكلّ واحد منها. وفي البابين الثالث والرابع، يتعرّض المؤلّف إلى بيان تصوّراته عن الإنسان، بما فيها صفات وأحكام القلب والتي بها قوام الإنسان وهويته.

ويختصّ البابان الخامس والسادس، ببحث الأوامر والنواهي المتعلّقة بباطن الإنسان ـ أي الأمور الجوانحيّة. وفي الأبواب السبعة التي تليهما (أي من الباب السابع وحتى الباب الثالث عشر ثم الباب السابع عشر) بحث المؤلّف أنواع الإحسان وأقسامه، لذا يمكن تسمية هذه

الأبواب السبعة بـ «إحسانيّات الكتاب». بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن المنهيات والأوامر المتعلّقة بالسلوك الظاهريّ للإنسان. وفي الخاتمة يخصّص باباً لبحث جملة نقاط وإثارات، تتعلّق بهذه البحوث.

ويطرح المؤلّف في البابين اللّذين يسبقان الباب الأخير (الباب الثامن عشر والباب التاسع عشر) جملة بحوث معرفيّة هامة، لا بدّ من الاطّلاع عليها قبل الدخول إلى ميدان العمل. يعنى الباب الثامن عشر بالحديث عن الحلّ العملي فيما إذا حدث تزاحم بين أمرين أخلاقيّين، والذي يكمن في معرفة المهمّ والأهمّ من المصالح والمفاسد. وفي الباب التاسع عشر يسجّل اعترافه الرسمي بـ «الظنّ الشرعي»، ويتحدّث عن ضرورة العمل على أساسه. وأمّا الباب العشرون فيبحث فيه «الورع» ضمن ثلاثة فصول.

وفي نظرة عامة إلى تقسيمات الكتاب وترتيب الأبواب، يمكن القول إنّ بحوث الكتاب جاءت متسلسلة، ضمن محاور متّصلة، أحدها يُفضي إلى الآخر، قد انتظمت في ما بينها ضمن منطق محدّد. ولكن مع ذلك ثمة إشكالات وملاحظات تتبادر إلى الذهن، نذكر منها:

أولاً: يفتقر الكتاب إلى بحث حول ضرورة التخلّق بصفات الله وأسبابها، الأمر الذي يُفترض أن يطرح ضمن فصل خاص وعنوان مميّز.

ثانياً: أسقط المؤلّف الباب الثالث والباب الرابع، من الترقيم العام للفصول، إذ نجد أنّ نهاية الباب الثاني قد اتصلت ببداية الباب الخامس

في ترقيم الفصول. والحال أنّ النظام العام للكتاب قائم على أساس مجال عام يتضمّن محاور خاصة عدّة، تنقسم بدورها إلى فصول عدّة، مع أننا لا نجد فصولاً في البابين المذكورين.

ثالثاً: لم يذكر المؤلّف السبب في تقديم الأوامر المتعلّقة بالأمور الباطنة (في البابين الخامس والسادس واللّذين يبحثان المأمورات والمناهي الباطنية)، على أبواب الإحسان، وتأخير الأوامر المتعلّقة بالأمور الظاهرية (المأمورات والمنهيات الظاهرة، في البابين 14 و15) عن أبواب الإحسان. إذ كان الأولى تحديد وتصنيف جميع الأوامر (ونقصد بالأوامر ما هو أعمَّ من المناهي والمأمورات)، من ثم الدخول بشكل تفصيلي في مقولة «الإحسان» وأنواعه.

رابعاً: كان من المنطقيّ أكثر، تقديم البحوث المتعلّقة بالمنهجيّة، في البابين التاسع عشر والعشرين، قبل الدخول في مصاديق المأمورات والمنهيات والإحسان، لتكون ممهّدة لبحوث هذين البابين.

خامساً: لم يتّضح بعد للقارئ، ما هي الضرورة التي استدعت المؤلّف إلى تخصيص باب مستقلّ لموضوع واحد، أي موضوع «الورع» وبهذا النحو، إذ أفرده لوحده في نهاية الكتاب.

6 ـ التطابق بين العناوين ومضمون الأحاديث

يمتاز كتاب **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال** بالدقّة، من حيث تطابق عناوين الفصول مع الآيات، والروايات، والمضامين. فالأحاديث والروايات جاءت متناسبة ومتطابقة، مع الفصل

والعنوان اللّذين اندرجت تحتهما، إلّا في موارد نادرة أغفلت فيها المطابقة[1].

7 ـ وثاقة الكتاب

يلاحظ أنّ المباني والأُسس الحديثيّة والرجاليّة، للمدرستين الشيعيّة والسنيّة، لا تتفق في ما بينها في جميع الموارد. وحول كتب الحديث لدى أهل السنّة، توجد آراء ونظريّات مختلفة ومتباينة؛ لذا فإنّ الحديث عن اعتبار ووثاقة هذا الكتاب يختلف باختلاف تلك المباني. ونظراً إلى أنّ أكثر الروايات الواردة فيه موجودة أيضاً في صحيح البخاري وصحيح مسلم، ولذا فإنّ الكتاب يحظى بدرجة عالية من الاعتبار والوثاقة لدى أهل السنّة. وإن كان بالإمكان التأكّد من صحة صدور الحديث من خلال دراسة مضمون الحديث وإرجاعه إلى الأحاديث الأخرى التي تتّحد معه في المضمون، وتشكّل مؤيّدات وشواهد على وثاقته.

8 ـ التقييم النهائي

يحظى كتاب **شجرة المعارف والأحوال** بمكانة خاصة ومميّزة، بين المصادر السنّية التي تُعنى بالاتجاه الأثري للأخلاق الإسلامية. لقد بذل المؤلّف اهتماماً وافراً بتحديد الخطوط العامة للأخلاق الإسلاميّة في ضوء رؤيّة كونيّة توحيديّة، كما توافر على صياغة فنيّة ودقيقة لكيفيّة

(1) على سبيل المثال يمكن الإشارة إلى الباب الخامس «المأمورات الباطنة» و«فصل في النظر في سالف الأعمال ليتوب منها»، إذ أوردت الآية 201 من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ في ثنايا هذا الفصل، مع أنها لا تمتّ إلى عنوان الفصل بِصلة.

التأثير الذي يتركه الاعتقاد بالله تعالى على أخلاقيات الإنسان. وبالتالي استطاع أن يخرج برؤية صحيحة، في ما يتعلّق بمعرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته. وكل هذه الأمور ساهمت في ما بينها في إضفاء عمق توحيديّ وطابع توحيديّ، على كتاب ابن عبد السلام، ما جعله ـ أي الكتاب ـ مورد اهتمام الباحثين.

وبكلمة، كان الكتاب موفّقاً في تغطية وإشباع العناوين الأخلاقيّة والأسلوب الذي اختاره المؤلّف في تجميع النصوص القرآنيّة والروائية الكثيرة وتنظيمها، أسلوب مقبول ومناسب إلى حدّ ما ويخضع لمنطق محدد. وأمّا بيان المؤلّف، فهو بيان علميّ ومتقن. وفي ما يتعلّق بالوثاقة، فإن الكتاب، وإن لم يكن ـ بناءً على المباني الرجاليّة والحديثيّة لأهل السنّة ـ من المصادر الأمُ، في مجال الأخلاق الأثريّة، ولكنه على كلّ حال يحظى بدرجة عالية من الوثاقة والاعتبار.

تعريف إجمالي بمصادر أخرى

بعد هذا التجوال في كتب ومصادر الأخلاق الروائية عند أهل السنّة، نرى من المناسب أن نلقي نظرة عابرة على مجموعة أخرى من كتبهم الروائية. والملاحظ في هذهِ المجموعة أنها لا ترقى في أهميّتها إلى الكتب التي تمّ التعريف بها سابقاً، نظير كتاب **شعب الإيمان** وكتاب **شجرة المعارف**، من هنا ارتأينا أن يكون التعريف بهذه المجموعة إجمالياً وبشكل مختصر. وفي هذا السياق سنتناول الصحاح الستة التي تعدّ من أهم المصادر الحديثيّة لدى أهل السنّة، إذ يرون أنها تأتي تلو القرآن الكريم، وأنها المصدر الأهمّ لفهم الدين بعد كتاب الله العزيز. ولمّا كانت أحاديث وموضوعات كتب الصحاح يغلب عليها الطابع الفقهيّ، وغالباً ما تختصّ بعناوين فقهيّة، إذن لا يمكننا أن نعدّها من المصادر الأخلاقيّة. ولكن نظراً إلى الأهميّة البالغة التي تحظى بها هذه الكتب لدى أتباع مدرسة السنّة وكثرة مراجعتهم واستنادهم إليها، رأينا أنّ من الضرورة بمكان أن نقوم إشارة ولو إجمالية، إلى مضمونها الأخلاقي.

الأول: صحيح البخاري[1]

صحيح البخاري، من تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي (ت 256 هـ)، وهو من أوثق كتب الحديث عند أهل السنّة، كما إنّ الترتيب الذي يعتمده، يأتي على منوال الترتيب الموجود في الأبواب الفقهيّة. والملاحظ أنّ أغلب الأحاديث الأخلاقيّة الموجودة في هذا الكتاب، تتركّز في جزأين، هما: الجزء الأول «كتاب الإيمان»، والجزء الثامن ويتضمّن الكتب التالية: «كتاب الأدب»، «كتاب الاستئذان»، «كتاب الدعوات»، و«كتاب الرقائق».

وتجدر الإشارة إلى أنّ أحاديث صحيح البخاري في هذا المضمار، لم تستوفِ أيّاً من المحاور الأخلاقيّة، أعني: أخلاق العبوديّة، الأخلاق الفرديّة، الأخلاق الأسريّة، والأخلاق الاجتماعيّة. كما تجدر الإشارة إلى أنّ البخاري أورد سلسلة السند من دون أن يعلّق عليها.

الثاني: صحيح مسلم[2]

المؤلّف هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيشابوري (206 ـ 261 هـ). والكتاب، من حيث الوثاقة والاعتبار، يأتي في الدرجة الثانية بعد صحيح البخاري، وهو يعتمد في ترتيبه العام، الترتيب المتداول في

---

(1) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ)، **صحيح البخاري**، تحقيق مصطفى ديب البغا، دمشق/ بيروت، دار ابن كثير، 1993م ـ 1414 هـ، ط 5، 7 مجلدات: ي + 2749 + 327 ص، قطع رحلي.

(2) مسلم بن حجاج القشيريّ النيشابوريّ (261 ـ 206 هـ)، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، 1398 هـ، ط 2، 5 مجلّدات، 23 ـ 24، قطع وزيري + 602 ص فهارس.

الأبواب الفقهيّة، ولكنّ الملاحظ أنّ مسلم يولي أهميّة للأحاديث الأخلاقيّة أكثر من البخاري، وهذا ما نجده في كلّ من الكتب التالية:

المجلّد الأول: «كتاب الإيمان». المجلّد الرابع: «كتاب اللباس والزينة»، «كتاب الآداب»، و«كتاب السلام». المجلّد الخامس: «كتاب البر، والصلة، والآداب»، «كتاب الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار»، «كتاب التوبة» و«كتاب الزهد والرقاق».

الثالث: سنن الترمذي[1]

مؤلّفه هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (209 ـ 279 هـ)، والترتيب العام المعتمد فيه في الغالب، يأتي على منوال الأبواب الفقهية.

في المجلّد الرابع والخامس، نقرأ العناوين الأخلاقيّة التالية: في المجلّد الرابع: كتاب البر والصلة (مع التأكيد على الأخلاق الاجتماعيّة) وكتاب الزهد. وفي المجلّد الخامس: كتاب الإيمان، وكتاب العلم، وكتاب الاستئذان، وكتاب الآداب (مع التأكيد على الآداب الإسلاميّة)، وكتاب الدعوات.

الرابع: سُنن النسائي[2]

المؤلّف أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي[3] (215 ـ 303 هـ)

---

(1) محمد بن عيسى بن سورة (297 ـ 209 هـ)، **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، تحقيق أحمد محمد شاكر وشرحه، بيروت، دار إحياء التراث العربي [بلا تاريخ]، 5 مجلّدات: 104 + 475 + 536 + 700 + 756 + 784 ص، قطع وزيري.

(2) أحمد بن شعيب النسائي (303 هـ)، **النسائي** (بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي)، بيروت، دار الفكر، 1348 هـ، ط 2، 4 مجلّدات: 244 + 255 + 280 و337 ص قطع وزيري.

(3) نسا، مدينة في إقليم خراسان القديم وتقع بين سرخس، ومرو، ونيشابور، وابيورد.

وهو شافعي المذهب، عرف عنه أنه كان متشدداً في جمعه للروايات الصحيحة، ومن هنا كان كتابه أحد الكتب الستة الحديثية المعتبرة لدى أهل السنّة.

يتألّف الكتاب من ثمانية أجزاء. وتبدأ أبوابه من كتاب الطهارة وبالترتيب المتعارف عليه لأبواب الفقه. وتقع أغلب الأحاديث الأخلاقيّة لهذا الكتاب في الجزء الثامن وضمن «كتاب الإيمان»، و«كتاب الزينة»، و«كتاب الاستعاذة»، وعلى كلّ حال فإنّ نصيب الكتاب، من حيث الموضوعات الأخلاقية، قليل جداً.

الخامس: سُنن أبي داود[1]

مصنّف هذا الكتاب هو سليمان بن الأشعث السجستاني (202 ـ 275 هـ)، المعروف بأبي داود. وينقل محمد بن عبد العزيز عنه، أنّ الباعث الأساس الذي حمله على تأليف الكتاب، هو جمع أحاديث الأحكام، ولم يكن بصدد ذكر الفضائل الأخلاقيّة. إلّا أنه في خاتمة الجزء الأخير، وتحت عنوان «كتاب الأدب»، تناول بعض الموضوعات الأخلاقيّة في ما يرتبط بالأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية. والملاحظ أنّ أغلب هذه الموضوعات، ما عدا موارد قليلة جداً، مأخوذة عن الرسول الأكرم محمد (ص).

تُعدّ سُنن أبي داود المجموعة الروائيّة الثالثة المعتبرة لدى أهل السنّة. وتوجد تعليقات مختصرة جداً لأبي داود على بعض الروايات.

---

(1) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (202 ـ 275هـ)، سُنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس (مع كتاب معالم السُنن للخطابي)، سورية، دار الحديث، 1969م ـ 1388 هـ، ط 1، 5 مجلّدات: 726 + 863 + 861 + 740 + 791 ص، وزيري.

السادس: سُنن ابن ماجة[1]

مؤلّف الكتاب، هو أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، المعروف بابن ماجة (207 ـ 275 هـ). أحاديث هذا الكتاب أيضاً، تم ترتيبها في ضوء الترتيب المتّبع في الأبواب الفقهيّة، وعموماً، فإنّ الأحاديث المتعلّقة بالأخلاق قد وردت في نهاية الجزء الثاني من الكتاب، وتحت العناوين التالية:

«كتاب اللّباس»، «كتاب الأدب»، «كتاب الدعاء»، و«كتاب الزهد». وقد أورد ابن ماجة في كتابه هذا أسانيد الروايات بشكل كامل، مع إيضاحات موجزة حول سند بعض الأحاديث ورجالها.

وقراءة عابرة للكتاب تكشف عن أنّ روايات هذا الكتاب لم تستوف الموضوعات الأخلاقيّة بشكل كامل وإنما تناولت بعض العناوين الأخلاقيّة.

السابع: كتاب الزهد[2]

الكتاب في الأصل عبارة عن مجموعة روايات الحسن بن الحسن المروزي، عن عبد الله بن المبارك، تم تدوينها في 11 جزءاً و48 باباً وتضمّ 1627 حديثاً. وتوجد نسخة أخرى من الكتاب كانت لدى نعيم بن حماد، تضم 436 رواية إضافية وقد طبع الكتابان معاً.

---

(1) محمد بن يزيد ابن ماجة (207 ـ 275هـ)، **سُنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1395 هـ، ط 1، 2 ج، 1566 ص، قطع وزيري.

(2) عبدالله بن المبارك المروزي (181 هـ)، **كتاب الزهد**، الإسكندريّة، دار ابن خلدون، [بلا تاريخ]، 472 ص، قطع وزيري.

وتمتاز أحاديث هذا الكتاب بأنّها أخلاقيّة بتمامها، وتوزّعت على موضوعات متنوّعة بشكل جيد ومناسب. وهذا الكتاب الروائي وإن كان قديماً ولا نتوقّع أن يأتي مستوعباً وشاملاً لكلّ الموضوعات كما هو حال الكتب القديمة لكن هذا لا يمنع من تسجيل هذه الملاحظة عليه، وهي كونه لا يخضع لترتيب أو نظام واضح ومحدّد بين أجزاء وأبواب الكتاب. ويبدو أنّ المؤلّف، كسائر معاصريه من المحدّثين، قام بجمع عدد من الأحاديث، ذات الموضوع المشترك ضمن عنوان واحد، إلّا أنه لم يول مزيد اهتمام لمسألة التناسق والانسجام المطلوب الذي ينبغي أن يكون حاكماً على الكتاب برمّته. وقد حرص المؤلّف على نقل أخبار الكثير من الصحابة، إلى جانب نقله لأخبار وروايات الرسول الأكرم محمد (ص). ولذا نجد أنّ أكثر من نصف حجم الكتاب اختصّ بأخبارهم وفي نقله للروايات، اكتفى بذكر سلسلة أسانيد الروايات، من دون أن يعلّق على الأحاديث بأكثر من ذلك.

الثامن: الأدب المفرد[1]

من تأليف إمام محدّثي السنّة، محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ)، ويقع في 644 باباً، ويتضمّن 1329 حديثاً. والملاحظ أنّ أكثر أحاديث هذا الكتاب هي في «الأخلاق» و«الآداب الاجتماعية والأسرية»، ومبثوثة في كتب الصحاح الستة. وقد دأب المصنّف على ذكر سلسلة الرواة في بداية كلّ حديث، من دون أن يعلّق بشيء أو يذكر توضيحاً حول الحديث. والكثير من روايات هذا الكتاب هي من مأثورات

(1) محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ)، **الأدب المفرد**، ترتيب وتقديم كمال يوسف الحوت، بيروت، عالم الكتب، 1405 هـ ـ 1985 م، 463 ص، قطع وزيري.

صحابة رسول الله (ص). كما إنّ أبوابه لا تخضع لنظام خاص. وتوجد جملة كتب ذات صلة بهذا الكتاب نشير إلى بعضها: كتاب **فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد** لمؤلّفه فضل الله الجيلاني وكتاب **قرة عين المسعد بترتيب أطراف الأدب المفرد** للباحثة طيبة بنت يحيى.

التاسع: موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا[1]

تأليف الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد، المعروف بابن أبي الدنيا (208 ـ 281 هـ) وهو من كبار رواة ومحدّثي أهل السنّة. وإلى جانب ذلك كان خطيباً وواعظاً معروفاً في عصره، عاش حياة نزيهة، وحظي باحترام خاص لدى الجميع. له مؤلّفات كثيرة عدّها ابن كثير ثلاثمائة كتاباً[2]. وتعكس أعماله الكتابيّة المأثورة عنه ـ والتي يمكن وصفها بأنها نوع من التوليف بين الشعر، والأدب، والحديث ـ حباً شديداً لمقولة التهذيب والأخلاق.

ونشير هنا إلى أنّ الرسائل الأخلاقيّة لابن أبي الدنيا كثيرة، وقد تمّ نشر بعض منها ضمن موسوعة تقع في خمسة مجلّدات. ونورد هنا فهرستاً بالعناوين التي تتضمّنها:

المجلّد الأول: اليقين، حُسن الظنّ بالله، التوكّل على الله، القناعة والتعفّف، العقل وفضله، وأثر ذمّ الملاهي. المجلّد الثاني: ذمّ الدنيا، الغيبة والنميمة، إصلاح المال وقضاء الحوائج. المجلد الثالث: الرضا

---

(1) عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، (ت 281 هـ)، **موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا وآخرين، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافيّة، 1414 هـ ـ 1993 م، 5 مجلّدات: 498 + 511 + 427 + 448 + 504 ص، قطع وزيري.

(2) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 11، ص 71.

عن الله، الشكر للّه عزّ وجلّ، الحلم، الفرج بعد الشِدّة ومن عاش بعد الموت. المجلّد الرابع: كتاب مُجابي الدعوة، الأولياء، الهواتف (النداءات الغيبيّة) والمنامات. المجلّد الخامس: الصمت وآداب اللسان.

وثمة كتب أخرى في الموضوعات الأخلاقيّة للمؤلّف، نذكر بعض عناوينها: **قصر الأمل، التواضع والخمول، الإخلاص والنيّة، الحلم، الإخوان، الورع، الإشراف في منازل الأشراف، ذمّ البغي، محاسبة النفس، ومكارم الأخلاق.** (ويتضمّن الأخير 487 حديثاً في عشرة أبواب هي: الحياء، الصدق، صدق البأس، صلة الرحم، الأمانة، التذمّم للصاحب، التذمّم للجار، المكافاة بالصنايع، والجود)[1].

وإلى جانب نقله لروايات الرسول الأكرم (ص)، حرص المؤلّف ـ في جميع مؤلّفاته هذه ـ على ذكر أحاديث الصحابة والتابعين والحكماء وأخبارهم، وأيضاً أورد أبياتاً من الشعر. وفي أغلب الموارد يذكر سلسلة الرواة إلى جانب الحديث. والملاحظة التي تجدر الإشارة إليها، هي أنّ أياً من هذه الكتب لا يعتمد تبويباً واضحاً ومقبولاً، كما إنّ المؤلّف لم يكتب مقدّمة، أو ملاحظة، أو إيضاحاً حول الأحاديث التي أوردها في هذه الرسائل.

العاشر: مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها[2]

من تأليف أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي السامري (240 ـ 327 هـ). ويتضمن هذا الجامع حوالي ألف رواية، تمّ

(1) ابن أبي الدنيا، **مكارم الأخلاق**، بضميمة **مكارم الأخلاق** للطبراني.

(2) محمد بن جعفر بن سهل السامري الخرائطي، **مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها**، القاهرة، دار الآفاق العربيّة، 1419هـ ـ 1999 م، ط 1، 431 ص، وزيري.

توزيعها على 81 باباً وتسعة أجزاء. وأغلب هذه الروايات تُعنى بأقوال الرسول الأكرم (ص) وأفعاله وسيرته وأفعاله وسيرته، وهي في الأغلب تتطرق إلى الآداب والأخلاق الاجتماعية الحميدة. نعم، ثمة موارد قليلة من الروايات، تضمنت كلمات لصحابة الرسول وأبياتاً لشعراء. وفي معرض نقله للأحاديث، اكتفى المؤلّف بذكر سلسلة السند من دون أن يعلّق عليها بملاحظة أو إيضاح. وأخيراً يلاحَظ على الكتاب أنه يتوفّر على ترتيب منطقي ولا انسجام بين أبوابه.

الحادي عشر: مساوئ الأخلاق ومذمومها وطرائق مكروهها[1]

من تأليف ابن سهل الخرائطي، ويعنى الكتاب ببيان الأخلاق والآداب الاجتماعيّة غير الحميدة، وإن كانت توجد أبواب منه تطرّقت إلى بيان الأخلاق الفرديّة والأُسريّة أيضاً. ويتضمّن هذا الجامع الروائي أكثر من ثمانمائة حديث، في خمسة أجزاء و65 باباً. والملاحظ أنّ خصائصه تماثل الكتاب السابق الذي هو للمؤلّف نفسه.

الثاني عشر: تنبيه الغافلين[2]

هذا الكتاب من تأليف أبي ليث نصر بن محمد الحنفي السمرقندي (ت حوالي 370 هـ)، وهو من أئمة الحنفيّة ومن الزهّاد والمتصوّفة. ويضمّ الكتاب 94 باباً، ضمّت العديد من البحوث الأخلاقيّة وحرص المؤلّف على صياغتها بأسلوب الموعظة، والإرشاد، والنصيحة.

---

(1) محمد بن جعفر بن سهل السامري الخرائطي، **مساوئ الأخلاق ومذمومها وطرائق مكروهها**، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافيّة، 1413 هـ، ط 1، 336 ص، قطع وزيري.

(2) نصر بن محمد الحنفي السمرقندي (ت 373 هـ)، **تنبيه الغافلين**، تحقيق وتعليق يوسف علي البديوي، بيروت ـ دمشق، دار ابن كثير، 1415 هـ ـ 1995 م، ط 2، 664 ص قطع وزيري.

ويجدر القول إنّ منهج السمرقندي في الكتاب وفي كلّ موضوع، هو أن يذكر أولاً الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالموضوع، ويشرع في تفسيرها، وتوضيح مفرداتها المشكلة، وبيان المراد النهائي للآية. ثم يستشهد ببعض الأحاديث النبويّة والتي غالباً ما ضمّنها إيضاحات مختَصرة حولها. ويبلغ مجموع الأحاديث الواردة في هذا الكتاب حوالي ألف حديث، نُقلت عن الرسول الأكرم (ص) والصحابة، مع ذكر سلسلة الرواة. ويدّعي محقّقه، يوسف علي البديوي، أنه يوجد ضمن هذه الأحاديث روايات صحيحة، وحسنة، وضعيفة، لا يوجد بعضها في المصادر الحديثية المعتبرة لدى أهل السنّة. وبعد أن يورد الأحاديث، يتعرّض المصنف إلى بيان أقوال علماء السلف وبعض الحكماء حول الموضوع، وربما يذكر قصة أو طريفة ليجعل حديثه ـ نصيحة كان أو موعظة ـ أكثر تاثيراً وإيقاعاً في النفوس.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الكتاب، وإن تضمّن العديد من العناوين الأخلاقيّة، نظير الأخلاق العبوديّة، الأخلاق الفرديّة، والإجتماعية، والأُسريّة، لكنه يفتقر إلى ترتيب واضح ومحدّد لأبواب الكتاب. مع ذلك فإنّه يعدّ من أبرز الكتب المعتمدة في مجال «الوعظ والإرشاد» بين المسلمين[1].

الثالث عشر: كنز العمال في سُنن الأقوال والأفعال (مج 3)[2]

الكتاب من تأليف علاء الدين المتقي (ت 975 هـ) بن حسام الدين

---

(1) طبع الكتاب في مجلّد واحد حوالي 650 صفحة مع تحقيق وتعليق يوسف علي البديوي، من قبل دار ابن كثير، بيروت، عام 1995 م ـ 1415 هـ.

(2) علاء الدين علي المتقي الهندي (975 هـ)، **كنز العمال في سُنن الأقوال والأفعال**، تصحيح صفوة السقا، بيروت، مكتبة التراث الإسلامي، 397 هـ، ط 1، 17 مجلّد، كلّ مجلّد في 750 صفحة، وزيري.

الهندي، ويُعدّ من أكبر الموسوعات الروائيّة لأهل السنَّة. وهو صياغة تنظيميّة جديدة لثلاث موسوعات روائيّة هي: **الجامع الصغير، زوائد الجامع الصغير**، و**جمع الجوامع (الجامع الكبير)** من تأليف جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، يشمل 46624 حديثاً، ويقع في 16 مجلّداً (يبلغ عدد صفحات كلّ مجلّد 750 صفحة).

لقد انصب جهد المتقي الهندي على تصنيف أحاديث الكتب آنفة الذكر، والتي جُمعت من أكثر من 70 مصدراً من المصادر الروائية الأم، في 63 عنواناً، ورتب هذه العناوين على أساس الحروف، ويتسم بعض هذه العناوين بطابع أخلاقي، ونشير هنا إلى بعضها: الإيمان، الأذكار، التوبة، الزينة والتجمّل، الصحبة، الضيافة، العلم، اللهو واللعب والتغنّي، المعيشة، والمواعظ والحكم.

وأمّا البحوث الأخلاقيّة في الكتاب فتتركّز في المجلّد الثالث وضمن عنوان «الأخلاق»، إذ أورد المصنف جرداً ألفبائياً للأخلاق والأفعال الحميدة، ومن ثم للأخلاق والأفعال غير الحميدة. كما ذكر تحت كلّ عنوان أخلاقي مجموعة من الروايات المعنية بذاك العنوان الأخلاقي، واكتفى بذكر المصدر الأصلي للرواية من دون أن يذكر سلسلة الرواة. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الروايات الواردة في هذا الكتاب مروية عن صحابة الرسول الأكرم (ص).

بحث حول اتجاه الدعاء
والمناجاة في الأخلاق الإسلاميّة

يلعب الدعاء دوراً كبيراً في نشر المعارف، والثقافة، والأخلاق الإسلاميّة السامية، إذ يُعدّ من الأساليب المؤثّرة في هذا المضمار، كما إنه يشكل مناخاً تربوياً مناسباً من شأنه تهذيب الأمة الإسلاميّة بأطيافها كافة. والدعاء يعني «الطلب» بمعناه العام والذي يشمل حتى الطلب التكويني والسؤال الفطري. وكما إنّ الدعاء مقدّمة للقرب الإلهي، فهو بنفسه أيضاً يُعدّ من أبرز مصاديق التقرّب الإلهي، إذن فهو مقدّمة وهو بنفسه خاتمة أيضاً.

من جانبه، فإن القرآن الكريم يقرّر حقيقة أنّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله عزّ شأنه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[1]. فالدعاء ليس فقط سبيل النجاة، بل هو أيضاً سبيل الوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «**إن عند الله منزلة لا تَنال إلّا بمسألة**»[2]، كما إنّ الاستكبار وترك الدعاء، يؤديّان إلى أن يفقد الإنسان استعداده وقابليته لتقبّل الرحمة الإلهيّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(1) سورة الفرقان: الآية 77.

(2) الكافي، ج 2، ح 466.

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]. وإلى جانب الأدلّة النقليّة التي أشرنا إليها، فإنّ الدليل العقلي هو الآخر يقضي بضرورة الدعاء والارتباط بالحق تعالى، وذلك باعتبار أن لا حقيقة ولا حيثيّة للإنسان سوى العبودية لله والارتباط به، وعليه لا شك ولا ريب في أنّ الدعاء له تأثيره التام في فلاح الإنسان وسعادته، فهو الحبل الوثيق الذي يربط وجود الإنسان وسعادته ـ الذي هو عين الفقر والعجز ـ بمعدن الغنى والقدرة، وينتشله من ورطة البأس والضياع الروحي، ويملأ وجوده وكيانه من نور الكمالات المعنويّة والأخلاقية على قدر سعته وطاقته. ثم يطلق له عنان الرقيّ، لينفكّ من أسر التراب ويحلّق نحو رب الأرباب. أضف إلى ذلك، وجود جانب مهم في أدعية أهل البيت(ع) بالخصوص، وهو جانب تعليم الناس ماذا يطلبون وما هو أدب الطلب من الباري تعالى. كما إنّهم (ع) كانوا يؤكّدون على مواليهم وشيعتهم أن يطلبوا جميع حوائجهم ومقاصدهم ـ الصغيرة منها والكبيرة ـ منه تعالى. ولم يُقصروا الدعاء على أفراد خاصين أو لياقات وقابليّات محدّدة أو خاصة. إذن، فكل من يتوجّه إلى الله بالدعاء يجد مراده ومبتغاه في مضامين مناجاتهم(ع) مهما كانت درجته العلميّة والاجتماعيّة، وأيّاً تكن همّته وتعلّقه القلبي. ومع الأخذ بعين الاعتبار النقاط التي ذكرناها توّاً، يمكن تلخيص آثار الدعاء ونتائجه كما يلي:

1 ـ مَلْءُ الخلاء الفطري والفقر الذاتي، الذي يحسّه الإنسان في عمق وجوده، إزاء وجود آخر يكون له سنداً ودعامة، يمدّه بالطمأنينة، ويغمره بالخير المطلق.

---

(1) سورة غافر: الآية 60.

2 ـ زرع حالة الغنى والاستطاعة لدى الإنسان، من خلال الارتباط بالله القادر المتعال.

3 ـ تعميق حالة الإيمان والثقة بالله تعالى في وجود الإنسان وتكريسها، والتي تُعدّ مصدراً لكثير من البركات المعنويّة الأخرى.

4 ـ تعلّم أدب التحدّث مع الله سبحانه وتعالى.

5 ـ تعلّم الكثير من المعارف الإلهيّة السامية؛ ففي حالات الدعاء هذه تسنح الفرصة لأكمل موجودات عالم الإمكان كي ينفتح على الحق تعالى في ارتباط مباشر، كما هو الحال بين الحبيب ومحبوبه، ارتباط صميمي لم تلحظ فيه قدرات الإنسان الإدراكيّة وإمكانيّاته المحدودة ـ بخلاف الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (ع)، إذ يراعى فيها مستوى المخاطب ـ وكأنّ الإنسان الكامل قد تجلّى للّه تعالى بأبهى تجلّياته وأسماها عبر هذه المناجاة. إذن، أحد أهمّ نتائج الدعاء وثمراته هو فتح آفاق معرفيّة سامية لم يتأتّ الكشف عنها من خلال الروايات. وذلك لأنّ أحداً من المسلمين لا يخطر بباله مثل هذه الآفاق السامية من المعرفة ليقاربها بالسؤال والاستفهام، وإنما هي آفاق معرفيّة راح يبشّر بها الأئمة الأطهار ابتداءً.

6 ـ تربية الإنسان الكامل وإعداده؛ صحيح أنّ المضمون الرفيع للدعاء يكشف عن علوّ شخصيّة الإنسان الداعي، ولكن، من وجهة نظر تربوية، فإنه وعبر هذا الدعاء، يوجّه جميع الأفراد الذين يتطلعون إلى الكمال والرفعة، إلى التعالي والصعود إلى قلل الكمال السامية.

7 ـ تربية روح التوحيد في الشخص الداعي وترشيدها؛ روح التوحيد هو الإكسير الذي يضمّ إليه جميع الفضائل الأخلاقيّة والإيمانيّة، وإننا لو تصفّحنا جميع الأدعية، لما وجدنا مورداً واحداً نسبت فيه عملية التأثير في عالم الوجود، إلى غير الأسماء والصفات الإلهيّة، بل المشهود في كلّ الأدعية هو التأكيد على سريان الإرادة المطلقة لله من دون توسّط أحد، في جميع أحداث ومتغيّرات العالم.

8 ـ على الرغم مما يبدو للوهلة الأولى من أنّ الدعاء عمل ذو طابع فردي وليس له أيّ بعد أو تأثير اجتماعي، إلّا أننا إذا تأملنا أكثر في مضامين الأدعية، سنتوصّل إلى نتيجة مغايرة لذلك. فعلى سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى بعض أدعية الصحيفة السجادية المباركة والتي يُشار فيها إلى حقوق الوالدين، والأبناء، والجيران، وسائر قطاعات المجتمع الإسلامي، بل تتعدّى ذلك لتوجّه اهتماماتها إلى المجتمع الإنساني برمّته، من قبيل الدعاء المعروف الذي يقرأ في كلّ يوم من أيام شهر رمضان «اللهم أدخل على أهل القبور السرور»، والذي تضمّن فقرات عدّة في طلب النصرة والتوفيق لجميع الطبقات والفئات المحرومة من الله تعالى. وهذا الأمر يكشف عن التوجّهات الاجتماعيّة للاتجاه الدعائي في الأخلاق الإسلاميّة.

ومن وجهة نظر مدرسة أهل البيت، فإنّ اتجاه الدعاء والمناجاة يتضمن مقاطع مهمة وخاصة تدعى «التوسل»، فما يطرح في خصوص المناجاة مع الله سبحانه وتعالى، يمكن طرحه في بحث التوسّل بأولياء اللّه. إنّ التوسّل، وعلى الرغم من إنكار بعض العلماء ووصفهم إياه بالشرك، وأنه عمل غير معقول وغير مشروع، إلّا أننا نجدها في الآيات القرآنية، نظير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ

﴿ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[2]. وقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[3]. وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[4]. وقد جرت سيرة صحابة الرسول الأكرم (ص) على التبرك بماء وضوء الرسول (ص)، ومنبره، وعصاه، وخاتمه، وثيابه، وشعره، وعرقه، ومواضع جلوسه، أو التي مرّ عليها، أو صلى فيها، أو عليها، أو إليها. كما إنّ سيرة المتشرّعة أيضاً، في عهد الرسول الأكرم (ص) والأئمة الأطهار (ع)، تدلّ وبشكل حاسم، على صحة التوسّل شرعاً. فكما إنّ الدعاء له آثاره وبركاته الماديّة والمعنويّة، كذلك التوسّل والاستشفاع والاستمداد من الله تعالى بوساطة الأولياء والصالحين أيضاً مفيدة ومؤثرة. ومن هنا، نجد أنّ حجماً لا يستهان به من كتب أدعية مدرسة أهل البيت، تشتمل على مضامين تتعلّق بالتوسّل والزيارات، أضف إلى ذلك أنّ أتباع مدرسة أهل البيت (ع)، وحتى غيرهم ممن مارس تجربة التوسّل المعنوية، لمسوا عن كثب الآثار المعنوية الكبيرة والأبعاد التربويّة والأخلاقيّة العميقة للتوسّل في أحوالهم وسلوكيّاتهم.

لابدّ من القول هنا إنّ ثمة عناصر تسهم في تكوين حقيقة التوسّل، وتعتبر منشأ الأدوار المعنوية والأخلاقية له، وهي:

---

(1) سورة المائدة: الآية 35.

(2) سورة النساء: الآية 64.

(3) سورة يوسف: الآية 97.

(4) سورة الكهف: الآية 21.

1 ـ **العنصر المعرفي للتوسّل**: لا شك في أنّ لكلّ مدرسة أو مذهب تربوي، أنماطاً مثالية تشكّل نماذج وعيّنات ملموسة يقتدى بها، تظهر بمظاهر حياتيّة مختلفة من الكلام والسلوك الفرديّ والاجتماعيّ لشخصيّات تشترك معنا في الخصائص الإنسانية العامة، وبإمكانها ـ من خلال عمليّة التأسّي والاقتداء ـ أن تضمن لنا إمكانية ترسخ القِيَم والسلوكيّات الحميدة، وتجذّرها في النفس وبدرجة عالية.

في مدرسة أهل البيت (ع)، يتسنّى للشخص المتوسّل ـ من خلال المضامين التي تتوافر عليها أدعية التوسّل والزيارات، نظير الزيارة الجامعة الكبيرة ـ التعرّف على الأبعاد المختلفة لشخصيّة الإنسان الكامل الذي جعله أسوة وإماماً له، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ شهادته للإمام بأعمال الخير والسجايا الكريمة، بما تضمّنه ـ أي الدعاء ـ من دلالات وأيضاً من خلال تكرار فضائل رموز مدرسة أهل البيت، يكون قد عمل على تكريس صورة أبهى ودور أكبر للإنسان الكامل المهذّب على صفحة قلبه وفي أعماقِ ذهنه.

2 ـ **العنصر العاطفي للتوسل**: لا ريب في أنّ عنصر الحب والعشق من أكثر العناصر التي رفدت مسيرة الإنسانيّة على مرّ تاريخها الطويل، بالحركة والفاعليّة، وما فتئ يشكل الباعث الأكبر الذي يمدّ الإنسان بزخم، وحيوية، وطاقة أكبر. ففي كثير من الأحيان، وعلى الرغم من تحديد الإنسان لهدفه، نراه يفتقر إلى الطاقة الروحيّة والعزيمة اللازمة للمسير باتجاه الهدف. فإذا اقترنت المعرفة الصحيحة للنموذج القدوة بالمحبة العميقة الصافية، فحينئذٍ يضحي احتمال التواصل بين الشخص والقدوة، أو قل التأسّي، كبيراً جداً.

وفي الواقع، إنّ مجالس التوسّل لها بعدان:

الأول: إنها محفل علميّ وتعليميّ، يتمّ من خلاله التعرّف على الإنسان النموذج والأسوة والأنماط السلوكيّة الصادرة عنه.

الثاني: إنها مناسبة احتفاليّة، يتمّ من خلالها تزويد المحبّين بشحنات عاطفية، كما إنها محلّ إبراز ما يجيش في الصدور ـ من الحب والوله والفقر ـ بأحاسيس مخلصة. من هنا، فإن الشخص المتوسّل، بعد كلّ مرة يُبرز فيها تمسّكه بأولياء الله تعالى، يحسّ بوجود طاقة عظيمة تحمله على الإصرار على البقاء في خط الصلاح والطهارة. وعليه فإنّ التوسّل، كما الدعاء، طريق للسموّ الروحي وتهذيب النفس.

ونشير هنا إلى أنّ ثمة طائفة من كتب ومؤلّفات الأخلاق المأثورة، في إطار أدعية أعمال اليوم، والشهر، والسنة، تبشّر بما يمكن أن نصطلح عليه بـ «مدرسة الدعاء والمناجاة». وفي هذا الاتجاه يصار إلى بناء النفس معنوياً، وتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس وتزكيتها من خلال الالتزام بالعبادات المستحبة، والدعاء، والمناجاة. وتتضمّن كتب الدعاء الموضوعات التالية: الدعاء والأذكار، آداب الدعاء، التوسّل والزيارات، العبادات المستحبّة وكلّ ما يتعلّق بالاستخارة والطلسمات.

وقد سبق عهد الشيخ الطوسي (القرن الخامس) ومن بعده السيد ابن طاووس، كتب كثيرة متناثرة اهتمّت بجمع الأدعية المأثورة عن أهل البيت (ع). لكن ما جرى في مجال تدوين الحديث (إذا أدّى تصنيف الأحاديث في الكتب إلى هجر الأصول الأربعمئة شيئاً فشيئاً) جرى أيضاً في مجال كتب الأدعية، فمنذ زمن الشيخ الطوسي ومع ظهور كتب مفصلة من قبيل «**مصباح المتهجّد**»، هجرت كتب الأدعية الصغيرة شيئاً فشيئاً، نعم استطاع العلماء ـ من قبيل النجاشي، والشيخ الطوسي،

وآخرين - بمساعيهم وجهودهم المباركة، أن يحتفظوا لنا بأسماء تلك الكتب.

وقبل أن نورد قائمة بالكتب المرتبطة بهذا الاتجاه، نبيِّن حصيلة الجهود التي قام بها اثنان من كبار عرفاء الشيعة في هذا المجال. فمضافاً إلى ما أُثر عن هذين العلمين من أعمال في مجال الأدعية، كانت لهما إسهامات على صعيد بيان مكانة الدعاء، والتعريف بآدابه وشروطه، وكشف أسراره ورموزه. ومن هنا، نرى من المناسب أن نلقي نظرة سريعة على بعض أعمالهما من أجل التعريف بهما لدى الباحثين في مجال الأخلاق الإسلاميّة، ولا سيما ما يتعلّق منها بمدرسة أهل البيت (ع). وهذه الإطلالة ستكون مدخلاً لبيان قائمة بكتب الدعاء والمناجاة.

عدّة الداعي ونجاح الساعي[1]

هذا الكتاب من الكتب الشيعيّة المشهورة والمعروفة في مجال الدعاء. ألّفه أحمد بن فهد الحلي (ت 841 هـ)، وهو ممن اشتهر بالعلم، والفضل، والزهد، والأخلاق، والعرفان، يذكر المصنف في مقدّمة الكتاب، أنّ فتح باب الدعاء والدور الذي يقوم به على صعيد حلّ مشاكل الحياة البشريّة، من مصاديق الألطاف الإلهيّة. ويقرّر أنّ الغرض من تأليف الكتاب هو الترغيب في الدعاء وحسن الظن بالحق تعالى.

يقع الكتاب في ستة أبواب، هي:

الباب الأول: في الترغيب في الدعاء وبيان الأدلّة العقليّة والنقليّة على ذلك، والسبب في عدم استجابة الدعاء في بعض الأحيان.

---

(1) أحمد بن فهد الحليّ (ت 841 هـ)، **عدّة الداعي ونجاح الساعي**، تصحيح وتعليق أحمد الموحدي القمي، دار الكتاب الإسلامي، 1407 هـ، 344 صفحة، قطع وزيري.

الباب الثاني: في أسباب استجابة الدعاء. وقد تمّ تقسيم أسباب الاستجابة إلى أسباب متعلّقة بنفس الدعاء وزمانه ومكانه والحالات المرتبطة به، وأسبابٍ خارجة عنه.

الباب الثالث: في بيان أقسام الداعين. في هذا الباب يقسم المؤلّف الداعين إلى طائفتين: من يستجاب دعاؤه ومن لا يستجاب، ثم يتعرض إلى بيان أقسام كلتا الطائفتين.

الباب الرابع: ويُعنى ببيان كيفية الدعاء وآدابه.

الباب الخامس: في الذكر وهو ملحق بالدعاء ويختصّ ببيان الأدلة العقليّة والنقليّة للذكر وأوقاته، وشروطه، الذكر وأقسامه.

وثمة خصائص بارزة يمتاز بها كتاب **عدّة الداعي** نذكر هنا أهمها:

1 ـ اهتمام المؤلّف في جميع الأبحاث بذكر الآيات والروايات بشكل كامل، والدقة في توظيفها واستخراج نتائجها.

2 ـ لم يكتف المؤلّف بذكر نصّ الآيات والروايات، بل نجده في موارد كثيرة يعمد إلى شرح الآية أو الرواية وإيضاحها إذا كان فيهما إغلاق أو إبهام، من حيث ظواهر الألفاظ، أو من جهة الدلالة على المعنى المنظور.

3 ـ حرص المؤلّف وهو العارف الواصل، على إرشاد وتوجيه القارئ إلى التناقض الذي قد يعيشه، بين الإيمان الظاهري الذي هو عليه، وبين ما يصدر منه من أعمال مشوبة بالشرك، ويلفت نظره إلى هذه الحقيقة؛ وهي أنّ الإسلام والإيمان قد فتحا علينا آفاق الغيب، وعرفنا بوجود رب رحيم أحديّ الوجود لا شريك له (مصدر العلم، والجود، والرحمة)، هو من وراء جميع الظواهر التي

تزدحم بها عوالم الوجود. وإذا كان الدعاء أحد أهمّ طرق التواصل والارتباط بتلك الذات الأحديّة المقدّسة، فلماذا إذن نغفل عن هذه النعمة العظيمة، ولا نستمدّ منها العون والمدد ونحن نسير في مسار الحياة الماديّة والمعنويّة ومنعطفاتها الخطيرة؟!

4 ـ هذا الكتاب وإن لم يكن كتاب وعظ وإرشاد، إلّا أنه وفي مواطن عدّة، وبعد أن يحرّر الموضوع الذي هو بصدده، ويقرّر بحثه بلغة علمية متقنة، مع ذكر الأدلة والمستندات من القرآن والسنّة، يعمل على بيان نصائح مؤثّرة ونافذة، من شأنها أن تعين السالكين في مسيرتهم العمليّة.

5 ـ يعدّ المؤلّف من كبار علماء الشيعة الاثني عشريّة. إلّا أنه في ذكره للروايات لم يكتف بالمصادر الروائيّة لمدرسة أهل البيت (ع)، بل تجده في بعض الموارد استفاد من روايات أهل السنّة، طبعاً بالقدر الذي تسمح له رؤيته التي انطلق منها في فقه الأخلاق.

6 ـ استطاع أن يُفرغ معالجاته وإثاراته العلميّة النافعة، في قالب لطيف وصياغات تعبيريّة جميلة، وقد أفاد في بعض المواضع من الأشعار والقصص ذات الطابع الحكمي، ما أضفى على البحوث مسحة من الطرافة والمتعة، وأخرجها من الرتابة وزاد في تأثيرها على القارئ.

مؤلّفات السيد ابن طاووس

السيد ابن طاووس من أبرز العلماء الذين اهتمّوا كثيراً باتجاه الدعاء والمناجاة، وألّفوا العديد من الكتب في هذا المضمار، ونذكر هنا نبذة مختصرة عن حياته ونشير إلى بعض مؤلّفاته في هذا الاتجاه.

السيد علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، من أحفاد الإمام

الحسن المجتبى (ع)، ومن كبار علماء الشيعة وعرفائهم. وُلد في محرم عام 589 هـ في مدينة الحلّة، وتوفي عام 664 هـ في مدينة سامراء. ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف ودفن بجوار مرقد أمير المؤمنين علي (ع). وهو يعدّ من أشهر علماء الشيعة، على مرّ التاريخ، في الزهد، والتعبّد، وطهارة النفس. ومن أبرز تلامذته العلاّمة الحلّي وعلي بن عيسى الأربلي، صاحب **كشف الغمة**.

نسب إليه أصحاب التراجم 49 كتاباً على نحو القطع، عشرين منها تقريباً في مجال الأدعية، والأعمال، والمناسك العبادية، ومن أبرزها: **فلاح السائل ونجاح المسائل، الإقبال بصالح الأعمال (الإقبال بالأعمال الحسنة، في ما يعمل مرّة في السنة)، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، المجتبى من الدعاء المجتنى، ومهج الدعوات ومنهج العنايات**[1].

حصيلة ما تبشّر به هذه المدرسة التربوية، الدعوة إلى الزهد في الدنيا، وعدم الاحتفاء بها، والسعي لتحصيل فراغ البال من أجل استكمال النفس عبر التفكّر، والذكر، والدعاء، والعبادة، وسبيل الوصول عملياً إلى ذروة العبادات، والذكر هو التعبّد والالتزام الكامل بالأعمال والمناسك المستحبة بتفاصيلها، والتي وصلتنا عن طريق روايات أهل بيت العصمة والطهارة (ع)، على نحو عام أو خاص وفي وقت محدّد (أيام الأسبوع، ساعات الليل والنهار، الأشهر الخاصة ـ أو الأيام الخاصة ـ من السنة).

---

(1) مصادر الترجمة: **روضات الجنان**، ج 4، ص 325؛ الحرّ العاملي، **أمل الآمل**، ج2، ص205؛ السيد محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، ج 8، ص 358.

والظاهر أنّ هذا الاتجاه ينبغي أن نصنّفه ضمن الحقل الخاص بـ «أخلاق العبوديّة». ولكن علينا أن لا نغفل عن الآثار والردود الإيجابيّة لهذا المنهج التربويّ، على الأجواء العامة للسلوكيّات الفرديّة والأُسريّة والاجتماعيّة، والملكات الروحيّة للأفراد أيضاً. ويمكن القول أساساً إنّ تقوية روح التوحيد يرافقها تنامي المَلَكات الأخلاقيّة. وإنّ لهذا الاتجاه التربوي مقتضيات تربوية، تتّسع لتصل إلى الحد الذي يكتب السيد ابن طاووس في وصيّته لابنه ينهاه عن الدخول في المناقشات الكلاميّة، بل ينهاه حتى عن دراسة علم الكلام، إذ يعدّ ذلك من موارد الاشتغال المذموم بالأمور الدنيويّة وطلب المفاخرة[1].

(1) انظر: ابن طاووس، كشف المحجة لثمرة المهجة.

قائمة بعدد من كتب الأدعية والمناجاة

1 ـ **عمل اليوم والليلة**، أحمد بن شعيب النسائي (ت 303 هـ).

2 ـ **الدعاء**، سليمان بن أحمد الطبراني (ت 360 هـ).

3 ـ **عمل اليوم والليلة**، أحمد بن محمد الدينوري (ابن سِنّي) (ت 364 هـ).

4 ـ **كامل الزيارات**، ابن قولويه (ت 367 هـ).

5 ـ **شأن الدعاء**، أبو سليمان محمد بن محمد، المعروف بالخطّابي (ت 388 هـ).

6 ـ **كتاب المزار**، محمد بن نعمان الحارثي (الشيخ المفيد) (ت 413 هـ).

7 ـ **مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد**، أبو جعفر محمد بن حسن الطوسي (ت 460 هـ).

8 ـ **الدعوات المستجابة ومفاتيح الفرج**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ).

9 ـ **أدعية السّر**، فضل الله بن علي الراوندي (ت 548 هـ).

10 ـ **كنوز النجاح**، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ).

11 ـ **كتاب الحسني**، أبو عبد الله جعفر بن محمد بن أحمد الدوريستي (ت 565 هـ).

12 ـ **سلوة الحزين (الدعوات)**، سعيد بن هبة الله قطب الدين الراوندي (ت 573 هـ).

13 ـ **المزار الكبير**، محمد بن جعفر بن المشهدي (ت 594 هـ).

14 ـ **منية الداعي وغنية الواعي**، علي بن محمد التميمي النيسابوري (ق 6).

15 ـ **ذخيرة الآخرة**، علي بن محمد التميمي النيسابوري (ق 6).

16 ـ **حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار** (= الأذكار من كلام سيد الأبرار)، يحيى بن شرف النووي (ت 651 هـ).

17 ـ **العُدَد القوية لدفع المخاوف اليوميّة من الأدعية والوظايف**، رضي الدين علي بن يوسف بن مطهر الحلّي (ت 710 هـ).

18 ـ **الورد القوية**، العلاّمة الحلّي (ت 726 هـ).

19 ـ **سلاح المؤمن في الدعاء والذكر**، محمد بن محمد بن همان (ابن الإمام) (ت 745 هـ).

20 ـ **كتاب المزار**، محمد بن مكّي العاملي (الشهيد الأول ـ ت 786 هـ).

21 ـ **لطائف المعارف في ما لمواسِمِ العامِ من الوظائف**، الحافظ بن رجب الحنبلي (ت 795 هـ).

22 ـ **عُدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين**، محمد بن الجرزي الدمشقي (ت 833 هـ).

23 ـ **المصباح**، إبراهيم بن علي الكفعمي (ت 905 هـ).

24 ـ **البلد الأمين**، إبراهيم بن علي الكفعمي (ت 905 هـ).

25 ـ **عمل اليوم والليلة**، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).

26 ـ **سهام الإصابة في الدعوات المستجابة**، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).

27 ـ **مفتاح الفلاح**، بهاء الدين العاملي (ت 1030 هـ).

28 ـ **ذريعة الضراعة**، الملاّ محسن الفيض الكاشاني (ت 1091 هـ).

29 ـ **خلاصة الأذكار**، الملاّ محسن الفيض الكاشاني (ت 1091 هـ).

30 ـ **زاد العقبى**، الملاّ محسن الفيض الكاشاني (ت 1091 هـ).

31 ـ **الجواهر المنثورة في الأدعية المأثورة**، السيد عبد الحبيب بن أحمد العلوي العاملي (ق 11).

32 ـ **دعوات الصالحين ونجاة الطالحين**، صلاح الدين مسعود بن محمود اللطيفي (ق 11).

33 ـ **بحار الأنوار** (كتاب المزار، المجلّد 99 ـ 98 ـ 97)، العلاّمة محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ).

34 ـ **بحار الأنوار** (كتاب الأدعية، المجلّد 92 ـ 91 ـ 90)، العلامة محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ).

35 ـ **زاد المعاد**، العلاّمة محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ).

36 ـ **الكلم الطيب والغيث الصيب**، السيد علي الحسيني المدني (سيد علي خان الكبير) (ت 1120 هـ).

37 ـ **بحر المقرة**، السيد محمد رضا بن مير محمد قاسم القزويني (ق 12).

38 ـ **سلاح العابدين وأنيس الذاكرين**، السيد عبد الله شبر (ت 1241هـ).

39 ـ **أبواب الجنان وبشائر الرّضوان**، خضر بن شلال آل خدام (ت 1255هـ).

40 ـ **جواهر الدعوات**، مير محمد بن عبد الباقي الخاتون آبادي (ق 13).

41 ـ **جامع الدعوات**، السيد محمد رضا بن إسماعيل الموسوي الشيرازي (ت 1300 هـ).

42 ـ **المراقبات**، ميرزا جواد الملكي التبريزي (ت 1343 هـ).

43 ـ **مفاتيح الجنان**، الشيخ عباس القمّي (ت 1359 هـ).

44 ـ **مفتاح الجنات**، السيد محسن الأمين (ت 1371 هـ).

قائمة بعدد من الشروح

يزخر التراث الروائي للمسلمين بالكثير من الكتب المعنية بشرح وتفسير أحاديث وكلمات المعصومين (ع)، دوّنها لفيف من علماء المسلمين. وثمة اختلاف بين هذه الكتب والكتب التي تمّ التعريف بها ضمن الاتجاه الأثريّ للأخلاق الإسلاميّة؛ إذ لم يكن الغرض الأساس في هذا اللون من الكتب جمع ونقل الأحاديث، بل الغرض بالدرجة الأولى هو شرح معاني ومضامين الأحاديث والروايات وتوضيحها وتتضمّن هذه الشروح بحوثاً ومعالجات أخلاقيّة كثيرة، تبدأ بإيضاح المفردات وبيان القوالب الأدبيّة للأحاديث، ومن ثم تعرض إلى تحليل مضامين ومداليل تلك الأحاديث. ولكنها لا تقدّم نظاماً متكاملاً للأبحاث الأخلاقيّة.

وقد أشرنا إلى جملة من هذه الكتب والمصادر، ضمن كتب المدرسة الأثريّة للأخلاق الإسلاميّة. وهنا نورد طائفة أخرى من أشهر الكتب المعنيّة بشرح الأحاديث الأخلاقيّة:

1 ـ **الرسالة المعراجية**، ابن سينا (ت 428 هـ).

2 ـ **شعب الإيمان**، أبو محمد عبد الجليل بن موسى الأندلسي، المعروف بالقصري (ت 608 هـ).

3 ـ أربعون حديثاً في اصطناع المعروف، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت 656 هـ).

4 ـ **شرح نهج البلاغة**، ابن ميثم البحراني (ت 679 هـ).

5 ـ **الكبائر**، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت 748 هـ).

6 ـ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**، عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي البغدادي (ت 795هـ).

7 ـ **شرح حديث** «ما ذئبان جائعان»، ابن رجب الحنبلي (ت 795 هـ).

8 ـ **الرسالة العلّية في الأحاديث النبوية** (شرح أربعين حديثاً نبوياً)، كمال الدين حسين الكاشفي البيهقي السبزواري (ت 910 هـ).

9 ـ **الأربعون في فضل الرحمة والراحمين**، شمس الدين محمد بن علي بن طولون (ت 953 هـ).

10 ـ **الأربعون**، بهاء الدين العاملي، المعروف بالشيخ البهائي (1031 ـ 935 هـ).

11 ـ **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، محمد بن علان الصديق الشافعي (ت 1057 هـ).

12 ـ **شرح مصباح الشريعة**، عبد الرزاق الجيلاني (ق 11).

13 ـ **عين الحياة** (شرح حديث أبي ذر)، العلاّمة محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ).

14 ـ **نور الأنوار في شرح الصحيفة السجّادية**، السيد نعمة الله الجزائري (1112 ـ 1050 هـ).

15 ـ **رياض السالكين**، سيد عليخان الحسيني الكبير (1120 ـ 1052 هـ).

16 ـ **شرح غرر الحكم ودرر الكلم**، جمال الدين محمد الخوانساري (ت 1125 هـ).

17 ـ **أخلاق محتشمي**[1] (بالفارسية)، حسن اسفندياري، المعروف بمحتشم السلطنة (ق 13 هـ).

18 ـ **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، حبيب الله الهاشمي الخوئي (ت 1324 هـ).

---

(1) الكتاب شرح لدعاءين من أدعية الصحيفة السجّادية ولذا اقتضي التنبيه حتى لا يشتبه مع كتاب الخواجة نصير الدين الطوسي والذي يحمل العنوان نفسه.

قائمة بعدد من كتب الآداب الإسلاميّة

1 ـ **آداب العرب والفرس**، مسكويه الرازي (ت 421 هـ).

2 ـ **أخلاق النبي وآدابه**، أبو حيّان الأصفهاني (ت 429 هـ).

3 ـ **أدب القاضي**، أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ).

4 ـ **أدب المسلم في اليوم والليلة**، أبو حامد محمد الغزالي (ت 505 هـ).

5 ـ **الآداب الدينيّة للخزانة المعينيّة العليّة**، أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي (ت 548 هـ).

6 ـ **الحدائق في علم الحديث والزهديّات**، عبد الرحمن بن الجوزي (510 ـ 597 هـ).

7 ـ **تحفة المودود بأحكام المولود**، ابن قيم الجوزيّة (697 ـ 751 هـ).

8 ـ **الآداب الشرعيّة والمنح المرعيّة**، محمد بن مفلح بن محمد (ت 763 هـ).

9 ـ **غاية الرغبة في آداب الإخوان والصحبة**، مجهول.

10 ـ **آداب الطعام**، أحمد بن عماد الأفقهي (ت 808 هـ).

11 ـ **حلية المتقين**، محمد باقر المجلسي (ت 1110 هـ).

12 ـ **مرآة الرشاد**، عبد الله المامقاني (ت 1323 هـ).

13 ـ **مرآة الكمال**، عبدالله المامقاني (ت 1323 هـ).

14 ـ **آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة**، الغُزّي (تاريخ وفاته مجهول).

قائمة بعدد من مصادر الأخلاق الأثريّة

1 ـ **الزهد**، أبو سفيان وكيع بن الجرّاح (ت 197 هـ).

2 ـ **الزهد**، هنّاد بن سرّي الكوفي (ت 243 هـ).

3 ـ **عيون الأخبار**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ).

4 ـ **الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة**، محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ).

5 ـ **مكارم الأخلاق**، سليمان بن أحمد الطبراني (ت 360 هـ).

6 ـ **المواعظ**، الشيخ الصدوق (ت 381 هـ).

7 ـ **تحف العقول**، ابن شعبة الحرّاني (ق 4).

8 ـ **نهج البلاغة**، أبو الحسن محمد بن الحسين الشريف الرضي (ت 428 هـ).

9 ـ **دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم**، محمد بن سلامة القضاعي (ت 454 هـ).

10 ـ **نزهة الناظر وتنبيه الخاطر**، حسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني (ق 5).

11 ـ **أطواق الذهب**، محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ).

12 ـ **الأربعون حديثاً في حقوق الإخوان**، محمد بن عبد الله الحسيني، ابن زهرة الحلبي (565 ـ 539 هـ).

13 ـ **مطلوب كلّ طالب من كلام علي بن أبي طالب** (ع)، رشيد الدين الوطواط (ت 573 هـ).

14 ـ **البرهان المؤيّد**، السيد أحمد الرفاعي الحسيني (ت 578 هـ).

15 ـ **رياض الصالحين**، الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت 676 هـ).

16 ـ **المقاصد السنيّة في الأحاديث القدسيّة**، علي بن بلبان (ت 739 هـ).

17 ـ **كشف الكربة في وصف حال أهل القربة**، الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت 795 هـ).

18 ـ **ذم قسوة القلب**، الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت 795 هـ).

19 ـ **الاستعداد ليوم المعاد**، ابن حجر العسقلاني (ت 825 هـ).

20 ـ **التحصين وصفات العارفين**، أحمد بن محمد بن فهد الحلي الأسدي (758 ـ 841 هـ).

21 ـ **الإتحافات السنيّة في الأحاديث القدسيّة**، عبد الرؤوف المناوي الحدادي (ت 1029 هـ).

22 ـ **الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسيّة**، الشيخ الحرّ العاملي (ت 1104 هـ).

الفصل الخامس

مدرسة الأخلاق التوفيقيّة

1
الرعاية لحقوق اللّه [1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

مؤلّف الكتاب هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (حوالي 150 ـ 243 هـ)، عارف، ومتكلّم، وفقيه، ومحدّث، وزاهد، من كبار الصوفيّة، شيخ المشايخ ببغداد في عصره، كما ذكر الهجويري[2]. قالوا في سبب اشتهاره بالمحاسبي إنه كان يحاسب نفسه باستمرار، وقالوا إنه كان يستفيد من الحصى في حساب الأذكار[3]. ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفّي فيها[4]. صحب الإمام لشافعي؛ لكنه لم يكن شافعيّ

(1) الحارث بن أسد المحاسبي (ت 243 هـ)، **الرعاية لحقوق الله**، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط 4، بيروت، دار الكتب العلميّة، [بلا تاريخ]، 550 ص، قطع وزيري.

(2) الهجويري، **كشف المحجوب**، ص 134.

(3) **الأنساب**، ج 5، ص 207.

(4) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 12، ص 110.

المذهب وإنما كان على مذهب الصفاتيّة[1]، عاش في عهد الأمين، والمأمون، والمتوكّل، والواثق العباسي[2]، وأدرك الإمام الكاظم، والإمام الرضا، والإمام الجواد، والإمام الهادي (ع). ويُعدّ جنيد البغدادي من أبرز تلامذته، حيث كان المحاسبي يخرج به إلى الصحراء ويطلب منه أن يسأله عن أحوال نفسه، ثم يجيبه عن أسئلته. وما إن يعود إلى بيته يعمد إلى كتابة الأسئلة وأجوبتها حتى أعدّ منها كتاباً. وقد كان له برامج أخرى من هذا القبيل مع أشخاص آخرين. وهذه الخصوصيّة جعلت مؤلّفات المحاسبي محاكية لاحتياجات ومتطلّبات القارئ، وقريبة منه جداً، وتتضمّن أمثلة واقعيّة وملموسة[3].

ويمتاز المؤلّف، في اهتمامه بأحوال القلب وفي تحليله للحالات النفسانيّة، بدقته العالية، وقد تجلّى ذلك في أغلب مؤلّفاته. ومن هنا بالذات، يمكن القول إنّ أهم نقطة راح يبشّر بها في معالجاته ويؤكّد عليها، هي «الترابط بين الفعل والنيّة». وقد وصفه الإمام محمد الغزالي بأنه الأبرز من بين العلماء، في علم المعاملات القلبية، وسبق غيره من الباحثين في دراسة عيوب الأعمال والعبادات وآفاتهما.

ويُعدّ كتاب **الرعاية لحقوق الله** أهم وأبرز كتب المحاسبي. وله كتب كثيرة طُبع العديد منها مؤخراً، نذكر هنا بعضها: **العقل وفهم القرآن**، **آداب النفوس**، **النصائح**، **التوبة وبدء من أناب إلى اللّه** ، **البعث والنشور**، **التوهم**، **المسائل في أعمال القلوب والجوارح**، **المكاسب**،

---

(1) انظر: **دائرة المعارف تشيع**، ج 6، ص 14.

(2) المحاسبي، **آداب النفوس**، ص 11.

(3) المصدر نفسه.

القصد والرجوع إلى الله، ورسائل أخرى كثيرة فُقد بعضها. وقد أورد الباحث عبد القادر، في مقدّمة كتاب «التوبة»، قائمة بمؤلّفات المحاسبي المفقودة، والخطيّة، والمطبوعة.

2و3 ـ النسخ والطبعات، والأعمال ذات الصلة

توجد نسخة خطيّة لهذا الكتاب في «دار الكتب الظاهريّة» بدمشق برقم 1002، يعود تاريخها إلى القرن السادس الهجري[1]. وقد طُبع الكتاب للمرة الأولى في عام 1940م في لندن بمساعي الباحثة مارغريت اسميث وضمن إصدارات غيب للأوقاف[2]. وطُبع في القاهرة مرتين؛ الأولى بتحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، والثانية قام بتحقيقه والتقديم له عبد القادر أحمد عطا عام 1970م. وحتى يومنا الحاضر لم يصدر أيّ شرح، أو ترجمة، أو تعليق عليه، فقط يوجد تلخيص له بقلم العز بن عبد السلام (ت 660 هـ).

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

اكتفى المؤلّف بتسليط الأضواء على بعض الموضوعات الأخلاقيّة، نظير: رعاية الحقوق الإلهيّة، الرياء، جليس السوء، معرفة النفس، العجب، الكبر، الاغترار، الحسد والسيرة الصحيحة لطالب الهداية.

ولمّا كان الغرض الأصلي للكتاب هو بيان كيفيّة رعاية الحقوق الإلهيّة؛ لذا يبدو أنّ المؤلّف ذكر بعض الموانع التي تعيق رعاية حقوق الله من باب المثال الاستقصاء، إذ يمكن رصد موانع أخرى جديرة

---

(1) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، ج 21، ص 607.

(2) تاريخ تصوف در إسلام، ص 439، المحاسبي، التوبة، ص 19.

بالبحث لم يسلّط الضوء عليها في الكتاب. وتأتي معالجاته للمواضيع الأخلاقيّة مختلفة، إجمالاً وتفصيلاً، ضمن أولويّات اختزنها في وعيه؛ فمثلاً نجده قد فصّل القول في بحثه لمقولة «الرياء» لكنه في الوقت نفسه، وعند الحديث عن معاشرة الناس، بحث الموضوع بشكل موجز وناقص. وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال مراجعة سريعة للكتاب، ففي الطبعة التي قدّم لها عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي، يقع موضوع رعاية الحقوق الإلهيّة في 108 صفحة، وكتاب الرياء في 132 صفحة، في حين يقع كتاب الإخوان في 17 صفحة، وكتاب الكبر في 50 صفحة، وكتاب الغرّة في 48 صفحة، وكتاب الحسد في 27 صفحة، وكتاب تأديب المريد وسيرته في 16 صفحة.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

في البداية تناول المؤلّف مسألة رعاية الحقوق الإلهيّة وكيف يتسنّى للمسلم تحصيل هذه الفضيلة؟ بعد ذلك راح يبحث ضمن فصول عدّة، الموانع والعقبات التي تعيق الإنسان المسلم عن أن يراعي الحقوق الإلهيّة، ويذكر مجموعة من هذه الموانع، نظير: الرياء، العجب، الكبر، الحسد، كما يدرس كيفيّة التخلّص منها. والملاحظ أنّ أبواب الكتاب تخضع لنسق ونظم معقول إلى حدٍّ ما، كما إنّ البحوث والمعالجات الواردة في كلّ فصل، هي الأخرى، جاءت متناسقة ومترابطة بعضها مع بعضها، نعم توجد العديد من الاستطرادات وموارد التكرار المخلّة، ما أدّى إلى صعوبة اكتشاف الربط في تلك الموارد. نقطة أخيرة لا بدّ من التذكير بها هنا، وهي أنّ النظام والترابط بين البحوث المطروحة في المقدّمة والباب المختصّ بمراعاة الحقوق الإلهيّة، هو

الآخر يبدو أدنى مستوى من الترابط والنظام من سائر أبواب الكتاب ومفاصله. وهنا نتعرض إلى تقرير موجز عن المعالجات والفصول، والأبواب، فنقول:

في عصرنا الراهن، عادة ما يستعمل مصطلح «حقوق الله» مقابل «حقوق الناس»، إلّا أنّ مراد المؤلّف من هذا المصطلح مفهوم عام، يُراد به احترام كلّ حق أوجبه الله، سواء على الشخص نفسه أم على سائر الناس. ويسعى الكتاب إلى تقديم إجابة منطقيّة عن السؤال حول ماهيّة الحقوق الإلهيّة وكيفيّة إقامتها. في البداية يضع المؤلّف مقدمة يؤكّد فيها على ضرورة حسن الاستماع وأهميّته وآدابه، ويوضح ذلك بأمثلة. وبعد المقدّمة، يتحدّث عن أهمية رعاية حقوق الله وضرورتها وعن التقوى والورع وذلك في بابين. وهو يرى أنّ السبيل إلى تحصيل فضيلتي الورع والتقوى، هو عدم الاغترار بالنفس. ويشدّد على أهميّة محاسبة النفس، والتدقيق في كلّ ما صدر عنها من أعمال في الماضي، وما يصدر عنها في الحاضر والمستقبل. وفي الأبواب اللاحقة من الكتاب يقسم الناس ـ من حيث رعايتهم لحقوق الله ـ إلى أقسام؛ فقسم من الناس لا يميل إلى المعصية، وقسم آخر يميل إلى الذنب ولكن سرعان ما يقلع عنه، وثمة جماعة أخرى تصرّ على الذنب والمعصية. ثم يعرض لبيان إمكانيّة تحديد الذنب، وكيفيّة التوبة، وإلى جانب ذلك يؤكّد على ضرورة الإلمام بالحقوق الإلهيّة.

ومن المواضيع المهمة التي عالجها المؤلّف ضمن هذه الأبواب، موضوع التزاحم بين التكاليف، وتقديم التكليف الأهم، إذ بحث هذا

الموضوع في أكثر من عشرين صفحة، وذكر في هذا المضمار أمثلة عدّة ومتنوّعة. كما تطرّق إلى موضوع الإصرار على الذنب وخطر التسويف وذكر أنّ علاج التسويف هو الاستعداد للموت. وفي ما يلي نورد تلك الأبواب التي سلّطت الضوء على الموضوعات الأخلاقية:

كتاب الرياء: يعتقد المحاسبي أنّ الشخص الذي يقوم بالواجبات الإلهيّة ويؤدّي حقوق الله سبحانه وتعالى، لا بد من أن يحذر من السقوط في خطر الرياء. فالرياء آفة عظيمة من شأنها أن تزيل الأثر الدنيويّ والأخرويّ للعبادة والطاعة، فهي تسلب الإنسان حلاوة العبادة في الدنيا وثوابها في الآخرة. ويرى المؤلّف أنّ الرياء هو طلب رضا المخلوق من خلال طاعة الخالق، وهو على قسمين: شديد وضعيف؛ الرياء الأشدّ والأقبح هو أن يأتي الشخص بالطاعة طلباً لرضا المخلوقين فقط، والرياء الأخف هو أن يطلب من الطاعة رضا الخالق وثواب الآخرة، وفي الوقت نفسه يبغي رضا الناس أيضاً.

ويمكن أن نعدّ ثلاثة مناشئ للرياء، هي:

1 ـ حبّ الشخص أن يمتدحه الآخرون.

2 ـ خوف الشخص وتنفّره من أن يذم.

3 ـ الطمع بما في أيدي الآخرين. والواقع أنّ الموردين الأخيرين يعودان إلى المنشأ الأول.

وفي هذا السياق، يذكر المحاسبي ثلاثة حلول ذات طابع معرفي، لاجتثاث مناشئ وبواعث الرياء. وفي الخاتمة يورد بعض المصاديق حوله ويحذّر الفرد من الابتلاء به. ثم يقسم المخلصين ومن يقاوم الرياء إلى أربعة اقسام، ويعرض ميزاتهم وخصالهم الروحيّة.

كتاب العجب: يعرّف المؤلّف العجب بأنه حالة يرى الشخص معها أنّ نفسه هي التي قامت بالعمل فيمدحها، ناسياً نعمة ربه ومنّته عليه بذلك. ثم يتطرّق إلى بيان معنى «الإدلال»، فيذكر أنّه معنى زائد في العجب، وهو عندما يرى الإنسان أنّ له عند الله قدراً عظيماً، قد استحق به الثواب على عمله، من دون أن يساوره الخوف من الله تعالى. ثم يعرض المحاسبي إلى بيان أقسام أخرى من العجب مع ذكر أسباب حدوثها وطرق علاجها.

كتاب الكبر: يُعدّ الكبر بحسب المؤلّف مصدراً لأغلب المشاكل الأخلاقيّة. ويرى أنّ الكبر على نوعين: الأول الكبر الموجود بين العباد وبين الله عزّ شأنه، ويتجلّى بترك العبادة وطاعة الله. والنوع الثاني، الكبر الموجود بين العباد، والذين يرون لأنفسهم مزية على الآخرين. وحقيقة الكبر هو الاستخفاف بالآخرين وعدم مراعاة حقوقهم. ويذكر المؤلّف أنّ كلاً من العجب، والرياء، والحقد، قد يتسبّب في حصول «الكبر» في العمل. ثم يذكر جملة مصاديق للكبر الناشئ من الأمور الدنيويّة نظير: الكبر بسبب الحسب، الجمال، القوة، المال، وكثرة العدد. ثم يعقد بحثاً حول أساليب القضاء على الكبر.

كتاب الغرّة: في البدء يعدّد المؤلّف أقسام المغترّين ـ أي الذين خُدعوا واغترّوا بأمور باطلة وطمعوا بها ـ إذ يقسمهم إلى قسمين: المغترّين بالدنيا والمغترّين بالآخرة. ثم يبحث في طبيعة الاغترار الخاص بالكافرين، وطبيعة الاغترار الخاص بالمؤمنين. ويؤكّد أيضاً على نقطة هامة، وهي أنه لا بدّ من التفكيك بدقة بين الرجاء وبين الغرّة، وهذا يعلم من آثاراهما. ثم يقرر حقيقةَ مفادها، بحسب الروايات الموجودة، أنّ

الغرّة في آخر الزمان تتفشّى وتكثر بين الناس. بعد ذلك يبحث ضمن أبواب عدة الأصناف الخمسة للمغترّين بالعلم.

كتاب الحسد: يقسّم المؤلّف الحسد إلى قسمين: الحسد الحرام والحسد غير الحرام، ويسمّي الحسد غير الحرام بـ «المنافسة» وهو أن يريد الإنسان لنفسه الخير والتقدّم وفي الوقت نفسه لايريد للآخرين الشر. والمنافسة قد تكون واجبة وقد تكون مستحبّة، أو مباحة، أو محرّمة. ثم يعدّد عوامل المنافسة والحسد ويذكر طرق معالجتها. وفي الختام يذكّر بأنّ الحسد من حقوق اللّه، فإذا تاب الحاسد فلا يجب عليه أن يطلب من المحسود براءة الذمّة، إلّا إذا كان الحسد قد حمل صاحبه على القيام بأعمال ضدّ المحسود، فحينئذٍ يلزم من الحاسد أن يطلب براءة الذمة من المحسود.

كتاب تأديب المريد وسيرته: في هذا الكتاب يؤكّد المؤلّف على ضرورة الالتزام بالمراقبة الدائمة، والحذر من مكائد الشيطان.

وفي الخاتمة يتعرّض إلى بيان الشروط والمقدّمات اللّازمة لإرشاد الآخرين.

6 ـ منهجيّة الكتاب

يتّبع المؤلّف في استدلالاته التي اعتمدها، في إثبات مدّعياته، على المنهج التحليليّ النفسي، وإلى جانب هذا المنهج استفاد أيضاً من الأدلّة النقليّة والتعبديّة كثيراً، وفي موارد نجده استند إلى فعل صحابة الرسول الأكرم لإثبات بعض الفضائل. وفي ما يتعلّق بتحديد المقاصد والأهداف وكذلك في تحديد المنظومة القِيَميّة والمثاليّة، اعتمد منهجاً عرفانيّاً يبتني على الزهد والمسلك الجلالي. ويجدر القول هنا إنّ التصوّف الذي

يعتمده المحاسبي تصوّف قائم على التقيّد بالشريعة وعلى العمل. والملاحظ أنه يبدي تأكيداً وحساسية خاصة حول موضوع النية والتي تُعدّ بمثابة روح العمل.

يُعدّ هذا الكتاب من أوائل المحاولات الجادّة التي تتجاوز مهمّة التدوين والجمع، لتنهض بمهمة تحليل المأثور. ويقال عن المحاسبي إنه أول من مزج الفقه بالبُعد المعنويّ والروحانيّ، وراح ينظر إلى روح الشريعة بتأمّل ويستثير مداليلها ومراتبها العميقة. وقد ألّف كتاباً ـ في هذا المضمار ـ على جانب كبير من الانسجام والإتقان العلمي[1].

وقد تأثّر الغزالي بشخصيّة ومنهج المحاسبي؛ ولذا حرص على الاستفادة من أغلب كتاباته، بما فيها كتاب «الرياء» الذي يشكّل أحد أبواب كتاب «**الرعاية لحقوق الله**»، وقد أورده في مطاوي كتابه **إحياء العلوم** معلّقاً عليه بقوله: «وكلامه جدير بأن يُحكى على وجهه». ويقال إنّ المحاسبي هو أول من أسّس للمنهج التحليلي في التصوّف[2]، وفي الوقت الذي نأى فيه المجتمع الإسلامي عن الأخلاق الدينيّة الأصيلة، راح هو يروّج لفكرة «الترابط الوثيق بين الدنيا والآخرة». وقد اقتفى أثره من بعده كلّ من أبي طالب المكّي، والحكيم الترمذي، وأبي سعيد الخراز، ومحيي الدين بن عربي، والإمام محمد الغزالي.

7 ـ أدبيّات الكتاب

رتّب الكتاب على صورة أسئلة وردود منتظمة ومسلسلة، فكلّ سؤال

(1) المحاسبي، **آداب النفوس**، ص 13.

(2) المحاسبي، **النصائح**، ص 6.

ينشأ من الإجابة التي سبقته، ويهدف إلى تعميقها. هذا وقد كان المؤلّف ناجحاً في أسلوبه؛ وذلك لأنَّ الأسئلة جاءت طبيعية، ومن دون تكلّف، ودقيقة، ومترابطة، ومدروسة، والإجابات هي الأخرى كانت في الأعمّ الأغلب مقنعة وعميقة.

ويلاحظ أنّ بيان المؤلّف وقلمه لم يكن على وتيرة واحدة، إذ يجد القارئ أنّ بيان الكتاب في بعض فصوله كان سلساً وشيّقاً، ولكن ثمة فصول من الكتاب كتبت بلغة معقّدة، يصعب فهم مقاصدها ومراميها وربما شعر القارئ بوجود عبارة أو عبارات قد سقطت من المتن. وأمّا المفردات فأكثرها روائيّة ومأخوذة من المأثور. ويوجد تكرار كثير في تقرير الأقوال والمطالب، لدرجة أنه يمكن الاستغناء عن ربع حجم الكتاب.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المؤلّف لم يستفد في كتابه من الأشعار والحكايات، لكن ثمة موارد عدّة أفاد فيها من بعض التمثيلات والتشبيهات، وقد جاءت جميلة، ومؤثّرة، وموضحة للفكرة.

8 ـ التقييم النهائي

أهمل الكاتب أغلب البحوث الأخلاقيّة المتعارف عليها في الكتب الأخلاقيّة، إلّا أنه كان ناجحاً في معالجة البحوث التي تطرّق إليها، إذ أفاد في بيانها من أسلوب التشبيه، إلى جانب إفادته من التحليلات النفسيّة والإكثار من ذكر المصاديق. كما لم يغفل الاحتمالات الموجودة في كلّ موضوع والجهات المختلفة لكلّ مسألة. إلى جانب ذلك تستوقف القارئ تدقيقات لطيفة وتأملات رائعة أعملها المؤلّف في ذكره لمراحل

تكوّن كلّ واحد من الأمراض والآفات الأخلاقيّة. نعم، هذه التدقيقات يشوبها شيء من التكلّف في بعض مواردها.

ومن الملاحظات على الكتاب، القول بصحة جميع أعمال صحابة رسول الله (ص) وأقوالهم، وأنّ على الناس أن يسيروا على هدي أصحاب الرسول الأكرم (ص).

2

أدب الدنيا والدين[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي، الملقّب بأقضى القضاة، والمعروف بـ «الماوردي»، (الماوردي نسبة إلى صناعة ماء الورد أو بيعه)؛ هو من أئمّة الفكر وأعاظم فقهاء الشافعيّة وإليه عادت رئاسة هذا المذهب، وله إلمام كامل بالأدب، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة[2]. ولد في البصرة عام 364 هـ، واشتغل بتحصيل العلوم الإسلاميّة فيها. ودرس الفقه على أبي القاسم الصيمري. ثم سافر إلى بغداد وحضر درس فقه أبي حامد الأسفراييني. وبعد إتمامه الدراسة والتحصيل، اشتغل الماوردي بالتدريس سنين طويلة. ثم وُلّي منصب القضاء من قبل الحكومة لسنوات طوال، وفي عام 429 هـ نال لقب «أقضى القضاة». بعد ذلك عاد إلى بغداد ليشتغل بالتدريس والتأليف.

(1) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (450 ـ 364هـ)، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق وتقديم ياسين محمد السواس، بيروت ـ دمشق، دار ابن كثير، 1415 هـ ـ 1995 م. 36 + 668 صفحه، قطع وزيري (100 صفحة فهارس).

(2) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج 15، ص 52 ـ 55؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص 19، 45 و126، 140 و168 و408 و458 و628؛ وج 2، ص 1188، 1315 و1958 و1978؛ محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 5، ص 242 ـ 244.

وتوفي فيها في عام 450 هـ عن عمر ناهز 86 عاماً. وقد صلى عليه تلميذه الخطيب البغدادي، ودُفن في مقبرة باب حرب.

برزت شخصيّة الماوردي العلميّة الممتازة من خلال موسوعته الفقهيّة **الحاوي الكبير**. وقد اتهم بالاعتزال بسبب ما امتازت به آراؤه الفقهيّة من دقّة عقليّة. وممن اتّهمه بذلك ابن الصلاح في طبقاته وذلك لتبنّيه بعض آراء المعتزلة في تفسيره؛ لكنه سرعان ما يخفّف من حدة اتهامه له قائلاً:

ثم هو ليس معتزليّاً مطلقاً، فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم[1].

للماوردي مؤلّفات كثيرة؛ لكنّ أصحاب التراجم لم يذكروا له إلّا اثني عشر مؤلّفاً وقد طبع أكثرها فيما بقي بعضها مخطوطاً حتى يومنا هذا، ومنها ما فقد أثره؛ وباستثناء ما ألّفه في التفسير وفي اللغة والنحو، تركزت مؤلّفاته على مواضيع في السياسة والاجتماع. وهنا نشير إلى أهمها:

تفسير القرآن المعروف بـ **النكت والعيون** أو **العيون في التفسير**؛ **الحاوي الكبير** (موسوعة فقهيّة كبيرة، على ضوء الفقه الشافعي، بلغ عدد أوراق نسختها الخطيّة أربعة آلاف ورقة في ثلاثين مجلّداً. ولم تطبع بشكل كامل حتى الآن وذلك لحجمها الكبير وإنما طُبع بعض أجزائها). يقول ابن خلّكان عن هذا الكتاب ما نصّه:

---

(1) أبو صلاح عثمان بن موسى الشهرزوري، **طبقات ابن الصلاح**، نسخة الظاهريّة، ورقة 70 ب، نقلاً عن السبكي؛ المؤلف نفسه، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 5، ص 270.

لم يطالعه أحد إلّا وشهد له بالتبحّر والمعرفة التامة بالمذهب[1].

وعن هذا الكتاب كتب الحاجي خليفة يقول: «لم يؤلّف في المذهب مثله»[2].

الإقناع (وهو تلخيص لكتاب **الحاوي الكبير**، إذ لخّص الماوردي كتابه الكبير في أربعين صفحة) **الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة** (وهو من أشهر كتب الماوردي في الفكر والفقه السياسي الإسلامي، والذي تُرجم إلى العديد من لغات العالم، ويُعدّ من الكتب العالميّة)، **نصيحة الملوك**، **قوانين الوزارة وسياسة الملك**، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر، في أخلاق الملك وسياسة الملك**.

الكتب الأربعة الأخيرة وكتاب **أدب الدنيا والدين** برّزت الماوردي كعالم مرموق بين علماء السياسة والاجتماع، إلى جانب موقعه العلمي الممتاز في مجال الفقه والأخلاق. إذ يمكن عَدّه رائداً لعلماء جاؤوا من بعده، من قبيل الغزالي وابن خلدون.

ولا توجد أدنى ريبة في صحة نسبة هذا الكتاب ـ أدب الدنيا والدين ـ إليه، بل إنّ أسلوبه وقلمه، مقارنةً بالكتب الأخرى، لا يُبقي أدنى شك في ذلك.

2 ـ النسخ والطبعات

يوجد العديد من النسخ المخطوطة للكتاب في برلين والمتحف البريطاني ومصر، باسم **أدب الدنيا والدين**. وثمة نسخ أخرى في مصر

---

(1) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج 3، ص 282.

(2) حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص 628.

والإسكوريال وجامعة القرويين في فاس، وأيضاً في الموصل والهند، تحت عنوان **البغية العليا في أدب الدين والدنيا**. ويحتمل بقوة أنّ الاسم الثاني هذا هو العنوان الذي اختاره المؤلّف لكتابه، إلّا أنّ الاسم الأول هو الأشهر.

ولمّا كان هذا الكتاب قد اختير ولسنوات عدّة، منهجاً دراسيّاً للمدارس الإعداديّة بمصر ولجامعة الأزهر في مصر، لذا تمّ طبعه مرّات عدّة، ويعود تاريخ الطبعة الأولى للكتاب إلى عام 1299 هـ. حقّق الكتاب مرّتين، الأولى من قبل مصطفى السقا ـ أستاذ بكليّة الآداب في جامعة القاهرة، والذي قام بالأعمال التالية:

1 ـ مقابلة الكتاب مع نسختين مخطوطتين.

2 ـ وضع عناوين جديدة.

3 ـ شرح الألفاظ المعقّدة والمعاني الغامضة، في متن الكتاب.

وتم طبع الكتاب، بهذا التحقيق، في كلّ من القاهرة وبيروت وإيران.

التحقيق الثاني كان بقلم ياسين محمد السواس، وقد اعتمد نسختين مخطوطتين أُخريين، إلى جانب المتن المحقّق لمصطفى السقا. ويمتاز هذا التحقيق بوجود العديد من الفهارس، وكثرة الاستخراجات لمصادر الآيات والأشعار والعناوين، قياساً بالتحقيق السابق. تم طبع الكتاب عام 1413 هـ من قبل دار ابن كثير في دمشق وبيروت.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

ورد ذكر كتاب **أدب الدنيا والدين** في التراجم باسم **البغية العليا في**

أدب الدين والدنيا، فيما سمّاه بعض الآخر **أدب الدين والدنيا**، ويبقى العنوان الغالب له **أدب الدنيا والدين**. وقد تُرجم إلى اللّغة الفارسيّة ونُشر في عام 1415 هـ، من قبل انتشارات الحرم الرضوي ومركز البحوث الإسلاميّة، وذلك بقلم عبد العلي صاحبي.

وقد كتب أويس بن محمد الأرزنجاني شرحاً على الكتاب سمّاه **منهاج اليقين، شرح أدب الدنيا والدين**. ولم يكتف بشرح الكتاب، بل راح ينقد بعض مرويّاته ويقيّمها ويرجّح بعضها على بعضها الآخر.

ونظراً إلى الأهميّة التي يحظى بها الكتاب، تم طبعه مرات عدة. وفي بدايات القرن العشرين (حوالي عام 1920م.) أقرّته وزارة المعارف المصريّة كمادة دراسيّة في المدارس الثانويّة. وهذا يكشف عن المكانة الرفيعة التي حظي بها لدى أهل السنّة وخصوصاً أتباع المذهب الشافعي، وذلك لما يتضمنه من آيات قرآنيّة وروايات للرسول الأكرم (ص) وأقوال الصحابة، وحكايات وكلمات قصار لكبار الشخصيّات العربيّة والإسلامية، وأشعار حِكميّة وردت في سياق الموضوعات والعناوين الأخلاقيّة، والتي لها تأثير كبير على القارئ. من هنا، كان الكتاب وعلى مرّ التاريخ، مورد إعجاب واهتمام علماء الأخلاق، لدرجة أنّ بعض المعاصرين يرى أنّ الغزالي ـ في علم الأخلاق ـ قد تأثّر به بنحو من الأنحاء[1].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

امتاز كتاب **أدب الدنيا والدين** من بين الكتب الأخلاقيّة ـ قديمها

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 168.

وحديثها ـ بأنّه أخلاقي جامع قَلّ نظيره، خصوصاً في ذلك العصر، إذ يغطي جميع المجالات العامة للأخلاق الإسلاميّة، بدءاً بالمقدّمات المعرفيّة للتهذيب والتزكية، ومروراً بأخلاق العلم والتعلّم، وانتهاءً بأخلاق العبوديّة والأخلاق الفرديّة والأسريّة والأخلاق الاجتماعيّة. ومع ذلك كلّه، توجد نواقص يمكن الإشارة إلى بعضها:

1 ـ لم تُعطَ الفصول المرتبطة بأخلاق العبوديّة حظّها من البحث:

إنّ أدب العبوديّة من أهم المحاور التي غابت عن الماوردي فلم يبحثه. ونقصد به، عناوين من قبيل: التقوى، الزهد، التوبة، التوكّل، الرضا، التسليم، الابتهال، التضرّع، الخشوع، الخشية، الفناء والخلاص.

2 ـ **إغفال بعض البحوث المرتبطة بالأخلاق الفرديّة والاجتماعية:** في ما يتعلّق بمحور الأخلاق الفرديّة أُغفلت المواضيع التالية: الشجاعة، النظم والانضباط، الثقة بالنفس، الاتّعاظ والعدالة. وفي ما يتعلّق بمحور الأخلاق الاجتماعيّة ثمة عناوين لم يُسلّط الضوء عليها، نظير: الوفاء بالعهد، النفاق، الجفاء والتملّق، علماً أنّ المؤلّف تناول مواضيع أخلاق الأسرة تحت عنوان «الألفة الجامعة» بنحو جامع تقريباً.

3 ـ **تناول بعض المواضيع غير الأخلاقية على نحو الاستطراد:** على الرغم من أنّ **أدب الدنيا والدين** هو كتاب أخلاقي إلّا أنّه يتضمّن بعض المعالجات والبحوث التي لا تنتمي إلى الأخلاق. فإذا تجاوزنا البحوث المتعلّقة بعلم الآداب في الفصل الثامن من الباب الخامس (في آداب منثورة)، فإنّ المواضيع البلاغيّة، وموضوع

«الخط» الواردة في الباب الثاني، وكذلك البحوث الواردة في المحور الأول من الباب الرابع (ما يصلح به الدنيا)، وما ورد تحت عنوان (المادة الكافية) من ذلك الباب، كلّ ذلك يُعتبر من البحوث التي لا تمتّ بصلة إلى الأخلاق.

وفي ما يتعلّق بالأخلاق العمليّة، يوجد بحث مهم وملفت للنظر هو بحث «الصدق والكذب»، خصوصاً ما يرتبط بعنوانَيْ «الرخصة في الكذب» و«الصدق المذموم»، إذ يمكن الإستفادة من هذه البحوث في مسألة الكذب بدافع المصلحة والشبهة العالقة في هذا الجانب حول الإطلاق والنسبيّة في الأخلاق.

ويتضمّن الكتاب أيضاً عناوين أخرى لبحوث في «الأخلاق العمليّة» من قبيل أخلاق التعلّم والتعليم (الباب الثاني في أدب العلم) وبحث الأخلاق الاقتصادية (ورد في المحور الثاني من الباب الرابع تحت عنوان: وجوه المكاسب وأسباب الموارد). ومن المواضيع الشيّقة جداً والتي تتضمّن فائدة عمليّة، هي المواضيع التربويّة، من قبيل ما ورد في الباب الخامس حول طرق وآليّات تسكين الغضب، وما ورد في طرق مكافحة الحسد وأساليب إيجاد الصبر، وكذلك ما ورد في المشورة والتشاور.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يشتمل كتاب **أدب الدنيا والدين** على خمسة أبواب، يتضمن كل باب فصولاً عدّة، وهذه الأبواب هي:

1 ـ في فضل العقل وذمّ الهوى.

2 ـ في أدب العلم.

3 ـ في أدب الدين.

4 ـ في أدب الدنيا.

5 ـ في أدب النفس.

ونتعرّض الآن إلى الأبواب بصورة تفصيليّة:

الباب الأول، في فضل العقل وذمّ الهوى: تنتظم مواضيع هذا الباب في فصلين وقد اكتفى المصنّف، في الإشارة إلى ذلك، بذكر كلمة «فصلٌ» في منتصف الباب. وقد طرح جملة من البحوث، من قبيل: حقيقة وماهيّة العقل، تقسيم العقل إلى العقل الغريزي والعقل المكتسب، الحدس وسرعة البديهة والانتقال، استكمال العقل، صفات الإنسان العاقل والإنسان الأحمق، دور الهوى في مضادة العقل وصدّه، طرق تسلّط الهوى على الإنسان، والفرق بين الهوى والشهوة.

الباب الثاني، في أدب العلم: ويضمّ هذا الباب أربعة فصول؛ أغفل المصنّف ذكر عنوانين للفصلين الأول والثاني منها. الفصل الأول يبحث في شرف العلم وفضل العلماء، وكون علوم الدين أفضل وأرجح من سائر العلوم. والفصل الثاني يتعرّض إلى بيان أسباب التقصير في طلب العلم، إلى جانب مواضيع ترتبط بالبلاغة والكتابة وآداب الخط الصحيح. والفصل الثالث في أدب المتعلّم. وأمّا الفصل الرابع فيبحث عما يجب أن تكون عليه أخلاق العلماء، إذ تحدّث فيه المؤلّف عن حقوق المتعلّم على العالم وآداب التعلم والمتعلم.

الباب الثالث، في أدب الدين: لم يقسّم المؤلّف هذا الباب إلى فصول، بل تناول المواضيع على وتيرة واحدة ومن دون أن يفصل بينها، (نعم، بدوره قام مصحّح الكتاب ومحقّقه بوضع عناوين فرعيّة مناسبة). وأهمّ المواضيع التي تطرّق إليها هذا الباب هي: حكمة التكليف، أساس التكليف، تبليغ الرسول وبيانه للمجمل، استنباط العلماء بالاجتهاد، أقسام التكليف، التقرّب بالنفل، حكمة فرض الصيام والحج، الاستدراج، أقسام المحرّمات، أحوال الناس في فعل الطاعات، إغتنام الصحة والفراغ في طاعة الله تعالى.

الباب الرابع، في أدب الدنيا: في هذا الباب، يتحدّث المؤلّف عن لزوم اهتمام المؤمن بالدنيا، وأن لا ينسى نصيبه منها، بعد ذلك يتعرّض إلى بيان العوامل التي تكفل السعادة الدنيويّة وذلك ضمن محورين: المحور الأول هو، العوامل التي تنتظم بها أمور الدنيا، والمحور الثاني هو العوامل الكفيلة بإصلاح حال الفرد. ويعدد في المحور الأول ستة عوامل، هي كما يلي: الدين المتَّبع، السلطان القاهر، العدل الشامل، الأمن العام، الخصب، الدار: والأمل الفسيح. وفي المحور الثاني يذكر ثلاثة عوامل، هي: النفس المطيعة، الألفة الجامعة، والمادة الكافية. وفي حديثه عن هذه العوامل، بحث العامل الثاني والثالث من المحور الثاني (الألفة الجامعة والمادة الكافية) بشيء من التفصيل، وفي بحثه لعامل «الألفة الجامعة» أكّد الماوردي على جملة موضوعات تتعلّق بكلّ من: أخلاقيّات الأسرة، الأخوّة والصداقة والبرّ بين أفراد المجتمع. وفي الحديث عما سمّاه بـ «المادة الكافية» ـ تعرض المؤلّف إلى ذكر أقسام كلٍّ من الأشغال والمكاسب والحرف والصناعات والأخلاق الاقتصاديّة للفرد والأسرة.

الباب الخامس، في أدب النفس: هذا الباب أوسع وأكثر تفصيلاً من سائر الأبواب، إذ ينقسم إلى أربعة عشر فصلاً. يتطرّق المؤلّف ضمن محورين مستقلّين، إلى ذكر الفضائل والرذائل التي ينبغي للإنسان أن يهتمّ بها في تهذيب النفس وتأديبها. المحور الأول، في الآداب التي يستقل العقل في الحكم بوجوب اتّباعها دائماً، والمحور الثاني، في الآداب التي تأخذ طابع الإلزام بسبب تواضع العرف عليها، وجريان السُنن الاجتماعيّة على وفقها، وإن كانت ـ بموجب الدليل والتحليل العقليين ـ غير ضروريّة، وغير لازمة الاتّباع. وقد أطلق مصنّف الكتاب على المجموعة الأولى تسمية «آداب الرياضة والاستصلاح»، وعلى الثانية تسمية «آداب المواضعة والاصطلاح». ويتضمّن المحور الأول ستة فصول، هي كالآتي:

1 ـ في مجانبة الكِبر والإعجاب (ويضّم بحوثاً، منها: أسباب الكبر، أسباب الإعجاب، والسبب في ذمّ الكبر والإعجاب).

2 ـ حسن الخلق (ويشتمل على بحوث عدّة منها: الأسباب والعوامل التي تغيّر حُسن الخلق وتسوؤه نظير: النصب، والعزل، الغنى، الفقر، الهموم، الأمراض، الهرم وتقدّم العمر).

3 ـ الحياء (ويتضمّن بحوثاً، منها: علاقة الحياء بالخير والعادة، أنواع الحياء).

4 ـ الحلم والغضب ويضمّ البحوث التالية: تعريف الحلم، أسباب الحلم العشرة، الغضب الممدوح، وطرق تسكين الغضب).

5 ـ الصدق والكذب (ويتضمّن جملة بحوث، منها: دواعي الكذب، أمارات الكذب، موارد الرخصة في الكذب، وموارد الصدق المذموم: الغيبة، السعاية والنميمة).

6 ـ الحسد والمنافسة (من البحوث الواردة في هذا الفصل: حقيقة الحسد، دواعي الحسد الثلاثة، دواء الحسد، وآفات الحسد).

وأمّا المحور الثاني فيشتمل على ثمانية فصول، هي كالآتي:

1 ـ الكلام والصمت (ويضمّ هذا الفصل بحوثاً، منها: الشروط الأربعة التي يحسن بها الكلام، آداب التحدّث إلى الناس، فضل الكلام، وفضل الصمت).

2 ـ الصبر والجزع (ويتضمّن البحوث التالية: فضل الصبر، أقسام الصبر الستة، الأسباب والعوامل التي تسهّل المصائب، وأسباب الجزع).

3 ـ في المشورة (يتضمّن هذا الفصل بحوثاً، من قبيل: فضل المشورة وضرورتها وخصال المشير).

4 ـ كتمان السر (ويتضمّن بحوثاً، منها: كتمان السر، ما يترتّب على إفشاء السر من مفاسد، وخصال أمين السر).

5 ـ المزاح والضحك (من أهمّ موضوعات هذا الفصل هي: آفات المزاح وأضراره، وآفات الضحك).

6 ـ الطيرة والتفاؤل (ويضمّ الفصل بحوثاً من قبيل: مضرّات التشاؤم، وعلاقة اليأس بالتطيّر، وفوائد التفاؤل بالخير).

7 ـ المروءة (ويضمّ بحوثاً من قبيل: مفهوم المروءة وشروطها، علوّ الهمّة وشرف النفس، المروءة بحق النفس وشروطها الثلاثة، والمروءة بحق الآخرين وشروطها.

8 ـ آداب منثورة (ويتضمّن مواضيع من قبيل: آداب الأكل والشرب، آداب الملبس، آداب العلاقة مع الخدم، آداب النوم، ومحاسبة النفس).

في تقييمنا لخطة الكتاب في تنظيم الموضوعات، نخلص إلى هذه النقاط:

1 ـ ما بذله المصنّف من جهود ـ على صعيد تبويب مواضيع الكتاب وتنظيمها وتصنيفها ـ أمر مشهود ويستحقّ التقدير، فالمخاطب بإمكانه وبسهولة، أن يحدّد موقع موضوع من المواضيع ضمن النظام العام للكتاب، على الرغم من كبر حجم الكتاب.

2 ـ الترتيب والنسق المنطقي للموضوعات المندرجة تحت كلّ باب، يبدو مقبولاً إلى حدٍ كبير.

3 ـ يمكن القول إنّ المؤلّف نجح في الأخذ بيد القارئ لتكوين موقف فكريّ مؤكّد وقريب من المنظور الفكريّ الذي أراد أن يبثه من خلال هذا الكتاب.

فالتأمّل في معطيات الأبواب الثالث، والرابع، والخامس، يساعد القارئ في التوصّل إلى صورة عامة مفادها أنّ البابين الأول والثاني يُعنيان بدارسة موضوع أساس ومحورَيْ وهو «دور المعرفة، والعقل، والتعلّم في تحصيل السعادة البشريّة». وأمّا الباب الثالث فيُعنى بالحديث عن «أخلاق العبوديّة والتديّن». ويختص الباب الرابع ببحث «الأخلاق الأسريّة والاجتماعيّة». والباب الخامس بـ «الأخلاق الفردية».

4 ـ على الرغم من التصوير الذي ألمحنا إليه في النقطة السابقة، فإن الهيكلية العامة للكتاب (مع الأخذ بعين الاعتبار عنوان الكتاب (في أدب الدنيا والدين)، تبدو غير مناسبة. وكان من الأفضل أن يشتمل الكتاب على مقدّمة (تتضمّن المواضيع الموجودة في البابين الأول

والثاني)، وبابين عامّين هما باب «أدب الدنيا» وباب «أدب الدين»، وذلك باعتبار أنّ بحوث الباب الخامس ـ أي أدب النفس، والتي تتعرّض إلى دراسة العوامل التي يجب على الإنسان أن يعتمدها في تهذيب نفسه وتزكيتها هي برمّتها ذات دخل في إعمار وسعادة الدنيا والآخرة معاً، ولذا لا يمكن جعل هذه العوامل في تقسيم أولي، كقسيم في عرض «أدب الدين» و«أدب الدنيا». ومثل هذه المشكلة تظهر أيضاً في البابين الأول والثاني. وكان من الأفضل للمؤلّف أن يبحث كلاًّ من الأخلاق الفرديّة، والأسريّة، والاجتماعيّة في باب «أدب الدنيا»، ويبحث أخلاق العبودية والتديّن بوجه خاص في «أدب الدين». وبنظرة إجماليّة سريعة يمكن القول إنّه بلحاظ حجم المواضيع المطروحة في الكتاب فإنّ الأخلاق الفرديّة والأخلاق الاجتماعيّة (في البابين الرابع والخامس) قد نالت القسط الأوفر من الاهتمام.

6 ـ منهجيّة الكتاب

الملاحظ أنّ منهجيّة الماوردي، في كتابه هذا، هي منهجيّة توفيقيّة، بمعنى أنها في بيان معالجاتها لا تقتصر على أساليب ومناهج خاصة، فلسفيّة كانت أم عرفانيّة، كما إنها لا تقف عند حدود بيان الآيات والروايات، والحكايات، بل نجد أنّ منهجيّته في بداية كلّ فصل. وبعد بيان فكرة الموضوع وعدد من الأدلّة التي تأخذ طابعاً خاصاً يتناسب مع الموضوع، هي الإفادة من الآيات والروايات وكلمات الحكماء والأدباء، وأيضاً من الأشعار والحكايات، من أجل تعميق وتوضيح المطالب أكثر فأكثر. وهذا ما جعل الكتاب شيّقاً، ينتشر في أوساط الناس ويجد له قراءً وطلاباً.

ويمتاز الكتاب باشتماله على نظام جيد ومنسجم في ما يبيّنه، إذ رُوعي في بيان المواضيع أن يكون كلّ بحث في محلّه المناسب. وبصورة عامة لا تجد في الكتاب أثراً للإرباك والخلط أو عدم الترتيب.

ومن ضمن عناصر القوة التي يحظى بها الكتاب، هي أنّ تحليلات المصنّف جاءت مستندة إلى رؤية عميقة تنأى عن السطحيّة وتولّي الدواعي والبواعث اهتماماً خاصاً. وفي ما يتعلّق بأسلوب عرضه للبحوث، اهتمّ المصنّف بتصنيف الموضوعات وتنويعها والتعريف بها ضمن مجاميع، وقد بدا هذا الجهد على درجة كبيرة من الوضوح في ما يتعلّق بتقاسيم الكتاب. وفي موارد كثيرة راح المصنّف يحلّل ويتعمّق في استكشاف جذور الرذائل الأخلاقيّة ومناشئها، وعمد إلى بيان الحلول العمليّة لعلاجها، شأنه في ذلك شأن الطبيب الحاذق. وإلى جانب ذلك اهتمّ أيضاً ببيان طرق اكتساب الفضائل. وطبيعي أنّ جميع هذه الجهود والاهتمامات جديرة بالتقدير.

وعلى الرغم من أنّ الهدف الذي يطمح إليه المؤلّف هو تأليف كتاب في الأخلاق، إلا أنه في نهاية كتابه هذا ألحق جملة بحوث مهمة في علم الآداب إتماماً للفائدة، وذلك باعتبار العلاقة المتينة والحميمة التي تربط بين علم الأخلاق وعلم الآداب. وأمّا المنهج التربوي الذي اختاره فقد اعتمد على البُعد المعرفيّ والعلميّ، ومن هنا نجد أنّ حجم النصائح والمواعظ المرتبطة بالجانب السلوكي في الكتاب قليل جداً. وفي ما يتعلّق بتحديد الغاية في علم الأخلاق، سواءً على الصعيد العمليّ أم على الصعيد النظريّ، نجد أنّ الكتاب خالٍ من أيّ منظور عرفانيّ. ويبدو أنّ

التعاليم الأخلاقيّة والتربويّة التي تضمّنها الكتاب، لم يكن الهدف منها إيصال القارئ إلى أفق «الشهود» أو الأخذ بيده إلى أفق «الوصول والفناء».

7 ـ أدبيّات الكتاب

إلى جانب استشهاده بالآيات القرآنيّة، والروايات النبويّة، أفاد الماوردي في كتابه هذا من أقوال الخطباء، والحكماء، وصحابة رسول الله (ص) وحكمهم كثيراً، وأظهر ذوقاً أدبيّاً رفيعاً في تأليفه للكتاب. فقلّما تجد صفحة في صفحات الكتاب لا تتضمّن أبياتاً شعريّة جميلة، لشعراء عرب مشهورين كانوا أو مجهولين. هذه الأبيات الشعريّة والمقطوعات الأدبيّة والتي لا تتجاوز، في الأعمّ الأغلب، البيتين والثلاثة أبيات، تعكس التفات المؤلّف إلى التأثير الروحي العميق الذي يتركه الشعر والأدب على المخاطب، إذ يبعث نحو الفضائل والمكرمات. (ولذا نجد أنّ الكتاب أفاد من أكثر من مائة وعشرين آية، وأربعمائة حديث وأثر وحكمة، وستمائة مقطوعة شعريّة. تجدر الإشارة إلى أنّ المؤلّف أبدى اهتماماً كبيراً بكلمات أمير المؤمنين علي (ع) الحِكميّة قياساً بسائر الخلفاء).

امتاز قلم المؤلّف بالسلاسة، والوضوح، والإتقان، والمتانة العلمية المناسبة، إلّا في موارد نادرة ـ. كما لا يجد القارئ في الكتاب أثراً للمصطلحات المعقدة ولا للعلوم والفنون الخاصة. وكان للأمثال والحكايات اللطيفة أثرها الكبير في الترويح عنه وإبعاده عن السأم والضجر.

يقول الماوردي في مقدمته في وصف الكتاب:

وقد توخّيت، في هذا الكتاب، الإشارة إلى آدابهما ـ الدنيا والدين ـ وتفصيل ما أجمل من أحوالهما، على أعدل الأمرين: من إيجاز وبسط، أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء، فلا ينبو عن فهم ولا يدقّ في وهم، مستشهداً من كتاب الله جلّ اسمه بما يقتضيه، ومن سُنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه. ثم مُتبعاً ذلك بأمثال الحكماء، وآداب البلغاء، وأقوال الشعراء، لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة، وتسأم من الفن الواحد.

8 ـ التقييم النهائي للكتاب

يأتي كتاب **أدب الدنيا والدين** في عداد الكتب المهمّة التي أثّرت على الاتجاه التوفيقيّ للأخلاق الإسلاميّة. حيث استطاع أن يقدّم جهداً أدبيّاً جامعاً في مجال الأخلاق الإسلاميّة، ويعرّف القارئ بكمّ هائل من الآيات والروايات الأخلاقيّة، إلى جانب تراث أدبي وحِكْميّ كبير لدى المسلمين.

وقد تناول المصنّف بحوثاً عدّة، الكثير منها هي من إبداعاته ومبتكراته، وضمّنها موضوعات أخلاقيّة كثيرة، ودوّنها في حجم مناسب من الصفحات (حوالي خمسمائة صفحة)، وراح يدعمها بأدلّة مُحكَمة ومستندات قويّة. وهو حرص على أن يعرضها بأسلوب شيّق يمكّنه من استيفائها، من دون أن يعرّض القارئ إلى السأم أو الضجر. وبكلمة، يمكن القول إنّ الجهد الذي بذله المؤلّف في تنسيق وترتيب الموضوعات والبحوث المقصودة، جاء موفقاً للغاية. وطبيعي أنّه توجد بعض الثغرات، وقد أشرنا إلى بعضها عند الحديث عن هيكليّة الكتاب.

3
الذريعة إلى مكارم الشريعة[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

المؤلّف هو أبو القاسم حسين بن محمد بن مفضال المعروف بالراغب الأصفهاني، من أعاظم علماء المسلمين. وقد اختلف المؤرّخون في ضبط اسمه ونسبه، لكنهم اتفقوا على كنيته ولقبه، فذكر السيوطي أنّ اسمه المفضل بن محمد[2]، وأمّا آقا بزرگ الطهراني فذكره باسم حسين بن محمد بن الفضل[3]، وذكر المدرس التبريزي أنّ اسمه الحسين بن محمد بن المفضل أو المفضّل بن محمد[4]. لكن المثبت في أغلب التراجم هو الحسين بن المفضل.

ولم تذكر كتب التراجم تاريخ ومحلّ ولادته، غاية الأمر أنه عرف بالأصفهاني. وبما أنه ورد ذكره في بعض المصادر في عداد أدباء أصفهان المتقدّمين؛ لذا ليس من البعيد أن يكون من مواليد أصفهان، أو أنه عاش فيها مدّة طويلة، خصوصاً وأنه قد أبدى اهتماماً خاصاً بها في بعض

(1) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الإصفهاني، (ت 502 هـ)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق أبو اليزيد العجمي، [قم] منشورات الشريف الرضي، 1414 هـ، ط 1، 500 صفحة، قطع وزيري 56 صفحة مقدّمة و75 صفحة فهارس.

(2) السيوطي، **بغية الوعاة**، ج 2، ص 297.

(3) آقا بزرگ الطهراني، **الذريعة**، ج 10، ص 28.

(4) محمد علي مدرس، **ريحانة الأدب**، ج 2، ص 292.

كتاباته. وذكرت بعض التراجم أنه كان يعيش في بغداد[1] وتوفّي فيها[2]. وثمة اختلاف أيضاً حول تاريخ وفاة الراغب، إذ ذكر صاحب **أعيان الشيعة** أنه توفّي عام 502 هـ، وخطّأ من يقول إنّ تاريخ وفاته هو عام 565 هـ (وكان صاحب **روضات الجنات** قد نقل هذا القول عن كتاب **تاريخ أخبار البشر**) مستدلاً على ذلك بأنه، ذكر في الكتاب أنّ وفاة الراغب كانت قبل وفاة الزمخشري والحال أنّ الزمخشري، توفّي عام 538 هـ، وثانياً، ذكر صاحب **كشف الظنون** أنّ الغزالي كان يحمل كتاب **الذريعة** للراغب معه دائماً، والحال أنّ الغزالي توفّي عام 505 هـ [3].

وفي ما يتعلّق بأساتذة الراغب وتلاميذه، لا توجد لدينا معلومات سوى ما نقله الزبيدي في كتابه **تاج العروس** عند الحديث عن عدم صحة استعمال فعل «انبهَمَ»، إذ نقل عن الراغب قولاً لأبي الحسن علي بن سمعان الغرناطي في هذا الصدد، وذكر ـ أي الراغب ـ أنّ علي بن سمعان هذا أستاذه[4].

وتكشف كتب الأصفهاني ومصنّفاته، عن سعة إلمامه وإحاطته باللّغتين العربيّة والفارسيّة، إلى جانب علوم عدّة كالتفسير، واللغة، والحكمة، والأخلاق، والشعر، والحديث، والكلام[5]. فقد أُثر عنه مؤلّفات عدّة نشير هنا إلى أهمّها: **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء**

---

(1) إسماعيل بن محمد الباباني، **هدية العارفين**، ج 1، ص 311

(2) محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 3، ص 227.

(3) السيد محسن الأمين العاملي، **أعيان الشيعة**، ج 6، ص 160.

(4) المرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، ج 16، ص 65.

(5) عبد اللّه الأفندي، **رياض العلماء**، ج 2، ص 172؛ محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنان**، ج 3، ص 197.

والبلغاء، أحوال المودّات ومراعاة المحبّات، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، أخلاق الراغب (في علم الأخلاق)، الإيمان والكفر، تفسير القرآن، مفردات القرآن، وتحقيق البيان في تأويل القرآن[1].

في ما يتعلّق بمذهب الراغب، فإنّ ثمة اختلافاً في الآراء؛ فعدّهُ بعض في الفقه من أهل السنّة شافعيَّ المذهب، وفي الأصول معتزليّاً أو أشعريّاً[2]. إلّا أن الحسن بن علي الطبرسي عدّه في الصفحات الأخيرة من كتاب **أسرار الإمامة**، من الشيعة الإماميّة. كما أورد كلٌّ من السيد محسن الأمين العاملي في كتابه **أعيان الشيعة**، ومحمد باقر الخوانساري في **روضات الجنات**، قرائن ومؤيدات عدّة تقوّي احتمال تشيّعه، منها كثرة روايته عن أئمة أهل البيت (ع)، ووصفه الإمام علي (ع) بأمير المؤمنين دائماً، وحرصه على الإكثار من ذكر فضائله ومناقبه، وعدم النقل عن سائر الخلفاء إلّا في موارد قليلة. وهذا ما يمكن استكشافه من بعض فقرات كتاب **الذريعة**[3]. وإن كان في كلماته موارد لا تنسجم مع أصول مدرسة أهل البيت (ع)ومرتكزاتها[4].

إلى ذلك، لا يوجد أدنى ترديد في صحة انتساب كتاب **الذريعة إلى مكارم الشريعة** إلى الراغب، فقد أخبر الشيخ آقا بزرگ الطهراني صاحب

---

(1) السيد محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، ج 6، ص 161.

(2) جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة**، ج 2، ص 297؛ محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 3، ص 199 ـ 197.

(3) الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ذكر من يصلح لوعظ العامة، ص252.

(4) المصدر نفسه، المكتسب من العقل الدنيويّ والأُخرويّ، ص 173 (لا ينسجم الرأي الذي ذهب إليه، في خصوص عصمة الأنبياء، مع أسس ومباني مدرسة أهل البيت (ع).

الذريعة إلى تصانيف الشيعة عن مشاهدته لنسخة من كتاب يحمل عنوان **الذريعة إلى أخلاق الشريعة** (بخط ابن مقاتل الجلودي)، بضميمة رسالة بعنوان **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**. واستظهر أن تكون هذه النسخة هي نفسها كتاب **الذريعة إلى** مكارم الشريعة[1].

2 ـ النسخ والطبعات

توجد مخطوطات عدّة لهذا الكتاب، نشير هنا إلى بعضها: ثلاث مخطوطات في مكتبة الروضة الرضويّة المقدّسة، لكنها ليست قديمة، إلّا أنّ صاحب **الذريعة** قد أخبر عن وجود مخطوطة في المكتبة ذاتها كان قد شاهدها بنفسه، يعود تاريخها إلى عام 708 هـ[2]. وتوجد مخطوطتان أُخريان في المكتبة المركزيّة لجامعة أصفهان برقم 17170. ومخطوطة في المتحف البريطاني، لكن تاريخ كتابتها لا يكاد يقرأ ويحتمل أن يعود تاريخها إلى عام 594 هـ، وأيضاً ثمة نسختان أُخريان في مكتبة شخصية يعود تاريخ إحداهما إلى عام 521 هـ، وهي لصاحبها حجة الإسلام والمسلمين السيد أحمد التويسركاني. وطُبع من الكتاب طبعات عدّة نشير إلى بعضها:

طبعة النجف الأشرف، مطبعة الحيدريّة، تقديم الشيخ عبد الزهراء العاتي، 1387 هـ؛ طبعة القاهرة، تقديم وتحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكلّيات الأزهريّة، 1393 هـ؛ طبعة القاهرة، تقديم وتحقيق أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء، 1408 هـ؛ طبعة جامعة أصفهان، تقديم وتحقيق سيد علي ميرلوحي، 1417 هـ.

---

(1) آقا بزرگ الطهراني، **الذريعة**، ج 10، ص 26 ـ 28.

(2) المصدر نفسه.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

ترجم الكتاب إلى الفارسيّة مرتين، الأولى تحت عنوان **روش بزرگواري در إسلام**، ترجمة حسن فريد گلبايگاني، طبعة طهران، انتشارات صبا، 1370 هـ. ش. والثانية بعنوان **كرانه سعادت** ترجمة وتحقيق السيد مهدي شمس الدين، طبعة قم، نشر نور نگار، 1417 هـ، وما عدا هاتين الترجمتين لم نعثر على أيّ جهد آخر على صعيد الشرح والنقد.

حاول الراغب، في كتابه هذا، أن يتعرّض إلى شرح الموضوعات الأخلاقيّة وتبيانها، معتمداً في ذلك على أسلوب التحليل اللّغويّ وبالاحتكام إلى القرآن الكريم، إلّا أنّ الملاحظ هو أنّ جوهر الفكر الأخلاقي اليوناني والذي يتمظهر في التقسيم الثلاثي المعروف لقوى الإنسان، قد ألقى بظلاله على الكتاب. وطَبَعه بطابعه الخاص، كما إنّ قراءة عابرة لبحوث الفصل الأول من الكتاب وبعض الأبواب الأخرى منه، تكشف وبوضوح تأثّر المصنّف بالمشرب الفلسفي الذي مضى عليه أسلافه من العلماء. وتعكس بعض عناوين وبحوث الكتاب آراء المفكّرين السابقين، فمثلاً، باب منازعة العقل والهوى، وباب الفرق بين ما يسومه العقل وما يسومه الهوى؛ نجد في كلّ منهما تشابهاً وتقارباً كبيراً مع ما ذهب إليه الرازي في كتابه **الطبّ الروحاني**. كما نجد بصمات بعض بحوث وتقسيمات كتاب **أدب الدنيا والدين** للماوردي إلّا أنّ قدرة الراغب على الإبداع والإعداد يمنع البتّ في دعوى تأثّره بالمفكّرين الذين أشرنا إليهم توّاً[1].

---

(1) انظر: الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، مقدّمة أبو زيد العجمي، ص 42.

وحـول التأثير الذي تركه الكتاب على العلماء الذين جاؤوا بعد الراغب، نكتفي بما أُثر عن الغزالي من اهتمامه الكبير به، لدرجة أنه كان يصحبـه معه في حلّه وترحالـه، وقـد استفاد من أسـلوبـه في التحليل في مؤلّفاته الأخلاقية[1]. وربما حمل هذا الاهتمام الشديد بعضاً على أن يظنَّ خطأً أنَّ كتاب **الذريعة إلى مكارم الشريعة** هو من تأليف الغزالي[2].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

بحث الكتاب أهمّ العناوين المتعلقة بـ «الأخلاق الفرديّة» و«الأخلاق الاجتماعيّة». وعموماً يُعدّ كتاباً جامعاً وإن كان المتوقّع أن يضمّنه الراغب موضوعات من قبيل: العزّة، والكرامة، والإحساس بالمسؤوليّة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، والنفاق، والتي يؤكّد عليها القرآن الكريم كثيراً. والملاحظ أنّ العناوين المرتبطة بأخلاق الأسرة وأخلاق العبوديّة لم يسلّط عليها الضوء ولم تُوَفَّ حقّها من البحث؛ فمثلاً، في خصوص أخلاق الأسرة، لم نعثر على معالجات في هذا الجانب سوى باب الغيرة من الفصل الرابع. وفي ما يتعلّق بأخلاق العبوديّة، نقرأ العناوين التالية: حاجة بعض الفضائل إلى البعض (شبكة الفضائل)، ما يَحسُن ترك العدل فيه (التنافي الظاهري؛ مع الحُسن الذاتي للعدالة)؛ صعوبة المعيار الذي تُدَرك به حقائق العلوم؛ تعذّر إدراك

---

(1) بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج 5، ص 209؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص 827.

(2) أبو جعفر عمر بن محمد السهروردي، **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء**، ج 1، ص 36.

العلوم النبويّة على من لم يتهذّب في العلوم العقليّة؛ في الفضائل التوفيقيّة (أي الفضائل غير الاكتسابية التي يحصل عليها الإنسان بتوفيق من الله جلّ وعلا)؛ والى جانب عناوين أخرى تأتي بالدرجة الثانية من الأهميّة.

5 ـ هيكلية الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

رتّب الراغب الأصفهاني كتاب **الذريعة** على سبعة فصول وفق ما يأتي:

الفصل الأول:

الفصل الأول، في 35 باباً وتحت عنوان: «في أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه»، ويشتمل على موضوعات نظير: ماهيّة الإنسان؛ قوى الإنسان؛ الإنسان بين البهائم والملائكة؛ طهارة النفس شرط الخلافة الإلهيّة؛ المنازعة بين العقل والهوى؛ الفرق بين الطبع والسجيّة والخلق والعادة؛ أنواع الفضائل الجسميّة، النفسيّة، التوفيقيّة.

في البدء يستهل المؤلّف كلامه بآيات من القرآن الكريم، يبيّن من خلالها بدء خلق الإنسان، والغاية من خلقه، والمصير الذي سيؤول إليه، ووجهة نظر القرآن في السعادة. ثم يعرض إلى الحديث عن تركيبة الإنسان، أي عن الجسم والنفس ـ والتي سمّاها القرآن بالروح ـ وأنّ معرفة النفس هي السبيل إلى معرفة الله تعالى. ويرى أنّ للإنسان خمس قوى، هي: الغذاء، الحسّ، التخيّل، النزوع، والتفكّر.

ويعتقد صاحب **الذريعة** أنّ الإنسان لا يكون أشرف المخلوقات إلّا إذا تمّ تجهيزه بالعلم الحقيقي والعمل الصالح والراسخ. وهذان العاملان

هما اللّذان ينهضان بالإنسان ليجعلاه في أفق الملائكة، كما يرى أنّ إعمار الأرض، وعبادة الله تعالى، وخلافة الله، هي أعمال مختصّة بالإنسان.

ويعدّ الراغب أموراً من قبيل: الحكمة والعدل بين الناس، والحلم والإحسان، والتفضّل، على أنها من أبرز مصاديق مكارم الشريعة. وحول النسبة بين العبادات والمكارم، يعتقد المؤلّف أنّ العبادات أعمّ من المكارم وذلك باعتبار أنّ كلّ مكرمة هي عبادة، ولكن ليس كلّ عبادة مكرمة. ومن جهة أخرى فإنّ العبادات واجبة والمكارم مستحبّة وفضل، فكلّ من أراد الوصول إلى مكارم الشريعة، ينبغي له أولاً أن يكون كاملاً في عباداته، فإنّه لا يستطيع الوصول من ضيع الأصول.

يرى المؤلّف أنَّ «طهارة النفس» هي شرط الوصول إلى مقام الخلافة الإلهيّة، وطريق الوصول إلى الطهارة هو العلم والعبادة. بعد ذلك يتعرّف القارئ على سمات ومختصّات الأعمال الناشئة من العقل، وتلك المنبعثة عن الهوى، ويعي الفرق بين الشهوة والهوى، وأن الشهوة تنقسم إلى ممدوحة ومذمومة. وأمّا الهوى، فهو قسم واحد ومذموم. كما يتعرّف القارئ في هذا الفصل على الفروق الموجودة بين كلّ من «الطبع»، و«السجيّة»، و«الخلق»، و«العادة».

ويعدّد صاحب الذريعة لكلّ قوة من القوى الثلاث: الشهويّة، والغضبيّة، والناطقة، جملة المشاكل التي تختصّ بها، ليخرج بعد ذلك بنتيجة وهي أنّ إصلاح القوة الشهويّة أصعب من تهذيب القوّتين الأخريين. وبعد ذلك يشير إلى أنّ بعض الفضائل التي تحتاج في وجودها إلى فضائل أخرى، تكون بمثابة مقدّمات محقّقة لها.

ويقسم الراغب الخيرات إلى ثلاثة أقسام: الخيرات النافعة، والخيرات اللذيذة، والخيرات الجملية. وينقسم كلّ قسم من هذه الخيرات إلى مطلقة ومقيّدة، وفي المقابل تنقسم الشرور إلى ضارة، وقبيحة، ومذمومة، وكلّ واحدة منها إلى مطلق ومقيد.

وفي تقسيم آخر، يقسّم المؤلّف الفضائل إلى خمسة أقسام، وضمن حديثه عن هذه الأقسام، يعقد بحثاً موجزاً تحت عنوان «الفضائل التوفيقية»، قلّما تُطُرِّق إليه، يذكر من خلاله أنّ ثمة سجايا يحتاج الإنسان في اكتسابها إلى عناية إلهيّة خاصة. ونقرأ في الأبواب الأخيرة من الفصل الأول، حول الموانع التي تصدّ عن عمل الخير وكسب الفضيلة، ومن ثم نتعرّف على مراحل الصعود في درجات الفضائل، والسقوط في دركات الرذائل. وفي خاتمة الفصل، يتعرّض الكتاب إلى تصنيف الناس، أخلاقياً، إلى أصحاب الشهوة، وأصحاب الكرامة والسياسة، وأصحاب الحكمة.

الفصل الثاني:

يقع الفصل الثاني في 44 باباً، تحت عنوان «وفي العقل، والعلم، والنطق، وما يتعلّق بها وما يضادها». ويتضمّن العناوين الآتية: فضيلة العقل، أنواع العقل، وجوب بعثة الأنبياء، الإيمان والإسلام، التقوى والبر، الجهل، ارتكاز العلوم في النفس الإنسانية، معرفة أنواع العلوم، آداب التعلم، آداب التعليم، شروط التبليغ والموعظة، الجدال والنطق والسكوت، الصدق والكذب، الشكر، الغيبة، النميمة، المزاح، الكلام القبيح.

في الفصل الثاني، تعرّض المؤلّف إلى بحوث مسهَبة حول «القوة الناطقـة» لدى الإنسـان. والملاحـظ أنّ جانباً لا بأس به من هذه البحوث هي استطرادات لا تمتّ إلى الأخلاق بصلة، وإنما تتعلّق بمعاني العقل ومراتبه وأدواره، وقوى الإنسان المعرفيّة، ودور العقل في البحوث الاعتقاديّة، والرؤية الكونيّة التوحيديّة، وأنواع العلوم. نعم، توجد أبواب استقلّت ببحث عناوين أخلاقيّة محدّدة، فمثلاً، في بابين متواليين تطرّق المؤلّف إلى أخلاق التعلّم وأخلاق التعليم، وفي بابين آخرين تعرّض إلى بيان آداب الوعظ والإرشاد. ولمّا كانت قوة النطق الباطنيّة مرتبطة بالنطق الظاهر والقول باللسان، خصّص الراغب الأبواب العشرة الأخيرة من هذا الفصل للفضائل والرذائل المرتبطة باللسان. وبعد أن يُرجّح أصل التكلّم على السكوت، يتطرّق إلى بيان بعض الوظائف، من قبيل: الشكر والحمد ذات الطابع المقولي، ثم يتحدّث عن الانحرافات المرتبطة باللسان.

الفصل الثالث:

يقع الفصل الثالث في 15 باباً وعنوانه «في ما يتعلّق بالقوى الشهويّة». ويتضمّن عناوين من قبيل: الحياء، علوّ الهمة، الوفاء، المشاورة، النصح، كتمان السر، التواضع، الفخر، العجب، أنواع اللذّات، العفّة، القناعة، الزهد، الورع إلى غير ذلك.

لقد بحث المؤلّف في هذا الفصل جملة من فضائل ورذائل القوة الشهويّة. في البداية تحدّث عن الحياء وأنه أول مراتب الإدراك الإنساني، ويتجلّى عند الأطفال والصبيان. وهو يرى أنّ الحياء مركّب من الخوف

والعفّة. ثم يتحدّث عن علاقة الحياء بالخجل والوقاحة وطرق اكتساب الحياء.

بعد ذلك يتعرض الراغب إلى الحديث عن «علوّ الهمة»، وأنه الحدّ الوسط بين «صغر الهمة» و«التفنج»[1]، ويذكر الطريق إلى اكتساب هذه الفضيلة المهمة. ثم يتعرّض إلى الحديث عن «الوفاء» وتعريفه ومواصفاته وما يقابله وهو «الغدر». وهو يعدّ الوفاء أخا الصدق والعدل ويؤكّد أهميّته. ومن البحوث المهمة في هذا الفصل بحث «التواضع»، إذ يعرّف المؤلّف التواضع بأنه رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته، وأنه الحدّ الوسط بين الكبر والضِعة. ثم يذكر وجه الفرق بين التواضع والخشوع، ويبحث عن خصلتين متمايزتين هما «الكبر والتكبر»، ويذكر بعض المصاديق الخفيّة لكلّ منهما.

وبمناسبة البحث عن التكبر، يتناول الراغب الأبواب التالية: موضوع الفخر وموضوع العجب والفرق بينهما والأساليب الكفيلة للتخلص منهما. ومن العناوين المهمة في هذا الفصل «أنواع اللذات»؛ إذ يصنّف اللذات إلى ثلاثة أقسام، ومن ثم يحدّد القيمة الأخلاقيّة لكلّ قسم من هذه الأقسام. ثم يخصّص لكلّ مصداق بارز منها ـ أي لذّة البطن ولذّة الفرج ـ باباً خاصاً. وفي خاتمة الفصل يدعو القارئ إلى الورع عبر بابَيْ «الزهد» و«القناعة». ويعرف القناعة بأنها «الرضا بما دون الكفاية»، ويعدّها الزهد الحقيقي، ويسمّي الزهد من دون قناعة «تزهداً». وهو يشير

(1) التفنّج: تأهل الإنسان إلى ما لا يستحقّه وهو البذخ، الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص 291.

عبر بيان واضح وجميل إلى أنّ الزهد مركّب من «الصبر» و«الجود». أمّا «الورع»، فيعرّفه بأنه ترك التسرّع في تناول أعراض الدنيا، وأنه على ثلاثة ضروب هي: واجب، وندب، وفضيلة.

الفصل الرابع:

الفصل الرابع وعنوانه «في ما يتعلّق بالقوى الغضبيّة» يقع في اثني عشر فصلاً، ويتضمّن عناوين من قبيل: الصبر، الشجاعة، الغم، السرور، الفرح، العذر والتوبة، الحلم والعفو، كظم الغيظ، الغيرة والغبطة، والمنافسة والحسد.

في بداية الفصل، يفيد المؤلّف من بيان تحليلي يعتمد معطيات علميّة، فسلجيّة ونفسيّة، لغرض الكشف عن كيفيّة تأثير الحالات الروحيّة على طبيعة تحرّك الدم من القلب، ويذكر ثلاث حالات هي: الغم، والغضب، والحقد، تنشأ من تحرك «حميّة» الإنسان، ويُراد بها القوة الغضبيّة.

وفي الباب الثاني، يتحدّث المؤلّف عن «الصبر وأنواعه»، وفي البداية يقرّر أنّ الصبر على ضربين: جسمي ونفسي، ثم يعقد بحثاً حول الصبر بمظاهره الثمانية. وفي نهاية الفصل يعطي تفسيراً ظريفاً للحديث الشريف «الصبر نصف الإيمان»، ضمن بيان علمي مجرّد.

في باب آخر يتحدّث المؤلّف عن فضيلة الشجاعة ويقسمها إلى خمسة أقسام (السبعيّة، البهيميّة، التجريبيّة، الجهاديّة، والحكميّة) يميّز بينها، معتبراً الشجاعة الحِكميّة فقط هي فضيلة من دون سائر الأقسام. وعلى كلّ حال فإنه يرى أنّ هذه الفضيلة هي الحدّ الوسط بين التهوّر

والجبن. وتناسباً مع موضوع الجبن، يعرض المؤلّف إلى بيان أنواع الفزع والجزع وموارد الافتراق بينهما. والملاحظ أنّ أغلب البحوث التي تلي هذا البحث، تطرح ضمن اتجاه يعنى بمعالجة الخوف والغم، خصوصاً الخوف من الموت وكيف يمكن التعامل مع هذه الظاهرة بحكمة ومن منطلق إيماني؟ ويعدّ بحث «التوبة» من أهم أبواب هذا الفصل، إذ يذكر فيه أموراً عدّة، منها: أنّ التائب الحقيقي قد يكون، من بعض الجهات، أفضل من الإنسان الذي لا ذنب له.

ومن عناوين هذا الفصل: العفو، الحلم، وكظم الغيظ. وهي عناوين لأبواب بحث فيها المؤلّف مداليل هذه العناوين وأقسامها.

يعتقد الراغب أنّ مصطلح «الغيرة» في منطق الشارع المقدّس، يتضمّن جملة التجليّات الممدوحة للقوة الغضبيّة والتي تبعث على صون المظاهر العامة للعفّة وكذلك تحفظ للأسرة كيانها وحرمتها.

ويختصّ الباب الأخير من هذا الفصل بـ «الغبطة، والمنافسة، والحسد». يرى المؤلّف أنّ الغبطة هي مجرّد أن يتمنّى الإنسان الحصول على ما لدى الآخر من موهبة ونعمة. وأمّا المنافسة، فهي تزيد على الغبطة بأنها تتضمّن معنى السعي والمثابرة للحصول على ما تمنّاه، وكلاهما ـ أي الغبطة والمنافسة ـ ممدوحان. وأمّا الحسد وهو من أكبر الرذائل، فهو تمنّي زوال نعمة الآخرين، وهو قمة البخل؛ وذلك لأن البخيل يبخل بماله والحسود يبخل بمال الله الذي وهبه عزّ شأنه للآخرين. ويعتبر الراغب الحسدَ سببَ العداء الذي يكنّه إبليس للإنسان. ويرى في الحرص أنه هو السبب الذي أدّى إلى طرد آدم (ع) من الجنة، فيصل إلى هذه النتيجة وهي أنّ «الحرص والحسد هما سبب كلّ معصية».

وأمّا الفصل الخامس «في العدل، والظلم، والمحبة، والبغض»، ويتضمّن 13 باباً، نشير هنا إلى بعضها: أنواع العدل، الظلم، الأسباب التي تحصل منها الأضرار، المكر والحيلة، ماهيّة المحبة، الصداقة، فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته، والعداوة.

وقد تناول المؤلّف، في الفصل الخامس، مقولة «العدل والظلم»، ثم تطرّق إلى «المحبة». وهو يقسّم العدل ابتداء إلى قسمين: عدل إنساني وعدل إلهي. ويرى أنّ للعدل الإنساني إطلاقين؛ أحدهما يقع وصفاً للإنسان نفسه، والآخر يوصف به الفعل الصادر من الإنسان. كما إنّه ينقل عن بعض الحكماء قولهم: «إنّ العدل هو الفضائل كلها»، فيما قال آخرون: «إنّ العدل هو أكمل الفضائل». كذلك يرى أنّ العدل على ضربين: عدل مطلق وعدل مقيد. العدل المطلق هو الذي يحرزه العقل، وأمّا المقيد فيعرف من خلال الشرع لأنه ليس دائميّاً.

من العناوين المهمة في هذا الفصل: «ما يحسن ترك العدل فيه». وفيه يتحدث المؤلّف عن «الانظلام» وأنواعه، الممدوح منها والمذموم. بعد ذلك يبحث في «الظلم»، إذ يرى أنّه يقع في خمسة مواضع: الأول: رب العزة. الثاني: قوى النفس. الثالث: أسلاف الرجل. الرابع: معاملوه من الأحياء. الخامس: عامة الناس. وينقل عن بعض قوله: «إنّ الظلم على ثلاث درجات: الأعظم، والأوسط، والأصغر، وأنّ الأعظم هو الشرك بالله». في ختام حديثه عن العدل والظلم، يعقد بحثاً حول «المكر والخديعة»، والفروق الموجودة بينهما وبين الكيد والحيلة.

في هذا الفصل وبعدما أنهى البحث المتعلّق بالعدل والظلم، عقد المؤلّف بحثاً حول «المحبة وأنواعها» أي الصداقة والمصاحبة، وما يتفرّع

عن ذلك من مسائل، نظير القدر الممدوح من معاشرة الناس. ومن ثم بحث مسألة «العداوة وأنواعها».

أمّا الفصل السادس فهو «في ما يتعلّق بالصناعات، والمكاسب، والإنفاق، والجود». ويتضمّن بحوثاً عدّة من قبيل: حاجة الناس إلى اجتماعهم للتظاهر، مناسبة بدن الإنسان لصناعته، وجوب التكسب، مدح السعي وذم الكسل، تقاسيم الصناعات، مدح المال وذمه، الدنيا، الإنفاق والسخاء. ويقع الفصل السادس من كتاب **الذريعة** في قسمين غير متمايزين، القسم الأول: ـ وهو أكبر حجماً ـ هو في الواقع أقرب ما يكون إلى مدخلٍ تمهيدي يتضمّن لمحة اجتماعيّة للمجتمع. وأمّا القسم الثاني: فيتضمّن عناوين أخلاقيّة عدّة. في القسم الأول تطالعنا جملة بحوث، منها: تسخير اللّه همم الناس للصناعات المختلفة، دور الفقر في انتظام أمر الناس، في أنّ أصول الصناعات مأخوذة من الوحي وغيرها. وفي القسم الثاني يعالج المؤلّف عناوين أخلاقيّة من قبيل: الإنفاق، السخاء والجود، الشح والبخل، يعتقد الراغب أنّ الإنفاق المذموم على قسمين: التبذير وهو حدّ الإفراط، والتقتير وهو حد التفريط. وكلا القسمين قد يقعان في الكم، وقد يقعان في الكيف. بعد ذلك يشير إلى أنّ السخاء مقابل الشح وكلاهما من الهيئات النفسيّة. أمّا الجود فهو يقابل البخل وأكثر ما يقعان وصفاً للفعل. ويسوق جملة أدلّة، من علم الاشتقاق وشواهد صرفيّة على ذلك. وفي السياق نفسه يذكر ثلاثة أقسام للبخل وخمسة أنواع للجود.

الفصل السابع تحت عنوان «في ذكر الأفعال» يتضمّن ستة عناوين بحثية، منها: في أنواع الفعل، الفرق بين العمل والفعل والصنع وغيرها.

في هذا الفصل يلاحظ الباحث أنّ المصنّف قد شطّ به عنان القلم من ذكر الأخلاق الصفتية (أي الأخلاق الناظرة إلى الهيئات النفسانية) إلى الأخلاق العمليّة (الناظرة إلى الأفعال)، فتناول بحوثاً عامة حول الفطرة، وأنواع العمل، وتقسيم الأفعال إلى إرادية وغير إرادية، والقيمة الأخلاقيّة للأفعال، وكيفيّة إسناد الفعل إلى الفواعل الطوليّة. وكما هو ملحوظ، فإن الفصل الأول يختصّ ببيان البحوث التي تُعنى بالتعريف بـ «حقيقة الإنسان»، باعتبارها مبادئ علم الأخلاق. فيما تبحث الفصول اللاّحقة القوى الموجودة في الإنسان. فالفصل الثاني يبحث «القوة الناطقة»، والفصل الثالث «القوة الشهويّة»، والرابع يبحث «القوة الغضبية». وأمّا عنوان الفصل الخامس فربما أوهم الباحث بأنّ المؤلّف يذهب إلى أنّ العدالة هي مجموع فضائل القوى الأخرى، وأنه خصّص لها فصلاً مستقلاً؛ ولكن خلافاً لهذا، وخلافاً للطريقة المتّبعة لدى الفلاسفة، لم يعرّف الراغب العدالة بأنها غاية علم الأخلاق، وما أورده في هذا الفصل لا علاقة له باعتدال شخصيّة الفرد، بل يتعلّق بالعدالة الاجتماعيّة. وفي الفصل نفسه بحث موضوعي المحبة والبغض، واقتران هذين الموضوعين هنا، يذكّرنا باقتران فصلين من كتاب **تهذيب الأخلاق** لمسكويه، إذ إنّ مضمون هذا الفصل يشبه إلى حدّ كبير مضمون ما ورد في كتاب ابن مسكويه. وبصورة عامة، يمكن القول إنّ الترتيب والنسق الذي عليه الكتاب، من البداية وحتى الفصل الخامس، معقول ومنطقي. وأمّا الفصل السادس (الأخلاق الاقتصاديّة)، والفصل السابع (الفعل)، فلا يوجد مبرر يسوِّغ اندراجهما ضمن النسيج العام لبحوث الكتاب.

إنّ العناوين المندرجة تحت الفصول السبعة جاءت، في الغالب، منسجمة مع عناوين تلك الفصول. ولكن تبقى عناوين لا نجد لدرجها ـ

بالشكل الذي هي عليه في الكتاب ـ وجهاً مقبولاً؛ كمثل، اندراج عنوان «المشاورة» ضمن بحث القوة الشهويّة، وأيضاً اندراج «التوبة» ضمن بحث القوة الغضبيّة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

حول منهجيّة الراغب في كتابه **الذريعة**، توجد نقاط عدّة تجدر الإشارة إليها:

أ) سلك الراغب في كتابه طريقاً وسطاً بين المنهج البرهاني والمنهج الإقناعي. ففي موارد كثيرة ـ مثلاً في بحثه للصراع القائم بين هوى النفس والعقل، نجده قد اكتفى بذكر تمثيل بليغ ومؤثّر، ثم راح يستشهد بآيات عدّة وبالتالي فهو، في مثل هذه الموارد، أفاد من خصوصيّة الإقناع الكامنة في تشبيه المعقول بالمحسوس، كما أفاد من النفوذ البالغ والتأثير الكبير، لكلام اللّه المجيد .إلّا أنه في بعض معالجاته أفاد من البرهان والدليل العقلي في إثبات مدّعياته، وذلك من قبيل: بحث «اختلافات الناس في الأديان والمذاهب»، وبحث «الصدق ومدحه والكذب وذمه»، و«ما يحسُن ويقبح من الصدق والكذب»، و«فضيلة المحبة».

ب) يمكن تصنيف كتاب **الذريعة** في عداد الكتب التحليليّة التي تهتمّ بتعريف المفاهيم، وتولي عناية خاصة بالتدقيقات الفنيّة، واللغويّة، والاصطلاحيّة. وهذا ناشئ من شخصيّة الراغب الأصفهاني العلميّة، كما ألفناها في دقتها في مجالَيْ فقه اللغة وفروق اللغات، على ما هو عليه في كتابه الشهير **المفردات**. فقد تجلّت هذه الأبعاد في كتابه الأخلاقي هذا. فمثلاً، نجد التفريق الدقيق بين مداليل كلّ

من «السكوت»، و«الإنصات»، و«الصمت»، و«الإصاغة»، في بحث «النطق والصمت» وكذلك بين «الطبع»، و«السجية»، و«الخلق»، و«العادة»، إذ تعرض إلى الفرز بين معاني هذه المفردات بدقة وذلك في الفصل الأول من الكتاب.

ج) ثمة بحوث ومعالجات طرقها الراغب، من قبيل البحوث التالية: «اللّذة»، و«علاج الخوف والحزن»، و«تهذيب العقل بالعلوم العقليّة لإدراك العلوم النبويّة»، إلى جانب تبنّيه لنظريّة التثليث في قوى النفس (أي القوة الناطقة، والقوة الشهويّة، والقوة الغضبيّة). وكذلك العرض التفصيلي والمسهب لبحوث الفصل الثاني والتي تدور حول «العلم والعقل» والتأكيد على فضيلة المعرفة. كلّ ذلك شكل مؤثّرات ودلالات على عمق تأثّره بالمشرب الفلسفي. نعم، يوجد فارق أساس يميّز الراغب عن سائر المهتمين بالطرح الفلسفي وهو كثرة استناده إلى آيات القرآن الكريم في إثبات مدّعياته، إلى جانب قلّة اهتمامه بالتحليل العقليّ للآثار السيئة للرذائل الدنيويّة منها أو الأُخرويّة.

د) يعتمد الراغب في منهجه التربويّ على «البعد المعرفي» أكثر من اعتماده على «البعد السلوكيّ والعمليّ».

هـ) في ما يتعلّق بتحديد الغاية من علم الأخلاق، لا نجد في كتاب الذريعة ما يدلّ على تبنّي الراغب للاتجاه الشهودي، كما لا نجد مقترحات أو آليّات عمل، يتقدّم بها للوصول إلى الحق تعالى، ومن ثم الفناء فيه عزّ شأنه. نعم، كان للراغب اهتمام كبير وملموس ببحث «الخلافة الإلهيّة»، إلّا أنه لم ينظر إلى هذه المقولة من منطلق عرفاني.

7 ـ أدبيّات الكتاب

بصورة عامة، يمكن القول إنّ الكتاب يتمتّع بقلم سلس وبيان واضح، وإن كانت التدقيقات اللّغوية التي يُعملها الراغب ربما أثقلت على القارئ قليلاً، وأعاقته عن الاندماج بالنص بعض الشيء. وقد استفاد الكاتب من الآيات القرآنيّة كثيراً، واستلهم منها فوائد جليلة وإثارات لطيفه جداً. كما سعى إلى توظيف جملة من الأحاديث النبويّة، وأحاديث أمير المؤمنين علي (ع) وكلمات قصار لبعض الصحابة، والحكماء، والعُرفاء، كشواهد على مدّعاه. وفي هذا المضمار نفسه، استفاد أيضاً من الشعر في هذا الكتاب ولكن بنسبة أقل. ويُحتمل كثيراً أنّ ذوقه الفلسفي هو الذي حمله على عدم الاهتمام بالقصة والحكاية، لكنه أفاد ـ في أكثر فقرات الكتاب ـ من التمثيلات والتشبيهات اللطيفة والرائعة.

8 ـ التقييم النهائي

بدا الكتاب، من حيث التوثيق والإسناد، متقناً ومقبولاً إلى حدّ ما. فأكثر إسناداته هي إلى القرآن الكريم، وفي الدرجة الثانية إلى الأحاديث النبويّة والعَلَويّة. وبالطبع فإن هذه الميزة ترفع من درجة خلوصه كثيراً، باعتباره يمثّل وجهة نظر إسلاميّة إزاء مقولة الأخلاق.

وفي المرتبة اللاّحقة استفاد المؤلّف من أقوال سائر العلماء لكن بدرجة أقل، ولذا لم تنعكس تلك الأقوال بقوة في الكتاب. ويمكن القول إنّه كان ناجحاً، إلى درجة كبيرة، في تأليف دورة في الأخلاق الإسلاميّة، واستطاع أن يغطي فيها مختلف محاور هذا العلم، وإن كانت توجد ثغرات ونقائص في دائرة موضوعات الكتاب، لا سيما في ما يتعلّق بأخلاق الأسرة. وقد امتاز المصنّف بقلم علمي؛ لكنه في الوقت نفسه

سلس وواضح. وحول منهج الكتاب نقول: يُعدّ كتاب الذريعة كتاباً متوسّطاً من حيث المنهج، لأنه لم يؤكّد على المنهج المعرفي في الأخلاق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يتضمّن نقاط ضعف قوية. إلّا أنّه توجد ملاحظة يجدر الإشارة إليها وهي أننا لا نتفق مع ذوق المؤلّف في تنظيم الفصلين الأخيرين من الكتاب، أي السادس والسابع.

كلمة أخيرة نقولها وهي أنّ الجانب التأسيسي والإبداعي في شخصيّة الراغب، والذي تجلّى في فتح آفاق جديدة للبحث، بالنحو الذي أشرنا إليه عند الحديث عن هيكليّة الكتاب، أو توافره على تحليلات قرآنيّة ونفسيّة رائعة، من قبيل ما أورده في مجال التمييز بين الحياء الممدوح والحياء المذموم، كلّ ذلك قد أضفى عليه طلاوة خاصة عموماً، ومع الأخذ بعين الاعتبار طابعه القرآني والإسلامي. وكونه على قدر كبير من الاستيعاب والشموليّة، يمكن القول إنّ الكتاب يمثل محاولة ناجحة للتعريف بالأخلاق الإسلاميّة. وإن كان لا يرقى إلى مستوى الطموح، سواء من حيث تقسيم المواضيع وتبويبها، أم من حيث تحليل الآفات الأخلاقيّة، أم من جهة الطرح الصحيح للآثار السيئة المترتّبة على الرذائل، أم في مجال تناوله للمعطيات الروحانيّة الناشئة من التحلّي بالفضائل.

4

إحياء علوم الدين[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي، الملقّب بحجّة الإسلام زين الدين الطوسي، من كبار فقهاء الشافعيّة، وُلد بطوس عام 450 أو 451 هـ، وبدأ مشواره في طلب العلم منذ نعومة أظافره في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى نيشابور وحضر دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني. وفي تلك الفترة اشتغل بالتأليف وذاع صيته في الأوساط العلميّة وغيرها. وبعد وفاة أستاذه، عاد الغزالي من نيشابور متوجّهاً إلى مدينة عسكر، والتقى هناك بنظام الملك. وبطلب من نظام الملك بدأ بالتدريس في المدرسة النظاميّة ببغداد وهو آنذاك لم يتجاوز 34 عاماً، فنال إعجاب علماء بغداد. وبعد أربع سنوات، وفي شهر ذي القعدة من عام 488 هـ، وإثر انقلاب روحي أَلَمَّ به، هجر الغزالي التدريس، والشهرة، والأضواء. فوضع أخاه أحمد في منصب التدريس بدلاً منه، ورحل قاصداً حج بيت الله الحرام. وبعد إتمام مناسك الحج اشتغل فترة يسيرة بالتدريس في جامع دمشق، ثم اتجه إلى بيت المقدس للزيارة والعبادة.

---

(1) أبو حامد محمّد بن محمّد الغزالي (ت 505 هـ)، **إحياء علوم الدين** (بضميمة مجموعة رسائل هي، **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار**، **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء**، **الإملاء عن إشكالات الإحياء**، **عوارف المعارف**)، بيروت: دار الفكر، 1414 هـ ـ 1994 م، (خمسة مجلدات: 432 + 424 + 440 + 587 + 344 صفحة، حجم رحلي).

وقد أقام الغزالي في الإسكندريّة بمصر مدة من الزمن، ثم عاد إلى وطنه طوس ليواصل فيها اشتغالاته العلميّة. وبعد فترة هجر التدريس والمناظرة، واختار العزلة وطريقة الزهد. ويعدّ كتاب **إحياء العلوم** من الكتب التي ألّفها الغزالي بعد الانقلاب الروحي الذي عرض له وقبل عودته إلى موطنه. وقد توفّي عام 505 هـ في مسقط رأسه في قصبة طابران بطوس ودُفن هناك[1]. يوجد أكثر من أربعمائة كتاب ورسالة منسوبة إليه، من بينها 70 كتاباً يقطع بأنها من تأليفاته[2].

2 ـ النسخ والطبعات

كثيرة جداً هي النسخ الخطّية لكتاب **إحياء العلوم**. فقد عدّ الباحث عبد الرحمن بدوي في كتابه **مؤلّفات الغزالي** 109 مخطوطة، بعض منها كامل وبعضٌ آخر اشتمل على بعض أجزاء هذا الكتاب[3].

وقد طُبع كتاب **إحياء العلوم** مرات عدّة، في كلّ من القاهرة، وأسطنبول، وطهران، وبيروت. ومن أكثر الطبعات رواجاً هي الطبعة الواقعة في خمسة مجلّدات، والتي يشتمل المجلّد الخامس على كلٍّ من الكتب التالية: **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء** لعبد القادر عيدروس، وكتاب **الإملاء في إشكالات الإحياء** للغزالي، و**عوارف المعارف** للسهروردي. ولا يوجد أدنى شك في اسم الكتاب ولا في انتسابه إلى الغزالي.

---

(1) انظر: السبكي، **طبقات الشافعية**، **وفيات الأعيان**، ج 4، ص 216؛ أبي الفرج ابن الجوزي، **المنتظم**؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 19، ص 322.

(2) انظر: عبدالرحمن بدوي، **مؤلفات الغزالي**.

(3) المصدر نفسه، ص 98 ـ 112.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

حظي كتاب **إحياء العلوم** منذ تأليفه وحتى اليوم، باهتمام العلماء بمختلف أصنافهم ومشاربهم. وذلك لما امتاز به من أهميّة قصوى، وصدر حوله العديد من الكتب على صعيد الشرح، والرد، والدفاع، والترجمة، والتلخيص، وواجه العديد من الاعتراضات، وهذا ما حمل المؤلّف على تأليف كتاب **الإملاء على مشكل الإحياء** (= **الإملاء على كشف مشكلات الإحياء**، **الأجوبة المسكتة على الأسئلة المشكلة المبهتة**) دفاعاً عنه. وقد طبع هذا الدفاع في حاشية كتاب **إتحاف السادة** للزبيدي وأيضاً في حاشية الطبعات الأخيرة **لإحياء العلوم**.

وهنا نشير إلى بعض الكتب التي شكلت ردوداً على كتاب **إحياء العلوم**:

إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، **إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء** لأبي الحسن بن سكر. وقد أشار الذهبي في كتابه **سير أعلام النبلاء** إلى هذا الكتاب[1]، **الضياء المتلألئ في تعقب الإحياء للغزالي** لمؤلّفه أحمد بن محمّد بن المنير الإسكندري (ت 683 هـ). **فقهاء تلمسان** لأبي زكريا القليعي، **الكشف والإنباء عن المترجم للإحياء** (= عن كتاب الإحياء) لأبي عبد الله محمّد بن علي بن عمر المشهور بالمازري (ت 536 هـ)، **قاعدة في الرد على الغزالي في التوكّل** لابن تيميّة.

وإليك عناوين بعض الكتب التي أُلّفت في الدفاع عن **إحياء العلوم**:

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 9، ص 342.

تعريف الأحياء بفضائل الإحياء لعبد القادر عيدروس (ت 1038 هـ)، **رسالة في بيان فضل إحياء علوم الدين** مجهولة المؤلّف، كتاب **تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان** لجلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) ورسالة في الرد على من اعترض على الغزالي، مؤلّفها غير معلوم.

ويُعدّ كتاب **إتحاف السادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين** لمحمد بن محمّد بن الحسين المرتضى المعروف بالزبيدي (ت 1205 هـ)، من أهم الشروح على الكتاب. وقد طُبع في القاهرة في عشرة مجلّدات من القطع الرحلي. وأورد الزبيدي في **شرحه** عبارات إحياء العلوم كلّها، وراح يشرح ويوضح معناها، ويبيّن مداليل مفرداتها، ويحدّد ما يقصده الغزالي في كلّ عبارة بصورة مزجيّة. كما تصدّى إلى تقييم روايات الكتاب ومصادرها المستقاة منها، من حيث الاعتبار والوثاقة. وأضاف العديد من الشواهد القرآنيّة والروائيّة وغيرها، على الشواهد الموجودة في الكتاب. وبكلمة، لقد أبدى الزبيدي دفاعاً مستميتاً عن الكتاب، وحاول بكلّ جهده أن يجيب عن الإشكالات المثارة على كتاب **إحياء العلوم**.

يقول الزبيدي في مقدمة كتابه:

وبعد، فهذه تقريرات شريفة وتحريرات منيفة، أمليتها على كتاب **الإحياء** للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه اللّه تعالى ... جانحاً فيه إلى حلّ عباراته، مشيراً إلى كشف الغموض عن رموزه وإشاراته، مُخرجاً أحاديثه على طريقة حفاظ المحدثين، مبيّناً لأسانيد ما فيه من أقوال العلماء والعارفين. ولم آلِ جهداً في تهذيبه، وترتيبه، وتسهيله، وتقريبه، ولم أتعرّض للغاته، إلّا ما احتيج إليه.

ومن الكتب المهمة ذات الصلة بكتاب **إحياء العلوم** كتاب **المحجة البيضاء في إحياء الإحياء** للفيض الكاشاني، والذي ترك بصمات كبيرة على الفكر الأخلاقي الشيعي. ونحاول هنا أن نتعرض إلى بيان مدى هذا التأثير من جهتين:

الجهة الأولى: شكّلت هذه الموسوعة نقطة انطلاق بالنسبة إلى علماء الإسلام ومفكريه، فقد تزامن ظهورها مع تزايد نسبة الاهتمام بالفكر الأخلاقي لدى الأوساط العلميّة الإسلاميّة. من هنا يمكن القول إنّ الكتاب يُعدّ خطوة كبيرة مهّدت الطريق لعلماء آخرين كي يلجوا هذا المضمار ويفكّروا بتدوين مؤلّفات وكتب مفصّلة وشاملة، من قبيل **جامع السعادات**. وبعبارة أخرى، إنّ الفكر الأخلاقي، بأبعاده ومجالاته ـ التي يتدارسها علماء مدرسة أهل البيت (ع) في المنتديات العلميّة في الوقت الراهن ـ مدين باحتفاظ التراث الشيعي بكتاب جامع في علم الأخلاق، وهو **المحجة البيضاء**.

الجهة الثانية: إنّ هذا الكتاب مهّد الطريق لحضور كتاب **إحياء العلوم** والفكر الأخلاقي للغزالي في الأوساط العلميّة والثقافيّة الشيعيّة. ومما لا شك فيه أنّه لو لم يُقدّر للفيض الكاشاني العمل على إحياء كتاب الغزالي هذا، فإن الكثير من المعالجات والرؤى الإيجابيّة والصائبة التي بشّر بها الغزالي ما كانت لتنتقل إلى عالم التشيّع. لقد ساهم الفيض الكاشاني بتهذيب ثمار ومعطيات مدرسة الغزالي الأخلاقيّة وتشذيبها، ومن ثم راح يرتّبها في نسق الفكر الأخلاقيّ الشيعيّ ليتمثّلها، فتضحي جزءاً من نسيجه ومكوّناته وذلك إبّان القرن الحادي عشر الهجري. وبغضّ النظر عن دور **المحجة البيضاء** في تطوير الفكر الأخلاقي لمدرسة

أهل البيت، نرى من اللآزم التذكير بنقطة مهمة، وهي أنّ الفيض الكاشاني كان مثالاً للتعامل الموضوعي والبنّاء والنزيه، مع التراث العلميّ لأصحاب الفرق والمذاهب، إذ أعطى للأجيال التي جاءت من بعده، من العلماء والباحثين، درساً كبيراً في ما يتعلّق بتحرّي الحقيقة أينما كانت. والاستفادة المثلى من إنجازات الآخرين، لكن بعد إخضاعها للنقد، والتنقيح، والتهذيب[1]. هذا مع التأكيد على أنّ سيرة السلف الصالح، من علماء مدرسة أهل البيت، قامت على هذا المنوال، ولم تشطّ عنه أبداً ـ.

وبصورة عامة، يمكن الإشارة إلى أهمّ سمات وخصائص هذا الكتاب ضمن النقاط التالية:

1 ـ من حيث دائرة الموضوعات والخطة التي اعتمدها في ترتيب الأبواب والفصول، يشبه كتاب **المحجة** كتاب **إحياء العلوم** إلى حدّ كبير. فقد حرص الفيض الكاشاني على أن تأتي عباراته وألفاظه مطابقة لألفاظ وعبارات **إحياء العلوم** ما أمكن. نعم، ثمة تغيير أساسي ومهمّ في أصل ترتيب كتاب **الإحياء**، إذ قام الكاشاني بحذف «كتاب آداب السماع والوجد» وإبداله بموضوع آخر هو «كتاب أخلاق الأئمة وآداب الشيعة»، وأورده في الربع الأخير من بحث العادات.

2 ـ توجد، في بعض الموارد، أبواب مفصّلة وطويلة، قام بتقسيمها إلى فصول أصغر لتسهل عمليّة الاستفادة منها.

---

(1) ذكر الفيض الكاشاني في مقدّمته على المحجة، أنّ الغرض من تأليف هذا الكتاب هو أن يستفيد أتباع مدرسة أهل البيت وهم الفرقة الناجية، من نقاط ورؤى مفيدة وقيّمة لا يمكن تجاوزها، وردت في كتاب إحياء العلوم.

3 ـ تمّ تنظيم بعض البحوث بشكل مناسب وتهذيبها عن الحشو والزوائد.

4 ـ بعض أبواب وفصول الكتاب، تمّ تطويرها وتكميلها من خلال تزويدها بالحكم والأسرار التي اختصّ بها أهل البيت وشيعتهم من دون غيرهم.

5 ـ تضمّن الكتاب جهداً علميّاً مباركاً، على صعيد تدعيم الرؤى والأفكار الصحيحة التي ذكرها كتاب **إحياء العلوم** وتوثيقها، وإسنادها إلى أصول ومرتكزات صحيحة ومتقنة، مستلّة من القرآن والسنّة والعقل السليم، مع حذف الآيات التي لا تتناسب مع موارد الاستشهاد، وحذف المرويّات الضعيفة التي استند إليها، والأقوال والحكايات ـ التي لا تقوم على أساس شرعيّ أو عقليّ صحيح ـ .

6 ـ جَهِدَ الكاشاني في تهذيب وتصحيح متن كتاب **الإحياء** من الأخطاء الأدبيّة، ومن ثم تلخيصه وعرضه بشكل مختصر.

7 ـ قام في بعض الموارد، بنقد ومناقشة آراء ومتبنيَّات الغزالي، وفي الموارد التي لم يجد لها وجهاً صحيحاً، راح ينقض عليها بالدليل والبرهان.

وبكلمة، يمكن القول إنّ الهدف الذي يرمي إليه الكاشاني، هو التعريف بكتاب **إحياء العلوم**، وعرض أفكاره على أتباع مدرسة أهل البيت، وفي هذا السياق انصبّ جهده على حذف الآراء الضعيفة والخاطئة وتهذيب الكتاب، من دون أن يجهد نفسه كثيراً بإضافة بحوث أو معالجات جديدة. لذا لا نجد إضافات جديدة تُذكَر سوى ما في المجلّد الأول من **المحجة**، وخاصة في كتاب «العلم» وكتاب «قواعد

العقائد». وأمّا في سائر المجلّدات السبعة، فقد اقتصر عمله على إضافة أحاديث للأئمة المعصومين (ع) مع بعض الإضافات البسيطة.

وثمة ترجمة كاملة إلى اللّغة الفارسيّة بقلم مؤيد الدين محمد الخوارزمي. وذلك عام 620 هـ، وحقّق الترجمة حسين خديوجم وقامت شركة «انتشارات علمي وفرهنگي» بطبع الترجمة في أربعة مجلّدات عام 1405 هـ . وقد تُرجم كتاب **إحياء العلوم** إلى اللّغات الإنكليزية، والألمانيّة، والتركيّة، والأردو.

إلى جانب ذلك، ثمة باحثون قاموا بتلخيص هذه الموسوعة الأخلاقيّة. ومن جملة ذلك: المجلّد الثالث من كتاب **مفتاح السعادة** بقلم طاش كبرى زاده، **لباب إحياء علوم الدين** بقلم أحمد الغزالي أخ الغزالي المؤلّف[1]، **منهاج القاصدين** لأبي الفرج ابن الجوزي (ت 597 هـ)، **مختصر منهاج القاصدين** لنجم الدين أحمد بن محمّد بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت 742 هـ)، **روح الإحياء** بقلم أحمد بن موسى بن يونس، **المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين** لجمال الدين محمّد بن محمّد القاسمي الدمشقي، و**مختصر الإحياء** لمحمد بن علي البلالي (ت 820 هـ)[2].

من الأعمال ذات الصلة بكتاب **إحياء العلوم**، كتاب **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار** بقلم حافظ عبد الرحيم العراقي (ت 806 هـ). ويُعنى هذا الكتاب بتخريج

(1) يبدو أنّ الكتاب الذي طبع أخيراً بعنوان **مختصر إحياء علوم العلوم** ونسب إلى الغزالي، هو هذا الكتاب نفسه ويعود لأخيه أحمد.

(2) انظر: عبد الرحمن بدوي، **مؤلّفات الغزالي**، ص 123 ـ 112.

مصادر الأحاديث الواردة في كتاب **إحياء العلوم**، وتقسيمها من حيث اعتبارها ووثاقتها. وقد طبع في حاشية صفحات كتاب **إحياء العلوم**. وبعد العراقي، قام تلميذه ابن حجر العسقلاني بإكمال عمل أستاذه وتخريج مصادر ما تبقّى من الأحاديث. كما قام الشيخ قاسم قطلوبغا الحنفي في كتابه **تحفة الأحياء في ما فات من تخريج أحاديث الإحياء** بعمل مماثل للعمل الذي قام به العراقي وتلميذه العسقلاني[1]، كتاب **إسعاف الملحّين بترتيب أحاديث إحياء علوم الدين** لمحمود سعيد ممدوح، هو الآخر يُعنى ببيان فهرست ألفبائي بروايات **إحياء العلوم**. إلى جانب ذلك طبعت حتى الآن مختارات من كتاب **إحياء العلوم**، نشير هنا إلى بعضها: **طب القلوب أو صفوة إحياء علوم الدين** بقلم محمود معوض **وموعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين** بقلم محمّد جمال الدين القاسمي.

وللوقوف على أهميّة الدور التاريخي الذي يضطلع به كتاب **إحياء العلوم**، لا بدّ من التركيز على محورين: الأول: مدى تأثّر كتاب **الإحياء** بالشخصيّات التي سبقته، ومدى تأثيره على الأجيال التي جاءت من بعده. والمحور الثاني: مدى التأثير الذي تركه الكتاب على مسار الفكر الأخلاقي في العالم الإسلامي.

بالنسبة إلى المحور الأول، نقول: توجد شخصيتان تأثّر بهما الغزالي أكثر من سواهما، هما: الحارث بن أسد المحاسبي وأبو طالب المكّي. وقد انعكس حجم تأثّره بكتاب المحاسبي من خلال مجموع الموارد التي أفاد فيها من كتابه، سواء تلك الموارد التي ذكر فيها اسمه،

---

(1) محمّد بن محمّد مرتضى الزبيدي، **إتحاف السادة المتقين**، ج 1، ص 41.

أم الموارد التي أغفل فيها ذكر هذا الاسم. ويمكن القول إنّ الغزالي من أهمّ وأبرز الذين ساهموا في الحفاظ على اسم المحاسبي وتراثه وتخليده في ذاكرة التاريخ، والشاهد على ذلك كتاب «**ذم الجاه والرياء**» في **إحياء العلوم**. وأمّا بالنسبة إلى عمق التأثير الذي تركه أبو طالب المكي على فكر الغزالي فنقول: إنّ الغزالي دأب على نقل جانب كبير من كلماته في كتابه **إحياء العلوم** من دون أن يشير إلى اسمه. أضف إلى ذلك أنّه ـ الغزالي ـ مدين في ترتيب جزء لا يستهان به من كتاب «**المنجيات**» لكتاب **قوت القلوب** لأبي طالب المكّي. وبعد هاتين الشخصيتين ثمة شخصيّات أخرى شكّلت مرجعيّات للغزالي في أفكاره الأخلاقيّة والعرفانيّة، من أهمّها القشيري، الجنيد، شبلي، وبايزيد البسطامي.

من جانب آخر، تضمّن كتاب **إحياء العلوم** آراء عدد من الفلاسفة اليونانيين والمسلمين (من قبيل نظريّة الاعتدال الأرسطية، القوى الإفلاطونيّة، مسألة اللذّة، ورأي جالينوس الحكيم، الآراء التربويّة لابن مسكويه وغير ذلك). وهذا يكشف حقيقة مفادها أنّ الغزالي كان على إلمام جيد بالتراث الفلسفي للأخلاق، ولا يأبى نقل آرائهم متى اقتضى الأمر. لكن بقي أن نقول إنّ السياق العام للكتاب ليس باستطاعته أن يكشف عن مدى تأثّر المؤلّف بالفكر الفلسفي. نعم، السياق هذا يكشف وبدرجة كبيرة عن مدى هيمنة الفكر العرفاني على شخصيّته.

وأمّا عن التأثير الذي تركه الغزالي على المفكّرين الذين جاءوا بعده فنقول: لقد كان تأثيره عميقاً وواسعاً؛ فمنذ قرون لا يزال تراثه يحظى باهتمام الباحثين في مجال الأخلاق في أنحاء العالم كافة، وانقسم حوله الباحثون في حقل الأخلاق بين مؤيد ومعارض. ومما لا شك فيه أنّ

محاولته في تقريب الاتجاه الرسمي لأهل السنّة إلى التصوّف، وكذلك محاولته في إضفاء الشرعيّة على التصوّف، جعلتاه عرضة للتهمة والانتقاد؛ ولذا نجد شخصيّات عدّة، من قبيل: الطرطوشي (ت 520 هـ)، والمزاري (ت 536 هـ)، وابن الجوزي (ت 597 هـ)، وابن الصلاح (ت 643 هـ)، وابن تيميّة (ت 728 هـ)، وابن القيّم (ت 751 هـ)، وغيرهم من مشاهير متكلّمي السنّة، قد صرّحوا بضلالته.

والحقيقة أنّ كثرة الانتقادات الموجّهة إلى الغزالي، وكذلك كثرة الكتب والأعمال ذات الصلة بكتاب **إحياء العلوم**، والتي اتخذت طابع الشرح، أو النقد، أو الرد والطعن، كلّ ذلك يكشف عن التأثير الكبير الذي تركه على الأجيال التي جاءت من بعده. وفي المقابل، فإن الذين تبنّوا آراءه وروّجوا لها، أكثر بكثير من الذين واجهوه بالنقد والاعتراض[1].

وحول التأثير الذي تركه كتاب **إحياء العلوم** في مسار الفكر الأخلاقيّ الإسلاميّ، يمكن القول إنّ الغزالي وعبر كتابه هذا، ساهم وبجد في التنظير لأسْلَمة علم الأخلاق، شأنه في ذلك شأن بعض أسلافه من علماء المسلمين. وبذلك، فهو يقف في الاتجاه المعاكس لبعض الفلاسفة ـ من قبيل محمّد بن زكريا الرازي ـ والذي ارتضى بالأخلاق العقلانيّة، بلا دين، وراح يروّج لها، إذ يؤكّد الغزالي على «الترابط الوثيق بين الدين والأخلاق» من خلال الاستناد إلى كمّ

(1) انظر: م.م، شريف، **تاريخ فلسفه در إسلام**، بإشراف نصر الله بورجوادي، ج 2، ص 57.

هائل من الآيات القرآنيّة ـ والروايات ـ والتعاليم التي تدلّل على ذلك. نعم، ثمة فارق أساس يميّز عمله الفكريّ عن تراث الماوردي والراغب الأصفهاني، ويكمن في شدة تركيزه على الفكر الصوفيّ، وسعيه الحثيث في التقريب بين التصوّف والشريعة، كما هو ملحوظ في كتاب **إحياء العلوم**[1].

4و5 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة، هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

في مقدّمة الكتاب، أخذ المؤلّف يدافع عن خطة البحث والمنهجيّة المتَّبعة في الكتاب، ويذكر المسوّغات التي حملته على اختيار هذه الخطة وهذا المنهج، معتقداً أنّ الحصر الاستقرائي للتحقيق والتفهيم، يضطرّنا إلى هذا اللون من التقسيم، باعتبار أنّ العلم الذي يوجّه الإنسان نحو الآخرة، إمّا هو «علم المعاملة» أو «علم المكاشفة».

في هذا الكتاب لا يبحث عن علم المكاشفة؛ لأن فائدته تنحصر في كشف المعلوم ويبحث عن علم المعاملة فقط، لأنّ الغرض منه ليس مجرّد الكشف عن المعلوم بل العمل بمؤداه أيضاً. وهذا العلم إمّا علم الظاهر الذي يرتبط بالأعمال الجوارحية للإنسان، أو علم الباطن ومتعلّقه الأعمال القلبيّة والجوانحيّة للإنسان. وينقسم علم الظاهر بدوره إلى العبادة والعادة. وأمّا علم الباطن والذي يشمل الخصال والصفات الباطنيّة، فينقسم إلى محمود ومذموم.

---

(1) انظر: محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 587؛ حنّا الفاخوري وخليل الجرّ، **تاريخ الفلسفة**.

وبنظرة عابرة، يمكن تقسيم الكتاب إلى أربعة أقسام، كلّ قسم يُسمّى «ربع»، ويتضمّن عشرة كتب، وفي المجموع يضم أربعين كتاباً أخلاقياً. الأقسام الأربعة للكتاب هي كالآتي: ربع العبادات، ربع العادات، ربع المهلكات وربع المنجيات.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب، هي: كتاب العلم، كتاب قواعد العقائد، كتاب أسرار الطهارة، كتاب أسرار الصلاة، كتاب أسرار الزكاة، كتاب أسرار الصيام، كتاب أسرار الحج، كتاب آداب تلاوة القرآن، كتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

يقول الغزالي في المقدّمة:

فأمّا ربع العبادات، فأذكر فيه من خفايا آداب ودقائق سُننها وأسرارها ومعانيها ما يضطّر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطّلع عليه.

ومن بين كتب ربع العبادات «كتاب العلم» ويقع في 94 صفحة، إذ شغل أكبر حجم من بين الكتب. و«كتاب أسرار الصلاة» في 72 صفحة، وكتاب «قواعد العقائد» في 42 صفحة، وكتاب «الأذكار والدعوات» في 40 صفحة، وكتاب «أسرار الحج» و«ترتيب الأوراد في الأوقات» كل منهما يقع في 35 صفحة. وأصغر كتاب في هذا الباب هو كتاب «أسرار الصيام» والذي يقع في اثنتي عشرة صفحة. وحجم كتابا «أسرار الصيام» و«أسرار الحج» أصغر حجماً قياساً بسائر البحوث الأخرى من هذا الباب.

وحول النظام المتّبع في كتب هذا الربع، يبدو أنّ بحوث «كتاب العلم» لا تمتُّ بصلة إلى عنوان العبادات. ومع الأخذ بعين الاعتبار حجم

هذا الكتاب ـ كتاب العلم ـ كان من الأجدر أن يتناول المؤلّف هذا البحث كبحث تمهيديّ ومقدّميّ، يأتي قبل عنوان ربع العبادات. وإن كان الغزالي قد اعتذر، في مقدّمته، عن تصدير بحوث ربع العبادات بكتاب العلم، بأنه أراد أن يُميط اللثام عن العلم الذي أوجب الله ـ على لسان نبيّه (ص) ـ تعلّمه على العباد، كما أراد بذلك أن يميّز العلم النافع من العلم الضارّ.

وبالنسبة إلى كتاب «أسرار الطهارة»، يُلاحظ أنّ جميع مسائل الباب الأول (طهارة الخبث)، وكذا بحث الاستنجاء من الباب الثاني (طهارة الأحداث)، ليست عبادية. وعليه، كان من الأفضل أن ينقل بحوث كتاب العلم وكتاب قواعد العقائد كافة، إلى خارج ربع العبادات، ويتم طرحها كبحوث تمهيديّة. ولو تجاوزنا الكتابين الأولين في هذا الربع، فإن سائر الكتب تحظى بنظام مناسب وترتيب منطقيّ، في طرح المسائل المرتبطة بها وبيانها. والملاحظ أنّ دائرة موضوعات ربع العبادات ولأسباب مجهولة، لا تتضمّن أسرار بعض العبادات من قبيل: الجهاد والاعتكاف، ولكن الأسرار الأخلاقيّة المندرجة تحت عناوين أخرى، كانت مهمة وملفتة للنظر.

ويشمل ربع العادات عشرة كتب، هي كالآتي: كتاب آداب الأكل، كتاب آداب النكاح، كتاب أحكام الكسب، كتاب الحلال والحرام، كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، كتاب العزلة، كتاب آداب السفر، كتاب السماع والوجد، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة، وأخلاق النبوّة.

ويُعدّ كتاب الحلال والحرام أكبر كتب هذا الربع، ويأتي بعده من

حيث الحجم كتاب «آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق»، ومن ثم كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ويليه كتاب «آداب النكاح»، حيث تأتي هذه الكتب، حسب التسلسل، في المرتبة الثانية وحتى المرتبة الرابعة.

ويكتب الغزالي في المقدّمة عن البحوث الواردة في ربع العادات ما نصّه:

وأمّا ربع العادات، فأذكر فيها أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها، ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لايستغني عنها متديّن.

وتمتاز بحوث هذا الربع بنظم مناسب وترتيب منطقيّ. نعم توجد ملاحظة واحدة وهي أنه ربما كان من الأفضل أن يأتي بكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مباشرة. دائرة موضوعات ربع العادات، لم تتضمن بحثاً حول آداب النوم وآداب اللباس والمسكن. والحال أنه وفقاً لمصطلحات الغزالي وتقسيماته، فإن هذه البحوث هي الأخرى تُعدّ من العادات. ملاحظة أخرى، وهي أنه كان يجدر بالمؤلّف، في بحثه لكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يخصّص باباً للحديث عن المعروفات المنسيّة، في مقابل ما هو مطروح حول المنكرات المألوفة. وأيضاً كان عليه أن يضيف بحثاً حول «المحارم والأجانب» في كتاب آداب الصحبة والمعاشرة. وبغضّ النظر عن الملاحظات التي أوردناها، فإنّ البحوث المطروحة في هذا الربع هامة جداً، خصوصاً مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الغزالي خصّص أكبر كتب هذا الربع، من حيث الحجم ـ نظير كتاب الحلال والحرام،

وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة ـ لبحث موضوع الأخلاق والعلاقات الاجتماعيّة. وهذا بإمكانه أن يدفع عنه، وبشكل كبير، تهمة الترويج للعزلة.

وأمّا الكتب الواردة في ربع المهلكات، فهي: كتاب شرح عجائب القلب، كتاب رياضة النفس، كتاب آفات الشهوتين (البطن والفرج)، كتاب آفات اللسان، كتاب آفات الغضب، والحقد، والحسد، كتاب ذمّ الدنيا، كتاب ذمّ المال والبخل، كتاب ذمّ الجاه والرياء، كتاب ذمّ الكبر والعجب، كتاب ذمّ الغرور. وكتاب «ذمّ الجاه والرياء» هو أكبر كتب هذا الربع. ومن ثم يأتي في المرتبة اللّاحقة كتاب «آفات اللسان»، وبعده كتاب «ذم المال والبخل» ثم، كتاب «ذم الكبر والعجب». وأصغر كتب ربع المهلكات هو كتاب «ذمّ الغرور».

يبتني النسق والترتيب الذي عليه كتب هذا الربع على أساس منطقي معقول. ففي البداية، وفي معرض الحديث عن كتاب «شرح عجائب القلب»، وردت بحوث تمهيديّة في معنى النفس، والروح، والقلب، وخصائصها. ثم بحث في كتاب «رياضة النفس» علامات الأمراض، وعلامات عودة سلامة القلب، وطريقة الرياضة. وفي كتاب «كسر الشهوتين»، يذكر مجريين هما أولى مجاري نفوذ الشيطان وجنوده. ومن هنا كان من اللّازم في سياق تهذيب الأخلاق صيانة هذين المجريين والمحافظة عليهما، حذراً من أن يعبث بهما الشيطان وجنوده، ويدخلوا عن طريقهما إلى قلب الإنسان.

وفي كتاب «آفات اللسان» يعرّف بالمجرى أو الموضع الثالث الذي لا بدّ من العمل على صيانته وهو «اللسان»، ويذكر بالتفصيل عشرين آفة

من آفات اللسان. ومن ثم يعرض لبيان طرق معالجة ودرء هذه الآفات. بعد ذلك يأتي الحديث عن الغضب، والحقد، والحسد ضمن كتاب «ذمّ الغضب، والحقد، والحسد». وهي الخندق الرابع الذي لا بدّ للإنسان من أن يكافح من خلاله الشيطان وجنوده. إلى هنا يوجد ترابط منطقيّ ومقبول بين بحوث الكتاب ومعالجاته، لكن ما إن نصل إلى كتاب «ذم الدنيا» ينفرط هذا الترابط. ولو قدّر لهذا الكتاب أن ينقل إلى ما بعد كتاب «شرح عجائب القلب» وقبل كتاب «رياضة النفس» لكان ترتيبه ونظامه أكثر منطقيّة.

في مقدّمة الكتاب، يصف الغزالي ربع المهلكات فيقول:

وأمّا ربع المهلكات، فأذكر فيه كلّ خلق مذموم أمر القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه. وأذكر من كلّ واحد ـ من تلك الأخلاق ـ حدّه وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولّد، ثم الآفات التي عليها تترتّب، ثم العلامات التي بها تُعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلّص. وكلّ ذلك مقرون بشواهد الآيات، والأخبار، والآثار.

إذا حملنا هذا الوصف على محمل الجدّ، فحينئذٍ سيرد إشكال هام على العناوين المبحوثة في هذا الربع، مفاده أنّ هذه العناوين لا تكون جامعة. وذلك لأن الكثير من الرذائل التي عرّفها القرآن، من قبيل: الكفر، الشرك، النفاق، الإسراف والتبذير، الجبن، التجسس العصبيّة، التنازع، الخيانة، التمرد وغيرها من الرذائل لم تستقلّ بعنوان خاص بها.

وأمّا الكتب العشرة التي يتضمّنها ربع المنجيات، فهي كالآتي: كتاب التوبة، كتاب الصبر والشكر، كتاب الخوف والرجاء، كتاب الفقر

والزهد، كتاب التوحيد والتوكّل، كتاب المحبّة والشوق والأنس والرضا، كتاب النيّة والصدق والإخلاص، كتاب المراقبة والمحاسبة، كتاب التفكّر وكتاب ذكر الموت. أكبر الكتب حجماً في هذا الربع هو كتاب «ذكر الموت»، ويأتي بعده كتاب «الصبر والشكر»، ويشغل كتاب «المحبة والشوق والأنس والرضا»، المرتبة الثالثة من حيث الحجم. ويليه في المرتبة الرابعة كتابا «التوبة» و«الفقر والزهد». ثم كتاب «الخوف والرجاء»، وكتاب «التوحيد والتوكّل»، إذ يحتلان المراتب اللاحقة بالترتيب، وأخيراً أصغر كتاب وهو «كتاب التفكر».

حول هذا الربع، كتب الغزالي:

وأمّا ربع المنجيات، فأذكر فيه كلّ خلق محمود وخصلة مرغوب فيها، من خصال المقرّبين والصدّيقين التي بها يتقرّب العبد من رب العالمين. وأذكر في كلّ خصلة حدّها وحقيقتها وسببها الذي به تُجتلب ثمرتها التي منها تُستفاد، وعلامتها التي بها تُعرف، وفضيلتها التي فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل.

في خصوص النظام والترتيب السائد في هذا الربع، لاتوجد مشكلة تُذكر، والنظم الموجود مناسب ومقبول. نعم في تقديم وتأخير بعض الكتب لم يعتمد ملاكاً واضحاً وإنما خضعت المسألة إلى أذواق مختلفة. فمثلاً، ربما كان من الأفضل أن يوضع كتاب «النيّة والإخلاص والصدق» وهو الكتاب السابع، بعد الكتاب الأول (كتاب «التوبة») وذلك نظراً إلى أهمية الموضوع والبحوث التي يعالجها. وكذلك نقل «كتاب المحبة»، وهو الكتاب الثالث ضمن التسلسل الموجود، إلى ما قبل كتاب «الصبر

والشكر». وكذلك كتاب «الفقر والزهد»، كان من الأجدر تقديمه على كتاب «الصبر والشكر»، فيكون بمثابة المقدّمة لهذا الكتاب.

والملاحظ أنّ دائرة موضوعات هذا الربع قياساً بربع المهلكات، هي أكثر تفصيلاً وتفريعاً وتجزيئاً. والظاهر أنّ المؤلّف، في باب المهلكات، استقر رأيه على أن لا يخرج من دائرة المهلكات التي أشار إليها القرآن الكريم، أمّا في المنجيات فقد تعامل بانفتاح أكبر في بيانه للعناوين والبحوث.

وأمّا من جهة مدى استيعاب الكتاب للعناوين الأخلاقيّة المعروفة ـ أي أخلاق العبوديّة، الأخلاق الفرديّة، الأخلاق الأسريّة، والأخلاق الاجتماعيّة ـ فنقول إنّ الكتاب يحظى بدرجة جيدة من الاستيعاب والشموليّة، إلّا أنّ ثمة عناوين من قبيل: النظم في العمل، الثقة بالنفس وبُعد النظر، تتعلّق بالأخلاق الفرديّة؛ وسوء الظنّ بالمؤمنين، الشجاعة، الإحساس بالمسؤوليّة، الأمانة والوقار، تتعلّق بالأخلاق الاجتماعيّة، لم نعثر عليها بشكل مستقلّ وملفت للنظر في أيّ من فصول ـ أو أرباع ـ الكتاب.

6 ـ منهجيّة الكتاب

حول منهجيّة كتاب **إحياء العلوم** تجدر الإشارة إلى نقاط عدّة، هي:

أ ـ الاستفادة من البرهان والخطابة

يعتمد الغزالي في برهنته على الآراء التي يطرحها ويتبنّاها ويحاول إلقاءها في ذهن القارئ، أساليب إقناعيّة وخطابيّة وأخرى استدلاليّة

وبرهانيّة. ففي موارد متعدّدة في كلّ ربع من أرباع الكتاب ـ أي العبادات، والعادات، والمهلكات، والمنجيات ـ يطرح المؤلّف بحوثاً استدلاليّة وعقليّة صرفة. كما سعى في الموارد المناسبة أن يفيد من العناصر الإقناعيّة والأخرى ذات البُعد عاطفي وخيالي أيضاً، نظير: التشبيهات، والحكايات، والتواريخ، والأشعار، وأحوال المشايخ والعلماء.

ب ـ التأكيد على التحليل المفهومي

في بداية كلّ فصل (والفصل يبدأ في بعض الأحيان بكلمة «بيان»)، أول خطوة للمؤلّف كانت تحرير معنى وحقيقة العنوان الأخلاقي، (فمثلاً، في بحث «الرضا» بدأ كلامه بعبارة «القول في معنى الرضا»، ثم عقد بحثاً تحت عنوان «بيان حقيقة الرضا وتصوّره»)، ليصير إلى تحليل مفهومي وتحديد المجال المعرفي لذلك العنوان الأخلاقي.

ج ـ رؤية سوسيولوجيّة

يُلاحَظ أنّ الغزالي، في بعض الموارد، ينطلق من رؤية سوسيولوجيّة تعتمد لغة الإحصائيّات لبعض وقائع وإحداثيّات الاجتماع الإنساني، ترافقها عمليّة رصد وتقييم للسلبيّات والمظاهر الأخلاقيّة السيئة ومناشئها، ليقرّر بالتالي مدى صلاحية هذا المنهج التربويّ أو ذاك. فمثلاً، في بحثه «في بيان أنّ الأفضل هو غلبة الخوف أو الرجاء». والذي قرّر المؤلّف من خلاله أنّ الخوف بالنسبة إلى عموم الناس أصلح لحالهم، يقول ما مؤّداه:

إننا لو نظرنا إلى المجتمع لوجدنا أنّ أغلب الناس يقفون على شفا جرف المعصية، والكثير منهم يرتكبون المعاصي ويغترّون بالرحمة الإلهيّة،

إذن صحيح أنّ الرجاء في حدّ ذاته أفضل من الخوف وذلك لجهات سبق أن أشرنا إليها، إلّا أنّ الأصلح بحال غالبية الناس هو الخوف[1].

د ـ المصادر الدينيّة التي اعتمدها الغزالي في كتابه

إذا تجاوزنا استشهادات الغزالي بأقوال مشايخ العرفاء وآراء كبار علماء الأخلاق، فإنّه يؤكّد في الاستدلال على نظريّاته وتوثيقها ـ خصوصاً في ما يتعلّق بالجانب النقليّ من كتابه ـ بالدرجة الأولى، على آيات القرآن الكريم في كلّ الموضوعات التي يطرقها، ويستشهد بعدد كبير من الروايات النبويّة وأقوال الصحابة. وهنا لا بدّ من التذكير بنقطة هامة وهي أنّه، في اختياره للروايات النبويّة، لا يولي أهميّة إلى الأسانيد. من هنا لا يخلو كتاب الإحياء من الأحاديث الضعيفة أيضاً[2]. وهذا ما جعل الكتاب عرضة للكثير من الانتقادات ـ خصوصاً من أصحاب المسلك الإخباري السنّي ـ. أضف إلى ذلك، أنه توجد بعض الإسرائيليّات رُويت في جوامع روائيّة معتبرة لدى العامة، استشهد بها الغزالي ونقلها في كتابه وهو مطمئن بصحتها[3].

---

(1) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج 4، ص 173 ـ 175.

(2) انظر: زين الدين أبو الفضل العراقي، **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار**،الكتاب مطبوع في هامش كتاب **إحياء العلوم**، ج1 ـ 4؛ إذ صرح العراقي، بضعف عدد كبير من الأحاديث المنقولة في كتاب **إحياء العلوم**. علماً بأن العراقي من المؤيّدين لكتاب **إحياء العلوم**، وينظر إليه نظرة إيجابية.

(3) من ضمن الإسرائيليّات التي دخلت كتاب إحياء العلوم، قصة النبي داود وما ينسب إليه من معصية وهذه القصة موجودة في التوراة، إذ قبل الغزالي مضمونها، وأرجع هذه المعصية ـ الموهومة ـ إلى عدم قدرة النبي داود على السيطرة على شهوة النظر ـ والعياذ بالله. انظر: **إحياء علوم الدين**، ج 3، ص 110. كما يمكن الإشارة إلى المقارنة بين النبي يوسف الصدّيق وبين سليمان بن يسار، فقد حكم بالنتيجة بأن سليمان كان أكثر عفافاً من النبي يوسف، نقلاً عن لسان النبي يوسف. المصدر نفسه، ج 3، ص 113.

هـ ـ المحاور التربوية في الكتاب

في سياق الرؤى التربوية والتي تستند إلى جملة تبريرات وتسويغات خاصة به، سلك الغزالي طريقة توفيقيّة جمع فيها بين أساليب المنهج المعرفي في التربية وأساليب المنهج السلوكي في التربية. وفي هذا المجال، يمكن الإشارة إلى «كتاب العلم» وما يتضمّنه من بحوث مسهبة تصدّرت **إحياء العلوم** والتي تهدف بمجموعها إلى التأكيد على دور العلم والمعرفة في النظام الأخلاقي للفرد والمجتمع. إلى جانب ذلك، ثمة موارد خاصة تؤكّد على المعرفة ودورها، إن يروي المؤلّف حديثاً عن أمير المؤمنين علي (ع)، ينطلق من خلال هذا الحديث للتأكيد على ضرورة التعرّف على ماهيّة الدنيا بشكل صحيح، وتصحيح التصوّرات الخاطئة عن دور الدنيا، معتبراً ذلك مقدّمة ضروريّة لبلورة رأي صحيح في التعامل مع الحياة الدنيا، وما توفّره من فرص ومواهب، وما تفرزه من أخطار وآلام ومتاعب.

و ـ تحديد الغاية من الأخلاق الإسلامية

يرى الغزالي أنَّ الغاية من النظام الأخلاقي في الإسلام هي إيصال المؤمن إلى مقام الشهود، وإعداد الموحّد بتوحيد خاص الخاص والذي يعبّر عنه الغزالي بمرتبة «لبّ اللبّ»، ويعدّه حصيلة ونتاج «مشاهدة الصديقين»[1]، والذي يعبّر عنه العرفاء بـ «الفناء». ويصرح المؤلّف في مقدّمة الكتاب بأنّ «علم المعاملة» طريق للوصول إلى «علم المكاشفة».

---

(1) **إحياء العلوم**، ج 4، كتاب التوحيد والتوكّل، ص 264 ـ 261.

وفي كتاب «التوحيد والتوكّل»، التابع لربع المنجيات، يقرر أنّ علم المعاملة من دون المكاشفة علم أبتر وناقص[1]. إذن غاية الأخلاق ـ حسب الغزالي ـ الوصول إلى مقام الشهود. وفي كتاب «المحبة والأنس والرضا» يرى أنّ حبَّ الله من ذاتيّات النظام المعنويّ الإسلاميّ التي لا تنفكّ عنه، وذلك باعتباره الطريق والمقدّمة لبلوغ القرب الإلهيّ[2]. تجدر الإشارة إلى أنّ الغزالي صرح بـ «وحدة الشهود»، وفسّر سلوك العرفاء على أساسه. وأمّا وحدة الوجود فلا نجد له تصريحاً بها.

ز ـ الطابع الفقهيّ والعرفانيّ والفلسفيّ

ذكر الغزالي في مقدّمة كتابه أنّ موضوع هذه الموسوعة العلميّة هو «علم المعاملة»، ويشتمل على ثلاثة حقول معرفيّة هي: الفقه، العرفان العمليّ، والأخلاق. ومن هنا يمكن القول إنّ ثمة مسائل فقهيّة وأخرى عرفانيّة، دخلت بصورة مباشرة إلى كتاب **إحياء العلوم**، وإن كانت مادة الفقه أقلَّ بكثير من مادة العرفان.

في الربع الخاص بالعبادات، نجد ملامح وآثاراً لبحوث الفقه الشافعي، في محاور نظير: الأحكام الفقهيّة في الوضوء، والغسل، والصلاة، والحج، والصوم، والزكاة. ونجد ذلك أيضاً بوضوح أكبر في الربع الخاص بالعادات، في أحكام عقد النكاح والطلاق، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب الأمر بالمعروف وكتاب السماع. ومن جهة أخرى، فإنّ الغزالي ينظر إلى الأخلاق من منظار عرفاني. وهذا ما يمكن ملاحظته من

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 319 ـ 315.

خلال جملة دلالات، منها تعلّقه واندكاكه بمشايخ الطريقة، وذلك لما ينقله من كلمات وكرامات عنهم، ومنها ابتناء آرائه ونظريّاته على التعاليم الصوفيّة، إذ يمكن بوضوح تتبّع الجذور الصوفيّة في تراث الغزالي الأخلاقي واستكشافها، إلّا أنّ شدّة تركيز هذه العناصر العرفانيّة لا تصل إلى الدرجة التي تحملنا ـ في مقام تصنيف التراث الأخلاقي ـ على إخراج كتاب **إحياء العلوم** من الاتجاه التوفيقيّ للأخلاق الإسلاميّة، وتصنيفه ضمن الاتجاه العرفاني، فيكون على وزن **منازل السائرين** أو **الرسالة القشيريّة** أو غير ذلك، وإن وُجد من ادّعى جزافاً مثل هذه الدعوى وراح يدافع عنها. والحقيقة أنّ ثمة مؤشرات تنأى بهذا الكتاب الخطير عن أجواء التصوّف والعرفان العملي، بما فيها تناول المؤلّف للعديد من البحوث العالقة بالأسرة وبالاجتماع، في مفاصل مختلفة من الكتاب، وتأكيده على بعض الواجبات الشرعيّة نظير: الجهاد والزكاة والأمر بالمعروف، إلى جانب الاهتمام بالأصول والمبادئ المعرفيّة للدين ضمن كتاب «قواعد العقائد» والمساهمات الأدبيّة القائمة على محوريّة الشريعة. ولا ريب في أنّ كتاب **إحياء العلوم** سواء في أدلّته، أم في ما ينطوي عليه من رؤية متوازنة للدنيا، أو في ما يطرحه من موضوعات، أو في تحليلاته وحتى في اختياره للمفردات وصياغته للعبارات، لا يمتّ إلى النظام الفكريّ العرفاني بصلة، وغريب هو عن النظرة الصوفيّة والأدب الصوفي الصرف.

وفي ما يتعلّق بالرؤى الفلسفيّة وأدبيّات الأخلاق الفلسفيّة، فالملاحظ أنّ الغزالي امتنع وبشدّة، عن استخدام المصطلحات الفلسفيّة اليونانيّة. وحرص ـ في تصميمه وبنائه للنظام الأخلاقي الخاص به ـ على أن لا يفيد من العناصر أو البناءات الفلسفيّة لعلم الأخلاق، على الرغم

من أنّ هناك موارد أفاد فيها من آراء حكماء اليونان المبتكرة، وتلقّاها بالقبول من تراث الفكر الأفلاطوني، وهنا يمكن الإشارة وبالتحديد، إلى قبوله لفكرة تثليث قوى النفس الإنسانيّة، إذ انعكست هذه الفكرة في الربع الثالث من الكتاب ـ ربع المهلكات ـ وشكّلت الفكرة المحور في هذا الربع، وفي ضوئها تمّ ترتيب موضوعات هذا القسم. وفي خصوص منظومة الفكر الأخلاقي لأرسطو يمكن الإشارة إلى نظريّة «التوسّط» والتي تلقاها الغزالي بالقبول، وذلك في ربع المهلكات أيضاً، عندما راح يقسّم أصول الأخلاق إلى الفضائل الأربع وهي: «الحكمة»، و«الشجاعة»، و«العفة»، و«العدالة»، وما يقع في طرفيها من الإفراط والتفريط، هي «أمهات الرذائل». وصرح بأنّ نقطة الوسط هذه هي المحمودة وهي التي تستحقّ أن نسمّيها «فضيلة»[1].

ويمكن القول إنّ باحثاً كثير التّتبع والقراءة نظير الغزالي، ونتيجة لأحاطته بأنماط مختلفة من النظم الفكريّة، تأثّر بعناصر القوة لكلّ نمط من تلك الأنماط. ولكن مع ذلك ليس من الإنصاف أن نصدر بحقّه حكماً كليّاً بأنه كان مقلّداً لمدرسة الأفلاطونيّين الجدد، أو أنه من المتأثّرين والمشغوفين بتعاليم مذهب الجوكيين الهنود.

ح ـ الدنيا عند الغزالي، قراءة في المنظور التربويّ والأخلاقيّ

القارئ لكتاب **إحياء العلوم** يجد، بعد التأمّل، أنّ المؤلّف، وعلى الرغم من كلّ ما قاله في ضرورة التنكّر للدنيا وعدم الاهتمام بها، والدعوة إلى الزهد فيها، خصوصاً في ما يتعلّق بمظاهر الحياة الدنيا، من

---

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص 59.

قبيل «الاهتمام الزائد بأمر المعيشة»، بالقدر الذي يؤثّر سلباً على تديّن الأفراد وعبادتهم. لكن ثمة موارد استحقّت بحثاً جاداً ودقيقاً حول قيمة الدنيا ودور الحياة الدنيويّة، انبرى فيها الغزالي ليقرّر بحثاً نظريّاً تناول فيه «فلسفة الحياة»، ضمّنه رؤية إيجابيّة إلى الحياة الدنيا والحياة الاجتماعية؛ في كتاب «آداب العزلة» يبلور الغزالي رؤية واضحة ومتوازنة عن الدنيا. في البداية يذكر سبع آفات لمن يدخل خضم النشاطات الدنيويّة، ويشتغل بالأمور الاجتماعيّة، إلّا أنه بعد ذلك يذكر ـ في المقابل ـ سبع آفات لمن يختار العزلة والابتعاد عن صخب الحياة الاجتماعيّة[1]. وفي الدفاع عن «السماع» يكتب ما مؤداه: أن الطرب والعمل يبعثان على النشاط، والسرور، والبهجة، ويمنحان الفكر الهدوء والسكينة. والاستراحة تعمل على إعداد الشخص لاستئناف الأعمال والمهام الكبيرة[2].

وبكلمة، يمكن القول إنّ الغزالي إنما يهرب من الدنيا المذمومة، أي الدنيا التي لا تجتمع مع طلب الآخرة، ولكن عندما يكون طلب الدنيا مساوياً لطلب الآخرة فإنه يشجّع عليها ويدعو إليها. وقد أبرز هذه النقطة بأفضل نحو حينما مَثَّل سفر الآخرة بسفر الحج من حيث احتياجه للزاد والراحلة[3].

7 ـ أدبيات الكتاب

على الرغم من اعتراف المؤلّف[4] بأن الكتاب ـ من حيث فنون

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص 247 ـ 268.
(2) المصدر نفسه، ص 299.
(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 239.
(4) محمّد بن محمّد الزبيدي، **إتحاف السادة المتّقين**، ج 10، ص 25؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 19، ص 326.

الأدب العربي ـ لا يخلو من أخطاء، إلّا أنّه، عموماً، توافر على بيان ممتع وسلس، وفي الوقت نفسه متقن، بحيث إنّ القارئ ينتقل إلى لب الكلام بسهولة. وفي ما يتعلّق بالجانب النقليّ، فإن كتاب **إحياء العلوم** ـ وكما أسلفنا من قبل ـ مشحون بالآيات، والروايات، والمأثورات. كما أفاد الغزالي، وبكثرة، من الأشعار، والحكايات، والتمثيلات، في بيان وتعميق الموضوعات.

من جهة أخرى، ومع أنّ الكتاب قد اتّسع لدوائر بحثيّة عدّة، وبحث مجالات مختلفة أعم من أصول المعارف الدينيّة وفروعها ـ نظير الفقه، والكلام، والأخلاق، والعرفان ـ إلّا أنّ المصنّف، في جميع هذه المجالات، لم يرَ نفسه ملزماً بالتقيّد بالمصطلحات الاختصاصيّة المتعارف عليها من قبل المختصّين في هذه العلوم، إذ انصبّت جهوده على التقرير الصحيح والدقيق للمسائل والأفكار العلميّة. وهذا ما صرح به المصنّف نفسه في مقدّمة كتاب **الإملاء**، معتقداً صحة هذه الطريقة من حيث الشرع والعقل.

8 ـ التقييم النهائي

لا شك في أنّ هذا الكتاب هو من أهمّ المؤلّفات الأخلاقيّة للغزالي ومن أشهر الكتب الأخلاقيّة في العالم الإسلامي. ولمّا كان الفكر الأخلاقي للغزالي ترافقه تطلّعات عرفانيّة، لذا نجد كتاب **إحياء العلوم** في كثير من الموارد قد اتخذ طابعاً عرفانياً. ويصنّف الغزالي الفقه والأخلاق والعرفان ضمن حقل واحد وهو «علم المعاملة»[1]، لذا

(1) خلافاً للمحاسبي الذي يقسم العبادات إلى قسمين: عبادات ظاهرية (الفقه)، =

نراه قد بحث هذه الموضوعات الثلاثة التي هي من سنخ العمل والمعاملة. نعم موضوع الأخلاق كان له حصة الأسد من البحث والاهتمام. وفي المقابل، فإن الفقه نال أقلّ قدر من البحث والاهتمام. من جهة أخرى، يجد الباحث أنّ استراتيجيّة الغزالي، في كتابه هذا، تقتضي تقريب مواضع التصوّف والشريعة بعضها إلى بعضها الآخر. من هنا فإن إيجاد لغة مشتركة بغية الوصول إلى تفاهم واتفاق واضح وناجح، في الوقت نفسه، يبدو أمراً ضرورياً. لذا حرص المؤلّف على استخدام مصطلحات العرف الخاص لكلّ واحد من الطرفين، وهذه خطوة ذكية جداً من قبله في هذا المجال. أضف إلى ذلك، لو سلّمنا بأن هدف النظام الأخلاقيّ التربويّ، بحسب ما بشَّر به القرآن الكريم، هو إعداد الإنسان الموحّد الصادق في توحيده، لا يتضح لنا أنّ الغاية التي حدّدها الغزالي للأخلاق الإسلاميّة في كتابه **إحياء العلوم** ـ وهي وصول المسلم السالك إلى مقام الشهود والتوحيد الخالص ـ أمر منطقيّ ومقبول جداً.

ومن حيث المنهج، يمكن القول إنّ الغزالي كان موفّقاً في اختياره للمنهج التوفيقيّ والمركّب من الأسلوب الإقناعيّ، والأسلوب الخطابيّ، والأسلوب البرهانيّ، والأسلوب التحليليّ، خصوصاً مع الأخذ بعين الاعتبار الهدف الذي يرمي إليه الكتاب وسعة دائرة مخاطبيه. وإن كانت كثرة استناد الغزالي إلى أقوال مشايخ الصوفيّة، وتأييده لتصرّفاتهم

= وعبادات باطنة (الأخلاق) أو (علم المعاملة)، انظر: «محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، ص 589».

المتطرّفة، وانحراف سلوك بعضهم، من الأمور التي لا يمكن التغاضي عنها. كما نجح الغزالي في استخدامه لكلا المنهجين «المعرفي والسلوكي» في بيان الخطط والحلول التربوية. ومن حيث المصادر والتوثيقات، فنقول: ثمة أمور كرّست الانتقادات الموجّهة إلى كتاب **إحياء العلوم** وجعلتها محقّة، بعض الشيء، نشير هنا إلى بعضها:

أولاً: لقد تعامل الغزالي مع المصادر الدينيّة بانفتاح وتسامح كبير، فنجده في بحوثه ومعالجاته استند إلى أحاديث شاذة وضعيفة، وبعض منها إسرائيليّات.

ثانياً: لا شك في أنه كان متأثراً بالتراث اليوناني. والشاهد على دعوانا هذه قبوله نظريّة التوسّط لأرسطو، ونظريّة تثليث قوى النفس لأفلاطون، وميوله إلى نظريّة الاستذكار الأفلاطونيّة. ولكن خلافاً لمن يحاول أن يتمسّك بهذه الشواهد على تقديم الغزالي على أنه مقلّد لليونانيين، نقول: إنّ صرف القبول والتأييد لا يكشف عن التقليد، بل إنّ الإنصاف بعد التأمّل والتّتبع يقضي بالقول إنّه كان بصدد القيام بعملية فرز وغربلة للتراث اليوناني، للتمييز بين الصحيح منها والسقيم، مع التأكيد الكبير على محوريّة ومركزيّة الشارع الإسلامي المقدّس. والشاهد على ما نقوله كثرة تأكيده ـ تبعاً للقرآن الكريم ـ على القِيَم المعنويّة ـ من قبيل: الشكر، التوبة، التوكّل، والخوف من اللّه ـ . وتراه من منطلق إسلامي محض يعرّف الرسول الأكرم محمّد (ص) باعتباره المصداق التام والكامل للمكارم الأخلاقيّة. كما يرى أنّ مفهوم حب الله هو الخير الأعلى الذي يؤدّي إلى نيل مقام الشهود، أي شهود الحق عزّ شأنه في

القيامة. وهذه رؤى وقِيَم لم تكن معلومة لدى اليونانيين[1]. وبصورة عامة، الكتاب يمتاز بنظم وترتيب جيد ومناسب وإن كان يعاني من بعض الثغرات. ولعلّ أهم هذه الثغرات هي عدم وجود مقدّمة أو مدخل يمهّد فيها المؤلّف للدخول في ربع العبادات. ويجدر في ذلك المدخل أو المقدّمة، أن يُصار إلى طرح بحوث كتاب «العلم»، وكتاب «قواعد العقائد»، وكتاب «شرح عجائب القلب»[2] كبحوث تمهيديّة في هذا المضمار.

من حيث العناوين والموضوعات، فإن **إحياء العلوم** كتاب جامع قلّ نظيره من حيث الاستيعاب والشموليّة وإن كانت توجد ملاحظات ينبغي أن تُذكَر كما أسلفنا ذلك في الحديث عن دائرة موضوعات الكتاب. كأن يقال إنه في ربع العبادات، ثمة حاجة إلى بحث كتاب الجهاد وكتاب الاعتكاف وأيضاً في ما يتعلّق بالربع الخاص بالعادات، نلاحظ أنّ المؤلّف لم يتطرّق إلى بحث آداب النوم، وآداب الملبس، وآداب المسكن، مع أنّ عنوان العادات تشمل كلّ هذه البحوث. ومن جهة أخرى لا ندري ما السبب الذي حمل المؤلّف، في بحث المهلكات، على أن يقتصر على المهلكات الواردة في القرآن، لكنه في بحث المنجيات لم يعتمد المبنى نفسه.

(1) ميان محمّد شريف، **تاريخ فلسفه در إسلام**، ج 2، الترجمة الفارسيّة، ص 57.
(2) القلب هنا بمعنى النفس. الغزالي، **إحياء العلوم**، ج 3، مقدّمة الكتاب.

قراءة إجماليّة في كتابين آخرين، من التراث الأخلاقي للغزالي

الأول: ميزان العمل[1]

يذهب الباحث عبد الرحمن بدوي إلى أنّ كتاب **ميزان العمل** يعود إلى الفترة التي سبقت عهد العزلة التي مرّ بها الغزالي، ولذا فهو سابق من حيث التأليف، على **إحياء علوم الدين**[2]. ووفقاً لما توصّل إليه بدوي بعد التّتبع، فإنّ أكثر من ستة من أصحاب التراجم نصّوا على أن نسبة كتاب **ميزان العمل** إلى الغزالي نسبة قطعيّة، ولا شك فيها[3]. أضف إلى ذلك، فقد صرّح الغزالي في نهاية كتابه **معيار العلم** وهو كتابه بلا شك، بتأليفه كتاب **ميزان العمل**. وإن كان المستشرق الإنكليزي «مونتجمري واط» يرى أنّ الكتاب، وإن اقتبست موادّه من الغزالي ولكنه بهيئته الفعليّة ليس من نتاج الغزالي[4]. طبع الكتاب أول مرة في عام 1327 هـ في

(1) أبو حامد محمّد الغزالي (ت 505 هـ)، **ميزان العمل**، المقدّمة، تعليق وشرح علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، 1421 هـ ـ 2000 م. 232 ص، قطع وزيري.

(2) عبد الرحمن بدوي، **مؤلّفات الغزالي**، ص 10.

(3) المصدر نفسه، ص 79،81.

(4) المصدر نفسه، ص 82.

القاهرة. ومن ضمن طبعاته الأخيرة يمكن الإشارة إلى الطبعة التي أصدرتها دار مكتبة الهلال عام 1995م في بيروت، وقام بتصحيحها وتحقيقها علي بوملحم.

ويتضمّن **ميزان العمل** 32 بياناً، كلّ بيان يقوم مقام الفصل. تتناول البيانات الاثني عشر الأولى بحوثاً تمهيدية في أسس ومرتكزات علم الأخلاق، نظير: وجوب طلب السعادة، تعريف السعادة، نسبة العلم من العمل في إنتاج السعادة، معرفة النفس وقواها، وإمكانية تغيير الخلق. ثم يدخل في تفاصيل علم الأخلاق ومحاوره ضمن عشرين بياناً.

في القسم الثاني من الكتاب، يتحدّث المؤلّف أولاً: عن السبيل إلى تهذيب الأخلاق عبر بيان إجمالي، ثم يقوم بتعريف أمهات الفضائل ـ أي الحكمة، الشجاعة، العفّة والعدالة ـ، ضمن خمسة فصول وما يترتّب عليها من أخلاق حميدة أخرى تتشعّب منها، ثم يعقد بحثاً في الطريق التفصيلي لتهذيب النفس. ثم يتطرّق، في الفصول الثلاثة، إلى الدوافع والموانع التي تمنع تحصيل الخيرات وأنواعها، وكذلك يبحث مراتب السعادة وغايتها. وفي خطوة لاحقة، قام ببحث السلوكيّات المتعلّقة بالقوى الثلاث: الشهويّة، والغضبيّة، والناطقة الحميدة وغير الحميدة، وذلك ضمن ستة فصول.

وفي الفصول الأربعة الأخيرة، خصّص الغزالي كلّ فصل لبحث موضوع واحد مهم. ففي البيان التاسع والعشرين تناول موضوع «كيفيّة التخلّص من الغم» في الحياة الدنيا. وفي البيان الثلاثين بحث في «ما هو الطريق لدفع الخوف من الموت» في الحياة الدنيا. وفي البيان الحادي والثلاثين، تطرّق إلى ذكر «علامة المنزل الأول» من منازل السير إلى الله.

وفي النهاية يتعرّض البيان الثاني والثلاثين إلى لزوم «الكف عن المنازعات» المذهبيّة والطائفيّة، ولزوم أن يكون الحق والحقيقة هما الرائد في طلب العلم.

وحول الموضوعات الأخلاقيّة التي تناولها الغزالي في هذا الكتاب، نقول: إنّ الكتاب اهتمّ بقسمين من الموضوعات الأخلاقيّة: الأول ويضمّ بحوثاً في المبادئ التصوّريّة والتصديقيّة لعلم الأخلاق، بدءاً بتعريف الخير والسعادة وحتى تصنيف مراتب الخير الدنيويّة والأخرويّة على اختلافها، ولزوم رعاية الحدّ الوسط في أعمال القوى الثلاث للنفس. وكذلك البحث حول أُسس ومرتكزات المنظور المعرفي للإنسان من وجهة نظر علم الأخلاق. القسم الثاني ويُعنى بالبحث في أمهات الفضائل، أي: الحكمة، الشجاعة، العفة، العدالة، وكيفيّة انشعاب الفروع الأخلاقيّة ـ والملكات النفسانيّة ـ منها. من هنا يتّضح للقارئ أنّ أكثر المباحث والعناوين ذات علاقة بأخلاق العبوديّة وأخلاق الأسرة لم يتناولها الكتاب، كما إنّ انعكاسات الأخلاق الاجتماعيّة هي الأخرى بدت باهتة ودون المستوى المطلوب.

لقد اعتمد الغزالي، في كتابه هذا، أسلوباً فنّياً قائماً على الإيجاز والاقتضاب. ويبدو أنّ المسلك الذي عليه الكتاب ذو طابع علمي آكد من كتاب **إحياء علوم الدين**، كما إنه أكثر منطقيّة وموضوعيّة في معالجاته. إذ لم يفد كثيراً من النقاط المعنويّة والعاطفيّة. ومع الأخذ بعين الاعتبار هدف المؤلّف من تأليفه الكتاب، يبدو الأمر طبيعياً ومقبولاً. فقد صرح بأنّه صار إلى تأليف كتاب في معيار العلم، لصون عمليّة التفكير من الخطأ. ومن ثم اهتمّ بتأليف كتاب **ميزان العمل** لصون الإنسان من الوقوع

في الخطأ على صعيد العمل والسلوك. وبذلك يمكن القول إنّ كتابه الأول هو كتاب منطق في مجال الحكمة النظريّة، والكتاب الثاني كتاب منطق في مجال الحكمة العمليّة. ومن هنا، يتضح السبب الذي حمله على اختيار أسلوب علميّ بحت في هذا الكتاب.

ويجدر القول إنّ المنهج العلمي الذي اختطّه الغزالي في كتاب **ميزان العمل** يتضمّن نقاطاً ملفتة للنظر وجديرة بالتأمّل. وهنا نشير إلى بعض النقاط المنهجية في هذا الكتاب:

أولاً: حرص المؤلّف على صب استدلالاته في قالب حواري، على منوال «الحوارات السقراطيّة».

ثانياً: من الناحية التربويّة، تم التأكيد على البُعد المعرفي والعمل على استصلاح رؤية الفرد إلى الحياة والعالم، مع عدم إغفال النصائح والتوصيات في مجال السلوك والعمل.

ثالثاً: في خصوص مكانة الكتاب وموقعه، إزاء المدارس الأخلاقيّة الموجودة، فمن الواضح أنّ الغزالي نهج أسلوباً توفيقيّاً ـ أو قل تركيبياً ـ، في هذا الكتاب. إنّ حجماً كبيراً من البحوث ـ من قبيل: لزوم طلب السعادة، تعريف الخير والسعادة، أنواع ومراتب الخير، علاقة العلم بالعمل، بحوث في معرفة النفس، أمهات الفضائل والحدّ الوسط وإلى جانب اهتمام المؤلّف ببحث «دفع الخوف من الموت» اهتماماً كبيراً، قياساً بحجم الكتاب كلّه ـ يعكس شدّة هيمنة الأدب الفلسفي، كما يطرح وبقوة، وجهة نظر حكماء الأخلاق الإسلاميّة. وفي الوقت نفسه فإن الحديث عن هدف ذي طابع تعبّدي في التربية الأخلاقيّة والانطلاق من شعار التوحيد كمحور مركزي، يمثّل الغاية في علم الأخلاق، إلى جانب

تناول الغزالي لبحث «تصفية القلب». وضرورة الوقوف في معرض إشراقات أنوار المعارف الربانيّة وتأكيده على نجاح طرق المتصوّفة في التربية، كلّ ذلك يكشف عن تأثّره بالمدرسة العرفانيّة بنسبة عالية. في حين أنّ كثرة استناداته إلى آيات القرآن الكريم والأحاديث والسنّة النبويّة إلى جانب تأكيده الحثيث على ضرورة احترام الشريعة وأحكامها في جميع مراحل تزكية النفس والسلوك، يشير إلى أنّ العناصر الذاتيّة للمدرسة الروائيّة، في الأخلاق الإسلاميّة، لها حضور قويّ وفاعل في الكتاب.

بنظرة عامة يمكن القول، إنّ **ميزان العمل** كتاب عظيم المنفعة، وذلك باعتبار أنّ الغزالي استطاع أن يستفيدون من المخزون الفلسفيّ والعرفانيّ والروائي الذي تكتنزه الأخلاق الإسلاميّة ويوظّفه بالطريقة المناسبة. لقد نجح المؤلّف في تزويد القارئ بمعلومات ثمينة حول النظام العام للأخلاق الإسلاميّة، هذا مضافاً إلى أنّ الكتاب خالٍ من الإشكالات التي بدت في كتاب **إحياء العلوم**، وبالتحديد بعض المجازفات الإفراطيّة الصوفيّة، أو الإسرائيليّات، أو أقوال الصحابة المستندة إلى نظريّة عدالة الصحابة. وعلى كلّ حال، وعلى الرغم من كلّ نقاط القوة التي يمتاز بها الكتاب، لاسيما على صعيد المضمون والمادة، فإنّه يعاني من ثغرات ونقاط ضعف على صعيد تقسيم الفصول وترتيبها.

الثاني: منهاج العابدين إلى جنّة رب العالمين[1]

هذا الكتاب يُعدُّ من آخر الكتب التي ألّفها الغزالي، ولا يتردّد أغلب

---

(1) أبو حامد محمّد الغزالي (505 هـ)، منهاج العابدين، تحقيق وتعليق موفّق فوزي الجبر، دمشق: دار الحكمة للطباعة والنشر، 1994 هـ ـ 1415 م، 280 صفحة، قطع وزيري.

المتخصّصين في نسبته إليه[1]. ويعتقد عمر بن عبد الجبار الساوي أنّ **منهاج العابدين** يتضمن نقاطاً دقيقة حول سلوك طريق الآخرة، ولذا فهو من هذه الناحية لا نظير له في مؤلّفات الغزالي.

يشير المؤلّف في مقدّمته للكتاب إلى الترتيب الجديد الذي اعتمده ويقدم تقريراً إجماليّاً عن تسلسل المباحث والباعث الذي حمله على التأليف. وهو بيان أسباب السعادة وموجبات طيّ عقبات الآخرة. ثم إنّه قطع عهداً على نفسه أن يكتب بطريقة يسهل على عموم الناس استيعابها وفهمها.

يشتمل الكتاب على سبعة أبواب و22 فصلاً، ويقع في حوالي 200 صفحة. وفي الواقع، تمثّل أبوابه عقبات ومنعطفات ينبغي على سالك طريق السعادة أن يجتازها، واحدة بعد أخرى، ليصل في النهاية إلى قمة السعادة. وهذه الأبواب بالترتيب هي: عقبات العلم، التوبة، العوائق، العوارض، البواعث، القوادح، الحمد، والشكر. وقد بُحث كلّ باب بما يتناسب وأهميّة الموضوع على نحو الإيجاز والاختصار، أو على نحو التفصيل والاستيعاب، من دون فصول أو ضمن فصول متعدّدة. ويمكن تلخيص مضمون الكتاب على النحو التالي:

في الباب الأول، أشار المصنّف إلى أنّ الغاية من خلق عالم الدنيا والآخرة هي العلم والعبادة. وفي مقام المقايسة بين الاثنين يؤكّد على أنّ العلم أشرف من العبادة. ومن البحوث الأخرى التي عالجها في هذا الباب هي: العلاقة بين العلم والعبادة، السرّ في تقدّم طلب العلم على

(1) عبد الرحمن بدوي، **مؤلّفات الغزالي**، ص 238.

العبادة، العلوم التي يجب طلبها والقدر الواجب تعلّمه من كلّ علم. في الباب الثاني، يتعرض إلى بيان الهدف من التوبة، ألا وهو تحصيل توفيق الطاعة وقبول العبادات. ويتطرّق إلى ذكر مقدّمات وشروط التوبة، أقسام المعاصي وصعوبة التوبة وشدتها. الباب الثالث وهو أطول الأبواب، إذ يشغل ثلث مساحة الكتاب، ويقع في ثمانية فصول، ويُعنى بالحديث عن المعوّقات الأربعة التي تعيق الإنسان عن العبادة وهي ـ أي المعوّقات ـ: الدنيا، الخلق، الشيطان، والنفس. وطريق التخلّص من شرورها، وعن السبيل إلى تحصيل تقوى النفس وصيانة أعضاء البدن الخمسة (العين، الأذن، اللسان، القلب والبطن). ثم يتعرّض المؤلّف، في الباب الرابع وضمن ثلاثة فصول، إلى بحث عوارض طريق العبادة، ومراده من العوارض الأمور التالية: الرزق، الأخطار والمصائب والشدائد، والقضاء الإلهي.

يرى الغزالي أنه لا بدّ من معالجة موضوع الرزق إلى جانب التوكّل وموضوع الخطر إلى جانب التفويض، والشدائد مع الصبر والقضاء الإلهي مع الرضا. ولذا بحث موضوعات التوكّل، والتفويض، والصبر، والرضا. ويقع الباب الخامس في فصلين تم تخصيصهما للبحث حول البواعث وهما: الخوف والرجاء. وقد تعرض المؤلّف فيها إلى بحوث من قبيل: حقيقة الخوف والرجاء، ثمرات الخوف والرجاء، مقامات الخوف والرجاء، أضرار الخوف والرجاء، أخطار هذه العقبة، قواعد العبور من هذه العقبة، وطريقة العبور.

الباب السادس ويقع ضمن أربعة فصول، تناول فيها المؤلّف موضوع الإخلاص، وبالمناسبة طرح بحث العجب والرياء، أقسامهما

والأضرار الناشئة منهما وتأثيراتهما على صعيد السلوك والعمل وطرق الخلاص من شرورهما. ويُعنى الباب السابع ـ ثلاثة فصول ـ بآخر عقبة وهي عقبة الحمد والشكر، ويتطرّق إلى بيان: ثمرات الحمد والشكر، أنواع النِعم، حقيقة الحمد والشكر وما يقابلهما، مواطن الحمد والشكر والكرامات التي تحصل للعبد السالك في الدنيا والآخرة.

ومع الأخذ بالاعتبار الغرض الذي جاء من أجله الكتاب، وهو التوافر على تقرير موجز للسير والسلوك الفردي في مجال أخلاق العبوديّة، فإنّ الكتاب من حيث استيعابه للموضوعات ذات الصلة بهذا الغرض، يبدو جامعاً ومستوعباً لأطراف البحث. والملاحظ أنّ المؤلّف، في بعض مراحل البحث، وعندما يتداخل مجال الأخلاق، والسير، والسلوك الفردي مع مجال الأخلاق الاجتماعيّة، يصير إلى بيان نصائح ووصايا مفيدة ونافعة، كما إنه من الناحية التنظيميّة والترتّب المنطقي المطلوب في الكتاب، يمكن القول إنّه كان موفقاً، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار عنوانه، والهدف الذي وجد لأجله. ومن جهة أخرى، فإنّ الكتاب يمتاز بنصّ سلس وواضح، فعلى الرغم من إيجازه لكنه خالٍ عن الإبهام. ومن حيث المضمون يلاحظ أنّه لا يعاني من التشتّت، فهو يوضح مقاصده بشكل جيد. كما إنّ كثرة الآيات، والمواعظ، والأشعار، والحكايات المنقولة عن المشايخ وكبار العرفاء، أضفت مسحة روحانية وعرفانية.

وأمّا المنهج العلمي الذي اعتمده المؤلّف بشكل أساس، في هذا الكتاب، فهو المنهج التحليلي. والاستنادات التي استند إليها، في الأعمّ

الأغلب، هي استنادات قرآنيّة وعرفانيّة وإن كان الكتاب قد أفاد، في موارد كثيرة، من الموعظة، والعبرة، وأحاديث أعاظم المسلمين وأقوالهم.

وفي الخاتمة، يمكن القول إنّ الكتاب، ونظراً إلى امتاز به من مضمون عميق، وانسجام في طرح المطالب، واستيعاب وشمولية ونظام مناسب، ومنهجيّة ناجحة في بيان المقاصد، هو كتاب قيّم ويجدر التعريف به للآخرين لمطالعته والتزوّد منه.

5
الحقائق في محاسن الأخلاق[1]

1 ـ نبذة مختَصَرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

كتاب الحقائق، تأليف محمّد بن شاه مرتضى، المعروف بالمولى محسن الفيض الكاشاني، من كبار علماء الشيعة في القرن الحادي عشر الهجريّ. ألمّ بالعديد من العلوم، من قبيل علوم القرآن والحديث والحكمة والكلام والأخلاق والعرفان والفقه والأصول. وكان خبيراً أيضاً بفنون الشعر والأدب، واشتهر بحُسن التصنيف وكثرة التأليف، بدرجة لا يحتاج معها إلى التعريف به[2].

مكث في مسقط رأسه «كاشان» حتى سن العشرين، ونال فيه قسطاً وافراً من العلم على يد أبيه وخاله. ثم شدّ الرحال إلى مدينة أصفهان، ليكمل فيها المشوار في طلب العلوم الدينيّة، ومنها سافر إلى مدينة شيراز ليتّلمذ هناك على يد السيد ماجد البحراني، ويبلغ درجة الاجتهاد. ثم أخذ يطوف في البلدان طلباً للعلم. وبعد مدة من التطواف حلّ في مدينة

---

(1) المولى محسن الفيض الكاشاني (ت 1091 هـ)، **الحقائق في محاسن الأخلاق**، تصحيح وتذييل سيد إبراهيم الميانجي، طهران، مكتبة إسلامية، 1378 هـ، 327 صفحة، قطع وزيري.

(2) الأميني، **الغدير**، ج 11، ص 362؛ محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 6، ص 565.

«قم» تلميذاً عند كبير أهل العرفان، الملاّ صدرا الشيرازي (ره)، وبقي ملازماً له مدة ثمانية أعوام، اشتغل فيها بالرياضة ومجاهدة النفس، حتى أضحى خبيراً بفنـــون علم الباطن[1]. وأمّا وفاتـــه، فقد ذكروا أنه توفّي عام 1091 هـ في كاشان، في سن الرابعة والثمانين[2].

خلّف الفيض الكاشاني، (قده) تراثاً ضخماً في مختلف العلوم، واختلفوا في عدد مؤلّفاته فعدّها البعض 24 كتاباً، فيما ذهب آخرون إلى أنّ عددها بلغ أكثر من مائتين[3]، من أهمّها في علم التفسير **الصافي والأصفى**، وفي علم الحديث: **الوافي والشافي**، وفي علم الأخلاق: **المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء**، وكتاب **الحقائق**، وكتاب **التطهير**، وكتاب **زاد السالك**، وكتاب **منهاج النجاة**، وكتاب **الفت نامه** (بالفارسيّة).

2و3 ـ النسخ والطبعات، أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

أُلّف الكتاب عام 1091 هـ ـ أي في السنة نفسها التي تُوفّي فيها المؤلّف ـ وتوجد نسختان خطيّتان، الأولى يعود تاريخها إلى عام 1138 هـ. والثانية محشاة بحاشية العالم الشيخ علي بن الشيخ أحمد الإحسائي. وقد قام السيد إبراهيم الميانجي بتصحيحها، وتحقيقها، ومقابلتها مع النسختين. وقد طُبع هذا الكتاب مع كتابين آخرين هما كتاب **قرة العيون**

---

(1) الفيض الكاشاني، **مفاتيح الشرائع**، تحقيق ومقدّمة: السيد مهدي رجائي، مقدّمة المحقّق.

(2) القمّي، **الكنى والألقاب**، ج 3، ص 41.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 40؛ **نعمة الله الجزائري**، **زهر الربيع**، ص 164؛ محمد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 6، ص 565.

وكتاب **مصباح الأنظار**، أول مرة عام 1378 هـ من قبل المكتبة الإسلامية بطهران، وطُبع للمرة الثانية عام 1409 هـ مع مراجعة وحواشٍ مفيدة، لمحسن عقيلي. وترجمه محمّد باقر ساعدي خراساني، مع تعليقات للمترجم نفسه، وقامت مؤسسة «انتشارات علميّة إسلاميّة» بنشر الترجمة في مجلّدين.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

يمتاز كتاب **الحقائق** بأنه كتاب جامع، نسبياً، في مجال الأخلاق الفرديّة. فباستثناء البابين الأوّلين من المقالة الأولى ـ حيث يتطرّقان إلى مواضيع غير الأخلاق، يبدو أنّ المؤلّف أوردهما من باب التقديم وتتميماً للفائدة ـ فإنّه يشتمل على المباحث التالية:

1 ـ مقدّمات نظريّة حول الإنسان والنفس من منظور علم الأخلاق، صرّح من خلالها المؤلّف بأن النفس الإنسانية لها أربع قوى، خلافاً لما اعتقده الكثير من المتقدّمين.

2 ـ عناوين أساس في أخلاق العبوديّة (نظير: الصبر، الرضا، الخوف، الرجاء، التوكّل، اليقين).

3 ـ أسرار بعض العبادات الأخلاقيّة والعرفانيّة (نظير: الصلاة، الزكاة، الحج، والصيام).

4 ـ حلول أساس علميّة، وعمليّة، وأخلاقيّة (من قبيل: التوبة، المحاسبة، المراقبة، التفكّر، التدبر)

إنّ الكتاب وإن تضمّن دورة مضغوطة في مجال الأخلاق الفرديّة، إلّا أنّ بعض بحوثه ذات أبعاد اجتماعيّة، من قبيل: باب «الإخاء والألفة»

من المقالة السادسة، وباب «الزكاة والمعروف» من المقالة الخامسة. في حين لم يخصّص بحث حول أخلاق الأسرة.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

قسّم الفيض الكاشاني بحوث الكتاب إلى ست مقالات، كلّ مقالة تتضمّن أبواب عدّة، وكلّ باب يشتمل على فصول عدّة. عناوين مقالات وأبواب الكتاب هي كالآتي:

المقالة الأولى: في ما هو بمنزلة الأصول، وتشمل ثلاثة أبواب هي: في العلم، في العقائد وفي معرفة النفس.

المقالة الثانية: في مساوئ الأخلاق وتهذيبها، وتتضمن أربعة أبواب وهي: في معنى الخلق وتهذيبه، في ما يؤدّي إلى مساوئ الأخلاق، في الغضب، في الرياء والعجب وعلاجهما.

المقالة الثالثة: في ذم الدنيا والاغترار بها وتتضمّن خمسة أبواب هي: في معرفة الدنيا والآخرة، في ما ورد في ذم الدنيا، في حب المال، في ذم حب الجاه، وفي ذم الغرور.

المقالة الرابعة: في مكارم الأخلاق وتحصيلها، ويشتمل على ستة أبواب هي: فضيلة الصبر، الرضا وطريق تحصيله، الخوف والرجاء، المحبة والأنس، اليقين والتوكل، والصدق والأمانة.

المقالة الخامسة: في العبادات وأسرارها، وتضم سبعة أبواب هي كالآتي: في النية، في الطهارة والنظافة، في الصلاة والذكر، في تلاوة القرآن، في الزكاة والمعروف، في الصوم، وفي الحج.

المقالة السادسة: في سائر الأعمال الصالحة، وتضمّ خمسة أبواب هي: في التوبة، في المحاسبة والمراقبة، في التفكّر والتدبر، في ذكر الموت وقصر الأمل، وفي الإخاء والأُلفة.

هذه التقسيمات بمجموعها نجدها منطقيّة ومناسبة إلّا أنّ ثمة ملاحظات نوردها هنا حول النظام والنسق الذي عليه الكتاب:

1 ـ من الأنسب تقديم المقالة الثالثة (في ذمّ الدنيا والاغترار بها) على المقالة الثانية؛ وذلك لأنه بعد الحديث عن معرفة النفس في المقالة الأولى تأتي بحوث تمهيديّة أخرى حول معرفة آفات النفس (بما فيها الاغترار بالدنيا).

2 ـ إستبدال بعض مباحث المقالة الثانية ببعض مباحث المقالة الأولى من شأنه أن يجعل مباحث الكتاب أكثر انسجاماً وأكثر نظماً، وذلك ضمن الترتيب التالي:

أولاً: عنوان المقالة الثانية ناظر إلى بيان مساوئ الأخلاق، ولذا فإنّ المباحث المتعلّقة بتهذيب الأخلاق (الباب الأول بفصوله الثلاثة) ينقل إلى باب معرفة النفس في المقالة الأولى.

ثانياً: المباحث المتعلّقة بالغضب والشهوة وآثار الانقياد للغضب والشهوة ينبغي نقلها من المقالة الأولى إلى المقالة الثانية.

3 ـ الظاهر أنه لا داعي لفصل مباحث المقالة السادسة عن المقالات الأخرى للكتاب؛ وذلك لأنّ أغلب مباحث هذه المقالة يمكن درجها ضمن عناوين أبواب المقالة الرابعة والتي تبحث في مكارم الأخلاق وطرق تحصيلها. فكلّ من أبواب التوبة، والمحاسبة، والمراقبة، والتفكر، والتدبر يمكن نقلها إلى المقالة الرابعة، ودرج

باب الأخلاق والألفة أيضاً ضمن باب المحبة والأنس في المقالة نفسها. وأمّا باب ذكر الموت وقصر الأمل فيمكن درجه ـ كمبحث نهائي ـ في نهاية أبواب المقالة الثالثة.

6 ـ منهجيّة الكتاب

في المقدّمة يقول المؤلّف في تعريفه بالكتاب:

وإنما أخذته من كتاب الله تعالى وسنّة سيّد المرسلين وأحاديث الأئمة المعصومين وأضفت إليه ما وجدت في كتب علماء الدين ولا سيما كتاب **إحياء علوم الدين** لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي الطوسي.

هذا التعريف يكشف بوضوح معالم المنهج الذي اتّبعه الفيض الكاشاني في هذا الكتاب. فعلى الرغم من أنه استنار بآثار الغزالي وتراث الحكماء لكنه لم يكن كالغزالي منبهراً بالمنهج السلوكيّ والباطنيّ للعرفاء، كما لم يكن على درجة كبيرة من التأثّر بآراء وتراث الفلاسفة. فالمحور في البحث العلمي في هذا الكتاب هو آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأكرم (ص) والأئمة المعصومين. ولم تطغَ أيّ من الاتجاهات الفلسفيّة أو العرفانيّة، على الاتجاه العام للكتاب. والظاهر أنّ المؤلّف كان في البداية بصدد كتابة دورة في الأخلاق الإسلاميّة مستلّة من الآيات والروايات.

لكنه في تفسيره للآيات والروايات أخذ في التوسّع، فعمل على تحليل المفاهيم الأخلاقيّة ومداليلها، وتوافر على دراسة الملكات النفسانيّة، أقسامها وطبقاتها ومبادئها، وكذلك الآثار المترتّبة عليها، وفي هذا المضمار لم يأب الاستشهاد بآراء كبار علماء الأخلاق لاسيما

الغزالي، وفي مقام إصلاح المفاسد الأخلاقيّة، تطرّق إلى بيان جملة من الحلول التربوية، سواء على الصعيد المعرفي أم على الصعيد السلوكي، ذكرها تحت عنوان: العلاج العلمي والعلاج العملي.

7 ـ أدبيّات الكتاب

صيغ الكتاب ـ كسائر مؤلّفات الفيض الكاشاني ـ بأسلوب سلس وبيان بليغ. وعلى الرغم من إلمام الفيض بالعلوم المعقولة والمنقولة وبالمصطلحات الخاصة، وبالمفردات العربيّة المتداولة منها والغريبة، إلّا أنّ أيّاً من هذه العوامل لم تؤثّر سلباً على أسلوبه في الكتابة، ولم تجعل منه نصاً تخصّصياً. بل العكس من ذلك، نجد المؤلّف، بما له من ذوق رفيع، يحترز عن الإطناب والإيجاز المخلّ، ويسعى لصبّ كمّ كبير من المعارف الأخلاقيّة الإسلاميّة الخالصة في قالب ألفاظ وعبارات وجيزة وبليغة.

وحول حجم الجانب النقلي في الكتاب، لا بد من القول إنّ المؤلّف بسبب إحاطته الكبيرة بآيات القرآن الكريم وروايات أهل البيت، اعتمد هذين المصدرين أكثر من أيّ مصدر آخر بحيث أخذ الكتاب صبغة قرآنيّة وروائيّة. وأمّا نسبة الأشعار والحكايات فيه فهي ضئيلة. وثمة كلمة أخيرة لابد من الإشارة إليها وهي أنّه، في موارد كثيرة، نقل كلمات الغزالي من كتاب **إحياء علوم الدين** بحذافيرها.

8 ـ التقييم النهائي

كتاب **الحقائق في محاسن الأخلاق** كتاب خالد ونفيس وهو آخر ما خطّه يراع المولى محسن الفيض الكاشاني. فقد ألّفه وهو في سنّ الثالثة

والثمانين أي في أوج نضجه العلمي والأخلاقي. ومن أبرز مميزات هذا الكتاب؛ الأسلوب البليغ، والترتيب والنظام المقبول والمناسب، والإتقان في البحث، والانسجام في الطرح، واستيعاب الموضوعات الأخلاقية في أقل حجم ممكن، وبالتالي ثراء المصادر المعتمدة في هذا السفر. وهذه المميزات بأجمعها تدعو القراء والباحثين وبإلحاح، إلى قراءة الكتاب بعمق وتأمل.

6

جامع السعادات[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

محمّد مهدي بن أبي ذر النراقي، من مشاهير الشيعة في القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجري، وُلد في مدينة نراق ـ من توابع كاشان ـ عام 1128 هـ، وتوفّي في النجف الأشرف عام1209 هـ . من أبرز أساتذته: آقا محمّد باقر البهبهاني، والحكيم ملاّ إسماعيل الخواجوئي، والشيخ يوسف البحراني صاحب **الحدائق**. وقد كان المحقّق النراقي جامعاً للمعقول والمنقول، متعدّد الفنون والمواهب، كتب 32 كتاباً في الفقه، والأصول، والفلسفة، والكلام، والهيئة، والرياضيّات، والأخلاق. من أبرز مؤلّفاته: **لوامع الأحكام ومعتمد الشيعة في الفقه**، و**شرح الشفاء في الحكمة**. وفي مجال الأخلاق أُثر عن النراقي كتابان هما: **جامع السعادات**، و**جامع المواعظ**. ويمكن القول إنّ كتابه **جامع السعادات** هو أشهر مؤلّفاته على الإطلاق[2].

(1) محمّد مهدي النراقي (1209 هـ)، **جامع السعادات**، تحقيق وتعليق وتصحيح وتقديم محمّد رضا المظفر، النجف، مطبعة الزهراء، 1368 هـ ـ 1949 م، ثلاثة مجلدات، ج 1: ق + 378 ص، ج 2: 413 ص، ج 3: 406 ص قطع وزيري.

(2) انظر: محمّد باقر الخوانساري، **روضات الجنات**، ج 7، ص 203 ـ 200؛ ميرزا محمّد علي معلم حبيب آبادي، **مكارم الأخلاق**، ج 2، ص 360 ـ 364؛ محمّد رضا المظفر مقدمة **جامع السعادات**، ج 1، ص ف ـ ن.

وفي مقدّمته، ذكـر أنّ اسـم الكتاب جامع السـعادات، ولـم يذكر له اسماً آخر غير هذا الاسم. وأمّا نسبته إلى المحقق النراقي فهي ثابتة ولا يرقى إليها الشك.

2 ـ النسخ والطبعات

في مقدّمته على الكتاب، يشير المحقّق المعاصر الشيخ محمّد رضا المظفر إلى وجود مخطوطتين للكتاب اعتمدهما مصحّح المتن «السيد محمّد كلانتر» في تصحيحه، إحداهما لـ «آقا بزرگ الطهراني» صاحب **الذريعة**، ويعود تاريخ استنساخها إلى عام 1208 هـ، والأخرى تعود لمكتبة سپهسالار في طهران، وُضعت تحت تصرّف المصحّح، ولم يتطرق المظفر إلى ذكر تاريخها.

تم الفراغ من تأليف الكتاب في عام 1196 هـ، وبقي حوالي 120 عاماً مخطوطاً. وقد طُبع للمرة الأولى طباعة حجريّة عام 1312 هـ بهمّة وجهود الحاج محمّد تقي الكاشاني. بعد ذلك قام السيد محمّد الكلانتر بطباعته في النجف الأشرف وذلك عام 1368 هـ بعدما قام بتصحيحه وتهذيبه. ووضع له الأستاذ المظفر مقدّمة فنية. ثم أعيدت طباعة هذه النسخة المصحّحة مرّات ومرّات في كلّ من إيران، والعراق، ولبنان.

3 ـ أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

إذا غضضنا الطرف عن كتاب **معراج السعادة** وهي ترجمة ملخّصة من كتاب **جامع السعادات** (بالفارسيّة) للمولى أحمد النراقي ابن المصنف، فإنّ الكتاب قد ترجم إلى اللغة الفارسيّة من قبل السيد جلال الدين المجتبوي، وطبع عام 1407 هـ من قبل «انتشارات حكمت» بعنوان

علم أخلاق إسلامي، وفي عام 1408 هـ قام المترجم نفسه بطبع خلاصة **جامع السعادات** بالتعاون مع دار النشر نفسها. كما إنّ المجلّد الخامس والسادس من المنهج الدراسي المقرّر تدريسه في الحوزة العلميّة بقم المقدّسة، في مادة الأخلاق، تحت عنوان درسنامه **أخلاق** تحرير علي المختاري، هما في الواقع تلخيص وإعادة تحرير لكتاب **جامع السعادات**. وقام مركز تدوين ونشر النصوص الدراسيّة في الحوزة العلميّة بطبع المنهج الدراسي كلّه بما فيه هذان المجلّدان. من جانبه قام أقا بزرگك الطهراني عام 1320 هـ . بإعداد فهرست للكتاب سمّاه **لامع المقالات، فهرس جامع السعادات**[1].

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

من حيث دائرة الموضوعات التي يعنى **جامع السعادات** بمعالجتها، يمكن القول إنّ الكتاب أكثر جامعيّة واستيعاباً من الكتب الأخلاقية الأخرى. وفي ما يخصّ دائرة اهتمامات الكتاب وطبيعة المساحات التي جاء الكتاب لإشغالها، ثمة نقاط عدّة لا بدّ من التذكير بها وهي:

1 ـ المقدّمات الضروريّة أو ما يُعرف بمبادئ علم الأخلاق والتي كانت مطروحة ومطروقة في زمن تأليف الكتاب، نظير: تجرّد النفس وبقاؤها، فضائل الأخلاق ورذائلها وآثار كل منها، العوامل المؤثّرة في الأخلاق، الخير والسعادة، قوى النفس الأربع أي: القوة العاقلة، والقوة الوهميّة، والقوة الغضبيّة، والقوة الشهويّة، تلذّذ النفس وتألّمها، وغيرها، إذ قام المؤلّف باستعراض عناوينها

(1) آقا بزرگك الطهراني، **الذريعة**، ج 5، ص 58.

بالتفصيل في بداية الكتاب، ومن ثم أخذ ببحث كلّ واحد منها بما يتناسب مع حجم الكتاب.

2 ـ بحث الكتاب أهم العناوين المرتبطة بأخلاق العبوديّة، نظير: الطاعة، التسليم، التوبة والإنابة، المعرفة، المحبة، التوكّل، والرضا.

3 ـ شمل الكتاب أهم العناوين ذات العلاقة بالأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة، من قبيل: حب الدنيا وذمّها، الورع عن حب الجاه والمال، طلب العلم، والنظافة، والطهارة. ومن جهة أخرى فقد عالج الكتاب الكثير من المفردات ذات العلاقة بالأخلاق الاجتماعيّة، من قبيل: الكذب، الغيبة، النميمة، الضرب والسب، التواضع، طلاقة الوجه، العفو، العدل والظلم، الهدية، والضيافة. وفيه بحوث من قبيل: الإنفاق على الأسرة، الغيرة وحقوق الوالدين، هذه البحوث وإن كانت مرتبطة بأخلاق الأسرة إلّا أنّ عموم البحوث المعنية بهٰذا المحور لم تُبرّز بعناوينها، وإنما يجب استخراجها من مضامين سائر البحوث.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

يهدف المؤلّف من تأليفه لهذا الكتاب، تجميع الرؤى والأفكار التي بشّر بها الإسلام في مجال تهذيب النفس، ثم أضاف إليها مختارات من آراء الحكماء والعرفاء. يشتمل الكتاب على مقدّمة قصيرة وثلاثة أبواب، في المقدّمة أشار المؤلّف إلى شرف علم الأخلاق وأهمّيته وذكر الغرض الذي يرنو إليه من تأليف الكتاب. ثم تطرق إلى الترتيب البديع الذي صار إليه في تقسيم المواد على أساس القوى الثلاث للنفس الإنسانية، أي

القوة العاقلة، والقوة الشهويّة، والقوة الغضبيّة[1]. ونبّه إلى هذه النقطة وهي أنه لم يذهب الى ما ذهب إليه المتقدّمون من التفصيل بين الرذائل والفضائل، وإنما في مقام الكلام عن كلّ رذيلة راح يشير إلى ضدّها من الفضائل، مع التأكيد على محوريّة قوى النفس الثلاث.

الباب الأول، في المقدمات: شمل بعض البحوث التمهيديّة في علم الأخلاق ضمن 50 صفحة، إذ تناول فيها المؤلّف بعض البحوث التمهيديّة لعلم الأخلاق، من قبيل: شرف علم الأخلاق، حقيقة الخلق، كيفيّة ظهور الملَكات، تأثير التربية على الأخلاق، حقيقة الخلق، كيفيّة ظهور المَلَكات، تأثير التربية على الأخلاق، تجسّم الأعمال وعلاقته بالمَلَكات، الخير والسعادة، اللّذة والألم والفضائل وبعض آثارها. ويرى المؤلّف أنّ السعادة النهائيّة للإنسان تكمن في التشبّه بالله تعالى. ومعنى أن يكون الباعث لصدور فعل الخير من الإنسان هو كونه خيراً، من دون ملاحظة أيّ مصالح شخصيّة، ولازم ذلك الطهارة من جميع الخبائث الجسمانيّة والحيوانيّة.

الباب الثاني: (يقع في 40 صفحة تقريباً) ويعنى بالبحث حول أقسام الأخلاق، قوى النفس الإنسانيّة (وهي بمثابة مبادئ الأخلاق). كما يبحث في أجناس الفضائل والرذائل الأخلاقيّة وثمراتها بمختلف أنواعها. في هذا الباب يورد المؤلّف فهرستاً تفصيليّاً بفضائل كلّ قوة من قوى النفس الأربع، ويتبنّى الدفاع عن نظريّة الحدّ الوسط، وتجنّب الإفراط والتفريط، وكيفية اندراج هذه الصفات في قوى النفس.

---

(1) يقسم المؤلّف قوى النفس الإنسانية إلى عاقلة، وغضبيّة، ووهميّة، وشهويّة، أما نظام الكتاب فقائم على أساس فكرة تثليث القوى النفسانيّة.

الباب الثالث: يقع في 1100 صفحة، وهو آخر الأبواب وأطولها. والملاحظ أنه لا يتناسب من حيث الحجم مع البابين الأول والثاني. ويشتمل الباب على مقدّمة ذات ثلاثة فصول وأربعة مقامات. يتناول في هذه المقدّمة جملة بحوث، منها: الطريق لحفظ اعتدال الفضائل، قانون العلاج في الطبّ الروحاني، طريق معرفة الأمراض النفسانيّة، الأمراض الأخلاقيّة والمعالجات الكليّة. ويعدّد المؤلّف جملة من الحلول العمليّة للوصول إلى السعادة وحفظ اعتدال النفس، فيذكر منها: مصاحبة الأخيار والمعاشرة مع أولي الفضائل الخلقيّة، الاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوي الأخلاق السيّئة، المواظبة على الأفعال التي هي آثار فضائل المَلَكات، حمل النفس على الأعمال التي تقتضيها المَلَكات الفاضلة، التروّي قبل الإقدام على كلّ فعل، الاحتراز عما يهيّج الشهوة والغضب، الاستقصاء في طلب خفايا عيوب النفس والاجتهاد في إزالتها. بعد ذلك يتطرّق الكاتب إلى بيان قانون العلاج في الطبّ الروحاني عبر فصول عدّة.

وفي ما يتعلّق بالمقامات الأربعة، فقد اختصّت المقامات الثلاثة الأولى منها ببيان الفضائل والرذائل التي تتعلّق بإحدى قوى النفس الثلاث: العاقلة، أو الغضبيّة، أو الشهويّة. وفي المقام الرابع بحث المؤلّف حول الفضائل والرذائل التي تتعلق بأكثر من قوة وأكثر من مبدأ.

ويقع المقام الأول في مائة صفحة، وأهم البحوث المطروحة فيه هي: الجربزة، العلم والحكمة، الجهل البسيط والمركب، التعليم والتربية، الشكّ واليقين، التوحيد والشرك، الوسوسة، الإلهام والتفكّر. في هذا الباب تطرّق المؤلّف إلى بيان شرف العلم والحكمة وآداب التعليم والتعلم. ثم أخذ يعرّف بعلوم الآخرة (أصول الدين، الأخلاق

والفقه). بعد ذلك وبمناسبة الحديث عن التفكر، عقد بحثاً مفصلاً حول مجاري التفكّر في المخلوقات، فذكر عجائب خلقة الإنسان، والحيوان، والعالم ضمن ثلاثين صفحة.

المقام الثاني، ويقع في 170 صفحة، تضمن بحوثاً عدّة، أهمّها ما يأتي: التهوّر، الجبن والشجاعة، الخوف والرجاء، عزة النفس، علو الهمة، الغيرة، حسن الظن وسوء الظن، الوقار، العجلة، الحلم والغضب، العفو والانتقام، المداراة والعنف، الكبر والعجب، الذلّة والتواضع، الكتمان، العصبيّة، القساوة، الإنصاف، والاستقامة.

أطول بحث في هذا القسم يتعلّق ببحث الخوف ويتضمّن العناوين التالية:

الخوف المذموم وأقسامه، الخوف الممدوح وأقسامه، عوامل الخوف، الخوف من الله، طرق تحصيل الخوف الممدوح، الخوف من سوء العاقبة والخوف والرجاء.

في المقام الثالث، تناول المؤلّف العديد من البحوث عبر مائتي صفحة، من أهمّها: الخمود، الشره، العفة، الدنيا (الدنيا المذمومة، صفات الدنيا، حب الدنيا وأهل الدنيا)، المال، الزهد، الفقر والغنى، الحرص والقناعة، البخل والسخاء، الخمس والزكاة، الهديّة والرشوة، الضيافة، القرض، الأموال الحلال والأموال الحرام، الخيانة والفجور والتكلّم والصمت.

وأمّا مباحث المقام الرابع (ويقع في 600 صفحة) فأهمّها ما يلي: الغبطة والحسد، الإيذاء والإهانة، العدل والظلم، قضاء حوائج

المسلمين، إدخال السرور علي قلب المؤمن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صلة الرحم، قطع الرحم، الهجرة والتباعد، برّ الوالدين، حق الجوار، ستر العيوب وكتمان السر، النميمة والغيبة، المزاح، الصدق والكذب (التورية، المبالغة، شهادة الزور، اليمين الكاذب وخلف الوعد)، حب الجاه والشهرة، الإخلاص والرياء، النفاق، الغرور، طول الأمل، العصيان، التوبة، الإنابة، الشوق والكراهة، حب الله، لقاء الله، العزلة، الغفلة، الرضا والسخط، التوكّل، عدم الاعتماد، الشكر، الكفران، الصبر والجزع، الطهارة، العبادة، الفسق والطاعة. وبمناسبة الحديث عن الفسق والطاعة، عقد المؤلّف بحثاً مفصّلاً تناول فيه بعض أسرار العبادات والآداب الباطنيّة ودقائقها، وأيضاً تناول مراتب الطهارة، والنظافة، والصلاة وأجزاءها وشرائطها (الوقت، القبلة، القيام، التكبيرات، النيّة، الاستعاذة، الركوع، السجود، التشهّد، والسلام)، كما تطرّق إلى صلاة الجماعة، وصلاة العيد، وصلاة الجمعة، وصلاة الآيات.

ومن البحوث الأخرى التي تطرّق إليها: الذكر والدعاء، تلاوة القرآن، الصوم، الحج، وزيارة المشاهد المشرّفة. وفي خاتمة الكتاب عقد بحثاً حول زيارة المرقد المطهّر للإمام علي بن أبي طالب (ع) في النجف، والحائر الحسيني في كربلاء المقدسة.

وقد امتاز الكتاب بنظام وترتيب بديع وملفت للنظر، يجعله أكثر فائدة وذا طابع عمليّ مثمر، نحاول هنا أن نرصد أهمّ معالم وسمات هذا النظام، فنقول: تخصيص بداية الكتاب بجملة بحوث ذات طابع تمهيديّ ومقدّماتي، البدء بالحديث عن الفضائل والرذائل التي تتعلّق بمبدأ بسيط قبل البدء بالحديث عن الفضائل والرذائل التي تتعلّق بأكثر من مبدأ،

تجميع الفضائل والرذائل المرتبطة بقوة واحدة في مكان واحد، بعضها إلى جانب البعض الآخر، تقسيم الرذائل والفضائل على أساس مبدأ ومنشأ كلّ واحدة منها، التوافر على مواعظ ووصايا مؤثرة، فيها الكثير من النصح والشفقة وذلك عند نهاية كلّ مقطع مهمّ وحساس من مقاطع الكتاب. وأخيراً وضع فهرست إجمالي من أجل التعريف بالبحوث المهمّة في كلّ باب.

من هنا يمكن القول إنّ كتاب **جامع السعادات** يشكّل نقطة تحوّل كبيرة في تاريخ علم الأخلاق. فهو يبرز وبقوة، ما امتازت به شخصيّة مؤلّفه من حُسن قريحة وجانب علميّ عميق ورؤية شاملة، مميزات تضافرت في ما بينها لتتحف الوسط العلمي بمثل هذا الكتاب القيّم في الأخلاق الإسلاميّة. ويمكن استكشاف الجانب المشرق منه من خلال ميزتين أساسيتين، هما:

الميزة الأولى: استطاع الكتاب أن يبرز نقاط القوة في الاتجاه الفلسفيّ للأخلاق الإسلاميّة بوضوح. فمنذ ظهور كتاب **أخلاق ناصري** للخواجة نصير الدين الطوسي، وبعض الرسائل الأخلاقيّة لـ «بابا أفضل الدين المرقي الكاشاني»، لم يشهد العالم الإسلامي على مرّ خمسة قرون، مؤلّفات على مستوى عالٍ من الدقة والبيان الفني، إلى أن بزغ نجم كتاب **جامع السعادات** ليسدَّ هذه الثغرة.

وعلى الرغم من أنّ الكتاب لا يمكن تصنيفه ضمن التراث الخاص بالأخلاق الفلسفيّة إلّا أنّ المؤلّف، بما أوتي من إلمام دقيق بهذا الاتجاه وخبرة واسعة ـ رغم احتوائه (الكتاب) على نقاط قوة ونقاط ضعف ـ استطاع أن يستعرض أهم المباحث المطروحة في هذه المدرسة، إلى جانب الأدوات، والأساليب، والمناهج المؤثّرة التي تعتمدها المدرسة

نفسها. لذا يمكن القول إنّ **جامع السعادات** يأتي بعد كلّ من كتاب **طهارة الأعراق** وكتاب **أخلاق ناصري** ليمثّل حلقة جديدة، ومتكاملة، ومنقّحة في الاتجاه الفلسفيّ للأخلاق الإسلاميّة، وضمن صياغة لا تختصّ بالاتجاه الفلسفيّ طبعاً.

الميزة الثانية: يعبّر الكتاب عن فكر حرّ ينأى عن التقليد، ويؤكّد على التأسيس والإبداع. وقد تجلّى هذا البعد بقوة في الموقف النقديّ الصارم الذي اتخذه صاحب **جامع السعادات** إزاء معطيات المدرسة الأخلاقيّة للغزالي، خصوصاً في ما يتعلّق بتحديد مجالات وأنساق الأخلاق الإسلاميّة وما يدخل ضمنها وما يخرج عنها. وكذلك في بعدُها التنظيمي. إذ مما لا شكّ فيه أنّ كتاب **إحياء العلوم** كان له تأثير كبير ومشهود على جميع علماء ومفكّري الأخلاق ممن جاء بعده. وعمدة التأثير هذا ينصب على ترتيب الفصول والعناوين الأخلاقيّة والتنسيق في ما بينها، ضمن التقسيم الرباعي الذي اختصّ به وعرف عنه، إذ نرى أنّ علماء كباراً من قبيل: المولى محسن الفيض الكاشاني (قبل النراقي)، والسيد عبد الله شبر (بعد المحقّق النراقي)، قد أخذوا عنه وتأثّروا به في ما أُثر عنهم من مؤلّفات وكتب.

وأمّا صاحب **جامع السعادات** فقد استطاع أن يؤسّس لنظم جديد في الأخلاق الإسلاميّة. كما اشتمل على جهدٍ علمي يتعلّق بتحديد مجالات هذه الأخلاق وأنساقها، وتحديد ما هو الملاك في كون هذه المقولة أو تلك، هي مقولة أخلاقيّة أو غير أخلاقيّة. ويختزل هذا الإنجاز منظوراً تربوياً خاصاً به، يعتمد قراءة جديدة وفهماً متميّزاً للإنسان. وهذا الجهد تبلور في كتاب **جامع السعادات**. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الصياغة التنظيميّة تستند إلى حشد هائل من الآيات والروايات.

6 ـ منهجيّة الكتاب

من الملاحظ أنّ الهيكليّة العامة لكتاب **جامع السعادات** قد أُثرت عن الفلاسفة. وهذا ما صرح به مؤلّفه في المقدمة، فقد تبنّى نظريّة أرسطو في الاعتدال، كما تبنّى أيضاً التقسيم الرباعي لقوى النفس، أي العاقلة، والشهويّة، والغضبيّة، والواهمة وبقي وفياً لتلك النظرية وذلك التقسيم حتى نهاية الكتاب. حرص على أن تأتي التعاريف والإيضاحات التي يوردها ويطرحها عن الفضائل والرذائل منسجمة مع هذه الهيكليّة. من جهة أخرى، فإن ما بذله من اهتمام خاص على صعيد تحليل الفضائل والرذائل، وبيان الآثار الدنيويّة التي تترتّب على كلّ مفردة من مفرداتها، هو الآخر يأتي في إطار التأثير الذي تركته منهجيّة الحكماء على الكتاب.

في القسم الأول من الكتاب، يقرر المؤلّف أنّ سعادة الإنسان تكمن بتحصيل المعرفة والتشبّه بصفات الحق عزّ شأنه. ومعلوم أنّ هذا المعنى استقاه من الحكماء. وأمّا في المجلّد الثالث فيتناول مواضيع من قبيل: المحبة والشوق والأنس ولقاء الله. وبهذا فهو يقترب من ذهنيّة العرفاء وإن كان يبدو عليه أنه لا يرى لأقوال أهل الباطن ومشايخ الصوفيّة وأفعالهم من الحجيّة شيئاً، ولا يستند إلى أقوالهم وأفعالهم أبداً. ومن جهة أخرى، يرى القارئ أنّ المؤلّف ـ وبسبب أنسه الشديد بالمصادر النقليّة ـ أفاد كثيراً من الآيات والروايات وعمل في توظيفها بما يناسب البحث المطروح. إذ قد لا تجد صفحة من صفحات الكتاب تخلو من الاستناد بآية أو رواية. إنّ هذا التصميم وبهذا المضمون، هو في الواقع حصيلة عمليّة وتوظيف لمزايا وإيجابيّات ثلاث مدارس: المدرسة

الفلسفيّة، والمدرسة العرفانيّة، والمدرسة النقليّة، تضمّنها فكر النراقي. ومن هنا أمكن القول إنّ كتاب **جامع السعادات** هو من أبرز المؤلّفات التوفيقيّة في مجال الأخلاق الإسلاميّة.

وفي عرضه لبحوث الكتاب، نلاحظ أنّ المؤلّف نهج أسلوباً خاصاً، ففي بداية كلّ باب أورد قائمة بالبحوث التي يُراد معالجتها في ذلك الباب، وفى كلّ بحث دأب على تحرير الموضوع وتعريفه بدقة، ومن ثم تحليل المفاهيم المرتبطة به، ومن ثم راح يتحدّث عن أقسام الموضوع والأحكام الأخلاقيّة المختصّة بكل قسم. وفي هذه المرحلة يفيد من المصادر النقليّة الكثيرة، إلى جانب ما يورده من استدلالات عقلانيّة وتحليلات للمقدّمات المعرفيّة للمَلَكات الأخلاقيّة ولآثار تلك المَلَكات ومعطياتها. كما توافر على بيانات إقناعيّة من قبيل: التشبيه والتنظير، إلى جانب استناداته الكثيرة الى المصادر النقليّة والروائيّة.

وبعد أن يفرغ من إقناع مخاطبيه فكريّاً، يسعى المؤلّف إلى إيجاد تأثيرات تربويّة عميقة من خلال ما يلقيه من مواعظ، إذ من شأن هذه المواعظ، والنصائح المشفقة ذات الإيقاع اللطيف واللحن المؤثّر والتي غالباً ما يرافقها عبارات جميلة ومسجعة، أن تشدد الباعث نحو السلوك في قلب المخاطب.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يمتاز الكتاب بنصّ متقن وسلس، إذ يغلب عليه في بدايته الطابع الفلسفي. وأمّا سائر مفاصله فقد كُتبت على منوال ما هو معهود في الكتب الدينيّة وبالأُسلوب نفسه.

وربما استبدل المؤلّف هذه الأدبيّات بأدبيّات الوعظ والنصائح، وذلك في نهايات بعض الأبواب. ومع ذلك فإنّ الملاحظ في البحوث كافة، وعلى الرغم من التغيّر الحادث في لغة الخطاب والأدبيات، أنّه استطاع الإبقاء على جماليّة النصّ وسلاسته ومستواه، وإذا كان يوجد شيء من الإطالة ـ في بعض البحوث ـ فهو لأسباب ومقاصد خاصة، أملت عليه مثل هذا التطويل.

تشكّل الآيات والروايات القسم الأعظم من حجم المادة التي تمّ اقتباسها من مصادر أخرى. ولم يفد المؤلّف من التشبيه والتمثيل إلّا في موارد قليلة. وأمّا بالنسبة إلى الشعر والقصة، فلا تكاد ترى لهما أثراً.

8 ـ التقييم النهائي

مما لا شكّ فيه أنّ كتاب **جامع السعادات** يُعدّ من الآثار الخالدة في علم الأخلاق الإسلامي، إذ يمتاز بكونه كتاباً جامعاً نسبيّاً. وربما أمكن القول إنّه من حين تأليف الكتاب وحتى يومنا هذا، لا نجد كتاباً آخر يفوقه من حيث التفصيل والإتقان. ومن حيث القلم الرفيع، والصياغة القوية في بلاغتها ووضوحها، والتشبيهات والتمثيلات المؤثّرة، على الرغم من قلّة مواردها وإلى جانب ما ورد فيه من تصنيفات وتقسيمات مبتكرة وبديعة. وأروع ما في الكتاب تلك النصائح التي يقدّمها المؤلّف ـ المتخلّق ـ في خاتمة كلّ باب، خصوصاً وأنها تصدر من شخص قطع شوطاً كبيراً في مسار السير والسلوك والتهذيب، مما جعل من كتاب **جامع السعادات** كتاباً محبّباً ومؤثّراً، إلى درجة أنّ علماء الشيعة اتّفقت كلمتهم على ضرورة مطالعته لجميع المهتمّين بقضايا الأخلاق والتهذيب. وثمة ملاحظة أخرى تجدر الإشارة إليها وتُعدّ من مميزات الكتاب، وهي

انعكاس روح التقوى والإيمان ـ للمؤلّف ـ على مضامين كتابه، إذ يستنشق القارئ أريج الإيمان والعمل الصالح وعبير الإخلاص. وعن هذا الجانب يكتب المظفر قائلاً:

وفي نظري أنّ قيمة **جامع السعادات** في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه، أكثر بكثير من قيمته العلميّة. وإني لأتحدّى قارئ هذا الكتاب ـ إذا كان مستعداً للخير ـ أن يخرج منه غير متأثّر بدعوته . . . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسيّة المؤلّف وما كان عليه من خلق عالٍ وإيمان صادق. وإني لأؤمن إيماناً لا يقبل الشكّ: بأنّ انتشار هذا الكتاب بين الناس في هذا العصر سيكون له أثره المحسوس في توجيه أُمّتنا نحو الخير[1].

ومع كلّ هذه المحسنات التي ذكرناها، ثمة انتقادات أوردها بعض المحقّقين على كتاب **جامع السعادات** نذكر هنا أهمها:

1 ـ نقل المولى محمّد حسن القزويني[2] (ت 1240 هـ) أنه كُلّف من قبل المولى مهدي النراقي، بنقد وتلخيص ما جاء في كتاب **جامع السعادات**، وبعد مراجعته للكتاب وجده خالياً من التطويل، والإطناب، والزوائد. كما وجده غير خارج عن قدرة فهم طلبة العلوم الدينية واستيعابهم، إلّا أنّه عزم على أن يؤلّف هو كتاباً آخر لأنّ **جامع السعادات** قد نأى في أسلوبه عن الأسلوب والنظام المتّبع في التأليف. وإلى جانب ذلك تضمّن الكتاب جملة أخطاء وموارد وقع فيها بعض الخلط. وربما أمكن دفع الإشكال الأول بأن نقول: إنّ هدف النراقي من تأليف هذا الكتاب ليس إعداد نصّ دراسي

(1) **جامع السعادات**، ج 1، مقدّمة المصحّح.

(2) محمّد حسن بن معصوم القزويني، **كشف الغطاء عن وجوه مراسم الاهتداء**، ص 19.

متقن لطلبة العلوم الدينيّة بل الغرض هو تأليف نصّ يكون له تأثير أخلاقي كبير على طلاب علم الأخلاق الإسلاميّة.

وفي ما يتعلّق بالإشكال الثاني نقول: لعلّ مراده (ره) من عدم رعاية الأساليب المتّبعة في تأليف الكتاب هو، إشارة إلى ما ألمحنا إليه سابقاً من أنّ بعض بحوثه نظير «المقام الرابع» ـ ويُعنى ببيان الفضائل والرذائل المنبعثة من مجموع القوى ـ يلاحظ عليها أنها كانت أكثر تفصيلاً من سائر البحوث. وكان من الأفضل للمؤلّف أن يلتزم بخطّة بحث تفضي بالكتاب إلى أن يكون أكثر انسجاماً وتناسباً في عرضه للبحوث. وأمّا في خصوص الإشكال الثالث الذي طرحه القزويني، ففيه بعض الغموض ويحتاج إلى توضيح، لذا لا يمكننا تحديد الموقف المطلوب بإزائه سلباً وإيجاباً.

2 ـ من المؤاخذات الواردة على الكتاب، اعتماد المؤلّف على الأحاديث المرسلة، ونقل أخبار من كتب غير معتبرة ولا موثوقة، من قبيل كتاب **إحياء علوم الدين** للغزالي. وبعد أن يسجّل المظفر هذه المؤاخذة، يقرّر أنّها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين سائر كتب الأخلاق الإسلاميّة. ويكتب قائلاً:

وكأنّ همّ أصحابها ـ أصحاب الكتب الأخلاقيّة ـ من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة ... وكنا نتمنّى ـ أثناء التصحيح ـ على صاحب كتابنا هذا ألاّ يتّبع هذه العادة الشائعة عند الأخلاقيين، فيزيد على فائدته الأخلاقيّة فائدة أخرى في تحقيق الأحاديث الصحيحة[1].

(1) جامع السعادات، ص «ق».

3 ـ وحول عدم مراعاة جانب الأمانة في النقل، يكتب المظفر قائلاً:

أمّا أسلوب الكتاب الأدبي فهو يمثّل ـ إلى حدّ ما ـ عصره الذي ضعفت فيه اللغة إلى حدّ كبير، على أنّه كان يقتبس كثيراً نصّ عبارات غيره استراحة إليها. . . . وكأن كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع[1].

ومما يهوّن الخطب أنّه على عصر النراقي كان اقتباس بعض العبارات من مؤلّفين آخرين يعدّ أمراً شائعاً ومتداولاً. فمثل هذه الأمور لم تكن تصنّف آنذاك ضمن المحظورات الأخلاقيّة والقانونيّة كما هي عليه في زماننا الحاضر كما إنها لم تكن تعدّ من موارد الخيانة ـ في الأمانة ـ كما ينظر إليها في يومنا هذا.

---

(1) المصدر نفسه، ص «ق ـ ر».

7

الأخلاق[1]

1 ـ نبذة مختصرة عن المؤلّف ومؤلّفاته

كتاب **الأخلاق** بقلم السيد عبد الله شبر ابن السيد محمّد رضا الكاظمي النجفي، من مواليد النجف ومدفون في مدينة الكاظميّة. وهو من كبار علماء الشيعة في القرن الثالث عشر الهجري (1188 ـ 1242 هـ). اشتهر بكثرة التأليف وحسن التصنيف في عصره، توفّي في سن الرابعة والخمسين، ومع ذلك أثر عنه أكثر من سبعين كتاباً قيّماً، بعض منها يربو على العشرين مجلداً. ولذا قرن اسمه بالعلاّمة المجلسي وسمّي بالمجلسي الثاني.

له مؤلّفات قيمة في أكثر العلوم الإسلاميّة أو جميعها من قبيل: الفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والفلسفة، والكلام، واللّغة، والأدب، والتاريخ، وغير ذلك من حقول المعرفة الإسلاميّة. من مؤلّفاته: **جامع المعارف والأحكام**، **مصباح الظلام في شرح مفاتيح شرائع الإسلام**، **جامع المقال في معرفة الرواة والرجال**، **الحق اليقين في**

(1) السيد عبد الله شبّر (ت 1242 هـ)، **الأخلاق**، تدقيق جواد شبر، ومقدّمة السيد محمّد القطيفي النجفي، نجف، مطبعة النعمان، 1383 هـ ـ 1963 م، ن + 297 ص، قطع وزيري.

أصول الدين، شرح نهج البلاغة، صفوة التفاسير، زينة المؤمنين وأخلاق المتّقين، نهج العارفين، منهج السالكين، صفاء القلوب، الدرر المنثورة والمواعظ المأثورة والأخلاق[1] .

يروي صاحب **الذريعة**[2] **أنّ كتاب الأخلاق** حسب التاريخ الوارد في نهاية الكتاب قد أُلّف عام 1225 هـ .

2و3 ـ النسخ والطبعات، أعمال ودراسات ذات صلة بالكتاب

طُبع الكتاب من قبل «مكتبة النعمان» في النجف الأشرف، ثم قامت «مكتبة بصيرتي» بطباعته على الأوفست في قم وذلك عام 1395 هـ، وفي عام 1415 هـ ترجم إلى اللغة الفارسيّة من قبل محمّد رضا جباران، وقامت دار «انتشارات هجرت» بطبعه.

4 ـ دائرة الموضوعات المبحوثة

مع الأخذ بعين الاعتبار الحجم الصغير للكتاب والمضمون القيّم الذي يتضمّنه، يمكن القول إنّ الكتاب قلّما نجد له نظيراً من حيث سعة دائرة الموضوعات التي يعالجها. فلم يُغَطّ موضوعات الأخلاق الفرديّة ـ من حيث الفضائل والرذائل والبحوث المرتبطة بها ـ فقط، بل تعدّى ذلك إلى بحث الكثير من المواضيع المرتبطة بأخلاق الأسرة والأخلاق الاجتماعيّة أيضاً. كما إنّ العناوين المرتبطة بأخلاق العبوديّة، سواء على

---

(1) آقا بزرگك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج 2، ص 777؛ السيّد عبد اللّه شبّر، مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار، مقدّمة السيد محمد صادق الصدر، الحق اليقين، المقدّمة.

(2) آقا بزرگ الطهراني، **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، ج 11، ص 44.

الصعيد الفردي أم على الصعيد غير الفردي، هي الأخرى تمّ عرضها بشكل جامع.

5 ـ هيكليّة الكتاب واستعراض البحوث الواردة فيه

في مدخل الكتاب أشار المؤلّف إلى شرف وضرورة تعلّم علم الأخلاق، ثم كتب يقول:

وتعلّم هذا الطبّ ـ أي الأخلاق ـ واجب عيني، وهذه أوراق قليلة حائزة لفوائد جليلة، قد اشتملت على زبدة هذا العلم الشريف، وجمعت خلاصة هذا الطبّ المنيف[1].

يقع الكتاب في ثلاثمائة صفحة تقريباً، ويشتمل على مقدّمة وأربعة أركان. تشغل المقدّمة عشر صفحات، ضمن ثلاثة فصول في مبادئ علم الأخلاق وهي: مدح حسن الخلق، وذم سوء الخلق، معنى الأخلاق وكيفية تهذيب الأخلاق، وإمكان التهذيب.

ويُعنى الركن الأول (ويشتمل على تسعة أبواب ويقع في 65 صفحة)، بشكل أساس بمباحث نظير: أسرار الطهارات وأجزاء الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الدعاء وقراءة القرآن الكريم. وأمّا الركن الثاني (ويشمل 13 باباً ويقع في حوالي 45 صفحة تقريباً)، فيختصّ بموضوع الحقوق؛ إذ يشمل العناوين التالية: حق الله على الإنسان، حق الأعضاء والجوارح، حق الوالدين والأولاد، حقوق الزوج والزوجة، حقوق الجيران، وحقوق الأصدقاء والأقارب. في الركن الثالث (ويضم 14 باباً

---

(1) الأخلاق، ص 4.

في ثمانين صفحة) يبحث المؤلّف المهلكات والأخلاق الإنسانيّة غير الحميدة، مؤكّداً على أهمّها وأعظمها خطراً. ومن البحوث التي عُولجت في هذا المضمار، نشير إلى العناوين التالية: شهوة البطن والفرج، اللسان، المال، الفقر، الجاه، الدنيا والآخرة، الغرور والتكبر، الغضب، الحقد والحسد والعجب والرياء. الركن الرابع (ويضمّ أربعة عشر باباً في 87 صفحة)، ويُعنى بدراسة أهمّ الأسباب والصفات الإنسانيّة الحميدة وأكثرها محورية في شخصيّة الإنسان، ويتناول المُنجيات من الخصال ضمن مباحث من قبيل: التوبة، الصبر، الرضا، الشكر، الخوف والرجاء، الزهد، المحبة والأنس، اليقين، التوكّل، الصدق، المحاسبة والمراقبة، التفكّر والتدبّر، ذكر الموت، وقصر الآمال، والأماني أو طولها.

والملاحظ أنّ حجم بحوث الكتاب تتغيّر من موضوع إلى آخر، تبعاً إلى أهميّة الموضوع وحاجة المخاطبين، بحيث لا تكون مختصرة وقليلة الفائدة، ولا مطوّلة ومملّة. والمحصّلة، أنّ القارئ في الموارد التي تكون فيها حاجته أكبر، يستقبل معلومات أكثر. وبقي أن نقول إنّ ترتيب الأركان بالنحو المذكور في الكتاب، في ما يوحيه من نسبة بعض الأركان إلى بعضها الآخر، لا يبدو مناسباً ولا مقبولاً. وربما كان من الأفضل أن تقدّم بحوث المهلكات والمنجيات ومن ثم يُصار إلى الحديث عن أسرار العبادات والحقوق.

6 ـ منهجيّة الكتاب

يعتمد المؤلّف، في تدعيم طروحاته ومعالجاته وبرهنتها، المنهج التركيبيّ، بمعنى أنه حرص على أن يفيد من إمكانيّات المناهج الثلاثة معاً

ـ أي الفلسفيّ والعرفانيّ والنقليّ ـ وامتيازاتهم في تدعيم ما يقرّره من أفكار وبرهنته. وإلى جانب ذلك، لم يغفل العناصر المرتبطة بالجانب العاطفي والإقناعي. وفي الجانب التربوي أيضاً، حرص على الإفادة من الأساليب التربويّة ذات الطابع المعرفي أكثر من الأساليب التربوية ذات الطابعه العملي والسلوكي. ففي طرحه لأيّ موضوع من الموضوعات، يشرع ببيان ماهيّة ذلك الموضوع وحقيقته، وبيان تقسيماته. بعد ذلك يصير إلى إيضاح نقاط الإبهام والغموض فيه. والملاحظ أنه في جميع مراحل البحث يعتمد المؤلّف لغة الدليل والحجة مع التأكيد على الآيات القرآنية والروايات. وهذا الأمر هو الذي أدّى إلى أن يصنّف الكتاب ضمن قسم خاص من التراث التوفيقيّ الأخلاقيّ، وهو القسم الذي يكون فيه الطابع النقليّ والروائيّ هو الآكد والأكثر حضوراً. أضف إلى ذلك، فإنّ المنحى الذي سلكه المؤلّف ـ في دراسته للأخلاق الإسلاميّة ـ ذو طابع شمولي وجامع، إذ لم يكتف ـ في تعاطيه مع الأخلاق ـ بالنظرة الفرديّة بل أفاد أيضاً من المنظور الاجتماعي، ومن معطيات علم الاجتماع في هذا المضمار.

7 ـ أدبيّات الكتاب

يمتاز المؤلّف بقلم سلس وأسلوب واضح. وعلى الرغم من أنّ «النقل» شغل مساحة كبيرة من الكتاب؛ إذ كانت لروايات أهل البيت وخصوصاً روايات مصباح الشريعة، المجال الأكبر فيها ـ وتأتي الاستخلاصات من كتابي **إحياء العلوم** للغزالي و**جامع السعادات** للنراقي في المرتبة الثانية ـ، إلّا أنّ الجهد الذي بذله المؤلّف في استخدام المفردات والعبارات بالشكل المناسب بعيداً عن الإفراط والتفريط،

واضح ومشهود بالنسبة إلى القارئ. وإذا أردنا أن نرصد حجم النقل ـ في الكتاب ـ بلغة الإحصاء نقول: إنّ الروايات تشغل الحيّز الأكبر من المنقولات، وفي المرتبة الثانية الآيات والحكايات، وفي المرتبة الثالثة الأشعار. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المؤلّف في موارد كثيرة أفاد من تمثيلات جميلة ومناسبة لتفهيم القارئ. وبالنسبة إلى النظم الذي يعتمده الكتاب، من حيث ترتيب الأبواب المندرجة تحت الأركان الأربعة للكتاب، فهو لا بأس به ويمكن تبنّيه.

8 ـ التقييم النهائي

في نهاية المطاف، يمكن القول إنّ الكتاب في ضوء ما يحمله من مميزات، من قبيل صغر الحجم، والانسجام، والتناسق الموجود بين البحوث، وتغطيته لأهمّ العناوين المرتبطة بأخلاق العبوديّة والأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة وأخلاق الأسرة، يُعدّ كتاباً جيداً ونافعاً لعموم طلبة الجامعات ولمن يطلب التعرّف على دورة مختصرة في الأخلاق الإسلاميّة.

والكتاب، وإن تضمّن بعض الإشكالات التي أشرنا إلى بعضها في الحديث عن هيكليّته، لكن ينبغي أن لا نحيد عن جادة الإنصاف ولا نغفل الأسلوب الشيق والأدبيات الجميلة والمؤثّرة التي اشتمل عليها. وتجدر الإشارة إلى أنّ كتاباً من هذا القبيل وبهذا الحجم (حيث الفارق بينها وبين الكتب المفصّلة في علم الأخلاق ـ نظير **إحياء العلوم** و**المحجة البيضاء** وحتى **جامع السعادات** ـ كبير من هذه الناحية)، ليس من المعقول أن نتوخّى منه أكثر من أن يتناول في كلّ موضوع أهمّ العناوين والنقاط الرئيسة، أمّا التفصيل الأكثر فلا بدّ من إيكاله إلى الكتب الأكثر تفصيلاً، أو الكتب التى تُعنى ببحث موضوعات أخلاقيّة بشكل مستقلّ وتخصّصيّ.

قائمة بعدد من مصادر الأخلاق التوفيقيّة

1 ـ **رياضة النفس**، محمد علي بن الحسن، المشهور بالحكيم الترمذي (المتوفّى بعد عام 318 هـ).

2 ـ **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسيّ (ت 456 هـ).

3 ـ **رسالة في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق والزهد في الرذائل**، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت 456 هـ).

4 ـ **خلق الإنسان**، شهاب الدين محمود النيسابوري (ق 5 هـ).

5 ـ **أحوال المودّات ومراعاة المحبّات**، الراغب الأصفهاني (ت 502 هـ).

6 ـ **الطبّ الروحاني**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597 هـ).

7 ـ **مكارم الأخلاق**، رضي الدين محمد النيسابوري (ت 598 هـ).

8 ـ **تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق**، محمود بن أحمد الفاريابي (ت 607 هـ).

9 ـ **أعمال القلوب**، ابن تيميّة (ت 728 هـ).

10 ـ **الزهد والورع**، ابن تيميّة (ت 728 هـ).

11 ـ **إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان**، ابن قيم الجوزيّة (ت 751 هـ).

12 ـ **محبة الله**، ابن قيّم الجوزيّة (ت 751 هـ).

13 ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن قيم الجوزيّة (ت 751 هـ).

14 ـ **الداء والدواء والروح**، ابن قيّم الجوزيّة (ت 751 هـ).

15 ـ **الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق**، سلام بن عبد الله الباهلي الأشبيلي (ت 839 هـ).

16 ـ **إرشاد العباد إلى سبيل الرشاد**، زين الدين بن عبد العزيز المليباري (قرن 10 هـ).

17 ـ **روضة الأنوار عباسي** (الباب الخامس) (بالفارسيّة)، محمّد باقر بن محمّد مون السبزواري (ت 1090 هـ).

18 ـ **مباحثة النفس**، محمّد الطاهري القمّي (ت 1098 هـ).

19 ـ **معالجة النفس**، محمّد الطاهري القمّي (ت 1098 هـ).

20 ـ **توضيح الأخلاق**، ابن خاتون العاملي (ق 11 هـ).

21 ـ **صلوح الإيمان**، محمّد كاظم بن محمّد علي السبزواري (ق 12 هـ).

22 ـ **نهج الرشاد لمن أراد السداد**، الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت 1373 هـ).

23 ـ **جمال الصالحين**، الحسن بن عبد الرزاق اللاهيجي.

قائمة بعدد من المصادر المعنيّة بأخلاق التعليم والتعلّم

1 ـ **الأدب الوجيز للولد الصغير**، عبدالله بن المقفّع (ت 145 هـ).

2 ـ **العالم والمتعلّم**، النعمان بن ثابت أبو حنيفة (برواية أبي مقاتل السمرقندي) (ت 150 هـ).

3 ـ **البيان والتبيين**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ).

4 ـ **ذم أخلاق الكُتّاب**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ).

5 ـ **آداب المعلّمين**، محمّد بن سحنون (ت 256 هـ).

6 ـ **العالم والمتعلّم**، محمّد بن عمر الترمذي البلخي (ت 280 هـ).

7 ـ **أدب الكتاب**، أبو بكر الصولي (ت 335 هـ).

8 ـ **أخلاق حَمَلة القرآن**، أبو بكر محمد بن حسين الآجري (ت 360 هـ).

9 ـ **أخلاق العلماء**، أبو بكر محمّد بن حسين الآجري (ت 360 هـ).

10 ـ **سياسة الصبيان وتدبيرهم**، أحمد بن إبراهيم بن الجزار القيرواني (ت 395 هـ).

11 ـ **الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين**، علي بن محمّد بن خلف القابسي (ت 403 هـ).

12 ـ **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت 463 هـ).

13 ـ **آداب العلم**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت 463 هـ).

14 ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، الخطيب البغدادي (ت 463هـ).

15 ـ **تقييد العلم**، الخطيب البغدادي (ت 463 هـ).

16 ـ **آدب الاملاء والاستملاء**، عبد الكريم السمعاني (ت 562 هـ).

17 ـ **حي بن يقظان**، محمّد بن الطفيل المغربي (ت 575 هـ).

18 ـ **تعليم المتعلّم لتعلّم طريق العلم**، برهان الدين الزرنوجي (كان حياً حتى عام 593 هـ).

19 ـ **وصايا ونصائح لطالب العلم**، عبد الرحمن ابن الجوزي (ت 597هـ).

20 ـ **كتاب آداب المتعلّمين**، نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي (ت 672 هـ).

21 ـ **التبيان في آداب حمله القرآن**، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676 هـ).

22 ـ **تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم**، بدر الدين ابن جماعة (ت 733 هـ).

23 ـ **معيد النعم ومبيد النقم**، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السُبْكي (ت 771 هـ).

24 ـ **اللؤلؤ النظيم في روم التعليم**، أبو يحيى زكريا الأنصاري (ت 926هـ).

25 ـ **منية المريد في أدب المفيد والمستفيد**، زين الدين العاملي، المعروف بالشهيد الثاني (ت 965 هـ).

26 ـ **المعيد في أدب المفيد والمستفيد**، عبد الباسط بن موسى بن محمّد العلموي (ت 981 هـ).

27 ـ **آداب المناظرة**، أحمد بن إسماعيل بن الشيخ عبد النبي بن سعد الجزائري (ت 1150 هـ).

28 ـ **سيرة المتعلّمين**، محمّد بن علي بن الشيخ أبي طالب الزاهدي الجيدرني (ت 1181 هـ).

29 ـ **آداب المتعلّمين**، محمّد بن سليمان التنكابني (ت 1310 هـ).

30 ـ **تربية المتعلّمين**، سيد أبو الحسن اللكنهوي (كان حيّاً حوالي عام 1271 هـ، في الهند).

قائمة بعدد من كتب الأخلاق السياسيّة والسلطانيّة

1 ـ **في نصيحة وليّ العهد**، عبد الحميد الكاتب (ت 132 هـ).

2 ـ **سِيَر الملوك**، ابن المقفع (ت 142 هـ).

3 ـ **التاج في أخلاق الملوك**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ).

4 ـ **سلوك المالك في تدبير الممالك**، أبو العباس أحمد بن محمّد بن أبي ربيع (ت 272 هـ).

5 ـ **رسالة في السياسة الملوكيّة**، عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين (ت 300 هـ).

6 ـ **تقويم السياسة الملوكيّة**، الفارابي (ت 339 هـ).

7 ـ (كتاب) **الوزراء**، الصاحب بن عبّاد (ت 385 هـ).

8 ـ **رُسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة**، الحسين بن محمّد، المعروف بابن الفراء (ق 4 هـ).

9 ـ **التدبير في سياسة الملوك**، الخطيب الإسكافي (ت 421 هـ).

10 ـ **رُسوم دار الخلافة**، هلال بن المحسن الصابي (ت 448 هـ).

11 ـ **دور السلوك في سياسة الملوك**، الماوردي (ت 450 هـ).

12 ـ **الأحكام السلطانية**، الماوردي (ت 450 هـ).

13 ـ **الأحكام السلطانية**، القاضي أبو يعلى الفراء الحنبلي (ت 458 هـ).

14 ـ **الوزراء والكتّاب**، علي بن هبة الله المعروف بابن ماكولا (ت 475هـ).

15 ـ **سير الملوك**، الحسن بن علي خواجه نظام الملك (485 ـ 408 هـ).

16 ـ **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**، أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ).

17 ـ **تهذيب الداعي في إصلاح الرعيّة والراعي**، شيث بن إبراهيم العبادي (ت 559 هـ).

18 ـ **أدب الوزراء**، أحمد بن جعفر بن شاذان (ت 621 هـ).

19 ـ **أساس السياسة**، علي بن ظاهر الأزدي (ت 623 هـ).

20 ـ **العمدة في أصول السياسة**، موفق الدين لطيف البغدادي (ت 629هـ).

21 ـ **أساس السياسة**، القفطي (ت 646 هـ).

22 ـ **كنز الملوك في كيفيّة السلوك**، سبط بن الجوزي (ت 654 هـ).

23 ـ **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ابن الطقطقي (تأليف 701 هـ).

24 ـ **بذل النصائح الشرعيّة فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعيّة**، أحمد بن محمّد بن علي بن الرافعة، «محتسب القاهرة» (ت 710 هـ).

25 ـ **السياسة الشرعيّة في أحكام السلطان الراعي والرعيّة**، أحمد بن تيميّة (ت 728 هـ).

26 ـ **السياسة العادلة والولاية الصالحة**، أحمد بن تيميّة (ت 728 هـ).

27 ـ **تحفة الترك في ما يجب أن يعمل في الملك**، قاضي القضاة إبراهيم بن علي بن محمّد الطرسوسي (ت 757 هـ).

28 ـ **بستان الدول**، لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 هـ).

29 ـ **الإشارة إلى آداب الوزارة**، لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 هـ).

30 ـ **الشهب اللاّمعة في السياسة النافعة**، عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي الفاسي (ت 784 هـ).

31 ـ **الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، صارم الدين إبراهيم بن محمّد بن دقماق (ت 809 هـ).

32 ـ **تحفة الحكام في نقض العهود والأحكام**، محمّد بن محمّد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي (أُلّف عام 835 هـ).

33 ـ **الدرّة الغرّاء في نصائح الملوك والولاة والوزراء**، محمود بن إسماعيل الجيزي (ت 845 هـ).

34 ـ **الإبريز المسبوك في كيفية آداب الملوك**، محمّد بن علي الأصبحي (ت 883 هـ).

35 ـ **بدائع السلك في طبائع المُلك**، أبو عبد الله بن الأزرق (ت 896هـ).

36 ـ **آداب الملوك**، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).

37 ـ **إيضاح السلوك ونزهة الملوك**، محمّد بن يوسف الباعوني الدمشقي (ت 916 هـ).

38 ـ **سلوك الملوك**، فضل بن روزبهان (ت 925 هـ).

39 ـ **النصائح المهمّة للملوك والأئمة**، علوان بن علي بن عطية الحموي الشافعي (ت 936 هـ).

40 ـ **الجواهر السنّية في أحكام السلطانيّة**، زين العابدين الحدادي المناوي (ت 1022 هـ).

41 ـ **ميزان الملوك والطوائف وصراط المستقيم في سلوك الخلائف**، سيد جعفر الدارابي الكشفي (1191 ـ 1267 هـ).

42 ـ **آداب السياسة بالعدل**، مبارك بن خليل الخازندار البديري الموصلّي.

قائمة بعدد من كتب المواعظ والنصائح

1 ـ **المحاسن والأضداد**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255 هـ)

2 ـ **البخلاء**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255 هـ).

3 ـ **المحاسن والمساوي**، الشيخ إبراهيم بن محمّد البيهقي (ت 320هـ).

4 ـ **پندنامه ماتريدي** (بالفارسية)، أبو منصور الماتريدي السمرقندي (ت 333 هـ).

5 ـ **الأخلاق**، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت 352 هـ).

6 ـ **الفرج بعد الشدّة**، التنوخي (ت 384 هـ).

7 ـ **مرزبان نامه**، (بالفارسيّة)، مرزبان بن رستم بن شروين (نهايات القرن الرابع الهجري).

8 ـ **الكلم الروحانيّة**، ابن هندو (ت 410 أو 420 هـ).

9 ـ **الحكمة الخالدة**، أبو علي مسكويه (ت 421 هـ).

10 ـ **رسالة العهد**، ابن سينا (ت 428 هـ).

11 ـ **النصيحة لبعض الإخوان**، منسوب إلى ابن سينا (ت 428 هـ).

12 ـ **ظفرنامه** (بالفارسيّة)، منسوب إلى الشيخ الرئيس ابن سينا (ت 428هـ).

13 ـ **شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب الشرعيّة**، أبو عبد الله محمّد القضاعي (ت 454 هـ).

14 ـ **قابوس نامه** (بالفارسيّة) عنصر المعالي كيكاووس بن اسكندر (ت 462 هـ).

15 ـ **زاد المسافر وجامع الحكمتين** (بالفارسيّة) ناصر خسرو قبادياني (ت 481 هـ).

16 ـ **نصيحت نامه خواجه عبد الله انصاري به نظام الملك** (بالفارسيّة)، پير هرات (ت 481 هـ).

17 ـ **أيها الولد**، الغزالي (ت 505 هـ).

18 ـ **حديقة الحقيقة**، السنائي الغزنوي (ت 525 هـ).

19 ـ **كليلة ودمنة**، نصر الله المنشي (بين 583 ـ 555 هـ).

20 ـ **پند نامه عطار** (بالفارسيّة)، عطار نيشابوري (ت 586 هـ).

21 ـ **بستان الواعظين**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت 597 هـ).

22 ـ **تلبيس إبليس**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597 هـ).

23 ـ **صيد الخاطر**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597 هـ).

24 ـ **ذمّ الهوى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597 هـ).

25 ـ **المدهش**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597هـ).

26 ـ **مكارم الأخلاق** (بالفارسيّة)، رضي الدين أبو جعفر محمّد النيشابوري (ت 598 هـ).

27 ـ **عيون الحكم والمواعظ وذخيرة المتعظ والواعظ**، علي بن محمّد بن شاكر الليثي الواسطي (ق 6).

28 ـ **بدايع المُلَح**، أبو مجد قاسم بن حسين الطرائفي الخوارزمي (صدرالأفاضل)، (ت 617 هـ).

29 ـ **طبيب القلوب**، محمّد بن محمّد بن علي الفروي الحريمي، (تاريخ الوفاة مجهول).

30 ـ **خردنامه جان افروز** (بالفارسيّة)، أبو الفضل يوسف بن علي المستوفي (تاريخ الوفاة مجهول).

31 ـ **شجون المسجون وفنون المفتون**، محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ).

32 ـ **أخلاق محتشمي** (بالفارسيّة)، الخواجة نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ).

33 ـ **گشايش نامه** (بالفارسيّة)، منسوب إلى الخواجة نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ).

34 ـ **گلستان** (بالفارسيّة)، مصلح الدين السعدي (ت 691 أو 694 هـ).

35 ـ **بريد السعادة**، محمّد بن غازي الملطيَوي (ق 7 هـ).

36 ـ **جوامع الحكايات ولوامع الروايات**، سديد الدين محمّد بن محمّد العوفي (ق 7 هـ).

37 ـ **تحفة الملوك ونصيحة العجائب**، علي بن أبي حفص الاصفهاني (ق 7 هـ).

38 ـ **بِلَوهَر وبيوذَسف** (بالفارسيّة)، علي بن محمّد نظام تبريزي (ت 801هـ).

39 ـ **ينبوع الأسرار في نصائح الأبرار**، كمال الدين حسين الخوارزمي (تأليف 832 هـ).

40 ـ بهارستان (بالفارسيّة)، عبد الرحمن الجامعي (ت 898 هـ).

41 ـ **نزهة المجالس**، عبد الرحمن بن عبد السلام الصافوري الشافعي (ق 9 هـ).

42 ـ **تنبيه المغترين**، عبد الوهاب الشعراني (ت 973 هـ).

43 ـ **نور الحقيقة ونور الحديقة في علم الأخلاق**، حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي (ت 985 هـ).

44 ـ **نصيحة المتشرّعين**، السلطان حسين بن سلطان محمّد الاسترآبادي (ت 1078 هـ).

45 ـ **زاد السالك**، الملاّ محسن الفيض الكاشاني (ت 1091 هـ).

46 ـ **مواعظ** (بالفارسيّة)، ملاّ محمّد علي بادشاه كشميري (ت 1229هـ).

47 ـ **المواعظ البالغة**، الميرزا محمّد بن عبد الوهاب الهمداني (ت 1303هـ).

48 ـ **المواعظ**، علم الهدى الكاشاني (تاريخ الوفاة مجهول).

49 ـ **مختار الحِكَم**، ابن مالك (تاريخ الوفاة مجهول).

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ الآمدي التميمي، عبد الواحد بن محمد، **تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم**، تحقيق: مصطفى درايتي، مكتب الإعلام الإسلامى، قم، د.ت.

2 ـ ـــــ ـــــ، **غرر الحكم ودرر الكلم**، تحقيق: مير سيّد جلال الدين محدث ارموي، انتشارات دانشگاه تهران، تهران 1260.

3 ـ إبن أبي الأصيبعة، موفق الدين أحمد بن قاسم، **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1965 م.

4 ـ ـــــ ـــــ، تحقيق: السعدي الخزرجي، دار الفكر، بيروت 1377 هـ.

5 ـ ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد، **موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا وآخرون، مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت 1414 هـ.

6 ـ ابن أبي الفراس، ورّام، **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر**، دار الكتب الإسلاميّة، تهران، د.ت.

7 ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، **صيد الخاطر**، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت 1414 هـ.

8 ـ ـــــ ـــــ، **ذم الهوى**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، [بى جا] 1381 هـ.

9 ـ ـــــ ـــــ، **الطبّ الروحاني**، مكتبة القرآن، القاهرة، د.ت.

10 ـ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **لسان الميزان**، بيروت 1406 هـ.

11 ـ ابن خلدون، **مقدّمة ابن خلدون**، دار الشعب، القاهرة 1973م.

12 ـ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان**، منشورات الشريف الرّضي، قم 1364 هـ. ش.

13 ـ ـــــ ـــــ، تحقيق: محمد عبد الرحمن مرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت 1417 هـ.

14 ـ ـــــ ـــــ، تحقيق: إحسان عباس، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1997م.

15 ـ ابن سينا، حسين بن عبد الله، **الإشارات والتنبيهات**، تحقيق: مجتبى زارعي، بوستان كتاب، قم 1381 ـ

16 ـ ابن طاووس، علي بن موسى، **الأمان من أخطار الأسفار والأزمان**، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، قم 1409 هـ.

17 ـ ابن عربي، محيي الدين، **فصوص الحكم**، تحقيق: أبو العلاء العفيفي، بيروت 1400 هـ.

18 ـ ـــــ ـــــ، **الفتوحات المكّية**، تحقيق: عثمان يحيى، القاهرة 1405 هـ.

19 ـ ـــــ ـــــ، **الأخلاق**، مكتبة عالم الفكر، د.ت.

20 ـ ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري**، تحقيق: دكتر أحمد حجازي السقاء، دارالجيل، بيروت 1416 هـ.

21 ـ ابن عماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، دار الفكر، بيروت، د.ت.

22 ـ ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، المكتبة الثقافيّة، بيروت 1409 هـ.

23 ـ ابن ماجه، محمد بن يزيد، **سُنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1395 هـ.

24 ـ ابن النديم، محمد بن اسحاق، **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدّد، 1350 هـ. ش.

25 ـ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، **تاريخ ابن الوردي**، دار الكتب العلميّة، بيروت 1417 هـ.

26 ـ ابن هيثم، **كتاب المناظر**، تحقيق: عبد الحميد صبره، الكويت 1983 م.

27 ـ أبو داوود، سليمان بن أشعث السجستاني، **سنن أبي داوود**، إعداد وتعليق: عزّت عبيد الدعاس، دار الحديث، سورية 1969م.

28 ـ أرسطو، **أخلاق نيكوماخوس**، ترجمه محمد حسن لطفي، نشر طرح نو، تهران، 1387 ـ

29 ـ أركون، محمد، **نزعة الأنسنة فى الفكر العربي**، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت 1997م.

30 ـ الإسكندري، ابن عطاء الله، **لطائف المنن**، تحقيق: عبد الحليم محمود، قاهرة 1974م.

31 ـ الأسنوي، عبد الرحيم، **طبقات الشافعية**، دار الكتب العلميّة، بيروت 1407 هـ.

32 ـ افشاری، مهران؛ مدائنى، مهدى، **چهارده رساله در باب فتوت واصناف آن**، نشر چشمه، تهران 1381 هـ. ش.

33 ـ أفلاطون، **مجموعه آثار أفلاطون**، ترجمة: محمد حسن لطفي، نشر خوارزمي، تهران 1380 هـ. ش.

34 ـ الأفندي، عبد الله بن عيسى بيگ، **رياض العلماء وحياض الفضلاء**، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة الخيام، قم 1401 هـ.

35 ـ الأنصاري، خواجه عبد اللّه، **منازل السائرين**، مقدّمه وإعداد: علي الشيرواني، مؤسسة دار العلم، قم 1417 هـ.

36 ـ الباخزري، يحيى، **أوراد الأحباب وفصوص الآداب**، تحقيق: إيرج الأفشار، تهران 1345ه. ش.

37 ـ ابن سبعين، **بُدّ العارف**، تحقيق وتقديم: جورج كتّورة، دار الأندلس ودارالكندي، بيروت 1978م.

38 ـ البخاري، محمد بن اسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت 1993م.

39 ـ ـــــ ـــــ، **الأدب المفرد**، ترتيب وتقديم: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت 1405 هـ.

40 ـ البدوي، عبد الرحمن، **مؤلّفات الغزالي**، وكالة المطبوعات، الكويت 1977م.

41 ـ برازش، علي رضا، **المعجم المفهرس لألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم**، انتشارات أمير كبير، تهران 1371 هـ. ش.

42 ـ البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، **المحاسن**، تحقيق: السيد مهدي الرجايي، قم، المجمع العالمي لأهل البيت (ع)، 1416 هـ.

43 ـ البروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلاميّة، قم، د.ت.

44 ـ البغدادي، الخطيب، **تاريخ مدينه السّلام**، تحقيق: بشّار عوّاد معروف، دار المغرب الإسلامى، بيروت 1422 هـ.

45 ـ بهار، محمد تقي، **سبك شناسى، كتاب هاى پرستو**، تهران 1355 هـ. ش.

46 ـ بيرشك، أحمد، **خلاصه زندگى نامه علمى دانشمندان**، انتشارات علمى وفرهنگى، تهران 1374 هـ. ش.

47 ـ بيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد، **فهرست كتاب هاى رازى**، تصحيح وتعليق وترجمة: مهدي محقق، انتشارات دانشگاه تهران، تهران 1371 هـ. ش.

48 ـ البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين، **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت 1417 هـ.

49 ـ ـــــ ـــــ، **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد ابن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت 1410 هـ.

50 ـ البيهقي، أبوالحسن علي، **تتمّة صوان الحكمة**، د.ت.

51 ـ البيهقي، ظهير الدين، **تاريخ حكماء الإسلام**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1417 هـ.

52 ـ باشا البغدادي، إسماعيل، **هديّة العارفين**، دار الكتب، بيروت 1413 هـ.

53 ـ پورجوادى، نصر الله، **مجموعه آثار أبو عبد الرحمن سلمى**، مركز نشر دانشگاهى، تهران 1369 ـ

54 ـ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .

55 ـ التكريتي، ناجي، **الفلسفة الأخلاقيّة عند مفكري الإسلام**، بغداد، د.ت.

56 ـ ـــــ ـــــ، **الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1987م.

57 ـ التميمي السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور، **الأنساب**، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الكتب العلميّة، دار الجنان، بيروت 1408 هـ.

58 ـ التوحيدي، أبو حيان، **الإمتاع والمؤانسة**، تصحيح: أحمد أمين، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت.

59 ـ آقا بزرگ، **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، كتابخانه اسلاميه، تهران 1357 هـ ش.

60 ـ الجابري، محمد عابد، **العقل الأخلاقي العربي**، ج 1، المركز الثقافي العربي، مراكش، 2001م.

61 ـ **بهداشت روانى**، (ترجمة الطبّ الروحانى للرازى) تقديم: عبد الكريم وآزار الشيرازي، انتشارات سازمان انجمن اوليا ومربيان، تهران 1379 هـ ش.

62 ـ جمعى از نويسندگان، **دائرة المعارف بزرگ إسلامى**، زير نظر كاظم موسوى بجنوردى، مركز دائره المعارف بزرگ إسلامى، تهران 1372 هـ ش.

63 ـ جمعى از نويسندگان، **دايرة المعارف تشيع**، زير نظر: أحمد صدر حاج سيد جوادى وديگران، نشر شهيد محبى، تهران 1367 هـ ش.

64 ـ الجَندي، مؤيد الدين، **نفخة الروح وتحفة الفتوح**، تحقيق: نجيب مايل هروي، تهران 1363 هـ ش.

65 ـ الچلبي، ملا كاتب (حاجي خليفة)، **كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر، بيروت، 1402 هـ.

66 ـ الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، **وسائل الشيعة**، تحقيق: مؤسسة آل البيت، قم 1409 هـ.

67 ـ حسين بن سعيد الأهوازي الكوفي، **الزهد**، تحقيق: غلام رضا عرفانيان، قم 1402 هـ.

68 ـ حلبي، علي أصغر، **مبانى عرفانى واحوال عارفان**، اساطير، تهران، 1376

69 ـ الحنبلي، محمد بن معمار، **كتاب الفتوة**، تقديم: مصطفى جواد وآخرون، بغداد 1958م.

70 ـ الخطيبي زوزني، محمد بن علي، **تاريخ الحكماء**، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسّسه الخانجي بمصر، د.ت.

71 ـ خوانساري، جمال الدين محمد، **شرح غرر الحكم ودرر الكلم**، تقديم: مير جلال الدين حسينى الأرموى، انتشارات دانشگاه تهران، تهران، ، د.ت.

72 ـ دانش پژوه، محمد تقى وايرج افشار (تحقيق)، **مجمل الحكمة**، پژوهشگاه علوم انسانى ومطالعات فرهنگى، تهران 1375 هـ ش.

73 ـ الديلمي، أبو محمد حسن، **إرشاد القلوب**، مطبعة حيدريّة، النجف الأشرف 1374 هـ.

74 ـ الذهبي، شمس الدين محمد، **تاريخ الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت 1413 هـ.

75 ـ ـــــ ـــــ، **تذكرة الحفاظ**، تصحيح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ت.

76 ـ ـــــ ـــــ، **سِير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت 1414 هـ.

77 ـ الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، **المنصوري في الطب**، تحقيق: حازم البكري الصديقي، المنظمة العربيّة والثقافيّة والعلوم، الكويت 1408 هـ.

78 ـ ـــــ ـــــ، **السيرة الفلسفيّة**، تصحيح وتقديم: پول كراوس، ترجمه: عباس إقبال، انتشارات وآموزش انقلاب إسلامى، تهران 1371 هـ. ش.

79 ـ ـــــ ـــــ، **الرسائل الفلسفيّة**، جمع وتصحيح: پول كراوس، مصر، مطبعة بول باربيه، القاهرة [بى تا].

80 ـ ـــــ ـــــ، **الطبّ الروحاني**، باهتمام: مهدي المحقّق، انتشارات مؤسسة مطالعات اسلامى دانشگاه تهران ـ دانشگاه ماك جيل، تهران 1378 هـ. ش.

81 ـ الرازي، أحمد بن حمدان أبو حاتم، **أعلام النبوة**، انتشارات انجمن شاهنشاهى فلسفة ايران، تهران 1356 هـ ش.

82 ـ الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، منشورات الشريف الرضى، قم 1414 هـ.

83 ـ رسولي محلاتي، السيد هاشم، **ترجمه وتنظيم موضوعى الفبايى غرر الحكم**، دفتر نشر فرهنگ إسلامى، تهران 1378 هـ ش.

84 ـ الرفاعي، عبد الجبار، **معجم المطبوعات العربيّة فى ايران**، مؤسّسة الطباعة والنشر، 1414 هـ.

85 ـ رياض، محمد، **أحوال وآثار وأشعار مير سيد علي همداني**، مركز تحقيقات فارسى ايران وپاكستان، 1364 هـ. ش.

86 ـ الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى، **إتحاف السادة المتقّين بشرح إحياء علوم الدين، مع «الإملاء عن إشكالات الإحياء»**، دار الفكر، بيروت، د.ت.

87 ـ ـــــ ـــــ، **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار الفكر، بيروت 1994م.

88 ـ الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت 1992 م.

89 ـ زرين كوب، عبد الحسين، **جستجو در تصوف ايران**، انتشارات امير كبير، تهران 1367 هـ. ش.

90 ـ السبزواري، محمد بن محمد، **جامع الأخبار أو معارج اليقين فى أصول الدين**، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، قم 1414 هـ.

91 ـ السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، **طبقات الشافعيّة الكبرى**، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

92 ـ ـــــ ـــــ، **طبقات الشافعيّة الكبرى**، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د.ت.

93 ـ سجادى، سيد ضياء الدين، **مقدمه اى بر مبانى عرفان وتصوف**، انتشارات سمت، تهران 1372 هـ. ش.

94 ـ السرّاج الطوسي، أبو نصر عبد الله بن علي، **اللّمع فى التصوّف**، تحقيق وتصحيح: رنولد ألن نيكلسون، مطبعة بريل، ليدن 1914 م.

95 ـ السلمي، أبوعبد الرحمن، **طبقات الصوفيّة**، به تصحيح ومقدمه نور الدين شريبه، القاهرة 1969م.

96 ـ ـــــ ـــــ، **آداب الصحبة**، تحقيق وتعليق: يوسف علي البديوي، دار مكتبة التربية، بيروت 1410 هـ.

97 ـ السمرقندي، نصر بن محمد حنفي، **تنبيه الغافلين**، تحقيق وتعليق: يوسف علي البديوي، بيروت / دمشق، دار ابن كثير، 1995 م.

98 ـ سمعاني، عبد الكريم بن محمد، **الأنساب**، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت 1419 هـ.

99 ـ سهروردي، أبو جعفر عمر بن محمد، **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء**، (مع إحياء العلوم)، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت 1977م.

100ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **طبقات المفسّرين**، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ت.

101ـ ـــــ ـــــ، **بغية الوعاة فى طبقات اللّغويين والنحّاة**، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

102ـ شبّر، السيد عبد الله، **الأخلاق**، تدقيق: جواد شبر وتقديم: سيد محمد القطيفي النجفي، مطبعة النعمان، النجف 1383 هـ.

103ـ شريف، ميان محمد، **تاريخ فلسفه در إسلام**، ترجمه فارسى زير نظر: نصر الله پورجوادى، مركز نشر دانشگاهى، تهران 1365

104ـ الشهرزوري، شمس الدين محمد بن محمود، **نزهة الأرواح وروضة الأفراح**، ترجمة: مقصود علي تبريزي، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، تهران 1365 هـ. ش.

105ـ صابر عبده، أبا زيد محمد، **فكرة الزمان عند إخوان الصفا**، مكتبة مدبولي، القاهرة 1999م.

106ـ الصدر، السيد حسن، **تأسيس الشيعة**، منشورات الأعلمي، تهران، د.ت.

107ـ الصدوق، محمد بن علي بن حسين بن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، دار الكتب الإسلامية، تهران، د.ت.

108ـ ــــــ، **مصادقة الإخوان**، ترجمة: محمد تقي دانش پژوه (آيين دوستى وبرادرى در مكتب إسلام) وتقديم: سعيد نفيسى، انتشارات تشيّع، تهران، د.ت.

109ـ صرّاف، مرتضى (تصحيح ومقدّمه)، **رسايل جوانمردان**، با مقدمه وخلاصه فرانسوى از هنرى كربن، انجمن ايرانشناسى فرانسه وشركت انتشارات معين، تهران 1370 هـ. ش.

110ـ صفا، ذبيح اللّه، **تاريخ علوم عقلى در تمدن إسلامى**، انتشارات دانشگاه تهران، تهران 1336 هـ. ش.

111ـ ــــــ، **تاريخ ادبيات در ايران**، انتشارات فردوسى، تهران 1366 هـ. ش.

112ـ الصفَدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، بإشراف: هلموت ريتر، د.ت. [بى نا].

113ـ الطبرسي، أبو الفضل علي، **مشكاة الأنوار في غرر الأخبار**، دار الكتب الإسلاميّة، قم 1385 هـ.

114ـ الطبرسي، حسن بن فضل، **مكارم الأخلاق**، تصحيح وتعليق: سيد علاء الدين العلوي الطالقاني، دار الكتب الإسلامية، تهران 1376 هـ.

115ـ الطوسي، نصير الدين، **أخلاق محتشمى**، به اهتمام: محمد تقى دانش پژوه، انتشارات دانشگاه تهران، تهران 1361 هـ. ش.

116ـ ـــــ ـــــ، **أخلاق ناصري**، تصحيح وتنقيح ومقدّمة: مجتبى مينوي وعلي رضا حيدري، شركت سهامى انتشارات خوارزمى، تهران 1356 هـ. ش.

117ـ ـــــ ـــــ، **أوصاف الأشراف**، تصحيح وتوضيح: نجيب مايل الهروى به انضمام هفت بند حلاج ووصاياى عبد الخالق غجدوانى، انتشارات امام، مشهد، د.ت.

118ـ ـــــ ـــــ، **رساله سير وسلوك**، مجموعة رسائل، انتشارات دانشگاه، تهران، د.ت.

119ـ العامرى النيسابورى، محمد بن يوسف، **السعادة والإسعاد فى السيرة الإنسانية**، به كتابت ومقدّمه مجتبى مينوى، انتشارات دانشگاه تهران، تهران 1366 هـ. ش.

120ـ عبد الله بن مبارك المروزي، **كتاب الزّهد**، دار ابن خلدون، مصر، د.ت.

121ـ جمع نويسندگان، **إخوان الصفا**، تحقيق: عبد النور، جبّور، دار المعارف، مصر 1961م.

122ـ عثمان يحيى، **مؤلّفات ابن عربي**، ترجمه: أحمد محمد الطيب، دار الهداية، 1992 م.

123ـ العراقي، زين الدين أبي الفضل، **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار**، مطبوع منضماً إلى إحياء العلوم، د.ت.

124ـ عزّ بن عبد السلام، **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق 1416 هـ.

125ـ العفيفى، أبو العلاء، **ملامتيه، صوفيه وفتوت**، ترجمه: دكتر نصرت الله فروهر، انتشارات إلهام، تهران 1376 هـ. ش.

126ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **المنقذ من الضلال**، تحقيق: عبد الحليم محمود، بيروت 1394 هـ.

127ـ ـــــ ـــــ، **منهاج العابدين**، تحقيق وتعليق: موفّق فوزي الجبر، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق 1415 هـ.

128ـ ـــــ ـــــ، **ميزان العمل**، مقدّمة، تعليق وشرح: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1421 هـ.

129ـ ـــــ ـــــ، إحياء علوم الدين، (منضماً معه المغني عن حمل **الأسفار في**

الأسفار، وتعريف الأحياء بفضايل الإحياء، الإملاء عن إشكالات الإحياء، وعوارف المعارف)، دار الفكر، بيروت 1414 هـ.

130ـ الفارابي، محمد بن محمد بن طرخان، **إحصاء العلوم**، تصحيح: ع. أمين، دار الفكر العربي، القاهرة 1949م.

131ـ ــــ ــــ، **تحصيل السعادة**، الدكتور جعفر آل ياسين، دار الأندلس، بيروت 1403 هـ.

132ـ ــــ ــــ، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، الدكتور ألبير نصيري نادر، دار المشرق، بيروت 1991 م.

133ـ ــــ ــــ، **الفصول المنتزعة**، تقديم وتحقيق: فوزي متري نجّار، مكتبة الزهرا، تهران 1405 هـ.

134ـ ــــ ــــ، **السياسة المدنية**، تحقيق: فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت 1964 م.

135ـ ــــ ــــ، **الحروف**، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت 1990 م.

136ـ الفاخوري، حنا وخليل الجرّ، **تاريخ فلسفه در جهان إسلامى**، ترجمه: عبد المحمد آيتى، سازمان انتشارات وآموزش انقلاب إسلامى، تهران 1367 هـ. ش.

137ـ الفيض الكاشانى، الملاّ محمد محسن، **المحجّة البيضاء فى تهذيب الإحياء**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، تهران 1339 هـ. ش.

138ـ ــــ ــــ، **الحقايق فى محاسن الأخلاق**، تصحيح وتحقيق وتذييل: السيد إبراهيم ميانجى، كتابفروشى إسلاميّه، تهران 1378 هـ.

139ـ ــــ ــــ، **الوافي**، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (ع)، أصفهان 1406 هـ.

140ـ القزويني، عبد الكريم بن محمد يحيى، **نظم الغرر ونضد الدرر**، تحقيق: رسول جعفريان، كتاب خانه عمومى آيه الله مرعشى نجفى، قم 1371 هـ. ش.

141ـ القزويني، محمد حسن بن معصوم، **كشف الغطاء عن وجوه مراسم الاهتداء**، مؤتمر المولى مهدي النراقي، جامعة المدرسين، قم 1380 هـ. ش.

142ـ القشيرى، أبو القاسم، **رسالة قشيرية**، ترجمة: أبو علي حسن بن ألحمد

عثمانی، تصحیح واستدراك: بدیع الزمان فروزانفر، **شرکت انتشارات علمی وفرهنگی**، تهران 1379 هـ. ش.

143ـ القشيري النيشابوري، مسلم بن حجّاج، **صحيح مسلم**، **تحقيق: محمد فؤاد** عبد الباقي، دار الفكر، بيروت 1398 ـ

144ـ القفطي، علي بن يوسف، **تاريخ الحكماء**، تحقيق: ليپرت، **مكتبة المثنى**، بغداد، ، د.ت.

145ـ القمي، الشيخ عباس، **الكنى والألقاب**، كتاب خانه صدر، تهران 1368 هـ. ش.

146ـ الكاشاني، بابا أفضل الدين المرقي، **مصنّفات**، تحقيق: يحيى مهدوى ومجتبى مينوى، انتشارات تهران، تهران 1331 هـ. ش.

147ـ ـــــــ، **رباعيات**، تحقيق: سعيد نفيسى، تهران 1362 هـ. ش.

148ـ الكاشاني، كمال الدين عبد الرزاق، **تحفة الإخوان فى خصائص الفتيان**، مقدّمة وتصحيح وتعليق: سيد محمّد دامادى، شركت انتشارات علمى وفرهنگى، تهران 1369 هـ. ش.

149ـ كبرى زاده، طاش، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، دار الكتب العلميّة، بيروت 1405 هـ.

150.. ـــــــــ، **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

151ـ كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلّفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

152ـ ـــــــ، **معجم المؤلّفين**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414 هـ.

153ـ كديفر، محسن ونورى، محمد، **مأخذ شناسى علوم عقلى**، انتشارات اطلاعات، تهران، 1379 هـ. ش.

154ـ الكليني الرازي، محمد بن يعقوب، **الكافي**، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب االإسلاميّة، تهران، 1388 هـ.

155ـ كمپاني، فضل الله، **منتخب الغرر**، انتشارات مفيد، تهران 1362 هـ ش.

156ـ لطفي جمعة، محمد، **تاريخ فلاسفة الإسلام**، المكتبة العلميّة، بيروت 1345 هـ.

157ـ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق وتقديم: ياسين محمد سوّاس، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق 1415 هـ.

158ـ المتّقي الهندي، علاء الدين علي، **كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال**، تصحيح صفوة السّقا، مكتبة التراث الإسلامي، بيروت 1397 هـ.

159ـ مجتبوى، السيد جلال الدين، **علم أخلاق إسلامى**، ترجمة جامع السعادات، انتشارات حكمت، تهران 1367 هـ. ش.

160ـ المجلسي، محمد باقر، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمه الأطهار**، تحقيق: علي أكبر غفارى، مكتبه إسلامية، تهران 1375 هـ. ش.

161ـ المحاسبي، أبوعبد الله الحارث بن أسد، **الرعاية لحقوق الله**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، لا تاريخ.

162ـ ـــــ ـــــ، **التوبه**، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، لا تاريخ.

163ـ ـــــ ـــــ، **كتاب النصايح**، تحقيق: محمد عبد العزيز أحمد، مكتبة القرآن، القاهرة، لا تاريخ.

164ـ ـــــ ـــــ، **آداب النفوس**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مؤسّسة الكتب الثقافيّة، بيروت 1411 هـ.

165ـ محجوب، فاطمه، **الموسوعة الذهبيه للعلوم الإسلامية**، دار الغد العربي، القاهرة، د.ت.

166ـ محفوظ، حسين علي، آل ياسين جعفر، **مؤلّفات الفارابي**، مطبعة الأديب البغداديّة، بغداد 1975م.

167ـ محقّق، مهدى، **فيلسوف رى**، نشر نى، تهران 1368.

168ـ المحمدى الرى شهرى، محمد، **ميزان الحكمة**، دار الحديث، قم 1375

169ـ محمدى، مجيد، **نظام هاى أخلاق در إسلام وايران**، كوير، تهران 1379.

170ـ مدرس، محمد علي، **ريحانة الأدب فى تراجم المعروفين بالكنية واللقب**، كتابفروشى خيام، تهران 1369 هـ ش.

171ـ مدرس رضوى، محمد تقى، **أحوال وآثار نصير الدين**، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، تهران 1354 هـ. ش.

172ـ مسكويه الرازي، أبو علي، **جاودان خرد**، ترجمة: تقي الدين محمد ارجانى شوشترى، تصحيح بهروز ثروتيان، لا تاريخ [بى جا].

173ـ ــــــ، **تجارب الأمم**، تحقيق: أبو القاسم إمامي.

174ـ ــــــ، **الفوز الأصغر**، دار مكتبة الحياة، لا تاريخ [بى جا].

175ـ ــــــ، **الحكمة الخالدة** (جاودان خرد)، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، انتشارات دانشگاه تهران 1358 هـ. ش.

176ـ معلم حبيب آبادي، ميرزا محمد علي، **مكارم الآثار**، انتشارات كمال، أصفهان 1362 هـ. ش.

177ـ المكّي، أبو طالب، **قوت القلوب فى معاملة المحبوب**، تحقيق: سعيد نسيب مكارم، دار صادر، بيروت 1995م.

178ـ موسوي خوانساري، محمد باقر، **روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات**، تحقيق: أسد الله اسماعيليان، چاپخانه اسماعيليان، قم 1392 هـ.

179ـ ــــــ، **أعلام الدين فى صفات المؤمنين**، مؤسسة آل البيت، قم 1414 هـ.

180ـ النراقي، محمد مهدي، **جامع السعادات**، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد رضا مظفر، مطبعة الزهراء، نجف 1368 هـ.

181ـ النسائي، أحمد بن شعيب، **سنن النسائي**، شرح جلال الدين سيوطي وحاشية إمام السندي، دار الفكر، بيروت 1348 هـ.

182ـ نعمة، عبد الله، **فلاسفة الشيعة**، دار الكتاب الإسلامي، قم، لا تاريخ.

183ـ الهجويري، علي بن عثمان الجلاّبي، **كشف المحجوب**، تصحيح: فالنتين ژوكوفسكى، انتشارات امير كبير، تهران 1336 هـ. ش.

184ـ الهمداني، عين القضاة، **رسالة شكوى الغريب**، تحقيق: عفيف عسيران، بيروت 1382 هـ.

185ـ همداني، مولى عبد الصّمد، **بحر المعارف**، تحقيق وترجمة: حسين استادولى، انتشارات حكمت، تهران 1412 هـ.

186ـ يافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان**، تعليق خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت 1417 هـ.

187. Brookpop, jonathan, ed., *Islamic Ethics of Life: Abortion, war and Euthanasia,* Colombia Sc, 2003.

188. Cornell, Vincent, *From Shariah to Taqwa,* in: The Oxford History of Islam, 1999, pp 95-105.

189. Dalai Lama, *Ethics for the next Millenium*, New York, 1999.

190. Fukuyama, Francis, *Our Posthuman Future Consequences of Biotechnology Revolution,* New York, 2002.

191. R. Lerner and M. Mahdi, Meadeavil Political Philosophy, Toronto, The Free Press, 1963.

192. Salvatore, Armando and D. F. Eickelman, ed, *Public Islam and the Common good,* Leiden, 2004.

193. Amin Sajoo, *Muslim Ethics: Emerging Vistas,* I. B. Tauris in association with the Institute of Ismaili studies, 2004.